الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

٣

بسم الله الرحمن الرحیم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

آيت الله ناصرمكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابى طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل المجلد ۳

اشاره

سرشناسه : مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور : الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل/ تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست : [ویرایش]۲

مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ج ۲۰

شابک : ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۰(ج.۱۰) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱(ج.۱۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۲(ج.۱۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۳(ج.۱۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت : کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت : کتابنامه

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره : BP۹۸/م ۷ت ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی : م ۷۹-۱۰۳۹۱

ص: ۱

اشاره

[تتمه سوره آل عمران]

اشاره

الآيات [سوره آل عمران (۳): الآيات ۱۷۲ الى ۱۷۴]

اشاره

اَلَّذِينَ اِسْتَجٰابُوا لِلّٰهِ وَ اَلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مٰا أَصٰابَهُمُ اَلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اِتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (۱۷۲) اَلَّذِينَ قٰالَ لَهُمُ اَلنّٰاسُ إِنَّ اَلنّٰاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزٰادَهُمْ إِيمٰاناً وَ قٰالُوا حَسْبُنَا اَللّٰهُ وَ نِعْمَ اَلْوَكِيلُ (۱۷۳) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اَللّٰهِ وَ فَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَ اِتَّبَعُوا رِضْوٰانَ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (۱۷۴)

التفسير

اشاره

غزوه حمراء الأسد:

قلنا أن جيش أبى سفيان المنتصر أسرع بعد انتصاره فى معركه«أحد»على الجيش الإسلامى يغذ السير فى طريق العوده إلى مكّه حتى إذا بلغ أرض «الروحاء»ندم على فعله،و عزم على العوده إلى المدينه للإجهاز على ما تبقى من فلول المسلمين،و استئصال جذور الإسلام حتى لا تبقى له و لهم باقيه.

و لما بلغ هذا الخبر إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمر مقاتلى أحد أن يستعدوا للخروج إلى معركه اخرى مع المشركين،و خص بأمره هذا الجرحى و المصابين حيث أمرهم بأن ينضموا إلى الجيش.

يقول رجل من أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان قد شهد أحدا:شهدت أحدا و أخ لى

فرجعنا جريحين،فلما أذن مؤذن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالخروج فى طلب العدو قلنا:

لا تفوتنا غزوه مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،فو اللّه ما لنا دابه نركبها و ما منّا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كنت أيسر جرحا من أخى،فكنت إذا غلب حملته عقبه و مشى عقبه حتى انتهينا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى«حمراء الأسد».

فلما بلغ هذا الخبر أبا سفيان و أدرك صمود المسلمين،و الذى تجلّى فى اشتراك الجرحى و المصابين خاف و أرعب،و لعله ظن أنه أدركت المسلمين قوّه جديده من المقاتلين و أتاهم المدد.

هذا و قد حدثت فى هذا الموضع حادثه زادت من إضعاف معنويه المشركين،و ألقت مزيدا من الوهن فى عزائمهم،و هى أنه:مرّ برسول اللّه«معبد الخزاعى»و هو يومئذ مشرك،فلما شاهد النّبى و ما عليه هو و أصحابه من الحاله تحركت عواطفه و جاشت،فقال للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:يا محمّد و اللّه لقد عزّ علينا ما أصابك فى قومك و أصحابك،و لوددنا أن اللّه كان أعفاك فيهم،ثمّ خرج من عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى لقى أبا سفيان و من معه بالرّوحاء و قد أجمعوا الرّجعه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،فلمّا رأى أبو سفيان معبدا قال:ما وراك يا معبد؟قال:محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر قط مثله يتحرقون عليكم تحرقا،و قد اجتمع عليه من كان تخلف عنه فى يومكم،و ندموا على صنيعهم،و فيه من الحنق عليكم ما لم أر مثله قط.

قال أبو سفيان:ويلك ما تقول؟قال معبد:«فأنا و اللّه ما أراك ترتحل حتى ترى نواصى الخيل».

قال أبو سفيان:فو اللّه لقد أجمعنا الكرّه عليهم لنستأصلهم.

قال معبد: فأنا و اللّه أنهاك عن ذلك.

فثنى ذلك أبا سفيان و من معه و قفل راجعا و منسحبا إلى مكّه بسرعه،و حتى يتوقف المسلمون عن طلبه و ملاحقته و يجد فرصه كافيه للانسحاب قال

لجماعه من بنی عبد قیس کانوا یمرون من هناک قاصدین المدینه لشراء القمح:

«أخبروا محمّدا إنا قد أجمعنا الکرّه علیه و علی أصحابه لنستأصل بقیتهم»ثمّ انصرف إلی مکّه.

و لما مرّت هذه الجماعه برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو بحمراء الأسد أخبره بقول أبی سفیان،

فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «حسبنا اللّه و نعم الوکیل» و بقی هناک ینتظر المشرکین ثلاثه أیّام،فلم یر لهم أثرا فانصرف إلی المدینه بعد الثالثه.و الآیات الحاضره تشیر إلی هذه الحادثه و ملابساتها (۱) یقول سبحانه: اَلَّذِینَ اسْتَجابُوا لِلّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِیمٌ .

و یتبیّن من تخصیص جماعه معینه بالأجر العظیم فی هذه الآیه أنه کان هناک بینهم من لم یملک الإخلاص الکامل،کما یمکن أن یکون التعبیر ب«منهم»إشاره إلی أن بعض المقاتلین فی أحد امتنعوا ببعض الحجج عن تلبیه نداء الرّسول و الإسهام فی هذه الحرکه.

ثمّ أنّ القرآن الکریم یبیّن إحدی العلائم الحیّه لاستقامتهم و ثباتهم إذ یقول:

اَلَّذِینَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إِنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَکُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِیماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللّهُ وَ نِعْمَ الْوَکِیلُ

.

و المعنیون بالناس فی قوله: قالَ لَهُمُ النّاسُ هم رکب عبد القیس،أو نعیم بن مسعود الذی جاء بهذا الخبر علی روایه اخری.

ثمّ بعد ذکر هذه الاستقامه الواضحه و هذا الإیمان البارز یذکر القرآن الکریم نتیجه عملهم إذ یقول: فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَهٍ مِنَ اللّهِ وَ فَضْلٍ و أیه نعمه و أی فضل أعظم و أعلی من أن ینهزم الأعداء الخطرون أمامهم من دون أی صدام أو لقاء و یعود هؤلاء المقاتلون إلی المدینه سالمین.

یبقی أن نعرف أن الفرق بین النعمه و الفضل،یمکن أن یکون بأن النعمه هی

۱- ۱) -نور الثقلین و مجمع البیان،و تفسیر المنار و کتب اخری.

الأجر بقدر الاستحقاق و الفضل هو النفع الزائد على قدر الاستحقاق.

و تأكيدا لهذا الأمر يقول القرآن: لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ مضافا إلى أنّهم اِتَّبَعُوا رِضْوانَ اللّهِ وَ اللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ أنه فضل عظيم ينتظر المؤمنين الحقيقيين، و المجاهدين الصادقين.

التّربيه الإلهيه و عطاؤها السّريع:

إنّ مقارنه معنويه المسلمين فى معركه«بدر»بمعنويتهم فى حادثه«حمراء الأسد»التى مرّ تفصيلها،أمر يدعو إلى الإعجاب لدى المرء،إذ كيف استطاعت جماعه منكسره لا تملك المعنويه العاليه،و لا العدد البشرى الكافى،مع ما يحمل أفرادها من الجراحات الثقليه و الإصابات الفادحه أن تغير ملامحها فى مدّه قد لا تزيد على يوم و ليله،فتستعد و على درجه عاليه من العزم و الإراده لطلب العدو و ملاحقته،و مواجهته مره اخرى إلى درجه أن القرآن الكريم يقول عنهم: اَلَّذِينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إِنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ ثمّ استقاموا و صمدوا.

هذا هو أثر الإيمان بالهدف،فكلّما ازدادت مصائب الإنسان المؤمن و ازدادت مشكلاته ازدادت استقامته،و تضاعف ثباته،و شحذت عزيمته،و فى الحقيقه تهيأت كل قواه المعنويه و الماديه و تعبأت لمواجهه الخطر.

إن هذا التغير العجيب،و هذا التحول السريع و العظيم فى مثل هذه المدّه القصيره يوقف الإنسان على مدى سرعه تأثير التربيه القرآنيه و عمقها،و مدى فاعليه البيان النبوى الأخّاذ الذى يكاد يكون معجزه.

ص :٨

الآیه [سوره آل عمران (۳): آیه ۱۷۵]

اشاره

إِنَّمٰا ذٰلِكُمُ اَلشَّيْطٰانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيٰاءَهُ فَلاٰ تَخٰافُوهُمْ وَ خٰافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

التّفسیر

هـذه الآیه تعقیب علی الآیات التی نزلت حول غزوه«حمراء الأسـد»،و لفظه «ذلکم»إشاره إلی الذین کانوا یخوفون المسـلمین من قوّه قریش،و بأس جیشهم لإضعاف معنویات المسلمین.

و علی هـذا الأساس یکون معنی هـذه الآیه هو:إن عمل نعیم بن مسعود،أو رکب عبـد القیس من عمل الشـیطان لکی یخوفوا به أولیاء الشـیطان،یعنی أن هذه الوساوس إنما تؤثر فی أتباع الشیطان و أولیائه خاصّه،و أمّا المؤمنون الثابتون فلا تزل أقدامهم لهذه الوساوس مطلقا،و لن یرعبوا و لن یخافوا أبدا،و علی هذا الأساس فأنتم لستم من أولیاء الشیطان،فلا تخافوا هذه الوساوس،و یجب أن لا تزلزلکم أو تزعزع إیمانکم.

إنّ التّعبیر عن نعیم بن مسعود أو رکب عبد القیس و وصفهم ب«الشّیطان»إمّا لکون عملهم ذلک من عمل الشیطان و مستلهم منه و مأخوذ من وحیه،لأن القرآن یسمّی کل عمل قبیح و فعل مخالف للدین عمل شیطانی،لأنه یتم بوسوسته،

و یصدر عن وحیه إلی أتباعه.

و إمّا أن المقصود من الشّیطان هم نفس هؤلاء الأشخاص،فیکون«هذا المورد»من الموارد التی یطلق فیها اسم«الشّیطان»علی المصداق الإنسانی له، لأن للشیطان معنی وسیعا یشمل کل غاو مضل،إنسانا کان أم غیر إنسان کما نقرأ فی سوره الأنعام الآیه(۱۱۲)، وَ کَذٰلِکَ جَعَلْنٰا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوًّا شَیٰاطِینَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ .

ثمّ أنّه سبحانه یقول فی ختام الآیه: وَ خٰافُونِ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ یعنی أن الإیمان باللّه و الخوف من غیره لا یجتمعان،و هذا کقوله سبحانه فی موضع آخر:

فَمَنْ یُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاٰ یَخٰافُ بَخْساً وَ لاٰ رَهَقاً

(۱)

.

و علی هذا الإساس فإن وجد فی أحد الخوف من غیر اللّه کان ذلک دلیلا علی نقصان إیمانه و تأثیره بالوساوس الشیطانیه لأننا نعلم أنّه لا ملجأ و لا مؤثر بالذات فی هذا الکون العریض سوی اللّه الذی لیس لأحد قدره فی مقابل قدرته.

و أساسا لو أن المؤمنین قارنوا ولیهم(و هو اللّه سبحانه)بولی المشرکین و المنافقین(الذی هو الشیطان)لعلموا أنّهم لا یملکون تجاه اللّه أیه قدره،و لهذا لا یخافونهم قید شعره.

و خلاصه هذا الکلام و نتیجته هی أنّ الإیمان أینما کان،کانت معه الشجاعه و الشهامه،فهما توأمان لا یفترقان.

۱- ۱) -الجن:۱۳.

الآیتان [سوره آل عمران (۳): الآیات ۱۷۶ الی ۱۷۷]

اشاره

وَ لاٰ یَحْزُنْکَ اَلَّذِینَ یُسٰارِعُونَ فِی اَلْکُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ یَضُرُّوا اَللّٰهَ شَیْئاً یُرِیدُ اَللّٰهُ أَلاّٰ یَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِی اَلْآخِرَهِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِیمٌ (۱۷۶) إِنَّ اَلَّذِینَ اِشْتَرَوُا اَلْکُفْرَ بِالْإِیمٰانِ لَنْ یَضُرُّوا اَللّٰهَ شَیْئاً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۱۷۷)

التّفسیر

اشاره

تسلیه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

الخطاب فی قوله تعالی: وَ لاٰ یَحْزُنْکَ الَّذِینَ یُسٰارِعُونَ فِی الْکُفْرِ موجه إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

فاللّه تعالی یسلی نبیّه فی أعقاب أحداث«أحد»المؤلمه قائلا له:أیّها الرّسول لاٰ یَحْزُنْکَ الَّذِینَ یُسٰارِعُونَ فِی الْکُفْرِ و کأنّهم یتسابقون إلیه إِنَّهُمْ لَنْ یَضُرُّوا اللّٰهَ شَیْئاً بل یضرّون بذلک أنفسهم،و أساسا فالمتضرر و المنتفع إنّما هی الموجودات التی لا تملک من عند أنفسها شیئا حتی وجودها،أمّا اللّه الأزلی الأبدی سبحانه فهو الغنی المطلق،فما الذی یعود به کفر الناس أو إیمانهم علیه سبحانه،و أی أثر یمکن أن یکون لجهودهم و محاولاتهم بالنّسبه إلیه تعالی؟ إنّهم هم المنتفعون بإیمانهم إذ یتکاملون بهذا الإیمان،و هم المتضررون

بالكفر أيضا،إذ يؤدى هذا الكفر إلى سقوطهم و انحطاطهم.

هذا مضافا إلى أن اللّه سوف لن ينسى مواقفهم المشينه و لن تفوته مخالفاتهم، و سيصيبهم جزاء ما يعملونه يوم القيامه: يُرِيدُ اللّٰهُ أَلاّٰ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَهِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ .

و فى الحقيقه فإن الآيه تقول:إذا كان هؤلاء يتسابقون فى الكفر فليس ذلك لأنّ اللّه لا يقدر على كبح جماحهم،بل لأنّ اللّه أراد أن يكونوا أحرارا فى اتّخاذ المواقف و سلوك الطريق الذى يريدون،و لا شك أنّ نتيجه ذلك هو الحرمان الكامل من المواهب الرّبانيّه فى العالم الآخر.

و على هذا فالآيه لا تنفى الجبر فحسب،بل هى من الأدله و البراهين السّاطعه على حريه الإراده الإنسانيه.

ثمّ يقرّر القرآن هذه الحقائق فى الآيه الثانيه بشكل أكثر تفصيلا إذ يقول: إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمٰانِ لَنْ يَضُرُّوا اللّٰهَ شَيْئاً يعنى ليس الّذين يتسابقون فى طريق الكفر و يسارعون إليه هم وحدهم على هذا الحال،بل كل الّذين يسلكون طريق الكفر بشكل من الأشكال و يشترون الكفر بالإيمان،كل هؤلاء لن يضرّوا اللّه شيئا،و إنّما يضرّون أنفسهم.

و يختم سبحانه الآيه بقوله: وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ هذا التفاوت فى التعبير فى خاتمه هذه الآيه و الآيه التى قبلها حيث قال هناك: وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ و قال هنا وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ إنّما هو لأجل إن الذين جاء ذكرهم فى الآيه السابقه أسرع فى المبادره و التوجه نحو الكفر.

ص :١٢

الآیه [سوره آل عمران (۳): آیه ۱۷۸]

اشاره

وَ لاٰ یَحْسَبَنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّمٰا نُمْلِی لَهُمْ خَیْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمٰا نُمْلِی لَهُمْ لِیَزْدٰادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِینٌ (۱۷۸)

التّفسیر

اشاره

المثقلون بأوزارهم:

بعد تسلیه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی الآیات السّابقه و تطمینه تجاه ما یقوم به أعداء الرساله و الحق من محاولات عدائیه لا تحصی،توجه سبحانه إلی الأعداء فی هذه الآیه بالخطاب،و أخذ یحدّثهم عن المصیر المشؤوم الذی ینتظرهم،(و هذه الآیه ترتبط-فی الحقیقه-بأحداث معرکه«أحد»فهی مکمله للأبحاث التی مرّت حول هذه الواقعه،لأن الحدیث و الخطاب تاره کان موجها إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أخری موجها إلی المؤمنین،و ها هو هنا موجه إلی الکفار و المشرکین).

إنّ الآیه الحاضره التی یقول فیها سبحانه: وَ لاٰ یَحْسَبَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّمٰا نُمْلِی (۱) لَهُمْ خَیْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمٰا نُمْلِی لَهُمْ لِیَزْدٰادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِینٌ تحذّر المشرکین بأن علیهم أن لا یعتبروا ما أتیح لهم من إمکانات فی العدّه و العدد،و ما

۱- ۱) -نملی مشتقه من الإملاء،و تغنی المساعده و الإعانه و تستعمل فی أکثر الموارد فی إطاله المدّه و الإمهال الذی هو نوع من المساعده،و قد جاءت فی الآیه الحاضره بالمعنی الثانی.

یكسبونه من انتصارات فی بعض الأحیان،و ما یمتلكونه من حرّیه التصرف، دلیلا علی صلاحهم،أو علامه علی رضا اللّه عنهم.

و توضیح ذلك:إنّ المستفاد من الآیات القرآنیه هو أنّ اللّه سبحانه ینبّه العصاه الذین لم یتوغّلوا فی الخطیئه و لم یغرقوا فی الآثام غرقا،فهو سبحانه ینبّههم بالنذر تاره،و بما یتناسب مع أعمالهم من البلاء و الجزاء تاره أخری،فیعیدهم بذلك إلی جاده الحق و الصواب.و هؤلاء هم الذین لم یفقدوا بالمرّه قابلیه الهدایه، فیشملهم اللطف الإلهی،فتكون المحن و البلایا نعمه بالنسبه إلیهم،لأنها تكون بمثابه جرس إنذار لهم تنبّههم من غفلتهم،و تنتشلهم من غفوتهم كما یقول اللّه سبحانه: ظَهَرَ الْفَسٰادُ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمٰا كَسَبَتْ أَیْدِی النّٰاسِ لِیُذِیقَهُمْ بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۱) .

و لكن الذین تمادوا فی الذنوب و غرقوا فیها،و بلغ طغیانهم نهایته فإنّ اللّه یخذلهم،و یكلهم إلی نفوسهم،أیّ أنّه یملی لهم لتثقل ظهورهم بأوزارهم، و یستحقوا الحدّ الأكثر من العقوبه و العذاب المهین.

هؤلاء هم الذین نسفوا كلّ الجسور،و قطعوا كلّ علاقاتهم مع اللّه،و لم یتركوا لأنفسهم طریق لا العوده إلی ربّهم،و هتكوا كل الحجب،و فقدوا كل قابلیه للهدایه الإلهیه،و كل أهلیه للّطف الرّبانی.

إن الآیه الحاضره تؤكد هذا المفهوم و هذا الموضوع إذ تقول: وَ لاٰ یَحْسَبَنَّ الَّذِینَ كَفَرُوا أَنَّمٰا نُمْلِی لَهُمْ خَیْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمٰا نُمْلِی لَهُمْ لِیَزْدٰادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِینٌ .

و لقد استدلت بطله الإسلام زینب الكبری بنت الإمام علی بن أبی طالب علیه السّلام بهذه الآیه فی خطابها المدوی و الساخن أمام طاغیه الشام«یزید بن معاویه» الذی كان من أظهر مصادیق العصاه و المجرمین الذین قطعوا جمیع جسور العوده

۱- ۱) -الروم،۴۱.

على أنفسهم بما ارتكبوه من فظيع الفعال،و ما اقترفوه من شنيع الأعمال إذ قالت:

«أ ظننت يا يزيد... أنّ بنا على اللّه هوانا،و بك عليه كرامه،و أنّ ذلك لعظم خطرك عنده؟فشمخت بأنفك،و نظرت فى عطفك،جذلان مسرورا،حين رأيت الدنيا لك مستوثقه و الأمور متّسقه،و حين صفا لك ملكنا و سلطاننا،فمهلا مهلا أنسيت قول اللّه عزّ و جلّ: وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمٰا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمٰا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدٰادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ ».

جواب على سؤال:

إنّ الآيه الحاضره تجيب ضمنا على سؤال يخالج أذهان كثير من الناس و هو:لما ذا يرفل بعض العصاه و المجرمين فى مثل هذا النعيم،و لا يلقون جزاءهم العادل على إجرامهم؟ فإنّ القرآن الكريم يردّ على هذا التساؤل الشّائع قائلا:إنّ هؤلاء فقدوا كل قابليه للتغيير و الإصلاح،و هم بالتالى من الّذين تقتضى سنّه الخلق و مبدأ حرّيه الإنسان و اختياره أن يتركوا لشأنهم،و يوكّلوا إلى أنفسهم ليصلوا إلى مرحله السقوط الكامل،و يستحقوا الحدّ الأكثر من العذاب و العقوبه.

هذا مضافا إلى ما يستفاد من بعض الآيات القرآنيه من أنّه سبحانه قد يمدّ البعض بالنعم الوافره و هو بذلك يستدرجهم،أى أنّه يأخذهم فجأه و هم فى ذروه التنعم،و يسلبهم كلّ شىء و هم فى أوج اللّذه و التمتع،ليكونوا بذلك أشقى من كلّ شقى،و يواجهوا فى هذه الدنيا أكبر قدر ممكن من العذاب،لأن فقدان هذا النعيم أشدّ وقعا على النفس،و أكثر مراره كما نقرأ فى الكتاب العزيز: فَلَمّٰا نَسُوا مٰا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ أَبْوٰابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتّٰى إِذٰا فَرِحُوا بِمٰا أُوتُوا أَخَذْنٰاهُمْ بَغْتَةً فَإِذٰا هُمْ مُبْلِسُونَ (۱) .

۱- ۱) -الأنعام،۴۴.

و مثـل هؤلاـء-فی الحقیقه-مثـل الـذی یتسـلق شـجره،فإنّه کلّما إزداد رقیا ازداد فرحا فی نفسه،حتی إذا بلغ قمتها فاجأته عاصـفه شدیده،فهوی علی أثرها من ذلک المترفع الشاهق إلی الأرض فتحطمت عظامه،فتبدل فرحه البالغ إلی حزن شدید.

لفته أدبیه:

یتبیّن ممّا قلناه فی تفسیر هذه الآیه أن«اللام»فی قوله سبحانه: لِیَزْدادُوا إِثْماً «لام العاقبه»و لیست«لام الغایه».

و توضیـح ذلـک:إنّ العرب قـد تسـتعمل اللام لبیان أن ما بعـد اللام مراد للإنسان و مطلوب له کقوله: لِتُخْرِجَ النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ (۱) .

و من البدیهی أن هدایه الناس و خروجهم من الظّلمات إلی النّور مراد له سبحانه.

و قـد تسـتعمل العرب«اللاـم»لا لبیان أن هـذا هو مراد و مطلوب للشـخص،بل لبیان أن هـذا نتیجه عمل المرء و مآل موقفه کقوله تعالی: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِیَکُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً (۲) و لا شک أنّهم إنما أخذوه لیکون لهم سـرورا و قرّه عین.و لا یختص هذا الأمر باللغه العربیه و آدابها،بل هو مشهور فی غیره من اللغات و الآداب.

و من هنا یتضـح الجواب علی تساؤل آخر یطرح نفسه هنا و هو:لما ذا قال سـبحانه: لِیَزْدادُوا إِثْماً الـذی معناه-بحسب الظاهر-أی نرید أن یزدادوا إثما.

لأـن هـذا الإشـکال و التساؤل إنّما یکون واردا إذا کانت اللام هنا لام الإراده و الغایه المبینه للعلّه و الهـدف،لا«لام العاقبه»لیکون معنی قوله لِیَزْدادُوا إِثْماً

۱- ۱) -إبراهیم،۱.

۲- ۲) -القصص،۸.

هو:لتكون عاقبه أمرهم ازديادهم الإثم.

و على هـذا يكـون معنى الآ-يه:نحن نمهلهم لتكون عـاقبه أمرهم ازديـاد ذنوبهم و أوزارهم من الإ-ثم،فالآ-يه لا- تـدلّ على الجـبر مطلقا،بل هى خير دليل على حريه الإنسان و اختياره.

الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ١٧٩]

اشاره

مٰا كٰانَ اَللّٰهُ لِيَذَرَ اَلْمُؤْمِنِينَ عَلىٰ مٰا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتّٰى يَمِيزَ اَلْخَبِيثَ مِنَ اَلطَّيِّبِ وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى اَلْغَيْبِ وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشٰاءُ فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)

التّفسير

اشاره

المسلمون فى بوتقه الاختبار و الفرز:

لم تكن قضيه«المنافقين»مطروحه بقوّه قبل حادثه معركه«أحد»و لهذا لم يكن المسلمون يعرفون عدوا لهم غير الكفار،و لكن الهزيمه التى أفرزتها«أحد» و ما دبّ فى المسلمين على أثرها من الضعف المؤقت مهّد الأرضيه لنشاط المنافقين المندسّين فى صفوف المسلمين،و على أثر ذلك عرف المسلمون و أدركوا بأنّ لهم عدوا آخر أخطر يجب أن يراقبوا تحركاته و نشاطاته و هو «المنافقون»،و كان هذا إحدى أهم معطيات حادثه«أحد»و نتائجها الإيجابيه.

و الآيه الحاضره التى هى آخر الآيات التى تتحدث-هنا-عن معركه«أحد» و أحداثها،تبيّن و تستعرض هذه الحقيقه فى صوره قانون عام إذ تقول: مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلىٰ مٰا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتّٰى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ فلا بدّ أن تتميز

ص:١٨

الصفوف،و تتمّ عمليه الفرز بين الطيب الطاهر،و الخبيث الرجس.و هذا قانون عام و سنه إلهيه خالده و شامله،فليس كلّ من يدعى الإيمان،و يجد مكانا فى صفوف المسلمين يترك لشأنه،بل ستبلى سرائره،و تنكشف حقيقته فى الآخره بعد الاختبارات الإلهيه المتتابعه له.

و هنا يمكن أن يطرح سؤال(و هو السؤال الذى كان مطروحا بين المسلمين آنذاك أيضا حسب بعض الأحاديث و الرّوايات)و هو:إذا كان اللّه عالما بسريره كل إنسان و أسراره فلما ذا لا يخبر بها الناس-عن طريق العلم بالغيب-و يعرفهم بالمؤمن و المنافق؟ إنّ المقطع الثّانى من الآيه و هو قوله: وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ يجيب على هذا السؤال.أى أن اللّه سبحانه لن يوقفكم على الأسرار، لأن الوقوف على الأسرار-على عكس ما يظن كثيرون لا يحلّ مشكله،و لا يفكّ عقده،بل سيؤدى إلى الهرج و المرج و الفوضى،و إلى تمزق العلاقات الاجتماعيه و انهيارها،و انطفاء شعله الأمل فى النفوس و تبدده،و توقف الناس عن الحركه و النشاط و الفعاليه.

و الأهم من كلّ ذلك هو أنّه لا بدّ أن تتضح قيمه الأشخاص من خلال المواقف العمليه و السلوكيه،و ليس عن أى طريق آخر،و مسأله الاختبار الإلهى لا تعنى سوى هذا الأمر،و لهذا فإن الطريق الوحيد لمعرفه الأشخاص و تقويمهم هو أعمالهم فقط (1) .

ثمّ إنّ اللّه سبحانه يستثنى الأنبياء من هذا الحكم إذ يقول: وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشٰاءُ أى أنّه يختار فى كل عصر من بين أنبيائه من يطلعهم على

١- ١) -لقد مرّ طرح هذا السؤال بالتفصيل عند تفسير قوله تعالى: وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ... و أجبنا هناك بأن الامتحان الإلهى-هو فى الحقيقه-نوع من التربيه العمليه للبشر،و لا يعنى الاستخبار و الاستعلام،و لمزيد الاطلاع راجع ذلك البحث.

شیء من تلک الغیوب و یوقفهم علی بعض الأسرار بحکم احتیاج القیاده الرسالیه إلی ذلک،و تبقی الأعمال-مع ذلک کلّه-هی الملاک الوحید و المعیار الخالد و المسار الأبدی لمعرفه الأشخاص و تمییزهم و تصنیفهم.

و من هذه العباره یستفاد أنّ الأنبیاء-بحسب ذواتهم-لا یعرفون شیئا من الغیب،کما و یستفاد منها أنّ ما یعلمونه منه إنما هو بتعلیم اللّه لهم و اطلاعهم علی شیء من الغیوب،و علی هذا الأساس یکون الأنبیاء ممن یطلعون علی الغیب، کما أن مقدار علمهم بالغیب یتوقف علی المشیئه الإلهیه.

و من الواضح و المعلوم أنّ المراد من المشیئه الإلهیه فی هذه الآیه-کغیرها من الآیات-هو«الإراده المقرونه بالحکمه»أی أنّ اللّه سبحانه یطلع علی الغیب کلّ من یراه صالحا لذلک،و تقتضی حکمته سبحانه ذلک.

ثمّ أنّه تعالی یذکرهم-فی ختام الآیه-بأن علیهم-و هو الآن فی بوتقه الحیاه،بوتقه الامتحان الکبیر،بوتقه التمییز بین الصالح و الطالح،و الطیب و الخبیث،و المؤمن و المنافق-علیهم أن یجتهدوا لینجحوا فی هذا الامتحان و یخرجوا مرفوعی الرؤوس من هذا الاختبار العظیم،إذ یقول: فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَکُمْ أَجْرٌ عَظِیمٌ .

ثمّ أن الملاحظه الملفته للنظر و الجدیره بالتأمل فی هذه الآیه التعبیر عن المؤمن بالطیب،و من المعلوم أن الطیب هو الباقی علی أصل خلقته الذی لم تشبه الشّوائب،و لم یدخل فی حقیقه الغرائب.و لم تلوثه الکدورات،فالماء الطاهر الطیب،و الثوب الطیب الطاهر و ما شابه ذلک هو الذی لم تلوثه الکدورات، و یستفاد من هذا أن الإیمان هو فطره الإنسان الأصلیه،و هو جبلته الأولی.

الآيه [سوره آل عمران (٣): آيه ١٨٠]

اشاره

وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ اَلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمٰا آتٰاهُمُ اَللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مٰا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ اَلْقِيٰامَهِ وَ لِلّٰهِ مِيرٰاثُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)

التّفسير

اشاره

طوق الأسر الثّقيل:

تبيّن الآيه الحاضره مصير البخلاء في يوم القيامه،أولئك الذين يبذلون غايه الجهد في جمع الثّروه ثمّ يمتنعون عن الإنفاق في سبيل اللّه،و لصالح عباده.

و الآيه هذه و إن لم تتعرض صراحه لذكر الزكاه و غيرها من الحقوق و الفرائض الماليه،إلاّ أنّ الأحاديث الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام،و كذا أقوال المفسرين خصصت هذه الآيه و ما وعد به فيها من الوعيد بمانعي الزكاه،و يؤيده التشديد المشهود في الآيه،فإن أمثال هذا التشديد و التغليظ لا يتناسب مع الإنفاق المندوب المستحب.

تقول الآيه أوّلا: وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمٰا آتٰاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ثمّ تصف مصير هؤلاء في يوم القيامه هكذا: سَيُطَوَّقُونَ مٰا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ أي ستكون تلك الأموال التي بخلوا بها طوقا في

أعناقهم فی ذلک الیوم الرهیب.

و من هذه الجمله یستفاد أن الأموال التی لم یدفع صاحبها الحقوق الواجبه فیها،و لم ینتفع بها المجتمع،بل صرفت فقط فی سبیل الأهواء الشخصیه،و ربّما صرفت فی ذلک السبیل بشکل جنونی،أو کدست دون أی مبرر و لم یستفد منها أحد سیکون مصیرها مصیر أعمال الإنسان،أی أنّها-طبقا لقانون تجسم الأعمال البشریه-ستتجسم یوم القیامه و تتمثل فی شکل عذاب مؤلم یؤذی صاحبها و یخزیه.

إنّ تجسّم مثل هذه الأموال التی تطوق بها أعناق ذویها إشاره إلی الحقیقه التالیه، و هی أن کل إنسان یتحمل ثقل مسئولیتها کاملا دون أن یکون هو قد انتفع بها.

إنّ الأموال الوفیره التی تجمع بشکل جنونی و تکنز و لا تصرف فی خدمه المجتمع لا تکون سوی أغلال و سجون لأصحابها،لأن للاستفاده-کما نعلم-من الأموال و الثروه الشخصیه حدودا،فإذا تجاوزها الإنسان عادت علیه نوعا من الأسر الثقیل،و الوزر الضّار،اللّهم إلاّ أن یستفید من آثارها المعنویه و ذلک حینما یوظفها فی الأعمال الإیجابیه الصالحه.

ثمّ إن هذه الأموال لا تشکل طوقا ثقیلا فی أعناق أصحابها فی الآخره فحسب،بل تکون کذلک فی هذه الدنیا أیضا،غایه الأمر أن هذا المعنی یکون أکثر ظهورا فی الآخره،بینما یکون فی شیء من الخفاء فی هذه الحیاه،فأیه حماقه-تری-أکبر من أن یتحمل المرء مسئولیه جمع الثّروه مضافه إلی مسئولیه الحفاظ علیها و حسابها و الدّفاع عنها و ما یلازم ذلک من مشاق تثقل کاهله،فی حین لا ینتفع بها هو أبدا،و هل الأموال حینئذ إلاّ طوق أسر ثقیل لا غیر؟ ففی تفسیر العیاشی عن الإمام الباقر علیه السّلام أنه قال:«الذی یمنع الزکاه یحول اللّه

ماله یوم القیامه شجاعا (۱) من نار...ثمّ یقال له:ألزمه كما لزمک فی الدنیا».

و الملفت للنظر التعبیر عن المال فی هذه الآیه بِمٰا آتٰاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ الذی یفهم منه أن المالک الحقیقی لهذه الأموال و مصادرها هو اللّه سبحانه،و إن ما أعطاه لأیّ واحد من الناس فإنّما هو من فضله،و لهذا ینبغی أن لا یبخل،أن ینفق من تلک الأموال فی سبیل صاحبها الحقیقی.

ثمّ إنّ بعض المفسرین یری أن مفهوم هذه العباره یعم جمیع المواهب الإلهیه و منها العلم،و لکن هذا الاحتمال لا ینطبق مع ظاهر التعبیرات الوارده فی الآیه.

ثمّ إنّ الآیه تشیر إلی نقطه أخری إذ تقول: وَ لِلّٰهِ مِیرٰاثُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ یعنی أن الأموال سواء أنفقت فی سبیل اللّه أو لم تنفق فإنّها ستفصل فی النهایه عن أصحابها،و یرث اللّه الأرض و السماء و ما فیهما،فالأجدر بهم-و الحال هذه- أن ینتفعوا من آثارها المعنویه،لا أن یتحملوا وزرها و عناءها،و حسرتها و تبعتها.

ثمّ تختم الآیه بقوله تعالی: وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ أی أنّه علیم بأعمالکم، یعلم إذا بخلتم،کما یعلم إذا أنفقتم ما أوتیتموه من المال فی السبیل الصالح العام و خدمه المجتمع الإنسانی،و یجازی کلا علی عمله بما یلیق.

ص :۲۳

۱- ۱) -الشّجاع العظیم الخلقه من الحیات.

الآيتان [سوره آل عمران (۳): الآيات ۱۸۱ الى ۱۸۲]

اشاره

لَقَدْ سَمِعَ اَللّٰهُ قَوْلَ اَلَّذِينَ قٰالُوا إِنَّ اَللّٰهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيٰاءُ سَنَكْتُبُ مٰا قٰالُوا وَ قَتْلَهُمُ اَلْأَنْبِيٰاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ نَقُولُ ذُوقُوا عَذٰابَ اَلْحَرِيقِ (۱۸۱) ذٰلِكَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اَللّٰهَ لَيْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ (۱۸۲)

سبب النّزول

هذه الآيه نزلت ردّا على مقاله اليهود و توبيخا لهم.

فعن ابن عباس أنّه قال:كتب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كتابا إلى يهود«بنى قينقاع» دعاهم فيه لإقامه الصلاه و إيتاء الزكاه و أن يقرضوا للّه«و المراد منه الإنفاق فى سبيل اللّه و إنما عبر عنه بالإقراض لتحريك المشاعر و إثارتها لدى الناس قدرا أكبر)فدخل رسول النّبى إلى بيت المدارس(حيث يتلقى اليهود دروسا فى دينهم)و سلم كتاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى«فنحاص»و هو من كبار أحبار اليهود فلمّا قرأه قال مستهزءا:لو كان ما تقولونه حقا فإن اللّه إذن لفقير و نحن أغنياء،و لو كان غنيا لما استقرض منّا(و هو يشير إلى قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللّٰهَ قَرْضاً

حَسَناً

(١)

هـذا مضافا إلى أن«محمّـدا»يعتقـد أنّ اللّه نهاكم عن أكل الرّبا،و هو يعـدكم أن يضاعف لكم إذا أنفقتم أضـعافا مضاعفه،و هو يشير إلى قوله تعالى:

يُرْبِی الصَّدَقاتِ

(٢)

.

و لكنّ«فنحاص»أنكر أنّه قال شيئا من هذه فی ما بعد فنزلت الآيتان المذكورتان أعلاه (٣) .

التّفسير

تقول الآيه الأولى لَقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ .

أی لو أنّ هؤلاءـ استطاعوا أن يخفوا عن الناس مقالتهم هـذه فإن اللّه قـد سـمعها و يسـمعها حرفا بحرف فلا مجال لإنكارها،فهو يسمع و يدرک حتی ما عجزت أسماع الناس عن سماعها من الأصوات الخفيه جدا أو الأصوات العاليه جدا:

لَقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ

.

إذن فلا فائده و لا جدوی فی الإنكار،ثمّ يقول سبحانه: سَنَكْتُبُ ما قالُوا أی أن ما قالوه لم نسمعه فحسب،بل سنكتبه جميعه.

و من البديهی أن المراد من الكتابه ليس هو ما تعارف بيننا من الكتابه و التدوين،بل المراد هو حفظ آثار العمل التی تبقی خالده فی العالم حسب قانون بقاء«الطاقه-الماده».

بل و حتی كتابه الملائكه الموكّلين من قبل اللّه بالبشر لضـبط تصـرفاتهم،هو الآخر نوع من حفظ العمل الذی هو مرتبه أعلی من الكتابه المتعارفه.

ثمّ يقول: وَ قَتْلَهُمُ الْأَنْبِياءَ أی أنّنا لا نكتفی بكتابه مقالاتهم الكافره

۱- ۱) -الحدید،۱۱.

۲- ۲) -البقره،۲۷۶.

۳- ۳) -أسباب النزول للواقدی،ص ۹۹ و تفسیر روح البیان فی تفسیر هذه الآیه.

الباطله فحسب،بل سنكتب موقفهم المشين جدا و هو قتلهم للأنبياء.

يعنى أن مجابهه اليهود،و مناهضتهم للأنبياء ليس بأمر جديد،فليست هذه هى المرّه الأولى التى تستهزء يهود برسول من الرسل،فإن لهم فى هذا المجال باعا طويلا فى التاريخ،و صفحه مليئه بنظائر هذه الجرائم و المخازى،فإن جماعه بلغت فى الدناءه و الشراسه و القحه و الجرأه أن قتلت جماعه من رسل اللّه و أنبيائه،فلا مجال للاستغراب من تفوهها بمثل هذه الكلمات الكافره.

و يمكن أن يقال فى هذا المقام:إن قتل الأنبياء مسأله لم ترتبط باليهود فى عصر الرساله المحمّديه،فلما ذا حمل وزرها عليهم؟و لكننا نقول-كما أسلفنا أيضا-أنّ هذه النسبه إنّما صحّت لأنّهم كانوا راضين بما فعله و ارتكبه أسلافهم من اليهود،و لهذا أشركوا فى إثمهم و وزرهم و فى مسئوليتهم عن ذلك العمل الشنيع.

و أمّا تسجيل و كتابه أعمالهم فلم يكن أمرا اعتباطيا غير هادف،بل كان لأجل أن نعرضها عليهم يوم القيامه،و نقول لهم:ها هى نتيجه أعمالكم قد تجسدت فى صوره عذاب محرق و نقول: ذُوقُوا عَذٰابَ الْحَرِيقِ .

إنّ هذا العذاب الأليم الذى تذوقونه ليس سوى نتيجه أعمالكم،فأنتم- أنفسكم-قد ظلمتم أنفسكم ذٰلِكَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ (1) وَ أَنَّ اللّٰهَ لَيْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ .

بل لو أنكم و أمثالكم من المجرمين لم تنالوا جزاء أعمالكم و لم تروها بأمّ أعينكم،و وقفتم فى عداد الصالحين لكان ذلك غايه فى الظلم،و لو أنّ اللّه سبحانه لم يفعل ذلك لكان ظلاما للناس.

۱- ۱) -إنّما أضيف أعمال الإنسان إلى يده و إن كانت الذنوب تكتسب بجميع الجوارح لأن أكثر ما يكسبه الإنسان إنما يكسبه بيده،و لأن العاده قد جرت بإضافه الأعمال التى يقوم بها الإنسان إلى اليد و إن اكتسبها بجارحه أخرى.

و

لقد نقل عن الإمام على علیه السّلام فی نهج البلاغه أنّه قال:

«و أیم اللّه ما کان قوم قط فی غض نعمه من عیش فزال عنهم إلاّ بذنوب اجترحوها لأن اللّه لیس بظلام للعبید».

إنّ هذه الآیه تعدّ من الآیات التی تفنّد-من جهه-مقوله الجبریین،و-تعمم- من جهه اخری-أصل-العداله و تسحبه علی کل الأفعال الإلهیه،فتکون جمیعا مطابقه للعداله.

و توضیح ذلک:إنّ الآیه الحاضره تصرّح بأنّ کلّ جزاء-من ثواب أو عقاب- ینال الناس من جانب اللّه سبحانه فإنّما هو جزاء أعمالهم التی ارتکبوها بمحض إرادتهم و اختیارهم ذٰلِکَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَیْدِیکُمْ .

و تصرّح من جانب آخر بأن اَللّٰهَ لَیْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِیدِ و إنّ قانونه فی الجزاء یدور علی محور العدل المطلق،و هذا هو نفس ما تعتقد به العدلیه(و هم القائلون بالعدل الإلهی،و هم الشیعه و طائفه من أهل السنه المسمّون بالمعتزله).

غیر أنّ هناک فی الطرف الآخر جماعه من أهل السنه«و هم الذین یسمّون بالأشاعره»لهم اعتقاد غریب فی هذا المجال فهم یقولون:إنّه تعالی هو المالک فی خلقه یفعل ما یشاء و یحکم ما یرید،فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنّه لم یکن حیفا،و لو أدخلهم النّار لم یکن جورا...فلا یتصوّر منه ظلم،و لا ینسب إلیه جور (١) .

و الآیه الحاضره تفند هذا النوع من الآراء و المقالات تفنیدا باتا و مطلقا و تقول بصراحه لا غبش فیها و لا غموض: ذٰلِکَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَیْدِیکُمْ وَ أَنَّ اللّٰهَ لَیْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِیدِ .

١- ١) -الملل و النحل للشهرستانی،طبعه بیروت،ج ١،ص ١٠١،تحقیق محمّد سید کیلانی.

على أنّ لفظه«ظلام»صيغه مبالغه،و تعنى من يظلم كثيرا،و لعل اختيار هذه الصيغه فى هذا المكان مع أنّ اللّه سبحانه لا يظلم حتى إذا كان الظلم صغيرا،لأجل أنّه إذا أجبر الناس على الكفر و المعصيه،و خلق فيهم دواعى العمل القبيح و دوافعه،ثمّ عاقبهم على ما فعلوه بإجباره و إكراهه لم يكن بذلك قد ارتكب ظلما صغيرا فحسب،بل كان«ظلاما».

ص :٢٨

الآیتان [سوره آل عمران (۳): الآیات ۱۸۳ الی ۱۸۴]

اشاره

اَلَّذِینَ قالُوا إِنَّ اَللّٰهَ عَهِدَ إِلَیْنا أَلاّٰ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتّٰی یَأْتِیَنا بِقُرْبانٍ تَأْکُلُهُ اَلنّٰارُ قُلْ قَدْ جٰاءَکُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِی بِالْبَیِّنٰاتِ وَ بِالَّذِی قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۱۸۳) فَإِنْ کَذَّبُوکَ فَقَدْ کُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ جٰاؤُ بِالْبَیِّنٰاتِ وَ اَلزُّبُرِ وَ اَلْکِتٰابِ اَلْمُنِیرِ (۱۸۴)

سبب النّزول

حضر جماعه من أقطاب الیهود عند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قالوا له:یا محمّد إنّ اللّه عهد إلینا فی التوراه أن لا نؤمن لرسول حتی یأتینا بقربان تأکله النار،فإن زعمت أنّ اللّه بعثک إلینا فجئنا به نصدقک،فأنزل اللّه هاتین الآیتین.

التّفسیر

اشاره

مغالطات الیهود و تعللاتهم:

کانت الیهود تتحجج و تجادل کثیرا بهدف التملص من الانضواء تحت رایه الإسلام.

و من مغالطاتهم ما جاء ذکره فی هذه الآیه الحاضره التی تقول: اَلَّذِینَ قالُوا

ص :۲۹

إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلاّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النّارُ

.

قال المفسرون:إن اليهود كانت تزعم أنّه يجب أن يكون للأنبياء خصوص هذه المعجزه،و هى أن يقربوا قربانا فتنزل النّار من السماء و تأكل قربانهم،ففى ذلك دلاله على صدق المقرب(أى صاحب القربان).

و لو أن اليهود كانوا صادقين فى هذا الطلب،و كانوا يريدون-حقّا-مثل هذا الأمر من باب إظهار الإعجاز،و ليس من باب العناد و اللجاجه و المغالطه لكان من الممكن إعذارهم،و لكن تاريخهم الغابر،و كذا مواقفهم المشينه مع نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تثبت الحقيقه التاليه،و هى أنّهم لم يكونوا أبدا طلاب حقّ و بغاه علم،بل كانوا يأتون كل يوم بمغالطه و اقتراح جديد لمواجهه الجو الضاغط عليهم،و ما كان يخلقه القرآن من وضع محرج لهم بفضل ما كان يقيمه من براهين ساطعه و قويه،و ذلك فرارا من قبول الإسلام،و الانضواء تحت رايته،و حتى لو أنّهم حصلوا على مقترحاتهم فإنّهم كانوا يمتنعون عن الإيمان،بدليل أنهم كانوا قد قرءوا فى كتبهم كل علائم نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و لكنهم مع ذلك أبوا إلاّ رفض الحقّ،و عدم الإذعان له.

يقول القرآن فى مقام الردّ عليهم: قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَ بِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ؟و فى ذلك إشاره إلى زكريا و يحيى و طائفه من الأنبياء الذين قتلوا على أيدى بنى إسرائيل.

هذا و يذهب بعض متأخرى المفسرين(مثل كاتب تفسير المنار)إلى احتمال آخر حول مسأله القربان خلاصته:إن مقصودهم لم يكن إن على النّبى أن يذبح قربانا و تنزل من السماء نار بطريقه إعجازيه و تحرق ذلك القربان،بل كان مرادهم هو أنّه كان فى تعاليم دينهم نوع من هذا القربان الذى يذبح بطريقه خاصّه و فى مراسيم معينه،ثمّ يحرق بالنّار و هو ما جاء شرحه فى الفصل الأوّل من سفر «اللاويين»من التوراه(العهد القديم).

إنّهم كانوا يقولون:إنّ اللّه عهد إلينا أن يبقى مثل هذا التعليم،و مثل هذا القربان فى كل دين سماوى،و حيث إنّنا لا نجد مثل هذا الأمر فى التعاليم الإسلاميه لذلك فإننا لا نؤمن لك.

و لكن هذا الاحتمال بعيد عن تفسير الآيه جدا لأنّه:

أوّلا:إنّ هذه الجمله قد عطفت فى الآيه الحاضره على«البيّنات»و يظهر من ذلك أن مرادهم كان عملا إعجازيا،و هو لا ينطبق مع هذا الاحتمال.

و ثانيا:إنّ ذبح حيوان ثمّ حرقه بالنار عمل خرافى و لا يمكن أن يكون من تعاليم الأنبياء و شرائعهم السماويه.

ثمّ يعقب سبحانه على الآيه السابقه بقوله: فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ .

و فى هذه الآيه يسلى اللّه سبحانه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يقول:إن كذبتك هذه الجماعه فلا تقلق لذلك و لا تحزن،فذلك هو دأبهم مع أنبياء سبقوك حيث كذبوهم، و عارضوا دعوتهم بصلابه و عناد.

و لم يكن هؤلاء الأنبياء غير مزودين بما يبرهن على صدقهم،بل جاؤُ بِالْبَيِّنٰاتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتٰابِ الْمُنِيرِ .

و هنا لا بدّ من الانتباه إلى أن«زبر»و هو جمع(زبور)يعنى كتابا أحكمت كتابه مواضيعه،لأن الزبر أصلا من الكتابه،لا مطلق الكتابه،بل الكتابه المتقنه المحكمه.

و أمّا الفرق بين«الزبر»و«الكتاب المنير»مع أنّهما من جنس واحد هو الكتاب،فيمكن أن يكون بسبب أن الاوّل إشاره إلى كتب الأنبياء قبل موسى عليه السّلام، و الثّانى إشاره إلى التوراه و الإنجيل،لأنّ القرآن الكريم عبر عنهما فى سوره المائده الآيه ۴۴،و ۴۶ بالنّور إذ قال: إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاةَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ...

وَ آتَيْنٰاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ .

هـذا و يحتمـل بعض المفسـرين أن يكـون المراد مـن«الزّبـور»هـو تلـك الكتب السـماويه الـتى تحتـوى على المواعـظ و الزواجر خـاصّه(كمـا كـان عليه الزبور المنسوب إلى داود الـذى هو الآـن بين الأيـدى و الـذى يحتوى بأسـره على المواعـظ و الزواجر)و لكن«الكتاب المنير»أو الكتاب السماوى فيطلق على ما يحتوى على التشريعات و القوانين و الأحكام الفرديه و الاجتماعيه.

ص: ٣٢

الآیه [سوره آل عمران (۳): آیه ۱۸۵]

اشاره

كُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَهُ اَلْمَوْتِ وَ إِنَّمٰا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰامَهِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ اَلنّٰارِ وَ أُدْخِلَ اَلْجَنَّهَ فَقَدْ فٰازَ وَ مَا اَلْحَيٰاهُ اَلدُّنْيٰا إِلاّٰ مَتٰاعُ اَلْغُرُورِ (۱۸۵)

التّفسیر

اشاره

الموت و قانونه العام:

تعقیبا علی البحث حول عناد المعارضین و غیر المؤمنین تشیر هذه الآیه إلی قانون«الموت»العام و إلی مصیر الناس فی یوم القیامه،لیکون ذلک تسلیه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین،و تحذیرا-کذلک-للمعارضین العصاه.

فهذه الآیه تشیر-أوّلا-إلی قانون عام یشمل جمیع الأحیاء فی هذا الکون و تقول: كُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَهُ الْمَوْتِ .

و الناس،و إن کان أکثرهم یحب أن ینسی مسأله الفناء و یتجاهل الموت، و لکن هذا الأمر حقیقه واقعه إن حاولنا تناسیها و التغافل عنها،فهی لا تنسانا،و لا تتغافل عنّا.

إنّ لهذه الحیاه نهایه لا محاله،و لا بدّ أن یأتی ذلک الیوم الذی یزور فیه الموت کل أحد،و لا یکون أمامه-حینئذ-إلاّ أن یفارق هذه الحیاه.

إن المراد من«النفس»فی هذه الآیه هو مجموعه الجسم و الروح،و إن کانت النفس فی القرآن تطلق أحیانا علی خصوص«الرّوح»أیضا.

و التعبیر بالتذوق إشاره إلی الإحساس الکامل،لأن المرء قد یری الطعام بعینیه أو یلمسه بیده،و لکن کل هذه لا یکون-و الأحری لا یحقق الإحساس الکامل بالشیء،نعم إلاّ أن یتذوق الطعام بحاسه الذوق فحینئذ یتحقق الإحساس الکامل،و کأن الموت-فی نظام الخلقه-نوع من الغذاء للإنسان و الأحیاء.

ثمّ تقول الآیه بعد ذلک وَ إِنَّمٰا تُوَفَّوْنَ أُجُورَکُمْ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ أی أنّه ستکون بعد هذه الحیاه مرحله أخری هی مرحله الثواب و العقاب،و بالتالی الجزاء علی الأعمال،فهنا عمل و لا حساب و هناک حساب و لا عمل.

و عباره«توفون»التی تعنی إعطاء الجزاء بالکامل تکشف عن إعطاء الإنسان أجر عمله-یوم القیامه-وافیا و بدون نقیصه،و لهذا لا مانع من أن یشهد الإنسان-فی عالم البرزخ المتوسط بین الدنیا و الآخره-بعض نتائج عمله،و ینال قسطا من الثواب أو العقاب،لأن هذا الجزاء البرزخی لا یشکل الجزاء الکامل.

ثمّ قال سبحانه: فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّٰارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّهَ فَقَدْ فٰازَ .

و کلمه«زحزح»تعنی محاوله الإنسان لإخراج نفسه من تحت تأثیر شیء، و تخلیصها من جاذبیته تدریجا.

و أمّا کلمه«فاز»فتعنی فی أصل اللغه«النجاه»من الهلکه،و نیل المحبوب و المطلوب.

و الجمله بمجموعها تعنی أنّ الذین استطاعوا أن یحرروا أنفسهم من جاذبیه النّار و دخلوا الجنّه فقد نجوا من الهلکه،و لقوا ما یحبونه،و کأن النّار تحاول بکلّ طاقتها أن تجذب الأدمیین نحو نفسها..حقّا أنّ هناک عوامل عدیده تحاول أن تجذب الإنسان إلی نفسها،و هی علی درجه کبیره من الجاذبیه.

ألیس للشهوات العابره،و اللذات الجنسیه الغیر المشروعه،و المناصب،

و الثروات الغير المباحه مثل هـذه الجاذبيه القويه؟؟ كما أنّه يستفاد من هـذا التعبير أن الناس ما لم يسعوا و يجتهـدوا لتخليص أنفسهم و تحريرها من جاذبيه هذه العوامل المغريه الخداعه فإنّها ستجذبهم نحو نفسها تدريجا،و سيقعون فى أسرها فى نهايه المطاف.

أمّا إذا حاولوا من خلال تربيه أنفسهم و ترويضها،و تمرينها على مقاومه هـذه الجواذب و المغريات و كبح جماحها،و بلغوا بها إلى مرتبه«النفس المطمئنه» كانوا من النّاجين الواقعيين،الذين يشعرون بالأمن و الطمأنينه.

ثمّ يقول سبحانه فى نهايه هذه الآيه: وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ .

و هـذه الجمله تكمل البحث السابق و كأنها تقول:إنّ هذه الحياه مجرّد لهو و متاع تخدع الإنسان من بعيد،فإذا بلغ إليها الإنسان و نال منها و لمسها عن كثب وجدها-على الأغلب-فراغا فى فراغ و خواء فى خواء،و ما متاع الغرور إلاّ هذا.

هـذا مضافا إلى أن اللذائـذ الماديه تبـدو من بعيد و كأنها خالصه من كل شائبه، و خاليه من كل ما يكدرها،حتى إذا اقترب إليها الإنسان وجدها ممزوجه بكل ألوان العناء و العذاب،و هذا جانب آخر من خداع الحياه الماديه.

كما أنّ الإنسان ينسى-فى أكثر الأحيان-طبيعته الفانيه،و لكنه سرعان ما ينتبه إلى أنّها سريعه الزوال،قابله للفناء.

إنّ هـذه التعابير قـد تكررت فى القرآن و الأحاديث كثيرا،و الهـدف منها جميعا شـىء واحـد هو أن لا يجعل الإنسان هذه الحياه الماديه و لـذاتها العابره الفانيه الزّائله هـدفه الأخير،و مقصـده الوحيـد النّهائى الـذى تكون نتيجته الغرق و الارتطام فى شتى ألوان الجريمه و المعصيه،و الابتعاد عن الحقيقه و عن التكامل الإنسانى،و أمّا الانتفاع بالحياه الماديه و مواهبها كوسيله للوصول إلى التكامل الإنسانى و المعنوى فليس غير مذموم فقط،بل هو ضرورى و واجب.

ص :٣۵

الآيه [سوره آل عمران (۳): آیه ۱۸۶]

اشاره

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوٰالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ اَلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ اَلْأُمُورِ (۱۸۶)

سبب النّزول

عند ما هاجر المسلمون من مكّه إلى المدينه و ابتعدوا عن دورهم و ديارهم، راحت أيدى المشركين تطال أموالهم و تمتدّ إلى ممتلكاتهم،و تنالها بالتصرف و السيطره عليها،و إيذاء كلّ من وقعت عليه أيديهم و الإيقاع فيه بالجهاء و الاستهزاء.

و عند ما جاؤوا إلى المدينه،واجهوا أذى اليهود القاطنين فى المدينه،خاصّه «كعب بن الأشرف»الذى كان شاعرا سليط اللسان،فقد كان كعب هذا يهجو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين و يحرض المشركين عليهم حتى أنّه كان يشبب بنساء المسلمين و يصف محاسنهن و يتغزل بهن.

و قد بلغت وقاحته مبلغا دفعت بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى أن يأمر بقتله،فقتل على أيدى المسلمين غيله.

ص: ۳۶

و الآیه الحاضره-حسب بعض الأحادیث المنقوله عن المفسرین-تشیر إلی هذه الأمور و تحث المسلمین علی مواصله الصمود و المقاومه.

التّفسیر

اشاره

لا تتبعكم المقاومه:

لَتُبْلَوُنَّ فِی أَمْوٰالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ

أجل إنّ هذه الحیاه-أساسا-ساحه اختبار و دار إمتحان،فلا بدّ أن یتهیأ الإنسان لمواجهه كل الحوادث و المفاجئات الصعبه العسیره،و هذا فی الحقیقه تنبیه و تحذیر لجمیع المسلمین بأن لا یظنوا بأن الحوادث العسیره فی حیاتهم قد انتهت،أو أنّهم قد تخلصوا من أذی الأعداء، و سلاطه لسانهم بمجرد قتلهم لكعب بن الأشرف الشاعر السلیط اللسان الذی كان یؤذی المسلمین بلسانه،و شعره.

و لهذا قال سبحانه: وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِینَ أَشْرَكُوا أَذیً كَثِیراً .

إنّ مسأله التعرض الأذی المشركین اللسانی و سبهم و شتمهم و هجائهم و إن كانت من إحدی الابتلاءات التی جاء ذكرها فی مطلع الآیه،و لكنه ذكر هنا بخصوصه للأهمیه الفائقه،لأن مثل هذا قلّما یتحمله الشرفاء من الناس لعظیم أثره فی أرواحهم و نفوسهم،و من قدیم قال الشاعر:

جراحات السنان لها التیام

و لا یلتام ما جرح اللسان

ثمّ أنّه سبحانه عقب علی هذا الإنذار و التنبیه بقوله: وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .

و بهذا یبیّن القرآن وظیفه المسلمین و واجبهم فی أمثال هذه الحوادث الصعبه و الظروف العسیره،و یدعوهم إلی الصبر و الاستقامه و الصمود و التزام التقوی فی مثل هذه الحوادث معلنا بأن هذه الأمور من الأمور الواضحه النتائج،

و لذلک یتعین علی کل عاقل أن یتخذ موقفه منها.

و العزم فی اللغه هو«القرار المحکم»و ربّما یطلق علی مطلق الأمور المحکمه،و علی هذا فإن«عزم الأمور»یعنی الأعمال البینه الرشد التی یجب علی کل إنسان عاقل العزم علیها أو بمعنی کل أمر محکم یطمأن إلیه.

و اقتران الصبر بالتقوی فی هذه الآیه لعله إشاره إلی أن بعض الأشخاص قد یصبرون و لکنهم مع ذلک یظهرون الشکوی،و یبدون التبرم بما لقوا،و لکن المؤمنین الصادقین هم الذین یمزجون الصبر بالتقوی دائما و أبدا و یتجنبون مثل ذلک السلوک.

ص :۳۸

الآيه [سوره آل عمران (۳): آيه ۱۸۷]

اشاره

وَ إِذْ أَخَذَ اَللّٰهُ مِيثٰاقَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتٰابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّٰاسِ وَ لاٰ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرٰاءَ ظُهُورِهِمْ وَ اِشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مٰا يَشْتَرُونَ (۱۸۷)

التّفسير

بعد ذكر جمله من أعمال أهل الكتاب المشينه و مخالفاتهم تشير الآيه الحاضره إلى واحده أخرى من تلك الأعمال و المخالفات،ألا و هو كتمان الحقائق فتقول: وَ إِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّٰاسِ وَ لاٰ تَكْتُمُونَهُ ،أى اذكروا إذ أخذ اللّه مثل هذا الميثاق منكم.

و الملفت للنظر أن عباره«لتبيّننه»جاءت مع لام القسم،و نون التأكيد الثقيله، و ذلك نهايه فى التأكيد.

ثمّ أردفها-مع ذلك-بقوله:«و لا تكتمونه»الذى هو أمر صريح بعدم الكتمان و الإخفاء.

و من كل هذه التعابير يتضح أو يستفاد أن اللّه سبحانه قد أخذ بوساطه الأنبياء السابقين آكد المواثيق و العهود من أهل الكتاب لإظهار الحقائق،و بيانها،و لكنّهم رغم كل ذلك-خانوا تلك العهود و تجاهلوا تلك المواثيق،و أخفوا ما أرادوا

ص: ۳۹

إخفـائه من حقائق الكتب السـماويه،و لهـذا قال سـبحانه عنهم فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ أنّها كنايه رائعه عن عـدم العمل بالواجب و تناسيه،لأن الإنسان إذا عزم على العمل بشىء و أراد جعله ملاكا له،فإن يجعله قدامه،و ينظر إليه مره بعد اخرى،و لكنه إذا لم يرد العمل به و أراد تناسيه بالمره أزاحه من وجهه،و ألقاه خلف ظهره.

ثمّ أنّه سبحانه أشار إلى حرص اليهود و جشعهم و حبّهم المفرط للدنيا إذ يقول: وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ .

إن حبّهم الشديـد للـدنيا الـذى بلغ حـد العبـاده،و انحطـاطهم الفكرى آل بهم إلى أن يكتموا الحقائق لقاء مكاسب ماديه،و لكن الآيه تقول:أنهم لم يشتروا بذلك و لم يكسبوا إلاّ ثمنا قليلا،و بئس ما يشترون.

و لو أنهم قـد حصـلوا لقـاء كتمـان الحقـائق-هـذه الجريمه الكبرى-على ثروه عظيمه و طائله لكان ثمّه مجال لأن يقال:إنّ عظمه المال و الثروه قـد أعمت أبصارهم و أسـماعهم،و لكن الذى يدعو إلى الدهشه و العجب أنّهم باعوا كلّ ذلك لقاء ثمن بخس و متاع قليل،(طبعا المقصود هنا هو علماؤهم الدنيئو الهمه).

العلماء و الوظيفه الكبرى:

إن الآيه الحاضـره و إن كانت قـد وردت بحق أهل الكتاب(من اليهود و النصارى)إلاّ أنّها فى الحقيقه تحـذير و إنذار لكل علماء الدين و رجاله بأن عليهم أن يجتهدوا فى تبليغ الحقائق و بيان الأحكام الإلهيه،و توضـيحها و إظهارها بجلاء،و إن ذلك ممّا كتبه اللّه عليهم،و أخذ منهم ميثاقا مؤكدا و غليظا.

إنّ كلمه«لتبيّننه»و مـا اشـتقت منه فى أصـل اللغه فى هـذه الآيه تكشف عن أنّ المقصود ليس هو فقط تلاوه آيات اللّه أو نشـر ما احتوت عليه الكتب السماويه من كلمات و عبارات،بل المقصود هو عرض ما فيها من الحقائق على الناس،

و جعلها فی متناول الجمیع بوضوح و دون غبش لیقف علیها الناس أجمعون من دون إبهام،و یتذوقونها بأرواحهم و أفئدتهم دون أیّه حجب و سدود.

فالذین یتقاعسون أو یقصرون فی عرض الحقائق الإلهیه و بیانها و توضیحها للمسلمین لا شک تشملهم هذه الآیه،و ینالهم نفس المصیر الذی ذکره اللّه فیها لعلماء الیهود و أحبارهم.

فقد روی عن النّبی الأکرم-صلّی اللّه علیه و آله و سلّم-أنّه قال: «من کتم علما عن أهله ألجم یوم القیامه بلجام من نار».

و عن الحسن بن عمار قال:أتیت الزهری بعد أن ترک الحدیث فألفیته علی بابه فقلت:إن رأیت أن تحدّثنی فقال:أو ما علمت أنّی ترکت الحدیث،فقلت:إمّا أن تحدّثنی و إمّا أن أحدثک؟فقال:حدّثنی فقلت:

حدّثنی الحکم بن عیینه عن نجم الجزار قال:سمعت علی بن أبی طالب علیه السّلام یقول: «ما أخذ اللّه علی أهل الجهل أن یتعلموا حتی أخذ علی أهل العلم أن یعلموا».

قال:فأطرق برأسه ملیا بعد أن سمع قولی ثمّ قال:اسمع لأحدثک،فحدثنی أربعین حدیثا. (۱)

هذا و للتعرف-بصوره أکبر-علی خیانات أحبار الیهود و علماء النصاری، راجع الآیات(۷۹ و ۱۷۴)من سوره البقره،و الآیات(۷۱ إلی ۷۷)من سوره آل عمران.

۱- ۱) -تفسیر أبو الفتوح الرازی،و تفسیر مجمع البیان عند تفسیر هذه الآیه،و متن الحدیث العلوی منقول عن نهج البلاغه.

الآیتان [سوره آل عمران (۳): الآیات ۱۸۸ الی ۱۸۹]

اشاره

لاٰ تَحْسَبَنَّ اَلَّذِینَ یَفْرَحُونَ بِمٰا أَتَوْا وَ یُحِبُّونَ أَنْ یُحْمَدُوا بِمٰا لَمْ یَفْعَلُوا فَلاٰ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفٰازَهٍ مِنَ اَلْعَذٰابِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۱۸۸) وَ لِلّٰهِ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۸۹)

سبب النّزول

ذکر المحدّثون و المفسرون أسبابا عدیده لنزول هذه الآیه،منها أن الیهود کانوا یفرحون لما یقومون به من تحریف لآیات الکتب السماویه و کتمان حقائقها ظنا منهم بأنّهم یحصلون من وراء ذلک علی نتیجه،و فی الوقت نفسه کانوا یحبّون أن ینسبهم الناس إلی العلم،و یعتبرونهم من حماه الدین فنزلت هذه الآیه ترد علی تصورهم الخاطئ هذا.

و قال آخرون أنّها نزلت فی شأن المنافقین،لأنهم کانوا یجمعون و یتفقون علی التخلف عن الجهاد مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذا نشبت حرب من الحروب الإسلامیه،متذرّعین لذلک بمختلف المعاذیر و الحجج،فإذا عاد المجاهدون من القتال اعتذروا و حلفوا لهم بأنّهم کانوا یودّوا المشارکه لو لا بعض الأعذار، و أحبوا بالتالی أن یقبل منهم العذر و یحمدوا بما لیسوا علیه من الإیمان و بما لم یفعلوه من أفعال المجاهدین الصادقین.فنزلت هذه الآیه ترد علی هذا التوقع غیر

المبرر و غير الوجيه (۱) .

التّفسير

اشاره

المعجبون بأنفسهم:

المرتكبون لقبائح الفعال على نوعين:طائفه تستحى من أفعالها فور انتباهها إلى قبح ما فعلت،و هى لم تفعل ما فعلت من القبيح إلّا لطغيان غرائزها،و هيجان شهواتها،و هذه الطّائفه سهله النّجاه جدا،لأنها تندم بعد كل قبيح ترتكبه، و تتعرض لوخز ضميرها و عتب وجدانها باستمرار.

بيد أنّ هناك طائفه اخرى ليست فقط لا تشعر بالندم و الحياء ممّا ارتكبت من الإثم،بل هى على درجه من الغرور و الإعجاب بالنفس بحيث تفرح بما فعلت،بل تتبجح به و تتفاخر،بل و فوق ذلک تريد أن يمدحها الناس على ما لم تفعله أبدا من صالح الأعمال و حسن الفعال.

إنّ الآيه الحاضره تقول عن هؤلاء: لاٰ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمٰا أَتَوْا وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمٰا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاٰ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفٰازَهٍ مِنَ الْعَذٰابِ أى لا تحسبن أن هؤلاء يعذرون على موقفهم هذا و ينجون من العذاب،إنّما النجاه لمن يستحون-على الأقل-من أعمالهم القبيحه،و يندمون على أنّهم لم يفعلوا شيئا من الأعمال الصالحه.

إنّ هؤلاء المعجبين بأنفسهم ليسوا فقط ضلّوا طريق النجاه و حرّموا من الخلاص،بل وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ ينتظرهم.

و يمكن أن نستفيد من هذه الآيه أن ابتهاج الإنسان بما وفق لفعله و إتيانه من صالح الإعمال ليس مذموما(إذا كان ذلک لا يتجاوز حد الاعتدال،و لم يكن سببا للغرور و العجب)،و هكذا الحال فى رغبه الإنسان فى التشجيع و الإجلال على

۱- ۱) -أسباب النزول للواقدى فى تفسير هذه الآيه و تفسير المنار و تفسير مجمع البيان.

الأفعال الحسنه إذا كان-كـذلك-فى حـدود الاعتـدال،و لم يكن الإتيان بتلك الأعمال الصالحه بدافع الحصول على ذلك،لأن كل ذلك من غريزه الإنسان و مقتضـى فطرته.و لكن أولياء اللّه و من هم فى المسـتويات العليا من الإيمان بعيـدون حتى من مثل هذا الابتهاج المباح و حبّ التقدير الغير المذموم.

إنّهم يرون أعمـالهم دائمـا دون المسـتوى المطلوب،و يشـعرون أبـدا بالتقصـير تجـاه ربّهم العظيم،و بالتفريـط فى جنبه سـبحانه و تعالى.

على أنّه ينبغى أن لا نتصور أنّ الآيه الحاضـره-مورد البحث-تختص بأهل النفاق فى صدر الإسـلام أو من شاكلهم-فى كل عصر و زمان-و فى جميع الظروف و المجتمعات المختلفه،ممن يفرحون و يبتهجون بأعمالهم القبيحه أو يحركون الآخرين ليحمدوهم على ما لم يفعلوه بالقلم أو اللسان.

إنّ مثـل هؤلاـء مضافـا إلى العـذاب الأـليم فى الآخره،سيصـيبهم-فى هـذه الحياه-غضب الناس و سـخطهم،و سـيؤول أمرهم إلى الانفصال عن الآخرين و إلى غير ذلك من العواقب السيئه.

ثمّ إنّ اللّه سـبحانه يقول فى آيه لاحقه: وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و هذا الكلام يتضـمن بشـرى للمؤمنين،و تهديدا للكافرين، فهى تقول:إنّه لا داعى لأن يسـلك المؤمنون لإحراز التقدم طرقا و سبلا منحرفه، و أن يحمدوا على ما لم يفعلوه،ذلك لأنّهم يقدرون أن يواصـلوا تقدمهم،و يحرزوا النجاحات بالاستفاده من السبل المشروعه و الصحيحه و فى ظل قـدره اللّه خـالق السـماوات و الأرضـين، كمـا أنّه على المنـافقين و العصاه أن لا يتصوروا أنّهم قادرون على إحراز شـىء أو على الخلاص و النجاه من عقاب خالق الكون و ربّ السماوات و الأرضين بسلوك هذه السبل المنحرفه و استخدام هذه الأساليب غير المشروعه!.

ص :۴۴

الآیات [سوره آل عمران (۳): الآیات ۱۹۰ الی ۱۹۴]

اشاره

إِنَّ فِی خَلْقِ اَلسَّمَاوَاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اِخْتِلاٰفِ اَللَّیْلِ وَ اَلنَّهٰارِ لَآیٰاتٍ لِأُولِی اَلْأَلْبٰابِ (۱۹۰) اَلَّذِینَ یَذْکُرُونَ اَللّٰهَ قِیٰاماً وَ قُعُوداً وَ عَلیٰ جُنُوبِهِمْ وَ یَتَفَکَّرُونَ فِی خَلْقِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ رَبَّنٰا مٰا خَلَقْتَ هٰذٰا بٰاطِلاً سُبْحٰانَکَ فَقِنٰا عَذٰابَ اَلنّٰارِ (۱۹۱) رَبَّنٰا إِنَّکَ مَنْ تُدْخِلِ اَلنّٰارَ فَقَدْ أَخْزَیْتَهُ وَ مٰا لِلظّٰالِمِینَ مِنْ أَنْصٰارٍ (۱۹۲) رَبَّنٰا إِنَّنٰا سَمِعْنٰا مُنٰادِیاً یُنٰادِی لِلْإِیمٰانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّکُمْ فَآمَنّٰا رَبَّنٰا فَاغْفِرْ لَنٰا ذُنُوبَنٰا وَ کَفِّرْ عَنّٰا سَیِّئٰاتِنٰا وَ تَوَفَّنٰا مَعَ اَلْأَبْرٰارِ (۱۹۳) رَبَّنٰا وَ آتِنٰا مٰا وَعَدْتَنٰا عَلیٰ رُسُلِکَ وَ لاٰ تُخْزِنٰا یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ إِنَّکَ لاٰ تُخْلِفُ اَلْمِیعٰادَ (۱۹۴)

التّفسیر

اشاره

أهمیه هذه الآیات:

لا شک أنّ جمیع الآیات القرآنیه تتمتّع بأهمیه کبری لأنّها جمیعا کلام اللّه، و آیاته التی نزلت لتربیه الإنسان و نجاته و خلاصه،و إلّا أنّ هناک من الآیات ما تحظی و تتمیز علی سواها ببریق خاص،و من هـذا الصـنف ما نقرؤه الآن من الآیات الخمسه التی تعد من القمم القرآنیه العظیمه التأثیر،و التی امتزجت فیها

ص: ۴۵

مجموعه من معارف الدین بلحن لطیف و ساحر من المناجاه و الدعاء،فإذا هی نعمه سماویه تدغدغ المشاعر،و تثیر الشعور،و تحرک ما غفا من العقل و الضمیر.

و لهذا أولتها الأحادیث و الأخبار المرویه أهمیه خاصّه و مکانه سامیه بین غیرها من الآیات.

عن«عطاء بن رباح»قال: قلت لعائشه:أخبرینی بأعجب ما رأیت من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قالت:و أی شأن لم یکن عجبا،أنّه أتانی لیله فدخل معی فی لحافی ثمّ قال:ذرینی أتعبد لربّی،فقام فتوضأ ثمّ قام یصلی،فبکی حتی سالت دموعه علی صدره فرکع فبکی،ثمّ سجد فبکی،ثمّ رفع رأسه فبکی فلم یزل کذلک حتی جاء بلال فأذنه بالصلاه،فقلت:یا رسول اللّه ما یبکیک و قد غفر اللّه لک ما تقدم من ذنبک و ما تأخر؟قال:أ فلا أکون عبدا شکورا،و لم لا أفعل و قد أنزل علیّ هذه اللیله: إِنَّ فِی خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلاٰفِ اللَّیْلِ وَ النَّهٰارِ لَآیٰاتٍ لِأُولِی الْأَلْبٰابِ -إلی قوله- سُبْحٰانَکَ فَقِنٰا عَذٰابَ النّٰارِ ثمّ قال:«ویل لمن قرأها و لم یتفکر فیها» (1) و العباره الأخیره التی تأمر الجمیع-بتأکید کبیر-بأن یفکروا فی هذه الآیات،و قد رویت فی روایت عدیده بعبارات مختلفه.

و

فی روایه عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان إذا قام الصلاه اللیل یسوک،ثمّ ینظر إلی السماء ثمّ یقول: إِنَّ فِی خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ... إلی قوله تعالی: فَقِنٰا عَذٰابَ النّٰارِ (2) .

و ورد عن الأئمّه من أهل البیت علیه السّلام الأمر بقراءه هذه الآیات الخمس وقت القیام باللیل للصلاه (3) .

و

عن نوف البکالی قال: بت لیله عند أمیر المؤمنین علیه السّلام فکان یصلی اللیل

1- 1) -تفسیر الدر المنثور،ج 2،ص 111،و تفسیر أبی الفتوح الرازی فی ذیل هذه الآیات.

2- 2) -تفسیر نور الثقلین و مجمع البیان.

3- 3) -المصدر السابق.

كلّه،و يخرج ساعه بعد ساعه فينظر إلى السماء و يتلو القرآن-و يردد هذه الآيات -فمرّ بى بعد هدوء الليل،فقال:يا نوف أ راقد أنت أم رامق؟.

قلت:بل رامق ببصرى يا أمير المؤمنين.

قال:«يا نوف طوبى للزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخره،أولئك الذين اتخذوا الأرض بساطا،و ترابها فراشا،و ماءها طيبا،و القرآن دثارا،و الدعاء شعارا...» (۱) .

التّفسير

اشاره

أوضح السّبل لمعرفه اللّه:

آيات القرآن الكريم ليست للقراءه و التلاوه فقط،بل نزلت لكى يفهم الناس مقاصدها و يدركوا معانيها،و ما التّلاوه و القراءه إلّا مقدمه لتحقيق هذا الهدف،أى التفكر و التدبر و الفهم،و لهذا جاء القرآن فى الآيه الأولى من الآيات الحاضره يشير إلى عظمه خلق السماوات و الأرض،و يقول: إِنَّ فِی خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلاٰفِ اللَّیْلِ وَ النَّهٰارِ لَآیٰاتٍ لِأُولِی الْأَلْبٰابِ (۲) .

و بهذا يحثّ الناس على التفكر فى هذا الخلق البديع و العظيم، ليصيب كلّ واحد منهم-بقدر استعداده،و قدرته على الإستيعاب- من هذا البحر العظيم الذى لا يدرك له ساحل و لا قعر،و يرتوى من منهل أسرار الخلق العذب.

حقّا أنّ هذا الكون العظيم بما فيه من نظام متقن و بديع،و نقوش رائعه، و لوحات خلابه كتاب بالغ العظمه،كتاب فى كلّ حرف من حروفه،و كل سطر من أسطره دليل ساطع على وجود اللّه الخالق المبدع و وحدانيته،و تفرّده (۳) .

۱- ۱) -سفينه البحار،ماده نوف،ج ۲،ص ۶۲۲.

۲- ۲) -التعبير بأولى الألباب-فى هذه الآيه و آيات عديده اخرى فى الكتاب العزيز-إشاره لطيفه إلى أرباب العقول، لأن اللب من كلّ شيء خيره خالصه،و لا شك أنّ العقل هو خير ما فى الإنسان،و هو عصاره وجوده الإنسانى.

۳- ۳) -لقد بحثنا فى المجلد الأوّل من هذا التّفسير فى معنى اختلاف الليل و النهار و أسرارهما عند تفسير الآيه ۱۶۴ من سوره البقره فراجع.

إنّ هـذا النقش الساحر الآسـر للقلوب،المبثوث فی كل ناحيه من نواحی هذا الكون العريض يشدّ إلی نفسه فؤاد كلّ لبيب و عقله شـدّا-يجعله يتـذكر خالقه،فی جميع الحالات،قائما أو قاعـدا،و حين يكون فی فراشه نائما علی جنبه،و لهذا يقول سـبحانه: اَلَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِهِمْ أی أنّهم مستغرقون كامل الاستغراق فی التفكير الحيوی حول هذا الكون الرائع و نظامه البديع و مبدعه،و مبديه.

و لقـد أشـير-فی هـذه الآ-يه-إلی الـذكر أوّلا،ثمّ إلی الفكر ثانيا،و يعنی ذلک أن ذكر اللّه وحـده لا يكفی،إنّ الـذكر إنّما يعطی ثماره القيّمه إذا كان مقترنا بالفكر،كما أنّ التفكر فی خلق السـماء و الأرض هو الآخر لا يجـدی و لا يوصل إلی النتيجه المتوخاه ما لم تقترن عمليه التفكر بعمليه التذكر،و بالتالی لا يقرن الفكر بالذكر.

فمـا أكثر العلمـاء الـذين يقفون-فی تحقيقـاتهم الفلكيه و الفضـائيه-علی مظاهر رائعه من النظام الكونی البـديع،و لكنّهم حيث لا يتــذكرون اللّـه و لا- ينظرون إلی كـل هــذه المظـاهر بمنظـار الموحـد الفـاحص،بـل ينظرون إليهـا مـن الزاويـه العلميـه المجرده البحته،فإنّهم لا يقطفون من هـذه التحقيقات ما يترتب عليها من النتائج التربويه و الآثار الإنسانيه، و مثلهم فی ذلک مثل من يأكل طعاما ليقوی به جسمه فلا يكون لما يأكله أی أثر فی تقويه فكره و روحه.

إنّ التفكير فی أسـرار الخليقه،و فی نظـام السـماء و الأرض يعطی للإنسان وعيا خاصّا و يترک فی عقله آثارا عظيمه،و أوّل تلک الآثار هو الانتباه إلی هـدفيه الخلق و عـدم العبثيه فيه،فالإنسان الـذی يلمس الهـدفيه فی أصـغر أشـياء هذا الكون كيف يمكنه أن يصـدق بـأنّ الكون العظيم بأسـره مخلوق من دون هـدف، و مصـنوع من دون غـايه؟ لو أنّنـا نظرنـا فی تركيبه نبته معينه للا-حظنا أهدافا واضحه فيها،و هكذا نلاحظ مثل تلک الأهداف فی قلب الإنسان و ما فيه من حفر،و صمامات،و أبواب

و بطون،فكلّ شىء فيه مخلوق لغايه،و مجعول لهدف،و كذا الحال فى طبقات العين،بل و حتى الأجفان،و الأظافر،كل واحد منها يؤدى دورا،و يحقق غـايه، فهـل يمكن أن يكون لهـذه الأـجزاء الصـغيره جـدا بالنسـبه للكون العظيم أهـداف واضـحه و غايـات ملحوظه،و لا يكون لمجموعه المتمثل فى الظاهره الكونيه الهائله العظيمه أى هدف مطلقا؟ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطِلاً .

إنّ العقلاء لا يمكنهم و هم يواجهون هـذه الحقيقه الساطعه إلاّ أن يقولوا بخشوع هذه الجمله: رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطِلاً سُبْحانَکَ أى ربّنا إنّک لم تخلق هذا العالم العظيم،و هذا الكون الذى لا يعرف له حدّ،و هذا النظام المتقن البديع الاّ على أساس الحكمه و المصلحه،و لهدف صحيح،فكل هذا آيه وحدانيتک،و كل هذا ينزّهک عن اللغو و العبث.

إن أصـحاب العقول السـليمه الواعيه بعـد أن يعترفوا بالهـدفيه فى الخليقه يتـذكرون أنفسـهم فورا،و كيف يعقل أن يكونوا-و هم ثمره هـذا الموجود نفسه و هـذا الكون بالـذات-قد خلقوا سدى،أو جاؤوا إلى هذه الحياه عبثا،و أنّه ليس هناک من هدف سوى تربيتهم و تكاملهم!! إنّهم لم يأتوا إلى هذه الحياه لأجل أن يعيشوا فيها أيّاما سـرعان ما تفنى و تنقضـى،فذلک أمر لا يستحق كلّ هـذا العناء و التعب كما لا يليق بمكانه الإنسان و لا يتناسب مع حكمه اللّه العليا،بل هناک دار اخرى تنتظرهـم حيث يجـدون فيها جزاء أعمالهم،أن خيرا فخير،و إن شرّا فشر،و فى هذه اللحظه ينتبهون إلى مسئولياتهم،و يسألون اللّه التوفيق للقيام بها حتى يتجنبوا عقابه،و لهذا يقول:

فَقِنا عَذابَ النّارِ

ثمّ يقول: رَبَّنا إِنَّکَ مَنْ تُدْخِلِ النّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ... .

و يسـتفاد مـن هـذه العبـارات أنّ العقلاـء يخـافون مـن الخزى قبـل أن يخـافوا مـن نـار جهنـم،و هـذا هـو حـال كـل من يمتلک شخصيه،فإنّه مستعد لأن يتحمل كلّ شىء من الأذى و المحن شريطه أن يحافظ على شخصيته،و لهذا فإن أشدّ

عقوبات الآخره على هؤلاء هو الخزى فى محضر اللّه و عند عباده.

على أن النقطه الجديره بالاهتمام التى تنطوى عليها جمله وَ مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ أَنْصٰارٍ هى أن العقلاء بعد التعرف على الأهداف التربويه المطلوبه للإنسان يقفون على هذه الحقيقه و هى أن الوسيله الوحيده لنجاح الإنسان و نجاته هى أعماله و ممارساته،و لهذا لا يمكن أن يكون للظالمين أى أنصار،لأنّهم فقدوا النصير الأصلى و هو العمل الصالح،و التركير على لفظه«الظلم»إمّا لأجل خطوره هذه المعصيه من بين المعاصى الاخرى،و إمّا لأن جميع الذنوب ترجع إلى ظلم الإنسان لنفسه.

على أنّه ليست ثمّه أيّه منافاه بين هذه الآيه و مسأله الشفاعه(بمعناها الصحيح)لأنّ الشفاعه(كما قلنا سابقا فى بحث الشفاعه)تحتاج إلى قابليه و أهليه خاصّه فى المشفوع له،و هذه الأهليه و الصلاحيه لشمول الشفاعه تحصل فى ضوء بعض الأعمال الصالحه الخيره.

ثمّ إنّ أصحاب العقول و ذوى الألباب بعد التعرف على هدف الكون و الغايه من الخلق ينتبهون إلى هذه النقطه،و هى أنّ هذا الطريق الوعر يجب أن لا يسلكه أحد بدون قياده الهداه الإلهيين،و لهذا فهم يترصّدون نداء من يدعوهم إلى الإيمان بصدق و إخلاص و يستجيبون لأوّل دعوه يسمعونها منه و يسرعون إليه، و يعتنقونها بعد أن يحققوا فيها،و يتأكدوا من صدقها و صحّتها و يؤمنون بها بكلّ وجودهم،و لهذا يقولون فى محضر ربّهم:

رَبَّنٰا إِنَّنٰا سَمِعْنٰا مُنٰادِياً يُنٰادِي لِلْإِيمٰانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنّٰا رَبَّنٰا فَاغْفِرْ لَنٰا ذُنُوبَنٰا وَ كَفِّرْ عَنّٰا سَيِّئٰاتِنٰا وَ تَوَفَّنٰا مَعَ الْأَبْرٰارِ

.

أى ربّنا الآن و قد أمنا بكل وجودنا و إرادتنا،و لكننا يحيط بنا طوفان الغرائز المختلفه من كلّ جانب،فربّما ننزلق و ربّما نزلّ و نرتكب معصيه،ربّنا فاغفر لنا زلتنا،و استر عثرتنا،و توفّنا مع الأبرار الصالحين.

لقد اتصل هؤلاء بالمجتمع الإنسانى اتصالا عجيبا،و تركوا التفرد و الأنانيه إلى درجه أنّهم يطلبون من اللّه فى دعواتهم أن لا يجعلهم مع الأبرار و الصالحين فى حياتهم فحسب،بل يجعل مماتهم-سواء أ كان مماتا طبيعيا أو بالشهاده فى سبيل اللّه-كممات الأبرار الصالحين أيضا،أو يحشرهم معهم،لأن الموت مع الأشرار موته مضاعفه،و عناء مضاعف.

و هنا يطرح سؤال و هو:ما ذا يعنى الستر على السيئات بعد طلب غفرانها؟ و الجواب هو:مع ملاحظه بقيه الآيات القرآنيه تتضح حقيقه الإجابه على هذا السؤال،فإن الآيه ۳۱ من سوره النساء تقول: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبٰائِرَ مٰا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ فيستفاد من ذلک أنّ السيئات تطلق على المعاصى الصغيره،و لهذا فإنّ العقلاء ذوى الألباب يطلبون من اللّه فى أدعيتهم و ضراعاتهم أن يغفر لهم ذنوبهم الكبيره،و يستر-عقب ذلک-على ذنوبهم الصغيره،و يمحو آثارها من الوجود.

ثمّ أن هؤلاء العقلاء يطلبون من ربّهم فى نهايه المطاف،و بعد أن يسلكوا طريق الإيمان و التوحيد و إجابه دعوه الأنبياء و القيام بالواجبات الموجهه إليهم، أن يؤتيهم وعدهم على لسان الرسل فيقولون: رَبَّنٰا وَ آتِنٰا مٰا وَعَدْتَنٰا عَلىٰ رُسُلِکَ أى ربّنا لقد وفينا بالتزاماتنا،فأتنا ما وعدتنا عن طريق أنبيائک و رسلک و لا تفضحنا و لا تلحق بنا الخزى يوم القيامه: وَ لاٰ تُخْزِنٰا يَوْمَ الْقِيٰامَهِ إِنَّکَ لاٰ تُخْلِفُ الْمِيعٰادَ .

إنّ التركيز على«الخزى»يؤكّد مرّه أخرى هذه الحقيقه الهامّه،و هى أن هؤلاء بسبب ما يرون لشخصيتهم من أهميه و احترام يعتبرون«الخزى»من أشد ما يلحق بالإنسان من الأذى،و لهذا يركزون عليه دون سواه من ألوان العقوبات.

و

فى مستدرک الوسائل نقلا عن أبى الفتوح الرّازى فى تفسيره،أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: من كان له إلى اللّه حاجه فليقل خمس مرات ربّنا يعطى حاجته،و مصداق

ذلک فی کلام اللّه فی قوله تعالی: رَبَّنٰا مٰا خَلَقْتَ هٰذٰا بٰاطِلاً إلی آخر الآیات فیها ربّنا خمس مرّات ثمّ قال تعالی: فَاسْتَجٰابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ (1) .

و من الواضح الذی لا یخفی أن التأثیر الواقعی و العمیق لهذه الآیات،إنما یتحقق إذا وافق اللسان فی ما یقوله القلب و العمل،و أن یحل مضمون هذه الآیات الذی یکشف عن طریقه تفکیر اولی الألباب و شدّه حبّهم للّه،و إحساسهم بالمسؤولیات الملقاه علی عواتقهم،و القیام بواجباتهم،فی فؤاد قارئها و قلبه، فیحصل له نفس ذلک الخضوع و الخشوع الحاصل لأولی الألباب عند مناجاتهم للّه،و تضرعهم إلیه.

1- 1) -مستدرک الوسائل،ج 1،ص 369.

الآیه [سوره آل عمران (۳): آیه ۱۹۵]

اشاره

فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّی لا أُضِیعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْکُمْ مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی بَعْضُکُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِینَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِیارِهِمْ وَ أُوذُوا فِی سَبِیلِی وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُکَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَیِّئاتِهِمْ وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اَللّهِ وَ اَللّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ اَلثَّوابِ (۱۹۵)

سبب النّزول

هـذه الآـیه تعقیب علی الآیات السابقه حول أولی الألباب و العقول النّیره و نتیجه أعمالهم،و الشـروع بفاء التفریع-فی هـذه الآیه-أوضـح دلیل علی هذا الارتباط،و مع ذلک ذکرت أسـباب نزول متعدده لها فی الأحادیث و أقوال المفسـرین،لکنها لا تنافی-فی حقیقتها-الارتباط الذی ذکرناه لهذه الآیه مع الآیات السابقه.

و من جمله ذلک ما نقل عن أمّ سـلمه(و هی إحدی زوجات النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم)أنّها قالت للنبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم:یا رسول اللّه ما بال الرجال یذکرون فی الهجره دون النساء؟ فأنزل اللّه هذه الآیه.

کما نقل أیضا أنّ علیّا علیه السّلام لما هاجر بالفواطم(و هن فاطمه بنت أسد،و فاطمه

بنت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فاطمه بنت الزبير)من مكّه إلى المدينه،و لحقت به أم أيمن- و هى إحدى زوجات النّبى المؤمنات-فى أثناء الطريق نزلت الآيه الحاضره (۱) .

و المسأله كما قلناه،فإن الأسباب المذكوره لنزول الآيه لا تنافى الارتباط الذى أشرنا إليه بين هذه الآيه.و الآيات السابقه،كما أنه لا تنافى أيضا بين هذين السببين المذكورين للآيه أيضا.

التّفسير

اشاره

النّتيجه الطّيبه لموقف أولى الألباب:

فى الآيات الخمس الآنفه استعرض القرآن الكريم موجزا من إيمان أولى الألباب و العقول النّيره،و برامجهم العمليه،و طلباتهم و أدعيتهم،و فى هذه الآيه يقول سبحانه: فَاسْتَجٰابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ،و التعبير بلفظه«ربّهم»حكايه عن غايه اللّطف،و منتهى الرحمه الإلهيه بالنسبه إليهم:ثمّ يضيف قائلا: أَنِّي لاٰ أُضِيعُ عَمَلَ عٰامِلٍ مِنْكُمْ دفعا للاشتباه و التوهم الذى قد يسبق إلى الذهن بأنه لا ارتباط بين الفوز و النجاه،و بين أعمال الإنسان و مواقفه،ففى هذه العباره إشاره واضحه إلى أصل«العمل»و إشاره أيضا إلى عامله،حتى يتبيّن أن الملاك و المحور الأصلى لقبول الدعاء و استجابته هو الأعمال الصالحه الناشئه من الإيمان،و أنّ الأدعيه التى تستجاب فورا هى تلك التى يدعمها العمل الصالح.

ثمّ أنّه سبحانه يقول: مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ،بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ،و هذا لأجل أن لا يتصور أحد أنّ هذا الوعد الإلهى يختص بطائفه معينه كالذكور دون الإناث مثلا،فلا فرق فى هذا الأمر بين أن يكون العامل ذكرا أو يكون أنثى،لأنّ الجميع يعودون فى أصل الخلقه إلى مصدر واحد بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ أى تولد بعضكم من بعض،النساء من الرجال،و الرجال من النساء،فلا تفاوت فى هذه المسأله

۱- ۱) -مجمع البيان،ج ۲،ص ۵۵۹،و الميزان،ج ۴،ص ۹۵-۹۶.

إذن بين الـذكر أو الأنثى،فلما ذا يكون تفاوت فى الجزاء و الثواب؟ و يمكن أن تكون عباره بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ إشاره إلى أنّكم جميعا أتباع دين واحد،و رواد منهج واحد و أنصار حقيقه واحده،فلا معنى لأن يفرق اللّه سبحانه بين جماعه و اخرى و يميز بين طائفه و طائفه،و جنس و آخر.

ثمّ أنّه سبحانه يستنتج من ذلك إذ يقول: فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي،وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ ،أى أنّ اللّه سبحانه كتب على نفسه أن يغفر لهؤلاء ذنوبهم،جاعلا من هذه المشاق و المتاعب التى نالتهم كفاره لذنوبهم،ليطهروا من أدرانها تطهيرا.

ثمّ يقول تعالى: وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ مضافا إلى غفران ذنوبهم و التكفير عنهم.

و هذا هو الثواب الإلهى لهم على ما قاموا به من تضحيه و فداء ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللّهِ وَ اللّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ ...إنّ لهم أفضل الأجر عند اللّه و أحسنه،و قوله:

وَ اللّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ

إشاره إلى أنّ الأجر الإلهى و المثوبات الإلهيه ليست قابله للوصف للناس بشكل كامل فى هذه الحياه،بل يكفى أن يعلموا بأنّه أفضل و أعلى من أى ثواب.

هذا و يستفاد-جيدا-من هذه الآيه أن الإنسان لا بدّ أن يتطهّر من أدران الذنوب فى ظل العمل الصالح أوّلا،ثمّ يدخل فى رحاب القرب الرّبانى و النعيم الإلهى،لأنّه سبحانه قال أوّلا: لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ ثمّ قال: لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنّاتٍ .

و بعباره اخرى:أنّ الجنّه مقام المتطهرين،و لا طريق لمن لم يتطهر إليها.

القيّمه المعنويّه للرّجل و المرأه:

إن الآيه الحاضره-كبقيه الآيات القرآنيه الاخرى-تساوى بين الرجل

و المرأه عنـد اللّه،و فی مسأله الوصول إلی الـدرجات المعنویه،و لاـ تفرق بینهمـا بسـبب اختلافهما فی الجنس،و لا تعتبر الفروق العضویه و مـا یلحقهـا من الفروق فی المسؤولیـات الاجتمـاعیه دلیلاـ علی اختلافهمـا فی إمکـانیه الحصول علی درجات التکامل الإنسانی و بلوغهما للمقامات المعنویه الرفیعه،بل تعتبرهما فی مستوی واحد-من هذه الجهه-و لذلک ذکرتهما معا.

إن اختلافهما فی التکالیف و توزیع المسؤولیات یشبه إلی حد کبیر الاختلاف الذی تقتضیه مسأله النظام و الانضباط حیث یختار شخص کرئیس، و آخر کمعاون و مساعد،فإنّه ینبغی أن یکون الرئیس أکثر حنکه و أوسع علما، و أکثر تجربه فی مجال عمله،و لکن هـذا التفـاوت و الاختلاـف فی مراتب المسـؤولیه و سـلم الوظـائف لاـ یکون دلیلاـ مطلقـا علی أن شخصـیه الرئیس و قیمته الوجودیه أکثر من شخصیه معاونیه و مساعدیه،و قیمتهم الوجودیه.

إنّ القرآن الکریم یقول بصراحه: وَ مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثیٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِکَ یَدْخُلُونَ الْجَنَّهَ،یُرْزَقُونَ فِیهٰا بِغَیْرِ حِسٰابٍ (۱) .

و یقـول فی آیه اخری: مَنْ عَمِـلَ صٰالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثیٰ وَ هُـوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْیِیَنَّهُ حَیٰاهً طَیِّبَهً وَ لَنَجْزِیَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۲) .

هـذه الآیـات و غیرهـا مـن الآیـات القرآنیه الاـخری نزلت فی عصـر کـان المجتمـع البشـری فیه یشـک فی إنسـانیه جنس المرأه أساسا،بل و یعتقد أنها کائن ملعون،و أنها منبع کل إثم و انحراف و موت و فساد.

لقد کان الکثیر من الشعوب الماضیه تذهب فی نظرتها السلبیه تجاه المرأه إلی درجه أنها تعتقد أحیانا إنّ عباده المرأه و ما تقدمه فی سبیل اللّه لا تقبل،و کان الکثیر من الیونانیین یعتقدون أنّ المرأه کائن نجس و شریر و أنّها من عمل

۱- ۱) -غافر،۴۰.

۲- ۲) -النحل،۹۷.

الشّيطان،و كان الرّوم و بعض اليونانيين يعتقدون أنّ المرأه ليست ذات روح إنسانيه أساسا،و أن الرجل وحده هو الذى يحمل بين جنبيه مثل هذه الروح دون غيره.

و الملفت للنظر أن العلماء المسيحيين فى أسبانيا كانوا يبحثون-حتى إلى الآونه الأخيره-فى أن المرأه هل تملك-مثل الرجل-روحا إنسانيه أم لا؟و أن روحها هل تخلد بعد الموت أم لا؟ و قد توصلوا-بعد مداولات طويله-إلى أن للمرأه روحا برزخيه،و هى نوع متوسط بين الروح الإنسانيه و الروح الحيوانيه،و أنه ليس هناك روح خالده-بين أرواح النساء-إلاّ روح مريم (۱) .

من هنا يتضح مدى ابتعاد بعض المغفلين عن الحقيقه حيث يتهمون الإسلام أنّه دين الرجال دون النساء.

إنّ بعض الاختلاف فى نوع المسؤوليات الاجتماعيه الذى يقتضيه اختلافات فى التركيب العضوى و العاطفى لدى الرجل و المرأه لا يضرّ بالمرأه و قيمتها المعنويه أساسا،و لهذا لا يختلف الرجل و المرأه من هذه الجهه،فأبواب السعاده و التكامل الإنسانى مفتوحه فى وجهيهما كليهما على السواء كما ذكرنا ذلك عند البحث فى قوله تعالى: بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ .

۱- ۱) -راجع كتاب و ستر مارك،و كتاب«حقوق المرأه فى الإسلام»و الكتب الباحثه فى مذاهب البشر و عقائدهم.

الآیات [سوره آل عمران (۳): الآیات ۱۹۶ الی ۱۹۸]

اشاره

لاٰ یَغُرَّنَّکَ تَقَلُّبُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فِی اَلْبِلاٰدِ (۱۹۶) مَتٰاعٌ قَلِیلٌ ثُمَّ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ اَلْمِهٰادُ (۱۹۷) لٰکِنِ اَلَّذِینَ اِتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنّٰاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ وَ مٰا عِنْدَ اَللّٰهِ خَیْرٌ لِلْأَبْرٰارِ (۱۹۸)

سبب النّزول

کان أکثر مشرکی مکّه أهل تجاره،و قد کانوا یحصلون من هذا الطریق علی ثروه ضخمه،یتنعمون بها،و هکذا کان یهود المدینه أهل تجاره،و کانوا یعودون من رحلاتهم التّجاریه علی الأغلب موفورین،فی حین کان المسلمون بسبب أوضاعهم الخاصّه،لا سیما بسبب الهجره،و الحصار الذی کان مشرکو مکّه قد فرضوه علیهم،یعانون من وضع اقتصادی صعب جدا،و بکلمه واحده کانوا یعیشون فی عسره شدیده.

فکانت مقارنه هاتین الحالتین تطرح علی البعض السّؤال التالی:کیف یتنعّم أعداء اللّه فی العیش الرخی، بینما یقاسی المؤمنون ألم الجوع و الفقر المدقع؟

ص :۵۸

فنزلت الآيات الحاضره تجيب على هذا التساؤل (۱) .

التّفسير

اشاره

سؤال مزعج:

السّؤال الـذى مرّ ذكره فى سـبب نزول هـذه الآيـات و الـذى كان يطرحه بعض المسـلمين فى عصـر النّبى يعتبر سؤالا عاما يطرح نفسه على الناس فى كل زمان و مكان.

فـإنّهم يرون كيف يتنعم العصـاه و الطّغـاه،و الفراعنه و الفسّـاق،و يرفلون فى النعيم،و يعيشون الحيـاه الرفاهيه،و الرخاء العريض،و يقيسونه-غالبـا-بحيـاه الشـدّه و العسـره التى يعيشـها جماعه من المؤمنين،و يقولون متسائلين:كيف ينعم أولئك العصاه-مع ما هم عليه من الإثم و الفساد و الجريمه-بمثل تلك الحياه الرخيه،بينما يعيش هؤلاء-مع ما هم عليه من الإيمان و التقوى و الصلاح-فى مثل هذه الشدّه و العسره،و ربّما أدى هذا الأمر ببعض ضعفاء الإيمان إلى الشك و التّردد.

و لو أنّنا درسـنا هـذا السؤال بصوره دقيقه و جيـده،و حللنا عوامل الأمر و أسـبابه فى كلا الجانبين،لظهرت أجوبه كثيره على هـذا التساؤل،و قد أشارت هذه الآيات إلى بعضها،و يمكننا الوقوف على بعضها الآخر بشىء من التأمل و الفحص.

تقول الآـيه الأـولى من هـذه الآيـات: لاٰ يَغُرَّنَّکَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ کَفَرُوا فِی الْبِلاٰدِ و المخاطب فى هـذه الآيه و إن كان شـخص النّبى الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،إلا أنه من الواضح البيّن أن المراد هو عموم المسلمين.

ثمّ تقول: مَتٰاعٌ قَلِيلٌ أى أنّ هذه النّجاحات الماديه التى يحرزها

۱- ۱) -تفسير مجمع البيان و المنار و الميزان.

المشركون،و هذه الثروات الهائله التی یحصلون علیها من کل سبیل لیست سوی متاع قلیل،و لذّه عابره.

ثُمَّ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهٰادُ

فالملذات المادیه تستعقب عواقب سیئه، فإنّ مسئولیه هذه الأموال و الثروات ستجرّهم إلی مصیر مشؤوم،ذلک هو الجحیم الذی ستکون محطتهم الأخیره و مآلهم و بئس المآل.

إنّ هذه الآیه تشیر-فی الحقیقه-إلی نقطتین:

الأولی:إنّ أکثر مظاهر تفوّق هؤلاء العصاه الطّغاه الظالمین محدوده الأبعاد، کما أنّ متاعب أکثر المؤمنین و مشاکلهم و محنهم کذلک مؤقته،و محدوده أیضا.

و أفضل شاهد علی هذا الموضوع هو ما نلاحظه فی حیاه المسلمین و حیاه أعدائهم و مناوئیهم فی صدر الإسلام.

فحیث أنّ الحکومه الإسلامیه کانت آنذاک فی بدایه أمرها کنبته شابّه لا تمتلک کل عناصر القوّه و المنعه لم تکن تملک القدره الکامله علی الدفاع عن حوزتها و کیانها أمام هجوم أعدائها الألداء الذین کانوا یهاجمونها بشراسه و دونما رحمه،و خاصّه أنّ هجره المسلمین الذین کانوا جماعه قلیله فی مکّه جعلتهم فی وضع حرج جدّا إلی درجه أنّهم فقدوا کل شیء فی الهجره،و لا یختص مثل هذا الوضع بهم،بل یتعرض لمثل هذه المعاناه و مثل هذا الوضع کل من یناصر ثوره تغییریه،و نهضه معنویه و روحیه جذریه فی مجتمع فاسد یراد تغییره بها.

و لکننا نعلم أنّ هذا الوضع لم یدم طویلا،فما لثبت الحکومه الإسلامیه إلاّ أن ترسخت جذورها و قویت دعائمها،و اشتدّ أمرها،و قویت شوکتها،و انحدرت الأموال إلی مرکز الإسلام من کل صوب و حدب،فانعکس الوضع تماما،إذ عاد المترفون الکافرون و الأعداء المتنعمون الذین کانوا یرفلون فی النعیم و الخیر مساکین و فقدوا کل ذلک النعیم،و هذا هو ما یعنیه قوله سبحانه: مَتٰاعٌ قَلِیلٌ .

الثّانيه:إن النّجاحات المـاديه التى يحرزهـا بعض العصـاه و الفاسـقين إنّمـا هى لكونهم لا يتقيـدون فى جمع الثّروه بـأى قيـد أو شرط،فهم يجمعون المال من كل سبيل،سواء كان مشروعا أم غير مشروع،حراما كان أم حلالا،بل إنّهم يجوزون لأنفسهم اكتناز الثروه حتى على حساب الضعفاء و الفقراء و امتصاص دمائهم،فى حين يتقيد المؤمنون بمبادئ الحق و العداله فى هذا المجال،فلا يسوغون لأنفسهم بأن يكتسبوا المال من أى طريق كان،و أى سبيل اتفق،و لهذا لا يمكن (أو لا تصح)المقارنه و المقايسه بين هؤلاء و هؤلاء.

هؤلاء يشعرون بالمسؤوليه الثّقيله،و أولئك لا يشعرون بأيه مسئوليه،و لا يعترفون بأى ضابطه،و حيث إن الحياه الحاضره حياه الإراده البشريه الحرّه، و عالم الإختيار الحر،كان طبيعيا أن يترك اللّه سبحانه كلتا الطائفتين أحرارا ليتصرفوا كيف شاؤوا،و لينتهوا فى المآل إلى نتائج أعمالهم التى اكتسبوها بأيديهم،و هو ما يقصده و يعنيه سبحانه، بقوله فى ختام هذه الآيه: ثُمَّ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهٰادُ .

معرفه نقاط الضّعف و القوّه معا:

ثمّ أن هناك سببا آخر لتقدم و نجاح بعض الكفار و الفاسقين،و تأخر بعض المؤمنين هو أن الطائفه الأولى رغم خلوهم من عنصر الإيمان يتحلون-أحيانا- ببعض نقاط القوّه التى يحققون فى ظلّها ما يحققون من المكاسب،و يحرزون ما يحرزون من النجاحات،فيما تعانى الطائفه الثانيه من نقاط ضعف توجب تأخرهم و انحطاطهم.

فنحن نعرف أشخاصا-رغم انقطاعهم عن اللّه-يتسمون بالجدّيه الكبيره فى أعمالهم،و يتحلّون بالاستقامه و العزم،و التنسيق و التعاون فيما بينهم،و المعرفه بقضايا العصر و متطلباته،و مقتضياته و مستجداته،و من الطبيعى أن يحقق هؤلاء

مکاسب کبیره و یحرزوا انتصارات و نجاحات فی حیاتهم المادیه،و ما هم فی هذا الأمر-فی الحقیقه-إلّا مطبقون لتعالیم الدین و برامجه من دون إسنادها إلی الدین و إعطائها صفته و صبغته.

و فی المقابل،هناک أشخاص متدینون أوفیاء للعقائد الدینیه،لکنهم بسبب غفلتهم عن تعالیم الدین الحیویه یعانون من الجبن و الإحجام،و یفتقرون إلی الشهامه و الاستقامه و یفقدون عنصر الثبات و الاستمرار و الاتحاد و التعاون، و طبیعی أن یصاب هذا الصنف من الناس بإخفاقات متلاحقه و هزائم متتابعه، و لکن هذه الهزائم و الإخفاقات لیست أبدا بسبب إیمانهم باللّه،بل هی بسبب ما بهم من نقاط الضعف،و ما بأنفسهم من عوامل الهزیمه،و موجبات السقوط و الإخفاق.

إنّهم یتصورون(و بالأحری یظنون)بأنهم سیتنصرون بمجرد الصلاه و الصوم فی جمیع المجالات،و ینجحون فی جمیع المواقف،فی حین جاء الدین بسلسله من البرامج و المناهج العملیه الحیویه للتقدم و النجاح فی الحیاه،یستلزم تجاهلها الفشل و السقوط و الهزیمه.

إنّ لکلّ شیء سببا،و لکل نجاح مفتاحه الخاص،و وسیلته الخاصّه،و قد أتی الدّین بکل ذلک،و بیّنه فی تعالیمه و توصیاته،فلا یمکن أن یتحقق نجاح بغیره هذه التعالیم و بغیر هذه الوسائل.

و خلاصه القول:إنه لدی کل طائفه من هاتین الطائفتین نقاط ضعف،و نقاط قوّه،و لکل واحده منها آثارها و نتائجها الطبیعیه،غایه ما فی الأمر أنه قد تلتبس هذه الآثار و تشتبه علی المرء عند التقییم و المحاسبه.

مثلا:هناک کافر یتمتع لسعیه و جهاده و استمراره فی أعماله بالحیاه و یحقق فی هذا المجال النجاح تلو النجاح،و لکنّه إذ یفتقد عنصر الإیمان باللّه فإنّه یفتقر إلی نعمه الطمأنینه النفسیه و فضیله المشاعر الطاهره،و الأهداف الإنسانیه العالیه.

یبقی أن نعرف أن ما ذکرناه من العوامل الثلاث لتقدم الکفار و نجاحهم، و تأخر بعض المؤمنین و فشلهم لا تصدق فی مکان واحد،بل لکل واحد منها مورده و مجاله الخاص.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه بعد أن بیّن مصیر الکفار فی الآیه السابقه،بیّن هنا-فی الآیه التی تلت تلک الآیه-مصیر المؤمنین،إذ قال: لٰکِنِ الَّذِینَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنّٰاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا أی إن الذین اتبعوا موازین الحق و العدل فی الوصول إلی المکاسب المادیه،أو أنّهم بسبب إیمانهم تعرضوا للحصار الاقتصادی و الاجتماعی و لکنهم مع ذلک بقوا ملتزمین بالتقوی،فإنّه تعالی سیعوضهم عن کل ذلک بجنات تجری من تحتها الأنهار خالدین فیها نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَیْرٌ لِلْأَبْرٰارِ .

و«النّزل»فی اللغه هو ما یعدّ للضیف من الکرامه و البر،و قال البعض:أنّه أول ما یقدم إلی الضّیف النازل من شراب أو فاکهه.

و علی هذا یکون معنی الآیه أن الجنات المذکوره مع کل ما فیها من المواهب المادیه هی أوّل ما یقدّم یوم القیامه إلی المؤمنین المتقین،و أمّا الضیافه المهمّه و العلیا فهی النعم و المواهب المعنویه التی عبر عنها سبحانه بقوله: وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَیْرٌ لِلْأَبْرٰارِ .

ص:63

الآیه [سوره آل عمران (۳): آیه ۱۹۹]

اشاره

وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ اَلْكِتٰابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خٰاشِعِينَ لِلّٰهِ لاٰ يَشْتَرُونَ بِآيٰاتِ اَللّٰهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اَللّٰهَ سَرِيعُ اَلْحِسٰابِ (۱۹۹)

سبب النّزول

هذه الآیه-حسب ما یذهب إلیه أکثر المفسّرین-نزلت فی مؤمنی أهل الکتاب الذین ترکوا العصبیه العمیاء،و التحقوا بصفوف المسلمین،و کانوا یشکلون عددا معتدّا به من النصاری و الیهود.

و لکنّها حسب اعتقاد بعض المفسّرین أنّها نزلت فی النّجاشی ملک الحبشه العادل،و إن کان مفهومها أوسع من ذلک المورد.

ففی السنه التاسعه للهجره و فی شهر رجب بالذات توفی النجاشی،فبلغ خبر وفاته إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بإلهام إلهی فی الیوم الذی مات فیه و

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «اخرجوا فصلّوا علی أخ لکم مات بغیر أرضکم» ،قالوا:و من؟ قال:النجاشی،فخرج النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی البقیع و کشف له من المدینه إلی أرض الحبشه فأبصر سریر النجاشی،و صلی علیه،فقال بعض المنافقین:انظروا إلی هذا یصلّی علی علج نصرانی حبشی لم یره قطّ و لیس علی دینه،فأنزل اللّه هذه الآیه ردّا علی

مقالتهم (۱) .

هذا و يستفاد من هذه الروايه أن النجاشی اعتنق الإسلام بالکامل و إن لم يظهر ذلک.

التّفسير

اشاره

أهل الکتاب ليسوا سواء:

قلنا-فی ما سبق-ان القرآن الکريم إذا تطرق إلی أمور حول إتباع الشرائع الاخری لم ينظر إلی الجميع نظره سواء،و لم يحسب لهم حسابا واحدا،و لم تتسم أبحاثه حولهم بصفه قوميه أو حزبيه علائيه،بل ينطلق فی أحکامه من أسس اعتقاديه و مبدئيه،و لهذا ينتقد أعمالهم،و ممارساتهم و لا يتناول بسوء قومياتهم أو أجناسهم،و لهذا لا ينسی فضل تلک القلّه المؤمنه الصالحه منهم و التی تميزت عن الأکثريه الساحقه بصلاحها و حسن عملها،و لا يتجاهل قيمتها و مکانتها.

و المقام الذی نحن فيه هو أحد تلک الموارد التی جاء فيها الکلام عن هذه القله المؤمنه الصالحه التی استجابت لدعوه الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و خضعت للحق.

فالآيه الحاضره بعد أن و بّخت کثيرا من أهل الکتاب علی کتمانهم لآيات اللّه،و طغيانهم و تمردهم فی الآيات السابقه ذکرت هذه القلّه المؤمنه،و بينت خمسا من صفاتها الممتازه هی:

۱- يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ (أی أنهم يؤمنون باللّه عن طواعيه و صدق).

۲- وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْکُمْ (أی يؤمنون بالقرآن).

۳- وَ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ أی إيمانهم بنبیّ الإسلام نابع فی الحقيقه من إيمانهم بکتبهم السّماويه الواقعيه التی بشّرت بهذا النّبی و دعت إلی الإيمان به إذا ظهر، فهم فی الحقيقه يؤمنون بکتبهم.

۱- ۱) -أسباب النزول للواقدی.

۴- خَاشِعِينَ لِلّهِ أى أنّهم مسلمون لأمر اللّه و خاضعون لإرادته،و هذا التسليم و الخضوع هو السبب الحقيقى لإيمانهم،و هو الذى فرّق بينهم و بين العصبيات الحمقاء،و حرّرهم من التعنت و الاستكبار تجاه منطق الحقّ.

۵- لاٰ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أى أنّهم ليسوا مثل بعض أحبار اليهود الـذين يحرفون آيات اللّه حفاظا على مراكزهم و إبقاء على حاكميتهم على أقوامهم و جماعاتهم،وصولا إلى بعض المكاسب الماديه.

و الإشـاره إلى«الثّمن القليـل»فى الآيه للتلويـح بما كان عليه أولئك الأحبار المحرفون للكلم من تفاهه الهمّه،و ضـعف الطموح،و قصر النظر،و حقاره النفس.

هـذا مضافـا إلى أن كـل أجر دون الأجر الإلهى حقير،و كل مكسب يحصل عليه الإنسان عوضا عن آيات اللّه فهو مكسب تافه و رخيص.

و سيكون لهذه الطائفه من أهل الكتاب بسبب هذه الصفات الإنسانيه العاليه هذا الموقف الواضح الحى،أجرهم عند ربّهم أُولٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ .

و التعبير هنا بلفظه«ربّهم»إشاره إلى غايه لطفه سبحانه و منتهى رحمته بهم، كما أنه إشاره أيضا إلى أن اللّه هو الـذى يهديهم فى هذه المسيره الخيره،و هو يتكفل بمساعدتهم،و يعينهم فى هذا الطريق.

إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسٰابِ

فلا يتأخر عن إعطاء الصالحين المؤمنين أجرهم، كما لا يبطئ عن مجازاه المنحرفين و الظالمين.

و هذه العباره بشاره إلى الصالحين المؤمنين،كما هى أيضا تحذير و تهديد للعصاه و المذنبين (۱) .

ص: ۶۶

۱- ۱) -للوقوف على تفصيل أكثر حول معنى هذه العباره راجع،الآيه ۲۰۲ من سوره البقره.

الآیه [سوره آل عمران (۳): آیه ۲۰۰]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا اِصْبِرُوا وَ صٰابِرُوا وَ رٰابِطُوا وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۲۰۰)

التّفسیر

هـذه الآیه هی آخر الآیات من سوره آل عمران،و تحتوی علی برنامـج یتکون من أربع نقاط لعامّه المسـلمین،و هی لـذلک تبدأ بتوجیه الخطاب إلی المؤمنین إذ تقول: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا .

۱-«اصـبروا»:إن أوّل مـاده فی هـذا البرنامـج الـذی یکفـل عزّه المسـلمین و انتصـارهم هـو الاسـتقامه و الثبـات،و الصـبر فی وجه الحوادث الذی هو-فی الحقیقه-أصل کلّ نجاح مادی،و علّه کل انتصار معنوی،و هو الأمر الذی یستحق حدیثا مفصلا لما له من أثر جدّ مهم فی الانتصارات و النجاحات الفردیه و الاجتماعیه،و هو الذی

قال عنه الأمام علی علیه السّلام فی حکمه و کلماته القصار: «إن الصبر من الإیمان کالرأس من الجسد».

۲-«و صـابروا»و هی مـن المصـابره(من بـاب المفـاعله)بمعنی الصـبر و الاسـتقامه و الثبـات فی مقابـل صـبر الآـخرین و ثبـاتهم و استقامتهم.

و علی هذا فإن القرآن یوصی المؤمنین أوّلا بالصبر و الاستقامه(التی تشمل

كل ألوان الجهاد،كجهاد النفس،و الاستقامه فى مواجهه مشاكل الحياه)،ثمّ يوصى ثانيا بالصبر و الثبات و الاستقامه أمام الأعداء،و هذا بنفسه يفيد أن الأمّه ما لم تتغلب و تنتصر فى جهادها مع النفس،و فى إصلاح ما بها من نقاط الضعف الداخليه يستحيل انتصارها على الأعداء،و هذا يعنى أن أكثر هزائمها أمام أعدائها إنّما هى بسبب ما لحق بها من هزائم فى جبهه الجهاد مع النفس و ما أصابها من إخفاقات فى إصلاح نقاط الضعف التى تعانى منها.

كما و أنّه يستفاد من هذا التعليم«صابروا»أن على المسلمين أن يضاعفوا من صبرهم و من ثباتهم كلما ضاعف العدو من صبره و ثباته و مقاومته و عناده.

٣-«و رابطوا»و هذه العباره مشتقه من ماده«الرباط»و تعنى ربط شىء فى مكان(كربط الخيل فى مكان)،و لهذا يقال لمنزل المسافرين«الرباط»،و يقال أيضا ربط على قلبه بمعنى أنّه أعطاه السكينه،و ملأه بالطمأنينه و كأن قلبه انشد إلى مكان،و ارتكز على ركن وثيق،و«المرابطه»بمعنى مراقبه الثغور و حراستها لأن فيها يربط الجنود أفراسهم.

و هذه العباره أمر صريح إلى المسلمين بأن يكونوا على استعداد دائم لمواجهه الأعداء،و أن يكونوا فى حاله تحفز و تيقظ و مراقبه مستمره لثغور البلاد الإسلاميه و حدودها حتى لا يفاجئوا بهجمات العدوّ المباغته،كما أنّه حثّ على التأهب الكامل لمواجهه الشيطان،و الأهواء الجامحه حتى لا تباغتهم و تأخذهم على حين غرّه و غفله،و لهذا جاء فى بعض الأحاديث عن الإمام على عليه السّلام تفسير المرابطه بانتظار الصلاه بعد الصلاه،لأن من حافظ على يقظه روحه و ضميره بهذه العبادات المستمره المتلاحقه،كان كالجندى المتأهب لمواجهه الأعداء على الدّوام.

و خلاصه القول:إن للمرابطه معنى وسيعا يشمل كل ألوان الدفاع عن النفس و المجتمع.

ص :٦٨

ثمّ إنّ هناک فی الفقه الإسلامی بابا خاصّا-فی کتاب الجهاد-تحت عنوان «المرابطه»بمعنی الاستعداد و التأهب الکامل فی الثغور لحراستها و حمایتها و حفظها أمام حملات الأعداء الاحتمالیه،و قد ذکرت لها أحکام خاصّه یقف علیها کل من راجع الکتب الفقهیه.

هذا و قد أطلق علی العلماء-کما فی بعض الأحادیث-صفه المرابط،

فعن الإمام الصادق علیه السّلام:

«علماء شیعتنا مرابطون فی الثغر الذی یلی إبلیس و عفاریته،و یمنعونهم عن الخروج علی ضعفاء شیعتنا و عن أن یتسلط علیهم إبلیس...» (۱) .

و تعتبر نهایه هذا الحدیث العلماء أعلی مکانه من الجنود و القاده الذین یحرسون الثغور و یذبون عنها أعداء الإسلام.و ما ذلک إلاّ أن العلماء حماه الدین و حرّاسه و الأمناء المدافعون عن القیم الإسلامیه،و الجنود حماه الثغور الجغرافیه،و من الثابت المسلم به أن الثغور الفکریه و الثقافیه لأمّه من الأمم لو تعرضت لکید الأعداء،و لم تستطع الذّب عنها بنجاح،فإنّها سرعان ما تصیبها الهزائم العسکریه و السیاسیه أیضا.

۴- وَ اتَّقُوا اللّهَ و هذا بالتالی آخر التعالیم و الأوامر فی هذا البرنامج،و هو بمثابه المظله الواقیه لما سبقها من التعالیم أنّه حثّ علی التقوی،و لا بدّ للاستقامه و المصابره و المرابطه من أن تمتزج بعنصر التقوی،و لا یشوبها شیء من أنانیه أو ریاء أو أغراض شخصیه.

لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ

و هکذا تختم الآیه هذا البرنامج بذکر النّتیجه التی تنتظر کلّ من یطبق هذا البرنامج،إنه الفلاح و النجاح الذی یمکنکم الوصول إلیه عبر الأخذ بهذه التعالیم و الأوامر،و إلاّ فلن تحصلوا علی شیء من النجاح و الإنتصار.

۱- ۱) -الإحتجاج للطبرسی،الفصل الأول.

سؤال:

هنـاك سؤال يطرح نفسه و هو:لمـا ذا تبـدأ بعض العبارات و الجمل القرآنيه بلفظه«لعل»مثل قوله تعالى لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ،و لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ،و لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ و هى كما نعلم تفيد التّرديد الذى لا يليق باللّه سبحانه العالم بكل شيء.

و قـد صـارت هـذه المسأله ذريعه بأيـدى بعض أعـداء الإسـلام الـذين انطلقوا يقولـون: إن الإسـلام لا يعطى وعـودا قطعيه بالثواب،فوعوده مردده غير مجزوم بها،لأنها تبدأ-فى أغلبها-بلعلّ.

الجواب:

مـن حسـن الاتفـاق أن هـذا النمـط من التعـبير يشـكّل جانبـا من عظمه هـذا الكتـاب العزيز،و واقعيته فى النظره إلى الأمور و فى بيانها،ذلك لأن القرآن اسـتخدم هـذه اللفظه فى كل مقام يتوقف الاسـتنتاج فيه على شـرائط و مقـدمات قد أشار إليها و لوح بها إجمالا بلفظه«لعل».

فالسـكوت عنـد الاسـتماع إلى القرآن و الانتبـاه و التـوجه إلى ألفـاظ الآيـات القرآنيـه مثلا لا يكفى-بمجرده-لإحراز الرحمه الإلهيه،بل لا بـدّ من فهم الآيـات و درك معانيهـا،و مقاصـدها،و تطبيق توصـياتها،و تعاليمهـا و أوامرها و نواهيها، و لهـذا يعلق سبحانه شمول الرحمه بقوله: وَ إِذٰا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۱) .

و على هـذا الأساس لو كان القرآن يقول أنكم سترحمون حتما كان بعيـدا عن الواقعيه،لأنّ لتحقق هذا الموضوع كما قلنا شـرائط أخرى أيضا،فيكون التعبير الجازم تجاهلا لهـذه الشـرائط،و لكنّه إذا قال«لعلّكم»فإنّه يكون قـد أخذ تلك الشـرائط بنظر الإعتبار و حسب لها حسابها.

بيـد أن عـدم الالتفـات إلى هـذه الحقيقه جرّ البعض إلى الاعتراض على مثل هـذا التعبير فى الآيات القرآنيه إلى درجه أن بعض علمائنا-أيضا-ذهب إلى

۱- ۱) -الأعراف،۲۰۴.

القول بأن«لعل»ليست مستعمله فى مثل هذه الموارد فى معناها الحقيقى،و هذا كما ترى خلاف للظاهر دونما دليل.

و فى المقام نجد الآيه الحاضره مع أنها أشارت إلى أربع نقاط من أهم التعاليم الإسلاميه،و لكن حتى لا يغفل المسلمون عن بقيه البرامج و التعاليم الإسلاميه البناءه استخدمت كلمه«لعل»للإيذان بأن هناك أيضا من الظروف و الشرائط ما له دخل فى تحقق هذه الرحمه ينبغى أن تؤخذ بعين الإعتبار.

و على كلّ حال لو أن المسلمين اليوم جعلوا الآيه الحاضره شعارهم و منهجهم فى حياتهم اليوميه و طبقوا مفادها لانحل الكثير من مشاكلهم التى يعانون منها الآن بشدّه.

إن الضربات الموجعه التى يتلقاها الإسلام و المسلمون اليوم ليست-فى الحقيقه-إلّا بسبب تجاهل هذه التوصيات الإسلاميه الأربع أو تناسيها كلّها أو بعضها.

و لو أنّ المسلمين أعادوا إلى نفوسهم روح الثبات و الاستقامه،و لو أنّهم ضاعفوا جهودهم فى مقابل مضاعفه الأعداء لجهودهم،و لو أنّهم-حسب ما فى هذه الآيه-شددوا من مراقبتهم للثغور الجغرافيه و الفكريه و الاعتقاديه و حافظوا على حاله الاستعداد و التأهب الدائمه لمواجهه أى خطر داهم،أو أى عدوّ مباغت،و لو أنّهم-فوق كل هذا-تسلحوا بسلاح التقوى و الورع،أفرادا و جماعات،و طهروا بيئاتهم من أدران الفساد لضمنوا النصر و الظفر.

رباه،وفقنا جميعا للأخذ بتعاليم كتابك السماوى العزيز فى حياتنا،وجد علينا برحمتك الواسعه،و منّ علينا بلطفك،آمين يا أرحم الراحمين و يا ربّ العالمين.

ص :٧١

سوره النّساء

اشاره

مدنيّه و عدد آياتها مائه و ستّ و سبعون آيه

ص :۷۳

سوره النّساء قبل الخوض فی تفسیر آیات هذه السوره یلزم أن نذکر للقاریء الکریم بعدّه نقاط هی:

۱-موضع نزول هذه السوره

کل آیات هذه السوره(باستثناء الآیه ۵۸ حسب نقل بعض المفسرین)نزلت فی المدینه المنوره،و تقع من حیث ترتیب النّزول بعد سوره الممتحنه،لأنّ التّرتیب الفعلی للسّور القرآنیه-کما نعلم-لا یطابق ترتیبها فی النزول،بمعنی أن کثیرا من السّور التی نزلت فی مکّه تقع فی الترتیب الحاضر فی آخر القرآن الکریم،و کثیرا من السّور التی نزلت فی المدینه تقع فی أوائل القرآن.

علی أنّنا قد نوهنا فی بدایه المجلد الأوّل من هذه المجموعه التّفسیریه،بأنّ ثمّه دلائل تؤکد أن جمع السّور القرآنیه علی الشکل الفعلی قد تمّ فی زمن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نفسه،و علی هذا الأساس یکون النّبی الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد أمر بأن ترتب السّور علی النحو الموجود الآن(بأن یکون أوّلها الحمد و آخرها النّاس)لأسباب مختلفه منها أهمیه المواضیع التی تضمنتها السور،و الترتیب الطبیعی لهذه السور بدون أن یکون قد تغیّر من هذا الترتیب أو زید أو نقص فی الحروف و الآیات و السور.

إنّ هذه السّوره تعتبر من حیث عدد الکلمات و الأحرف-أطول السور بعد

سوره البقره،و تحتوى على(۱۷۶)آيه،و تسمّى بسوره النساء نظرا لتضمنها أبحاثا كثيره و حديثا مفصلا حول أحكام«المرأه»و حقوقها.

۲-محتويات هذه السوره:

هذه السّوره-كما قلنا-نزلت فى المدينه،بمعنى أنّ النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما كان مقبلا على تأسيس حكومه إسلاميه و تكوين مجتمع إنسانى قويم،نزلت هذه السوره و هى تحمل جمله من القوانين التى لها أثر كبير فى إصلاح المجتمع، و إيجاد البيئه الاجتماعيه الصالحه النقيه.

و من ناحيه أخرى فإنّ أكثر أفراد هذا المجتمع الجديد كانوا قبل ذلك من الوثنيين بما فيهم من لوثات الجاهليه و انحرافاتها و رواسبها،لذلك يتعين قبل أى شىء تطهير عقولهم،و تزكيه أرواحهم و نفوسهم من تلك الرّواسب،و إحلال القوانين و البرامج اللازمه لإعاده بناء المجتمع محل تلك العادات و التقاليد الجاهليه الفاسده.

و على العموم فإن المواضيع المختلفه التى تحدثت عنها هذه السّوره هى عباره عن:

۱-الدّعوه إلى الإيمان و العداله،و قطع العلاقات الودّيه بالأعداء الألداء، و الخصوم المعاندين.

۲-ذكر بعض قصص الأمم الماضيه لأجل التعرف على عواقب المجتمعات غير الصالحه.

۳-العنايه بالمحتاجين إلى الحمايه مثل الأيتام،و بيان التعاليم اللازمه لصيانه حقوقهم.

۴-قانون الإرث و التوارث بنحو طبيعى و عادل فى قبال الكيفيه القبيحه التى كان عليها وضع التوريث فى ذلك الزمان،حيث كان يحرم الضعفاء بحجج واهيه،و أعذار غير وجيهه.

۵-القوانين المتعلقه بالزّواج و البرامج التی تصون العفاف العام.

۶-القوانين العامّه لحفظ الأموال العامّه.

٧-حفظ و تحسين حاله الوحده الأساسيه للمجتمع،أی العائله.

٨-الحقوق و الواجبات الفرديه المتقابله فی المجتمع.

٩-التعريف بأعداء المجتمع الإسلامی و تحذير المسلمين منهم.

١٠-الحكومه الإسلاميه و وجوب طاعه قائد هذه الحكومه.

١١-حثّ المسلمين على مجابهه الأعداء و جهادهم.

١٢-الكشف عن الأعداء و الخصوم الذين قد يتوسلون بالعمل السری.

١٣-أهميه الهجره و وجوبها عند مواجهه مجتمع فاسد غير قابل للتأثير فيه و تغييره.

١۴-البحث مجددا عن الإرث و نظام التوريث،و ضروره تقسيم الثروات المكدسه بين الوارثين.

٣-فضل تلاوه هذه السّوره

عن النّبی الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما فی روايه أنّه قال: «من قرأها(أی سوره النساء) فكأنّما تصدق على كلّ مؤمن ورث ميراثا،و أعطى من الأجر كمن اشترى محرّرا» (١) .

و من البيّن أنّ المقصود فی هذه الروايه و أمثالها ليس هو القراءه المجرده،بل تلك القراءه التی تكون مقدمه للفهم و الإدراك الذی هو بدوره مقدمه لتطبيق تعاليم هذه السّوره فی الحياه الفرديه و الاجتماعيه.

و من المسلم أن المسلمين لو استلهموا من مفاهيم هذه السوره فی حياتهم لنالوا كل هذا الأجر مضافا إلى النتائج الدنيويه.

١- ١) -مجمع البيان،ج ٣،ص ١.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ یٰا أَیُّهَا اَلنّٰاسُ اِتَّقُوا رَبَّکُمُ اَلَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ وَ خَلَقَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا وَ بَثَّ مِنْهُمٰا رِجٰالاً کَثِیراً وَ نِسٰاءً وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ اَلَّذِی تَسٰائَلُونَ بِهِ وَ اَلْأَرْحٰامَ إِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ عَلَیْکُمْ رَقِیباً (۱)

التّفسیر

اشاره

مکافحه التّمییزات و الاستثناءات:

یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ

الخطاب فی الآیه الأولی من هذه السّوره موجه إلی کافه أفراد البشر،لأنّ محتویات هذه السوره-هی فی الحقیقه-نفس الأمور التی یحتاج إلیها کل أفراد البشر فی حیاتهم.

ثمّ إنّ الآیه تدعو إلی التقوی باعتبارها أساسا لأیّ برنامج إصلاحی للمجتمع،فأداء الحقوق و التقسیم العادل للثروه،و حمایه الأیتام،و رعایه الحقوق العائلیه،و ما شابه ذلک کلها من الأمور التی لا تتحقق بدون التقوی،و لهذا تفتتح هذه السوره-التی تحتوی علی جمیع هذه الأمور-بالدعوه إلی التزام التقوی:

اِتَّقُوا رَبَّکُمُ

.

و للتعریف باللّه الذی یراقب کلّ أعمال الإنسان و تصرفاته أشیر فی الآیه إلی واحده من صفاته التی تعتبر أساسا للوحده الاجتماعیه فی عالم البشر: اَلَّذِی

ص:۷۸

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ

.

و على هـذا الأساس لا مبرر للتمييز العنصـرى،و اللغوى،و المحلى، و العشائرى و ما شابه ذلك ممّا يسـبب فى عالمنا الرّاهن آلافا من المشاكـل فى المجتمعـات.و لاـ مجـال لهـذه الأـمور و مـا يـترتب عليهـا من الأمجـاد الكـاذبه و التفـوق الموهوم فى المجتمع الإسلامى،لأنّ كافه البشر على اختلاف ألوانهم،و لغاتهم، و أقطارهم يرجعون إلى أب واحد و أمّ واحده.

و تتّضـح أهميه مكـافحه هـذا الأـمر-أكثر فـأكثر-إذا لاحظنـا أنّ ذلـك قـد تمّ فى زمن كـان يعـانى بقايـا و رواسب نظام قبلى و عشائرى ظالم،و نعنى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

هذا و قد ورد نظير هذا التعبير فى موارد أخرى من القرآن الكريم أيضا، و سنشير إلى كل ذلك فى موضعه.

و الآـن يجب أن نرى من هو المقصود من«نفس واحـده»؟ هل المراد من«نفس واحـده»هو شـخص معين،أو أنه واحـد نوعى(أى جنس المذكر)؟ لا شك أنّ ظاهر هذا التعبير هو الشخص المعين،و الواحد الشخصى،و هو إشاره إلى أوّل إنسان قد سمّاه القرآن الكريم ب«آدم»و يعتبره أبا البشر.

كما و قد عبر عن البشر ببنى آدم فى آيات كثيره من القرآن الكريم.

فاحتمال أن يكون المراد من نفس واحده هو الواحد النوعى بعيد عن ظاهر الآيه جدّا.

ثمّ أنّ قـوله تعـالى: وَ خَلَقَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا قـد فهم منهـا بعض المفسـرين أن «حواء»قـد خلقت من جسم آدم و استشـهدوا لـذلك بروايات و أحاديث غير معتبره تقول:إنّ حواء خلقت من أضلاع آدم(و هو أمر قد صرّح به فى سفر التكوين من التوراه أيضا).

ص :٧٩

لكن مع ملاحظه سائر الآيات القرآنيه يرتفع كلّ إبهام حول تفسير هذه الآيه، و يتضح أن المراد منها هو أن اللّه سبحانه خلق زوجه آدم من جنسه(أی جنس البشر)ففی الآيه(۲۱)من سوره الروم نقرأ وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا كما نقرأ:فی الآيه(۷۲)من سوره النّحل وَ اللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً .

و من الواضح أنّ معنی قوله تعالی: خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً هو أنّه خلقهم من جنسكم لا أنّه خلقهن من أعضاء جسمكم.

و وفقا لروايه منقوله عن الإمام محمّد الباقر عليه السّلام كما فی تفسير العياشی-أنه كذّب بشدّه فكره خلق حواء من ضلع آدم،و صرح عليه السّلام-بأنه خلقت من فضل الطينه التی خلق منها آدم.

كيف كان زواج أبناء آدم؟:

قال سبحانه: وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَ نِسَاءً هذه العباره يستفاد منها أنّ انتشار نسل آدم،و تكاثره قد تمّ عن طريق آدم و حواء فقط،أی بدون أن يكون الموجود ثالث أی دخاله فی ذلك.

و بعباره أخری أنّ النسل البشری الموجود إنّما ينتهی إلی آدم و زوجته من غير أن يشاركهما فی ذلك غيرهما من ذكر أو أنثی.

و هذا يستلزم أن يكون أبناء آدم(أخوه و أخوات)قد تزاوجوا فيما بينهم، لأنه إذا تمّ تكثير النسل البشری عن طريق تزوجهم بغيرهم لم يصدق و لم يصح قوله:«منهما».

و قد ورد هذا الموضوع فی أحاديث متعدده أيضا،و لا داعی للتعجب و الاستغراب إذ طبقا للاستدلال الذی جاء فی طائفه من الأحاديث المنقوله عن أهل البيت عليهم السّلام إنّ هذا النوع من الزواج كان مباحا حيث لم يرد بعد حكم بحرمه

«تزوج الأخ بأخته».

و من البـديهى أن حرمه شـيء تتوقـف على تحريم اللّه سـبحانه له،فمـا الـذى يمنع من أن توجب الضـرورات الملحه و المصـالح المعينه أن يبيح شيئا فى زمان، و يحرمه بعد ذلک فى زمن آخر.

غير أنّه قـد صـرّح فى أحاديث أخرى بأن أبناء آدم لم يتزوجوا بأخواتهم، و تحمل بشـدّه على من يرى هـذا الرأى و يـذهب هذا المذهب.

و لو كان علينا عنـد تعارض الأحاديث أن نرجـح ما وافق منها ظاهر القرآن لوجب أن نختار الطائفه الأولى،لأنّها توافق ظاهر الآيه الحاضره كما عرفت قبل هذا.

ثـمّ أنّ هاهنـا احتمالاـ آخر يقـول:إن أبنـاء آدم تزوجـوا بمـن تبقى مـن البشـر الـذين سـبقوا آدم و نسـله،لأـن آدم-حسب بعض الروايات-لم يكن أوّل إنسان سكن الأرض.

و قـد كشـفت الـدراسات و التحقيقات العلميه اليوم أن النوع الإنسانى كان يعيش فى الأرض منذ عهد ضارب فى القدم،فى حين لم يمر على تاريـخ ظهور «آدم»فى الأـرض زمن طويـل،فلا بـدّ إذن من القبول النظريه التى تقول:بأنّه كان يعيش فى الأرض قبل آدم بشـر آخرون قارن غياب آخر بقاياهم ظهور آدمنا، فما المانع من أن يكون«أبناء آدم»قـد تزوجوا ببقايا النوع البشـرى السابق الـذى كـان فى أواخر انقراضه؟ و لكن هـذا الاحتمـال هو أيضا لا يتوافق و ظاهر الآيه الحاضـره(و هـذا البحث يحتاج إلى توسع أكثر لا يسعه هذا المجال).

الدّعوه إلى العنايه بالرّحم:

بعد ذكر ما بين أبناء النوع الإنسانى من وشيجه القربى قال سبحانه: وَ اتَّقُوا

اللّهَ الَّذِی تَسّٰائَلُونَ (۱) بِهِ وَ الْأَرْحٰامَ

.

إنّ أهمیه التقوی،و دورها فی بناء قاعده المجتمع الصالح سببت فی أن تذکر مجددا فی نهایه الآیه الحاضره،و أن یدعو سبحانه الناس إلی التزام التقوی،غایه الأمر أنّه تعالی أضاف إلیها جمله أخری إذ قال: اِتَّقُوا اللّهَ الَّذِی تَسّٰائَلُونَ بِهِ أی اتقوا اللّه الذی هو عندکم عظیم،و تذکرون اسمه عند ما تطلبون حقوقکم و حوائجکم فیما بینکم.

ثمّ أنّه یقول:«و الأرحام»و هو عطف علی«اللّه»،و لهذا کانت القراءه المعروفه هی نصب«و الأرحام»فیکون معناها:و اتقوا الأرحام،و لا تقطعوا صلاتکم بهم.

إنّ ذکر هذا الموضوع هنا یدل أوّلا علی الأهمیه الفائقه التی یعطیها القرآن الکریم لمسأله الرحم و وشیجه القربی إلی درجه أنّه یذکر اسم الأرحام بعد ذکر اسم اللّه سبحانه،و هو إشاره-ثانیا-إلی الأمر الذی ذکر فی مطلع الآیه،و هو أنکم جمیعا من أب واحد و أمّ واحده،و هذا یعنی-فی الحقیقه-أنّ جمیع أبناء آدم أقرباء و أرحام،و هذا الارتباط و الترابط یستوجب أن یتحاب الجمیع و یتوادوا دون تفریق أو تمییز بین عنصر و آخر،و قبیله و أخری،تماما کما یتحاب أفراد القبیله الواحده.

ثمّ یختم الآیه بقوله: إِنَّ اللّهَ کٰانَ عَلَیْکُمْ رَقِیباً .

و الرقیب أصله من الترقب،و هو الانتظار من مکان مرتفع،ثمّ استعمل بمعنی الحافظ و الحارس،لأن الحراسه من لوازم الترقب و النظاره.

و ارتفاع مکان الرقیب قد یکون من الناحیه الظاهریه بکون الرقیب یرقب علی مکان مرتفع،و یمارس النظاره من ذلک الموقع،و قد یکون من الناحیه

۱- ۱) -تساءلون:من ماده تسائل،و تسائل باللّه من قولهم أسألک باللّه أن تفعل کذا.و هذا یدل علی تعظیم الناس للّه تعالی.

المعنويه.

يقول سبحانه: إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً أى أنّه يحصى عليكم نياتكم و أعمالكم،و يعلم بها و يراها جميعا،كما أنه هو الذى يحفظكم أمام الحوادث (و التعبير ب«كان»المفيد للماضى،إنّما هو للتأكيد).

ص :٨٣

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۲]

اشاره

وَ آتُوا اَلْيَتٰامىٰ أَمْوٰالَهُمْ وَ لاٰ تَتَبَدَّلُوا اَلْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَ لاٰ تَأْكُلُوا أَمْوٰالَهُمْ إِلىٰ أَمْوٰالِكُمْ إِنَّهُ كٰانَ حُوباً كَبِيراً (٢)

سبب النّزول

روی أنّ رجلا من بنی غطفان کان معه مالا کثیر لابن أخ له یتیم،فلما بلغ الیتیم طلب ماله فمنعه عنه،فخاصمه إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فنزلت: وَ آتُوا الْيَتٰامىٰ أَمْوٰالَهُمْ... فلما سمع الغطفانی ذلک ارتدع و قال:أعوذ باللّه من الحوب الکبیر (۱) .

التّفسیر

اشاره

لا...للخیانه فی أموال الیتامی:

کثیرا ما یحدث فی المجتمعات البشریه أن یفقد أطفال صغار ءاباءهم بسبب الحوادث و النکبات و الکوارث،فتلک حاله کثیرا ما تقع،فإن المجتمعات المریضه التی تعانی من صراعات و حروب و نزاعات داخلیه مستمره مثل المجتمع الجاهلی العربی یقع فیها هذا الأمر بنسبه أکبر،و لذلک یکثر فیها عدد الأیتام،و هو ما یجب أن تهتمّ به الحکومه الإسلامیه،بل و یهتمّ به کل المسلمین،

ص :۸۴

۱- ۱) الدّر المنثور،ج ۲،ص ۱۱۷.

فیتکفّلوا أمر الیتامی و شؤونهم.

و فی هذه الآیه ثلاثه تعالیم بشأن أموال الیتامی.

۱- وَ آتُوا الْیَتامیٰ أَمْوالَهُمْ أی یجب أن تعطوا الیتامی عند رشدهم أموالهم المودعه عندکم،و یکون تصرفکم فی هذه الأموال علی نحو تصرف الأمین و النّاظر و الوکیل لا علی نحو تصرّف المالک.

۲- وَ لاٰ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِیثَ بِالطَّیِّبِ أی لا تأخذوا أموالهم الطّیبه و ثرواتهم الجیده و تضعوا بدلها من أموالکم الخبیثه و المغشوشه و هذا التعلیم-فی الحقیقه- یهدف إلی المنع ممّا قد یرتکبه بعض القیمین علی أموال الیتامی من أخذ الجید من مال الیتیم و الرفیع منه و جعل الخسیس و الردیء مکانه،بحجّه أن هذا التبدیل یضمن مصلحه الیتیم،أو لأنّه لا تفاوت بین ماله و البدیل،أو لأن بقاء مال الیتیم یؤول إلی التلف و الضیاع و غیر ذلک من الحجج و المعاذیر.

۳- وَ لاٰ تَأْکُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلیٰ أَمْوالِکُمْ یعنی لا تخلطوا أموال الیتامی مع أموالکم بحیث تکون نتیجتها تملک الجمیع،أو أنّ المراد لا تخلطوا الجید من أموالهم بالردی من أموالکم بحیث تکون نتیجتها الإضرار بالیتامی و ضیاع حقوقهم،و لفظه«إلی»فی العباره بمعنی(مع)فی الحقیقه.

ما ذا یعنی الحوب؟:

ثمّ إنّه سبحانه،لبیان أهمیه هذا الموضوع و التأکید علیه یختم الآیه بقوله:

إِنَّهُ کٰانَ حُوباً کَبِیراً

.

یقول الرّاغب فی مفرداته:«الحوبه حقیقتها هی الحاجه التی تحمل صاحبها علی ارتکاب الإثم»و حیث أن العدوان علی أموال الیتامی ینشأ-فی الأغلب- من الحاجه،أو بحجّه الحاجه استعمل القرآن الکریم مکان لفظه الإثم فی هذه الآیه لفظه«الحوب»للإشاره إلی هذه الحقیقه.

ص :۸۵

إنّ ملاحظه الآيات القرآنيه المختلفه-فی هذا المجال-تکشف عن أن الإسلام یولی هذا الموضوع أهمیه کبری، و یهدد الخائنین فی أموال الیتامی بالعقوبات الشدیده،و یدعو القیمین علی الیتامی بکلمات صریحه و جازمه إلی مراقبه أموالهم و المحافظه علیها مراقبه شدیده،و محافظه بالغه،و سیأتی تفصیل کلّ هذا فی نفس هذه السوره فی الآیات القادمه،و فی ذیل الآیات(۱۵۲)من سوره الأنعام،و(۳۴)من سوره الإسراء.

إنّ اللهجه القویه التی اتسمت بها هذه الآیات قد ترکت من التأثیر البالغ فی نفوس المسلمین بحیث خافوا أن یخالطوا الیتامی و أن یشترکوا معهم فی الطعام، و لهذا کانوا یهیئون طعاما خاصّا لأنفسهم و لأولادهم،و طعاما مستقلا للیتامی و لا یخالطون طعام الیتامی بطعامهم خشیه الإجحاف بهم،و قد شقّ هذا علی الجمیع-الیتامی و الأولیاء-و لهذا أمرهم سبحانه فی الآیه(۲۲۰)من سوره البقره قائلا وَ إِنْ تُخٰالِطُوهُمْ فَإِخْوٰانُکُمْ أی إن کان فی مخالطتهم لطعام الیتیم بطعامهم خیر و مصلحه للیتیم فلا بأس (۱) .

ص :۸۶

۱- ۱) -و للتوسع و التفصیل الأکثر راجع ما ذکرناه فی تفسیر هذه الآیه فی سوره البقره فی الجزء الثانی من هذا التّفسیر.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۳]

اشاره

وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلاّ تُقْسِطُوا فِی اَلْیَتامیٰ فَانْکِحُوا ما طابَ لَکُمْ مِنَ اَلنِّساءِ مَثْنیٰ وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّ تَعْدِلُوا فَواحِدَهً أَوْ ما مَلَکَتْ أَیْمانُکُمْ ذٰلِکَ أَدْنیٰ أَلاّ تَعُولُوا (۳)

سبب النّزول

لقد نقل لهذه الآیه سبب نزول خاص،فقد کان المتعارف فی العهد الجاهلی قبل الإسلام أن یتکفل أغلب الناس فی الحجاز أمر الیتیمات،ثمّ یتزوجون بهنّ، ثم یمتلکون أموالهنّ،و ربما ینکحوهنّ بدون صداق أو بصداق أقل من شأنهنّ، بل و ربّما یترکوهنّ لأدنی سبب أو کراهیه بکل سهوله،و بالتالی لم یکونوا یعطونهنّ ما یلیق بهنّ-کزوجات-بل و حتی کبقیه النساء العادیات-من الاحترام و المکانه،فنزلت هذه الآیه توصی أولیاء الیتیمات إذا أرادوا الزواج بهنّ أن یلاحظوا جانب العدل معهن،و إلاّ فلیختاروا الأزواج من غیرهنّ (۱) .

یقول سبحانه فی هذه الآیه: وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلاّ تُقْسِطُوا فِی الْیَتامیٰ فَانْکِحُوا ما طابَ لَکُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنیٰ وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ و قد جاء هذا الکلام بعد ما جاء فی الآیه السابقه من الحث علی حفظ أموال الیتامی من التلف و عدم التفریط فیها،

۱- ۱) -مجمع البیان،ج ۳،ص ۵ و ۶.

فجاءت هذه الآیه لتنوه بحق آخر من حقوقهم،و هو هذه المرّه یتعلق بالیتیمات خاصّه.

التّفسیر

اشاره

بملاحظه ما ذکرناه فی سبب النزول یتّضح تفسیر هذه الآیه و المراد منها،کما یتّضح الجواب أیضا علی السؤال المطروح هنا،و هو:لما ذا تبتدئ الآیه بذکر الیتامی،و تنتهی بمسأله الزواج،و یرتفع ما قد یتوهم من المنافاه بین تلک البدایه، و هذه النهایه،فالبدایه و النهایه کلتاهما تتعلقان بمسأله الزواج،غایه ما فی الباب أنّ الآیه تقول:إذا لم یمکنکم الزواج بالیتیمات و معاشرتهنّ علی أساس من العدل و القسط فالأفضل أن تترکوا الزواج بهنّ،و تتزوجوا بغیرهنّ من النساء تجنبا لظلم الیتیمات و الإجحاف بحقوقهنّ،و الجور علیهنّ.

فالذی یستفاد من ذات الآیه-و إن اختلفت و جهات نظر المفسرین و کثرت أقوالهم و تعددت فی المراد منها-هو ما ذکرناه فی سبب النزول،و هو أن الخطاب موجه إلی أولیاء الیتیمات اللاتی جاء الحثّ فی الآیه السابقه علی حفظ أموالهنّ ضمن الیتامی.

فهذه الآیه تعلیم آخر و وصیه أخری بهم،و لکنّها هذه المرّه تتعلق بمسأله الزواج بالیتیمات،و إن علی أولیائهنّ أن یعاملوهنّ فی مسأله الزواج علی أساس من العدل و القسط کما یعاملونهنّ فی مسأله المال،فعلیهم أن یراعوا فی أمر الزواج مصلحه الیتیمه،و إلاّ فمن الأحسن أن یدعوا الزواج بهنّ،و یختاروا الأزواج من غیرهنّ من النساء.

هذا و ممّا یؤید و یوضح هذا التّفسیر ما جاء فی الآیه(۱۲۷)من نفس هذه السّوره (۱) حیث حثّ سبحانه علی التزام العدل فی الزواج بالیتیمات،و سیأتی

۱- ۱) -و هو قوله تعالی: وَ یَسْتَفْتُونَکَ فِی النِّسٰاءِ قُلِ اللّٰهُ یُفْتِیکُمْ فِیهِنَّ وَ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فِی الْکِتٰابِ فِی یَتٰامَی النِّسٰاءِ... .

تفصيل ذلک فی محله.

کما أن ثمّه أحاديث نقلت فی الکتب المختلفه تشهد بهذا الاتجاه،و تؤيد هذا التّفسير (۱) و ما نقل عن الإمام علی عليه السّلام من الأخبار بسقوط أو حذف شیء کثير من القرآن بين مطلع هذه الآيه،و نهايتها غير معتبر من حيث السند أصلا،فهذه الأحاديث و ما يشابهها من الأحاديث التی تدل علی حذف شیء من الآيات القرآنيه و إسقاطها أو وقوع التحريف فيه إمّا أنّها من موضوعات أعداء الإسلام و خصومه و المنافقين بغيه الحط من اعتبار القرآن و أهميته و مکانته،و إمّا لأنّها ناشئه من عجز البعض عن التوفيق بين صدر الآيه و ذيلها و فهم الارتباط الطبيعی بينهما،و لهذا توهّموا بأنّ هناک حذفا و إسقاطا و قد تطور هذا الوهم حتی اتّخذ صوره الحديث المروی و الخبر المنقول،فی حين يتّضح الارتباط الوثيق بين هذه الجمل و العبارات بالتأمل و التدبر و الإمعان.

«مثنی»و«ثلاث»و«رباع»:

و تعنی«مثنی»فی اللّغه اثنتين اثنتين،و«ثلاث»ثلاثا ثلاثا،و«رباع»أربعا أربعا،و حيث أنّ الخطاب فی هذه الآيه موجّه إلی المسلمين کافه،کان المعنی:إن عليکم أن تنصرفوا عن الزواج باليتيمات تجنبا من الجور عليهنّ،و أن تتزوجوا بالنساء اللاتی لا تسمح مکانتهنّ الاجتماعيه و العائليه بأن تجوروا عليهنّ، و تظلموهنّ،و يجوز لکم أن تتزوجوا منهنّ باثنتين أو ثلاث أو أربع،غايه ما فی الأمر حيث أنّ الخطاب هنا موجّه إلی عامّه المسلمين،و کافتهم عبر بالمثنی، و الثلاث،و الرّباع إذ لا شک فی أن تعدد الزوجات-بالشروط الخاصّه-لا يشمل أکثر من أربع نساء.

۱- ۱) -تفسير نور الثقلين،ج ۱،ص ۴۳۸ و تفسير المنار فی تفسير هذه الآيه.

و لا بـدّ من التنبيه إلى أن«الواو»هنا أتت بمعنى«أو»،فليس معنى هـذه الجمله هو أنّه يجوز لكم أن تتزوجوا باثنتين و ثلاث و أربع ليكون المجموع تسع زوجات،لأن المراد لو كان هـذا لوجب أن يـذكر ذلك بصـراحه فيقول:و انكحوا تسـعا لا أن يـذكره بهذه الصوره المتقطعه المبهمه.

هذا مضافا إلى أنّ حرمه الزّواج بأكثر من أربع نسوه من ضروريات الفقه الإسلامى،و أحكامه القطعيه المسلمه.

و على كلّ حال فإنّ الآيه الحاضره دليل صريح على جواز تعدد الزوجات.

طبعا بشروطها التى سنذكرها قريبا.

ثمّ أنّه سبحانه عقب على ذلك بقوله: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّ تَعْدِلُوا فَواحِدَةً أى التزوج بأكثر من زوجه إنّما يجوز إذا أمكن مراعاه العداله الكامله بينهنّ،أمّا إذا خفتم أن لا تعدلوا بينهن،فاكتفوا بالزوجه الواحده لكى لا تجوروا على أحد.

ثمّ يقول: أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ أى يجوز أن تقتصـروا على الإماء اللاتى تملكونهنّ بدل الزوجه الثانيه لأنهنّ أخف شـروطا(و إن كن يجب أن يحظين و يتمتعن بما لهنّ من الحقوق أيضا).

و يقول: ذلِكَ أَدْنى أَلاّ تَعُولُوا أى أن هـذا العمل(و هو الاقتصار على زوجه واحـده أو الاقتصار على الإماء و عـدم التزوج بزوجه حرّه ثـانيه)أحرى بـأن يمنع من الظلم و الجور،و يحفظكم من العـدوان على الآـخرين(و سـيكون لنـا حـديث مفصل عن الرّق فى الإسلام عند تفسير الآيات المناسبه إن شاء اللّه).

ما هو المقصود من العدل بين الزوجات؟:

قبل الخوض فى بيان فلسـفه تعدد الأزواج فى الشـريعه الإسـلاميه يجب أن يتّضح أوّلا المراد من العدل بين الأزواج الذى هو من شروط جواز التعدد،فما هو المقصود من العدل هنا يا ترى؟

ص :۹۰

أ هى العـداله فى الجوانب الماديه كالمضاجعه و توفير وسائل العيش و تحقيق الرّفاه و المتطلبات المعيشـيه؟أم أنّ المراد أيضا هو العـداله فى نطـاق القلب و العواطف و الأحاسـيس الإنسـانيه؟و بعباره صـريحه:العـداله فى الحبّ و الرغبه، مضافا إلى العـداله فى الجوانب الماديه؟ لا شكّ أنّ مراعاه العداله فى الميل القلبى،و الحبّ،و الرغبه شىء خارج عن نطاق القدره البشريه.

فمن ذا يسـتطيع أن يضـبط حبّه من جميع الجوانب،و يعطيه الحجم الـذى يريـد،و الحـال أنّ موجبـاته و عوامله خـارجه عن نطاق قـدرته،و إطار إرادته؟ و لهذا لم يوجب سـبحانه مراعاه مثل هذه العداله حيث قال سـبحانه فى الآيه ۱۲۹ من نفس هذه السّوره- النساء: وَ لَنْ تَسْـتَطِيعُوا أَنْ تَعْـدِلُوا بَيْنَ النِّسٰاءِ وَ لَوْ حَرَصْـتُمْ أى لا يمكنكم مهما أردتم أن تعـدلوا بين الأزواج فى الميل القلبى، و الحبّ و المودّه.

إذن فلاـ ضـير فى الحبّ و الميـل القلبى الـذى لاـ يوجب تفضـيل بعض الأزواج فى المواقف العمليه،و على هـذا الأساس فإن ما يجب على الرجل مراعاته هو العداله بين أزواجه فى الجوانب العمليه الخارجيه أى فى نوع التعامل العملى خاصّه إذ يستحيل مثل هذه المراعاه فى المجال العاطفى.

من هـذا الكلام يتّضـح بجلاء إن الذين أرادوا من ضمّ قوله تعالى: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلّٰا تَعْدِلُوا فَوٰاحِدَةً إلى قوله تعالى فى الآيه(۱۲۹): وَ لَنْ تَسْـتَطِيعُوا أَنْ تَعْـدِلُوا بَيْنَ النِّسٰاءِ وَ لَوْ حَرَصْـتُمْ أن يسـتنتجوا حرمه تعـدد الأزواج مطلقا بحجّه اسـتحاله مراعاه العداله بينهن قد وقعوا فى خطأ كبير،لأن العـداله المسـتحيله مراعاتها-كما أسـلفنا- هى العداله فى المجال العاطفى،-و ليس هذا من شـرائط جواز التعدد فى الأزواج،بل إن من شرائط جوازه هو مراعاه العداله فى المجال العملى.

ص :۹۱

و يشـهد بذلك ما جاء فی ذيل الآيه(١٢٩)من نفس هذه السّوره حيث يقول سـبحانه: فَلاٰ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهٰا كَالْمُعَلَّقَهِ أی أنّكم إذ لاـ تقـدرون علی مراعـاه المسـاواه الكـامله فی محبّه الزوجـات و ودّهنّ،فلا أقل أن لا تميلوا فی حبّ بعض الأزواج ميلا شديدا يحملكم علی أن تذروا التی لا تميلون إليها،فلا هی ذات زوج و لا أيم.

و خلاصه القول و نتيجته،هی أن الـذين أمسـكوا بقسم من هـذه الآيه،و نسوا القسم الآخر و تورطوا فی رفض تعدد الزوجات فی خطأ يدهش كل محقق، و يستغرب منه كل باحث.

أضف إلی ذلك أن مسأله جواز تعدد الأزواج بشـرائطها علی درجه من الثبوت و الوضوح فی الفقه الإسـلامی و مصادره الشيعيه و السـنيه بحيث لا يبقی مجال للجـدل،و لا محل للنقاش،بل هو من ضـروريات الفقه الإسـلامی و مسـلماته،و بـديهياته.و لنعطف عنان البحث الآن إلی معرفه فلسفه هذا القانون الإسلامی.

تعدد الزّوجات ضروره اجتماعيه:

لقـد أجـازت الآـيه الحاضـره تعـدد الزوجات(و لكن بشـرائط ثقيله و فی حـدود معينه)و قـد أثارت هـذه الإباحه جماعه،فانطلقوا يوجهون إليها الاعتراضات و الإشـكالات،و تعرض هذا القانون الإسـلامی لهجمه كبيره من المعارضـين الذين تسرعوا فی إصدار الحكـم عن هـذا القـانون الإسـلامی متـأثرين بالأحاسـيس، و دون أن يتنـاولوه بالـدرس و التمحيص،و التأمـل و التحقيـق.و كـان الغربيون أكثر هـذه الجمـاعه معـارضه لهـذا القـانون و هجومـا عليه،متسـائلين كيف يجوز للإسـلام أن يسـمح للرجـال أن يقيموا لأنفسهم حريما و يتخذوا زوجات متعدده علی نحو ما كان شائعا فی الجاهليه؟

كلّا،إنّ الإسـلام لم يسـمح لأحـد بأن يقيم حريما بالمعنى الـذى تصورتم،و لا أنّه أباح تعدد الزوجات دون قيد أو شـرط،و دون حدّ أو قانون.

و لتوضـيح هـذه الحقائق نقول:إن دراسه البيئات المختلفه قبل الإسـلام تكشف لنا أنّ تعـدد الزوجات دونما عـدد معين كان أمرا عاديا و شائعا،لـدرجه أنّ بعض الوثنيين أسـلموا و تحت الرجل منهم عشـر زوجات أو أقل،من هنا لم تكن مسأله تعـدد الزّوجات ممّا أبـدعه الإسـلام،نعم إنّ ما فعله الإسـلام هو وضع هذا الأمر فى إطار الحاجه و الضـروره الحيويه الإنسانيه،و تقييده بطائفه من القيود و الشروط الثقيله.

إنّ قوانين الإسـلام و تشريعاته تدور على محور الحاجات الإنسانيه،و تقوم على أساس مراعاه الضرورات الحيويه فى دنيا البشر،لا الدعايه الظاهره و لا المشاعر الموجهه توجيها غير صـحيح،و مسأله تعدد الزوجات من هذا القبيل أيضا،فقد لوحظت هى الاخرى من هـذه الزاويه،لأنّه لا أحد يمكنه أن ينكر أنّ الرجال أكثر تعرضا من النساء لخطر الفناء و الموت بسـبب كثره ما يحيط بهم من الحوادث،المختلفه.

فالرجال يشكلون القسم الأكبر من ضحايا الحروب،و المعارك.

كمـا أنّه لاـ يمكن إنكـار أنّ أعمـار الرجال من الناحيه الجنسـيه أطول من أعمار النساء فى هـذا المجال،فالنساء يفقـدون القـدره الجنسـيه(و القـدره على الإنجاب)فى سن معين من العمر قريب،فى حين يبقى الرجال متحفظين بهـذه الطاقه و القـدره مدّه أطول بكثير.

كما أنّ النساء-فى فتره العاده الشـهريه و شيء من فتره الحمل-يعانين من موانع جنسيه بصوره عمليه فى حين لا يعانى الرجل من أى مانع جنسى من هذا النوع.

هذا كلّه مضافا إلى أن هناك نساء يفقدون أزواجهنّ لبعض الأسباب،فلا

يتيسر لهن أن يجلبن اهتمام نظر الرجال إلى أنفسهن كزوجه أولى،فإذا لم يسمح بتعدد الزوجات،وجب أن تبقى تلك النسوه بلا أزواج،كما نقرأ ذلك فى الصحف المختلفه حيث يشكو هذا النوع من النساء الأرامل من صعوبات الحياه و مشكلات العيش بسبب تحديد مسأله تعدد الأزواج أو إلغائها بالمرّه،و حيث يعتبرن المنع من التعدد نوعا من القوانين الظالمه الجائره و المعاديه لهنّ.

بالنظر إلى هذه الحقائق،و عند ما يضطرب التوازن بين عدد النساء و الرجال نجد أنفسنا مضطرين لأن نختار أحد طرق ثلاث هى:

١-أن يقنع كل رجل بزوجه واحده فقط فى جميع الحالات و الموارد، و يبقى العدد الإضافى من النساء بلا أزواج إلى آخر أعمارهن،و يكبتن حاجاتهنّ الفطريه و يقمعن غرائزهنّ الباطنيه الملتهبه.

٢-أن يتزوج الرجل بامرأه واحده بصوره مشروعه ثمّ يترك حرّا لإقامه علاقات جنسيه مع من شاء و أراد من النساء اللائى فقدن أزواجهن لسبب و آخر على غرار اتّخاذ الأخدان و العشيقات.

٣-أن يسمح لمن يقدر أن يتزوج بأكثر من واحده و لا يقع فى أيه مشكله من الناحيه«الجسميه»و«الماليه»و«الخلقيه»من جراء هذا الأمر،كما و يمكنه أن يقيم علاقات عادله بين الزوجات المتعدده و أولادهن،أن يسمح لهم بأن يتزوجوا بأكثر من واحده(على أن لا يتجاوز عدد الأزواج أربعا)،و هذه هى ثلاث خيارات و طرق لا رابع لها.

و إذا أردنا اختيار الطريق الأوّل يلزم أن نعادى الفطره و الغريزه البشريه، و نحارب جميع الحاجات الروحيه و الجسميه لدى البشر،و نتجاهل مشاعر هذه الطّائفه من هذه النّسوه،هذه الحرب و المعركه التى لن يكون فيها أى انتصار، و حتى لو نجح هذا الطرح و كتب له التوفيق،فإن ما فيها من الجوانب اللاإنسانيه أظهر من أن تخفى على أحد.

و بعباره أخرى أن تعدد الزوجات فى الموارد الضروريه يجب أن لا ينظر إليه أو يدرس من منظار الزوجه الأولى،بل يجب أن يدرس من منظار الزوجه الثانيه أيضا.

إنّ الذين يعالجون هذه المسأله و ينظرون إلى خصوص مشاكل الزوجه الأولى فى صوره تعدد الزوجات هم أشبه بمن يطالع مسأله ذات زوايا ثلاث من زاويه واحده،لأن مسأله تعدد الزوجات ذات ثلاث زوايا،فهى يجب أن تطالع من ناحيه الرجل،و من ناحيه الزوجه الأولى،و من ناحيه الزوجه الثانيه أيضا، و يجب أن يكون الحكم بعد ملاحظه كل هذه الزوايا فى المسأله،و يتمّ على أساس مراعاه مصلحه المجموع فى هذا الصعيد.

و إذا اخترنا الطريق الثانى وجب أن نعترف بالفحشاء و البغاء بصوره قانونيه، هذا مضافا إلى أن النساء العشيقات اللائى يجعلن أنفسهنّ فى متناول هؤلاء الرجال لإرواء حاجتهم الجنسيه يفتقدن كل ضمانه و كل مستقبل،و يعنى ذلك سحق شخصيتهنّ سحقا كاملا-فى الحقيقه-إذ يصبحن حينئذ مجرد متاع يقتنى عند الحاجه و يترك عند ارتفاعها دون التزام و مسئوليه،و لا شك أن هذه الأمور ممّا لا يسمح به أى عاقل مطلقا.

و على هذا الأساس لا يبقى إلاّ الطريق الثالث،و هو الطريق الذى يلبى الحاجات الفطريه و الغريزيه للنساء،كما أنه يجنب هذه الطائفه من النساء و يحفظهنّ من عواقب الفحشاء و الانزلاق إلى الفساد،و بالتالى ينقذ المجتمع من مستنقع الآثام و الذنوب.

على أن من الواجب أن نلتفت إلى أنّ السماح بتعدد الزوجات مع أنّه ضروره اجتماعيه فى بعض الموارد و مع أنّه من أحكام الإسلام القطعيه،إلاّ أن توفير شرائطه يختلف اختلافا كبيرا عن الأزمنه الماضيه،لأن الحياه كانت فى العصور

السابقه ذات نمط بسيط و مواصفات سهله،و لهذا كانت رعايه المساواه و العداله بين الزوجات المتعددات أمرا ممكنا و ميسرا لأكثر الناس،فى حين يجب على الذين يريدون الأخذ بهذا القانون الإسلامى فى هذا العصر أن يراعوا مسأله العداله من جميع الجوانب،و أن يقدموا على هذا الأمر إذا كانوا قادرين على الوفاء بجميع شروطه.

و بالجمله يجب أن لا يقدم أحد على هذا العمل بدافع الهوى و الهوس.

هذا و الملفت للنظر هنا هو أن الذين يعارضون مبدأ تعدد الزوجات (كالغربيين)قد واجهوا طوال تأريخهم ظروفا ألجأتهم إلى هذا المبدأ بصوره واضحه.

ففى الحرب العالميه الثانيه برزت حاجه شديده فى البلاد التى تعرضت لويلات الحرب هذه و بالأخص ألمانيا،إلى هذا الموضوع مما دفع بطائفه من المفكرين فى سياق البحث عن حلّ لهذه المشكله إلى إعاده النظر فى مسأله المنع عن تعدد الزوجات،إلى درجه أنّهم طلبوا من الجامع«الأزهر»بالقاهره البرنامج الإسلامى حول تعدد الزوجات للدراسه،و لكنهم اضطروا-و تحت ضغوط شديده من جانب الكنائس-إلى التوقف عن المضى فى دراسه هذا البرنامج،و كانت النّتيجه هو تفشى الفحشاء و الفساد الجنسى الشديدين فى جميع البلاد التى تعرضت للحرب و ويلاتها.

هذا بغض النظر عن أنّه لا يمكن إنكار ما يحس به طائفه من الرجال من الميل إلى اتّخاذ زوجات متعدده،فإن كان هذا الميل و الرغبه ناشئين من الهوى و الهوس لم يكن جديرا بالنظر،أمّا إذا كانا ناشئين عن عقم الزوجه عن إنجاب الأولاد من جانب،و رغبه الرجل الشديده فى الحصول على أبناء له-كما هو الحال فى كثير من الموارد-من جانب آخر،فهو ميل و رغبه منطقيان و جديران

ص :٩٦

بالاهتمام و الرعايه.

كما أنّه لو كانت الرغبه فى تعـدد الزوجات ناشـئه من الميل الجنسـى الشديـد لـدى الرجل و عدم قدره الزوجه الأولى على تلبيه هذا الميل كما ينبغى،و لهذا يرى الرجل نفسه مضـطرا إلى اتخاذ زوجه ثانيه حتى لا يقدم على إشـباع هذه الحاجه من طريق غير مشـروع لإمكان إشـباعه من طريق مشـروع،و فى هـذه الصوره أيضا لا يمكن إنكار منطقيه هـذا الميل لـدى الرجل،و لهذا تكون إقامه العلاقات مع النساء المتعـددات أمرا رائجا عمليا حتى فى البلاد التى تحظر تعدد الزوجات،فيعقد الرجل الواحد علاقات غير مشروعه مع نساء عديدات.

إن المؤرخ الفرنسـى المعروف«غوسـتاف لوبون»يعتبر قانون تعدد الزوجات الذى يقرّه الإسـلام ضمن حدود و شروط خاصّه-من مزايـا هـذا الـدين، و يكتب عنـد المقارنه بينه و بين طريقه العلاقات الجنسـيه الحرّه غير المشـروعه الرائجه فى الغرب قائلا:«و فى الغرب حيث الجو و الطبيعه لا يساعـدان على تعـدد الزوجات،و برغم أنّ القوانين الغربيه تمنع التعـدد،و لكن الغربيين قلما تقيدوا بهذه القوانين و خرقوها بعلاقاتهم السرّيه الآثمه.

و لا أرى سـببا لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشـرعى عند الشـرقيين أدنى مرتبه من مبدأ تعدد الزوجات السـرى عند الأوروبيين،بل أرى ما يجعله أسـنى منه» (۱) طبعا لا يمكننا إنكار أنّ هناك بعض أدعياء الإسـلام ممن يسـتخدمون هـذا القانون الإسـلامى من دون مراعاه الروح الإسـلاميه فيه فيتخذون حريما كلّه فساد و فجور و يتعدون على حقوق أزواجهم،بيد أنّ هذا ليس هو عيب فى هذا القانون الإسـلامى و لا يجوز اعتبار أعمالهم القبيحه و أفعالهم الرخيصه هذه من الإسـلام،فهى ليست من أحكام الإسـلام فى شيء.ترى أى حكم أو قانون جيد

ص :۹۷

۱- ۱) -حضاره العرب،ص ۳۹۸.

من الأحكام و القوانين لم يستغله النفعيون و المصلحيون استغلالا سيئا؟

سؤال

ثمّ إنّ هاهنا من يسأل أنّه قد تتوفر الشرائط و الكيفيات المذكوره أعلاه بالنسبه إلى امرأه أو نساء،فهل يجوز أن نسمح لها أن تختار لنفسها زوجين كما نسمح للرجال ذلك؟

الجواب

إنّ الجواب على هذا السؤال ليس صعبا كما يمكن أن يتصور،و ذلك:

أوّلا:إنّ الرغبه الجنسيه لدى الرجال(على خلاف ما هو شائع بين السواد من الناس)أقوى و أشدّ بأضعاف من النساء،و أن المرض النفسى الذى تصرّح به أكثر الكتب النفسيه و الطبيه هو«البرود الجنسى»لدى المرأه فى حين أن الأمر فى الرجال هو العكس،و لا يقتصر هذا الأمر على البشر،ففى عالم الحيوانات كذلك نجد ذكورها أسبق إلى إظهار الميول الجنسيه من إناثها.

ثانيا:إنّ تعدد الزوجات للرجال لا ينطوى على أيه مشاكل اجتماعيه و حقوقيه،فى حين أنّ السماح بتعدد الأزواج للنساء(أى لو أنّنا سمحنا لامرأه أن تتزوج برجلين)يسبب مشاكل كثيره أبسطها هو ضياع النسب،إذ لا يعرف فى هذه الصوره إلى من ينتسب الولد،و لا شك أن مثل هذا الولد المجهول الأب لن يحظى باهتمام أى واحد من الرجال،بل و يعتقد بعض العلماء أن الولد المجهول الأب قلّما يحظى حتى بحبّ الأمّ و اهتمامها به،و بهذه الصوره يصاب الولد الناشئ من مثل المرأه ذات الزوجين بحرمان مطلق من الناحيه العاطفيه،كما أنّه يكون-بطبيعه الحال-مجهول الحال من الناحيه الحقوقيه أيضا.

و لعلّه لا يحتاج إلى التذكير بأن التوسل بوسائل منع الحمل للحيلوله دون انعقاد النطفه،و حصول ولد لا يورث الاطمئنان مطلقا،و لا يكون دليلا قاطعا

على عدم حمل الزوجه بولد،لأن ثمّه كثيرا من النساء يستخدمن هذه الوسائل، أو يخطئن فى استخدامها فيلدن و ينجبن أولادا،و لهذا لا يمكن لأيه امرأه أن تسمح لنفسها بأن تتزوج بأكثر من رجل اعتمادا على هذه الوسائل.

لهذه الأسباب لا يمكن أن يكون السماح للمرأه بتعدد الأزواج أمرا منطقيا، فى حين أنّه بالنسبه للرجال-ضمن الشروط المذكوره سابقا-أمر منطقى، و عملى أيضا.

ص :۹۹

الآيه [سوره النساء (۴): آيه ۴]

اشاره

وَ آتُوا اَلنِّسٰاءَ صَدُقٰاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً (۴)

التّفسير

اشاره

«النّحله»فى اللغه تعنى الدّين،كما أنّها بمعنى العطيه أيضا،يقول الرّاغب الأصفهانى فى مفرداته:«و اشتقاقه فيما أرى أنه من النحل نظرا منه إلى فعله فكان نحلته أعطيته النحل».

و«صدقاتهن»جمع الصداق و هى بمعنى المهر...

و الآيه الحاضره التى جاءت بعد البحث المطروح فى الآيه السابقه حول انتخاب الزّوجه تتضمن إشاره إلى إحدى حقوق النساء المسلّمه،و تؤكّد قائله:

وَ آتُوا النِّسٰاءَ صَدُقٰاتِهِنَّ نِحْلَةً

أى أعطوا المهر للزوجه كمّلا-و اهتموا بذلك كما تهتمون بما عليكم من ديون فتؤدونها كامله دون نقص(و فى هذه الصوره نكون قد أخذنا لفظه النّحله بمعنى الدّين).

و أمّا إذا أخذنا لفظه النّحله بمعنى العطيه و الهبه فيكون تفسير الآيه المذكوره بالنحو التالى:«أعطوا النساء كامل مهرهنّ الذى هو عطيه من اللّه لهنّ لأجل أن يكون للنساء حقوق أكثر فى المجتمع و ينجبر بهذا الأمر ما فيهنّ من ضعف

جسمی نسبی».

ثمّ بعد أن يأمر اللّه سبحانه-بصراحه-فی مطلع الآیه بأن تعطی للنساء مهورهن کامله و دون نقصان حفظا لحقوقهنّ،یعمد فی ذیل هذه الآیه إلی بیان ما من شأنه احترام مشاعر کلا الطرفین،و من شأنه تقویه أواصر الودّ و المحبّه و العلاقه القلبیه،و کسب العواطف إذ یقول: فَإِنْ طِبْنَ لَکُمْ عَنْ شَیْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَکُلُوهُ هَنِیئاً مَرِیئاً أی لو تنازلت الزوجه عن شیء من المهر و وهبته للزوج عن طیب نفسها جاز للزوج أکل الموهوب له،و إنّما أقرّ الإسلام هذا المبدأ لکیلا تکون البیئه العائلیه و الحیاه الزوجیه میدانا لسلسله من القوانین و المقررات الجافه،بل یکون مسرحا للتلاقی العاطفی الإنسانی،و تسود فی هذه الحیاه المحبّه جنبا إلی جنب مع المقررات و الأحکام الحقوقیه المذکوره.

الصّداق دعامه اجتماعیه للمرأه:

لمّا کانت المرأه-فی العصر الجاهلی-لم تحظ بأیه قیمه أو مکانه کان الرجل إذا تزوج امرأه ترک أمر صداقها-الذی هو حقها المسلّم-إلی أولیائها، فکان أولیاؤها یأخذون صداقها،و یعتبرونه حقّا مسلّما لهم لا لها،و ربّما جعلوا التزوج بامرأه صداقا لامرأه أخری،مثل أن یزوج الرجل أخته بشخص علی أن یزوج ذلک الشخص أخته بذلک الرجل،و کان هذا هو صداق الزوجتین.

و لقد أبطل الإسلام کل هذه التقالید و الأعراف الظالمه،و اعتبر الصداق حقّا مسلّما خاصا بالمرأه،و أوصی الرجال مرّات عدیده و فی آیات الکتاب العزیز برعایه هذا الحق للمرأه.

علی أنه لیس للصداق حدّ معین فی الإسلام،فهو أمر یتبع اتفاق الزوجین، و إن تأکد فی روایات کثیره علی التخفیف فی المهور،و لکن هذا لا یکون حکما إلزامیا،بل هو أمر مستحب.

ص :۱۰۱

و هاهنـا ينطرح هـذا السؤال،و هو إذا كـان الرجـل و المرأه يسـتفيدان من الزواج بشـكل متساو،و كانت رابطه الزوجيه قائمه على أساس مصالـح الطرفين فلما ذا يجب على الرجل أن يـدفع مبلغا-قليلا أو كثيرا-إلى المرأه بعنوان الصداق و المهر؟ ثمّ ألا ينطوى هـذا الأمر على إساءه إلى شخصـيه المرأه،ألا يسـبغ هذا الأمر صـبغه البيع و الشـراء على مشـروع الزواج؟ إنّ هذه الأمور هى التى تـدفع بالبعض إلى أن يعارضوا بشـدّه مبـدأ المهر و مسأله الصداق،و يقوى هذا الاتجاه لدى المتغربين خاصّه ما يجدونه من عدم الأخـذ بهذا المبدأ فى الزيجات الغربيه،فى حين أن حذف الصداق و المهر من مشـروع الزواج ليس من شأنه رفع شخصـيه المرأه فقط،بل يعرض وضعها للخطر.

و توضـيح ذلك هو،أنّه صـحيح أنّ المرأه و الرجل يستفيدان من مشروع الزواج،و إقامه الحياه الزوجيه على قدم المساواه،و لكن لا يمكن إنكار أنّ الأكثر تضررا لدى افتراق الزوج عن زوجته هى المرأه،و ذلك:

أوّلا:إنّ الرجل-بحكم قابلياته الجسديه الخاصّه-يمتلك-عاده-سلطانا و نفوذا و فرصا أكثر فى المجتمع،و هذه هى حقيقه ساطعه مهمـا حـاول البعض إنكارهـا عنـد الحـديث حول المرأه،و لكن الوضع الاجتمـاعى و حيـاه البشـر-حتى فى المجتمعات الغربيه و الأـوروبيه التى تحظى فيهـا النساء بما يسـمّى بالحرّيه الكامله ترينا بوضوح-و كما هو مشـهود للجميع-إنّ الفرص و أزمه الأعمال المربحه جدّا هى فى الأغلب فى أيدى الرجال.

هـذا مضافـا إلى أنّ أمـام الرجال إمكانيات أكثر لاختيار الزوجات،و إقامه حياه عائليه جديـده بينما لا تتوفر مثل هـذه الإمكانيات للمرأه،فإن النساء الثيبات-خاصّه تلك التى يصبن بهذه الحاله بعد مضى شطر من أعمارهنّ،

و فقدان شبابهنّ و جمالهنّ-يمتلكن فرصا أقل للحصول على أزواج لهنّ.

بملاحظه هـذه النقاط يتضـح أنّ الإمكانات التى تخسـرها المرأه بالزواج أكثر من الإمكانات التى يفقـدها الرجل بذلك،و يكون الصداق و المهر-فى الحقيقه- بمثابه التعويض عن الخساره التى تلحق بالمرأه،و وسـيله لضـمان حياتها المسـتقبليه،هذا مضافا إلى أنّ المهر و الصداق خير وسيله رادعه تردع الرجل عن التفكير فى الطلاق و الإفتراق.

صحيـح أنّ المهر-فى نظر القوانين الإسـلاميه يتعلق بـذمّه الرجـل من لحظه انعقـاد الرابطه الزوجيه و قيامهـا بين الرجل و المرأه،و يحق للمرأه المطالبه به فورا، و لكن حيث أن الغالب هو أن يتخذ الصداق صفه الدّين المتعلق فى الذمّه يكون لذلك بمثابه توفير للمرأه تسـتفيد منه فى مسـتقبلها،كما يعتبر خير دعامه لحفظ حقوقها،إلى جانب أنه يساعد على حفظ الرابطه الزوجيه من التبعثر و التمزق (طبعا هناك استثناءات لهذا الموضوع،و لكن ما ذكرناه صادق فى أغلب الموارد).

و أمّا تفسـير البعض لمسألة المهر بنحو خاطئ،و اعتبار الصداق أنّه من قبيل ثمن المرأه فلا يرتبط بالقوانين الإسلاميه،لأن الإسلام لا يعطى للصداق الذى يقدمه الرجل إلى المرأه صـفه الثمن كما لا يعطى المرأه صفه البضاعه القابله للبيع و الشراء،و أفضل دليل على ذلـك هو صـيغه عقـد الزواج الـذى يعتبر فيه الرجل و المرأه كركنين أساسـيين فى الرابطه الزوجيه،فى حين يقع الصـداق و المهر على هامش هذا العقد،و يعتبر أمرا إضافيا،بدليل صـحّه العقد إذا لم يرد فى صيغه البيع و الشراء و غير ذلك من المعاملات الماليه إذ بدونه تبطل هذه المعاملات(طبعا لا بدّ من الانتباه إلى أن على الزوج-إذا لم يذكر الصداق ضمن عقد الزواج-أن يدفع إلى المرأه مهر المثل فى صوره الدخول بها).

من کلّ ما قیل نستنتج أنّ المهر بمثابه جبران للخساره اللاحقه بالمرأه، و بمثابه الدعامه القویه التی تساعد علی احترام حقوق المرأه،لا أنّه ثمن المرأه، و لعل التعبیر بالنّحله التی هی بمعنی العطیه فی الآیه إشاره إلی هذه النقطه.

ص:۱۰۴

الآيتان [سوره النساء (۴): الآيات ۵ الی ۶]

اشاره

وَ لاٰ تُؤْتُوا اَلسُّفَهٰاءَ أَمْوٰالَكُمُ اَلَّتِی جَعَلَ اَللّٰهُ لَكُمْ قِيٰاماً وَ اُرْزُقُوهُمْ فِيهٰا وَ اُكْسُوهُمْ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (۵) وَ اِبْتَلُوا اَلْيَتٰامىٰ حَتّٰى إِذٰا بَلَغُوا اَلنِّكٰاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوٰالَهُمْ وَ لاٰ تَأْكُلُوهٰا إِسْرٰافاً وَ بِدٰاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَ مَنْ كٰانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كٰانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذٰا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوٰالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ حَسِيباً (۶)

التّفسير

اشاره

الآيات الحاضره تكمله للأبحاث المرتبطه باليتامى،التى مرّت فى الآيات السّابقه.

يقول اللّه سبحانه: وَ لاٰ تُؤْتُوا السُّفَهٰاءَ أَمْوٰالَكُمُ بل انتظروا رشدهم، و نضجهم فى المسائل الاقتصاديه لكى لا تتعرض أموالكم للتلف و الفناء.

من هو السّفيه؟:

قال الرّاغب فى المفردات:«السّفه خفّه فى البدن(يحصل بسببها عدم التعادل فى المشى)و منه قيل زمام سفيه أى كثير الاضطراب،و استعمل فى خفّه

ص: ۱۰۵

النفس لنقصان العقل فی الأمور الدّنیویه،و الأخرویه».

و لکنّ من الواضح أنّ المراد من السّفه فی الآیه الحاضره هو عدم الرشد اللازم فی الأمور الاقتصادیه بحیث لا یستطیع الشخص من تدبیر شؤونه الاقتصادیه و إصلاح ماله علی الوجه الصحیح،و لا یتمکن من ضمان منافعه فی المبادلات و المعاملات المالیه،أی أنّه عرضه للغبن و الضرّر،و یدل علی هذا المعنی ما جاء فی الآیه الثانیه إذ یقول سبحانه: فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ .

و علی هذا الأساس فإنّ الآیه الحاضره و إن کانت تبحث حول الیتامی،لکنّها تتضمّن حکما کلیا و قانونا عامّا لجمیع الموارد،و هو أنّه لا یجوز لأحد مطلقا أن یعطی أموال من یتولی أمره،أو ترتبط به حیاته بنوع من الارتباط،إلیه إذا کان سفیها غیر رشید،و لا فرق فی هذا الحکم بین الأموال الخاصّه و الأموال العامّه (و هی أموال الحکومه الإسلامیه)و یشهد علی هذا الموضوع-مضافا إلی سعه مفهوم الآیه-و خاصّه کلمه«السّفیه»روایات منقوله عن أئمّه الدین فی هذا الصدد.

ففی روایه عن الإمام الصّادق علیه السّلام نقرأ أنّ شخصا یدعی إبراهیم بن عبد الحمید یقول:سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه: وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ قال:

«کلّ من یشرب المسکر فهو سفیه (1) فلا تعطوهم أموالکم».

و فی روایه أخری نجد النهی عن اختیار شارب الخمر لجعله أمینا علی الأموال.

و خلاصه القول أنّنا نجد توصیف شارب الخمر بالسفه فی أحادیث کثیره و موارد متعدده،و هذا التعبیر إنّما هو لأن شارب الخمر فقد رأس ماله المادی و رأس ماله المعنوی،و أی سفیه أشدّ من أن یعطی الإنسان ماله،و عقله أیضا،

1- 1) -تفسیر البرهان،ج 1،فی ذیل هذه الآیه.

و يبتاع الجنون...و يضحى فى هذا السبيل بكل طاقاته البدنيه و الروحيه، و يتسبب فى أضرار اجتماعيه كثيره و كبيره.

ثمّ أنّنا نلاحظ أن روايه أخرى تصف كلّ من لا يوثق به بالسفيه،و تنهى من تسليم الأموال الخاصّه و العامّه إليه،فعن يونس بن يعقوب قال:سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن قوله: وَ لاٰ تُؤْتُوا السُّفَهٰاءَ أَمْوٰالَكُمُ قال:«من لا تثق به (۱) ».

و من هذه الرّوايات يتبيّن أنّ للفظه السفيه معنى واسعا،و أن النهى يشمل تسليم الأموال الخاصّه و العامّه إليهم،غايه ما فى الأمر أن هذا النهى يكون فى بعض الموارد نهى تحريم،و فى بعض الموارد الاخرى التى لا تشتد فيها درجه السفه يكون نهى كراهه.

و هنا ينطرح سؤال و هو،إذا كانت هذه الآيه فى مورد أموال اليتامى فلما ذا قال تعالى: أَمْوٰالَكُمُ و لم يقل«أموالهم»؟ يمكن أن تكون النكته و السرّ فى هذا التعبير هو بيان مسأله اجتماعيه و اقتصاديه مهمّه فى المقام و هى أن الإسلام يعتبر الأفراد فى المجتمع بمثابه فرد واحد بحيث لا يمكن أن تنفصل مصالح فرد عن مصالح الآخرين،و هكذا تكون خساره فرد عين خساره الآخرين،و لهذا السبب أتى القرآن فى هذا المقام بضمير المخاطب بدل ضمير الغائب إذ قال:«أموالكم»و لم يقل«أموالهم»،يعنى أنّ هذه الأموال-فى الحقيقه-ليست مرتبطه باليتامى فقط،بل هى مرتبطه بكم أيضا، فإذا لحق بها ضرّر،يكون ذلك الضرّر قد لحق بكم بصوره غير مباشره أيضا، و لهذا يجب أن تحرصوا فى حفظها كل الحرص.

ثمّ إنّ هناك تفسيرا آخر لهذا التعبير و هو أن المقصود من«أموالكم»،هو أموال نفس الأولياء لا أموال اليتامى،فيكون المعنى إذا أردتم مساعده الأيتام الذين لم يرشدوا ربّما أعطيتهم شيئا من أموالكم-تحت تأثير العاطفه و الإشفاق

۱- ۱) -تفسير البرهان،ج ۱،ذيل الآيه المبحوثه و هكذا فى تفسير نور الثقلين.

-إليهم،و اخترتموهم لبعض الأعمال التى لا يقدرون عليها فلا تفعلوا ذلك،بل عليكم أن تعملوا شيئا آخر مكان هذا العمل الغير العقلائى،و هو أن تقوموا بالإنفاق على مأكلهم و ملبسهم و مسكنهم حتى يبلغوا سن الرشد،فإذا بلغوا هذه المرتبه،و حصلت لديهم البصيره الكافيه أعطوهم ما شئتم،و انتخبوهم لما تريدون من الأعمال.

و هذا فى الواقع درس اجتماعى كبير يعلمه القرآن لنا حيث ينهانا عن تشغيل من لا يقدر على بعض الأعمال فيها،و ذلك بدافع مساعدتهم و تحت تأثير الإشفاق و العاطفه،لأن هذه الأعمال و إن كانت تنطوى على بعض الأرباح القليله،و لكنّها من الممكن أن تجرّ على المجتمع أضرارا و ويلات كبيره،فلا بدّ إذن من إداره أمور هذه الطائفه من المجتمع عن طريق تقديم المساعدات الغير المعوضه إليهم أو تشغيلهم فى أمور سهله و صغيره.

من هنا يتّضح أنّ بعض قاصرى النظر يختارون الضعفاء و القصر لبعض المسؤوليات التبليغيه و الدينيه إرفاقا بهم و إشفاقا عليهم و هذا لا شك من أضرّ الأعمال،و أكثرها بعدا عن العقل و المنطق الصحيح.

أموالكم قوام لكم:

ثمّ أنّ القرآن الكريم يصف الأموال المذكوره فى مطلع الآيه الحاضره بقوله:

اَلَّتِی جَعَلَ اللّهُ لَکُمْ قِیاماً

هو تعبير جميل و رائع جدا عن الأموال و الثّروات، فهى قوام الحياه الناس و المجتمع،و بدونها لا يمكن للمجتمع الوقوف على قدميه،فلا يصحّ إعطاؤها إلى السفهاء و المسرفين الذين لا يعرفون إصلاحها،بل ربّما أفسدوها و أتلفوها و ألحقوا بسبب ذلك أضرارا كبيره بالمجتمع.

و من هذا التعبير نعرف جيدا ما يوليه الإسلام من الاهتمام بالأمور و الشؤون الاقتصاديه و الماليه،و على العكس نقرأ فى الإنجيل الحاضر:«فقال يسوع

لتلاميذه:الحق أقول لكم أنّه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السماوات» (١) فى حين يرى الإسلام أنّ الأمّه الفقيره لا تستطيع أبدا الوقوف على قدميها.و أنّه لعجيب أن نرى تلك الطائفه بلغت إلى ما بلغت من المراتب فى عالمنا الراهن فى حقول التقدم الاقتصادى مع ما هم عليه من التعاليم الخاطئه،فى حين نعانى من هذا الوضع المأسوى مع ما نملك من التعاليم الحيويه العظيمه.

غير أنّه لا داعى للعجب،فهم تركوا تلك الخرافات و الأضاليل-فى الحقيقه-فوصلوا إلى ما وصلوا،بينما تركنا نحن هذه التعاليم الراقيه فوقعنا فى هذه الحيره،و التخلف.

تعليمان فى شأن اليتامى:

ثمّ أن اللّه سبحانه يأمر-فى شأن اليتامى-بأمرين مهمين هما:

أوّلا:رزق اليتامى و إكسائهم من أموالهم حتى يبلغوا سن الرشد إذ يقول:

وَ ارْزُقُوهُمْ فِيهٰا وَ اكْسُوهُمْ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً

.

و الجدير بالنظر هو أنّ اللّه تعالى عبّر فى هذه الآيه بلفظه«فيها»أى فى أموال اليتامى لا«منها»أى من أموالهم إذ المفهوم من هذا التعبير هو أن تدبير شؤون اليتامى و الإنفاق عليهم يجب أن يتمّ من أرباح أموالهم،إذ لو قال سبحانه:

و ارزقوهم منها لفهم من ذلك أنّ على الولى أن يقتطع من أصل أموالهم شيئا فشيئا،و هذا يعنى أن يفقد اليتامى شيئا كبيرا من أموالهم حينما يبلغون و يصلون إلى سن الرشد،و لكن القرآن الكريم باستبداله لفظه«منها»بلفظه«فيها»يكون قد أوصى أولياء اليتامى بأن يحرصوا كلّ الحرص على أموال اليتامى،و يحاولوا الإنفاق من أرباح رؤوس أموالهم و ذلك باسترباح هذه الأموال و استثمارها و لو بقدر نفقات اليتامى كيما تبقى هذه الأموال على حالها حين بلوغهم سن الرشد.

١- ١) -إنجيل متى الإصحاح،١٩-٢٣.

ثانیا:مخاطبه الیتامی و التکلم معهم بقول طیب و رقیق إذ قال سبحانه:

وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً

کیما یزیلوا بمثل هـذا القول المعروف ما یشعر به الیتامی من نقصان روحی و عقد نفسیه،کما یساعدوا بذلک علی ترشیدهم و بلوغهم حدّ الرشد العقلی،حتی یتمتعوا عند البلوغ بالرشد العقلی اللازم،و بهذا الطریق یکون بناء شخصیه الیتیم و ترشیده عقلیا من وظائف الأولیاء و مسئولیاتهم أیضا.

تعلیم آخر فی شأن الیتامی و أموالهم:

هاهنـا تعلیم آخر فی شـأن الیتـامی و أموالهم،إذ یقول سـبحانه: وَ ابْتَلُوا الْیَتٰامیٰ حَتّٰی إِذٰا بَلَغُوا النِّکٰاحَ فإذا بلغوا سن الرشـد الـذی آنستم فیه قـدرتهم علی إداره أمـوالهم و التصـرف فیهـا بنحـو معقول فـأعطوهم أموالهم: فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَیْهِمْ أَمْوٰالَهُمْ و ها هنا نقاط لا بدّ من الالتفات إلیها.

١-إنّه یستفاد من التعبیر ب«حتی»أنّه یجب اختبار الیتامی قبل بلوغ سنّ النکاح،و أن یتمّ هذا الأمر بصوره مستمره و متکرره حتی یعرف بلوغهم حدّ النکاح و یتبیّن أنّهم بلغوا الحدّ اللازم من الرشد العقلی اللازم لإداره الأمور المالیه علی الوجه الصحیح.

کما أنّه یستفاد-ضمنا-أنّ المراد من الاختبار و الابتلاء هو التربیه التدریجیه و المستمره للیتامی،و هذا یعنی أن لا تترکوا الیتامی و تهملوهم حتی یبلغوا سن الرشـد ثمّ تعمـدوا إلی إعطـائهم أموالهم،بـل لا بـدّ أن تهیئوهم-قبـل البلوغ-للحیـاه المستقله و ذلک بالبرامج التربویه العملیه.

و أمّا أنّه کیف یمکن اختبار الیتیم فطریقه هو أن یعطی مقدارا من المال، فیتّجر به و یشتری و یبیع مع نظاره الولی بنحو لا یسلب الیتیم استقلاله فإذا تبیّن أنّه قادر علی الاتجار و التعامل کما ینبغی و من دون أن یغبن،وجب تسلیم أمواله

إليه و إلاّ فلا بدّ أن تستمر تربيته و إعداده حتى يبلغ تلك الدرجه التى يستطيع فيها أن يستقل بإداره شؤونه و تدبير معيشته،و أخذ زمام حياته المستقبليه بيده.

۲-إنّ التعبير بجمله إِذٰا بَلَغُوا النِّكٰاحَ إشاره إلى أن الرشد المطلوب هو أن يبلغ اليتيم إلى درجه القدره على الزواج،و واضح أن الذى يقدر على الزواج لا بدّ أنّه يقدر على تشكيل عائله،و لا شك أنّ الإنسان بدون امتلاكه لرأس مال لا يتوصل إلى أهدافه،و لهذا فإن بدايه الحياه العائليه تتزامن مع بدايه الحياه الاقتصاديه المستقله.

و بعباره أخرى أنّ الثروه لا تعطى إليهم إلاّ عند ما يصلون إلى البلوغ الجسمى،فيحتاجون إلى المال بشدّه و يصلون إلى البلوغ الفكرى،و يتمكنون من المحافظه على أموالهم فى وقت واحد.

۳-إنّ التعبير بجمله آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً إشاره إلى أنّه يجب أن يتأكد من رشدهم،لأنّ الإيناس بمعنى المشاهده و الرؤيه و هذه الماده مشتقه من ماده «الإنسان»الذى فى معانيه ناظر العين و عدستها التى بها تبصر(و الرؤيه إنّما تتمّ بالاستعانه من إنسان العين- فى الحقيقه-و لهذا عبر عن المشاهده بالإيناس).

ثمّ أنّه سبحانه قال: وَ لاٰ تَأْكُلُوهٰا إِسْرٰافاً وَ بِدٰاراً أَنْ يَكْبَرُوا و هو تأكيد آخر للأولياء بأن لا يسلموا الأموال إلى اليتامى قبل أن يكبروا بأن يحافظوا على أموال اليتامى و لا يتلفوها أبدا.

ثمّ أنه تعالى يردف هذا التأكيد بقوله: وَ مَنْ كٰانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كٰانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ و بهذا أذن اللّه تعالى للأولياء بأن يأخذوا لأنفسهم من أموال اليتامى لقاء ما يتحملون من أتعاب فى حفظها،و حراستها،على أن يراعوا جانب العدل و الإنصاف فيما يأخذونه بعنوان الأجره،هذا إذا كان الولى فقيرا،أما إذا كان غنيّا فلا يأخذ من مال اليتيم شيئا أبدا.

و قد وردت فى هذا الصدد كذلك روايات توضح و تبيّن ما أشير إليه من

مضمون الآیه.

و من هذه الأحادیث ما

روی عن الإمام الصّادق علیه السّلام إذ قال: «فذلک رجل یحبس نفسه عن المعیشه،فلا بأس أن یأکل بالمعروف إذا کان یصلح لهم فإن کان المال قلیلا(و لا یستغرق ذلک وقتا کبیرا)طبعا فلا یأکل منه شیئا». (۱)

ثمّ یقول سبحانه: فَإِذٰا دَفَعْتُمْ إِلَیْهِمْ أَمْوٰالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَیْهِمْ لکی لا یبقی أی مجال للاتهام و التنازع،و هذا هو آخر حکم فی شأن الأولیاء و الیتامی جاء ذکره فی هذه الآیه.

و اعلموا أنّ الحسیب الواقعی هو اللّه تعالی،و الأهم من ذلک هو أن حسابکم جمیعا عنده لا یخفی علیه شیء أبدا و لا یفوته صغیر و لا کبیر فإذا بدرت منکم خیانه خفیت علی الشهود فإنّه سبحانه سیحصیها علیکم،و سوف یحاسبکم علیها و یؤاخذکم بها: وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ حَسِیباً .

ص: ۱۱۲

۱- ۱) -البرهان،ج ۱،ص ۳۴۴،الحدیث ۹.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۷]

اشاره

لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمّا تَرَكَ اَلْوالِدانِ وَ اَلْأَقْرَبُونَ وَ لِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمّا تَرَكَ اَلْوالِدانِ وَ اَلْأَقْرَبُونَ مِمّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (٧)

سبب النّزول

كـانت العرب فى الجـاهليه تورث الـذكور دون الإنـاث،و كانوا يعتقـدون أنّه لا يرث من لا يطاعن بالرماح و لا يقـدر على حمل السـلاح،و لا يذود عن الحريم و المال، و لهذا كانوا يحرمون النساء و الأطفال عن الإرث،و يورثون الرجال الأباعد،و لو كان من الورثه من هو أقرب منهم.

حتى إذا مات أنصارى يدعى«أوس بن ثابت»و قد ترك صغارا من بنات و أولاد،فاقتسم أبناء عمومته«خالد»و«عرفجه»أمواله بينهم و لم يورثوا زوجته و أولاـده الصـغار من تركته أبـدا،فشـكت زوجته إلى النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم،و لم يكن فى ذلك حكم إلى ذلـك الحين،فنزلت هـذه الآـيه فاسـتدعى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم ذينـك الشخصـين،و أمرهمـا بأن لا يتصـرفا فى أموال الأنصـارى،و أن يتركـا تلـك الأـموال إلى ورثه الميت من الطبقه الأولى و هم زوجته و أولاده،بانتظار أن تنزل آيات أخرى توضح كيفيه تقسيمها بين هؤلاء الورثه.

ص: ۱۱۳

التّفسير

اشاره

خطوه أخرى لحفظ حقوق المرأه:

هـذه الآيه-فى الحقيقه-خطوه أخرى على طريق مكافحه العادات و الأعراف الخاطئه التى تؤدى إلى حرمان الأطفال و النساء من حقوقهم المسلّمه الطبيعيه،و على هذا الأساس تكون هذه الآيه مكمله للأبحاث التى مرّت فى الآيات السابقه،لأن العرب الجاهليين كانوا-حسب تقاليدهم و أعرافهم الظالمه- يمنعون النساء و الصغار من حق الإرث،و لا يسهمون لهم من المواريث،فأبطلت هذه الآيه هذا التقليد الخاطئ الظالم إذ قال سبحانه: لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ،وَ لِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ مِمّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ .

ثمّ قال سبحانه فى ختام هذه الآيه بغيه التأكيد على الموضوع نَصِيباً مَفْرُوضاً حتى يقطع الطريق على كل تشكيك أو ترديد فى هذا المجال.

ثمّ أنّ الآيه الحاضره-كما هو ملاحظ-تذكر حكما عامّا،و شاملا لجميع الموارد،و لهذا فإن ما يتصوره البعض من أنّ الأنبياء لا يورثون،أى أنّهم إذا تركوا شيئا من ثروه و مال لم يرثهم أقرباؤهم،خلاف الآيه(طبعا المقصود من الأموال التى يتركها النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى تلك الأموال الخاصّه به،و أمّا الأموال المتعلقه ببيت المال الذى هو من حق المسلمين عامّه،فالحكم الإسلامى فيها هو صرفها فى مواردها.

كما أنّه يتبيّن من إطلاق الآيه الحاضره و الآيات الاخرى التى تأتى فى ما بعد حول الإرث أنّ القول بالتعصيب(و هو إعطاء شيء من التركه إلى عصبه الميت و هم من ينتسبون إليه من طرف الأب،و ذلك فى بعض الموارد كما يذهب إليه علماء السنه)يخالف هو أيضا ما جاء به القرآن الكريم من تعاليم فى مجال

الإرث،لأن ذلك يستلزم حرمان النساء من الميراث فی بعض الموارد،و هذا ضرب من التمييز الجاهلی الذی رفضه الإسلام و أبطله بالآيه الحاضره و الآيات المشابهه لها.

ص: ١١۵

الآيه [سوره النساء (۴): آيه ۸]

اشاره

وَ إِذٰا حَضَرَ اَلْقِسْمَهَ أُولُوا اَلْقُرْبىٰ وَ اَلْيَتٰامىٰ وَ اَلْمَسٰاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (۸)

التّفسير

اشاره

حكم أخلاقى:

نزلت الآيه الحاضره بعد قانون تقسيم الإرث حتما إذ تقول: وَ إِذٰا حَضَرَ الْقِسْمَهَ أُولُوا الْقُرْبىٰ وَ الْيَتٰامىٰ وَ الْمَسٰاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ .

و على هذا الأساس يتضمّن محتوى هذه الآيه حكما أخلاقيا استحبابيا فى شأن طبقات محجوبه عن الإرث بسبب وجود طبقات أقرب منها إلى المورث، فالآيه تقول:إذا حضر مجلس تقسيم الإرث جماعه من الأقرباء من الطبقه الثانيه و الثالثه،و كذا بعض اليتامى و المساكين فارزقوهم من الإرث،و بهذا تكونون قد منعتم من تحرك شعور الحسد و البغضاء لدى من يمكن أن يثور لديهم ذلك الشعور بسبب حرمانهم من الإرث،و لا شك أنّ هذا العمل من شأنه أن يقوى أواصر القرابه الإنسانيه بينكم.

إنّ كلمتى«اليتامى»و«المساكين»و إن ذكرتا بنحو مطلق فى هذه الآيه،غير أن الظاهر هو أنّ المراد منهما هم اليتامى و المساكين من قربى الميت،لأنّ الأقرب

ص:۱۱۶

يحجب-فی قانون الإرث-الأبعد من الإرث،و علی هذا فلو حضر أحد من هذه الطبقات قسمه المیراث فإنّه ینبغی أن یعطی الورثه له شیئا من المیراث هدیه (یتوقف مقدارها علی إراده الوراث علی أن یکون ذلک من مال الورثه الکبار دون الصغار).

هذا و یحتمل جماعه من المفسرین أن یکون المراد من الیتامی و المساکین فی هذه الآیه هو مطلق الیتامی و المساکین سواء کانوا من قرابه المیت أم لا، و لکن هذا الاحتمال یبدو بعیدا فی النظر،لأن الأجانب لیس لهم طریق إلی المجالس العائلیه غالبا.

کما أنّه یعتقد بعض المفسّرین أن الآیه تتضمن حکما وجوبیا لا استحبابیا، بید أن هذا الأمر فیها علی نحو الوجوب،وجب تعیین و تحدید ما یلزم إعطاؤه لهاتین الطائفتین،فی حین ترک الأمر فیه إلی إراده الورثه.

ثمّ أنّه سبحانه یختم هذه الآیه بدستور أخلاقی إذ یقول: وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً یعنی أنّه مضافا إلی تقدیم مساعده مادیه إلی هؤلاء أشفعوا ذلک بموقف أخلاقی و استفیدوا من المعین الإنسانی لکسب مودّتهم،و حتی لا یبقی فی قلوبهم أی شعور عدائی تجاهکم،و هذا الدستور علامه أخری و دلیل آخر علی أن الأمر بإعطاء شیء من المیراث إلی الیتامی و المساکین إنما هو علی نحو الندب لا الوجوب.

من کل ما ذکرناه اتّضح أنّه لا مبرر أبدا لأن یقال أن الحکم المذکور فی هذه الآیه منسوخ بالآیات التی تعین السهام فی الإرث،لعدم وجود أیه منافاه و تعارض بین هذه الآیه و تلک الآیات المحدده للأسهم.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۹]

اشاره

وَ لْيَخْشَ اَلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعٰافاً خٰافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اَللّٰهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (۹)

التّفسیر

اشاره

دعوه إلی العطف علی الیتامی:

یشیر القرآن الکریم-بهدف إثاره مشاعر العطف و الإشفاق لدی الناس بالنسبه إلی الیتامی-إلی حقیقه یغفل عنها الناس أحیانا،و تلک الحقیقه هی:إن علی الإنسان أن یعامل یتامی الآخرین کما یحبّ أن یعامل الناس یتاماه.

تصوروا مشهد أطفال فقدوا آباءهم و أمهاتهم یعیشون تحت کفاله شخص قاسی القلب خائن لا یرعی مشاعرهم،کما لا یراعی جانب العداله فی حقّهم.

أجل تصوروا هذا المشهد المؤلم،کم یؤلمکم و یحزنکم ذلک؟هل تحبّون مثل ذلک لأبنائکم الصغار من بعدکم؟کلا حتما،فکما تحبّون ورثتکم فأحبّوا ورثه غیرکم و یتاماهم،و أحزنوا لما یحزنهم.

و علی هذا یکون مفهوم قوله سبحانه: وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعٰافاً خٰافُوا عَلَيْهِمْ هو أنّ الذین یخافون علی مستقبل أولادهم الصغار علیهم أن یخافوا مغبه الخیانه فی شؤون الیتامی و یخافوا مغبه إیذائهم.

ص: ۱۱۸

و أساسا:إنّ القضايا الاجتماعيه تنتقل فی شكل سنه من السنن-من اليوم إلى الغد،و من الغد إلى المستقبل البعيد،فالذين يروّجون فی المجامع سنه ظالمه مثل إيذاء اليتامى فإن ذلك سيكون سببا لسريان هذه السنه على أولادهم و أبنائهم أيضا،و على هذا لا يكون مثل هذا الشخص قد أذى يتامى الآخرين و ورثتهم فقط،بل فتح باب الظلم على أولاده و يتاماه أيضا.

لهذا وجب أن يتجنب أولياء اليتامى مخالفه الأحكام الإلهيه،و يتقوا اللّه فی اليتامى و يقولوا لهم قولا عدلا موافقا للشرع و الحق،قولا ممزوجا بالعواطف الإنسانيه و المشاعر الأخويه،لكی يندمل بذلك ما فی قلوب أولئك من الجراح، و ينجبر ما فی أفئدتهم من الكسر،و إلى هذا يشير قوله سبحانه: فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً .

إنّ هذا التعليم الإسلامی الرفيع المذكور فی العباره السابقه إشاره إلى ناحيه نفسيه فی مجال تربيه اليتامى-جديره بالاهتمام و الرعايه،و هی:إنّ حاجه الطفل اليتيم لا تنحصر فی الطعام و الكساء،بل مراعاه مشاعرهم و أحاسيسهم القلبيه هو الأهم،و هو ذو تأثير كبير جدّا فی بناء مستقبلهم،لأن الطفل اليتيم إنسان كغيره،يجب أن يحصل على غذائه اللازم من الناحيه العاطفيه،فيجب أن يحظى بالحنو و الرعايه كما يحظى بذلك أی طفل آخر فی حضن أبيه و أمّه. أنه ليس«حمل»يخرج مع القطيع للرعی عند الصباح،و يعود عند الغروب،بل هو إنسان يجب-مضافا إلى الرعايه الجسديه-أن يحظى بالرعايه الروحيه،و العنايه العاطفيه،و إلاّ نشأ قاسيا مهزوما،عديم الشخصيه،بل و حاقدا خطيرا.

إيضاح ضروری:

عن عبد الأعلى مولى آل سام قال قال أبو عبد اللّه عليه السّلام مبتدءا: «من ظلم سلّط اللّه عليه من يظلمه،أو على عقبه،أو على عقب عقبه،قال(أی الراوی)فذكرت فی

نفسی فقلت:یظلم(و)هو یتسلط علی عقبه و عقب عقبه؟فقال لی قبل أن أتکلم:إن اللّه یقول: وَ لْیَخْشَ الَّذِینَ لَوْ تَرَکُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّیَّهً ضِعٰافاً خٰافُوا عَلَیْهِمْ ».

إنّ السؤال الذی خالج ذهن الراوی یخالج نفسه أذهان کثیرین،فیتساءلون:

کیف یحمل الباریٔ تعالی جزاء شخص علی شخص آخر،بل و ما ذا فعل أبناء العاصی حتی یبتلوا بمن یظلمهم،و یتحملوا وزر ما جناه والدهم؟ إنّ جواب هذا السؤال یتضح من الإیضاح الذی ذکر فی الحدیث السابق و هو أن ما یرتکبه الأشخاص فی المجتمع من أعمال تتخذ شکل السنه شیئا فشیئا،و ینتقل إلی الأجیال اللاحقه،و علی هذا الأساس فإن الذین یظلمون الیتامی فی المجتمع،و یرسون قواعد هذا السلوک الظالم سیصاب أبناؤهم بلهیب هذه البدعه یوما ما أیضا،و یعدّ هذا فی الحقیقه أحد الآثار الوضعیه التکوینیه لمثل هذا العمل،و أمّا نسبته إلی اللّه فهی لأجل أن جمیع الآثار التکوینیه و کل خواص العلّه و المعلول منسوبه إلی اللّه و مستنده إلیه تعالی،و لا یظلم ربّک أحدا أبدا.

و خلاصه القول:إذا ساد الظلم فی المجتمع فإنّه سوف یسری و یصیب الظالم و أولاده أیضا.

الآيه [سوره النساء (۴): آیه ۱۰]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوٰالَ اَلْيَتٰامىٰ ظُلْماً إِنَّمٰا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نٰاراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (۱۰)

التّفسير

اشاره

الوجه الحقيقى لأفعال البشر:

لقـد ذكرنا فى مطلع هـذه السّوره أن آيات هذه السوره نزلت لبناء مجتمع صالح و سـليم،و لهذا تسـعى آياتها فى تطهير المجتمع من الرواسب الجاهليه و ما تبقّى فى نفوس بعض المسـلمين الحديثى العهد بالإسلام من العادات السيئه أوّلا، لتتهيأ الأرضيه لإقامه ذلك المجتمع الصالح المنشود.

و أيه عـاده ترى أقبـح من أكـل أموال اليتـامى؟و لهـذا ابتـدأت هـذه السوره بعبارات شديـده النكير على من يتصـرف فى أموال اليتامى تصرفا غير مشروع، و غير صحيح،و الآيه الحاضره هى أوضح هذه العبارات.

تقول هذه الآيه: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوٰالَ الْيَتٰامىٰ ظُلْماً إِنَّمٰا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نٰاراً .

و لقـد ورد نظير هـذه العبـاره فى موضـع آخر من القرآن الكريم و ذلـك فى شـأن الـذين يكتمـون الحق،و يحرفـون الكلم عن مواضعها لتحقيق بعض المكاسب

ص: ۱۲۱

المادیه الشخصیه إذ یقول سبحانه عنهم: إِنَّ الَّذِینَ یَکْتُمُونَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ الْکِتٰابِ،وَ یَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِیلاً أُولٰئِکَ مٰا یَأْکُلُونَ فِی بُطُونِهِمْ إِلاَّ النّٰارَ (۱) .

ثمّ أنّه سبحانه یقول فی بیان نتیجه أکل أموال الیتامی: وَ سَیَصْلَوْنَ سَعِیراً .

و«یصلی»من«الصلی»بمعنی الدخول فی النار و الاحتراق بلهیبها،و أمّا «السعیر»فبمعنی النار المشتعله.

و یقصد القرآن من هذه الجمله إنّ الذین یأکلون أموال الیتامی مضافا إلی أنّهم یأکلون النار-فی الحقیقه-فی هذه الدنیا سیدخلون عمّا قریب نارا مشتعله الأوار و حارقه اللهب فی الدار الآخره.

و یستفاد من هذه الآیه أن لأعمالنا مضافا إلی وجهها الظاهری وجها واقعیا أیضا،وجها مستورا عنّا فی هذه الدنیا،لا نراه بعیوننا هنا،و لکنّه یظهر فی العالم الآخر،و هذا الأمر هو ما یشکل مسأله تجسم الأعمال المطروحه فی المعتقدات الإسلامیه.

إنّ القرآن یصرح فی هذه الآیه بأنّ الذین یأکلون أموال الیتامی ظلما و جورا،و إن کان الوجه الظاهری لفعلهم هذا هو الأکل من الأطعمه اللذیذه الملونه،و لکن الوجه الواقعی لهذه الأغذیه هو النار المحرقه الملتهبه،و هذا الوجه هو الذی یظهر و یتجلّی علی حقیقته فی عالم الآخره.

إنّ بین الوجه الواقعی للعمل و الکیفیه الظاهریه للعمل تناسبا و تشابها دائما، فکما أن أکل مال الیتیم و غصب حقوقه یحرق فؤاد الیتیم،و یؤذی روحه،فکذا یکون الوجه الواقعی للعمل نارا محرقه.

إنّ الانتباه إلی هذا الأمر(أی الوجه الحقیقی الواقعی لکل عمل)خیر رادع للذین یؤمنون بهذه الحقائق،کیما لا یرتکبوا المعاصی و لا یقترفوا الذنوب،فهل یوجد ثمّه من یحب أن یأخذ بیدیه قبسات من النار،و یضعها فی فمه و یبتلعها؟

۱- ۱) -البقره،۱۷۴.

إنّه من غير الممكن-و الحال هـذه-أن يقدم المؤمنون على أكل مال اليتيم ظلما،و لو أنّنا وجدنا ثمّه من لا يقدم على هذا الفعل، بل و لا يفكر فی المعصيه أبدا(كالأولياء)،فلأنهم يرون-بفضل ما لـديهم من الإيمان و العلم،و ما حصـلوا عليه من تربيه خلقيه- حقائق الأفعال البشريه و وجوهها الواقعيه،فلا يفكرون فی اقتراف هذه الأعمال السيئه،فضلا عن الهمّ باقترافها.

إنّ الطفل الجاهل هو الـذی يمكن أن يسـحره و يجـذبه جمال الجـذوات المتقدمه و ألسـنه اللهب المندفعه منها فيمد يده إليها،و لكن الإنسان العاقل الذی جرب حراره النار و ذاق ألمها،كيف يمكن أن يفكر يوما بذلك.

هـذا و لقد وردت أحاديث كثيره تنهی بشدّه عن أكل مال اليتيم و العدوان علی حقوقه،و تؤكد علی أنّها كبيره موبقه،بل و تعتبر أبسط الأعمال من هذا النوع مشمولا لهذا الحكم الصارم و موضوعا لهذه العقوبه القاسيه.

ففی حديث عن الإمام الصادق أو الإمام الباقر عليه السّلام لما سئل فی كم يجب لأكل مال اليتيم من النار؟قال:فی درهمين (۱) .

۱- ۱) -تفسير البرهان عند تفسير الآيه.

الآیتان [سوره النساء (۴): الآیات ۱۱ الی ۱۲]

اشاره

یُوصِیکُمُ اَللّٰهُ فِی أَوْلاٰدِکُمْ لِلذَّکَرِ مِثْلُ حَظِّ اَلْأُنْثَیَیْنِ فَإِنْ کُنَّ نِسٰاءً فَوْقَ اِثْنَتَیْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثٰا مٰا تَرَکَ وَ إِنْ کٰانَتْ وٰاحِدَةً فَلَهَا اَلنِّصْفُ وَ لِأَبَوَیْهِ لِکُلِّ وٰاحِدٍ مِنْهُمَا اَلسُّدُسُ مِمّٰا تَرَکَ إِنْ کٰانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ یَکُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرِثَهُ أَبَوٰاهُ فَلِأُمِّهِ اَلثُّلُثُ فَإِنْ کٰانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ اَلسُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِیَّةٍ یُوصِی بِهٰا أَوْ دَیْنٍ آبٰاؤُکُمْ وَ أَبْنٰاؤُکُمْ لاٰ تَدْرُونَ أَیُّهُمْ أَقْرَبُ لَکُمْ نَفْعاً فَرِیضَةً مِنَ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ عَلِیماً حَکِیماً (۱۱) وَ لَکُمْ نِصْفُ مٰا تَرَکَ أَزْوٰاجُکُمْ إِنْ لَمْ یَکُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ کٰانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَکُمُ اَلرُّبُعُ مِمّٰا تَرَکْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِیَّةٍ یُوصِینَ بِهٰا أَوْ دَیْنٍ وَ لَهُنَّ اَلرُّبُعُ مِمّٰا تَرَکْتُمْ إِنْ لَمْ یَکُنْ لَکُمْ وَلَدٌ فَإِنْ کٰانَ لَکُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ اَلثُّمُنُ مِمّٰا تَرَکْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِیَّةٍ تُوصُونَ بِهٰا أَوْ دَیْنٍ وَ إِنْ کٰانَ رَجُلٌ یُورَثُ کَلاٰلَةً أَوِ اِمْرَأَةٌ وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِکُلِّ وٰاحِدٍ مِنْهُمَا اَلسُّدُسُ فَإِنْ کٰانُوا أَکْثَرَ مِنْ ذٰلِکَ فَهُمْ شُرَکٰاءُ فِی اَلثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِیَّةٍ یُوصیٰ بِهٰا أَوْ دَیْنٍ غَیْرَ مُضَارٍّ وَصِیَّةً مِنَ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ عَلِیمٌ حَلِیمٌ (۱۲)

ص: ۱۲۴

سبب النّزول

لمّـا مات«عبـد الرحمن بن ثابت الأنصارى»«أخو حسان بن ثابت»الشاعر المعروف فى صـدر الإسـلام و قـد خلف امرأه و خمسـه أخوان،اقتسم إخوانه ميراثه بينهم و لم يعطوا زوجته شـيئا ممّا تركه من المال،فشكت ذلك إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فنزلت الآيات الحاضره التى تبيّن و تحدد سهم الأزواج من الإرث بنحو دقيق.

كما

نقل عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى أنّه قال: مرضت فعادنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأغمى علىّ،فطلب النّبى ماء و توضـأ لبعضه و صب بعضه الآخر على فـأفقت فقلت:يـا رسول اللّه كيف أصـنع فى مالى(أى كيف يجب أن يكون أمره من بعد وفاتى)فسكت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يقل شيئا،فنزلت آيه المواريث تبيّن نظام الإرث و تحدد أسهم الورثه.

الإرث حق طبيعى:

قبل أن نعمد إلى تفسير الآيات الحاضره لا بدّ أن نشير إلى عدّه نقاط.

أوّلا-قـد يتصـور كـثيرون أنّ مـن الأفضـل أن تعـود أمـوال الشـخص بعـد وفـاته إلى الملكيه العـامّه،و أن تضـاف إلى بيت مـال المسـلمين،و لكن الإمعـان فى هـذا العمـل يكشف لنـا عن كونه خلاف العـدل،لأن مسأله الإرث و التوارث مسأله طبيعيه منطقيه جـدا،فكمـا أن الآبـاء و الأمهات ينقلون قسـما من صـفاتهم الجسـميه و الروحيه إلى أبنائهم-حسب قانون الوراثه الطبيعى-فلما ذا يستثنى من ذلك أموالهم فلا تنتقل إلى أبنائهم؟ هذا مضافا إلى أنّ الأموال المشروعه هى نتاج جهود الإنسان المضنيه، و مساعيه و أتعابه فهى فى الحقيقه طاقاته المتجسـده فى صوره المال و هيئه الثروه،و لهـذا لا بدّ من الاعتراف بأن كل شـخص هو المالك الطبيعى لحاصل

ص: ١٢٥

جهوده و ثمره أتعابه،و هذا هو حكم فطری.

و علی هذا،فعند ما یمتنع أن یتصرف الشخص فی أمواله بعد وفاته و یحال بینه و بین ثروته بسبب الموت،تصبح هذه الأموال من حق أقرب الناس إلیه، و الذین یعتبرون-فی الحقیقه-بشخصیتهم و وجودهم امتدادا لشخصیته و وجوده.

علی هذا الأساس نجد الکثیرین لا یترکون الکد و العمل،و الکسب و التجاره حتی آخر لحظه من حیاتهم رغم ما یملکون من ثراء طائل،و ذلک لبغیه أن یوفروا لأبنائهم مستقبلا زاهرا و یقیموا لهم حیاه سعیده بعدهم،و هذا یعنی أن الإرث و قانون التوریث قادر علی إعطاء العجله الاقتصادیه دفعه قویه و یزید من حرکتها و دورانها و نشاطها،و أمّا إذا عرف الشخص أنّ أمواله بعد موته،و امتناع تصرفه فی تلک الأموال بسبب الوفاه تعود إلی الملکیه العامه،فإنّه قد یفقد قسطا کبیرا من نشاطه الاقتصادی،و یصاب بالفتور و الکسل.

و یشهد بهذا الأمر ما وقع فی فرنسا قبل حین،عند ما أقدم مجلس النواب الفرنسی-کما قیل-علی إلغاء قانون الإرث قبل مدّه و أقرّ بدل ذلک إلحاق أموال الأشخاص بعد موتهم إلی خزانه الدوله،و صیرورتها أموالا عامّه،فتؤخذ من قبل الدوله و تصرف فی المصارف العامّه بحیث لا یحصل ورثه المیت علی أی شیء من الترکه،فکان لهذا القانون أثر سیء و ظاهر علی الحرکه الاقتصادیه،فقد لوحظ اختلال کبیر فی أوضاع التصدیر و الاستیراد،کما خف النشاط الاقتصادی هناک بشکل ملحوظ،فأقلق ذلک بال الحکومه،و کان السبب الوحید وراء هذه الحاله هو«إلغاء قانون الإرث»ممّا دفع بالدوله إلی إعاده النظر فی هذا القرار.

و علی هذا لا یمکن إنکار أن قانون الإرث و مبدأ التوریث مضافا إلی کونه قانونا طبیعیا فطریا،له أثر قوی و عمیق فی تنشیط الحرکه الاقتصادیه.

ص:۱۲۶

الإرث فی الأمم السابقه:

لما کان لقانون الإرث جذورا فطریه فإنّه شوهد وجود الإرث و التوریث فی الشعوب و الأمم السابقه فی أشکال و صور مختلفه.

أمّا بین الیهود-و إن ادعی البعض عدم وجود مبدأ التوارث عندهم-و لکننا حینما نراجع التوراه نجدها تذکر هذا القانون فی سفر الأعداد بصوره صریحه إذ یقول:

و تکلم بنی إسرائیل قائلا:أیّما رجل مات و لیس له ابن تنقلون ملکه إلی ابنته،و إن لم تکن له ابنه تعطوا ملکه لإخوته،و إن لم یکن له أخوه تعطوا ملکه لإخوه أبیه،و إن لم یکن لأبیه أخوه تعطوا ملکه لنسیبه الأقرب إلیه من عشیرته فیرثه فصارت لبنی إسرائیل فریضه قضاء کما أمر الرّب موسی (1) یدور لدی بنی إسرائیل.

و یستفاد من هذه العبارات أنّ مبدأ التوارث کان علی محور النسب فقط، و لهذا لم یرد ذکر عن سهم الزوجه فی المیراث.

و أمّا فی الدین النصرانی فالمفروض أن یکون مبدأ الإرث المذکور فی التوراه معتبرا أیضا،و ذلک لما نقل عن المسیح علیه السّلام من أنّه قال:«أنا لم أبعث لأغیر من أحکام التوراه شیئا»و لهذا لا نجد فی کتابات الفتاوی الدینیه أی کلام حول الإرث،نعم ورد فی هذه الکتب بعض مشتقات الإرث فی بعض الموارد،و لکنها تعنی جمیعا الإرث المعنوی الأخروی.

هذا و قد کان التوارث لدی العرب الجاهلیین یتحقق بإحدی هذه الطرق الثلاث:

۱-بالنسب،و کان المقصود منه عندهم هم الأبناء الذکور و الرجال خاصّه، فلا یرث الصغار و النساء أبدا.

۱- ۱) -سفر الأعداد الإصحاح السابع و العشرون:۸-۱۱.

۲-بالتبنی،و هو من طرده أهله من الأبناء،فتکفله و تبناه شخص آخر أو عائله أخری،و فی هذه الصوره یتحقق التوارث بین المتبنی و المتبنی له.

۳-بالعهد،یعنی إذا تعاهد شخصان أن یدافع کل واحد منهما عن الآخر طیله حیاتهما و یرث أحدهما الآخر بعد وفاته،فإنّه یقع التوارث بینهما بعد وفاه أحدهما.

و قد حرّر الإسلام قانون الإرث الطبیعی الفطری مما علق به من الخرافات، و لحق به من رواسب التمییز العنصری الظالم الذی کان یفرق بین الرجل و المرأه حینا،و بین الکبار و الأطفال حینا آخر،و جعل ملاک التوارث فی ثلاثه أمور لم تکن معروفه إلی ذلک الحین:

۱-النّسب و ذلک بمفهومه الوسیع،و هم کل علاقه تنشأ بین الأشخاص بسبب الولاده فی مختلف المستویات من دون فرق بین الرجال و النساء و الصغار و الکبار.

۲-السبب و هی العلاقات الناشئه بین الأفراد بسبب المصاهره و التزاوج.

۳-الولاء و هی العلاقات الناشئه بین شخصین من غیر طریق القرابه (السبب و النسب)مثل ولاء العتق،یعنی إذا أعتق رجل عبده،ثمّ مات العبد و خلف من بعده مالا و لم یترک أحدا ممن یرثونه بالسبب أو النسب،ورثه المعتق،و فی هذا حیث علی التحریر و الإعتاق،و کذلک ولاء ضمان الجریره،و هو أن یرکن شخص إلی آخر-لا سبب بینهما و لا نسب-و یتعاهدان أن یضمن کل منهما جنایه الآخر و یدافع کل منهما عن الآخر،و یکون إرث کل منهما للآخر، و«ولاء الإمامه»یعنی إذا مات أحد و لم یترک من یرثونه ممن ذکر ورثه الإمام علیه السّلام،أی أن أمواله تنتقل إلی بیت المال الإسلامی،و تصرف فی شؤون المسلمین العامّه.

هذا،و لکل واحده من هذه الطبقات أحکام و شرائط خاصّه مذکوره فی الکتب الفقهیه المفصله.

التّفسير

اشاره

قال اللّه تعالى فى الآيه الأولى من هذه الآيات يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ و هو بذلك يشير إلى حكم الطبقه الأولى من الورثه (و هم الأولاد و الآباء و الأمهات)،و من البديهى أنّه لا رابطه أقوى و أقرب من رابطه الأبوه و البنوه و لهذا قدموا على بقيه الورثه من الطبقات الاخرى.

ثمّ إنّ من الجدير بالاهتمام من ناحيه التركيب اللفظى جعل الأنثى هى الملاک و الأصل فى تعيين سهم الرجل،أى أن سهمها من الإرث هو الأصل، و إرث الذكر هو الفرع الذى يعرف بالقياس على نصيب الأنثى من الإرث إذ يقول سبحانه: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ،و هذا نوع التأكيد على توريث النساء و مكافحه للعاده الجاهليه المعتديه القاضيه بحرمانهن من الإرث و الميراث، حرمانا كاملا.

و أمّا فلسفه هذا التفاوت بين سهم الأنثى و الذكر فذلک ما سنتعرض له عمّا قريب إن شاء اللّه.

ثمّ يقول سبحانه و تعالى: فَإِنْ كُنَّ نِسٰاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثٰا مٰا تَرَكَ أى لو زادت بنات الميت على اثنتين فلهن الثلثان أى قسم الثلثان بينهن.

ثمّ قال وَ إِنْ كٰانَتْ وٰاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ أى لو كانت البنت واحده ورثت النصف من التركه.

و هاهنا سؤال:

القرآن يقول فى هذا المجال«فوق اثنتين»أى لو كانت بنات الميت أكثر من بنتين استحققن ثلثى التركه يقسّم بينهن،و هذا يعنى أن القرآن ذكر حكم البنت الواحده،و حكم البنات فوق اثنتين،و سكت عن حكم«البنتين»،فلما ذا؟

الجواب:

بملاحظه المقطع الأوّل من الآيه الحاضره يتضح جواب هذا السؤال،و نعنى قوله تعالى: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ،و لو إجمالا،لأن ورثه الميت إن انحصروا فى ابن واحد و بنت واحده كان للابن الثلثان و للبنت الثلث،فإذا كانتا بنتين كان لهما الثلثان حسب هذه العباره.

و خلاصه القول:أنّه إذا قال للذكر مثل حظ الأنثيين و كان أوّل العدد ذكرا و أنثى و للذكر الثلثان و للأنثى الثلث،علم من ذلك أن للبنتين الثلثين،و لعل لوضوح هذا الأمر لم تتعرض الآيه لبيانه(أى لذكر سهم الأختين)و اكتفت بذكر سهم البنات المتعددات فوق اثنتين،و هو الثلثان.

على أن هذا المطلب يتّضح أيضا بمراجعه الآيه الأخيره من سوره النساء، لأنّها جعلت نصيب الأخت الواحده النصف(مثل نصيب البنت الواحده)ثمّ تقول:

فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثانِ فمن هذا يتضح أن سهم البنتين هو الثلثان أيضا.

هذا مضافا إلى ورود مثل هذا التعبير فى الأدب العربى،إذ يقول العرب أحيانا«فوق اثنتين»و يكون مرادهم هم«اثنتان فما فوق».

و بغض النظر عن كل ما قيل أنّ الحكم المذكور من الأحكام القطعيه المسلمه من وجهه نظر الفقه الإسلامى و الأحاديث الشريفه،و الرجوع إلى السنه المطهره (أى الأحاديث)كفيل برفع أى إبهام فى الجمله المذكوره إن كان.

لما ذا يرث الرّجل ضعف المرأه؟:

مع أنّ ما يرثه الرجل هو ضعف ما ترثه المرأه،إلاّ أنّه بالإمعان و التأمل يتّضح أنّ المرأه ترث-فى الحقيقه-ضعف ما يرثه الرجل إذا لا حظنا القضيه من جانب آخر،و هذا إنّما هو لأجل ما يوليه الإسلام من حمايه لحقوق المرأه.

توضيح ذلك:إن هناك وظائف أنيطت بالرجل(و بالأحرى كلّف بأدائها تجاه

المرأه)تقتضی صرف و إنفاق نصف ما يحصل عليه الرجل على المرأه،فی حين لا يجب على المرأه أی شیء من هذا القبيل.

إنّ على الرجل(الزوج)أن يتكفل نفقات زوجته حسب حاجتها من المسكن و الملبس و المأكل و المشرب و غير ذلک من لوازم الحياه كما أن عليه أن ينفق على أولاده الصغار أيضا،فی حين أعفيت المرأه من الإنفاق حتی على نفسها،و على هذا يكون فی إمكان المرأه تدخر كل ما تحصله عن طريق الإرث، و تكون نتيجه ذلک أن الرجل يصرف و ينفق نصف مدخوله على المرأه،و نصفه فقط على نفسه،فی حين يبقی سهم المرأه من الإرث باقيا على حاله.

و لمزيد من التوضيح نلفت نظر القارئ الكريم إلى المثال التالی:لنفترض أنّ مجموع الثروات الموجوده فی العالم و التی تقسم تدريجا-عن طريق الإرث -بين الذكور و الإناث هو(۳۰)ميليارد دينار،و الآن فلنحاسب مجموع ما يحصل عليه الرجال و نقيسه بمجموع ما تحصل عليه النساء عن طريق الإرث.

فلنفترض أن عدد الرجال و النساء متساو فتكون حصه الرجال هو(۲۰) ميلياردا،و حصه النساء هی(۱۰)ميلياردات.

و حيث أن النساء يتزوجن-غالبا-فإن الإنفاق عليهنّ يكون من واجب الرجال،و هذا يعنی أن تحتفظ النساء ب(۱۰)ميلياردات(و هو سهمهنّ من الإرث)،و يشاركن الرجال فی العشرين ميلياردا،لأن على الرجال أن يصرفوا من سهمهم على زوجاتهم و أطفالهم.

و على هذا يصرف الرجال(۱۰)ميليardات على النساء(و هو نصف سهمهم من الإرث)فيكون مجموع ما تحصل عليه النساء و يملكنه هو(۲۰)ميلياردا و هو ثلثا الثروه العالميه فی حين لا يعود من الثروه العالميه على الرجال إلاّ(۱۰) ميلياردات،أی ثلث الثروه العالميه(و هو المقدار الذی يصرفه الرجال على أنفسهم).

و تکون النتیجه أنّ سهم المرأه التی تصرفه و تستفید منه و تتملکه واقعا هو ضعف سهم الرجل،و هذا التفاوت إنّما لکونهنّ أضعف من الرجال علی کسب الثروه و تحصیلها(بالجهد و العمل)،و هذا-فی حقیقته-حمایه منطقیه و عادله قام بها الإسلام للمرأه،و هکذا یتبیّن أنّ سهمها الحقیقی أکثر-فی النظام الإسلامی- و إن کان فی الظاهر هو النصف.

و من حسن الصدف أنّنا نقف علی هذه النقطه إذا راجعنا التراث الإسلامی حیث أنّ هذا السؤال نفسه قد طرح منذ بدایه الإسلام و خالج بعض الأذهان، فکان الناس یسألون أئمّه الدین عن سرّ ذلک بین حین و آخر،و کانوا یحصلون علی إجابات متشابهه فی مضمونها-علی الأغلب-و هو أن اللّه إذ کلف الرجال بالإنفاق علی النساء و أمهارهنّ،جعل سهمهم أکثر من سهمهنّ.

إن أبا الحسن الرضا علیه السّلام کتب إلیه فی ما کتب من جواب مسائله علّه إعطاء النساء نصف ما یعطی الرجال من المیراث: لأن المرأه إذا تزوجت أخذت، و الرجل یعطی،فلذلک و فرّ علی الرجال،و عله أخری فی إعطاء الذکر مثل ما یعطی الأنثی لأن الأنثی من عیال الذکر إن احتاجت،و علیه أن یعولها و علیه نفقتها،و لیس علی المرأه أن تعول الرجل و لا تؤخذ بنفقته إن احتاج فوفرّ علی الرجال لذلک (۱) .

إرث الأب و الأمّ:

و أمّا میراث الآباء و الأمهات الذین هم من الطبقه الأولی،و فی مصاف الأبناء أیضا،فإن له کما ذکرت الآیه الحاضره(أی الآیه الأولی من هذه المجموعه) ثلاث حالات هی:

الحاله الأولی:إنّ الشخص المتوفی إن کان له ولد أو أولاد،ورث کل من الأب

۱- ۱) -البرهان،ج ۱،ص ۳۴۷.

و الأمّ السدس: وَ لِأَبَوَيْهِ لِكَلِّ وٰاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمّٰا تَرَكَ إِنْ كٰانَ لَهُ وَلَدٌ .

الحاله الثّانيه:إن لم يكن للمتوفى ولد،و انحصر ورثته فى الأب و الأمّ،ورثت الأمّ ثلث ما ترك،يقول سبحانه: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرِثَهُ أَبَوٰاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ و إذا كنّا لا نجد هنا أى ذكر عن سهم الأب فلان سهمه واضح و بيّن و هو الثلثان، هذا مضافا إلى أنّه قد يخلف الميت زوجه فينقص فى هذه الصوره من سهم الأب دون سهم الأم،و بذلك يكون سهم الأب متغيّرا فى الحاله الثانيه.

الحاله الثالثه:إذا ترك الميت أبا و أمّا و أخوه من أبويه أو من أبيه فقط،و لم يترك أولادا،ففى مثل هذه الحاله ينزل سهم الأم إلى السدس،و ذلك لأن الأخوه يحجبون الأم عن إرث المقدار الزائد عن السدس و إن كانوا لا يرثون،و لهذا يسمى أخوه الميت بالحاجب،و هذا ما يعنيه قول اللّه سبحانه: فَإِنْ كٰانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ .

و فلسفه هذا الحكم واضحه،إذ وجود أخوه للميت يثقل كاهل الأب،لأن على الأب الإنفاق على أخوه الميت حتى يكبروا،بل عليه أيضا أن ينفق عليهم بعد أن يكبروا،و لهذا يوجب وجود أخوه للميت من الأبوين أو من الأب خاصّه تدنى سهم الأمّ،و لا يوجب تدنى سهم الأب،و لا يحجبونها عن إرث ما زاد على السدس إذا كانوا من ناحيه الأمّ خاصّه،إذ لا يجب لهم على والد الميت شيء من النفقات.كما هو واضح.

سؤال:

و يرد هنا سؤال،و هو أن القرآن استعمل فى المقام صيغه الجمع إذ قال: فَإِنْ كٰانَ لَهُ إِخْوَةٌ و نحن نعلم أن أقل الجمع هو ثلاثه،فى حين يذهب جميع الفقهاء إلى أن الأخوين يحجبان أيضا،فكيف التوفيق بينهما؟

الجواب:

إنّ الجواب يتّضح من مراجعه الآيات القرآنيه الاخرى،و إذ لا يلزم أن يكون

المراد كلّما استعملت صيغه الجمع،الثلاثه فما فوق،بل استعملت أحيانا على شخصين فقط كما فى الآيه(٧٨)من سوره الأنبياء وَ كُنّٰا لِحُكْمِهِمْ شٰاهِدِينَ .

و الآيه ترتبط بقضاء داود و سليمان،و قد استخدم القرآن الكريم ضمير الجمع فى شأنهما،فقال«لحكمهم».

و من هنا يتّضح أنّه قد تستعمل صيغه الجمع فى شخصين أيضا،و لكن هذا يحتاج طبعا إلى قرينه و شاهد،و الشاهد فى المقام هو ورود الدليل من أئمّه الدين على ذلك،و إجماع المسلمين،إذ أجمع فقهاء المسلمين سنه و شيعه(إلاّ ابن عباس)إن الحكم المذكور فى الآيه يشمل الأخوين أيضا.

الإرث بعد الوصيه و الدّين:

ثمّ إنّ اللّه سبحانه يقول: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهٰا أَوْ دَيْنٍ فلا بدّ من تنفيذ ما أوصى به الميت من تركته،أو أداء ما عليه من دين أوّلا،ثمّ تقسيم البقيه بين الورثه.

(و قد ذكرنا فى باب الوصيه أنّ لكل أحد أن يوصى بأمور فى مجال الثلث الخاص به فقط،فلا يصح أن يوصى بما زاد عن ذلك إلاّ أن يأذن الورثه بذلك).

ثمّ قال سبحانه: آبٰاؤُكُمْ وَ أَبْنٰاؤُكُمْ لاٰ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً و هذه العباره تفيد أن قانون الإرث المذكور قد أرسى على أساس متين من المصالح الواقعيه،و أن تشخيص هذه المصالح بيد اللّه،لأن الإنسان يعجز عن تشخيص مصالحه و مفاسده جميعا،فمن الممكن أن يظن البعض أنّ الآباء و الأمهات أكثر نفعا لهم،و لذلك فهم أولى بالإرث من الأبناء و إن عليه أن يقدمهم عليهم،و من الممكن أن يظن آخرون العكس،و لو كان أمر الإرث و قسمته متروكا إلى الناس لذهبوا فى ذلك ألف مذهب،و لآل الأمر إلى الهرج و المرج و الفوضى،و انتهى إلى الاختلاف و التشاجر،و لكن اللّه الذى يعلم بحقائق الأمور كما هى أقام قانون

الإرث على نظام ثابت يكفل خير البشريه و يتضمّن صلاحها...

و لأجل أن يتأكد كل ما ذكر من الأمور،و يتخذ صفه القانون الذى لا يحتمل الترديد،و لا يكون فيه للناس أى مجال نقاش،يقول سبحانه: فَرِيضَةً مِنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً و بذلك يقطع الطريق على أى نقاش فى مجال القوانين المتعلقه بالأسهم فى الإرث.

سهم الأزواج بعضهم من بعض:

فى الآيه السابقه أشير إلى سهم الأولاد و الآباء و الأمهات،و فى الآيه التى تليها يقول اللّه سبحانه: وَ لَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ و يشير سبحانه إلى كيفيه إرث الزوجين بعضهما من بعض،فإن الزوج يرث نصف ما تتركه الزوجه هذا إذا لم يكن للزوجه ولد،فإن كان لها ولد أو أولاد(و لو من زوج آخر)ورث الزوج ربع ما تتركه فقط،و إلى هذا يشير تعالى فى نفس الآيه:

فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ

.

على أن هذا التقسيم يجب أن يتمّ بعد تنفيذ وصايا المتوفاه،أو تسديد ما عليها من ديون كما يقول سبحانه: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ .

و أمّا إرث الزوجه مما يتركه الزوج،فإذا كان للزوج أولاد(و إن كانوا من زوجه أخرى)ورثت الزوجه الثمن لقوله سبحانه: فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ .

و يكون لها الربع إن لم يكن للزوج الميت ولد لقوله سبحانه: وَ لَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ .

على أنّ هذا التقسيم يجب أن يتمّ أيضا من بعد تنفيذ وصايا الميت أو تسديد ديونه من أصل التركه: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ .

و الملفت للنظر فى المقام هو انخفاض سهام الأزواج إلى النصف إذا كان

للميت ولد،و ذلك رعايه لحال الأولاد.

و أمّا العلّه لكون سهم الأزواج ضعف سهم الزوجات فهی ما ذكرناه فی البحث السابق حول علّه الفرق بين سهم الذكر و الأنثی.

ثمّ إنّ هاهنا نقطه مهمه يجب التنبيه إليها أيضا،و هی أنّ السهم المعين للنساء (سواء الربع أو الثمن)خاص بمن ترك زوجه واحده فقط(فإنّها ترث كل الربع أو كل الثمن)و أمّا إذا ترك الميت زوجات متعدده قسم ذلك السهم(الربع أو الثمن) بينهن بالتساوی،و هذا هو ما يدل عليه ظاهر الآيه مورد البحث أيضا.

إرث أخوه الميت و أخواته:

ثمّ أنّه سبحانه بعد أن يذكر سهم الأزواج بعضهم من بعض،يعمد إلی ذكر أسهم أخوه الميت و أخواته فيقول: وَ إِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَهً... .

و فی هذه العباره نواجه مصطلحا جديدا ورد فی موضعين من القرآن فقط، أحدهما،فی الآيه المبحوثه هنا،و الثانی،فی آخر آيه من سوره النساء و هی كلمه«كلاله».

إنّ ما يستفاد من كتب اللغه هو اشتقاق كلاله من الكلال،و هو ذهاب القوّه، فقد جاء فی صحاح اللغه:الكلاله فی الأصل مصدر بمعنی الكلال و هو ذهاب القوّه.

و لكنّها استعملت فی ما بعد فی أخوه الميت و أخواته الذين يرثونه،و لعل التشابه بين المعنی الأوّل و الثّانی هو أن الأخوه و الأخوات يعتبرون من الطبقه الثانيه فی طبقات الإرث،و هم لا يرثون إلّا مع عدم وجود الأب و الأمّ و الأولاد للميت و مثل هذا الفاقد للأب و الأم و الأبناء لا بدّ أن يعانی من الضعف الشديد، و ذهاب القوّه،و لهذا قيل له كلاله،قال الراغب فی كتابه المفردات:«الكلاله اسم لما عدا الولد و الوالد من الورثه».

و

روى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سئل عن الكلاله،فقال:من مات و ليس له ولد و لا والد، فجعله اسما للميت،كلا القولين صحيح فإن الكلاله مصدر يجمع الوارث و الموروث جميعا.

و أمّا تعبير القرآن الكريم عن أخوه الميت و أخواته بالكلاله فلعله لأنّ على أمثال هؤلاء ممن عدموا الآباء و الأمهات و الأولاد أن يعلموا أن أموالهم ستقع من بعدهم فى أيدى من يمثلون ضعفه،و يدلون على ذهاب قوتهم،و لذلك ينبغى لهم أن يصرفوها فى مواضع أكثر ضروره و لزوما،و ينفقونها فى سبيل المحتاجين و فى حفظ المصالح العامّه.

عوده إلى تفسير الآيه:

يقول اللّه سبحانه تعالى: وَ إِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ أى إن مات رجل و لم يترك إلّا أخا أو أختا،أو ماتت امرأه و لم تترك سوى أخ أو أخت،يورث كل منهما السدس من التركه،هذا إذا كان الوارث أخا واحدا و أختا واحده.

أمّا إذا كانوا أكثر من واحد ورث الجميع ثلثا واحدا،أى قسم مجموع الثلث بينهم: فَإِنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَهُمْ شُرَكاءُ فِي الثُّلُثِ .

ثمّ أضاف القرآن: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصى بِها أَوْ دَيْنٍ أى تكون قسمه الميراث هكذا بعد أن ينفذ الورثه من التركه ما أوصى به المتوفى،أو يسددوا ما عليه من ديون،ثمّ قال: غَيْرَ مُضَارٍّ أى فيما إذا لم يكن ما أوصى الميت بصرفه من الميراث و كذا الدين مضرّا بالورثه،أى أن لا يكون أكثر من الثلث،لأن تجاوز الوصيه أو الدين عن حد الثلث إضرار،كما أنّه يتوقف إمضاء الزائد على الثلث على إذن الورثه و رضاهم بذلك،أو أن يخبر الميت عن ديون كذبا،ليحرم ورثته عن الإرث و يضرّ بهم،كما نصت على ذلك روايات كثيره مرويه عن رسول

ص :۱۳۷

اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته الطاهرين عليهم السّلام.

ثمّ أنّه سبحانه للتأكيد على هذا الحكم يقول: وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ أى أنّ هذا المطلب وصيه من اللّه يجب أن تحترموها،لأنّه العالم بمصلحتكم و خيركم،فهو أمركم بهذا عن حكمه،كما أنّه تعالى عالم بنيات الأوصياء،هذا مع أنّه تعالى حليم لا يعاقب العصاه فورا،و لا يأخذهم بظلمهم بسرعه.

بحوث أخرى عند هذه الآيه:

هذا و تجب و الإشاره-هنا-إلى عدّه أمور:

١-إنّ ما ورد فى الآيه السابقه حول إرث الأخوه و الأخوات و إن كان فى ظاهره مطلقا يشمل الأخوه و الأخوات من الأبوين أو من الأب وحده أو من الأم وحدها،إلّا أنّه بملاحظه آخر آيه من سوره النساء(التى يأتى تفسيرها قريبا) يتّضح أنّ المراد-هنا-هو الأخوه و الأخوات من جانب الأم فقط(أى الذين ينتسبون إلى الميت من جانب الأم فقط)،فى حين أنّ المقصود فى الآيه الأخيره من السوره هو الأخوه و الأخوات من جانب الأبوين أو من جانب الأب خاصّه (سنتعرض لذكر الأدله على هذا الأمر عند تفسير الآيه الأخيره من هذه السوره إن شاء اللّه).

و على هذا الأساس فإن الآيتين و إن كانتا حول إرث«الكلاله»(أى أخوه الميت و أخواته)و يبدو للنظر تعارض الآيتين،إلّا أن التدبر و الإمعان فى مضمون الآيتين يكشف لنا أنّ كل واحده منهما تقصد طائفه خاصّه من أخوه الميت و أخواته،و أنّه لا تعارض بين مفاد الآيتين أبدا.

٢-من الواضح أن هذه الطبقه لا ترث إلا عند فقدان الطبقه الأولى(و هو الأب و الأم،و الأولاد)مطلقا،و يدل على ذلك قوله تعالى: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ

بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِی کِتابِ اللّهِ

(۱)

کما تدل علیه روایات متظافره وردت فی هذا الصعید تعین طبقات الإرث،و ترجح بعضها علی البعض الآخر.

۳-إنّ لفظه فَهُمْ شُرَکاءُ فِی الثُّلُثِ تفید أن أخوه المیت و أخواته أی «الکلاله»إن کانوا أکثر من أخ و أخت یقتسمون الثلث فیما بینهم بالتساوی،من دون فرق بین الذکور و الإناث،لأنّ المفهوم من«الشرکاء فی الثلث»هو تساوی الأسهم.

۴-یستفاد من الآیه المبحوثه أنّه لا یحق للإنسان أن یعترف بدیون-کذبا- لیضرّ بالورثه و یضیع حقوقهم و یحرمهم من إرثه،أنّه یجب علیه فقط أن یعترف- فی آخر فرصه من حیاته-بما علیه من الدیون واقعا،کما له أن یوصی بوصایا عادله عبّر عنها فی الروایات بأن تکون فی حد«الثلث»و إطاره.

فقد وردت فی روایات الأئمّه علیهم السّلام-فی هذا الصعید-عبارات شدیده النکیر علی من یوصی بوصایا مضرّه بالورثه منها

قولهم: «إنّ الضرار فی الوصیه من الکبائر» (۲) .

إنّ الإسلام الحنیف بسنّه لهذا القانون یکون قد حفظ للمیت نفسه شیئا من الحق فی مسأله،إذ یهیئ له إمکانیه الاستفاده و الانتفاع بمقدار الثلث،کما حفظ حقوق الورثه أیضا حتی لا ینشأ فی أفئدتهم أیه ضغینه،و حتی لا تتزعزع وشائج المودّه و روابط القربی التی یجب أن تستمر بعد وفاه المورث.

ص: ۱۳۹

۱- ۱) -الأنفال،۷۵.

۲- ۲) -مجمع البیان.

الآيتان [سوره النساء (۴): الآيات ۱۳ الی ۱۴]

اشاره

تِلْكَ حُدُودُ اَللّٰهِ وَ مَنْ يُطِعِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ ذٰلِكَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِيمُ (۱۳) وَ مَنْ يَعْصِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نٰاراً خٰالِداً فِيهٰا وَ لَهُ عَذٰابٌ مُهِينٌ (۱۴)

التّفسير

اشاره

«الحدود»جمع حدّ،و یعنی فی أصل اللّغه لمنع،ثمّ اطلق علی کلّ حائل و حاجز بین شیئین یفصل بینهما و یمیز،فحدّ البیت و البستان و الدّوله یراد منه الموضع الذی یفصل هذه النقطه عن غیرها من النقاط الاخری.

هذا و لقد بدأت الآیه الأولی من هاتین الآیتین بالإشاره إلی قوانین الإرث التی مرّت فی الآیات السابقه بلفظه«تلک»إذ قال سبحانه: تِلْكَ حُدُودُ اللّٰهِ أی تلک حدود اللّه التی لا یجوز تجاوزها و تجاهلها لأحد،فإن من تعدی هذه الحدود کان عاصیا مذنبا.

و قد وردت هذه العباره تِلْكَ حُدُودُ اللّٰهِ فی مواضع عدیده من القرآن الکریم،و قد جاءت دائما بعد ذکر سلسله من الأحکام و القوانین و المقررات الاجتماعیه،ففی الآیه ۱۸۷ من سوره البقره مثلا تأتی هذه العباره بعد الإعلان

عن حرمه اللقاء الجنسی بین الزوجین حال الاعتکاف،و بعد ذکر سلسله من الأحکام المتعلقه بالصوم،کما جاءت فی الآیات(۲۲۹ و ۲۳۰)من سوره البقره، و الآیه(۱۰)من سوره الطلاق بعد بیان قسم من أحکام الطلاق،و فی الآیه(۴) من سوره المجادله بعد بیان کفاره«الظهار».

و فی جمیع هذه الموارد أحکام و قوانین منع من تجاوزها،و لهذا وصفت بکونها«حدود اللّه» (۱) .

ثمّ بعد الإشاره إلی هذا القسم من حدود اللّه یقول سبحانه: وَ مَنْ یُطِعِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ یُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِینَ فِیهٰا ،و هو بـذلک یشـیر إلی النّتیجه الأخرویه للالتزام بحـدود اللّه و احترامها،ثمّ یصف هـذه النتیجه الأخرویه بقوله: وَ ذٰلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ .

ثمّ یـذکر سبحانه مـا یقابـل هـذا المصـیر فی صوره المعصـیه،و تجاوز الحـدود الإلهیه إذ یقول: وَ مَنْ یَعْصِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ یَتَعَدَّ حُدُودَهُ یُدْخِلْهُ نٰاراً خٰالِداً فِیهٰا .

علی أنّنا نعلم أن معصـیه اللّه(مهما کانت کبیره)لا توجب الخلود و العـذاب الأبـدی فی النار،و علی هذا الأساس یکون المقصود فی الآیه الحاضـره هم الـذین یتعدون حدود اللّه عن تمرد و طغیان و عداء و إنکار لآیات اللّه،و فی الحقیقه الذین لا یؤمنون باللّه و لاـ بـالیوم الآخر،و لا یسـتبعد هـذا المعنی إذا لا حظنا أن«حـدود» جمع،و هو مشـعر بأن یکون التعـدی شاملا لجمیع الحـدود و الأحکام الإلهیه، لأن الذی یتجاهل کل القوانین الإلهیه لا یؤمن باللّه عاده،و إلاّ فإنّه یحترم و لو بعضها- علی الأقل.

إنّ الملفت للنظر فی الآیه السابقه أنّ اللّه تعالی عبّر عن أهل الجنّه بصـیغه الجمع حیث قال تعالی: خٰالِدِینَ فِیهٰا بینما عبر عن أهل النّار بصیغه المفرد

ص :۱۴۱

۱- ۱) -لقد مرّ حول«حدود اللّه»و تفسیره بحث أکثر تفصیلا فی المجلد الثانی من هذا التّفسیر.

حیث قال خٰالِداً فِیهٰا .

إنّ هـذا التفاوت فی التعبیر-فی الآیتین المتلاحقتین-شاهد واضح علی أن لأهل الجنّه اجتماعات(أو بعباره أخری أنّ هناک حاله اجتماعیه بین أهل الجنّه و نزلائها)و تلک هی فی حد ذاتها نعمه من نعم الجنّه،ینعم بها ساکنوها و أصـحابها، بینما یکون الوضـع بالنسـبه إلی أهل النار مختلفا عن هذا،فکل واحد من أهل النار مشـغول بنفسه-لما فیه من العذاب-بحیث لا یلتفت إلی غیره،و لا یفکر فیه، بـل هو مهتم بنفسه،یعمـل لوحـده،و هـذه هی حـاله المسـتبدین المتفردین بـالرأی و الموقف،و الجماعـات المتحـده و المجتمعه فی المقابل،فی هذه الدنیا أیضا، فالفریق الأول یمثل أهل جهنم،بینما یمثل الفریق الثانی أهل الجنّه.

میزات قانون الإرث الإسلامی:

فی قانون الإرث عموما،و فی نظام الإرث الإسلامی خاصّه مزایا نشیر إلی قسم منها فی ما یلی:

۱-فی نظـام الإـرث الإسـلامی،و فی ضوء مـا أقرّ من الطبقـات للورثه لاـ یحرم أی واحـد من أقرباء المتوفی من الإرث،فلیس فی الإسـلام ما کان متعارفا(أو لا یزال)عند العرب الجاهلیین،أو فی بعض المجتمعات البشـریه من حرمان النساء و الأطفال من الإرث لعدم قدرتهم علی حمل السـلاح و المشارکه فی الحروب و ما شاکل ذلک، بل یشـمل نظام الإرث الإسـلامی کل من یمتّ إلی المتوفی بوشیجه القربی.

۲-یلبی هـذا النظـام الحاجـات الإنسانیه الفطریه و المشـروعه،لأنّ کل إنسان من أبناء البشـر یجب أن یری حصـیله جهوده و ثمره أتعابه و نتاج کدّه و کدحه بید من یعتبره امتدادا لوجوده و شخصـیته،و لهذا یکون سهم الأبناء-حسب هذا النظام-أکثر من سهام غیرهم،فی حین تکون سهام الآباء و الأمهات و غیرهم من

ص :۱۴۲

الأقرباء و أنصبتهم بدورها سهاما و أنصبه محترمه و جديره بالاهتمام أيضا.

۳-إنّ هذا القانون يشجع الأشخاص على السعى و العمل و بذل المزيد من الفعاليه فى سبيل تحصيل الثروه،و تشغيل عجله الإقتصاد.

و ذلك لأنّ الإنسان إذا عرف أنّ نتاج كده و كدحه و حصيله جهوده و أتعابه طوال حياته ستنتقل إلى من يحبّهم و يودّهم،فإنّه يتشجع على المزيد من العمل و النشاط مهما كان عمره و سنه،و مهما كانت ظروفه و ملابساته،و بهذا لا يحدث أى ركود فى فعاليته و نشاطه مطلقا.

و قد أشرنا فى ما مضى-كيف أنّ إلغاء قانون الإرث و التوارث فى بعض البلاد،و تأميم أموال الموتى،و حيازتها من قبل الدوله أدى إلى آثار سيئه فى المجال الاقتصادى،و ظهر فى صوره ركود اقتصادى مخيف دفع بالدوله إلى إعاده النظر فى إلغاء قانون الإرث و حذفه.

۴-إنّ قانون الإرث الإسلامى يمنع من تراكم الثّروه،لأنّ هذا النظام يقضى بتقسيم الثّروه-بعد كلّ جيل-بين الأفراد المتعددين بصوره عادله،و هذا ممّا يساعد على تفتيت الثروه،كما يساعد على التوزيع العادل لها.

هذا و الجدير بالاهتمام أنّ هذا التقسيم لا يعانى ممّا تعانى منه بعض الأشكال السائده فى عالمنا الراهن لتقسيم الثروه،و التى ترافق غالبا سلسله من المضاعفات و الآلام الاجتماعيه السيئه،فهو نظام فريد من نوعه يشمل الجميع برحمته،و لا يتسبب فى انزعاج أى شخص أو جهه.

۵-إنّ الأسهم و الأنصبه فى قانون الإرث الإسلامى لم تنظم على أساس الارتباط و الانتساب إلى المتوفى برابطه النسب خاصّه،بل على أساس الحاجات الواقعيه عند الورثه،فإذا رأينا الذكور من أولاد الميت يرثون ضعف ما ترثه الإناث،أو يرث الأب-فى بعض الموارد-أكثر من الأمّ، فهو لأجل أنّ الرجال يتحملون مسئوليه ماليه أكبر فى النظام الإسلامى،و لأنّ عليهم أن

يتحملوا الإنفاق على زوجاتهم و عوائلهم،و لهذا لا بدّ أن يسهم لهم-فى الإرث- أكثر من الإناث.

ما هو العول،و ما هو التعصيب؟:

فى كتاب الإرث نقف على بحثين أحدهما تحت عنوان«العول»،و الآخر تحت عنوان«التعصيب»و هما حالتان تعرضان لمسأله الإرث عند ما تكون الأسهم المذكوره فى الآيات المتقدمه أقل من التركه أحيانا،أو أكثر أحيانا أخرى.

و للمثال نقول:إذا ترك الميت أختين من جانب الأب و الأمّ،و زوجا،ورثت الأختان ثلثى المال و ورث الزوج النصف،فيكون المجموع ۷/۶ أى بزياده ۱/۶ على مجموع المال،و هنا يطرح السؤال التالى و هو:ننقص هذا السدس الزائد ۱/۶ من جميع الورثه-حسب سهامهم-و بصوره عادله،أم يجب أن تنقص من نصيب أشخاص معينين خاصّه؟ المعروف عن علماء السنه أنّهم يذهبون إلى إدخال النقص على جميع الورثه،و سمّى الفقهاء هذا القسم عولا،لأن العول يعنى فى اللغه الارتفاع و الزياده.

ففى المثال الحاضر يقول فقهاء السنه:إنّ السدس الزائد يجب أن يقسم على الجميع،و أن ننقص من جميع الورثه من كل واحد حسب سهمه (۱) ،و هكذا يكون العمل فى الموارد الاخرى،و فى الحقيقه ينزل الورثه-هنا-منزله الغرماء الذين لا تفى أموال المفلس بتسديد ديونهم جميعا و بصوره كامله،فهنا يدخل النقص

ص:۱۴۴

۱- ۱) -فتكون طريقه الحساب هنا هى أنّنا يجب أن ننقص ۱/۶ من سهم الأختين الذى هو ۴/۶ و سهم الزوج الذى هو ۳/۶ بمقدار أسهمهم أى نقسم ۱/۶ على ۷ أقسام فننقص من سهم الأختين بمقدار ۴،و من الزوج بمقدار ۳،و ذلك طبقا لقانون«الإسهام بالنسبه»المذكوره فى الرياضيات فتكون النتيجه أنه ينقص من سهم الأختين بمقدار ۴/۴۲ و من سهم الزوج بمقدار ۳/۴۲.

على جميع الغرماء بنسب متناسبه مع مقادير ديونهم.

و لكن فقهاء الشيعه يذهبون فى هذا المجال مذهبا آخر،فهم يدخلون النقص على أشخاص معنيين،لا على جميع الورثه.

فهم فى المثال الحاضر،مثلا يدخلون النقص على الأختين،و يقولون كما جاء فى حديث شريف:«إن الذى أحصى رمل عالج-أى المتراكم من الرمل الداخل بعضه فى بعض-ليعلم أن السهام لا تعول»أى لا تتعدى الأسهم و لا تؤول إلى الكسر،فلا بدّ أن يكون سبحانه قد وضع لمثل هذه الحاله قانونا،و ذلك هو أن بين الورثه الذين ذكرهم القرآن الكريم من له سهم ثابت من حيث الأقل أو الأكثر كالزوج و الزوجه و الأب و الأمّ،و من ليس سهم كذلك كالأختين و البنتين،و من هنا نفهم أن النقص يجب أن يدخل دائما على من ليس له سهم محدد فى جانب القلّه أو الكثره(أى الذى ليس له حدّ أقل أو حدّ أكثر معين)أى الذى يكون عرضه للتغير و الاضطراب،و لهذا لا يدخل النقص المذكور على سهم الزوج،فهو يرث سهمه من التركه و هو النصف بلا نقصان بسبب العول،و إنّما يدخل النقص على سهم الأختين فقط(فلا حظ ذلك بدقّه).

و قد يكون مجموع الأسهم أقلّ من مجموع المال-فيفضل شيء من المال بعد أخذ كل واحد من أفراد الطبقه الوارثه فرضه.

فمثلا-إذا توفى رجلا و خلف بنتا واحده و أمّا،فإن سهم الأم هو ۱/۶ و سهم البنت هو ۳/۶ فيكون مجموع الأسهم هو ۴/۶ أى يفصل ۲/۶ من المال،فى هذه الصوره يذهب علماء السنه و فقهاؤهم إلى إعطاء هذا الفاضل من التركه إلى عصبه الميت (۱) و هم رجال الطبقه الثانيه من الإرث(كالأخوه)و يسمى هذا القسم بالتعصيب.

و لكن فقهاء الشيعه يذهبون إلى أنّ ذلك الفاضل يجب أن يقسّم بين الوارثين

ص:۱۴۵

۱- ۱) -العصبه هم الرجال الذين ينتسبون إلى الميت بلا واسطه كالأخوه.

المذكورين أی بنسبه ۱ و ۳،لأنه مع وجود الطبقه السابقه لا تصل النوبه إلی الطبقه اللاحقه،هـذا مضافا إلی أن إعطاء الفاضل من الترکه إلی رجال الطبقه اللاحقه یشبه ما کان سائدا فی العهد الجاهلی حیث تحرم النساء من الإرث.

هـذا و البحث الراهن من الأبحاث العلمیه المعقـده،و قد أعطینا هنا خلاصه موضـحه منه تبعا للحاجه،و أما التفصـیل فموکول إلی محله فی الکتب الفقهیه المفصّله.

ص :۱۴۶

الآیتان [سوره النساء (۴): الآیات ۱۵ الی ۱۶]

اشاره

وَ اَللاّٰتِی یَأْتِینَ اَلْفٰاحِشَهَ مِنْ نِسٰائِکُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَیْهِنَّ أَرْبَعَهً مِنْکُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِکُوهُنَّ فِی اَلْبُیُوتِ حَتّٰی یَتَوَفّٰاهُنَّ اَلْمَوْتُ أَوْ یَجْعَلَ اَللّٰهُ لَهُنَّ سَبِیلاً (۱۵) وَ اَلَّذٰانِ یَأْتِیٰانِهٰا مِنْکُمْ فَآذُوهُمٰا فَإِنْ تٰابٰا وَ أَصْلَحٰا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمٰا إِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ تَوّٰاباً رَحِیماً (۱۶)

التّفسیر

اشاره

تعنی لفظه«الفاحشه»حسب اللّغه:العمل أو القول القبیح جدّا-کما أسلفنا -و یستعمل فی الزنا لقبحه الشدید،و قد وردت هذه اللفظه فی(۱۳)موردا من القرآن الکریم،و قد استعملت تاره فی«الزّنا»و أخری فی«اللواط»و تاره فی الأفعال الشدیده القبح علی العموم.

و الآیه الأولی-من هاتین الآیتین-تشیر کما فهم أکثر المفسرین-إلی جزاء المرأه المحصنه التی تزنی.فتقول: وَ اللاّٰتِی یَأْتِینَ الْفٰاحِشَهَ مِنْ نِسٰائِکُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَیْهِنَّ أَرْبَعَهً مِنْکُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِکُوهُنَّ فِی الْبُیُوتِ حَتّٰی یَتَوَفّٰاهُنَّ الْمَوْتُ .

و ما یدل علی أنّ الآیه المبحوثه تعنی زنا المحصنه-مضافا إلی القرینه

المـذكوره فی الآـیه اللاـحقه-التعبیر ب«من نسـائکم»أی زوجـاتکم،لأـنّ التعبیر بهـذه اللفظه عن الزوجات قـد تکرر فی مواضـع عدیده من القرآن الکریم،و علی هذا یکون جزاء المحصنه التی ترتکب الزنا فی هذه الآیه هو الحبس الأبدی.

و لکنه تعالی أردف هـذا الحکم بقوله: أَوْ یَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِیلاً فإذن لا بدّ أن یسـتمر هذا الحبس فی حقهنّ إلی الأبد حتی یأتی أجلهنّ،أو یعین لهنّ قانون جدید من جانب اللّه سبحانه.

و یسـتفاد من هـذه العباره أنّ هـذا الحکم(أی الحبس الأبدی للمحصـنه الزانیه)حکم مؤقت،و لهذا ذکر من بدایه الأمر أنّه سوف ینزل فی حقهنّ قانون جدیـد،و حکم آخر فی المسـتقبل(و بعـد أن تتهیأ الظروف و الأفکار لمثل ذلک) حینئـذ سـیتخلص النساء اللاتی شـملهنّ ذلک الحکم(أی الحکم بالحبس أبـدا)من ذلک السـجن إذا کن علی قید الحیاه طبعا،و لا یشـملهنّ حکم جزائی آخر،و لیس الخلاـص من السـجن إلاّ بسـبب إلغاء الحکم السابق،و أما عـدم شـمول الحکم الجدیـد لهنّ فلئن الحکم الجزائی لا یشـمل المـوارد الـتی سـبقت مجیئـه،و بهـذا یکـون الحکـم و القـانون الـذی سـیصدر فی مـا بعـد-مهمـا کـان-سـببا لنجـاه هـذه السجینات،علی أنّ هذا الحکم الجدید یشمل حتما کل الذین سیرتکبون هذا المنکر فی ما بعد.(فلا حظ بدقّه هذه النقطه).

و أمّـا مـا احتمله البعض من أنّ المراد من قوله تعـالی: أَوْ یَجْعَـلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِیلاًـ هو أنّ اللّه سـبحانه قـد جعـل الرجم للمحصـنات الزانیـات فی مـا بعـد،یجعل و بـذلک سـیکون للسـجینات سبیلا إلی النجاه و الخلاص من عقوبه السـجن،فهو احتمال مردود،لأنّ لفظه«لهنّ سبیلا»لاـ تتلاـءم أبـدا مع مسأله الأعـدام،فعباره «لهنّ»تعنی ما یکون نافع لهنّ و لیس الاعـدام سبیلا لنجاتهنّ،و الحکم الـذی قرّره اللّه فی الإسـلام للمحصـنات الزانیات فی ما بعـد هو الرجم(و قـد ورد هذا الحکم فی لسان السـنه النبویه الشـریفه أی الأحادیث قطعا،و إن لم ترد فی القرآن الکریم

ص :۱۴۸

أیه إشاره إلیها).

من کلّ ما قلناه اتّضح أنّ الآیه الحاضره لم تنسخ قط،لأنّ النسخ إنّما یکون فی الأحکام التی تردّ مطلقه من أوّل الأمر لا التی تذکر مؤقته و محدوده کذلک، و الحکم المذکور فی الآیه الحاضره(أی الحبس الأبدی)من القسم الثّانی،أی أنّه حکم مؤقت محدود،و ما نجده فی بعض الرّوایات من التصریح بأنّ الآیه الحاضره قد نسخت بالأحکام التی وردت فی عقوبه مرتکبی الفاحشه،فالمراد منه لیس هو النسخ المصطلح،لأنّ النسخ فی لسان الروایات و الأخبار یطلق علی کل تقیید و تخصیص(فلا حظ ذلک بدقّه و عنایه).

ثمّ لا بدّ من الالتفات إلی ناحیه مهمّه،و هی أن الحکم بحبس هذا النوع من النساء فی«البیوت»من صالحهن من بعض الجهات،لأنّه أفضل-بکثیر-من سجنهن فی السجون العامّه المتعارفه،هذا مضافا إلی أن التجربه قد دلّت أن للسجون و المتعقلات العامّه أثرا سیئا و عمیقا فی إفساد المجتمع،إذ أنّ هذه المراکز تتحول-شیئا فشیئا-إلی معاهد کبری لتعلیم شتی ألوان الجریمه و الفساد بسبب أن المجرمین سیتبادلون فیها-من خلال المعاشره و اللقاء و فی سعه من الوقت و فراغ من الشغل-تجاربهم فی الجریمه.

ثمّ أنّ اللّه سبحانه یذکر بعد ذلک حکم الزنا عن إحصان إذ یقول: وَ الَّذانِ یَأْتِیانِها مِنْکُمْ فَآذُوهُما فَإِنْ تابا وَ أَصْلَحا فَأَعْرِضُوا عَنْهُما إِنَّ اللّهَ کانَ تَوّاباً رَحِیماً و یقصد أنّ الرجل غیر المحصن أو المرأه غیر المحصنه إن أتیا بفاحشه الزنا فجزاؤهما أن یؤذیا».

و الآیه و إن کانت لا تذکر قید«عدم الإحصان»،صراحه،إلاّ أنّها حیث جاءت بعد ذکر حکم المحصنه و ذکر عقوبتها التی تختلف عن هذه العقوبه التی هی أخف من العقوبه المذکوره فی الآیه السابقه،أستفید منها إنها وارده فی حق الزنا عن غیر إحصان،و إنها بالتالی عقوبه الزانی غیر المحصن و الزانیه غیر

المحصنه اللذين لا يدخلان فى عنوان الآيه السابقه،و بالتالى حيث أن الآيه السابقه اختصّت-بالقرينه التى ذكرت-بالزانيه المحصنه استنتجنا أنّ هذه الآيه تبيّن حكم الزنا عن غير إحصان.

كما أنّ هناك نقطه واضحه أيضا،و هى أنّ الحكم المذكور فى هذه الآيه(أى الإيذاء)عقوبه كليه،يمكن أن تكون الآيه الثانيه من سوره النور التى تذكر أن حدّ الزنا هو(١٠٠)جلده لكل واحد من الزانى و الزانيه تفسيرا و توضيحا لهذه الآيه و تعيينا للحكم الوارد فيها،و لهذا لا يكون هذا الحكم منسوخا أيضا.

ففى تفسير العياشى روى عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآيه أنّه قال: «يعنى البكر إذا أتت الفاحشه التى أتتها هذه الثيب فآذوهما».

و على هذا يكون المراد من«اللذان»-و إن كان للإشاره إلى مثنى مذكر-هو الرجل و المرأه أى من باب التغلب.

هذا و قد احتمل جماعه من المفسرين أن يكون الحكم الوارد فى هذه الآيه واردا فى مجال«اللواط»و اعتبروا الحكم فى الآيه السابقه واردا فى مجال «المساحقه»،و لكن رجوع الضمير فى«يأتيانها»إلى«الفاحشه»فى الآيه السابقه يفيد أن العمل المستلزم لهذا الحكم الصارم فى هذه الآيه هو من نوع العمل المذكور فى الآيه السابقه لا من نوع آخر،و لهذا فإن اعتبار أنّ هذه الآيه وارده فى شأن اللوط،و الآيه السابقه وارده فى شأن المساحقه خلاف الظاهر، (و إن كان كلا العملين اللواط و المساحقه يشتركان فى عنوان كلى،و هو الميل إلى الجنس الموافق)و على هذا تكون كلتا الآيتين واردتين فى حدّ الزنا و حكمه.

هذا مضافا إلى أننا نعلم أنّ عقوبه«اللواط»فى الإسلام هو القتل و الإعدام و ليست الإيذاء و الجلد،و ليس ثمّه أى دليل على انتساخ الحكم المذكور فى الآيه الحاضره.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه بعد ذكر هذا الحكم يشير إلى مسأله التوبه و العفو عن مثل

هؤلاء العصاه،فيقول: فَإِنْ تابا،وَ أَصْلَحا،فَأَعْرِضُوا عَنْهُما إِنَّ اللّهَ كانَ تَوّاباً رَحِيماً .

و هذا التعليم هو فى الحقيقه يفتح طريق العوده و يرسم خط الرجعه لمثل هؤلاء العصاه،فإن على المجتمع الإسلامى أن يحتضن هؤلاء إذا تابوا و رجعوا إلى الطهر و الصواب و أصلحوا،و لن يطردوا من المجتمع بعد هذا بحجّه الفساد و الانحراف.

هذا و يستفاد من هذا الحكم أيضا-أنّه يجب أن لا يعير العصاه الذين رجعوا إلى جاده الصواب و تابوا و أصلحوا على أفعالهم القبيحه السابقه،و أن لا يلاموا على ذنوبهم الغابره،فإذا كان الحكم الشرعى و العقوبه الإلهيه يسقطان بسبب التوبه و الإنابه،فإنّ من الأولى أن يغض الناس الطرف عن سوابقهم،و هذا بنفسه جار فى من نفذ فيه الحدّ الشرعى ثمّ تاب بعد ذلك،فإنّه يجب أن تشمله مغفره المسلمين و عفوهم.

العقوبات الإسلاميه السهل الممتنع:

قد يتساءل البعض أحيانا:لما ذا قرر الإسلام عقوبات صارمه،و أحكاما جزائيه قاسيه و ثقيله؟فمثلا:لما ذا حكم بالحبس الأبدى أوّلا على الزانيه عن إحصان، ثمّ قرّر الحكم القتل و الإعدام فى شأنهما فى ما بعد،أ لم يكن من الأفضل أن يتّخذ الإسلام موقفا أكثر تسامحا و لينا تجاه هذه الأفعال،لتتعادل الجريمه و العقوبه و لا يرجح أحدهما على الآخر؟ غير أنّ العقوبات الإسلاميه و إن كانت تبدو فى الظاهر صعبه و قاسيه و ثقيله، إلاّ أنّ إثبات الجريمه فى الإسلام فى المقام ليس سهلا،أيضا فقد عين الإسلام و حدد لإثبات الجريمه شروطا لا تثبت-فى الأغلب-إلاّ إذا وقعت الجريمه علنا.

ص:151

فمثلا-تصعيد عدد الشهود فی الزنا إلی الأربعه-کما فی الآیه الحاضره-من الأمور الصعبه جدّا بحیث لا یثبت بها إلّا من کان مجرما جسورا جدّا،و لا شک أن مثل هؤلاء لا بدّ أن ینالوا عقابا ثقیلا و قاسیا لیعتبر بهم الآخرون،فتطهر بذلک البیئه الاجتماعیه من لوث الفساد و الانحراف و التورط فی الجریمه،کما أن المواصفات و الشروط المعتبره فی الشهود مثل رؤیه العملیه الجنسیه بعینها، و عدم الاکتفاء بالقرائن،و مثل الاتحاد فی الشهاده و ما شاکل ذلک تجعل إثبات الجریمه أصعب جدّا.

و بهذا الطریق جعل الإسلام احتمال التعرض لمثل هذه العقوبه القاسیه الثقیله نصیب عینی هذا النوع من المجرمین،و هو احتمال مهما کان ضعیفا من شأنه أن یؤثر فی ردع الأشخاص،و کبح جماحهم،و أمّا الدقّه فی کیفیه إثبات هذه الجریمه،و التشدد فی الشرائط التی اعتبرها فی الشهاده و الشهود فهو لأجل أن لا تتسع دائره هذه الأعمال الخشنه،و لا یقتصر استعمال العقوبات الخشنه فیها علی أقل الموارد،و فی الحقیقه أراد الإسلام أن یحافظ علی الأثر التهدیدی لهذا القانون الجزائی من دون أن یعرض أفرادا کثیرین لعقوبه الإعدام من جانب آخر.

و نتیجه ذلک هی أنّ هذا الأسلوب الإسلامی فی تعیین العقوبه و طریق إثبات الجریمه من أکثر الأسالیب تأثیرا و نجاحا فی خلاص المجتمع من التورط فی الآثام و المعاصی فی حین لا یتعرض لمثل هذه العقوبه أفراد کثیرون،و بهذا نصف هذا الأسلوب بالأسلوب«السهل الممتنع».

الآيتان [سوره النساء (۴): الآيات ۱۷ الى ۱۸]

اشاره

إِنَّمَا اَلتَّوْبَهُ عَلَى اَللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ اَلسُّوءَ بِجَهالَهٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولئِكَ يَتُوبُ اَللّهُ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اَللّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۷) وَ لَيْسَتِ اَلتَّوْبَهُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ اَلسَّيِّئاتِ حَتّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ اَلْمَوْتُ قالَ إِنِّى تُبْتُ اَلْآنَ وَ لاَ اَلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفّارٌ أُولئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۱۸)

التّفسير

اشاره

شرائط قبول التوبه:

فى الآيه السابقه بيّن اللّه تعالى بصراحه مسأله سقوط العقوبه عن مرتكبى الفاحشه و معصيه الزّنا إذا تابوا و أصلحوا،ثمّ عقب ذلك بقوله: إِنَّ اللّهَ كانَ تَوّاباً رَحِيماً مشيرا بذلك إلى قبول التوبه من جانب اللّه أيضا.

و فى هذه الآيه يشير سبحانه إلى شرائط قبول التوبه إذ يقول: إِنَّمَا التَّوْبَهُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَهٍ .

و هنا يجب أن نرى ما ذا تعنى«الجهاله»هل هى الجهل و عدم المعرفه بالمعصيه،أم هى عدم المعرفه بالآثار السيئه و العواقب المؤلمه للذنوب و المعاصى؟

إنّ کلمه الجهل و ما یشتق منها و إن کانت لها معان مختلفه،و لکن یستفاد من القرائن أنّ المراد منها فی الآیه المبحوثه هنا هو طغیان الغرائز،و سیطره الأهواء الجامحه و غلبتها علی صوت العقل و الإیمان،و فی هذه الصوره و إن لم یفقد المرء العلم بالمعصیه،إلاّ أنّه حینما یقع تحت تأثیر الغرائز الجامحه،ینتفی دور العلم و یفقد مفعوله و أثره،و فقدان العلم لأثره مساو للجهل عملا.

و أمّا إذا لم یکن الذنب عن جهل و غفله،بل کان عن إنکار لحکم اللّه سبحانه و عناد و عداء،فإن ارتکاب مثل هذا الذنب ینبئ عن الکفر،و لهذا لا تقبل التوبه منه،إلاّ أن یتخلّی عن عناده و عدائه و إنکاره و تمرده.

و

فی الحقیقه إنّ هذه الآیه تبیّن نفس الحقیقه التی یذکرها الإمام السجاد علیه السّلام فی دعاء أبی حمزه ببیان أوضح إذ یقول: «إلهی لم أعصک حین عصیتک و أنا بربوبیتک جاحد و لا بأمرک مستخف،و لا لعقوبتک متعرض،و لا لوعیدک متهاون،لکن خطیئه عرضت و سولت لی نفسی و غلبنی هوای».

ثمّ إنّ اللّه سبحانه یشیر إلی شرط آخر من شروط قبول التوبه إذ یقول: ثُمَّ یَتُوبُونَ مِنْ قَرِیبٍ .

هذا و قد وقع کلام بین المفسّرین فی المراد من«قریب»فقد ذهب کثیرون إلی أنّ معناه التوبه قبل أن تظهر آثار الموت و طلائعه،و یستشهدون لهذا الرأی بقوله تعالی: وَ لَیْسَتِ التَّوْبَهُ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السَّیِّئاتِ حَتّی إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ الذی جاء فی مطلع الآیه اللاحقه،و یشیر إلی أن التوبه لا تقبل إذ ظهرت علامات الموت.

و لعل استعمال لفظه«قریب»إنّما هو لأجل أن نهایه الحیاه الدنیویه مهما بعدت فهی قریبه.

و لکن بعض المفسرین ذهب إلی تفسیر لفظه«من قریب»بالزمان القریب من وقت حصول المعصیه،فیکون المعنی أن یتوبوا فورا،و یندموا علی ما فعلوه

بسرعه،و يتوبوا إلى اللّه،لأنّ التوبه الكامله هى التى تغسل آثار الجريمه و تزيل رواسبها من الجسم و الروح بشكل مطلق حتى لا يبقى أى أثر منه فى القلب،و لا يمكن هذا إلاّ إذا تاب الإنسان و ندم قبل أن تتجذر المعصيه فى كيانها،و تتعمق آثارها فى وجوده فتكون له طبيعه ثانيه،إذ فى غير هذه الصوره ستبقى آثار المعصيه فى زوايا الروح الإنسانيه،و تعشعش فى خلايا قلبه،فالتوبه الكامله- إذن-هى التى تتحقق عقيب وقوع الذنب فى أقرب وقت،و لفظه«قريب»أنسب مع هذا المعنى من حيث اللغه و الفهم العرفى.

صحيح أنّ التوبه التى تقع بعد زمن طويل من ارتكاب المعصيه تقبل أيضا، إلاّ أنّها ليست التوبه الكامله،و لعل التعبير بجمله«على اللّه»(أى على اللّه قبولها) كذلك إشاره إلى هذا المعنى،لأن مثل هذا التعبير لم يرد فى غير هذا المورد من القرآن الكريم،و مفهومه هو أن قبول التوبه القريبه من زمن المعصيه حق من حقوق العباد،فى حين ان قبول التوبه البعيده عن زمن المعصيه تفضل من اللّه و ليس حقا.

ثمّ أنّه سبحانه-بعد ذكر شرائط التوبه-يقول: فَأُولٰئِكَ يَتُوبُ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً مشيرا بذلك إلى نتيجه التوبه التى توفرت فيها الشروط المذكوره.

ثمّ يقول تعالى: وَ لَيْسَتِ التَّوْبَهُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئٰاتِ حَتّٰى إِذٰا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قٰالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَ لاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفّٰارٌ... و هو إشاره إلى من لا تقبل توبته.

و علّه عدم قبول هذا النوع من التوبه واضحه،لأن الإنسان عند الاحتضار فى رحاب الموت تنكشف له الأستار،فيرى ما لم يكن يراه من قبل،فهو يرى بعد انكشاف الغطاء عن عينيه بعض الحقائق المتعلقه بالعالم الآخر،و يشاهد بعينيه نتائج أعماله التى ارتكبها فى هذه الدنيا،و تتخذ القضايا التى كان يسمع بها صفه

محسوسه،و فی هـذه الحـاله من الطبیعی أن ینـدم کـل مجرم علی جرمه و أفعاله السـیئه،و یفرّ منها فرار الـذی یری اقتراب ألسـنه اللهب من جسمه.

و من المسـلم أن التکلیف الإلهی و الإختیار الربانی للبشـر لا یقوم علی أساس هـذا النوع من المشاهدات و المکاشـفات،بل یقوم علی أساس الإیمان بالغیب، و المشاهده بعینی العقل و القلب.

و لهـذا نقرأ فی الکتـاب العزیز أنّ أبواب التوبه کـانت تغلق فی وجه بعض الأقوام العاصـیه عنـد ظهور طلائع العـذاب الـدنیوی و النقمه العـاجله،و للمثـال نقرأ قول اللّه سـبحانه عن فرعون إذ یقول: حَتّی إِذا أَدْرَکَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِی آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِیلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِینَ آلْآنَ وَ قَدْ عَصَیْتَ قَبْلُ وَ کُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِینَ (۱) .

کمـا یسـتفاد من بعض الآیات القرآنیه(مثل الآیه ۱۲ من سوره السـجده)إنّ العصاه ینـدمون عنـد ما یشاهدون العذاب الإلهی فی الآخره،و لکن لات حین منـدم،فلا فائـده لندمهم فی ذلک الوقت،إن هؤلاء أشـبه ما یکونون بالمجرمین الذین إذا شاهدوا أعواد المشـنقه و أحسوا بالحبل علی رقابهم نـدموا علی جرائمهم و أفعالهم القبیحه،فمن الواضـح أنّ مثل هذه التوبه و هذا الندم لا یعد فضیله،و لا مفخره و لا تکاملا،و لهذا لا یکون أی تأثیر.

علی أنّ هـذه الآـیه لا تنافی الروایات التی نصت علی إمکان قبول التوبه حتی عنـد اللحظه الأخیره من الحیاه،لأن المراد فی هـذه الروایـات هی اللحظـات التی لم تظهر فیهـا بعـد ملامـح الموت و آثاره و طلائعه،و بعباره أخری لم تحصل لـدی الشـخص العین البرزخیه التی یقف بها علی حقائق العالم الآخر.

هذا عن الطائفه الأولی الذین لا تقبل توبتهم،و هم من یتوبون عند ما تظهر أمام عیونهم ملامح الموت و تبدو علیهم آثاره.

ص :۱۵۶

۱- ۱) -یونس،۹۰-۹۱.

و أمّا الطائفه الثّانيه الذين لا تقبل توبتهم فهم الذين يموتون كفارا،إذ يقول سبحانه: وَ لاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفّارٌ .

و لقد ذكر اللّه سبحانه بهذه الحقيقه فى آيات أخرى فى القرآن الكريم (۱) .

و هنا يطرح سؤال و هو:متى لا تقبل توبه الذين يموتون كفارا؟ احتمل البعض أن لا تقبل توبتهم فى العالم الآخر،و احتمل آخرون أن يكون المراد من التوبه-فى هذا المقام-ليس هو توبه العباد،بل توبه اللّه،يعنى عود اللّه على العبد و عفوه و رحمته له.

و لكن الظاهر هو أنّ الآيه تهدف أمرا آخر و تقول:إن الذين يتوبون من ذنوبهم حال العافيه و الإيمان و لكنهم يموتون و هم كفار لا تقبل توبتهم و لا يكون لها أى أثر.

و توضيح ذلك:إنّنا نعلم إن من شرائط قبول الأعمال«الموافاه على الإيمان» بمعنى أن يموت الإنسان مؤمنا،فالذين يموتون و هم كفار تحبط أعمالهم السابقه حتى الصالحه منها حسب صريح الآيات القرآنيه (۲) .و تنتفى فائده توبتهم من ذنوبهم حتى إذا تابوا حال الإيمان فى هذه الصوره أيضا.

و خلاصه القول إنّ قبول التوبه مشروط بأمرين.

الأوّل:أنّ تتحقق التوبه قبل أن يرى الشخص علائم الموت.

و الثّانى:أن يموت و هو مؤمن.

ثمّ أنّه يستفاد من هذه الآيه أيضا إن على الإنسان أن لا يؤخر توبته،إذ يمكن أن يأتيه أجله على حين غفله،فتغلق فى وجهه أبواب التوبه و لا يتمكن منها حينئذ.

و الملفت للنظر أن تأخير التوبه الذى يعبر عنه بالتسويف قد أردف فى الآيه

۱- ۱) -آل عمران-۹۱،البقره،۱۶۱،البقره،۲۱۷،محمّد-۳۴.

۲- ۲) -البقره،۲۱۷.

الحاضره بالموت حال الکفر،و هذا یکشف عن أهمیه التسویف و خطورته البالغه فی نظر القرآن.

ثمّ یقول سبحانه فی ختام الآیه: أُولئِکَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِیماً ،و لا حاجه إلی التذکیر بأنّ للتوبه مضافا إلی ما قیل شرائط اخری مذکوره فی آیات مشابهه من الکتاب العزیز.

ص :۱۵۸

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱۹]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ یَحِلُّ لَکُمْ أَنْ تَرِثُوا اَلنِّسٰاءَ کَرْهاً وَ لاٰ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مٰا آتَیْتُمُوهُنَّ إِلاّٰ أَنْ یَأْتِینَ بِفٰاحِشَهٍ مُبَیِّنَهٍ وَ عٰاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ کَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسیٰ أَنْ تَکْرَهُوا شَیْئاً وَ یَجْعَلَ اَللّٰهُ فِیهِ خَیْراً کَثِیراً (۱۹)

سبب النّزول

روی فی مجمع البیان عن الإمام محمّد الباقر علیه السّلام: «نزلت فی الرجل یحبس المرأه-من دون أن یعاملوها کالزّوجه-عنده لا حاجه له إلیها ینتظر موتها حتی یرثها»، أی فیأخذ أموالها من بعد وفاتها.

و روی عن ابن عباس أنّ الآیه الحاضره نزلت فی الذین أمهروا نساءهم بمهور کبیره ثمّ یحبسونهن من دون حاجه إلیهن،و لا یطلقونهن لغلاء المهر و ثقله،و یؤذونهن حتی یقبلن بالطلاق بعد أن یتنازلن عن تلک المهور.

و قد روی جماعه من المفسرین سببا آخر لنزول هذه الآیه لا یناسب هذه الآیه،بل یناسب الآیه(۲۲)من هذه السوره،و سنذکر ذلک الرأی عند تفسیر تلک الآیه بإذن اللّه تعالی.

ص: ۱۵۹

التّفسير

اشاره

الدفاع عن حقوق المرأه أيضا:

قلنا فی مطلع تفسیر هذه السوره أنّ آیات هذه السوره تهدف إلی مکافحه الکثیر من الأعمال الظالمه و الممارسات المجحفه التی کانت رائجه فی العهد الجاهلی،و فی هذه الآیه بالذات أشیر إلی بعض هذه العادات الجاهلیه المقیته و حذر اللّه سبحانه فیها المسلمین من التورط بها،و تلک هی:

۱-لا تحبسوا النساء لترثوا أموالهنّ،فلقد کانت إحدی العادات الظالمه فی الجاهلیه-کما ذکرنا فی سبب نزول الآیه-أنّ الرجل کان یتزوج بالنساء الغنیات ذوات الشرف و المقام اللاتی لم یکن یحظین بالجمال،ثمّ کانوا یذرونهن هکذا فلا یطلقونهنّ،و لا یعاملونهنّ کالزوجات،بانتظار أن یمتن فیرثوا أموالهن،فقالت الآیه الحاضره: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا یَحِلُّ لَکُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسٰاءَ کَرْهاً و بهذا استنکر الإسلام هذه العاده السیئه.

۲-لا تضغطوا علی أزواجکم لیهبنّ لکم مهورهنّ،فقد کان من عادات الجاهلیین المقیته أیضا أنّهم کانوا یضغطون علی الزوجات بشتی الوسائل و الطرق لیتخلین عن مهورهنّ،و یقبلن بالطلاق،و کانت هذه العاده تتبع إذا کان المهر ثقیلا باهظا،فمنعت الآیه الحاضره من هذا العمل بقولها: وَ لاٰ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مٰا آتَیْتُمُوهُنَّ أی من المهر.

و لکن ثمّه استثناء لهذا الحکم قد أشیر إلیه فی قوله تعالی فی نفس الآیه:

إِلاّٰ أَنْ یَأْتِینَ بِفٰاحِشَهٍ مُبَیِّنَهٍ

و الفاحشه هی أن ترتکب الزوجه الزنا و تخون بذلک زوجها،ففی هذه الحاله یجوز للرجل أن یضغط علی زوجته لتتنازل عن مهرها،و تهبه له و یطلقها عند ذلک،و هذا هو فی الحقیقه نوع من العقوبه،و أشبه ما یکون بالغرامه فی قبال ما ترتکبه هذه الطائفه من النساء.

هذا و المقصود من الفاحشه المبینه فی الآیه هل هو خصوص الزنا،أو کل

سلوک ناشز مع الزوج؟فیه کلام بین المفسرین إلاّ أنّه

روی فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام التصریح بأنه کل معصیه من الزوجه (۱) (طبعا یستثنی من ذلک المعاصی الطفیفه لعدم دخولها فی مفهوم الفاحشه التی تشیر إلی أهمیه المعصیه و خطرها، و الذی یتأکد بکلمه«مبینه»).

۳-عاشروهن بالمعاشره الحسنه،و هذا هو الشیء الذی یوصی به سبحانه الأزواج فی هذه الآیه بقوله: وَ عٰاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ،أی عاشروهن بالعشره الإنسانیه التی تلیق بالزوجه و المرأه،ثمّ عقب علی ذلک بقوله: فَإِنْ کَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسیٰ أَنْ تَکْرَهُوا شَیْئاً وَ یَجْعَلَ اللّٰهُ فِیهِ خَیْراً کَثِیراً .

فحتی إذا لم تکونوا علی رضا کامل من الزوجات،و کرهتموهنّ لبعض الأسباب فلا تبادروا إلی الانفصال عنهن و الطلاق،بل علیکم بمداراتهنّ ما استطعتم،إذ یجوز أن تکونوا قد وقعتم فی شأنهنّ فی الخطأ و أن یکون اللّه قد جعل فیما کرهتموه خیرا کثیرا،و لهذا ینبغی أن لا تترکوا معاشرتهنّ بالمعروف و المعاشره الحسنه ما لم یبلغ السیل الزبی،و لم تصل الأمور إلی الحدّ الذی لا یطاق،خاصّه و إن أکثر ما یقع بین الأزواج من سوء الظن لا یستند إلی مبرر صحیح،و أکثر ما یصدرونه من أحکام لا یقوم علی أسس واقعیه إلی درجه أنّهم قد یرون الأمر الحسن سیئا و الأمر السیء حسنا فی حین ینکشف الأمر علی حقیقه بعد مضی حین من الزمن،و شیء من المداراه.

ثمّ إنّه لا بدّ من التذکیر بأن للخیر الکثیر فی الآیه الذی یبشر به الأزواج الذین یدارون زوجاتهن مفهوما واسعا،و من مصادیقه الواضحه الأولاد الصالحون و الأبناء الکرام.

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،ج ۱،ص ۲۵۷.

الآيتان [سوره النساء (۴): الآيات ۲۰ الی ۲۱]

اشاره

وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۲۰) وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَ قَدْ أَفْضىٰ بَعْضُكُمْ إِلىٰ بَعْضٍ وَ أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (۲۱)

سبب النّزول

كان التقليد المتبع قبل الإسلام أنه إذا أراد الرجل أن يطلق زوجته،و يتزوج بأخرى أن يتّهم الزوجه الأولى بالزنا و الخيانه الزوجيه فرارا من دفع مهرها،أو يعمد إلى معاملتها بقسوه حتى ترد مهرها الذى قد أخذته من قبل إلى الرجل، ليستطيع أن يعطى ذلك المبلغ للزوجه الجديده التى يبغى الزواج بها،و يمهرها به.

فنزلت هذه الآيات تستنكر هذا العمل القبيح الظالم بشدّه،و تشجبه و تقبحه و تدعو إلى إنصاف الأزواج و عدم ظلمهنّ فى مهورهنّ.

التّفسير

نزلت الآيتان الحاضرتان لتحميا قسما آخر من حقوق المرأه،فقد جاءت الآيه الأولى تقول: وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ

قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً

فهى تخبر المسلمين-إذا عزموا على تطليق الزوجه و اختيار زوجه أخرى-أنّه لا يحق لهم أبدا أن يبخسوا من صداق الزوجه الأولى شيئا أو يستردوا شيئا من الصداق إذا كانوا قد سلموه إلى الزوجه مهما كان مقداره كثيرا و ثقيلا،و الذى عبّر عنه فى الآيه بالقنطار،و القنطار-كما سبق يعنى المال الكثير و قد جاء فى المفردات للراغب:أنّ القنطار جمع القنطره، و القنطره من المال ما فيه عبور الحياه تشبيها بالقنطره (۱) .

لأن المفروض أن تطليق الزوجه الأولى-هنا-يتمّ لأجل مصلحه الزوج، و ليس لأجل انحراف الزوجه عن جاده العفاف و الطهر،و لهذا لا معنى لأن تهمل حقوقها القطعيه.

ثمّ إنّ الآيه تشير فى مقطعها الأخير إلى الأسلوب السائد فى العهد الجاهلى حيث كان الرجل يتّهم زوجته بالخيانه الزوجيه لحبس الصداق عنها،إذ تقول فى استفهام إنكارى: أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً أى هل تأخذون صداق الزوجه عن طريق بهتهنّ،و اتهامهنّ بالفاحشه،و هو إثم واضح و معصيه بيّنه،و هذا يعنى أن أصل حبس الصداق عن الزوجه ظلم و معصيه، و التوسل لذلك بمثل هذه الوسيله الأثيمه معصيه اخرى واضحه،و ظلم آخر بيّن.

ثمّ أضاف سبحانه-فى الآيه الثانيه من الآيتين الحاضرتين-و ضمن استفهام إنكارى بهدف تحريك العواطف الإنسانيه لدى الرجال بأنّه كيف يحق لكم ذلك، و قد عشتم مع الزوجه الأولى زمنا طويلا،و كانت لكم معهنّ حياه مشتركه، و اختليتم بهن و استمتع كل واحد منكما بالآخر كما لو كنتما روحا واحده فى جسمين،أ فبعد ما كانت بينكما هذه العلاقه الزوجيه الحميمه يحق لكم-أيّها الأزواج-أن تبخسوا حق الزوجه الأولى؟و قد لخصّ سبحانه كل هذه بقوله:

۱- ۱) -و لمزيد التوضيح راجع الجزء الثانى من تفسيرنا هذا عند تفسير الآيه(۱۵)من سوره آل عمران.

وَ کَیْفَ تَأْخُذُونَهُ وَ قَدْ أَفْضیٰ (۱) بَعْضُکَمْ إِلیٰ بَعْضٍ

أ فیصح أن تفعلوا ذلک و کأنّکما غریبان لا رباط بینکما و لا علاقه؟ و هذا یشبه قولنا لمن عاشا صدیقین حمیمین زمنا طویلا ثمّ تنازعا:کیف تتنازعان و قد کنتما صدیقین حمیمین سنوات طویله و أعواما عدیده؟ و فی الحقیقه أن ارتکاب مثل هذا الفعل فی حق الزوجه شریکه الحیاه ما هو إلاّ ظلم للنفس.

ثمّ أنّه سبحانه تعالی: وَ أَخَذْنَ مِنْکُمْ مِیثٰاقاً غَلِیظاً أی کیف تبخسون الزوجه حقّها فی الصداق و قد أخذت منکم-لدی عقد الزواج بینکما-میثاقا غلیظا و عهدا موثقا بأن تؤدوا إلیهنّ حقوقهنّ کامله،فکیف تتنکرون لهذا المیثاق المقدس و هذا العهد المأخوذ منکم لها حاله العقد؟ ثمّ یجب أن نعرف أنّ الآیه الحاضره و إن وردت فی مقام تطلیق الزوجه الأولی لغرض إحلال زوجه أخری مکانها إلاّ أنّها لا تختصّ بهذا المورد خاصّه، بل تعمّ کل موارد الطلاق الذی یتمّ باقتراح من جانب الزوج و لا تکون لدی الزوجه رغبه فی الإفتراق،فإنّه یجب علی الزوج فی هذه الحاله أن یعطی الصداق بکامله إلی الزوجه إذا أراد أن یطلقها،و أن لا یسترد شیئا من الصداق إذا کان قد أعطاه إیاها،سواء قصد أن یتزوج بامرأه أخری أو لا.

و علی هذا تکون عباره: وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدٰالَ زَوْجٍ ناظره فی الحقیقه إلی ما کان سائدا فی العهد الجاهلی،و لیس له أی دخل فی أصل الحکم،فهو لیس قیدا.

علی أنّه ینبغی التنبیه أیضا إلی أن لفظه«استبدال»تعنی طلب البدیل،و لهذا یکون قد أخذ فیها قید الإراده،فإذا قرنت بکلمه«أردتم»فإنما ذلک لأجل التنبیه

۱- ۱) -الإفضاء أصله من الفضاء،و هو السعه،و بذلک یکون معنی الإفضاء إیجاد السعه،لأن الإنسان بسبب الاتصال و التعایش مع شخص آخر یکون و کأنه وسع دائره وجوده،و لهذا استعمل الإفضاء بمعنی الملامسه و الاتصال.

إلی نقطه فی المقام،و هی أنکم-عنـد تهیئه المقدمات و العزم علی اسـتبدال زوجه اخری-یجب أن لا تبدأوا من المقدمات الغیر المشروعه الظالمه،فتضیعوا مهر زوجتکم إذا أردتم زوجه أخری.

ص: ۱۶۵

الآيه [سوره النساء (۴): آيه ۲۲]

اشاره

وَ لاٰ تَنْكِحُوا مٰا نَكَحَ آبٰاؤُكُمْ مِنَ اَلنِّسٰاءِ إِلاّٰ مٰا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كٰانَ فٰاحِشَةً وَ مَقْتاً وَ سٰاءَ سَبِيلاً (۲۲)

سبب النّزول

كـانت العاده فى الجاهليه أنّه إذا مات رجل و خلف زوجه و أولادا،و كان الأولاد من زوجه أخرى ورثوا زوجه أبيهم كما يرثون أمواله،أى أنّه كان يحق لهم أن يتزوجوا بها أو يزوجوها لأحـد،و أن يتصـرفوا فيها كما يتصـرفون فى المتاع و المال،و قـد حدث مثل هـذا-بعـد ظهور الإسـلام-لأحـد المسـلمين،فقـد مات أحد الأنصار يدعى«أبو قيس»و خلف زوجه و ولدا من زوجه أخرى، فاقترح الولد عليها الزواج بها،فقالت تلك المرأه له:إنى أعتبرك مثل ابنى و أنت من صالحى قومك، و لكن

آتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فاستأمره و استوضحه الحكم، فأتته فأخبرته.فقال لها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«ارجعى إلى بيتك»فأنزل اللّه هذه الآيه تنهى عن هذا النوع من النكاح بشدّه.

التّفسير

هذه الآيه-كما ذكرنا فى شأن النّزول-تبطل عاده سيئه من العادات

ص:۱۶۶

الجاهليه المقيته فتقول: وَ لاٰ تَنْكِحُوا مٰا نَكَحَ آبٰاؤُكُمْ مِنَ النِّسٰاءِ أى لا تنكحوا زوجه أبيكم.

و لكن حيث أنّ القانون لا يشمل ما سبق من الحالات الواقعه قبل نزول القانون عقب سبحانه على ذلك النّهى بقوله: إِلاّٰ مٰا قَدْ سَلَفَ .

ثمّ أنّه سبحانه لتأكيد هذا النهى يستخدم ثلاث عبارات شديده حول هذا النوع من الزواج و النكاح إذ يقول أوّلا: إِنَّهُ كٰانَ فٰاحِشَةً ثمّ يضيف قائلا:

وَ مَقْتاً

أى عملا منفرا لا تقبله العقول،و لا تستسيغه الطباع البشريه السليمه،بل تمقته و تكرهه،ثمّ يختم ذلك بقوله: وَ سٰاءَ سَبِيلاً أى أنّها عاده خبيثه و سلوك شائن.

حتى أنّنا لنقرأ فى التاريخ أنّ الناس فى الجاهليه كانوا يكرهون هذا النوع من النكاح و يصفونه بالمقت،و يسمّون ما ينتج منه من ولد بالمقيت،أى الأولاد المبغوضين.

و من الواضح أنّ هذا الحكم إنّما هو لمصالح مختلفه و حكم متنوعه فى المقام،فإن الزواج بامرأه الأب هو من ناحيه يشبه الزواج بالأمّ،لأن امرأه الأب فى حكم الأمّ الثانيه،و من ناحيه أخرى اعتداء على حريم الأب و هتك له، و تجاهل لاحترامه.

مضافا إلى أنّ هذا العمل يزرع عند أبناء الأب الميت بذور النفاق بسبب النزاع على نكاح زوجته،و بسبب الاختلاف الواقع بينهم فى هذا الأمر(أى فى من يتزوج بها).

بل إنّ هذا النوع من النكاح يوجب الاختلاف و التنافس البغيض بين الأب و الولد،لأنّ هناك تنافسا و حسدا بين الزوجه الأولى و الزوجه الثّانيه غالبا،فإذا تحقق هذا النكاح(أى نكاح زوجه الأب من جانب الولد)فى حياه الوالد(أى بعد طلاقها من الأب طبعا)كان السبب فى الحسد واضحا،لأنّ امرأه الأب

ستحظی بهـذا الزواج منزله أرفع،ممّا یؤدی إلی تأجـج نیران الحسـد لـدی الزوجه الاخری أکثر،و أمّا إذا تحقق بعد وفاته فإنّه من الممکن أن یوجد لدی الابن نوعا من الحسد بالنسبه لأبیه.

هـذا و لیس من المسـتبعد أن تکون التعـابیر الثلاثه الوارده فی ذم هـذا النوع من النکاح إشارات إلی هـذه الحکم الثلاث لتحریم نکاح امرأه الأب علی وجه الترتیب.

ص :۱۶۸

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۲۳]

اشاره

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَ بَنَاتُكُمْ وَ أَخَوَاتُكُمْ وَ عَمَّاتُكُمْ وَ خَالاَتُكُمْ وَ بَنَاتُ اَلْأَخِ وَ بَنَاتُ اَلْأُخْتِ وَ أُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَ أَخَوَاتُكُمْ مِنَ اَلرَّضَاعَهِ وَ أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَ رَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اَللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَ حَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ اَلَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ اَلْأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اَللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (۲۳)

التّفسير

اشاره

تحريم الزّواج بالمحارم:

فی هذه الآیه أشار سبحانه إلی النساء اللاتی یحرم نکاحهنّ و الزواج بهنّ، و یمکن أن تنشأ هذه الحرمه من ثلاث طرق أو أسباب و هی:

۱-الولاده التی یعبّر عنها بالارتباط النّسبی.

۲-الزّواج الذی یعبّر عنه بالارتباط السّببی.

۳-الرّضاع الذی یعبّر عنه بالارتباط الرّضاعی.

و قد أشار فی البدایه إلی النساء المحرمات بواسطه النّسب و هنّ سبع

ص: ۱۶۹

طوائف إذ يقول حُرِّمَتْ عَلَيْكَمْ أَمَّهَاتُكَمْ وَ بَنَاتُكَمْ وَ أَخَوَاتُكَمْ وَ عَمَّاتُكَمْ وَ خَالاَتُكَمْ وَ بَنَاتُ الْأَخِ وَ بَنَاتُ الْأَخْتِ .

و يجب التّنبيه إلى أنّ المراد من«الأمّ»ليس هى التى يتولـد منها الإنسان دونما واسطه فقط،بل يشـمل الجدّه من ناحيه الأب و من نـاحيه الأـمّ و إن علون، كمـا أنّ المراد من البنت ليس هو البنت بلاـ واسطه،بـل تشـمل بنت البنت و بنت الابن و أولادهما و إن نزلن،و هكذا الحال فى الطوائف الخمس الاخرى.

و من الواضح جدّا أنّ الإنسان يبغض النكاح و الزواج بهذه الطوائف من النسوه،و لهذا تحرمه جميع الشعوب و الجماعات(إلاّ من شذ و هو قليل)،و حتى المجوس الذين كانوا يجوزون هذا النوع من النكاح فى مصادرهم الأصليه ينكرونه و يشجبونه اليوم،و إن حاول البعض أن يردّ هـذه المبغوضـيه إلى العاده و التقليد القديم،و لكن عموميه هذا القانون و شـيوعه لدى جميع أفراد البشـر و طوائفه و فى جميع القرون و الأعصـار تحكى-عـاده-عن فطريه هـذا القـانون، لأن التقليـد و العاده لا يمكن أن يكون أمرا عامّا و دائميا.

هـذا مضافـا إلى أنّ هنـاك حقيقه ثـابته اليوم،و هى أنّ الزواج بين الأشـخاص ذوى الفئه المشـابهه من الـدم ينطوى على أخطـار كـثيره،و يـؤدى إلى انبعـاث أمراض خفيه و مـوروثه،و تشـددها و تجـددها(لأـنّ هـذا النـوع من الزواج يولـد هـذه الأـمراض،بل يساعـدها على التشـدد و التجـدد و الانتقال)إلى درجه أنّ البعض لا يسـتحسن حتى الزواج بالأقرباء البعيدين(فضـلا عن المحارم المـذكوره هنـا)مثـل الزواج الواقع بين أبناء و بنات العمومه (۱) و يرون أنّه يؤدى هو الآـخر أيضـا إلى أخطـار تصاعـد الأمراض الوارثيه.

ص: ۱۷۰

۱- ۱) -طبعـا إنّ الإسـلام لم يحرّم التزاوج بين أبنـاء و بنـات العمومه،لأـنّ هـذا النوع من التزاوج ليس مثـل الزواج بالمحارم فى الخطوره،و احتمال ظهور مثل هـذه الحوادث الخطيره فى هـذا النوع من الزواج أقل،و قـد لا حظنا بأنفسـنا موارد و نماذج عديده من نتائج هذا النوع من الزواج حيث يكون الأولاد-فى هذه الحاله-أكثر سلامه و أفضل فكرا و موهبه من غيرهم.

إلّا أنّ هذا النوع من الزواج إذا لم يسبب أيه مشكله لدى الأقرباء البعيدين (كما هو الغالب)فإنّه لا شك يسبب مضاعفات خطيره لدى الأقرباء القريبين الذين تشتدّ عندهم ظاهره وحده الدم و تشابهه.

هذا مضافا إلى ضعف الرغبه الجنسيه و التجاذب الجنسى لدى المحارم عاده،لأنّ المحارم-فى الأغلب-يكبرون معا،و يشبّون معا،و لهذا لا ينطوى الزواج فيما بينهم على عنصر المفاجأه و صفه العلاقه الجديده،لأنّهم تعودوا على التعامل فيما بينهم،فلا يكون أحدهم جديدا على الآخر،بل العلاقه لديهم علاقه عاديه و رتيبه،و لا يمكن أن يكون بعض الموارد النادره مقياسا لانتزاع القوانين الكليه العامّه أو سببا لنقض مضاداتها،و نحن نعلم أن التجاذب الجنسى شرط أساسى لدوام العلاقه الزوجيه و استمرار الرابطه العائليه،و لهذا إذا تمّ التزاوج بين المحارم فإن الرابطه الزوجيه الناشئه من هذا الزواج ستكون رابطه ضعيفه مهزوزه و قصيره العمر.

وَ أُمَّهٰاتُكُمُ اللاّٰتِی أَرْضَعْنَكُمْ وَ أَخَوٰاتُكُمْ مِنَ الرَّضٰاعَهِ

يشير اللّه سبحانه فى هذه الآيه إلى المحارم الرّضاعيه و القرآن و إن اقتصر فى هذا المقام على الإشاره إلى طائفتين من المحارم الرضاعيه،و هى الأم الرضاعيه و الأخت الرضاعيه فقط،إلّا أنّ المحارم الرضاعيه-كما يستفاد من روايات عديده-لا تنحصر فى من ذكر فى هذه الآيه،بل تحرم بالرّضاعه كل من يحرمن من النساء بسبب«النسب»كما يصرّح بذلك الحديث المشهور

المروى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «يحرم من الرّضاع ما يحرم من النّسب» (۱) .

على أن بيان مقدار الرّضاع الموجب للحرمه و الشروط و الكيفيه المعتبره فيه،و غير ذلك من التفاصيل و الخصوصيات متروك للكتب الفقهيه.

و فلسفه حرمه الزواج بالمحارم الرضاعيه هى،أن نشوء و نبات لحم المرتضع

۱- ۱) -من لا يحضره الفقيه،ج ۲،ص ۱۵۵،و غيره.

و عظمه من لبن امرأه معینه تجعله بمثابه ابنها الحقیقی،فالمرأه التی ترضع طفلا مقدارا معینا من اللبن ینشأ و ینبت معه و منه للطفل لحم و عظم،فإنّ هذا النوع من الرضاع یجعل الطفل شبیها بأبنائها و أولادها لصیرورته جزء من بدنها کما هم جزء من بدنها،فإذا هم جمیعا(أی الأخوه الرضاعیون و الأخوه النسبیون کأنّهم اخوه بالنسب.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه یشیر-فی المرحله الأخیره-إلی الطائفه الثالثه من النسوه اللاتی یحرم الزواج بهنّ و یذکرهنّ ضمن عدّه عناوین:

۱- وَ أُمَّهَاتُ نِسَائِکُمْ یعنی أن المرأه بمجرّد أن تتزوج برجل و یجری عقد النکاح بینهما تحرم أمها و أم أمها و إن علون علی ذلک الرجل.

۲- وَ رَبَائِبُکُمُ اللاَّتِی فِی حُجُورِکُمْ مِنْ نِسَائِکُمُ اللاَّتِی دَخَلْتُمْ بِهِنَّ یعنی أنّ مجرّد العقد علی امرأه لا یوجب حرمه نکاح بناتها من زوج آخر علی زوجها الثّانی،بل یشترط أن یدخل بها أیضا مضافا علی العقد علیها.

إنّ وجود هذا القید فی هذا المورد دَخَلْتُمْ بِهِنَّ یؤید کون حکم أمّ الزوجه الذی مرّ فی الجمله السابقه وَ أُمَّهَاتُ نِسَائِکُمْ غیر مشروط بهذا الشرط، و بعباره أخری إن هذا القید هنا یؤید و یؤکّد إطلاق الحکم هناک،فتکون النتیجه أن بمجرّد العقد علی امرأه تحرم أمّ تلک المرأه علی الرجل و إن لم یدخل بتلک المرأه،لخلو ذلک الحکم من القید المشروط هنا فی مورد الرّبیبه.

ثمّ أنّ قید فِی حُجُورِکُمْ و إن کان ظاهره یفهم منه أنّ بنت الزوجه من زوج آخر إذا لم ترب فی حجر الزوج الثانی لا تحرم علیه،و لکن هذا القید بدلاله الروایات،و قطعیه هذا الحکم-لیس قیدا احترازیا -بل هو فی الحقیقه إشاره إلی نکته التحریم-لأن أمثال هذه الفتیات اللاتی تقدم أمّهاتها علی زواج آخر،هنّ فی الأغلب فی سنین متدنیه من العمر،و لذلک غالبا ما یتلقین نشأتهنّ و تربیتهنّ فی حجر الزوج الجدید مثل بناته،فالآیه تقول إن بنات نسائکم من غیرکم

ص :۱۷۲

كبناتكم أنفسكم،فهل يتزوج أحد بابنه نفسه؟و اختيار وصف الربائب التى هى جمع الرّبيبه(لتربيه الزوج الثانى إيّاها فهى مربوبته)إنّما هو لأجل هذا.

ثمّ يضيف سبحانه لتأكيد هذا المطلب عقيب هذا القسم قائلا: فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ أى إذا لم تدخلوا بامّ الرّبيبه جاز لكم نكاح بناتهنّ.

۳- وَ حَلاٰئِلُ (۱) أَبْنٰائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاٰبِكُمْ و المراد من حلائل الأبناء زوجاتهم،و أمّا التعبير ب«من أصلابكم»فهو فى الحقيقه لأجل أن هذه الآيه تبطل عاده من العادات الخاطئه فى الجاهليه،حيث كان المتعارف فى ذلك العهد أن يتبنى الرجل شخصا ثمّ يعطى للشخص المتبنى كل أحكام الولد الحقيقى، و لهذا كانوا لا- يتزوجون بزوجات هذا النوع من الأبناء كما لا يتزوجون بزوجه الولد الحقيقى تماما،و التبنى و الأحكام المرتبه عليها لا أساس لها فى نظر الإسلام.

۴- وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ يعنى أنّه يحرم الجمع بين الأختين فى العقد، و على هذا يجوز الزواج بالأختين فى وقتين مختلفين و بعد الانفصال عن الأخت السابقه.

و حيث أنّ الزواج بأختين فى وقت واحد كان عاده جاريه فى الجاهليه، و كان ثمّه من ارتكبوا هذا العمل فإن القرآن عقب على النهى المذكور بقوله: إِلاّٰ مٰا قَدْ سَلَفَ يعنى إنّ هذا الحكم كالأحكام الاخرى لا يشمل الحالات السابقه، فلا يؤاخذهم اللّه على هذا الفعل و إن كان يجب عليهم أن يختاروا إحدى الأختين،و يفارقوا الاخرى،بعد نزول هذا الحكم.

۱- ۱) -الحلائل جمع الحليله،و هى من ماده حل،و هى بمعنى المحلله،أى المرأه التى تحل للإنسان،أو من ماده حلول معنى المرأه التى تسكن مع الرجل فى مكان واحد و تكون بينهما علاقه جنسيه،لأن كل واحد منهما يحل مع الآخر فى الفراش.

يبقى أن نعرف أنّ سرّ تحريم هذا النمط من الزواج(أى التزوج بأختين فى وقت واحد)فى الإسلام لعلّه أن بين الأختين بحكم ما بينهما من نسب و رابطه طبيعيه-علاقه حبّ و مودّه،فإذا أصبحتا متنافستين فى ظل الانتماء إلى زوج واحد لم يمكنهما الحفاظ على تلك المودّه و المحبّه و العلاقه الوديه بطبيعه الحال،و بهذه الصوره يحدث هناك تضاد عاطفى فى وجود كل من الأختين يضرّ بحياتهما،لأن كلّ واحده منهما ستعانى حينئذ و بصوره دائميه من صراع حالتين نفسيتين متضادتين هما دافع الحب،و غريزه التنافس،و هو صراع نفسى مقيت ينطوى على مضاعفات خطيره لا تحمد عقباها.

ثمّ إن بعض المفسّرين احتمل أن تعود جمله إِلاّ ما قَدْ سَلَفَ إلى كل المحارم من النسوه اللاتى مرّ ذكرهنّ فى مطلع الآيه فيكون المعنى:إذا كان قد أقدم أحد فى الجاهليه على التزوج بإحدى النساء المحرم عليه نكاحهنّ لم يشمله حكم تحريم الزواج بهنّ هذا،و كان ما نتج من ذلك الزواج الذى حرم فى ما بعد من الأولاد شرعيين،و إن وجب عليهم بعد نزول هذه الآيه أن يتخلوا عن تلكم النساء،و يفارقوهنّ.

و تناسب خاتمه هذه الآيه أعنى قوله سبحانه و تعالى: إِنَّ اللّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً هذا المعنى الأخير.

ص: ۱۷۴

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۲۴]

اشاره

وَ اَلْمُحْصَنٰاتُ مِنَ اَلنِّسٰاءِ إِلاّٰ مٰا مَلَکَتْ أَیْمٰانُکُمْ کِتٰابَ اَللّٰهِ عَلَیْکُمْ وَ أُحِلَّ لَکُمْ مٰا وَرٰاءَ ذٰلِکُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوٰالِکُمْ مُحْصِنِینَ غَیْرَ مُسٰافِحِینَ فَمَا اِسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِیضَهً وَ لاٰ جُنٰاحَ عَلَیْکُمْ فِیمٰا تَرٰاضَیْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ اَلْفَرِیضَهِ إِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ عَلِیماً حَکِیماً (۲۴)

التّفسیر

اشاره

هذه الآیه تواصل البحث السابق حول النساء اللاتی یحرم نکاحهنّ و الزواج بهنّ و تضیف قائله:

وَ الْمُحْصَنٰاتُ مِنَ النِّسٰاءِ

أی و یحرم الزواج بالنساء،اللاتی لهنّ أزواج.

و المحصنات جمع المحصنه و هی مشتقه من«الحصن»،و قد أطلقت علی المرأه ذات الزوج لأنّها بالزواج برجل تکون قد أحصنت فرجها من الفجور، و کذا أطلقت علی النساء العفیفات النقیات الجیب،أو اللاتی یعشن فی کنف رجل و تحت کفالته و بذلک یحفظن أنفسهنّ و یحصنها من الفجور و الزنا.

و قد تطلق هذه اللفظه علی الحرائر مقابل الإماء،لأن حریتهنّ تکون بمثابه حصن یحفظهنّ من أن یتجاوز حدوده أحد دون إذنهنّ،إلاّ أنّه من الواضح أن

المراد بها فى الآيه الحاضره هو ذوات الأزواج.

إن هذا الحكم لا يختص بالنساء المحصنات المسلمات،بل يشمل المحصنات حتى غير المسلمات،أى أنّه يحرم الزواج بهنّ مهما كان دينهنّ.

نعم يستثنى من هذا الحكم فقط النساء المحصنات الكتابيات اللاتى أسرّهنّ المسلمون فى الحروب،فقد اعتبر الإسلام أسرهنّ بمثابه الطلاق من أزواجهنّ، و أذن أن يتزوج بهنّ المسلمون بعد انقضاء عدتهنّ (۱) أو يتعامل معهنّ كالإماء كما قال سبحانه: إِلاّ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ .

و لكن هذا الاستثناء(استثناء منقطع يعنى أن هذه النساء المحصنات اللاتى وقعن أسيرات فى أيدى المسلمين لا يعتبرن محصنات لأن علاقتهنّ بأزواجهنّ قد انقطعت بمجرد وقوعهنّ أسيرات،تماما كما تنقطع علاقه النساء غير المسلمات بأزواجهن باعتناقهنّ الإسلام فى صوره استمرار الزوج السابق على كفره،فيكن فى مصاف النساء المجردات من الأزواج(أى غير المحصنات).

و من هنا يتّضح أنّ الإسلام لا يسمح مطلقا بأن يتزوج المسلمون بالنساء المحصنات حتى الكتابيات و غيرهنّ من أهل الديانات الاخرى،و لهذا قرّر لهنّ العدّه،و منع من الزواج بهنّ فى تلك الفتره.

و فلسفه هذا الحكم تتمثل فى أن هذا النوع من النساء إمّا يجب أن تعاد إلى دار الكفر،أو يبقين هكذا بدون زوج بين المسلمين،أو تقطع علاقتهنّ بالزوج السابق،و يتزوجن من جديد بزوج آخر،و حيث أن الصوره الأولى تخالف الأسس التربويه الإسلاميه،كما أن الصوره الثانيه عمليه ظالمه،و لهذا لا تبقى إلاّ صوره واحده و هى الصوره الثالثه.

و يظهر من بعض الروايات التى ينتهى إسنادها إلى أبى سعيد الخدرى أنّ

۱- ۱) -مقدار عدتهن حيضه واحده أو وضع حملهن إذا كن حبالى.

الآیه نزلت فی سبایا غزوه أوطاس (۱) و أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سمح للمسلمین بأن یتزوجوا بهن بعد التأکد من کونهنّ غیر حبالی أو یعاملن کما تعامل الأمه،و هو یؤید الصوره الثالثه التی أشرنا إلیها فی ما سبق.

ثمّ أن اللّه سبحانه أکّد هذه الأحکام الوارده فی شأن المحارم من النساء و من شابههنّ حیث قال: کِتٰابَ اللّٰهِ عَلَیْکُمْ و علی هذا لا یمکن تغییر هذه الأحکام أو العدول عنها أبدا.

ثمّ إنّه یشیر سبحانه إلی حلّیه الزواج بغیر هذه الطوائف من المذکورات فی هذه الآیه و الآیات السابقه إذ یقول: وَ أُحِلَّ لَکُمْ مٰا وَرٰاءَ ذٰلِکُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوٰالِکُمْ مُحْصِنِینَ غَیْرَ مُسٰافِحِینَ أی أنّه یجوز لکم أن تتزوجوا بغیر هذه الطوائف من النساء شریطه أن یتمّ ذلک وفق القوانین الإسلامیه و أن یرافق مبادئ الفقه و الطهر و یبتعد عن جاده الفجور و الفسق.

و علی هذا یکون معنی«محصنین»فی الآیه و الذی هو إشاره إلی حال الرجال هو«عفیفین»،و عباره«غیر مسافحین»تأکید لهذا الوصف،لأن السفاح (الذی هو وزن کتاب)یعنی الزنا و أصله من السفح و هو صب الماء أو الأعمال العابثه و الأفعال الطائشه و حیث أنّ القرآن یستخدم-فی مثل هذه الموارد- الکنایات یکون المراد من السفاح الزنا و اللقاء الجنسی الغیر المشروع.

و جمله أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوٰالِکُمْ إشاره إلی أنّ العلاقه الزوجیه إمّا یجب أن تتمّ من خلال الزواج مع دفع صداق و مهر،أو من خلال تملک أمه فی لقاء دفع قیمتها (۲) .

کما أن عباره«غیر مسافحین»فی الآیه الحاضره لعلها إشاره إلی حقیقه أنّ

۱- ۱) -أوطاس منطقه وقعت فیها إحدی المعارک الإسلامیه و هو واد فی دیار بنی هوازن.

۲- ۲) -لقد بحثنا بالتفصیل عن برنامج الإسلام حول تحریر العبید و ما هناک من تخطیط دقیق فی النظام الإسلامی فی هذا المجال عند تفسیر الآیات المناسبه فی سوره«محمّد»صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

الهدف من الزواج يجب أن لا يكون فقط إطفاء الشهوه،و تلبيه الرغبه الجنسيه، بل الزواج قضيه حيويه هامّه تهدف غايه جد ساميه يجب أن تكون الغريزه الجنسيه فى خدمتها أيضا،ألا و هو بقاء النوع البشرى،و حفظه من التلوث و الانحراف.

الزّواج المؤقت فى الإسلام:

يقول سبحانه: فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً أى أنّه يجب عليهم دفع أجور النساء اللاتى تستمتعون بهنّ،و هذا القسم من الآيه إشاره إلى مسأله الزواج المؤقت أو ما يسمّى بالمتعه،و يستفاد منها أن أصل تشريع الزواج المؤقت كان قطعيا و مسلما عند المسلمين قبل نزول هذه الآيه،و لهذا يوصى المسلمون فى هذه الآيه بدفع أجورهنّ.

و حيث أن البحث فى هذه المسأله من الأبحاث التّفسيريه و الفقهيه و الاجتماعيه المهمه جدا يجب دراستها من عدّه جهات هى:

١-القرائن الموجوده فى هذه الآيه التى تؤكد دلالتها على الزواج المؤقت.

٢-إن الزواج المؤقت كان فى عصر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم ينسخ.

٣-الحاجه بل و الضروره الاجتماعيه إلى هذا النوع من الزواج.

۴-الإجابه على بعض الإشكالات.

و أمّا بالنسبه إلى النقطه الأولى فلا بدّ من الالتفات إلى أمور:

أوّلا:إنّ كلمه المتعه التى اشتق منها لفظه«استمتعتم»تعنى الزواج المؤقت، و بعباره أخرى المتعه حقيقه شرعيه فى هذا النوع من الزواج،و يدل على ذلك أن هذه الكلمه استعملت فى هذا المعنى نفسه فى روايات النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كلمات الصحابه مرارا و تكرارا (١) .

١- ١) -راجع كتاب كنز العرفان و تفسير مجمع البيان و تفسير نور الثقلين و البرهان،و الغدير،ج ۶.

ثانیا:إنّ هذه اللفظه إذا لم تکن بالمعنی المذکور یجب أن تفسّر حتما بمعناها اللغوی و هو«الانتفاع»فیکون معنی هذا المقطع من الآیه هکذا:«إذا انتفعتم بالنساء الدائمات فادفعوا إلیهنّ أجورهنّ»فی حین أننا نعلم إن دفع الصداق و المهر غیر مقید و لا مشروط بالانتفاع بالزوجات الدائمات بل یجب دفع تمام المهر-بناء علی ما هو المشهور (۱) بین الفقهاء-أو نصفه علی الأقل إلی المرأه بمجرد العقد للزواج الدائم علیها.

ثالثا:إنّ کبار«الصحابه»و«التابعین» (۲) مثل ابن عباس العالم(المفسّر الإسلامی الکبیر)و أبی بن کعب،و جابر بن عبد اللّه الأنصاری،و عمران بن الحصین،و سعید بن جبیر،و مجاهد،و قتاده و السدی،و جماعه کبیره من مفسّری أهل السنه،و جمیع مفسّری أهل البیت،فهموا من الآیه الحاضره حکم الزواج المؤقت إلی درجه أن الفخر الرازی-رغم ما عهد عنه من التشکیک الکثیر فی القضایا المرتبطه بالشیعه و عقائدهم قال بعد بحث مفصل:و الذی یجب أن یعتمد علیه فی هذا الباب أن نقول أنّها منسوخه و علی هذا التقدیر فلو کانت هذه الآیه داله علی أنها مشروعه لم یکن ذلک قادحا فی غرضنا،و هذا هو الجواب أیضا عن تمسکهم بقراءه أبی و ابن عباس فإن تلک القراءه بتقدیر ثبوتها لا تدل إلاّ علی أن المتعه کانت مشروعه،و نحن لا ننازع فیه،إنّما الذی نقوله أن النسخ طرأ علیه (۳) .

رابعا:اتفق أئمّه أهل البیت علیهم السّلام و هم أعلم الناس بأسرار الوحی،علی تفسیر الآیه المذکوره بهذا المعنی(أی بالزواج المؤقت)و قد وردت فی هذا الصعید روایات کثیره منها.

۱- ۱) -المشهور أو الأشهر وجوب تمام المهر بمجرد عقد الزواج الدائم و إن کان الطلاق قبل الدخول یوجب إعاده نصفه إلی الزوج.

۲- ۲) -التابعون هم الذین جاؤوا بعد الصحابه و لم یدرکوا عهد النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

۳- ۳) -التّفسیر الکبیر،ج ۱۰،ص ۵۳.

ما

عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «المتعه نزل بها القرآن و جرت بها السنّه من رسول اللّه» (۱) .

و

عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال فى جواب سؤال أبى بصير حول المتعه:نزلت فى القرآن فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً (۲) .

و

عن الإمام الباقر عليه السّلام أيضا أنّه قال: فى جواب عبد اللّه بن عمير الليثى الذى سأل عن المتعه:«أحلّها اللّه فى كتابه و على لسان نبيّه فهى حلال إلى يوم القيامه» (۳) .

هل نسخ هذا الحكم؟:

لقد اتفق عامّه علماء المسلمين،بل قامت ضروره الدين على أنّ الزواج المؤقت(المتعه)كان أمرا مشروعا فى صدر الإسلام(و الكلام حول دلاله الآيه الحاضره على مشروعيه المتعه لا ينافى قطعيه وجود أصل الحكم لأنّ المخالفين يرون ثبوت مشروعيه هذا الحكم فى السنه النبويه)،بل كان المسلمون فى صدر الإسلام يعملوا بهذا الحكم،و العباره المعروفه المرويه عن عمر:«متعتان كانتا على عهد رسول اللّه و أنا محرمهما و معاقب عليهما،متعه النساء و متعه الحج» (۴) دليل واضح على وجود هذا الحكم فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،غايه ما فى الأمر أن من خالف هذا الحكم ادعى أنّه قد نسخ فى ما بعد،و حرم هذا النوع من الزواج.

و لكن الملفت للنظر هو أنّ الروايات الناسخه لهذا الحكم التى ادعوها مضطربه اضطرابا كبيرا،فبعضها يقول:إنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه هو الذى نسخ هذا الحكم،و على هذا يكون الناسخ لهذا الحكم القرآنى هو السنه النبويه،و بعضها

۱- ۱) -نور الثقلين،ج ۱،ص ۴۶۷،و تفسير البرهان،ج ۱،ص ۳۶۰.

۲- ۲) -المصدر السابق.

۳- ۳) -تفسير البرهان ذيل الآيه(و قد ورد هذا الحديث و الحديثان السابقان عليه فى كتاب الكافى).

۴- ۴) -كنز العرفان،ج ۲،ص ۱۵۸،و لقد روى الحديث المذكور عن تفسير القرطبى و الطبرى بعبارات تشابه العباره أعلاه،كما أن هذا الحديث جاء فى السنن الكبرى للبيهقى،ج ۷،كتاب النكاح.

يقول:إنّ ناسخه هو آيه الطلاق إذ يقول سبحانه: إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ فى حين أنّ هذه الآيه لا ترتبط بالمسأله المطروحه فى هذا البحث لأنّ هذه الآيه تبحث فى الطلاق،فى حين أن الزواج المؤقت(أو المتعه)لا طلاق فيه، و الإفتراق بين الطرفين فى هذا الزواج يتمّ بانتهاء المدّه المقرره.

إنّ القدر المتيقن فى المقام هو أن أصل مشروعيه هذا النوع من الزواج فى زمن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمر قطعى و مفروغ عنه،و ليس ثمّه أى دليل يمكن الاطمئنان إليه و يثبت نسخ هذا الحكم،و لهذا فلا بدّ من أن نحكم ببقاء هذا الحكم،بناء على ما هو مقرر و ثابت فى علم الأصول.

و العباره المشهوره المرويه عن«عمر»خير شاهد على هذه الحقيقه،و هى أنّ هذا الحكم لم ينسخ فى زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم...و إلخ.

ثمّ إن من البديهى أنّه لا يحق لأحد إلاّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن ينسخ الأحكام،فهو وحده يحق له-و بأمر من اللّه سبحانه و إذنه-أن ينسخ بعض الأحكام،و قد سد باب نسخ الأحكام بعد وفاه النّبى تماما،و إلاّ لاستطاع كل واحد أن ينسخ شيئا من الأحكام الإلهيه حسب اجتهاده و مزاجه،و حينئذ لا يبقى شىء من الشريعه الخالده الأبديه،و هذا مضافا إلى أنّ الاجتهاد فى مقابل النص النّبوى لا ينطوى على أيه قيمه أبدا.

و الملفت للنظر أننا نقرأ فى صحيح الترمذى الذى هو من صحاح أهل السنه المعروفه،و كذا عن الدارقطنى (1) أن رجلا من أهل الشام سأل«عبد اللّه بن عمر» عن التمتع بالعمره إلى الحج،فقال ابن عمر:حسن جميل، قال:فإن أباك كان ينهى عنها،فقال:ويلك فإن كان أبى نهى عنها و قد فعله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمر به أ فبقول أبى آخذ،أم بأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قم عنّى (2) .

1- 1) -تفسير القرطبى،ج 2،ص 762،ذيل الآيه(195)البقره.

2- 2) -المراد من متعه الحج التى حرّمها عمر هو لو أننا صرفنا النظر عن حج التمتع،فإن حج التمتع عباره عن الأمر

و قد ورد نظير هذا الحديث و بنفس الصوره التی قرأتها حول زواج المتعه عن«عبد اللّه بن عمر»فی صحیح الترمذی (۱) .

و جاء فی کتاب«المحاضرات»للراغب أنّ رجلاـ من المسلمین کان یفعلها (أی المتعه)فقیل له:عمّن أخذت حلّها؟فقال:عن عمر،فقالوا:کیف ذلک و عمر هو الذی نهی عنها و عاقب علی فعلها؟فقال:لقوله:متعتان کانتا علی عهد رسول اللّه،و أنا أحرمهما و أعاقب علیهما متعه الحج و متعه النساء،فأنا أقبل روایته فی شرعیتها علی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و ما أقبل نهیه من قبل نفسه (۲) .

ثمّ إن هناک مطلبا آخر لا بدّ أن نذکر به هنا و هو أن الذین ادعوا نسخ هذا الحکم(أی انتساخه)قد واجهوا مشکلات عدیده.

أوّلا:أنّه صرّح فی روایات عدیده فی مصادر أهل السنه بأنّ هذا الحکم لم ینسخ فی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أبدا،بل نهی عنه فی عهد عمر،و علی هذا یجب علی مدعی النسخ أن یجیبوا علی هذه الروایات البالغه-عددا-عشرین روایه،جمعها العلاّمه الأمینی رحمه اللّه مفصله فی الجزء السادس من«الغدیر»و ها نحن نشیر إلی نموذجین منها.

۱-روی فی صحیح مسلم عن جابر بن عبد اللّه الأنصاری أنّه کان یقول:کنا نستمتع بالقبضه من التمر و الدقیق الأیّام علی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أبی بکر حتی -ثمّ-نهی عنه عمر فی شأن عمرو بن حریث (۳) .

۲-و فی حدیث آخر فی کتاب«الموطأ»لمالک و«السنن الکبری»للبیهقی

(۲

التالی:إن یحرم الشخص أوّلاـ ثمّ بعد الإتیان بمناسک«العمره»یخرج من إحرامه(فیحلّ له کل شیء حتی الجماع)ثمّ یحرم من جدید لیؤدی مناسک الحج من تاسع ذی الحجّه،و قد کان الناس فی الجاهلیه یبطلون هذا العمل و یستغربون ممن یدخل مکّه أیام الحج ثمّ یأتی بالعمره و یخرج من إحرامه قبل أن یأتی بالحج،و لکن الإسلام أباح هذا و قد صرّح بهذا الأمر فی الآیه(۱۸۶)من سوره البقره.

۱- ۱) -شرح اللمعه الدمشقیه،ج ۲،کتاب النکاح.

۲- ۲) -کنز العرفان،ج ۲،ص ۱۵۹ الهامش.

۳- ۳) -الغدیر،ج ۶،ص ۲۰۵ و ۲۰۶.

روی عن«عروه بن زبیر»إنّ خوله بنت حکیم دخلت علی عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه فقالت:إنّ ربیعه بن أمیّه استمتع بامرأه مولده فحملت منه فخرج عمر رضی اللّه عنه یجرّ رداءه فزعا فقال:هذه المتعه لو کنت تقدمت فیه لرجمته، (أی أمنع منها من الآن) (۱) .

و فی کتاب«بدایه المجتهد»تألیف«ابن رشد الأندلسی»نقرأ أیضا أنّ جابر بن عبد اللّه الأنصاری کان یقول:تمتعنا علی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أبی بکر و نصفا من خلافه عمر ثمّ نهی عنها عمر الناس (۲) .

و المشکله الاخری هی أنّ الروایات التی تتحدث عن نسخ حکم المتعه فی عهد رسول اللّه مضطربه و متناقضه جدّا،فبعضها یقول نسخ فی خیبر و بعضها یقول:نسخ یوم فتح مکّه،و بعض یقول:فی معرکه تبوک و آخر یقول:یوم أوطاس و ما شابه ذلک،و من هنا یتبیّن إن هذه الأحادیث المشیره إلی النسخ موضوعه برمتها لما فیها من التناقض البیّن و التضارب الواضح.

من کل ما قلناه اتّضح أنّ ما کتبه صاحب تفسیر المنار حیث قال:«و قد کنّا قلنا فی(محاورات المصلح و المقلد)التی نشرت فی المجلدین الثالث و الرابع:

من المنار أن عمر نهی عن المتعه اجتهادا منه وافقه علیه الصحابه ثمّ تبیّن لنا أنّ ذلک خطأ فنستغفر اللّه منه» (۳) .

إنّه حدیث العصبیه لأنّ هناک فی مقابل الرّوایات المتضاربه المتناقضه التی تتحدث عن انتساخ حکم المتعه فی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم روایات تصرّح باستمرار المسلمین علی ممارسه هذا الأمر(أی المتعه)إلی عهد عمر،و علی هذا لیس المقام مقام الاعتذار و لا الاستغفار،فالشواهد التی ذکرناها سابقا تشهد بأن

۱- ۱) -الغدیر،ج ۱،ص ۲۰۵ و ۲۰۶.

۲- ۲) -بدایه المجتهد کتاب النکاح.

۳- ۳) -تفسیر المنار،ج ۵،ص ۱۶.

كلامه الأوّل مقترن بالحقيقه و ليس كلامه الثّانى كذلك.

و لا يخفى أنّه لا«عمر»و لا أى شخصيه أخرى حتى أئمّه أهل البيت عليهم السّلام و هم خلفاء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقادرين على نسخ أحكام ثبتت فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بل لا معنى للنسخ-أساسا-بعد وفاه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و انسداد باب الوحى و انقطاعه، و حملهم كلام«عمر»على الاجتهاد مثير للعجب،لأنّه من«الاجتهاد»فى مقابل «النص».

و أعجب من ذلك أن جماعه من فقهاء السنه اعتبروا الآيات المرتبطه بأحكام الزواج مثل الآيه(۶)من سوره المؤمنين ناسخه لآيه المتعه،و كأنّهم تصوروا أن زواج المتعه ليس زواجا أصلا،فى حين أنّه أحد أقسام الزواج.

الزّواج المؤقت ضروره اجتماعيه:

إنّه قانون عام إن الغريزه البشريه الطبيعيه إذا لم تلّب بصوره صحيحه سلك الإنسان لإشباعها و تلبيتها طريقا منحرفا،لأن من الحقائق المسلمه غير القابله للإنكار أن الغرائز الطبيعيه لا يمكن أن يقضى عليها بالمرّه و حتى أننا إذا استطعنا أن نقضى عليها-افتراضا-لم يكن هذا العمل عملا صحيحا،لأنّه حرب على قانون من قوانين الخلقه.

و على هذا فإنّ الطريق الصحيح هو أن نشبع هذه الحاجه،و نلبى هذه الغريزه بطريقه معقوله،و أن نستفيد منها فى سبيل البناء.

على أننا لا يمكننا أن ننكر أنّ الغريزه الجنسيه هى إحدى أقوى الغرائز الإنسانيه إلى درجه أن بعض المحللين النفسانيين اعتبرها الغريزه الإنسانيه الأصليه التى إليها ترجع بقيه الغرائز الاخرى.

فإذا كان الأمر كذلك ينطرح سؤال فى المقام و هو أنّه قد يكون هناك من لا يمكنه-و فى كثير من الظروف و الأحوال-أن يتزوج بالزواج الدائم فى سن

خاص،أو يكون هناك من المتزوجين من سافر فى رحله طويله و مهمّه بعيده عن الأهل فيواجه مشكله الحاجه الجنسيه الشديده التى تتطلب منه التلبيه و الإرضاء.

خاصّه و إنّ هذه المسأله قد اتّخذت فى عصرنا الحاضر الذى أصبح فيه الزواج-بسبب طول مدّه الدراسه و بعد زمن التخرج و بعض المسائل الاجتماعيه المعقده التى قلّما يستطيع معها الشباب أن يتزوجوا فى سن مبكره،أى فى السن التى تعتبر فتره الفوران الجنسى لدى كل شاب-اتّخذت صفه أكثر عنفا و ضراوه، ترى ما الذى يجب عمله فى هذه الحاله؟ هل يجب حثّ الناس على أن يقمعوا هذه الغريزه(كما يفعل الرهبان و الراهبات)؟ أو أنّه يجب أن يفسح لهم المجال لأن يتحرروا جنسيا فيفعلوا ما شاؤوا أن يفعلوا،فتتكرر الصوره المقرفه؟ أو أن نسلك طريقا ثالثه تخلو عن مشاكل الزواج الدائم،كما و تخلو عن مفاسد التحرر الجنسى أيضا؟ و خلاصه القول إن الزواج الدائم لم يكن لا فى السابق و لا فى الحاضر بقادر على أن يلبى كل الاحتياجات الجنسيه،و لا أن يحقق رغبات جميع الفئات و الطبقات فى الناس،فنحن لذلك أمام خيارين لا ثالث لهما و هما: إمّا أن نسمح بالفحشاء و البغاء و نعترف به(كما هو الحال فى المجتمعات الماديه اليوم حيث سمحوا بالبغاء بصوره قانونيه)أو أن نعالج المسأله عن طريق الزواج المؤقت (المتعه)فما هو يا ترى جواب الذين يعارضون فكره البغاء،و فكره المتعه،على هذا السؤال الملح؟ إنّ أطروحه الزواج المؤقت(المتعه)ليست مقيده بشرائط النكاح الدائم لكى يقال بأنّها لا تنسجم و لا تتلاءم مع عدم القدره الماليه،أو لا تتلاءم مع ظروف

الدراسه،كما لا تنطوى على إضرار الفحشاء و البغاء و مفاسده و ويلاته.

مؤاخذات على الزواج المؤقت:

نعم هناك مؤاخذات تؤخذ على الزواج المؤقت لا بدّ أن نذكرها هنا،و نجيب عليها باختصار.

١-ربّما يقال:ما الفرق بين«الزواج المؤقت»و«الزنا»،أليس كلاهما بيع للجسد لقاء دفع مبلغ معين،و فى الحقيقه ليس وصف الزواج المؤقت سوى ستار على وجه الفحشاء و الزنا،نعم غايه الفرق بين الأمرين هو إجراء ما يسمّى بالصيغه،و هى ليست سوى عباره بسيطه.

و الجواب هو:إن الذين يرددون هذا الكلام كأنّهم لم يطّلعوا أصلا على مفهوم الزواج المؤقت و حقيقته،لأنّ الزواج المؤقت ليس عباره عن مجرّد كلمتين تقال و ينتهى كل شىء،بل ثمّه مقررات نظير ما فى الزواج الدائم،يعنى أن المرأه المتمتع بها تكون-طوال المدّه المضروبه فى الزواج المؤقت خاصّه بالرجل المتمتع،ثمّ عند ما تنتهى المدّه المذكوره يجب على المرأه أن تعتد،يعنى أن تمتنع من الزواج مطلقا برجل آخر لمدّه خمسه و أربعين يوما على الأقل،حتى يتبيّن أنّها حملت من الرجل الأوّل أو لا-على أنّها يجب أن تعتد حتى إذا توسلت بوسائل لمنع الحمل أيضا و إذا حملت من ذلك الرجل و أتت بوليد وجب أن يتكفله ذلك الرجل كما يتكفل أمر ولده من الزواج الدائم و يجرى عليه من الأحكام كل ما يجرى على الولد الناشئ من الزواج الدائم،فى حين أن الزنا و البغاء لا ينطوى على أى شىء من هذه الشروط و الحدود،فهل يمكن أن نقيس هذا الزواج بالبغاء؟ نعم إنّ بين الزواج المؤقت و الزواج الدائم بعض الفروق من حيث التوارث

بین الزوجتین (۱) و النفقه و بعض الأحکام،و لکن هذه الفروق لا تسبب فی أن یجعل«الزواج المؤقت»فی ردیف البغاء،خلاصه القول:إنّ المتعه نوع من الزواج بمقررات الزواج و النکاح.

۲-إنّ«الزواج المؤقت»یتیح لبعض الأشخاص من طلاب الهوی أن یسیء استعمال هذا القانون،و أن یرتکبوا کل فاحشه تحت هذا الستار لدرجه أن ذوی الشخصیات من الناس لا تقبل بمثل هذا الزواج،بل و تأنف منه کما أن ذوات الشخصیه من النساء یأبین ذلک أیضا.

و الجواب هو:و أی قانون فی عالمنا الراهن لم یسأ استعماله؟و هل یجوز أن نمنع من الأخذ بقانون تقتضیه الفطره البشریه و تملیه الحاجه الاجتماعیه الملحه بحجّه أن هناک من یسیء استعماله،أم أن علینا أن نمنع من سوء استخدام القانون الصحیح؟ لو أنّ البعض استغل موسم الحج لبیع المخدرات علی الحجیج-افتراضا- فهل یجب أن نمنع من هذا التصرف الشائن،أم نمنع من اشتراک الناس فی هذا المؤتمر الإسلامی العظیم؟ و هکذا الأمر فی المقام،و إذا لا حظنا بعض الناس من ذوی الشخصیات یکره الأخذ بهذا القانون الإسلامی(أی الزواج المؤقت)لم یکشف ذلک عن عیب فی القانون،بل یکشف عن عیب فی العاملین به،أو بتعبیر أصح:یکشف عن عیب فی الذین یسیئون استخدام القانون.

فلو أنّ الزواج المؤقت اتّخذ فی المجتمع المعاصر صورته الصحیحه، و قامت الحکومه الإسلامیه بتطبیقه علی النحو الصحیح،و ضمن ضوابطه و مقرراته الخاصّه به،أمکن المنع من سوء استخدام المستغلین لهذا القانون،کما لم یعد ذوو الشخصیات یکرهون هذا القانون و یرفضونه عند وجود ضروره

۱- ۱) -طبعا لیس هناک أی فرق بین أولاد الزواج المؤقت و أبناء الزواج الدائم من هذه النواحی.

اجتماعیه أیضا.

۳-یقولون:إنّ«الزواج المؤقت»یسبب فی أن یحصل فی المجتمع أطفال بلا أسر، تماما کما یحصل من البغاء من الأولاد الغیر الشرعیین.

و الجواب هو:إنّ الإجابه علی هذه المؤاخذه تتّضح تماما ممّا قلناه،لأنّ الأولاد غیر الشرعیین غیر مرتبطین بآبائهم و لا أمهاتهم من الناحیه القانونیه،فی حین إن الأولاد الناتجین من الزواج المؤقت لا یختلفون فی أی شیء عن الأولاد الناشئین من الزواج الدائم حتی فی المیراث و سائر الحقوق الاجتماعیه،و هذا الاعتراض نشأ من عدم الانتباه إلی هذه الحقیقه الساطعه فی صعید الزواج المؤقت.

«راسل»و الزواج المؤقت:

فی خاتمه هذا البحث من المفید الإشاره إلی موضوع هام ذکره فی هذا المجال العالم الإنجلیزی المعروف«برتراندراسل»فی کتابه:«الزواج و الأخلاق»تحت عنوان«زواج اختیاری».

لقد کتب راسل بعد أن ذکر اقتراحا لأحد قضاه محاکم الشباب یدعی«بن بن بی لیندسی»فی مجال«الزواج الودّی أو الزواج الاختیاری»قائلا:وفق هذا الاقتراح یجب أن یکون الشباب قادرین علی أن یدخلوا فی نوع جدید من الزواج یختلف عن الزواج المتعارف(الدائم)من ثلاث نواح:

أوّلا:أن لا یقصد الطرفان الحصول علی أبناء،و لهذا یجب أن یتعرفوا علی أفضل السبل لمنع الحمل.

و ثانیا:أن یتمّ الإفتراق بین الطرفین بأبسط الطرق و أسهلها.

و ثالثا:أن لا تستحق المرأه أی نفقه من الرجل بعد وقوع الإفتراق و الطلاق بینهما.

ص :۱۸۸

ثمّ إنّ راسل بعد أن يذكر خلاصه ما اقترحه«ليندسی»يقول:و إنّی لأتصور أن مثل هذا الأمر لو اعترف به القانون لأقبل جمهور كبير من الشباب و خاصّه الطلبه الجامعيين على الزواج المؤقت و لدخلوا فی حياه مشتركه مؤقته،حياه تتمتع بالحريه،و خالصه من كثير من التبعات و العواقب السيئه للعلاقات الجنسيه الطائشه،الراهنه» (۱) .

إنّ هذا الطرح-كما تلاحظ أيّها القارئ الكريم-حول الزواج المؤقت يشابه إلى حدّ كبير قانون الزواج المؤقت الإسلامی،غايه ما هنالك إنّ الشروط التی قرّرها الإسلام فی صعيد«الزواج المؤقت»أوضح و أكمل من نواحی كثيره ممّا اعتبر فی ذلك الطرح(الذی اقترحه ليندسی)،هذا مضافا إلى أن المنع من تكون الولد فی الزواج المؤقت الإسلامی غير محضور و إنّ الانفصال سهل،كما أنّه لا تجب النفقه فی هذا الزواج على الرجل.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه قال:-بعد ذكر وجوب دفع المهر- وَ لاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ فِيمٰا تَرٰاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَهِ و هو بذلك يشير إلى أنّه لا مانع من التغيير فی مقدار الصداق إذا تراضی طرفا العقد،و على هذا الأساس يكون الصداق نوعا من الدين الذی يخضع للتغيير من زياده أو نقصان إذا تراضيا.(و لا فرق فی هذا الأمر بين العقد المؤقت و العقد الدائم و إن كانت الآيه الحاضره-كما شرحنا ذلك سلفا- تدور حول الزواج المؤقت).

ثمّ إنّ هناك احتمالا آخر فی تفسير الآيه أيضا و هو أنّه لا مانع من أن يقدم الطرفان-بعد انعقاد الزواج المؤقت على تمديد مدّه هذا الزواج و كذا التغيير فی مقدار المهر برضا الطرفين،و هذا يعنی أن مدّه الزواج المؤقت قابله للتمديد حتى عند إشرافها على الانتهاء(أی قبيل انتهائها)بأن يتفق الزوجات أن يضيفا على المدّه المتفق عليها فی مطلع هذا الزواج،مدّه أخرى معينه لقاء إضافه مقدار معين

ص:۱۸۹

۱- ۱) -من كتاب(زناشوئی و أحلاق)،ص ۱۸۹-۱۹۰.

من المال إلى الصداق المتفق عليه أوّلا(و قد أشير فی روايات أهل البيت عليهم السّلام إلى هذا التّفسير أيضا).

ثمّ أنّه سبحانه قال: إِنَّ اللّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً يريد بذلك أن الأحكام المذكوره فی هذه الآيه تتضمّن خير البشريه و صلاحها و سعادتها لأنّ اللّه عليم بمصالحهم،حكيم فی ما يقرره لهم من القوانين.

ص: ١٩٠

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۲۵]

اشاره

وَ مَنْ لَمْ یَسْتَطِعْ مِنْکُمْ طَوْلاً أَنْ یَنْکِحَ اَلْمُحْصَنٰاتِ اَلْمُؤْمِنٰاتِ فَمِنْ مٰا مَلَکَتْ أَیْمٰانُکُمْ مِنْ فَتَیٰاتِکُمُ اَلْمُؤْمِنٰاتِ وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِإِیمٰانِکُمْ بَعْضُکُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْکِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنٰاتٍ غَیْرَ مُسٰافِحٰاتٍ وَ لاٰ مُتَّخِذٰاتِ أَخْدٰانٍ فَإِذٰا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَیْنَ بِفٰاحِشَهٍ فَعَلَیْهِنَّ نِصْفُ مٰا عَلَی اَلْمُحْصَنٰاتِ مِنَ اَلْعَذٰابِ ذٰلِکَ لِمَنْ خَشِیَ اَلْعَنَتَ مِنْکُمْ وَ أَنْ تَصْبِرُوا خَیْرٌ لَکُمْ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۲۵)

التّفسیر

اشاره

التّزوج بالإماء:

تعقیبا علی الأبحاث السابقه المتعلقه بالزواج نزلت هذه الآیه تبیّن شروط التزویج بالإماء، فتقول أولا: وَ مَنْ لَمْ یَسْتَطِعْ مِنْکُمْ طَوْلاً (۱) أَنْ یَنْکِحَ الْمُحْصَنٰاتِ الْمُؤْمِنٰاتِ فَمِنْ مٰا مَلَکَتْ أَیْمٰانُکُمْ مِنْ فَتَیٰاتِکُمُ الْمُؤْمِنٰاتِ أی من لم یجد قدره مالیه علی أن یتزوج بالحرائر من النساء المؤمنات،و لیس لدیه ما یقدر علی

ص: ۱۹۱

۱- ۱) -«الطول»علی وزن«نوع»مأخوذ من الطول(علی وزن النور)بمعنی القدره و الإمکانیه المالیه و ما شابه ذلک.

مهرهنّ و نفقتهنّ،فإن له أن يتزوج ممّا ملكت أيمانكم من الإماء،فإن مهورهنّ أقل،و مؤونتهنّ أخفّ عاده.

على أنّ المراد من الأـمه هنا هى أمه الغير،إذ لا يجوز لصاحب الأمه أن يتزوج بأمته و يتعامل معها كما يتعامل مع زوجته بشروط مذكوره فى الكتب الفقهيه.

كما أن التعبير ب«المؤمنات»فى الآيه يستفاد منه أنّه يجب أن تكون «الأمه»التى يراد نكاحها مسلمه حتى يجوز التزوج بها،و على هذا لا يصح التزوج بالإماء الكتابيات.

ثمّ إنّ الملفت للنظر فى المقام هو أنّ القرآن عبر عن الإماء بالفتيات جمع فتاه،هو مشعر عاده بالاـحترام الخاص الذى يولى للنساء،و هى تستخدم غالبا فى الشّابات من الإناث.

ثمّ إن اللّه سبحانه عقّب على هذا الحكم بقوله: وَ اللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمٰانِكُمْ و يريد بذلك أنكم لستم مكلّفين-فى تشخيص إيمان الإماء-إلاّ بالظاهر،و أمّا الباطن فاللّه هو الذى يعلم ذلك،فهو وحده العالم بالسرائر،و المطلع على الضمائر.

و حيث إن البعض كان يكره التزوج بالإماء و يستنكف من نكاحهنّ قال تعالى: بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ أى أنّكم جميعا من أب واحد،و أمّ واحده،فإذن يجب أن لاـ تستنكفوا من التزوج بالإماء اللاتى لا يختلفن من الناحيه الإنسانيه عنكم،و اللائى يشبهنّ غيرهنّ من ناحيه القيمه المعنويه،فقيمتهنّ تدور مدار التقوى و الإيمان لا غير.

و خلاصه القول إنّ الإماء من جنسكم،و كلّكم كأعضاء جسم واحد.

نعم لاـ بدّ أن يكون التزوج بالإماء بعد إذن أهلهنّ و إلاّـ كان باطلا،و إلى هذا أشار سبحانه بقوله: فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ و التعبير عن المالك بالأهل إنّما هو للإشاره إلى أنّه لا يجوز التعامل مع الإماء على أنهنّ متاع أو بضاعه،بل يجب

أن يكون التعامل معهنّ على أنهنّ من أعضاء العائله،فلا بدّ أن يكون تعاملا إنسانيا كاملا.

ثمّ إنّه سبحانه قال: وَ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ و من هذه الجمله يستفاد أن الصّداق الذى يعطى نهنّ يجب أن يكون متناسبا مع شأنهن و مكانتهن،و أن يعطى المهر لهنّ،يعنى أن الامه تكون هى المالكه للصداق،و إن ذهب بعض المفسرين إلى أن فى الآيه حذفا،أى أن الأصل هو(و آتوا مالكهنّ أجورهنّ)غير أن التّفسير لا يوافق ظاهر الآيه،و إن كانت تؤيده بعض الروايات و الأخبار.

هذا و يستفاد أيضا من ظاهر الآيه أنه يمكن للعبيد و الإماء أن يملكوا ما يحصلون عليه بالطرق المشروعه.

كما يستفاد من التعبير ب«المعروف»أنّه لا يجوز أن تظلم الإماء فى تعيين مقدار المهر،بل هو حقهنّ الطبيعى الحقيقى الذى يجب أن يعطى إليهنّ بالقدر المتعارف.

ثمّ إن اللّه سبحانه ذكر شرطا آخر من شروط هذا الزواج،و هو أن يختار الرجل للزواج العفائف الطاهرات من الإماء اللائى لم يرتكبن البغاء إذ قال:

مُحْصَنٰاتٍ

سواء بصوره علنيه غَيْرَ مُسٰافِحٰاتٍ أو بصوره خفيه وَ لاٰ مُتَّخِذٰاتِ أَخْدٰانٍ (۱) أى أصدقاء و أخلاء فى السرّ.

و يمكن أن يرد هنا سؤال هو أنّ النهى عن الزنا بلفظه غَيْرَ مُسٰافِحٰاتٍ تكفى و تغنى عن النهى عن اتّخاذ الأخدان،فلما ذا الوصف الثانى أيضا؟ و يجاب على هذا:بأن البعض-فى عهد الجاهليه-كان يرى أنّ المذموم فقط هو الزنا العلنى و السفاح الظاهر،و أمّا اتّخاذ الأخلاء و الرفاق أو الرفيقات فى

۱- ۱) -الأخدان جمع«خدن»و هى بمعنى الرفيق و الخل فى الأصل،و لكنها تستعمل عاده فى الأشخاص الذين يقيمون علاقات جنسيه غير مشروعه مع الجنس الآخر،و لا بدّ أن نعرف أن القرآن أطلق لفظه الخدن على المرأه كما أطلقها على الرجل.

السرّ فلا بأس به،و بهذا يتّضح سبب ذكر القرآن و تصريحه بكلا النوعين.

ثمّ إن اللّه سبحانه قال: فَإِذا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ .

و تتضمن الآيه بحثا حول عقوبه الإماء إذا خرجن عن جاده العفه و الطهر، و ذلك بعد أن ذكر قبل هذا بعض أحكام الزواج بالإماء،و بعض الأحكام حول حقوقهنّ.

و الحكم المذكور فى هذا المجال هو أن الإماء إذا زنين فجزاؤهنّ نصف جزاء الحرائر إذا زنين،أى خمسون جلده.

ثمّ إنّ هاهنا نقطه جديره بالانتباه هى أنّ القرآن الكريم يقول فى هذا المقام فَإِذا أُحْصِنَّ فيكون معناه أنّ الجزاء المذكور إنّما يترتب على زنا الأمه إذا أحصنت،فما ذا يعنى ذلك؟ لقد احتمل المفسّرون هنا احتمالات عديده،فبعضهم ذهب إلى أنّ المراد هو الأمه ذات بعل(و ذلك حسب الاصطلاح الفقهى المعروف و الآيه السابقه).

و ذهب آخرون إلى أنّ المراد هى الأمه المسلمه،بيد أن تكرار لفظه المحصنه مرتين فى الآيه يقضى بأن يكون المعنى واحدا فى المقامين،هذا من جهه،و من جهه أخرى فإن جزاء النساء المحصنات هو الرجم لا الجلد،فيتّضح أنّ التّفسير الأوّل و هو تفسير المحصنه بالأمه ذات بعل غير مقبول،كما أنّ التّفسير الثّانى و هو كون المراد من المحصنه هو المسلمه ليس له ما يدل عليه.

فالحقّ هو أنّ مجىء لفظه اَلْمُحْصَناتِ فى القرآن الكريم بمعنى المرأه العفيفه الطاهره-على الأغلب-يجعل من القريب إلى النظر أن تكون لفظه المحصنه هنا فى الآيه الحاضره مشيره إلى هذا المعنى نفسه،فيكون المراد أنّ الإماء اللاتى كن يرتكبن الفاحشه بضغط و إجبار من أوليائهنّ لا يجرى عليهنّ

ص :۱۹۴

الحکم المـذکور(أی الجلـد)،أمّا الإماء اللاتی لم یتعرضن للضـغط و الإجبار، و یمکنهنّ أن یعشن عفیفات نقیات،فإنهنّ إذا أتین بالفاحشه عوقبن کما تعاقب الحرائر و إن کانت عقوبه هذا النوع من الإماء علی النصف من حدّ الحرائر فی الزنا.

ثمّ قال سبحانه معقبا علی الحکم السابق: ذٰلِکَ لِمَنْ خَشِیَ الْعَنَتَ مِنْکُمْ و«العنت»(علی وزن سند)یقال فی الأصل للعظم المجبور-بعد الکسـر-إذا أصابه ألم و کسر آخر فهضّه قد أعنته،لأن هذا النوع من الکسر مؤلم جدّا،و لهذا یستعمل فی المشاکل الباهظه و الأعمال المؤلمه.

و یقصـد الکتـاب العزیز من العبـاره الحاضـره أنّ الزواج بالإماء إنّما یجوز لمن یعانی من ضـغط شدیـد بسـبب شـدّه غلبه الغریزه الجنسیه علیه و لم یکن قادرا علی التزوج بالحرائر من النساء،و علی هذا الأساس لا یجوز الزواج بالإماء لغیر هذه الطائفه.

و یمکن أن تکون فلسـفه هـذا الحکم فی أنّ الإماء خاصّه فی تلک العهود لم یحظین بتربیه جیـده،و لهذا کن یعانین من نواقص خلقیه و نفسـیه و عـاطفیه،و من الطبیعی أن یتّخـذ الأطفـال المتولـدون من هـذا الزواج صـفه الأمهـات و یکتسـبوا خصوصـیاتهنّ الخلقیه،و لهذا السـبب طرح الإسـلام طریقه دقیقه لتحریر العبید تدریجا حتی لا یبتلوا بهذا المصیر السیء،و فی نفس الوقت فسح للأرقاء أنفسهم أن یتزوجوا فیما بینهم.

نعم،هـذا الموضوع لاـ یتنـافی مع وضع بعض الإمـاء اللائی حظین بوضع اسـتثنائی و خاص من الناحیه الخلقیه و التربویه،فالحکم المـذکور أعلاـه یرتبـط بـأغلبیه الإمـاء،و کون بعض أمهـات الأـئمّه،من أهـل البیت النبوی علیهم السّـلام من الإمـاء هو من هـذه الجهه،و لکن لا بدّ من الانتباه إلی أنّ ما قیل فی مجال الإماء من

«المنع فی غیر الضروره»هو الزواج بهنّ،لا نکاحهنّ بسبب الملک،فإنّه لا مانع منه حتی فی غیر الضروره.

ثمّ عقب سبحانه علی ذلک بقوله: وَ أَنْ تَصْبِرُوا خَیْرٌ لَکُمْ أی إن صبرکم عن التزوج بالإماء ما استطعتم و ما لم تقعوا فی الزنا خیر لکم و من مصلحتکم:

وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ

أی یغفر اللّه لکم ما تقدم منکم بجهل أو غفله فهو رحیم بکم.

الآيات [سوره النساء (۴): الآيات ۲۶ الی ۲۸]

اشاره

يُرِيدُ اَللّٰهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَ يَهْدِيَكُمْ سُنَنَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۲۶) وَ اَللّٰهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ اَلشَّهَوٰاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (۲۷) يُرِيدُ اَللّٰهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خُلِقَ اَلْإِنْسٰانُ ضَعِيفاً (۲۸)

التّفسير

اشاره

هذه القيود لما ذا؟:

بعد أن بيّن اللّه سبحانه فی الآيات السابقه ما هناك من شروط و قيود و أحكام مختلفه فی مجال الزواج، يمكن أن ينقدح سؤال فی ذهن البعض و هو:ما المقصود من كلّ هذه القيود و لما ذا الحدود القانونيه؟أ لم يكن من الأفضل أن تترك للأفراد الحريه الكامله فی هذه المسائل،ليتاح لهم أن يستفيدوا من هذا الأمر و ليتعرفوا فی هذا المجال كما يفعل عبده الدنيا حيث يتوسلون بكل وسيله فی طريق اللّذه؟ إنّ الآيات الحاضره هی فی الحقيقه إجابه على هذه التساؤلات إذ يقول سبحانه: يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَ يَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ أی أنّ اللّه يبيّن لكم الحقائق بواسطه هذه القوانين و يهديكم إلی ما فيه مصالحكم،

مع العلم بأن هذه الأحكام لا تختص بكم،فقد سار عليها من سبقكم من أهل الحق من الأمم الصالحه،هذا مضافا إلى أنّ اللّه تعالى يريد أن يغفر لكم و يعيد عليكم نعمه التى قطعت عنكم بسبب انحرافكم عن جاده الحقّ،و كل هذا إنّما يكون إذا عدتم عن طريق الانحراف الذى سلكتموه فى عهد الجاهليه و قبل الإسلام.

وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

يعلم بأسرار الأحكام،و يشرعها لكم عن حكمه.

ثمّ إن اللّه سبحانه أكّد ما مرّ بقوله: وَ اللّٰهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوٰاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً أى أنّ اللّه يريد بتشريع هذه الأحكام لكم أن يعيد عليكم نعمه التى قطعت و منعت عنكم بسبب ذنوبكم،و ارتكابكم للشّهوات،و لكن الذين يريدون الانسياق وراء الشّهوات الغارقين فى الآثام و الذنوب يريدون لكم أن تنحرفوا عن طريق السعاده،إنّهم يريدون أن تسايروهم فى اتّباع الشّهوات و أن تنغمسوا فى الآثار انغماسا كاملا،فهل ترون-و الحال هذه-إنّ هذه القيود و الحدود الكفيله بضمان سعادتكم و خيركم و مصلحتكم أفضل لكم،أو الحريه المنفلته المقرونه بالانحطاط الخلقى،و الفساد و السقوط؟ إنّ هذه الآيات فى الحقيقه تجيب على تساؤل أولئك الأفراد الذين يعيشون فى عصرنا الحاضر أيضا و الذين يعترضون على القيود و الحدود المفروضه فى مجال القضايا الجنسيه،و تقول لهم:إنّ الحريات المطلقه المنفلته ليست أكثر من سراب،و هى لا تنتج سوى الانحراف الكبير عن مسير السعاده و التكامل الإنسانى،و كما توجب التورط فى المتاهات و المجاهل،و تستلزم العواقب الشريره التى يتجسد بعضها فى ما نراه بأم أعيننا من تبعثر العوائل،و وقوع أنواع الجريمه الجنسيه البشعه،و ظهور الأمراض التناسليه و الآلام الروحيه و النفسيه المقيته،و نشوء الأولاد غير الشرعيين حيث يكثر فيهم المجرمون القساه الجناه.

ثمّ إنّه سبحانه يقول بعد كل هذا: يُرِيدُ اللّٰهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خُلِقَ الْإِنْسٰانُ

ضَعِيفاً

و هـذه الآـيه إشاره إلى أنّ النقطه التاليه و هى أنّ الحكم السابق فى مجال حريه التزوج بالإماء بشـروط معينه ما هو-فى الحقيقه- إلاّـ تخفيف و توسـعه، ذلك لأنّ الإنسان خلق ضـعيفا،فلا بـدّ و هو يواجه طوفان الغرائز المتنوعه الجامحه التى تحاصـره و تهجم عليـه مـن كـل صـوب و حـدب أن تطرح عليه طرق و وسائـل مشـروعه لإرضـاء غرائزه،ليتمكن من حفـظ نفسه من الاـنحراف و السقوط.

ص :۱۹۹

الآیتان [سوره النساء (۴): الآیات ۲۹ الی ۳۰]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَأْکُلُوا أَمْوٰالَکُمْ بَیْنَکُمْ بِالْبٰاطِلِ إِلاّٰ أَنْ تَکُونَ تِجٰارَهً عَنْ تَرٰاضٍ مِنْکُمْ وَ لاٰ تَقْتُلُوا أَنْفُسَکُمْ إِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ بِکُمْ رَحِیماً (۲۹) وَ مَنْ یَفْعَلْ ذٰلِکَ عُدْوٰاناً وَ ظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِیهِ نٰاراً وَ کٰانَ ذٰلِکَ عَلَی اَللّٰهِ یَسِیراً (۳۰)

التّفسیر

اشاره

سلامه المجتمع ترتبط بسلامه الإقتصاد:

الآیه الأولی من هاتین الآیتین تشکل-فی الحقیقه-القاعده الأساسیه للقوانین الإسلامیه فی مجال المسائل المتعلقه«بالمعاملات و المبادلات المالیه» و لهذا یستدلّ بها فقهاء الإسلام فی جمیع أبواب المعاملات و المبادلات المالیه.

إنّ هذه الآیه تخاطب المؤمنین بقولها: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَأْکُلُوا أَمْوٰالَکُمْ بَیْنَکُمْ بِالْبٰاطِلِ و هذا یعنی أنّ أی تصرف فی أموال الغیر بدون حق أو بدون أی مبرر منطقی و معقول،ممنوع و محرم من وجهه نظر الإسلام،فقد أدرج الإسلام کل هذه الأمور تحت عنوان«الباطل»الذی له مفهوم واسع و کبیر.

و الباطل کما نعلم یقابل«الحقّ»و هو شامل لکل ما لیس بحقّ و کلّ ما لا هدف له و لا أساس.

ص:۲۰۰

و فی آیات أخری من القرآن الکریم أکّد هذا المعنی بعبارات شبیهه بالعباره المذکوره فی الآیه الحاضره،فعند ما یشنع علی الیهود و یذکر أعمالهم القبیحه یقول: وَ أَکْلِهِمْ أَمْوٰالَ النّٰاسِ بِالْبٰاطِلِ (۱) و یقول فی الآیه(۱۸۸)من سوره البقره لاٰ تَأْکُلُوا أَمْوٰالَکُمْ بَیْنَکُمْ بِالْبٰاطِلِ کمقدمه للنهی عن جر الناس إلی المحاکم و أکل أموالهم بحجج واهیه غیر منطقیه.

و علی هذا الأساس یندرج تحت هذا العنوان الکلی کل لون من ألوان العدوان،و الغش،و جمیع المعاملات الرّبویه،و المعاملات المجهوله الخصوصیات تماما،و تعاطی البضائع التی لا فائده فیها بحکم العقلاء،و التجاره بأدوات اللهو و الفساد و المعصیه و ما شاکل ذلک.

و تفسیر بعض الروایات کلمه«الباطل»بالقمار و الرّبا و ما شابه ذلک إنّما هو فی الحقیقه من باب ذکر المصادیق الواضحه لهذا المفهوم،و لیس من باب الحصر و القصر.

و لعلّنا لا نحتاج إلی التذکیر بأنّ التعبیر ب«الأکل»کنایه عن کل تصرف، سواء تمّ بصوره الأکل المتعارف أو اللبس،أو السکنی أو غیر ذلک،تعبیر رائج فی اللغه العربیه و غیر العربیه،غیر غریب علی الاستعمال.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه یقول معقبا علی العبارات السابقه: إِلاّٰ أَنْ تَکُونَ تِجٰارَهً عَنْ تَرٰاضٍ .

و هذه العباره استثناء من القانون الکلی،و هو بحسب الاصطلاح«استثناء منقطع» (۲) و هو یعنی إن ما جاء فی هذا العباره لم یکن مشمولا للحکم السابق من الأساس،بل قد ذکر تأکیدا و تذکیرا،فهو فی حدّ ذاته قانون کلی،و ضابطه عامّه

۱- ۱) -النساء،۱۶۱.

۲- ۲) -الاستثناء المنقطع یأتی-غالبا-لتأکید عمومیه الحکم العام،و هو أمر صادق فی المقام،هذا مضافا إلی أنه یکشف عن هذه الحقیقه،و هی أن تحریم التصرفات الباطله لا یقفل علیکم أبواب الرزق و الحیاه،بل فی إمکانکم أن تحققوا أهدافکم عن طریق التجاره المشروعه و الکسب المباح شرعا.

برأسها،لأنّه يقول:إلّا أن يكون التصرف فى أموال الآخرين بسبب التجاره الحاصله فى ما بينكم،و التى تكون عن رضا الطرفين.

فبناء على هذا تكون جميع أنواع المعاملات الماليه و التبادل التجارى الرائج بين الناس-فى ما إذا تمّ برضا الطرفين و كان له وجه معقول-أمرا جائزا من وجهه نظر الإسلام(إلّا الموارد التى ورد فيها نهى صريح لمصالح خاصّه).

ثمّ أنّه تعالى ينهى فى ذيل هذه الآيه عن قتل الإنسان لنفسه إذ يقول: وَ لاٰ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ و ظاهر هذه الجمله بقرينه قوله: إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِكُمْ رَحِيماً النهى عن الانتحار،يعنى أنّ اللّه الرحيم كما لا يرضى بأن تقتلوا أحدا،كذلك لا يسمح لكم و لا يرضى بأن تقتلوا أنفسكم بأيديكم،و قد فسّرت الآيه الحاضره فى روايات أهل البيت عليهم السّلام بالانتحار أيضا (۱) .

و هنا يطرح سؤال و هو:أى ارتباط بين مسأله قتل الإنسان لنفسه، و«التصرف الباطل فى أموال الناس»؟ إنّ الجواب على هذا السؤال واضح تماما،و فى الحقيقه يشير القرآن بذكر هذين الحكمين بصوره متتاليه إلى نكته اجتماعيه مهمّه،و هى أنّ العلاقات الاقتصاديه فى المجتمع إذا لم تكن قائمه على أساس صحيح،و لم يتقدم الإقتصاد الاجتماعى فى الطريق السليم،و وقع الظلم و التصرف العدوانى فى أموال الغير أصيب المجتمع بنوع من الانتحار،و آل الأمر إلى تصاعد حالات الانتحار الفردى مضافا إلى الانتحار الجماعى الذى هو من آثار الانتحار الفردى ضمنا.

إنّ الحوادث و الثورات التى تقع فى المجتمعات العالميه المعاصره خير شاهد و أفضل دليل على هذه الحقيقه،و حيث أنّ اللّه لطيف بعباده رحيم بخلقه فقد أنذرهم و حذرهم من مغبه الأمر،و حثّهم على تجنب المبادلات الاقتصاديه

۱- ۱) -راجع تفسير مجمع البيان،ذيل الآيه،و تفسير نور الثقلين،ج ۱،ص ۴۷۲.

المالیه الغیر الصحیحه،و أخطرهم بأن الإقتصاد المریض یؤدی بالمجتمع إلی السقوط و الانهیار،و الفناء و الاندحار.

کما حذر قائلا: وَ مَنْ یَفْعَلْ ذٰلِکَ عُدْوٰاناً وَ ظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِیهِ (۱) نٰاراً أی أن من یعصی هذه الأحکام و یتجاهل هذا التحذیر،و یأکل أموال الآخرین بالباطل و دون استحقاق،أو ینتحر بیدیه لم یصبه العذاب الألیم فی الدنیا فحسب، بل ستصیبه نار الغضب الإلهی،و هذا أمر هین علی اللّه: وَ کٰانَ ذٰلِکَ عَلَی اللّٰهِ یَسِیراً .

ص :۲۰۳

۱- ۱) -«الصلی»یعنی فی الأصل الاقتراب إلی النار،و یطلق علی التدفؤ و الاحتراق و الاکتواء بالنار أیضا،و قد استعملت فی الآیه الحاضره فی معنی الاحتراق بالنار احتراقا.

الآيه [سوره النساء (۴): آيه ۳۱]

اشاره

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبٰائِرَ مٰا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً (۳۱)

التّفسير

اشاره

المعاصی الكبيره و الصّغيره:

هذه الآيه تقول بصراحه: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبٰائِرَ مٰا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً .

و من هذا التعبير يستفاد أنّ المعاصی و الذنوب علی قسمين:

القسم الأوّل:هو ما يسمّيه القرآن الكريم بالمعصيه الكبيره.

و القسم الثّانی و هو ما يسمّيه القرآن الكريم بالسّيئه.

و قد عبّر فی الآيه(۳۲)من سوره النجم«باللمم» (۱) بدلا عن السيئه،و فی الآيه(۴۹)من سوره الكهف ذلك لفظه«الصّغيره»فی مقابل الكبيره عند ما يقول:

لاٰ يُغٰادِرُ صَغِيرَةً وَ لاٰ كَبِيرَةً إِلاّٰ أَحْصٰاهٰا .

و من التعابير المذكوره يثبت-بوضوح-أنّ الذنوب و المعاصی علی صنفين محددين،يعبر عنهما تاره بالكبيره و الصغيره،و تاره أخری بالكبيره و السيئه،

۱- ۱) -«اللمم»(علی وزن القسم)تعنی الأعمال الصغيره غير الهامه.

و ثالثه بالكبيره و«اللمم».

و الآن يجب أن نعرف ما هو الملاک و الضابطه فی تحدید الصّغیره و الکبیره.

یذهب البعض إلی أنّ هذین الوصفین من الأمور النسبیه،تکون کل معصیه بالنسبه إلی ما هو أکبر منها صغیره،و بالنسبه إلی ما هو أصغر منها کبیره (۱) .

و لکن من الواضح أنّ هذا المعنی لا ینجسم مع ظاهر الآیه الحاضره،لأنّ الآیه الحاضره تقسم الذنوب إلی صنفین مستقلین،و تعتبرهما نوعین متقابلین، و تعتبر الاجتناب عن صنف موجبا للعفو و التکفیر عن الصنف الآخر.

و لکننا إذا راجعنا المعنی اللغوی للکبیره وجدنا أنّ الکبیره هی کل معصیه بالغه الأهمیّه من وجهه نظر الإسلام،و یمکن أن تکون علامه تلک الأهمیه أن القرآن لم یکتف بالنهی عنها فقط،بل أردف ذلک بالتهدید بعذاب جهنم،مثل قتل النفس و الزنا و أکل الربا و أمثال ذلک،و لهذا

جاء فی روایات أهل البیت علیهم السّلام:

«الکبائر التی أوجب اللّه عز و جل علیها النار»، و قد روی مضمون هذا الحدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام و الإمام الصادق علیه السّلام،و الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام (۲) .

و علی هذا الأساس تسهل معرفه المعاصی الکبیره إذا أخذنا بنظر الإعتبار الضابطه المذکوره،و ما قد ذکر فی بعض الروایات من أنّ عدد الکبائر سبع و فی بعضها عشرون و فی بعضها سبعون لا ینافی ما ذکرناه قبل قلیل،إذ أنّ بعض هذه الروایات یشیر-فی الحقیقه-إلی المعاصی الکبیره من الدرجه الأولی،و بعضها الآخر یشیر إلی المعاصی الکبیره من الدرجه الثّانیه،و بعضها الثالث یشیر إلی جمیع الذّنوب الکبیره.

۱- ۱) -و قد نسب العلاّمه الطبرسی رحمه اللّه فی مجمع البیان هذا الإعتقاد إلی علماء الشیعه فی حین أنّ الأمر لیس کذلک، فلکثیر من علماء الشیعه رأی آخر سنأتی علی ذکره بالتفصیل.

۲- ۲) -نور الثقلین،ج ۱،ص ۴۷۳.

إشكال:

يمكن أن يقال أنّ هذه الآيه تشجع الناس على ارتكاب المعاصى و الذنوب الصغيره إذا،كأنّها تقول:لا بأس بارتكاب المعاصى الصغيره شريطه ترك الكبائر من الذنوب.

الجواب:

إنّ الجواب على هذا الإشكال يتّضح من التعبير المذكور فى الآيه الحاضره، إذ يقول القرآن الكريم: نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ يعنى إنّ الاجتناب عن الذنوب الكبار،خصوصا مع توفر أرضيه ارتكابها،يوجد حاله من التقوى الروحيه لدى الإنسان يمكنها أن تطهره من آثار الذنوب و المعاصى الصغيره.

و فى الحقيقه أنّ الآيه الحاضره تشبه الآيه(۱۱۴)من سوره هود التى تقول:

إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ فهى إشاره إلى أحد الآثار الواقعيه للأعمال الصالحه و هو يشبه ما إذا قلن،إذا اجتنب الإنسان المواد السّامه الخطيره و توفرت له صحه جيده و مناعه قويه أمكنه أن يتخلص من الآثار السيئه لبعض الأطعمه غير المناسبه لسلامه مزاجه،و بسبب مناعته الجسميه.

و بتعبير آخر إنّ التكفير عن الذنوب الصغيره و غفرانها يعد نوعا من«الأجر المعنوى»لتاركى المعاصى و الذنوب الكبيره،و لهذا-فى الحقيقه-أثر تشجيعى قوى على ترك الكبائر،محفز على اجتنابها.

متى تنقلب الصّغيره إلى كبيره؟:

إلاّ أنّ هاهنا نقطه مهمّه لا بدّ من الالتفات إليها،و هى أنّ المعاصى الصغيره تبقى صغيره ما لم تتكرر،هذا مضافا إلى كونها لا تصدر عن استكبار أو غرور و طغيان،لأنّ الصغائر-كما يستفاد من الكتاب العزيز و الأحاديث الشريفه- تتبدل إلى الكبيره فى عدّه موارد هى:

۱-إذا«تكررت الصغيره»،

قال الإمام الصّادق عليه السّلام: «لا صغيره مع الإصرار».

ص :۲۰۶

۲-إذا استصغر صاحب المعصیه معصیته و استحقرها،

فقد جاء فی نهج البلاغه: «أشدّ الذّنوب ما استهان به صاحبه».

۳-إذا ارتکبها مرتکبها عن عناد و استکبار و طغیان و تمرد علی أوامر اللّه تعالی،و هذا هو ما یستفاد من آیات قرآنیه متنوعه إجمالا،من ذلک قوله تعالی:

فَأَمّٰا مَنْ طَغیٰ وَ آثَرَ الْحَیٰاهَ الدُّنْیٰا، فَإِنَّ الْجَحِیمَ هِیَ الْمَأْویٰ

(۱)

.

۴-إن صدرت المعصیه ممن لهم مکانه اجتماعیه خاصّه بین الناس و ممن لا تحسب معصیتهم کمعصیه الآخرین،فقد جاء فی القرآن الکریم حول نساء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی سوره الأحزاب الآیه(۳۰): یٰا نِسٰاءَ النَّبِیِّ مَنْ یَأْتِ مِنْکُنَّ بِفٰاحِشَهٍ مُبَیِّنَهٍ یُضٰاعَفْ لَهَا الْعَذٰابُ ضِعْفَیْنِ ،و

قد روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال:

(من سن سنّه سیئه فعلیه وزرها و وزر من عمل بها لا ینقص من أوزارهم شیئا).

۵-أن یفرح مرتکب المعصیه بما اقترفه من المعصیه،و یفتخر بذلک کما

روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من أذنب ذنبا و هو ضاحک دخل النّار و هو باک».

۶-أن یعتبر تأخیر العذاب العاجل عنه علی المعصیه دلیلا علی رضاه تعالی،و یری العبد نفسه محصنا من العقوبه آمنا من العذاب،أو یری لنفسه مکانه عند اللّه لا یعاقبه اللّه علی معصیه لأجلها،کما جاء فی سوره المجادله الآیه(۸) حاکیا عن لسان بعض العصاه المغرورین الذین یقولون فی أنفسهم: لَوْ لاٰ یُعَذِّبُنَا اللّٰهُ بِمٰا نَقُولُ ،ثمّ یرد علیهم القرآن الکریم قائلا: حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ (۲) .

۱- ۱) -النازعات،۳۷-۳۹.

۲- ۲) -المحجه البیضاء،ج ۷،ص ۶۱.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۳۲]

اشاره

وَ لاٰ تَتَمَنَّوْا مٰا فَضَّلَ اَللّٰهُ بِهِ بَعْضَکُمْ عَلیٰ بَعْضٍ لِلرِّجٰالِ نَصِیبٌ مِمَّا اِکْتَسَبُوا وَ لِلنِّسٰاءِ نَصِیبٌ مِمَّا اِکْتَسَبْنَ وَ سْئَلُوا اَللّٰهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیماً (۳۲)

سبب النّزول

قال المفسّر الشّهیر الطّبرسی رحمه اللّه فی«مجمع البیان»:قیل أن أم سلمه(و هی من أزواج النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم)قالت:یا رسول اللّه یغزو الرجال و لا تغزو النساء،و إنّما لنا نصف المیراث؟فلیتنا رجال و نغزو و نبلغ ما یبلغ الرجال،فنزلت الآیه تجیب علی جمیع هذه التساؤلات.

و نقرأ فی تفسیر المنار:إنّ جماعه من الرجال المسلمین قالوا:نرجو أن نفضل علی النساء بحسناتنا فی الآخره کما فضلنا علیهنّ فی المیراث فیکون أجرنا علی الضعف من أجر النساء،و قالت جماعه من النساء المسلمات:إنا نرجو أن یکون الوزر علینا نصف ما علی الرجال فی الآخره کما لنا المیراث علی النصف من نصیبهم فی الدنیا،فنزلت الآیه.

و قد ذکر سبب النّزول هذا بعینه فی تفسیر«فی ظلال القرآن»و تفسیر«روح المعانی»مع فارق بسیط.

ص:۲۰۸

التّفسير

اشاره

لقد أوجب التفاوت فى سهم الرجال و النساء من الإرث-كما قرأت فى سبب النزول-تساؤلا لدى البعض،و يبدو أنّهم لم يلتفتوا إلى أنّ هذا التفاوت إنّما هو لأجل أن النفقه بكاملها على الرجل،و ليس على النساء شىء من نفقات العائله،بل نفقه المرأه هى الاخرى مفروضه على الرجل،و لهذا يكون ما تصيبه المرأه ضعف ما يصيبه الرجل من الثروه،و لهذا قال اللّه تعالى فى هذه الآيه: وَ لاٰ تَتَمَنَّوْا مٰا فَضَّلَ اللّٰهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ ،لأنّ لكل نوع من أنواع هذا التفصيل و التفاوت أسرار خفيّه عنكم غير ظاهره لكم،سواء كان التفاوت من جهه الخلقه و الجنسيه و بقيه الصفات الجسميه و الروحيه التى تشكل أساس النظام الاجتماعى فيكم،أو التفاوت من الناحيه الحقوقيه بسبب اختلاف الموقع و المكانه كالتفاوت فى سهم الإرث،إنّ جميع أنواع هذا التفاوت قائم على أساس العدل و القانون الإلهى الحكيم،و لو كانت مصلحتكم فى غير ذلك لسنّه و بيّنه لكم.

و على هذا فإن تمنّى تغيير هذا الوضع نوع من المخالفه للمشيئه الرّبانيه التى هى عين الحق و العداله.

على أنّه يجب أن لا نتصور خطأ أنّ الآيه الحاضره تشير إلى التفاوت المصطنع الذى برز نتيجه الاستعمار و الاستغلال الطبقى،بل تشير إلى الفروق الطبيعيه الواقعيه،لأنّ الفروق المصطنعه لا هى من المشيئه الإلهيه فى شىء،و لا أن تمنى تغييرها مرفوض و غير صحيح،بل هى فروق ظالمه و غير منطقيه يجب السعى فى رفعها و إزالتها و تفنيدها،فللمثال:لا يمكن للنساء أن يتمنين أن يكنّ رجالا،كما لا يمكن للرجال أن يتمنوا أن يكونوا نساء،لأنّ وجود هذين الجنسين أمر ضرورى للنظام الاجتماعى الإنسانى،و لكن هذا التفاوت الجنسى يجب أن لا يتّخذ ذريعه،لأن يسحق أحد الجنسين حقوق الجنس الآخر، و من هنا فإنّ الذين اتّخذوا هذه الآيه ذريعه لإثبات التمييز الاجتماعى الظالم أو

يتصوروها حجّه على هذا التمييز قد أخطئوا خطأ كبيرا.

و لـذا عقب اللّه سبحانه على الجمله السابقه فورا بقوله: لِلرِّجٰالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَ لِلنِّسٰاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ أى لكلّ من الرجال و النساء نصيب من سعيه و جهده و مكانته سواء كانت مكانه طبيعيه(كالتفاوت و الفرق بين جنسى الرجل و المرأه)أو غير طبيعيه ناشئه عن التفاوت بسبب الجهود الاختياريه.

إنّ الجدير بالالتفات هنا هو:إنّ لكلمه«الاكتساب»التى هى بمعنى التحصيل مفهوما واسعا يشمل الجهود الاختياريه،كما يشمل ما يحصل عليه الإنسان بواسطه بنيانه الطبيعى.

ثمّ يقول: وَ سْئَلُوا اللّٰهَ مِنْ فَضْلِهِ أى بدل أن تتمنوا هـذا التفصيل و التفاوت اطلبوا من فضل اللّه و اسألوا من لطفه و كرمه أن يتفضل عليكم من نعمه المتنوعه و توفيقاته و مثوباته الطيبه،لتكونوا-بنتيجه ذلك-سعداء رجالا و نساء،و من أى عنصر كنتم،و على كل حال اطلبوا و اسألوا ما هو خيركم و سعادتكم واقعا،و لا تتمنوا ما هو خيال أو ما تتخيلونه(و لعلّ التعبير بلفظه«من فضله»إشاره إلى المعنى الأخير).

على أنّه من الواضح جدّا أن طلب الفضل و العنايه الرّبانيه ليس بمعنى أن لا يسعى الإنسان فى الأخذ بأسباب كلّ شىء و عوامله،بل لا بدّ من البحث عن فضل اللّه و رحمته من خلال الأسباب التى قرّرها و أرساها فى الكون.

إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً

أى يعلم ما يحتاج إليه نظام المجتمع و ما يلزمه من الفروق سواء من الناحيه الطبيعيه أو الحقوقيه،و لهذا لا وجود للظلم و الحيف و لا لأى شىء من التفاوت الظالم و التمييز غير العادل فى أفعاله،كما أنّه تعالى خبير بما فى بواطن الناس من الأسرار و الخفايا و النوايا و يعلم من الذى يتمنى الأمانى الخاطئه فى قلبه،و من يتمنى الأمانى الإيجابيه الصحيحه البناءه.

التفاوت الطبیعی بین النّاس لما ذا؟:

إنّ ثمّه کثیرین یطرحون علی أنفسهم السّؤال التالی:لما ذا خلق البعض بمواهب و قابلیات أکثر،و آخرون بمواهب و قابلیات أقل،و البعض متحلین بالجمال،و آخرون خلو منه،أو بجمال قلیل،و البعض بامتیازات جسمیه عالیه و قویه متفوقه،و آخرون عادیین،هل یتلاءم هذا التفاوت مع العدل الإلهی؟؟.

فی الإجابه علی هذه التساؤلات لا بدّ من الالتفات إلی النقاط التالیه:

١-إنّ بعض الفروق الجسمیه و الروحیه بین الناس ناشئه عن الاختلافات الطبقیه و المظالم الاجتماعیه،أو التفریط الفردی الذی لا علاقه له بنظام الخلق و جهاز الإیجاد أبدا،فمثلا-کثیر من أبناء الأغنیاء أقوی من أبناء الفقراء و أکثر جمالا و تقدما من ناحیه المواهب و القابلیات بسبب أن الفریق الأوّل(أولاد الأغنیاء)یحظی بإمکانیات أکبر من حیث الغذاء و الجوانب الصحیه،فی حین یعانی الفریق الثانی من حرمان و نقصان من هذه الجهه.أو أن هناک من یخسر الکثیر من طاقاته الجسمیه و الروحیه بسبب التوانی،و البطاله،و التفریط و التقصیر.

إنّنا یجب أن نعتبر هذه الفروق و هذا التفاوت تفاوتا و مصطنعا و مزیفا،و غیر مبرر،و یتحقق القضاء علیها من خلال القضاء علی النظام الطبقی،و تعمیم العداله الاجتماعیه فی الحیاه البشریه،و القرآن الکریم و الإسلام لا یقرّ أی شیء من هذه الفروق،و أی لون من ألوان هذا التفاوت و التمییز أبدا.

٢-إنّ القسم الآخر من الفروق و ألوان التفاوت أمر طبیعی،و شیء لازم من لوازم الجبله البشریه،بل و ضروره من ضرورات الحیاه الإنسانیه،یعنی أنّ مجتمعا من المجتمعات حتی إذا کان یحظی بالعداله الاجتماعیه الکامله لا-یمکن أن یکون جمیع أفراده متساوین و علی نمط واحد و صوره واحده مثل منتجات معمل.بل لا بدّ أن یکون هناک بعض التفاوت،و لکن یجب أن نعلم أنّ المواهب

الإلهيه و القابليات الجسميه و الروحيه قد قسمت-فی الأغلب-تقسيما يصيب فيه كل واحد قسطا من تلك المواهب و القابليات.لا أن يحظی بعض بجميع المواهب،و يحرم آخرون من أی شیء منها،و بمعنی أنّه قل أن يوجد هناك من تجتمع فيه كل المواهب جمله واحده،بل هناك من يحظی بالمقدره البدنيه الكافيه،و آخر يحظی بموهبه رياضيه جيده،و من يحظی بذوق شعری رفيع، و آخر يحظی برغبه كبيره فی التجاره،و من يتمتع بذكاء وافر فی مجال الزراعه، و آخر بمواهب و قابليات خاصّه أخری.

المهم أن يكتشف المجتمع أو الأفراد أنفسهم تلك المواهب و القابليات،و أن يقوموا بتربيتها و تنميته فی بيئه سليمه،حتی يتمكن كل إنسان إظهار ما ينطوی عليه من نقطه ضعف و يستفيد منها.

٣-يجب أن نـذكر القارئ أيضا بأنّ المجتمع مثل الجسد الإنسانی بحاجه إلی الأنسـجه و العضـلات و الخلايا المختلفه،يعنی كما أنّ البـدن لو تـألف جميعه من خلايـا دقيقه و رقيقه مثـل خلايا العين و المـخ لم يـدم طويلا،و لو تألف جميعه من خلايا غليظه و خشـنه لاـ تعرف انعطافا مثل خلايا العظام،فقـدت القـدره الكافيه علی القيام بوظائفها،بل لا بـدّ أن تكون الخلايا المكونه للجسـم متنوعه، ليصـلح بعضـها للقيام بوظيفه التفكير،و بعضـها للمشاهـده و النظر،و آخر علی الاسـتماع و رابع علی التحدث،هكذا لا بدّ لوجود«المجتمع الكامل»من وجود عناصـر ذات مواهب و قابليات و أذواق،و تراكيب مختلفه متنوعه،بدنيه و فكريه، لكن لا يعنی هذا أن يعانی بعض أعضاء الجسد الاجتماعی من حرمان،أو تستصغر خدماته أو يستحقر دوره،تماما كما تستفيد كل خلايا البدن الواحد رغم ما بينها من تفاوت و فروق من الغذاء و الهواء و غيرها من الحاجات بالمقدار اللازم لكل واحد.

و بعباره أخری:إنّ الفروق و أشكال التفاوت فی البينه الروحيه و الجسميه

فی الجوانب الطبیعه(التی لا- هی ظالمه و لا هی مفروضه)إنّما هی فی الحقیقه مقتضی«الحکمه الرّبانیه»،و العدل لا یمکنه بحال أن ینفصل عن الحکمه.

فعلی سبیل المثال إذا کانت خلایا الجسم البشری مخلوقه فی شکل واحد کان ذلک بعیدا عن الحکمه کما أنّه خال عن العدل الذی یعنی وضع کل شیء فی محله و موضعه المناسب،و کذلک إذا تشابه الناس فی یوم من الأیّام فی التفکیر أو تشابهوا فی القابلیه و الموهبه لتهافت بنیان المجتمع برمته فی ذلک الیوم.

إذن فما ورد فی هذه الآیه فی مجال التفصیل و التفاوت فی جبله الرجل و المرأه و خلقتهما إنّما هو فی الواقع إشاره إلی هذا الموضوع،لأنّه من البدیهی إذا کان البشر جمیعا رجالا،أو کانوا جمیعا نساء لانقرض النوع البشری عاجلا،هذا مضافا إلی انتفاء قسم من ملاذ البشر المشروعه.

فإذا اعترض جماعه قائلین لما ذا خلق البشر صنفین رجالا و نساء،و زعموا بأنّ هذا الأمر لا یتلاءم مع العداله الإلهیه.لم یکن هذا الاعتراض منطقیا،لأنهم لم یلتفتوا إلی حکمه هذا التفاوت،و لم یتدبروا فیها.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۳۳]

اشاره

وَ لِکُلٍّ جَعَلْنا مَوالِیَ مِمّا تَرَکَ اَلْوالِدانِ وَ اَلْأَقْرَبُونَ وَ اَلَّذِینَ عَقَدَتْ أَیْمانُکُمْ فَآتُوهُمْ نَصِیبَهُمْ إِنَّ اَللّهَ کانَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیداً (۳۳)

التّفسیر

یعود القرآن مرّه أخری إلی مسأله الإرث إذ یقول: وَ لِکُلٍّ جَعَلْنا مَوالِیَ (۱) مِمّا تَرَکَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ أی لکل رجل أو امرأه جعلنا ورثه یرثون ممّا ترک الوالدان و الأقربون الذی یجب أن یقسّم بینهم طبق برنامج خاص.

إنّ هذه العباره هی-فی الحقیقه-خلاصه أحکام الإرث التی مرّ ذکرها فی الآیات السابقه فی مجال الأقرباء،و هی مقدمه لحکم سیأتی بیانه فی ما بعد.

ثمّ إنّ اللّه تعالی یضیف قائلا: وَ الَّذِینَ عَقَدَتْ أَیْمانُکُمْ فَآتُوهُمْ نَصِیبَهُمْ أی ادفعوا إلی الذین عقدتم معهم عقدا نصیبهم من الإرث.

و التعبیر عن المیثاق بعقد الیمین(و هو العقد بالید الیمنی)لأجل أنّ الإنسان

۱- ۱) -«الموالی»جمع مولی،و هی فی الأصل من ماده الولایه بمعنی الاتصال و الارتباط،و تطلق علی جمیع الأفراد الذین یرتبط بعضهم ببعض بنوع من الارتباط،غایه ما هناک أنّها تکون فی بعض الموارد بمعنی ارتباط الولی،مع أتباعه،و أمّا فی الآیه الحاضره فتکون بمعنی الورثه.

غالبا ما يستفيد من يده اليمنى للقيام بأعماله،كما أنّ الميثاق يشبه نوعا من العقد (فى مقابل الحل).

و الآن لننظر من هم الذين عقد معهم الميثاق،الذين لا بدّ أن يعطوا نصيبهم من الإرث؟ يحتمل بعض المفسّرين أنّ المراد هو الزوج و الزوجه لأنّهما عقدا فى ما بينهما رابطه الزوجيه.

و لكن هذا الاحتمال يبدو مستبعدا،لأنّ التعبير عن الزواج بعقد اليمين و نظيره فى القرآن الكريم قليل جدا،هذا مضافا إلى أنّه يعد تكرارا للمواضيع السابقه.

إنّ ما هو أقرب إلى مفهوم الآيه هو عقد«ضمان الجريره»الذى كان رائجا قبل الإسلام،و قد عدله الإسلام بعد أن أقرّه لما فيه من ناحيه إيجابيه و هو:«أن يتعاقد شخصان فيما بينهما على أن يتعاونا فيما بينهما بشكل أخوى أن يعين أحدهما الآخر عند المشكلات،و إذا مات أحدهما قبل الآخر ورثه الباقى»و لقد أقر الإسلام هذا النوع من التعاقد الأخوى الودى،و لكنّه أكد على أنّ التوارث بسبب هذا الميثاق إنّما يمكن إذا لم يكن هناك ورثه من طبقات الأقرباء،يعنى إذا لم يبق أحد من الأقرباء ورث ضامن الجريره الذى وقع بينه و بين الآخر مثل هذا العقد (لمعرفه التفاصيل أكثر راجع بحث الإرث فى الكتب الفقهيه) (۱) .

ثمّ ختم سبحانه الآيه بقوله: إِنَّ اللّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً أى إذا قصرتم فى إعطاء نصيب الورثه و لم تعطوهم حقوقهم كامله،علم اللّه بذلك و لم يخف عليه ما فعلتم،لأنّه على كل شىء شهيد و بكل شىء عليم.

۱ – ۱) -صوره عقد ضمان الجريره هكذا«عاقدتك على أن تنصرنى و أنصرك و تعقل عنى و أعقل عنك و ترثنى و أرثك» فيقول الآخر:«قبلت».

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۳۴]

اشاره

اَلرِّجٰالُ قَوّٰامُونَ عَلَی اَلنِّسٰاءِ بِمٰا فَضَّلَ اَللّٰهُ بَعْضَهُمْ عَلیٰ بَعْضٍ وَ بِمٰا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوٰالِهِمْ فَالصّٰالِحٰاتُ قٰانِتٰاتٌ حٰافِظٰاتٌ لِلْغَیْبِ بِمٰا حَفِظَ اَللّٰهُ وَ اَللاّٰتِی تَخٰافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ اُهْجُرُوهُنَّ فِی اَلْمَضٰاجِعِ وَ اِضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَکُمْ فَلاٰ تَبْغُوا عَلَیْهِنَّ سَبِیلاً إِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ عَلِیًّا کَبِیراً (۳۴)

التّفسیر

اشاره

القوامه فی النّظام العائلی:

قال اللّه تعالی فی مطلع هذه الآیه اَلرِّجٰالُ قَوّٰامُونَ عَلَی النِّسٰاءِ و لا بدّ لتوضیح هذه العباره من الالتفات إلی أنّ العائله وحده اجتماعیه صغیره،و هی کالاجتماع الکبیر لا بدّ لها من قائد و قائم بأمورها،لأن القیاده و القوامه الجماعیه التی یشترک فیها الرجل و المرأه معا،لا معنی لها و لا مفهوم،فلا بدّ أن یستقل الرجل أو المرأه بالقوامه،و یکون«رئیسا»للعائله،بینما یکون الآخر بمثابه «المعاون»له الذی یعمل تحت إشراف الرئیس.

إنّ القرآن یصرّح-هنا-بأنّ مقام القوامه و القیاده للعائله لا بدّ أن یعطی للرجل(و یجب أن لا یساء فهم هذا الکلام،فلیس المقصود من هذا التعبیر هو

الاستبداد و الإجحاف و العدوان،بل المقصود هو أن تكون القياده واحده و منظمه تتحمل مسئولياتها مع أخذ مبدأ الشورى و التشاور بنظر الإعتبار).

إنّ هذه المسأله تبدو واضحه فى هذا العصر أكثر من أى وقت مضى،و هى أن أيه هيئه حتى المؤلفه من شخصين مكلفه بالقيام بأمر لا بدّ أن يتولى أحدهما زعامه تلك الهيئه فيكون رئيسها،بينما يقوم الآخر بمساعدته فيكون بمثابه (المعاون أو العضو)،و إلاّ سادت الفوضى أعمال تلك الهيئه و اختلت نشاطاتها و أخفقت فى تحقيق أهدافها المنشوده،و هكذا الحال بالنسبه إلى العائله،فلا بدّ من إسناد إداره العائله إلى الرجل.

و إنّما تعطى هذه المكانه للرجل لكونه يتمتع بخصوصيات معينه مثل القدره على ترجيح جانب العقل على جانب العاطفه و المشاعر،(على العكس من المرأه التى تتمتع بطاقه فياضه و طاغيه من الأحاسيس و العواطف)و مثل امتلاك بنيه داخليه و قوه بدنيه أكبر ليستطيع بالأولى أن يفكر و يخطط جيدا،و يستطيع بالثانيه أن يدافع عن العائله و يذّب عنها.

هذا مضافا إلى أنّه يستحق-لقاء ما يتحمله من الإنفاق على الأولاد و الزوجه،و لقاء ما تعهده من القيام بكل التكاليف اللازمه من مهر و نفقه و إداره ماديه لائقه للعائله-أن تناط إليه وظيفه القوامه و الرئاسه فى النظام العائلى.

نعم يمكن أن يكون هناك بعض النسوه ممن يتفوقن على أزواجهنّ فى بعض الجهات،إلاّ أن القوانين-كما أسلفنا مرارا-تسن بملاحظه النوع و مراعاه الأغلبيه لا بملاحظه الأفراد،فردا فردا،و لا شك أنّ الحاله الغالبه فى الرجال أنّهم يتفوقون على النساء فى القابليه على القيام بهذه المهمّه،و إن كانت النسوه يمكنهنّ أن يتعهدن القيام بوظائف أخرى لا يشك فى أهميتها.

إنّ جمله بِمٰا فَضَّلَ اللّٰهُ بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ وَ بِمٰا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوٰالِهِمْ إشاره

ص :۲۱۷

أيضا إلى هـذه الحقيقه،لأنّ القسم الأوّل من هـذه الفقره يقول:إن هـذه القوامه إنّما هو لأجل التفاوت الذى أوجده اللّه بين أفراد البشـر من ناحيه الخلق لمصلحه تقتضيها حياه النوع البشرى،بينما يقول فى القسم الثانى منها:و أيضا لأجل أن الرجال كلفوا بالقيام بتعهدات ماليه تجاه الزوجات و الأولاد فى مجال الإنفاق و البذل.

و لكن غير خفى أن إناطه مثل هذه الوظيفه و المكانه إلى الرجل لا تدل على أفضليه شخصيه الرّجل من الناحيه البشريه،و لا يبرر تميزه فى العـالم الآـخر(أى يوم القيـامه)لأنّ التميز و الأفضـليه فى عالم الآخره يـدور مـدار التقوى فقط،كما أنّ شخصـيه المعاونه الإنسـانيه قـد تترجـح فى بعض الجهات المختلفه على شخصـيه الرئيس،و لكن الرئيس يتفوق على معاونه فى الإراده التى أنيطت إليه،فيكون أليق من المعاون فى هذا المجال.

ثمّ إنّه سـبحانه يضـيف قائلاـ: فَالصّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ ،و هـذا يعنى أن النساء بالنسـبه إلى الوظائف المناطه إليهنّ فى مجال العائله على صنفين:

الطّائفه الأـولى:و هنّ«الصالحـات»أى غير المنحرفـات«القانتـات»أى الخاضـعات تجـاه الوظـائف العـائليه«الحافظات للغيب»اللاتى يحفظن حقـوق الأـزواج و شؤونهم لاـ فى حضورهم فحسب،بـل يحفظنهم فى غيبتهم،يعنى أنهنّ لاـ يرتكبن أيه خيـانه سواء فى مجـال المـال،أو فى المجـال الجنسـى،أو فى مجـال حفـظ مكـانه الزوج و شـأنه الاجتمـاعى،و أسـرار العـائله فى غيبتـه،و يقمن بمسئولياتهنّ تجاه الحقوق التى فرضها اللّه عليهنّ و التى عبّر عنها فى الآيه بقوله:

بِما حَفِظَ اللّهُ

خير قيام.

و من الطبيعى أن يكون الرجال مكلفين باحترام أمثال هذه النسوه،و حفظ حقوقهنّ،و عدم إضاعتها.

النّساء المقصرات النّاشزات

الطّائفه الثّانیه:هنّ النسوه اللاتی یتخلفن عن القیام بوظائفهنّ و واجباتهنّ، و تبدو علیهنّ علائم النشوز و أماراته فإن علی الرجال تجاه هذه الطائفه من النساء واجبات لا بدّ من القیام بها مرحله فمرحله،و علی کل حال یجب أن یراعوا جانب العدل و لا یخرجوا عن حدوده و إطار،و هذه الوظائف هی بالترتیب:

۱-المواعظه

إنّ المرحله الأولی التی علی الرجال أن یسلکوها تجاه النساء اللاتی تبدو علیهنّ علائم التمرد و النشوز و العداوه،تتمثل فی وعظهن کما قال سبحانه فی الآیه الحاضره: وَ اللاّتِی تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ (۱) .و علی هذا فإن النساء اللاتی یتجاوزن حدود النظام العائلی و حریمه لا بدّ قبل أی شیء أن یذکرن-من خلال الوعظ و الإرشاد-بمسئولیاتهنّ و واجباتهنّ و نتائج العصیان و النشوز.

۲-الهجر فی المضاجع

و تأتی هذه المرحله إذا لم ینفع الوعظ و لم تنجع النصیحه وَ اهْجُرُوهُنَّ فِی الْمَضاجِعِ ،و بهذا الموقف و الهجر و عدم المبالاه بالزوجه أظهروا عدم الرضا من الزوجه،لعل هذا الموقف الخفیف یؤثر فی أنفسهنّ.

۳-الضرب:

و أمّا إذا تجاوزن فی عصیانهنّ،و التمرد علی واجباتهنّ و مسئولیاتهنّ الحدّ، و مضین فی طریق العناد و اللجاج دون أن یرتد عن بالأسالیب السابقه،فلا النصیحه تفید،و لا العظه تنفع،و لا الهجر ینجح،و لم یبق من سبیل إلاّ استخدام العنف، فحینئذ یأتی دور الضرب ف اِضْرِبُوهُنَّ لدفعهنّ إلی القیام بواجباتهنّ الزوجیه لانحصار الوسیله فی هذه الحاله فی استخدام شیء من العنف،و لهذا

۱- ۱) -«النشوز»من نشز(علی وزن نذر)یعنی الأرض المرتفعه،و یکنی به هنا عن الطغیان و الترفع.

سمح الإسلام فی مثل هذه الصوره بالضغط علیهنّ و دفعهنّ إلی القیام بواجباتهنّ من خلال التنبیه الجسدی.

اشکال:

یمکن أن یعترض معترض فی هذا المقام قائلا:کیف سمح الإسلام للرجال بأن یتوسلوا بأسلوب التنبیه الجسدی المتمثل بالضرب؟

الجواب:

إنّ الجواب علی هذا الاعتراض یبدو غیر صعب بملاحظه معنی الآیه و الروایات الوارده لبیان مفادها و ما جاء فی توضیحها فی الکتب الفقهیه،و أیضا بملاحظه ما یعطیه علماء النفس الیوم من توضیحات علمیه فی هذا المجال، و نلخص بعض هذه الأمور فی نقاط:

أوّلا:إنّ الآیه تسمح بممارسه التنبیه الجسدی فی حق من لا یحترم وظائفه و واجباته،الذی لا تنفع معه أیه وسیله أخری،و من حسن الصدف أن هذا الأسلوب لیس بأمر جدید خاص بالإسلام فی حیاه البشر،فجمیع القوانین العالمیه تتوسل بالأسالیب العنیفه فی حق من لا تنجح معه الوسائل و الطرق السلمیه لدفعه إلی تحمل مسئولیاته و القیام بواجباته،فإن هذه القوانین ربّما لا تقتصر علی وسیله الضرب،بل تتجاوز ذلک-فی بعض الموارد الخاصّه-إلی ممارسه عقوبات أشد تبلغ حدّ الإعدام و القتل.

ثانیا:إنّ التّنبیه الجسدی المسموح به هنا یجب أن یکون خفیفا،و أن یکون الضرب ضربا غیر مبرح،أی لا یبلغ الکسر و الجرح،بل و لا الضرب البالغ حد السواد کما هو مقرر فی الکتب الفقهیه.

ثالثا:إنّ علماء التحلیل النفسی-الیوم-یرون أن بعض النساء یعانین من حاله نفسیه هی «المازوخیه»التی تقتضی أن ترتاح المرأه لضربها و أن هذه الحاله قد تشتد فی المرأه إلی درجه تحس باللّذه و السکون و الرضا إذا ضربت

ضربا طفيفا.

و على هـذا يمكن أن تكون هـذه الوسـيله ناظره إلى مثل هؤلاء الأفراد الـذين يكون التنبيه الجسدى الخفيف بمثابه علاج نفسـى لهم.

و من المسـلم أنّ أحـد هذه الأساليب لو أثر فى المرأه الناشـزه و دفعها إلى الطاعه،و عادت المرأه إلى القيام بوظائفها الزوجيه لم يحق للرجل أن يتعلل على المرأه،و يعمـد إلى إيـذائها،و مضايقتها حتى تعود إلى جاده الصواب و اسـتقامت فى سـلوكها و لهـذا عقب سبحانه على ذكر المراحل السابقه بقوله: فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً .

و لو قيل:إن مثل هـذا الطغيان و العصـيان و التمرد على الواجبات الزوجيه و العائليه قد يقع من قبل الرجال أيضا،فهل تشـمل هذه المراحـل الرجال أيضا؟ أى أ يمكن ممارسه هـذه الأمور ضـد الرجل كـذلك،أم لا؟ نقول فى الإجابه على ذلك:نعم إنّ الرجال العصاه يعاقبون حتى بالعقوبه الجسـديه أيضا-كما تعاقب النساء العاصـيات الناشـزات-غايه ما هنالك أن هـذه العقوبات حيث لا تتيسـر للنساء،فإن الحاكم الشـرعى مكلف بأن يذكر الرجال المتخلفين بواجباتهم وظائفهم بالطرق المختلفه و حتى بالتعزير(الذى هو نوع من العقوبه الجسديه).

و قصّه الرجل الـذى أجحف فى حق زوجته و رفض الخضوع للحق،فعمـد الإمام على عليه السّـلام إلى تهديـده بالسـيف و حمله على الخضوع،معروفه.

ثمّ أنّ اللّه سـبحانه ذكّر الرجـال مرّه أخرى فى ختـام الآـيه بأن لا يسـيئوا اسـتخدام مكانتهم كقيمين على العائله فيجحفوا فى حق أزواجهم،و أن يفكروا فى قدره اللّه التى هى فوق كل قدره إِنَّ اللّهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً .

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۳۵]

اشاره

وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقٰاقَ بَیْنِهِمٰا فَابْعَثُوا حَکَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَکَماً مِنْ أَهْلِهٰا إِنْ یُرِیدٰا إِصْلاٰحاً یُوَفِّقِ اَللّٰهُ بَیْنَهُمٰا إِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ عَلِیماً خَبِیراً (۳۵)

التّفسیر

اشاره

محکمه الصّلح العائلیه:

فی هـذه الآیه إشاره إلی مسأله ظهور الخلاف و النزاع بین الزوجین،فهی تقول: وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقٰاقَ بَیْنِهِمٰا فَابْعَثُوا حَکَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَکَماً مِنْ أَهْلِهٰا لیتفاوضا و یقربا من أوجه النظر لـدی الزوجین،ثمّ یقول تعالی: إِنْ یُرِیدٰا إِصْلاٰحاً یُوَفِّقِ اللّٰهُ بَیْنَهُمٰا أی ینبغی أن یدخل الحکمان المندوبان عن الزوجین فی التفاوض بنیّه صالحه و رغبه صادقه فی الإصلاح،فإنّهما إن کانا کذلک أعانهما اللّه و وفق بین الزوجین بسببهما.

و من أجل تحذیر(الحکمین)و حثّهما علی استخدام حسن النّیه،یقول سبحانه فی ختام هذه الآیه: إِنَّ اللّٰهَ کٰانَ عَلِیماً خَبِیراً .

إنّ محکمه الصلح العائلیه التی أشارت إلیها الآیه الحاضره،هی إحدی مبتکرات الإسلام العظیمه،فإن هذه المحکمه تمتاز بمیزات تفتقر إلیها المحاکم

الاخری،من جملتها.

۱-إن البیئه العائلیه بیئه عاطفیه،و لـذلک فإن المقیاس الذی یجب أن یتبع فی هذه البیئه،یختلف عن المقاییس المتبعه فی البیئات الاـخری،یعنی کمـا أنّه لاـ یمکن العمـل فی«المحـاکم الجنـائیه»بمقیـاس المحبّه و العاطفه،فإنّه لا یمکن-فی البیئه العائلیه-العمل بمقیـاس القـوانین الجافه.الضوابـط الصـارمه الخـالیه عـن روح العـاطفه،فهنـا یجب حـل الخلافـات العـائلیه بـالطرق العـاطفیه حدّ الإمکان،و لهذا یأمر القرآن الکریم أن یکون الحکمان فی هذه المحکمه ممن تربطهم بالزوجین رابطه النسب و القرابه لیمکنهما تحریک المشاعر و العواطف باتجاه الإصـلاح بین الزوجین،و من الطبیعی أن تکون هـذه المیزه هی میزه هـذا النوع من المحاکم خاصّه دون بقیه المحاکم الاخری.

۲-إنّ المـدعی و المـدعی علیه فی المحـاکم العـادیه القضـائیه مضـطرین- تحت طائله الـدفاع عن النفس-أن یکشـفا عن کل ما لدیهما من الأسرار،و من المسلم أنّ الزوجین لو کشفا عن الأسرار الزوجیه أمام الأجانب و الغرباء لجرح کل منهما مشاعر الطرف الآـخر،بحیث لو اضـطر الزوجـان أن یعودا-بحکم المحکمه-إلی البیت لما عادا إلی ما کانا علیه من الصـفاء و المحبه السالفه،بل لبقیا یعیشان بقیه حیاتهما کشخصـین غریبین مجبرین علی القیام بوظائف معینه، و لقـد دلّت التجربه و أثبتت أنّ الزوجین اللـذین یضطران إلی التحاکم إلی مثل هذه المحاکم لحل ما بینهما من الخلاف لم یعودا ذینک الزوجین السابقین.

بینما لا تطرح أمثال هذه الأمور فی محاکم الصـلح العائلیه للاسـتحیاء من الحضور،أو إذا اتفق أن طرحت هذه الأمور فإنّها تطرح فی جو عائلی،و أمام الأقرباء فإنّها لن تنطوی علی ذلک الأثر السیء الذی أشرنا إلیه.

۳-إنّ الحکمین فی المحـاکم العـادیه المتعـارفه لاـ یشـعران عاده بالمسؤولیه الکامله فی قضایا الخلاف و المنازعات،و لا تهمهما کیفیه انتهاء القضیه المرفوعه

ص :۲۲۳

إلى المحكمه،هل يعود الزوجان إلى البيت على وفاق،أو ينفصلا مع طلاق؟ فى حين أنّ الأمر فى محكمه الصلح العائليه على العكس من ذلك تماما، فإن الحكمين فى هذه المحكمه حيث يرتبطان بالزوجين برابطه القرابه،فإن لافتراق أو صلح الزوجين أثرا كبيرا فى حياه الحكمين من الناحيه العاطفيه، و من ناحيه المسؤوليات الناشئه عن ذلك،و لهذا فإنّهما يسعيان-جهد إمكانهما- أن يتحقق الصلح و السلام و الوفاق و الوئام بين الزوجين اللذين يمثلانهما،و أن يعيدا المياه إلى مجاريها كما يقول المثل.

۴-مضافا إلى كلّ ذلك فإن مثل هذا المحكمه لا تعانى من أيه مشكلات، و لا تحتاج إلى أيه ميزانيات باهظه،و لا تعانى من تلك الخساره و الضياع الذى تعانى منه المحاكم العاديه،فهى تستطيع أن تقوم بأهدافها و تحقق أغراضها من دون أيه تشريفات و فى أقل مدّه من الزمن.

و لا يخفى أنّه يجب أن يختار الحكمان من بين الأشخاص المحنّكين المطلعين المعروفين،فى عائلتى الزوجين بالفهم و حسن التدبير.

مع هذه المميزات التى عددناها يتبيّن أنّ هذه المحكمه تحظى بفرصه للإصلاح بين الزوجين.

إنّ مسأله الحكمين و ما يشترط فيهما من الشروط،و مدى صلاحيتهما و ما يحكمان به فى مجال الزوجين،قد ذكر فى الكتب الفقهيه بالتفصيل،منها أن يكون الحكمان بالغين عاقلين عادلين بصيرين بعملهما.

و أمّا مدى نفوذ حكمهما فى حق الزوجين،فقد ذهب بعض الفقهاء إلى نفوذ كل ما يصدر أنّه من حكم فى هذا المجال،و ظاهر التعبير به«حكم»فى الآيه الحاضره يفيد هذا المعنى أيضا،لأن مفهوم الحكميه و القضاء هو نفوذ الحكم مهما كان،و لكن أكثر الفقهاء يرون نفوذ ما يراه الحكمان فى مورد التوفيق بين

الزوجين و رفع الاختلاف و النزاع بينهما،بل يرون نفوذ ما يشترطه الحكمان على الزوجين،و أمّا حكمهما فى مجال الطلاق و الإفتراق بين الزوجين فغير نافذ لوحده،و ذيل الآيه الذى يشير إلى مسأله الإصلاح أكثر ملاءمه مع هذا الرأى، و للتوسع فى هذا المجال يجب مراجعه الكتب الفقهيه.

ص :۲۲۵

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۳۶]

اشاره

وَ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ وَ لاٰ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً وَ بِذِي اَلْقُرْبىٰ وَ اَلْيَتٰامىٰ وَ اَلْمَسٰاكِينِ وَ اَلْجٰارِ ذِي اَلْقُرْبىٰ وَ اَلْجٰارِ اَلْجُنُبِ وَ اَلصّٰاحِبِ بِالْجَنْبِ وَ اِبْنِ اَلسَّبِيلِ وَ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ مَنْ كٰانَ مُخْتٰالاً فَخُوراً (۳۶)

التّفسیر

اشاره

الآیه الحاضره تبیّن سلسله من الحقوق الإسلامیه بما فیها الحقوق الإلهیه، و حقوق العباد،و آداب العشره مع الناس،و یستفاد منها عشره تعالیم:

۱-و اعبدوا اللّه و لا تشرکوا به شیئا

إنّ الآیه تدعو الناس قبل أی شیء إلی عباده اللّه و الخضوع له وحده،و ترک الشرک و الوثنیه التی هی أساس کل البرامج و المناهج الإسلامیه.

إنّ الدّعوه إلی التوحید و عباده اللّه وحده تطهر الروح،و تخلص النیه،و تقوی الإراده،و تشدد من عزیمه الإنسان علی الإتیان بأی برنامج مفید.

و حیث أنّ الآیه الحاضره تبیّن سلسله من الحقوق الإسلامیه لذلک فقد

أشارت إلى حقّ اللّه على الناس قبل أى شىء و قبل أى حقّ و قالت: وَ اعْبُدُوا اللّهَ وَ لاٰ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً .

۲-و بالوالدين إحسانا

ثمّ إنّها تشير إلى حقّ الوالدين و توصى بالإحسان إليهما و لا شك أنّ حقّ الوالدين من القضايا التى يهتمّ بها القرآن الكريم كثيرا،و قلّما حظى موضوع بمثل هذا الاهتمام و العنايه،فقد جاءت التوصيه بالوالدين بعد الدعوه إلى التوحيد فى العباده فى أربعه مواضع فى القرآن الكريم (۱) .

من هذه التعابير المتكرره يستفاد أن ثمّه ارتباطا بين هاتين المسألتين، و القضيه فى الحقيقه كالتالى:حيث إن أكبر نعمه هى نعمه الوجود و الحياه و هى مأخوذه من جانب اللّه سبحانه فى الدرجه الأولى،فيما ترتبط بالوالدين فى الدرجه الثانيه،لأنّ الولد جزء من وجود الوالدين،لذلك كان ترك حقوق الوالدين و تجاهلها،فى مصاف الشرك باللّه سبحانه.

هذا و لنا أبحاث مفصله حول حقوق الوالدين فى ذيل الآيات المناسبه فى سوره الإسراء و لقمان بإذن اللّه تعالى.

۳-و بذى القربى

ثمّ أنّها توصى بالإحسان إلى كلّ الأقرباء،و هذا الموضوع من المسائل التى يهتم بها القرآن الكريم اهتماما بالغا تاره تحت عنوان«صله الرحم»و أخرى بعنوان«الإحسان إلى القربى»و قد أراد الإسلام بهذا-فى الحقيقه-أن يقوى من أواصر العلاقه الواسعه بين جميع أفراد البشر مضافا إلى إيجاد أواصر و علاقات أقوى و أمتن منها فى الوحدات الاجتماعيه التى هى أكثر انسجاما مثل

۱- ۱) -سوره البقره،الآيه ۸۳،سوره الأنعام،الآيه ۱۵۱،سوره الإسراء،الآيه ۲۳ مضافا إلى الآيه الحاضره.

«العشيره»و«العائله»ليستطيعوا التعاون فى ما بينهم عند ظهور المشاكل و الحوادث،و التعاون على الدفاع عن حقوقهم.

۴-و اليتامى

ثمّ أشارت إلى حقوق«اليتامى»و أوصت المؤمنين ببرهم و الإحسان إليهم، لأنّه يوجد فى كل مجتمع أطفال أيتام على أثر الحوادث المختلفه،لا يهدد تناسيهم و إهمالهم وضعهم الخاص فقط،بل الوضع الاجتماعى بصوره عامّه،لأنّ الأطفال اليتامى لو تركوا دون ولايه أو حمايه و لم ينالوا حاجتهم من المحبّه و اللطف يتحولون إلى أفراد منفلتين فاسدين،بل أشخاص خطرين جناه.

و على هذا يكون الإحسان إلى اليتامى إحسانا إلى الفرد و إلى المجتمع معا.

۵-و المساكين

ثمّ يذكّر سبحانه-فى هذه الآيه-بحقوق الفقراء و المساكين،لأنّه قد يوجد حتى فى المجتمع السليم الذى يسوده العدل من يعانى من نواقص و عاهات تعوقه عن الحركه و النشاط و الفعاليه،و لا شك أنّ تناسى هؤلاء أمر يخالف كل الأسس و القيم الإنسانيه،فلا بدّ من تقديم العون إليهم،و معالجه حرمانهم.

و أمّا إذا كان الفقر و الحرمان الذى يعانى منه الأفراد الأصحاء ناشئين عن الانحراف عن مبادئ و أسس العداله الاجتماعيه فإنّه لا بدّ من مكافحتهما أيضا.

۶-و الجار ذى القربى

ثمّ يوصى بالجيران من ذوى القربى،و هناك احتمالات متعدده حول المراد من«الجار ذى القربى»أبداها المفسرون،فبعضهم قال:معناه الجار القريب فى النسب،غير أن هذا التّفسير يبدو بعيدا بملاحظه العبارات السابقه التى أشارت

إلی حقوق الأقرباء فی هذه الآیه،فلا بدّ أن یکون المراد هو القرب المکانی لا القرب النسبی،لأن الجیران الأقربین مکانا یستحقون احتراما و حقوقا أکثر من غیرهم،أو أن یکون المراد الجیران الأقربین إلی الإنسان من الناحیه الدینیه و الاعتقادیه.

۷-و الجار الجنب

ثمّ إنها توصی بالجیران البعیدین،و المراد-کما أسلفنا-هو البعد المکانی، لأنّ کل أربعین دارا من بین یدیه و خلفه و عن یمینه و شماله تعتبر من الجیران، کما تصرح بعض الروایات (۱) ،و هذا یستوعب فی المدن الصغیره کل المدینه تقریبا(لأنّنا لو فرضنا دار کل شخص مرکز دائره یقع فی امتداد شعاعها من کل صوب أربعون بیتا لاتّضحت من خلال محاسبه بسیطه مساحه هذه الدائره التی یکون مجموع البیوت الواقعه فیها ما یقرب من خمسه آلاف بیت،و من المسلم أن المدن الصغیره قلّما تتشکل من أکثر من هذا العدد من المنازل و البیوت.

و الجدیر بالتأمل أنّ القرآن یصرّح-فی هذه الآیه-مضافا إلی ذکر الجیران القربین-بحقّ الجیران البعیدین،لأنّ لفظه الجار لها فی العاده مفهوم محدود و ضیق و تشمل الجیران القریبین فقط،و لهذا لم یکن بدّا فی نظر الإسلام أن یذکر بالجیران البعیدین أیضا.

کما یمکن أن یکون المراد من الجیران البعیدین الجیران غیر المسلمین،لأنّ حقّ الجوار غیر منحصر فی نظر الإسلام بالجیران المسلمین،فهو یعمّ المسلمین و غیر المسلمین(اللّهم إلاّ الذین یحاربون المسلمین و یعادونهم).

إنّ لحقّ الجوار فی الإسلام أهمیّه بالغه إلی درجه أنّنا نقرأ

فی وصایا الإمام أمیر المؤمنین علیه السّلام المعروفه: «ما زال(رسول اللّه)یوصی بهم حتی ظننا أنّه

۱- ۱) -نور الثقلین،ج ۱،ص ۴۸۰.

سیورثهم» (1) (و قد ورد هذا الحدیث فی مصادر أهل السنه أیضا فقد روی فی تفسیر المنار و تفسیر القرطبی من البخاری مثل هذا المضمون عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أیضا).

و

روی فی حدیث آخر عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال ذات یوم«و اللّه لا یؤمن و اللّه لا یؤمن و اللّه لا یؤمن،فقیل:یا رسول اللّه و من؟قال:الذی لا یأمن جاره بوائقه» (2) .

کما نقرأ فی حدیث آخر أیضا

أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من کان یؤمن باللّه و الیوم الآخر فلیحسن إلی جاره» (3) .

و

روی عن الإمام الصّادق جعفر بن محمّد علیهما السّلام أنّه قال: «حسن الجوار یعمر الدّیار و یزید فی الأعمار» (4) .

فی عالمنا المادی حیث لا یعرف الجار عن جاره شیئا،بل و ربّما لا یتعرف علی اسم صاحبه بعد عشرین سنه من الجیره و الجوار یتألّق هذا التعلیم الإسلامی فی حق الجار بشکل خاص،فإنّ الإسلام یقیم للعلاقات العاطفیه و التعاون الإنسانی وزنا خاصّا،و یولیها اهتماما کبیرا،فی حین تؤول هذه العلاقات و العواطف فی الحیاه الصناعیه المادیه إلی الزوال یوما بعد یوم،و تعطی مکانها إلی القسوه و الجفاء و الخشونه.

۸-و الصّاحب بالجنب

ثمّ أوصت بالرّفیق و الصّاحب،غیر أنّه لا بدّ من الانتباه إلی أنّ ل«الصاحب بالجنب»معنی أوسع من الرفیق و الصدیق المتعارف،و فی الحقیقه تشمل کل من رافق أو صاحب الإنسان مرافقه ما سواء کان صدیقا دائما أو صدیقا مؤقتا

۱- ۱) -تفسیر القرطبی،ج ۳،ص ۱۷۵۴.

۲- ۲) -تفسیر المنار،ج ۵،ص ۱۹۲،طبعه بیروت.

۳- ۳) -تفسیر الصافی،ص ۱۳۰.

۴- ۴) -تفسیر الصافی،ص ۱۲۰.

(كالـذى يرافـق الإنسـان فى السـفر بعض الوقت)و تفسـير لفظه«لصـاحب بـالجنب» فى بعض الروايـات بـالرفيق مثـل«رفيقـك فى السـفر»أو الذى يقصد الإنسان رجاء نفعه مثل:(المنقطع إليك يرجو نفعك»ليس المراد هو اختصاص هذا العنوان بهم،بل هو نوع من التوسـعه فى مفهوم هـذه اللفظه بحيث تشـمل هـذه الموارد أيضـا،و بهـذا الطريق تكون هـذه الآـيه أمرا كليـا و جامعا بحسـن معاشره كل من يرتبط بالمرء، سواء كان صديقا واقعيا،أو زميلا،أو رفيق سفر،أو مراجعا،أو تلميذا،أو مشاورا،أو خادما.

و قد فسـرت لفظه الصاحب بالجنب فى بعض الروايات بالزّوجه،و قد روى صاحب تفسير المنار،و تفسير روح المعانى و القرطبى فى ذيل هذه الآيه هذا المعنى عن على عليه السّلام، و لكن لا يبعد أن يكون هذا من باب بيان أحد المصاديق أيضا.

٩-و ابن السبيل

و أمّا الصـنف الآخر الذى أوصت بهم الآيه هنا فهم الذين تحدث لهم حاجه السـفر و بلاد الغربه،فابن السبيل هو الذى ينقطع فى السـفر و إن كان يمكن أن يكون متمكّنا ذا مال فى بلده،و التعبير عن هذا الشخص بابن السبيل(أى ابن الطريق)إنّما هو لأجل أنّنا لا نعرفهم أصـلا حتى ننسـبهم إلى عائله أو قبيله أو شـخص،بل لا بدّ أن نحميهم بمجرّد أنّهم مسافرون انقطعوا فى السفر،و برزت لديهم حاجه إلى المساعده و العون.

١٠-و ما ملكت أيمانكم

و فى نهايه المطاف توصـى هـذه الآيه بالإحسان إلى العبيد و الأرقاء،و بهذا تكون الآيه-فى الحقيقه-قد بدأت بحق اللّه،و ختمت بحقوق العبيد،لعدم انفصال هذه الحقوق بعضها عن بعض.

على أنّ هذه الآيه ليست هى الآيه الوحيده التى توصى بالعبيد،بل لقد بحثت هذه المسأله فى آيات مختلفه أخرى أيضا.

هـذا مضافا إلى أنّ الإسـلام قـد نظم برنامجا دقيقا لتحرير العبيـد تدريجا، و الذى يؤول فى النتيجه إلى تحريرهم المطلق،و سوف نتحدّث حول هذه المسأله فى ذيل الآيات المناسبه إن شاء اللّه تعالى.

ثمّ إنّه سبحانه يقول فى ختام هـذه الآيه إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ مَنْ كٰانَ مُخْتٰالاً فَخُوراً و هو بذلك يحذر كل من يتمرّد و يعصى أوامر اللّه،و يتقاعس عن القيام بحقوق أقربائه و والديه و اليتامى و المساكين و ابن السبيل و الأصدقاء و الأصحاب بدافع التكبر بأنّه سيكون معرضا لسخط اللّه،و سيحرم من عنايته سبحانه،و لا ريب أنّ من حرم من اللطف الإلهى و العنايه الرّبانيه حرم من كل خير و سعاده.

و تؤيد هذا المعنى روايات و أخبار قد رويت فى ذيل هذه الآيه منها ما

عن أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث قال: كنت عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقرأ هذه الآيه إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتٰالٍ فَخُورٍ فذكر الكبر فعظمه،فبكى ذلك الصحابى فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:ما يبكيك؟فقال يا رسول اللّه:إنّى لأحب الجمال حتى أنّه ليعجبنى أن يحسن شراك نعلى قال:«فأنت من أهل الجنّه،أنّه ليس بالكبر أن تحسن راحلتك و رحلك،و لكن الكبر من سفه الحقّ و غمص الناس» (۱) .

و الخلاصه أنّ ما يستفاد من العباره الاخيره أنّ مصدر الشرك و هضم حقوق الآخرين هو الانانيه و التكبر غالبا،و لا يتسنى للشخص أداء تلك الحقوق، و خاصّه حقوق الأيتام و المساكين و الأرقاء إلاّ من تحلّى بروح التواضع و نكران الذات (۲) .

۱- ۱) -غمص الناس:احتقرهم و استصغرهم و لم يرهم شيئا.انظر لسان العرب(غمص).

۲- ۲) -«مختال»من ماده«خيال»حيث يرى الشخص نفسه بسبب بعض المتخيلات عظيما و كبيرا،و سمى الخيل خيلا لأن مشيته تشبه مشيه المتكبر،«فخور»من ماده«فخر»و الفرق بينها و بين الأولى ان المختال اشاره إلى تخيلات الكبر فى مجالها الذهنى و الاخرى يراد بها الأعمال الصادره عن كبر فى المجال الخارجى.

الآیات [سوره النساء (۴): الآیات ۳۷ الی ۳۹]

اشاره

اَلَّذِینَ یَبْخَلُونَ وَ یَأْمُرُونَ اَلنّاسَ بِالْبُخْلِ وَ یَکْتُمُونَ ما آتاهُمُ اَللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَعْتَدْنا لِلْکافِرِینَ عَذاباً مُهِیناً (۳۷) وَ اَلَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ اَلنّاسِ وَ لا یُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ لا بِالْیَوْمِ اَلْآخِرِ وَ مَنْ یَکُنِ اَلشَّیْطانُ لَهُ قَرِیناً فَساءَ قَرِیناً (۳۸) وَ ما ذا عَلَیْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللّهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ وَ أَنْفَقُوا مِمّا رَزَقَهُمُ اَللّهُ وَ کانَ اَللّهُ بِهِمْ عَلِیماً (۳۹)

التّفسیر

اشاره

الإنفاق ریاء و الإنفاق قربه:

الآیه الأولی من هذه الآیات الثلاث-هی فی الحقیقه-تعقیب علی الآیات السابقه و إشاره إلی المتکبرین إذ تقول: اَلَّذِینَ یَبْخَلُونَ وَ یَأْمُرُونَ النّاسَ بِالْبُخْلِ هذا مضافا إلی أنّهم یسعون دائما أن یخفوا عن الآخرین ما تفضل اللّه علیهم به من الخیر کیلا یتوقع المجتمع منهم شیئا وَ یَکْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ .

ثمّ یقول عن نهایه هذا الفرق من الناس و عاقبه أمرهم: وَ أَعْتَدْنا لِلْکافِرِینَ عَذاباً مُهِیناً و لعل السرّ فی استخدام هذا التعبیر فی حق هذه الطائفه هو أن

«البخل»ينبع فى الغالب من الكفر،لأنّ البخلاء لا يمتلكون الإيمان الكامل بالمواهب الربانيه المطلقه و الوعود الإلهيه العظيمه للمحسنين.إنّهم يتصورون أنّ مساعده الآخرين و تقديم العون إليهم يجرّ إليهم التعاسه و الشقاء.

و أمّا الحديث عن الخزى فى عذاب هؤلاء،فلأن الجزاء المناسب للتكبر و الاستكبار هو العذب المهين.

ثمّ إنّه لا بدّ من الالتفات إلى أنّ البخل لا يختص بالأمور الماليه،بل يشمل كل نوع من أنواع الموهبه الإلهيه،فثمّه كثيرون لا يعانون من صفه البخل الذميمه فى المجال المالى،و لكنّهم يبخلون عن بذل العلم أو الجاه أو الأمور الاخرى من هذا القبيل.

ثمّ إن اللّه سبحانه يذكر صفه أخرى من صفات المتكبرين إذ يقول: وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النّاسِ وَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ إنّهم ينفقون أموالهم لا فى سبيل اللّه و كسب رضاه،بل مراءاه الناس لكسب السمعه و جلب الشهره و الجاه،و بالتالى ليس هدفهم من الإنفاق هو خدمه الناس و كسب رضا اللّه سبحانه،و لهذا فإنّهم لا يتقيدون فى من ينفقون عليه بملاك الاستحقاق،بل يفكرون دائما فى أنّه كيف يمكنهم أن يستفيدوا من إنفاقاتهم و يحققوا ما يطمحون إليه من أغراض شخصيه،و أهداف خاصّه،كتقويه نفوذهم و تكريس موقعهم فى المجتمع مثلا،لأنهم لا يؤمنون باللّه و اليوم الآخر،و لهذا السبب يفتقر إنفاقهم إلى الدافع المعنوى الذى ينبغى توفره فى الإنفاق،بل دافعهم هو الوصول إلى الشّهره و الشّخصيه الكاذبه المزيفه من هذا السبيل،و هذا هو أيضا من آثار التكبر و نتائج الأنانيه.

إنّ هؤلاء اختاروا الشّيطان رفيقا و قرينا لهم: مَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً إنّه لن يكون له مصير أفضل من مصير الشّيطان،لأنّ منطقهم هو منطق الشيطان،و سلوكهم سلوكه سواء بسواء،إنّه هو الذى يقول لهم:إنّ الإنفاق

بإخلاص يوجب الفقر اَلشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ (۱) و لهذا فإمّا أن يبخلوا و يمتنعوا عن الإنفاق و البذل(كما أشير إلى هذا فى الآيه السابقه)أو أنّهم ينفقون إذا ضمن هذا الإنفاق مصالحهم الشخصيه و عاد عليهم بفوائد شخصيه(كما أشير إلى ذلك فى الآيه الحاضره).

من هذه الآيه يستفاد مدى ما للقرين السىء من الأثر فى مصير الإنسان، ذلك الأثر الذى ربّما يبلغ فى آخر المطاف إلى السقوط الكامل.

كما يستفاد أنّ علاقه«المتكبرين»ب«الشيطان و الأعمال الشيطانيه»علاقه مستمره و دائمه لا مؤقته و لا مرحليه،ذلك لأنّهم اختاروا الشيطان قرينا و رفيقا لأنفسهم.

و هنا يقول سبحانه و كأنّه يتأسف على أحوال هذه الطائفه من الناس وَ ما ذا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَنْفَقُوا مِمّا رَزَقَهُمُ اللّهُ... أى شىء عليهم لو تركوا هذا السلوك و عادوا إلى جاده الصواب و أنفقوا ممّا رزقهم اللّه من الخير و النعمه فى سبيل اللّه،بإخلاص لا رياء،و كسبوا بذلك رضا اللّه،و تعرضوا للطفه و عنايته،و أحرزوا سعاده الدنيا و الآخره؟ فلما ذا لا يفكر هؤلاء و لا يعيدون النظر فى سلوكهم؟و لما ذا ترى يتركون طريق اللّه الأنفع و الأفضل و يختارون طريقا أخرى لا تنتج سوى الشقاء،و لا تنتهى بهم إلاّ إلى الضرر و الخسران؟ و على كل حال فإنّ اللّه يعلم بأعمالهم و نواياهم و يجزيهم بما عملوا: وَ كانَ اللّهُ بِهِمْ عَلِيماً .

و الجدير بالانتباه أنّ الإنفاق فى الآيه السابقه التى كان الحديث فيها حول الإنفاق مراءاه نسب إلى الأموال يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ ،و فى هذه الآيه نسب إلى مِمّا رَزَقَهُمُ اللّهُ ،و هذا التفاوت و الاختلاف فى التعبير يمكن أن يكون إشاره إلى

۱- ۱) -البقره،۲۶۸.

ثلاث نقاط:

أوّلا-:إنّه فى الإنفاق رياء لا تلحظ حلّيه المال و حرمته،فى حين تلحظ فى الإنفاق للّه حلّيه المال و أن يكون مصداق مِمّا رَزَقَهُمُ اللّهُ .

ثانيا:إنّه فى الإنفاق رياء حيث أنّهم يحسبون أنّ المال الذى ينفقونه خاص بهم،لذلك فهم لا يمتنعون عن الكبر و المنّ،فى حين أنّ المنفقين للّه حيث يعتقدون بأنّ اللّه هو الذى رزقهم ما يملكون من المال،و أنّه لا مجال للمنّ إذا هم أنفقوا شيئا من ذلک،و لذلک يمتنعون من الكبر و السنّ.

ثالثا:إنّ الإنفاق رياء ينحصر غالبا فى المال،لأنّ أمثال هؤلاء محرمون من أى رأسمال معنوى لينفقوا منه،و لكن الإنفاق لوجه اللّه تتسع دائرته فتشمل كل المواهب الإلهيه من المال،و العلم و الجاه،و المكانه الاجتماعيه و ما شابه ذلک من الأمور الماديه و المعنويه.

ص :۲۳۶

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۴۰]

اشاره

إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یَظْلِمُ مِثْقٰالَ ذَرَّهٍ وَ إِنْ تَکُ حَسَنَهً یُضٰاعِفْهٰا وَ یُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِیماً (۴۰)

التّفسیر

اشاره

ما هی«الذّره»؟:

«الذّره»فی الأصل هی النمله الصغیره التی لا تری،و قال البعض:هی من أجزاء الهباء و الغبار فی الکوّه التی تظهر عند دخول شعاع الشمس خلالها،و قیل أیضا أنّه الغبار الدقیق المتطایر من یدی الإنسان إذا جعلهما علی التراب و ما شابهه ثمّ نفخهما.

و لکنّها أطلقت تدریجا علی کل شیء صغیر جدّا،و تطلق الآن و یراد منها ما یتکون من الإلکترون و البروتون أیضا.لأنّها إذا کانت تطلق سابقا علی أجزاء الغبار،فلأن تلک الأجزاء کانت أصغر أجزاء الجسم،و لکن حیث ثبت الیوم أنّ أصغر أجزاء«الجسم المرکب»هو«المولوکول»أو الجزئیه،و أصغر أجزاء «الجسم البسیط»هو«الذّرات»،اختیرت لفظه«الذّره»فی الاصطلاح العلمی علی تلک الجزئیات التی لا تری بالعین المجرّده،بل لا یمکن أن تری حتی بأقوی المیکروسکوبات الإلکترونیه،و إنّما یحسّ بوجودها من خلال القوانین و المعادلات العلمیه و التصویر بآلات مزوده بأدقّ الأجهزه و أقواها،و حیث أن

«مثقال»يعنى الثقل،فإنّ التعبير بمثقال ذره يعنى جسما فى غايه الدقه و الصغر.

إنّ الآيه الحاضره تقول:إنّ اللّه لا يظلم قط زنه ذره،بل يضاعف الحسنه إذا قام بها أحد،و يعطى من لدنه على ذلك أجرا عظيما: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَظْلِمُ مِثْقٰالَ ذَرَّهٍ وَ إِنْ تَکُ حَسَنَهً يُضٰاعِفْهٰا وَ يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً .

إنّ هذه الآيه-فى الحقيقه-تقول للكافرين الذين يبخلون و الذين مرّ الحديث عن أحوالهم فى الآيات السابقه:إنّ العقوبات التى تصيبكم ما هى فى الحقيقه إلاّ جزاء ما قمتم به من الأعمال،و أنّه لا يصيبكم أى ظلم من جانب اللّه، بل لو أنّكم تركتم الكفر و البخل و سلكتم طريق اللّه لنلتم المثوبات العظيمه المضاعفه.

ثمّ أنّه لا بدّ من الانتباه إلى أن لفظه«ضعف»و«المضاعف»تعنى فى اللغه العربيه ما يعادل الشىء أو يربو عليه مرّات عديده،و على هذا الأساس لا تنافى هذه الآيه الآيات الاخرى التى تقول:إن أجر الإنفاق قد يصل إلى عشره أضعاف، و قد يصل إلى سبعمائه مرّه....

و على أى حال فإنّها تحكى عن لطف اللّه بالنسبه إلى عباده،حيث لا يعاقبهم على سيئاتهم و ذنوبهم بأكثر ممّا عملوا،بينما يضاعف الأجر بمرات كثيره إذا أتوا بحسنه واحده.

يبقى أن نعرف لما ذا لا يظلم اللّه سبحانه؟فإنّ السبب فيه واضح،لأن الظلم عاده-إمّا ناشئ عن الجهل،و إمّا ناشئ عن الحاجه،و إمّا ناشئ عن نقص نفسى.

و من كان عالما بكل شىء،و كان غنيّا عن كل شىء،و لم يكن يعانى من أى نقص،لا يمكن صدور الظلم منه،فهو لا يظلم أساسا،لا أنّه تعالى لا يقدر على الظلم،و لا أن الظلم غير متصوّر فى حقّه(كما تذهب إليه طائفه من الأشاعره)،بل مع قدرته تعالى على الظلم-لا يظلم أبدا لحكمته و علمه،فهو يضع كل شىء فى عالم الوجود موضعه،و يعامل كل أحد حسب عمله،و طبقا لسلوكه و سيرته.

الآيتان [سوره النساء (۴): الآيات ۴۱ الی ۴۲]

اشاره

فَكَيْفَ إِذٰا جِئْنٰا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنٰا بِكَ عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ شَهِيداً (۴۱) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصَوُا اَلرَّسُولَ لَوْ تُسَوّٰى بِهِمُ اَلْأَرْضُ وَ لاٰ يَكْتُمُونَ اَللّٰهَ حَدِيثاً (۴۲)

التّفسیر

اشاره

شهود یوم القیامه:

تعقیبا علی الآیات السابقه التی کانت تدور حول العقوبات و المثوبات المعدّه للعصاه و المطیعین.جاءت هذه الآیه تشیر إلی مسأله الشهود فی یوم القیامه فتقول: فَكَيْفَ إِذٰا جِئْنٰا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنٰا بِكَ عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ شَهِيداً و هکذا یکون نبی کل أمّه شهیدا علیها،مضافا إلی شهاده أعضاء الإنسان و جوارحه،و شهاده الأرض التی علیها عاش،و شهاده ملائکه اللّه علی أعماله و تصرفاته،و یکون نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو آخر أنبیاء اللّه و رسله و أعظمهم، شاهدا علی أمّته أیضا،فکیف یستطیع العصاه مع هذه الشهود إنکار حقیقه من الحقائق،و تخلیص أنفسهم من نتائج أعمالهم.

ثمّ إنّ نظیر هذا المضمون قد جاء أیضا فی عدّه آیات قرآنیه أخری،منها الآیه(۱۴۳)من سوره البقره، و الآیه(۸۹)من سوره النحل،و الآیه(۷۸)من سوره الحج.

ص :۲۳۹

و الآن يطرح هذا السؤال،و هو:كيف تتمّ شهاده الأنبياء على أعمال أممهم، و كيف تكون؟ إذا كانت كلمه«هؤلاء»إشاره إلى المسلمين كما جاء فى تفسير مجمع البيان،فإن الجواب على هذا السؤال يكون واضحا،لأنّ كل نبىّ ما دام موجودا بين ظهرانى أمّته فهو شاهد على أعمالهم،و بعده يكون أوصياؤه و خلفاؤه المعصومون هم الشهداء على أعمال تلك الأمّه،و لهذا جاء فى حق المسيح عليه السّلام أنّه يقول فى يوم القيامه فى جواب سؤال اللّه سبحانه إيّاه: مٰا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّٰ مٰا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ،وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مٰا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّٰا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۱) .

و لكن بعض المفسرين احتمل أن تكون لفظه«هؤلاء»إشاره إلى شهود الأمم السابقه،يعنى أنّنا نجعلك أيّها النّبى شهيدا على شهداء الأمم من الأنبياء، و قد أشير فى بعض الروايات إلى هذا التّفسير (۲) و على هذا يكون معنى الآيه هكذا:إنّ كل نبىّ شاهد على أعمال أمّته جميعها فى حياته و بعد مماته عن طريق المشاهده الباطنيه و الروحانيه،و هكذا الحال بالنسبه إلى رسول الإسلام،فإنّ روحه الطاهره ناظره-عن هذا الطريق أيضا-على أعمال أمّته و جميع الأمم السابقه،و بهذا الطريق يمكنه أن تشهد على أفعالهم و أعمالهم،بل و حتى الصلحاء من الأمّه و الأبرار الأتقياء منها يمكنهم الاطلاع و الحصول على مثل هذه المعرفه، فيكون المفهوم من كل ذلك وجود روح النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من بدء الخلق،لأنّ معنى الشّهود هو العلم المقترن بالحضور،و لكن هذا التّفسير لا ينسجم مع ما نقل عن السيد المسيح،لأنّ الآيه المذكوره تقول:إنّ المسيح لم يكن شاهدا على أمّته جمعاء،بل كان شاهدا عليها ما دام فى الحياه(فتأمل).

ص:۲۴۰

۱- ۱) -المائده،۱۱۷.

۲- ۲) -راجع تفسير نور الثقلين و البرهان فى ذيل الآيه.

أمّا إذا أخذنا الشهاده بمعنى الشهاده العمليه،يعنى أن تكون أعمال«فرد نموذجى»مقياسا و معيارا لأعمال الآخرين كان التّفسير حينئذ خاليا عن أى إشكال،لأنّ كل نبىّ بما له من صفات متميزه و خصال ممتازه يعدّ خير معيار لأمّته،إذ يمكن معرفه الصالحين و الطالحين بمشابهتهم أو عدم مشابهتهم له، و حيث إن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو أعظم الأنبياء و الرسل الإلهيين كانت صفاته و أعماله معيارا لشخصيه كل الأنبياء و الرسل.

نعم لا يبقى هنا إلّا سؤال واحد هو:هل جاءت الشهاده بهذا المعنى،أم لا؟ بيد أنّه مع الانتباه إلى أنّ أعمال الرجال النموذجيين و تصرفاتهم و أفكارهم تشهد عمليا على أنّه من الممكن أن يرقى إنسان ما إلى هذه الدرجه،و يطوى هذه المقامات و المراحل المعنويه لم يبد مثل هذا المعنى بعيدا فى النظر.

عندئذ يندم الكفار الذين عارضوا الرّسول و عصوه،أى عند ما رأوا بأمّ أعينهم تلك المحكمه الإلهيه العادله،و واجهوا الشهود الذين لا يمكن إنكار شهاداتهم،إنهم يندمون ندما بالغا لدرجه أنّهم يتمنون لو أنّهم كانوا ترابا أو سووا بالأرض كما يقول القرآن الكريم فى الآيه الثانيه من الآيتين الحاضرتين إذ يقول سبحانه: يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوّٰى بِهِمُ الْأَرْضُ .

و قد ورد مثل هذا التعبير فى آخر سوره النبأ إذ يقول تعالى: وَ يَقُولُ الْكٰافِرُ يٰا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرٰاباً .

و لكن لفظه لَوْ تُسَوّٰى تشير إلى مطلب آخر أيضا،و هو:إنّ الكفار مضافا إلى أنّهم يتمنون أن يصيروا ترابا،يحبّون أن تضيع معالم قبورهم فى الأرض أيضا و تسوى بالأرض حتى ينسوا بالمرّه،و لا يبقى لهم ذكر و لا خبر و لا أثر.

إنّهم فى هذه الحاله لا يمكنهم أن ينكروا أيه حقيقه واقعه و لا أن يكتموا شيئا: وَ لاٰ يَكْتُمُونَ اللّٰهَ حَدِيثاً لأنّه لا سبيل إلى الإنكار أو الكتمان مع كل تلكم الشهود.

نعم،لا ينافی هـذا الكلام ما جاء فی الآيات الأخر التی تقول:هناك من الكفار من يكتم الحقائق يوم القيامه أيضا و يكـذبون (۱) لأنّ كذبهم و كتمانهم واقع قبل إقامه الشهود و قيام الشهاده،و أمّا بعد ذلك فلا مجال لأی كتمان،و لا سبيل إلی أی إنكار،بل لا بدّ من الاعتراف بجميع الحقائق.

و

قـد روی عن أمير المؤمنين عليه السّلام فی بعض خطبه أنّه قـال عن يوم القيـامه «ختم علی الأفواه فلا تكلم و تكلمت الأيـدی و شهدت الأرجل و نطقت الجلود بما عملوا فلا يكتمون اللّه حديثا». (۲)

هـذا و يحتمـل بعض المفسـرين أن يكـون المراد مـن لاٰ يَكْتُمُونَ اللّٰهَ حَدِيثاً أنّهم يتمنون لـو أنّهـم لـم يكتمـوا فی الـدنيا أيه حقيقه،خصوصا فی ما يتعلق برسول الإسـلام صلّی اللّه عليه و آله و سلّم،و علی هذا تكون هذه العباره عطفا علی جمله لَوْ تُسَوّٰی بِهِمُ الْأَرْضُ .

و لكن هـذا التّفسـير لا ينجسم مع ظـاهر«لا يكتمون»الـذی هو فعل مضارع، و لو كان المراد ما ذكره هـذا الفريق من المفسـرين لوجب أن يقول:«لم يكتموا».

۱- ۱) -مثل الآيه(۲۲)و(۲۳)من سوره الأنعام،و الآيه(۱۸)من سوره المجادله.

۲- ۲) -تفسير نور الثّقلين،ج ۱،ص ۴۸۲-۴۸۳،نقلا عن تفسير العياشی.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۴۳]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَقْرَبُوا اَلصَّلاٰهَ وَ أَنْتُمْ سُکٰاریٰ حَتّٰی تَعْلَمُوا مٰا تَقُولُونَ وَ لاٰ جُنُباً إِلاّٰ عٰابِرِی سَبِیلٍ حَتّٰی تَغْتَسِلُوا وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضیٰ أَوْ عَلیٰ سَفَرٍ أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ اَلْغٰائِطِ أَوْ لاٰمَسْتُمُ اَلنِّسٰاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مٰاءً فَتَیَمَّمُوا صَعِیداً طَیِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِکُمْ وَ أَیْدِیکُمْ إِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ عَفُوًّا غَفُوراً (۴۳)

التّفسیر

اشاره

بعض الأحکام الفقهیه:

تستفاد من الآیه الحاضره عدّه أحکام إسلامیه هی:

۱-حرمه الصّلاه فی حال السکر،أی لا یجوز للسکاری أن یقربوا الصّلاه لبطلان صلاتهم فی حاله السکر،و فلسفه ذلک واضحه،فإن الصلاه حدیث العبد إلی ربّه و مناجاته و دعاؤه،و لا بدّ أن یتمّ کل هذا فی حاله الوعی الکامل، و السکاری أبعد ما یکونون عن هذه الحاله: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَقْرَبُوا الصَّلاٰهَ وَ أَنْتُمْ سُکٰاریٰ حَتّٰی تَعْلَمُوا مٰا تَقُولُونَ .

و هنا یمکن أن یطرح أحد سؤالا هو:ألیس مفهوم الآیه هو المنع من شرب المسکرات إذا بقی أثرها و سکرها إلی وقت الصلاه،و هو ینطوی علی دلیل

جوازه فی سائر الحالات؟ و الإجابه علی هذا السؤال تأتی-بإذن اللّه-مفصّلا عند تفسیر الآیه(۹۰) من سوره المائده،إلاّ أن الجواب الإجمالی هو:إنّ الإسلام استخدم لتطبیق الکثیر من أحکامه أسلوب«التغییر التدریجی»فمثلا مسأله تحریم تعاطی الخمور هذه طبقها الإسلام فی مراحل،فهو أوّلا أعطاه صفه المشروب الغیر المحبّذ فی قبال«الرزق الحسن»(کما فی الآیه(۶۷)من سوره النحل«و رزقا حسنا»)ثمّ منع من الاقتراب إلی الصلاه إذا کان السکر الناشئ منها لا یزال باقیا (کما فی الآیه الحاضره)ثمّ قارن بین منافعه و مضاره و رجحان مضاره و مساوئه، کما فی سوره البقره الآیه(۲۱۹)،و فی المرحله الأخیره نهی عن الخمر بصوره قاطعه و صریحه،کما فی سوره المائده الآیه(۹۰).

و أساسا لیس هناک من سبیل لتطهیر المجتمع من جذور مفسده اجتماعیه أو خلقیه متجذره فی أعماق المجتمع و اقتلاعها من الجذور أفضل من هذا الأسلوب،و أجدی من هذا الطریق،و هو أن یهیأ الأفراد تدریجا،ثمّ یتمّ الإعلان عن الحکم النهائی.

کما أنّه لا بدّ من الالتفات إلی نقطه مهمّه،هی أنّ الآیه الحاضره لا تجیز بأی وجه من الوجوه شرب الخمر،بل هی تتحدث فقط عن مسأله الاقتراب إلی الصلاه فی حال السکر،بینما التزمت الصمت بالنسبه إلی حکم شرب الخمر فی غیر هذا المورد حتی یحین موعد المرحله النهائیه للحکم.

هذا مع الالتفات إلی أنّ أوقات الصلوات الخمس خاصّه فی ذلک الزمان الذی کانت العاده فیه إقامه الصلوات الخمس فی أوقاتها،بحکم أنّها کانت متقاربه کان الإتیان بالصلاه فی حال الوعی یقتضی أن ینصرف الأشخاص عن تناول المسکرات فی الفترات الواقعه بین أوقات الفرائض انصرافا کلیا،لأنّ السکر کان یستمر غالبا إلی حین حلول وقت الفریضه و علی هذا کان الحکم

المذکور فی الآیه الحاضره أشبه بالحکم النهائی و التحریم الأبدی المطلق.

کما أنّ هناک موضوعا لا بدّ من التذکیر به،و هو أنّ الآیه الحاضره فسّرت فی روایات عدیده فی کتب الشیعه و السنه بسکر النوم،یعنی لا تقربوا الصلاه ما لم تطردوا النوم عن عیونکم کامله لتعلموا ما تقولون.

و لکن یبدو للنظر أن هذا التّفسیر مستفاد من مفهوم: حَتّٰی تَعْلَمُوا مٰا تَقُولُونَ و إن لم یدخل فی مصداق«السکاری» (۱) .

و بعباره أخری،یستفاد من جمله: حَتّٰی تَعْلَمُوا مٰا تَقُولُونَ المنع عن الصلاه فی کل حاله لا یتمتع فیها الإنسان بالوعی الکامل،سواء کان بسبب حاله السکر،أو بسبب ما تبقی من النوم.

کما أنّه یستفاد من هذه الجمله أیضا أنّ الأفضل عدم إقامه الصلاه عند الکسل أو قلّه التوجه،لأنّ الحاله السابقه توجد فی هذه الصوره بشکل ضعیف، و لعلّه لهذا السبب جاء فی ما روی عن الإمام الباقر علیه السّلام من أنّه قال:«لا تقم إلی الصلاه متکاسلا،و لا متناعسا و لا متثاقلا و قد نهی اللّه عزّ و جلّ المؤمنین أن یقوموا إلی الصلاه و هم سکاری...» (۲) .

۲-بطلان الصلاه فی حال الجنابه الذی أشیر إلیه بعباره وَ لاٰ جُنُباً ثمّ استثنی سبحانه من هذا الحکم بقوله: إِلاّٰ عٰابِرِی سَبِیلٍ أی إذا فقدتم الماء فی السفر جاز لکم أن تقیموا الصلاه(شریطه أن تتیمموا کما یجیء فی ذیل الآیه).

غیر أن هناک تفسیرا آخر جاء لهذه الآیه فی الروایات و الأخبار (۳) ،هو أنّ المقصود من الصلاه فی الآیه هو محل الصلاه-أی المسجد-أی لا تدخلوا المساجد و أنتم علی جنابه،ثمّ استثنی العبور فی المسجد بقوله:

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،ج ۱،ص ۴۸۳،و تفسیر القرطبی،ج ۳،ص ۱۱۷۱.
۲- ۲) -تفسیر نور الثقلین،ج ۱،ص ۴۸۳،و قد جاء نظیر هذا المضمون فی صحیح البخاری أیضا.
۳- ۳) -وسائل الشیعه،ج ۱،ص ۴۸۶.

إِلاّ عٰابِرِی سَبِیلٍ

یعنی یجوز لکم العبور فی المسجد و أنتم علی جنابه و إن لم یجز لکم المکث و اللبث فیه.

و یستفاد من بعض الروایات أنّ جماعه من المسلمین،و صحابه النّبی کانوا قد بنوا بیوتهم حول المسجد النّبوی بحیث تفتح أبوابها فی المسجد،فسمح لهم بأن یعبروا من المسجد و هم علی جنابه دون أن یتوقفوا فیه.

و لکن لا بدّ أن ننتبه إلی أن هذا التّفسیر یستلزم أن تکون لفظه الصلاه فی الآیه الحاضره قد أتت بمعنیین:أحدهما الصلاه نفسها،و الآخر محل الصلاه، لوجود بیان حکمین مختلفین فی الآیه:أحدهما المنع و النهی عن الاقتراب إلی الصلاه فی حاله السکر،و الآخر الاجتناب عن دخول المساجد فی حاله الجنابه (طبعا لا مانع و لا ضیر فی استعمال لفظه واحده فی معنیین أو أکثر کما قلنا فی علم الأصول،و لکنّه خلاف الظاهر،و هو لا یجوز بدون قرینه،نعم یمکن أن تکون الروایات المذکوره قرینه علی ذلک).

۳-جواز الصلاه،أو عبور المسجد بعد الاغتسال،هو المبین بقوله: حَتّٰی تَغْتَسِلُوا .

۴-التیمم لذوی الأعذار،ثمّ تشیر الآیه إلی حکم التیمم لذوی الأعذار فتقول:

وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضیٰ أَوْ عَلیٰ سَفَرٍ

و فی هذه العباره من الآیه قد اجتمعت-فی الحقیقه-کل موارد التیمم،فالمورد الأوّل هو ما إذا کان فی استعمال الماء ضرر علی البدن،و المورد الآخر هو ما إذا تعذر علی الإنسان الحصول علی الماء(أم لم یمکن استعماله)و بقوله: أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ الْغٰائِطِ أَوْ لاٰمَسْتُمُ النِّسٰاءَ إشاره إلی علل الاحتیاج إلی التیمم و أسبابه،و معناه إذا أحدثتم حدثا أو جامعتم النساء فَلَمْ تَجِدُوا مٰاءً أی لم تقدروا علی تحصیل الماء أو استعماله فَتَیَمَّمُوا صَعِیداً طَیِّباً .

ثمّ أنّه سبحانه یبیّن طریقه التیمم بقوله: فَامْسَحُوا بِوُجُوهِکُمْ وَ أَیْدِیکُمْ .

ثمّ أنّه فی ختام الآیه یشیر إلی حقیقه أنّ الحکم المذکور ضرب من التخفیف عنکم،لأنّ اللّه کثیر الصفح کثیر الستر لذنوب عباده إِنَّ اللّٰهَ کٰانَ عَفُوًّا غَفُوراً .

بحوث عند الآیه:

اشاره

هنا لا بدّ من التنبیه إلی نقاط عدیده:

۱-إنّ عباره فَلَمْ تَجِدُوا مٰاءً المبدوه بفاء التفریع ترتبط بعباره أَوْ عَلیٰ سَفَرٍ یعنی أنّکم إذا کنتم فی سفر و لم تجدوا ماء للوضوء أو الغسل،فتحتاجون إلی التیمم،لأنّ الإنسان قلما تتفق له هذه الحاله و هو فی البلد،و من هنا یتبیّن بطلان ما قاله بعض المفسّرین-مثل صاحب المنار-من أن مجرّد السفر وحده کاف للتکلیف بالتیمم بدل الوضوء حتی لو کان الشخص المسافر واجدا للماء، فإنّ فاء التفریع فی قوله فَلَمْ تَجِدُوا یبطل هذا الکلام،لأنّ المفهوم منه هو أنّ السفر قد یوجب أحیانا عدم التمکن من الماء،و هنا لا مناص من التیمم،لا أنّ السفر بوحده یسوغ التیمم،و العجب أنّ الکاتب المذکور تحامل علی فقهاء الإسلام فی هذا المجال من دون مبرر لهذا التحامل.

۲-إنّ کلمه(أو)فی قوله تعالی: أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ الْغٰائِطِ هی بمعنی (الواو)لأن مجرّد المرض أو السفر لا یوجب التیمم،بل یجب التیمم إذا تحققت موجبات التیمم أو الغسل فی هذا الحال.

۳-إنّ«العفه فی البیان»المعهوده من القرآن دفعت بالقرآن فی هذه الآیه- کما فی الآیات الکثیره الاخری-إلی أن یعبّر عن قضاء الحاجه بعباره تفهم المراد من جانب،و لا تکون غریبه و غیر مناسبه من جانب آخر إذ یقول: أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ الْغٰائِطِ .

و توضیح ذلک أنّ«الغائط»-خلاف ما یفهم منه هذا الیوم-یعنی فی أصل اللغه المنخفض من الأرض الذی کان یقصده الإنسان و سکان الصحاری و المسافرون فی تلک العهود لقضاء الحاجه فیه لیسترهم عن أعین الناظرین، و علی هذا یکون معنی هذه الجمله هو:إذا عاد أحدکم من المکان المنخفض من الأرض الذی هو فی جملته کنایه عن قضاء الحاجه.

و الملفت للنظر أن القرآن استعمل لفظه«أحد منکم»بدل ضمیر الجمع المخاطب المصدر بالفعل أی«جئتم»لیحافظ علی خصیصه«عفه البیان»التی تجلی بها القرآن الکریم أکثر فأکثر.

و هکذا الحال عند ما یتحدّث عن الجماع فإنّ القرآن یشیر إلی هذا الموضوع بعباره أَوْ لاٰمَسْتُمُ النِّسٰاءَ و لفظه اللمس کنایه جمیله عن المقاربه الجنسیه.

۴-سنتحدث بتفصیل حول بقیه خصوصیات التیمم عند تفسیر قوله تعالی:

صَعِیداً طَیِّباً

فی ذیل الآیه(۶)من سوره المائده إن شاء اللّه.

فلسفه التیمم:

یتساءل کثیرون:ما الفائده من ضرب الیدین بالتراب و مسح الجبین و ظهر الیدین بهما خاصّه أنّنا نعلم أن کثیرا من الأتربه ملوثه،و ناقله للمیکروبات و الجراثیم؟ فی جواب هذه الأسئله نشیر إلی نقطتین مهمتین:

الأولی:الفائده الخلقیه،فإن التیمم إحدی العبادات،و تتجلی فیها روح العباده بکل معنی الکلمه،لأن الإنسان یمس جبهته التی هی أشرف الأعضاء فی بدنه بیدیه المتربتین لیظهر بذلک خضوعه للّه و تواضعه فی حضرته و لسان حاله یقول:

یا ربّی إنّ جبهتی و کذا یدای خاضعات أمامک إلی أبعد حدود الخضوع و التواضع،ثمّ یتوجه عقیب هذا العمل إلی القیام بالصلاه و سائر العبادات

المشروطه بالغسل و الوضوء،و بهذا الطريق يزرع التيمم فى نفس الإنسان روح الخضوع للّه،و ينمى فيه صفه التواضع فى حضره ذى الجلال،و يدرّبه على العبوديه له سبحانه،و الشكر لأنعمه تعالى.

الثّانيه:الفائده الصحيه،فقد ثبت اليوم بأنّ التراب بحكم احتوائه على كميات كبيره من البكتريا تزيل التلوثات،إن البكتريات الموجوده فى التراب و التى تعمل على تحليل الموارد العضويه و إباده كل أنواع العفونه،توجد-فى الأغلب- بوفره فى سطح الأرض،و الأعماق القريبه التى يمكن لها الانتفاع بنور الشمس و الهواء بصوره أكثر،و لهذا عند ما تدفن جثث الأموات من البشر أو الحيوان فى الأرض،و كذا ما يشابهها من المواد العضويه،نجدها تتحلل فى مدّه قصيره تقريبا و تتلاشى بؤر التعفن على أثر هجوم البكتريات عليها،و من المسلّم أنّ هذه الخاصّيه لو لم تكن فى التربه لتحولت الكره الأرضيه فى مدّه قصيره إلى بؤره عفونه قاتله.

إنّ للتربه خاصّيه تشبه مواد«الأنتوبيوتيک»التى لها أثر فعال جدّا فى قتل و إباده الميكروبات.

و على هذا لا يكون التراب عاريا عن التلوث فقط،بل هو مطهر فعال للتلوثات،و يمكنه-من هذه الجهه-أن يحل محل الماء بفارق واحد،هو أن الماء يحلل الميكروبات،و يذهب بها معه،فى حين أن مفعول التراب يقتصر على قتل الميكروبات فقط.

و لكن يجب الانتباه إلى أنّ التراب الذى يستعمل فى التيمم يجب أن يكون طاهرا نظيفا،كما أشار اليه القرآن الكريم فى تعبيره الجميل إذا يقول: طَيِّباً .

و الجدير بالانتباه أنّ التعبير ب«الصعيد»المشتق من«الصعود»يشير إلى أن أفضل أنواع التربه الذى ينبغى أن تختاره للتيمم هو التربيه الموجوده فى سطح الأرض،يعنى تلك التربه التى هى عرضه لأشعه الشمس و المليئه بالهواء

و البکتریـا المبیـده للمیکروبات،فإذا کانت تلک التربه المسـتعمله فی التیمم طیبه و طاهره أیضا کان التیمم بها ینطوی علی الآثار المـذکوره من دون أن یکون فیه أی ضـرر أو أیه مضاعفـات.(و سـنتحدث فی هـذا المجال أیضا عنـد تفسـیر المقطع الأخیر من الآیه(۶)فی سوره المائده).

ص: ۲۵۰

الآیتان [سوره النساء (۴): الآیات ۴۴ الی ۴۵]

اشاره

أَ لَمْ تَرَ إِلَی اَلَّذِینَ أُوتُوا نَصِیباً مِنَ اَلْکِتٰابِ یَشْتَرُونَ اَلضَّلاٰلَهَ وَ یُرِیدُونَ أَنْ تَضِلُّوا اَلسَّبِیلَ (۴۴) وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِأَعْدٰائِکُمْ وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ وَلِیًّا وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ نَصِیراً (۴۵)

التّفسیر

فی هذه الآیات یخاطب اللّه سبحانه نبیّه الکریم بعباره حاکیه عن التعجب و الاستغراب قائلا: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ أُوتُوا نَصِیباً مِنَ الْکِتٰابِ یَشْتَرُونَ الضَّلاٰلَهَ وَ یُرِیدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِیلَ أی عجیب أمر هؤلاء الذین أتوا نصیبا من الکتاب السماوی،و لکنهم بدل أن یقوموا بهدایه الآخرین و إرشادهم فی ضوء ما أوتوا من الهدی،فإنّهم یشترون الضلاله لأنفسهم و یریدون أن تضلوا أنتم أیضا.

و بهذا الطریق فإنّ ما نزل لهدایتهم و هدایه الآخرین تحول إلی وسیله لضلالهم و إضلال الآخرین بسوء نیّتهم،لأنّهم لم یکونوا أبدا بصدد الحقیقه،بل کانوا ینظرون إلی کل شیء بمنظار النفاق و الحسد و المادیه السوداء.

ثمّ یقول سبحانه:إنّ هؤلاء و إن تظاهروا بمظهر الأصدقاء لکم إلاّ أنّهم أعداؤکم الحقیقیون وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِأَعْدٰائِکُمْ .

و أیه عداوه أشدّ و أکثر من أن یکرهوا هدایتکم و یخالفوا سعادتکم،تاره

باللسان و تاره عن طريق إظهار النصح،و ثالثه عن طريق الذم،و يجتهدون فی تحقيق أهدافهم المشؤومه فی كل ظرف و زمان بنحو خاص،و شكل معين.

و لكن لا تخافوا عداوتهم أبدا و لا تستوحشوا لمواقفهم المعاديه فلستم وحدكم فی الميدان،فكفاكم أنّ اللّه قائدكم و وليكم و ناصركم: وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ وَلِيًّا وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ نَصِيراً .

لأنّه لا يمكنهم أن يفعلوا شيئا،فإذا تجاهلتم أحاديثهم و وساوسهم لم يبق أی مجال للخوف و القلق.

ثمّ إنّه يستفاد من عباره: أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتٰابِ أنّ ما كان عندهم من الكتاب لم يكن كل ما فی الكتاب السماوی«التوراه»بل كان بعضه و قسما منه، و هذا يتفق مع حقائق التاريخ المسلمه أيضا،تلك الحقائق التی تؤكد ضياع أو تحريف أقسام من التوراه الحقيقيه مع مضی الزمن.

ص :٢٥٢

الآيه [سوره النساء (۴): آيه ۴۶]

اشاره

مِنَ اَلَّذِينَ هٰادُوا يُحَرِّفُونَ اَلْكَلِمَ عَنْ مَوٰاضِعِهِ وَ يَقُولُونَ سَمِعْنٰا وَ عَصَيْنٰا وَ اِسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَ رٰاعِنٰا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِي اَلدِّينِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا وَ اِسْمَعْ وَ اُنْظُرْنٰا لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَقْوَمَ وَ لٰكِنْ لَعَنَهُمُ اَللّٰهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاٰ يُؤْمِنُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً (۴۶)

التّفسير

اشاره

جانب آخر من أعمال اليهود:

تعقيبا على الآيات السابقه تشرح هذه الآيه صفات جماعه من أعداء الإسلام،و تشير إلى جانب من أعمالهم و مواقفهم.

فتقول أوّلا:إنّ أحد أعمال هذه الجماعه هو تحريف الحقائق،و تغيير حقيقه الأوامر الإلهيه: مِنَ الَّذِينَ هٰادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوٰاضِعِهِ أي أنّ جماعه من اليهود يحرفون الكلمات عن مواضعها.

و هذا التحريف قد يكون له جانب لفظي،و قد يكون له جانب معنوي و عملي.

أمّا العبارات اللاحقه فتفيد أن المراد من التحريف في المقام هو التحريف اللفظي و تغيير العباره،لأنّه تعالى يقول بعد هذه الجمله: وَ يَقُولُونَ سَمِعْنٰا

وَ عَصَيْنا

يعنى بدل أن يقولوا«سمعنا و أطعنا»يقولون«سمعنا و عصينا»و هذا يشبه تماما كلام من يقول مستهزء:«منك الأمر و منّا عدم السماع»،هذا و العبارات الاخرى فى هذه الآيه خير شاهد على هذا القول.

ثمّ يشير إلى قسم آخر من أحاديثهم العدائيه المزيجه بروح التحدى و الصلافه حيث يقول:إنّهم يقولون: وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ و بهذا الطريق يتوسل هذا الفريق للحفاظ على جماعه من المغفلين،-مضافا إلى سلاح تحريف الحقائق و الخيانه فى إبلاغ الكتب السماويه التى كانت تشكل الوسيله الحقيقيه لنجاه ذلك الفريق و شعبهم من مخالب الطغاه الظلمه مثل فرعون-يتوسلون بسلاح الاستهزاء و السخريه الذى هو سلاح الأنانيين و المغرورين و وسيله العتاه و المعاندين،و ربّما استخدموا مضافا إلى كل ذلك عبارات كان المسلمون المخلصون يرددونها أمام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع تغييرات فى معانيها تكميلا لاستهزائهم و سخريتهم، مثل جمله«راعنا»التى معناها«تفقدنا و أمهلنا»و كان المسلمون الصادقون فى صدر الإسلام و مطلع الدّعوه المحمّديه يرددونها أمام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليتمكنوا من سماع صوت النّبى و كلامه بنحو أفضل،و لكن هذا الفريق من اليهود كانوا يتوسلون بهذه الجمله لإيذاء النّبى و يسيئون استخدامها و يكررونها أمام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هم يقصدون منها معناها العبرى الذى هو«سمعنا غير مسمع»أو«أسمعنا لا سمعت»أو معناه العربى الآخر،و هو ما يرجع إلى الرعونه (۱) الذى يعنى الحمق،قصدا منهم إلى أن عمل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان-و العياذ باللّه-خداع الناس و استغلال سذاجتهم.

و قد كان هذا كله بهدف إزاحه الحقائق عن محورها الأصلى بألسنتهم

۱- ۱) -راعنا إذا أخذت مشتقه من ماده الرعى تكون بمعنى فعل الطلب من المراعاه و المراقبه،و بمعنى أمهلنا،و إذا أخذت مشتقه من الرعونه تكون بمعنى«أخدعنا و اجعلنا حمقاء عندك»،يقولون ذلك على سبيل الاستهزاء و السب،و لا بدّ من الالتفات إلى أن راعنا على الوجه الأوّل تكون بدون تشديد النون،و على الوجه الثانى بتشديد النون،و يستفاد من جمله من الروايات أن اليهود كانوا يتعمدون تشديد النون فى راعنا و مد آخرها.

و الطعن فی الدین الحق،و الشریعه الحقه: لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِی الدِّينِ .

(و اللی علی وزن الحی بمعنی الفتل،مثل فتل الحبل و ما شابهه،و یأتی أیضا بمعنی التغییر و التحریف).

وَ لَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ اسْمَعْ وَ انْظُرْنا لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَقْوَمَ

أی أنّهم إن سلکوا الطریق المستقیم و ترکوا کل ذلک اللجاج و العناد،و معاداه الحق، و سوء الأدب،و الجرأه و القحه و قالوا:سمعنا کلام اللّه و أطعنا،فاستمع إلی کلامنا و أمهلنا لکی ندرک الحقائق إدراکا کاملا،لکان ذلک من مصلحتهم،و کان فی ذلک منفعتهم،و أکثر انسجاما و توافقا مع العدل و المنطق و العدل و الأدب.

وَ لٰكِنْ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاٰ يُؤْمِنُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً

.

أی أنّهم لن یتخلوا عن هذا السلوک الشائن بسرعه،کیف؟و قد ابتعدوا عن رحمه اللّه بسبب ما هم علیه من کفر و تمرد و طغیان،و ماتت أفئدتهم و تحجرت بحیث صار من المتعذر أن تخضع للحق،و أن تحیا من رقدتها بهذه السرعه،اللّهم إلاّ بعضهم ممن یمتلک فؤادا طاهرا و عقلا یقظا،فهؤلاء هم المستعدون للقبول بالحقائق، و الاستماع إلی نداء الحق و الإیمان به.

و قد اعتبر جماعه هذه الجمله من مغیبات القرآن و إخباراته الغیبیه،لأنّه- کما یخبر القرآن الکریم فی هذه الآیه-لم یؤمن من الیهود طوال التاریخ الإسلامی و لم یذعن للحق إلاّ جماعه قلیله،و أمّا غیرهم-و هم الأکثریه الساحقه-فقد بقوا-و إلی الآن-علی عدائهم الشدید،و خصومتهم للإسلام،و لم یزالوا یکیدون له المکائد،و یحیکون ضده المؤامرات.

ص :٢٥٥

الآيه [سوره النساء (۴): آیه ۴۷]

اشاره

يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنّا أَصْحَابَ اَلسَّبْتِ وَ كَانَ أَمْرُ اَللّٰهِ مَفْعُولاً (۴۷)

التّفسير

اشاره

مصير المعاندين:

تعقيبا على البحث السابق فى الآيه المتقدمه حول أهل الكتاب،وجه الخطاب فى هذه الآيه إليهم أنفسهم،إذ قال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ أى آمنوا بالقرآن الكريم الذى تجدونه موافقا لما جاء فى كتبكم من العلامات و البشائر،و لا شك أنّكم أولى من غيركم- و لديكم مثل هذه الأدله و العلائم-بالإيمان بهذا الدين الطاهر.

ثمّ إن اللّه سبحانه يهددهم بأنّ عليهم أن يخضعوا للحقّ و يذعنوا له قبل أن يصابوا بإحدى عقوبتين،الأولى:أن تنمحى صورهم كامله،و أن تذهب عنهم جوارحهم و أعضاؤهم التى يرون و يسمعون و يدركون بها الحق،كلّها ثمّ تقلب وجوههم إلى خلف كما يقول سبحانه: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ (۱) وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلىٰ أَدْبَارِهَا

۱- ۱) -الطمس هو إزاله الأثر بالمحو،مثل أن نهدم بيتا ثم نزيل أثره بالمره-و لكنه يطلق-كنايه-على ما فقد أثره

.

و لعلّنا لسنا بحاجه إلى أن نذكر بأنّ المراد من هذه العباره هو تعطل عقولهم و حواسهم من حيث عدم رؤيه حقائق الحياه و إدراكها،و الانحراف عن الصراط المستقيم كما جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام من أنّ المراد:«نطمسها عن الهدى فنردّها على أدبارها فى ضلالتها ذمّا لها بأنّها لا تفلح أبدا» (۱) .

توضيح ذلك أنّ أهل الكتاب،و بخاصّه اليهود منهم،عند ما أعرضوا عن الإذعان بالحق رغم كل تلك العلائم و البراهين،و عاندوا تعنتا و استكبارا و أظهروا مواقفهم المعانده فى أكثر من ساحه،صار العناد و الزور طبيعتهم الثانيه شيئا فشيئا،و كأن أفكارهم قد مسخت و كأن عيونهم قد عميت و آذانهم قد صمت،و مثل هؤلاء من الطبيعى أن يتقهقروا فى طريق الحياه بدل أن يتقدموا، و أن يرتدوا على الأدبار بدل أن يتحركوا إلى الأمام،و هذا هو جزاء كل من ينكر الحق عنادا و عتوا،و هذا فى الحقيقه يشبه ما أشرنا اليه فى مطلع سوره البقره الآيه(۶).

و على هذا،فإن المراد من«الطمس و عفو الأثر و الرّد على العقب»فى الآيه الحاضره هو المحو الفكرى و الروحى،و التأخر المعنوى.

و أمّا العقوبه الثانيه التى هددهم اللّه بها فهى اللعن و الطرد من رحمته تعالى إذ قال: أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمٰا لَعَنّٰا أَصْحٰابَ السَّبْتِ (۲) .

و هنا يطرح سؤال و هو:ما الفرق بين هذين التهديدين،حتى يفصل بينهما ب «أو»؟

(۱)

و خاصيته.

ص :۲۵۷

۱- ۱) -مجمع البيان،ج ۲،ص ۵۵،فى ذيل الآيه الحاضره.

۲- ۲) -أصحاب السبت هم الذين ستأتى قصّتهم فى سوره الأعراف عند تفسير الآيات(۱۶۳-۱۶۶)و هم جماعه من اليهود كانوا قد كلفوا بتعطيل العمل و الكسب فى يوم السبت،و لكنّهم اشتغلوا بالصيد فى ذلك اليوم بالرغم من نهى نبيّهم،فتجاوزوا فى الطغيان الحدّ،فابتلاهم اللّه بأشد العقوبات.

ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ التهديد الأوّل ينطوى على جانب معنوى، و التهديد الثّانى ينطوى على جانب ظاهرى و مسخ جسمى،و ذلك بقرينه أن اللّه قال فى هذه الآيه: كَمٰا لَعَنّٰا أَصْحٰابَ السَّبْتِ و نحن نعلم أن أصحاب السبت- كما يتّضح من مراجعه الأعراف-قد مسخوا مسخا ظاهريا و جسديا.

و ذهب آخرون إلى أن هذا اللعن و الطرد من رحمه اللّه ينطوى أيضا على جانب معنوى بفارق واحد،هو أنّ التهديد الأوّل إشاره إلى الانحراف و الضلال و التقهقر الذى أصابهم،و التهديد الثّانى إشاره إلى معنى الهلاك و الفناء(الذى هو أحد معانى اللعن).

خلاصه القول:إنّ أهل الكتاب بإصرارهم على مخالفه الحق يسقطون و يتقهقرون أو يهلكون.

ثمّ إنّ هنا سؤالا آخر هو:هل تحقق التهديد فى شأن هؤلاء،أم لا؟ لا شك أنّ التهديد الأوّل قد تحقق فى شأن كثير منهم،و أمّا التهديد الثّانى فقد تحقق فى بعضهم،و لقد هلك كثير منهم فى الحروب الإسلاميه،و ذهبت شوكتهم و قدرتهم.و إنّ تأريخ العالم ليشهد كيف تعرضوا بعد ذلك لكثير من الضغوطات فى البلاد المختلفه،و فقدوا الكثير من أفرادهم و عناصرهم،و خسروا الكثير من طاقاتهم،و لا يزالون إلى الآن يعيشون فى ظروف صعبه و أحوال قاسيه.

ثمّ إنّ اللّه يختم هذه الآيه بقوله: وَ كٰانَ أَمْرُ اللّٰهِ مَفْعُولاً ليؤكّد هذه التهديدات،فإنّه لا توجد قوّه فى الأرض تستطيع أن تقف فى وجه إراده اللّه و مشيئته.

ص :۲۵۸

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۴۸]

اشاره

إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِکَ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ مَنْ یُشْرِکْ بِاللّٰهِ فَقَدِ اِفْتَریٰ إِثْماً عَظِیماً (۴۸)

التّفسیر

اشاره

أرجی آیات القرآن:

الآیه الحاضره تعلن بصراحه أنّ جمیع الذنوب و المعاصی قابله للمغفره و العفو،إلاّ«الشرک»فإنّه لا یغفر أبدا،إلاّ أن یکف المشرک عن شرکه و یتوب و یصیر موحدا،و بعباره أخری:لیس هناک أی ذنب قادر بوحده علی إزاله الإیمان،کما لیس هناک أی عمل صالح قادر علی خلاص الإنسان إذا کان مقرونا بالشرک إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِکَ لِمَنْ یَشٰاءُ .

إنّ ارتباط هذه الآیه بالآیات السابقه إنّما هو من جهه أن الیهود و النصاری کانوا بشکل من الاشکال مشرکین،کل طائفه بشکل معین،و القرآن ینذرهم- بهذه الآیه-بأن یترکوا هذه العقیده الفاسده التی لا یشملها العفو و الغفران،ثمّ یبیّن فی خاتمه الآیه دلیل هذا الأمر إذ یقول: وَ مَنْ یُشْرِکْ بِاللّٰهِ فَقَدِ افْتَریٰ إِثْماً عَظِیماً (۱) .

۱- ۱) -الافتراء،مشتقه من ماده فری علی وزن(فرد)بمعنی القطع،و حیث أنّ قطع بعض أجزاء الشیء السالم یفسد

و هـذه الآیه من الآیات التی تطمئن الموحـدین إلی رحمه اللّه و لطفه،لأنّ فی هـذه الآیه قـد بیّن سـبحانه إمکان العفو عن جمیع المعاصی و الذنوب غیر الشرک، فهی کما جاء

فی حدیث عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أرجی آیات القرآن الکریم إذ قال:«ما فی القرآن آیه أرجی عندی من هذه الآیه».

و هـذه الآیه-کما قال ابن عباس«ثمانی آیات نزلت فی سوره النساء،خیر لهـذه الأمّه ممّا طلعت علیه الشـمس و غربت و عـدّ منها هذه الآیه» (۱) .

لأنّ هناک کثیرین یرتکبون المعاصـی العظیمه ثمّ یقنطون من رحمه اللّه و غفرانه إلی الأبـد،فیتسـبب قنوطهم فی أن یسـیروا بقیه عمرهـم فی طریـق المعصـیه و الخطأ بنفس القـوّه و الإصـرار،و لکن الأمـل فی عفـو اللّه و غفرانه خیر وسـیله رادعه بالنسـبه إلی هؤلاء،و خیر مانع من تمادیهم فی المعصیه و الطغیان، و علی هذا الأساس فإنّ هذه الآیه تهدف-فی الحقیقه-إلی مسأله تربویه.

فإذا رأینا عصاه مجرمین(کما یقول بعض المفسّـرین،و یعلم ذلک من الروایات المذکوره فی ذیل هذه الآیه)أمثال«وحشـی»غلام هنـد و قاتـل بطـل الإسـلام حمزه بن عبـد المطلب عم النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم یؤمن مع نزول هـذه الآـیه،و ینتهی عن جرائمه و شـقاوته،فـإن من الطبیعی أن یوجـد ذلک مثل هـذا الأمل لـدی العصاه الآخرین،فلا ییأسوا من رحمه اللّه و غفرانه،و لا یتورطوا فی المزید من الذنوب و المعاصی.

و یمکن أن یقال:إنّ هذه الآیه من شأنها أن تشجع الناس فی الوقت ذاته علی الذنب و تغریهم بالمعصیه،لما فیها من الوعد بالعفو عن«جمیع الذنوب ما عدا الشرک».

و لکن لا شک أنّ المراد من الوعد بالعفو و المغفره لیس هو الوعد المطلق من

(۱)

ذلک الشیء و یخربه استعمل فی کل مخالفه،و من جمله ذلک الشرک و الکذب و التهمه.

۱- ۱) -مجمع البیان،ج ۳،ص ۵۷.

كل قيد و شرط،بل يشمل الأشخاص الذين يظهرون من أنفسهم نوعا من اللياقه و الصلاح لمثل هذا العفو و الغفران،و كما أشرنا إلى ذلك فى ما سبق،فإن مشيئه اللّه -فى هذه الآيه و الآيات المشابهه لها-بمعنى الحكمه الإلهيه،لأن مشيئته تعالى لا تنفصل عن حكمته أبدا،و من البديهى و المسلم أن حكمته لا تقتضى أن ينال أحد العفو الإلهى من دون قابليه و صلاح لذلك.

و على هذا الأساس فإن الجوانب و الأبعاد التربويه البناءه فى هذه الآيه تفوق -بمراتب كثيره-إمكان سوء استخدام الوعد الموجود فيها.

أسباب مغفره الذنوب:

ثمّ إنّ النقطه الجديره بالانتباه إنّ هذه الآيه لا ترتبط بمسأله التوبه،لأنّ التوبه و العوده عن الذنب تغسل جميع الذنوب و المعاصى حتى الشرك،بل المراد هو إمكان شمول العفو الإلهى لمن لم يوفق للتوبه،يعنى الذين يموتون قبل الندم من ذنوبهم،و بعد الندم و قبل جبران ما بدر منهم من الأعمال الطالحه بالأعمال الصالحه.

و توضيح ذلك:أنّه يستفاد من آيات عديده فى القرآن الكريم أن وسائل التوصل إلى العفو و المغفره الإلهيه متعدده،و يمكن تلخيصها فى خمسه أمور:

۱-التوبه و العوده إلى اللّه تعالى،المقرونه بالندم على الذنوب السابقه، و العزم على الاجتناب عن الذنب و المعصيه فى المستقبل،و جبران و تلافى الأعمال الطالحه السالفه بالأعمال الصالحه(و الآيات الدّاله على هذا المعنى كثيره)و من جملتها قوله سبحانه: وَ هُوَ الَّذِی يَقْبَلُ التَّوْبَهَ عَنْ عِبٰادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئٰاتِ (۱) .

۲-الأعمال الصّالحه المهمّه جدّا و التى تسبب العفو عن الأعمال القبيحه

۱- ۱) -الشورى،۲۵.

كما يقول سبحانه: إِنَّ الْحَسَنٰاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئٰاتِ (1) .

۳-الشّفاعه التی مرّ شرحها فی المجلد الأول عند تفسیر الآیه(۴۸)من سوره البقره.

۴-الاجتناب عن المعاصی الکبیره الذی یوجب العفو عن المعاصی الصغیره کما مرّ شرحها عند تفسیر الآیتین(۳۱ و ۳۲)من هذه السوره.

۵-العفو الإلهی الذی یشمل الأشخاص اللائقین له،کما مرّ بحثه فی تفسیر هذه الآیه.

هذا و نکرر تذکیرنا بأن العفو الإلهی مشروط و مقید بالمشیئه الإلهیه،و لا یکون قضیه مطلقه دون أی قید أو شرط،بل تشمل هذه المشیئه و الإراده خصوص الأشخاص الذین یثبتون بصوره عملیه لیاقتهم و صلاحیتهم لهذه الهبه الإلهیه بنحو من الأنحاء.

و من هنا یتّضح لما ذا لا یکون الشرک ممّا یشمله العفو و الغفران الإلهی، فالسبب فی ذلک هو:إنّ المشرک قد قطع صلته باللّه بصوره کامله،و ارتکب ما یخالف کل الشرائع و الأدیان و القوانین الطبیعیه و النّوامیس الکونیه.

۱- ۱) -هود،۱۱۴.

الآیتان [سوره النساء (۴): الآیات ۴۹ الی ۵۰]

اشاره

أَ لَمْ تَرَ إِلَی اَلَّذِینَ یُزَکُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اَللّهُ یُزَکِّی مَنْ یَشاءُ وَ لا یُظْلَمُونَ فَتِیلاً (۴۹) اُنْظُرْ کَیْفَ یَفْتَرُونَ عَلَی اَللّهِ اَلْکَذِبَ وَ کَفی بِهِ إِثْماً مُبِیناً (۵۰)

سبب النّزول

روی فی کثیر من التفاسیر فی ذیل هذه الآیه أنّ الیهود و النصاری کانوا یرون لأنفسهم أمورا و امتیازات،فهم-کما نری ذلک فی آیات القرآن الکریم عند الحکایه عنهم-کانوا یقولون: نَحْنُ أَبْناءُ اللّهِ و ربّما قالوا: لَنْ یَدْخُلَ الْجَنَّهَ إِلاّ مَنْ کانَ هُوداً أَوْ نَصاری (الآیه(۱۸)من سوره المائده،و الآیه(۱۱۱)من سوره البقره)فنزلت هذه الآیات تبطل هذه التصورات و المزاعم.

التّفسیر

اشاره

تزکیه النفس

تزکیه النفس (۱) :

قال تعالی فی الآیه الأولی من الآیتین الحاضرتین: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ یُزَکُّونَ أَنْفُسَهُمْ

۱- ۱) -یزکون من ماده«تزکیه»بمعنی تطهیر،و تأتی أحیانا بمعنی التربیه و التنمیه،ففی الحقیقه إذا کانت التزکیه مقترنه بالعمل فإنها تعتبر امرا محمودا،و إلا لو کانت مجرد ادعاء و کلام فارغ فهی مذمومه.

و فی هذه إشاره إلی إحدی الصفات الذمیمه التی قد یبتلی بها کثیر من الأفراد و الشعوب،إنّها صفه مدح الذات و تزکیه النفس،و ادعاء الفضیله لها.

ثمّ یقول سبحانه: بَلِ اللّهُ یُزَکِّی مَنْ یَشاءُ فهو وحده الذی یمدح الأشخاص و یزکیهم طبقا لما یتوفر عندهم من مؤهلات و خصال حسنه دون زیاده أو نقصان،و علی أساس من الحکمه و المشیئه البالغه،و لیس اعتباطا أو عبثا.و لذلک فهو لا یظلم أحدا مقدار فتیل: وَ لا یُظْلَمُونَ فَتِیلاً (۱) .

و فی الحقیقه أنّ الفضیله هی ما یعتبرها اللّه سبحانه فضیله لا ما یدعیه الإشخاص لأنفسهم انطلاقا من أنانیتهم،فیظلمون بذلک أنفسهم و غیرهم.

إن هذا الخطاب و إن کان موجها إلی الیهود و النصاری الذین یدعون لأنفسهم بعض الفضائل دونما دلیل،و یعتبرون أنفسهم شعوبا مختاره فیقولون أحیانا: لَنْ تَمَسَّنَا النّارُ إِلاّ أَیّاماً مَعْدُودَهً (۲) و یقولون تاره أخری: نَحْنُ أَبْناءُ اللّهِ وَ أَحِبّاؤُهُ (۳) إلا أنّ مفهومه لا یختص بقوم دون قوم،و جماعه دون جماعه،بل یشمل کل الأشخاص أو الأمم المصابه بمثل هذا المرض الوبی،و هذه الصفه الذمیمه.

إنّ القرآن یخاطب جمیع المسلمین فی(سوره النجم-الآیه ۳۲)فیقول:

فَلا تُزَکُّوا أَنْفُسَکُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقی .

إنّ مصدر هذا العمل هو الإعجاب بالنفس و الغرور،و العجب الذی یتجلی شیئا فشیئا فی صوره امتداح الذات و تزکیه النفس،بینما ینتهی فی نهایه المطاف إلی التکبر و الاستعلاء علی الآخرین.

إنّ هذه العاده الفاسده-مع الأسف-من العادات الشائعه بین کثیر من

۱- ۱) -القتیل فی اللغه بمعنی الخیط الدقیق الموجود بین شقی نواه التمر،و یأتی کنایه عن الأشیاء الصغیره و الدقیقه جدا،و أصله من ماده«فتل»بمعنی البرم.

۲- ۲) -البقره،۸۰.

۳- ۳) -المائده،۱۸.

الشعوب و الفئات و الأشخاص،و هی مصدر الکثیر من المآسی الاجتماعیه و الحروب و حالات الاستعلاء و الاستعمار.

إنّ التاریخ یرینا کیف أن بعض الأمم فی العالم کانت تزعم تفوقها علی الشعوب و الأمم الاخری تحت وطأه هذا الشعور و الإحساس الکاذب،و لهذا کانت تمنح لنفسها الحق فی أن تستعبد الآخرین،و تتخذهم لأنفسها خولا و عبیدا.

لقد کان العرب الجاهلیون مع کل التخلف و الانحطاط و الفقر الشامل الذی کانوا یعانون منه،یرون أنفسهم«العنصر الأعلی» بل و کانت هذه الحاله سائده حتی بین قبائلهم حیث کان بعض القبائل یری نفسه الأفضل و الأعلی.

و لقد تسبب الإحساس بالتفوق لدی العنصر الألمانی و الإسرائیلی فی وقوع الحروب العالمیه أو الحروب المحلیه.

و لقد کان الیهود و النصاری فی صدر الإسلام یعانون-أیضا-من هذا الإحساس و الشعور الخاطئ و هذا الوهم،و لهذا کانوا یستثقلون الخضوع أمام حقائق الإسلام،و لهذا السبب شدد القرآن الکریم النکیر-فی الآیه اللاحقه الثانیه-علی هذا التصور و شجب هذا الوهم،و هم التفوق العنصری،و یعتبره نوعا من الکذب علی اللّه و الافتراء علیه سبحانه،و معصیه کبری و ذنبا بیّنا إذ یقول سبحانه: اُنْظُرْ کَیْفَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللّهِ الْکَذِبَ،وَ کَفیٰ بِهِ إِثْماً مُبِیناً أی أنظر کیف أن هذه الجماعه بافتعالها لهذه الفضائل و ادعائها لنفسها من ناحیه،و نسبتها إلی اللّه من ناحیه أخری،تکذب علی اللّه،و لو لم یکن لهذه الجماعه أی ذنب إلاّ هذا لکفی فی عقوبتهم.

یقول الإمام علی علیه السّلام فی حدیثه المعروف ل«همام»الذی یذکر فیه صفات المتقین:

«لا یرضون من أعمالهم القلیل،و لا یستکثرون الکثیر،فهم لأنفسهم متهمون،و من

أعمـالهم مشـفقون إذا زكى أحـد منهم خـاف ممّـا يقـال له فيقول:أنا أعلم بنفسـى من غيرى و ربّى أعلم بى من نفسـى،اللّهم لا تؤاخذنى بما يقولون،و اجعلنى أفضل ما يظنون، و اغفر لى ما لا يعلمون».

ص :۲۶۶

الآیتان [سوره النساء (۴): الآیات ۵۱ الی ۵۲]

اشاره

أَ لَمْ تَرَ إِلَی اَلَّذِینَ أُوتُوا نَصِیباً مِنَ اَلْکِتٰابِ یُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ اَلطّٰاغُوتِ وَ یَقُولُونَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا هٰؤُلاٰءِ أَهْدیٰ مِنَ اَلَّذِینَ آمَنُوا سَبِیلاً (۵۱) أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ لَعَنَهُمُ اَللّٰهُ وَ مَنْ یَلْعَنِ اَللّٰهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِیراً (۵۲)

سبب النّزول

قال کثیر من المفسّرین-فی شأن نزول الآیتین الحاضرتین:أنّه بعد معرکه «أحد»توجه أحد أقطاب الیهود و هو«کعب بن الأشرف»مع سبعین شخصا من الیهود إلی مکّه للتحالف مع مشرکی مکّه ضد رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و نقض ما کان بینهم و بین رسول اللّه من الحلف.

فنزل کعب علی أبی سفیان فأحسن مثواه و نزلت الیهود فی دور قریش، فقال أهل مکّه:أنکم أهل کتاب و محمّد صاحب کتاب،فلا نأمن أن یکون هذا مکر منکم،فإن أردت أن نخرج معک فاسجد لهذین الصنمین(و أشاروا إلیها) و آمن بهما،ففعل.

ثمّ اقترح کعب بن الأشرف علی أهل مکّه قائلا:یا أهل مکّه لیجیء منکم ثلاثون و منّا ثلاثون فنلصق أکبادنا بالکعبه،فنعاهد ربّ هذا البیت لنجهدن علی

قتال محمّد،ففعلوا ذلک.

فلمّیا فرغوا قال أبو سفیان لکعب:إنّک امرؤ تقرأ الکتاب و تعلم،و نحن أمیون لا نعلم،فأینا أهدی طریقا و أقرب إلی الحقّ،نحن أم محمّید؟ قال کعب:اعرضوا علیّ دینکم،فقال أبو سفیان:نحن ننحر للحجیج الکوماء (و هی الناقه العظیمه السنام)و نسقیهم الماء،و نقری الضیف،و نفک العانی،و نصل الرحم،و نعمّر بیت ربّنا،و نطوف به،و نحن أهل الحرم،و محمّید فارق دین آبائه، و قاطع الرحم،و فارق الحرم،و دیننا القدیم،و دین محمّد الحدیث.

فقال کعب:أنتم و اللّه أهدی سبیلا ممّا علیه محمّد.

فأنزل اللّه تعالی الآیات الحاضره إجابه لهم وردا علیهم:

التّفسیر

اشاره

المداهنون:

إن الآیه الأولی من الآیتین الحاضرتین تعکس-بملاحظه-ما ذکر فی سبب النزول قریبا-صفه أخری من صفات الیهود الذمیمه،و هی أنّهم لأجل الوصول إلی أهدافهم کانوا یداهنون کل جماعه من الجماعات،حتی أنّهم لکی یستقطبوا المشرکین سجدوا لأصنامهم،و تجاهلوا کل ما قرءوه فی کتبهم،أو عملوا به حول صفات رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و عظمه الإسلام،بل و ذهبوا-بغیه إرضاء المشرکین-إلی ترجیح عقیده الوثنیین بما فیها من خرافات و تفاهات و فضائح علی الإسلام الحنیف،مع أنّ الیهود کانوا من أهل الکتاب،و کانت المشترکات بینهم و بین الإسلام تفوق بدرجات کبیره ما یجمعهم مع الوثنیین،و لهذا یقول سبحانه فی هذه الآیه مستغربا: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ أُوتُوا نَصِیباً مِنَ الْکِتٰابِ یُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطّٰاغُوتِ و هی الأصنام؟ و لکنّهم لا یقتنعون بهذا،و لا یقفون عند هذا الحدّ،بل: وَ یَقُولُونَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا هٰؤُلاٰءِ أَهْدیٰ مِنَ الَّذِینَ آمَنُوا سَبِیلاً .

الجبت و الطّاغوت:

استعملت لفظه«الجبت»فی هذه الآیه من القرآن الکریم خاصّه،و هو اسم جامد لا تعریف له فی اللغه العربیه،و یقال أنّه یعنی«السّحر»أو«السّاحر»أو «الشّیطان»بلغه أهل الحبشه،ثمّ دخل فی اللغه العربیه و استعمل بهذا المعنی،أو بمعنی الصنم أو أی معبود غیر اللّه فی هذه اللغه،و یقال:أنه فی الأصل«جبس» ثمّ أبدل«س»إلی«ت».

و أمّا لفظه«الطّاغوت»فقد استعملت فی ثمانیه موارد من القرآن الکریم، و هی-کما قلنا فی المجلد الأوّل من هذا التّفسیر لدی الحدیث عن الآیه(۲۵۶) من سوره البقره-صیغه مبالغه (۱) من ماده الطغیان،بمعنی التعدی و تجاوز الحدّ، و یطلق علی کل شیء موجب لتجاوز الحدّ(و منها الأصنام)و لهذا یسمی الشیطان،و الصنم و الحاکم الجبار المتکبر،و کل معبود سوی اللّه،و کل مسیره تنتهی إلی غیر الحق،طاغوتا.

هذا هو المعنی الکلی لهاتین اللفظتین.

أمّا المراد منهما فی الآیه المبحوثه الآن،فذهب المفسرون فیه مذاهب شتی.

فقال البعض بأنّهما اسمان لصنمین سجد لهم الیهود فی القصّه السابقه.

و قال آخرون:الجبت هنا هو الصنم،و الطّاغوت هم عبده الأصنام،أو حماتها الذین کانوا یمثلون تراجمه الأصنام الذین کانوا یتکلمون بالتکذیب عنها لیخدعوا الناس (۲) ،و هذا المعنی أوفق لما جاء فی سبب النزول و تفسیر الآیه،لأنّ الیهود سجدوا للأصنام کما خضعوا أمام عبدتها الوثنیین أیضا.

ثمّ إنّه سبحانه بیّن-فی الآیه الثانیه-مصیر أمثال هؤلاء المداهنین قائلا:

أُولٰئِکَ الَّذِینَ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ وَ مَنْ یَلْعَنِ اللّٰهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِیراً

.

۱- ۱) -تفسیر المنار،ج ۳،ص ۳۵،و ذهب البعض إلی أنه مصدر استعمل بالمعنی الوصفی و صیغه المبالغه.

۲- ۲) -تفسیر التبیان،و تفسیر روح المعانی.

إنّ الیهود-کما تقول هذه الآیه-لم یحصلوا من مداهنتهم الفاضحه علی نتیجه،بل انهزموا فی النهایه،و تحققت نبوءه القرآن الکریم فی شأنهم.

إن الآیات الحاضره و إن کانت قد نزلت فی شأن جماعه خاصّه،و لکنها لا تختص بهم حتما،بل تشمل کل الأشخاص المداهنین المصلحیین(الانتهازیین) الذین یضحّون بشخصیتهم و مکانتهم،بل و إیمانهم و معتقداتهم فی سبیل الوصول إلی مآربهم السافله و أغراضهم الدنیئه.

فإنّ هؤلاء أبعد ما یکونون عن رحمه اللّه فی الدنیا و الآخره،و غالبا ما یؤول أمرهم إلی الهزیمه و الفشل.

إنّ الجدیر بالانتباه هو أنّ هذه الحاله أو الصفه الذمیمه المذکوره لا تزال باقیه علی قوّتها عند هؤلاء القوم،فإنا نجد کیف أنهم لا یمتنعون عن أی مداهنه مهما کانت الشروط للوصول إلی أهدافهم،و لهذا ظلوا یعانون من هزائمهم المنکره طول تاریخهم الماضی و الحاضر.

ص :۲۷۰

الآيات [سوره النساء (۴): الآيات ۵۳ الی ۵۵]

اشاره

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ اَلْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ اَلنّاسَ نَقِيراً (۵۳) أَمْ يَحْسُدُونَ اَلنّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اَللّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ اَلْكِتابَ وَ اَلْحِكْمَهَ وَ آتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً (۵۴) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَ كَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً (۵۵)

التّفسير

اشاره

فی تفسیر الآیتین السابقتین قلنا أنّ الیهود عمدوا-لإرضاء الوثنیین فی مکّه و استقطابهم-إلی الشهاده بأنّ وثنیه قریش أفضل من توحید المسلمین،بل و عمدوا عملیا إلی السجود أمام الأصنام،و فی هذه الآیات یبیّن سبحانه أن حکمهم هذا لا قیمه له لوجهین.

۱-إنّ الیهود لیس لهم-من جهه المکانه الاجتماعیه-تلک القیمه التی تؤهلهم للقضاء بین الناس و الحکم فی أمورهم،و لم یفوض الناس إلیهم حق الحکم و القضاء بینهم أبدا لیکون لهم مثل هذا العمل: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ ؟ هذا مضافا إلی أنّهم لا یمتلکون أیه قابلیه و أهلیه للحکومه المادیه و المعنویه علی الناس،لأن روح الاستئثار قد استحکم فی کیانهم بقوّه إلی درجه أنّهم إذا حصلوا علی مثل هذه المکانه لم یعطوا لأحد حقّه،بل خصّوا کل شیء

بأنفسهم دون غيرهم فَإِذاً لاٰ يُؤْتُونَ النّٰاسَ نَقِيراً (۱) .

فبالنظر إلی أنّ هـذه الأحكام التی یطلقها الیهود صادره عن مثل هذه النفسیه المریضه التی تسعی دائما إلی الاستئثار بكل شـیء لأنفسهم أو لغیرهم ممن یعملون لصالحهم،علی المسلمین أن لا یتأثروا بأمثال هذه الأحادیث و الأحكام و أن لا یقلقوا لها.

۲-إنّ هـذه الأحكام الباطله ناشـئه من حسـدهم البغیض للنبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و أهل بیته المكرمین،و لهـذا تفقد أیه قیمه،إنّهم إذ خسـروا مقـام النبوه و الحكومه بظلمهم و كفرهم،لـذلک لا یحبّون أن ینـاط هـذا المقـام الإلهی إلی أی أحـد من النـاس،و لـذا یحسـدون النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و أهـل بیته الـذین شـملتهم هـذه الموهبه الإلهیه و أعطوا ذلک المقام الكریم و ذلـک المنصب الجلیـل،و لأجـل هـذا یحـاولون بإطلاق تلک الأحكام الباطله و تلک المزاعم السـخیفه أن یخففوا من لهیب الحسد فی كیانهم: أَمْ يَحْسُدُونَ النّٰاسَ عَلىٰ مٰا آتٰاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ .

ثمّ أن اللّه سبحانه یقول معقبا علی هذا:و لما ذا تتعجبون من إعطائنا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بنی هاشم ذلک المنصب الجلیل و ذلک المقام الرفیع،و قد أعطاكم اللّه سـبحانه و أعطی ال إبراهیم الكتاب السماوی و العلم و الحكمه و الملک العریض (مثـل ملک موسـی و سـلیمان و داود)و لكنّكم-مع الأسف-أسأتم خلافتهم ففقـدتم تلكم النعم المادیه و المعنویه القیمه بسـبب قسوتكم و شروركم: فَقَدْ آتَيْنٰا آلَ إِبْرٰاهِيمَ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْنٰاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً .

و المراد من النـاس فی قوله: أَمْ يَحْسُدُونَ النّٰاسَ -كما أسـلفنا-هم رسول اللّه و أهل بیته علیهم السّـلام،لإطلاق لفظه الناس علی جماعه من الناس،و أمّا إطلاقها علی شخص واحد(هو النّبی خاصّه)فلا یصح ما لم تكن هناک قرینه علی إراده

۱- ۱) -«النقیر»مشـتقه من ماده النقر(وزن فقر)الـدق فی شـیء بحیث یوجـد فیه ثقبا و اشـتق منه المنقار،و قال بعض: النقیر و قبّه صغیره جدّا فی ظهر النّواه و یضرب به المثل فی الشیء الطفیف.

الواحد فقط (۱) .

هذا مضافا إلى أنّ كلمه آل إبراهيم قرينه أخرى على أنّ المراد من«الناس» هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته عليهم السّلام،لأنّه يستفاد-من قرينه المقابله-أنّنا إذا أعطينا لبنى هاشم مثل هذا المقام و مثل هذه المكانه-فلا داعى للعجب-فقد أعطينا لآل إبراهيم أيضا تلك المقامات المعنويه و الماديه بسبب أهليتهم و قابليتهم.

و قد جاء التصريح فى روايات متعدده وردت فى مصادر الشيعه و السنه بأنّ المراد من«الناس»هم أهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فقد روى عن الإمام الباقر عليه السّلام فى ذيل هذه الآيه أنّه قال فى تفسير الآيه:

«جعل منهم الرسل و الأنبياء و الأئمّه فكيف يقرّون فى آل إبراهيم و ينكرونه فى آل محمّد» (۲) ؟ و

فى روايه أخرى عن الإمام الصّادق عليه السّلام يجيب الإمام على من يسأل عن المحسودين فى هذه الآيه قائلا:«نحن محسودون» (۳) .

و

روى فى الدّر المنثور عن ابن منذر و الطبرانى عن ابن عباس أنّه قال فى هذه الآيه: «نحن الناس دون الناس».

ثمّ قال القرآن الكريم فى الآيه اللاحقه: فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَ كَفىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً .أى أنّ من الناس آنذاك من آمن بالكتاب الذى نزل على آل إبراهيم،و منهم من لم يكتف بعدم الإيمان بذلك الكتاب، بل صدّ الآخرين عن الإيمان و حال دون انتشاره،أولئك كفاهم نار جهنم المشتعله عذابا و عقوبه.

و سينتهى إلى نفس هذا المصير كل من كفر بالقرآن الكريم الذى نزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

۱- ۱) -الناس اسم جمع و يؤيد ذلك ضمير الجمع الراجع إليه فى الآيه.

۲- ۲) -تفسير البرهان،ج ۱،ص ۳۷۶،و قد جاء فى تفسير روح المعانى حديث مشابه لهذا الحديث فى المضمون (روح المعانى،ج ۵،ص ۵۲).

۳- ۳) -المصدر السابق.

دور الحسد فی الجرائم:

«الحسد»یعنی تمنی زوال النعمه عن الآخرین سواء وصلت تلک النعمه إلی الحسود،أم لم تصل إلیه،و علی هذا الأساس تنصب جهود الحسود علی فناء ما لدی الآخرین و زواله عنهم أم تمنی ذلک،لا أن تنتقل تلک النعمه إلیه.

إن الحسد منشأ للکثیر من المآسی و المتاعب الاجتماعیه،من ذلک.

۱-إنّ الحاسد یصرف کل أو جلّ طاقاته البدنیه و الفکریه-التی یجب أن تصرف فی ترشید الأهداف الاجتماعیه-فی طریق الهدم و التحطیم لما هو قائم، و لهذا فهو یبدد طاقاته الشخصیه و الطاقات الاجتماعیه معا.

۲-إنّ الحسد هو الدافع لکثیر من الجرائم فی هذا العالم،فلو أنّنا درسنا العلل الأصلیه وراء جرائم القتل و السرقه و العدوان و ما شابه ذلک لرأینا-بوضوح -أنّ أکثر هذه العلل تنشأ من الحسد،و لعلّه لهذا السبب شبّه الحسد بشراره من النار یمکنها أن تهدد کیان الحاسد أو المجتمع الذی یعیش فی وسطه بالخطر، و تعرضه للضرر.

یقول أحد العلماء:إنّ الحسد من أخطر الصفات،و یجب أن یعتبر من أعدی أعداء السعاده، فیجب أن یجتهد الإنسان لدفعه و التخلص منه.

إنّ المجتمعات التی تتألف من الحاسدین الضیقی النظره مجتمعات متأخره متخلفه،و الحساد-فی الأغلب-عناصر قلقه و أفراد مرضی یعانون من متاعب و آلام جسدیه و عصبیه،و ذلک قد أصبح من المسلم الیوم أن أکثر الأمراض و الآلام الجسدیه تنشأ من علل نفسیه،فإنّنا نلاحظ الآن بحوثا مفصله فی الطب حول الأمراض التی تختص بمثل هذه.

هذا و الجدیر بالذکر ورود التأکید علی هذه المسأله فی أحادیث أئمّه الدین وقاده الإسلام،

ففی روایه عن الإمام علی علیه السّلام نقرأ قوله:«صحه الجسد من قلّه الحسد» و

«العجب لغفله الحساد عن سلامه الأجساد».

بل و وردت روایات تصرح بأن الحسد یضرّ بالحاسد قبل أن یضرّ بالمحسود،بل و یؤدی إلی القتل و الموت تدریجا.

۴-إنّ الحسد یعدّ-من الناحیه المعنویه-من علائم ضعف الشخصیه و عقده الحقاره،و من دلائل الجهل و قصر النظر و قلّه الإیمان،لأنّ الحاسد-فی الحقیقه- یری نفسه أعجز و أقل من أن یبلغ ما بلغه المحسود من المکانه أو أعلی من ذلک، و لهذا یسعی الحاسد إلی أن یرجع المحسود إلی الوراء،هذا مضافا إلی أنّه بعمله یعترض علی حکمه اللّه سبحانه واهب جمیع النعم و جمیع المواهب،و علی إعطائه سبحانه النعم إلی من تفضل بها علیه من الناس،و لهذا

جاء فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السّلام «الحسد أصله من عمی القلب و الجحود لفضل اللّه تعالی،و هما جناحان للکفر،و بالحسد وقع ابن آدم فی حسره الأبد،و هلک مهلکا لا ینجو منه أبدا» (۱) .

فهذا هو القرآن الکریم یصرّح بأنّ أوّل جریمه قتل ارتکبت فی الأرض کان منشؤها الحسد (۲) .

و

جاء فی نهج البلاغه عن الإمام علی علیه السّلام أنّه قال: «إنّ الحسد یأکل الإیمان کما تأکل النار الحطب» (۳) و ذلک لأنّ الحاسد یزداد سوء ظنه باللّه و بحکمته و عدالته شیئا فشیئا،و هذا الأمر یؤدی به إلی الخروج عن جاده الإیمان.

إنّ آثار الحسد و أضراره المادیه و المعنویه و تبعاته الفردیه و الاجتماعیه کثیره جدّا،و ما ذکرناه إنّما هو فی الحقیقه جدول سریع عن بعض هذه الآثار و المضار.

۱- ۱) -مستدرک الوسائل،ج ۲،ص ۳۲۷.

۲- ۲) -المائده،۲۷.

۳- ۳) -نهج البلاغه،الخطبه ۸۶.

الآيتان [سوره النساء (۴): الآيات ۵۶ الی ۵۷]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا اَلْعَذَابَ إِنَّ اَللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً (۵۶) وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (۵۷)

التّفسیر

تعقیبا علی الآیات السابقه شرحت هاتان الآیتان مصیر المؤمنین و الکافرین.

فالآیه الأولی تقول: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیاتِنا سَوْفَ نُصْلِیهِمْ (۱) ناراً کُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَیْرَها لِیَذُوقُوا الْعَذابَ إِنَّ اللّهَ کانَ عَزِیزاً حَکِیماً .

و علّه تبدیل الجلود-علی الظاهر-هی أنّه عند ما تنضج الجلود یخف الإحساس بالألم لدی الإنسان،و لکی لا تتخفف عقوبتها و عذابها و لیحس

ص: ۲۷۶

---

۱ – ۱) -«نصلیهم»من ماده«الصلی»بمعنی الإلقاء فی النار،و الاشتواء بالنّار،أو التدفؤ بالنار،و«نضجت»من ماده «نضج»بمعنی أدرکت شیها،و صارت مشویه.

الإنسان بالألم إحساسا كاملا،تبـدل الجلود،و تأتی مکان الجلود الناضـجه جلود جدیـده،و ما هـذا إلّا نتیجه الإصـرار علی تجاهل الأوامر الإلهیه،و مخالفه الحق و العدل،و الإعراض عن طاعه اللّه.

ثمّ یقول سـبحانه فی ختام الآیه: إِنَّ اللّهَ کانَ عَزِیزاً حَکِیماً أی أنّه قادر بعزّته أن یوقع هـذه العقوبات بالعصاه،و أنّه لا یفعل ذلک اعتباطا،بل عن حکمه و علی أساس الجزاء علی المعصیه.

ثمّ یقول سبحانه فی الآیه الثانیه: وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها أَبَداً لَهُمْ فِیها أَزْواجٌ مُطَهَّرَهٌ وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِیلاً (۱) .

أی أنّنا نعد المؤمنین الذین یعملون الصالحات بأنّ ندخلهم جنّات تجری من تحت أشـجارها الأنهار و السواقی یعیشون فیها حیاه خالـده،هـذا مضافا إلی ما یعطون من أزواج مطهّرات یستریحون إلیهن،و یجدون فی کنفهن لذه الروح و الجسد،و ینعمون تحت ظلال خالده بدل الظلال الزائله،لا تؤذیهم الریاح اللافحه کما لا یؤذیهم الزمهریر أبدا.

بحث عن الآیه:

اشاره

من الأمور الجدیره بالاهتمام و المسـتفاده من المقایسه بین هاتین الآیتین هو عموم الرحمه الإلهیه و سـبق رحمته علی غضـبه،لأنّ فی الآـیه الأـولی ذکرت عقوبه الکفار مبـدوءه بکلمه«سوف»فی حین بـدأ الوعـد الإلهی للمؤمنین ب «السـین»«سـندخلهم»،و من المعلوم استعمال سوف فی اللغه العربیه فی المستقبل البعید،و استعمال السین فی المستقبل القریب،مع أننا نری أنّ کلتا الآیتین

---

۱ – ۱) –«الظلیـل»من مـاده«الظل»بمعنی الفیء،و اسـتعمل هنا للتأکیـد،لأن معناه الظل المظلل أو الظل الظلیل و هو کنایه عن غایه الراحه و الدعه و الرفاه.

ترتبطان بالعالم الآخر،و جزاء المؤمنين و عقوبه الكافرين فی ذلک العالم-من الناحیه الفاصله الزمانیه-بالنسبه إلینا سواء.

فیکون الاختلاف و التفاوت بین التعبیرین للإشاره إلی سرعه وسعه الرحمه الإلهیه،و بعد و محدودیه الغضب الإلهی،و هو یشابه نفس العباره التی نرددها فی الأدعیه و هی:«یا من سبقت رحمته غضبه».

سؤال:

من الممکن أن یعترض معترض هنا قائلا-بأنّ الآیه الحاضره تقول:إنّنا کلّما نضجت جلود العصاه الکفره بدّلناهم جلودا غیرها لیذوقوا العقوبه الإلهیه،فی حین أنّ الجلود العاصیه هی الجلود الأصلیه،فیکون تعذیب الجلود الجدیده مخالفا للعدل الإلهی،فکیف ذلک؟

جواب:

لقد طرح هذا السؤال بعینه من قبل ابن أبی العوجاء الرجل المادی المعروف علی الإمام الصّادق علیه السّلام حیث قال بعد تلاوه هذه الآیه«و ما ذنب الغیر»؟یعنی ما ذنب الجلود الجدیده؟فردّ الإمام علی هذا السؤال بجواب مختصر فی غایه العمق حیث

قال: «هی هی و هی غیرها» یعنی أنّ الجلود الجدیده هی نفس الجلود السابقه فی حین أنّها غیرها.

فقال ابن أبی العوجاء الذی کان یعلم أنّ فی هذه العباره القصیره سرّا:مثل لی فی ذلک شیئا من أمر الدنیا.

فقال الإمام علیه السّلام: «أ رأیت لو أنّ رجلا أخذ لبنه فکسرها،ثمّ ردها فی ملبنها،فهی هی،و هی غیرها» (۱) .

و یستفاد من هذه الرّوایه أن الجلود الجدیده تتألف من نفس عناصر الجلود القدیمه،أی أن العناصر هی ذات العناصر و إن اختلف الترکیب.

۱- ۱) -مجالس،للشّیخ الطّوسی رحمه اللّه،و الإحتجاج،للطّبرسی رحمه اللّه.

ثمّ إنّه لا ـ بـدّ الالتفـات إلى أن الثواب و العقاب يرتبطان-فى الحقيقه-بروح الإنسان و قوّه إدراكه،و الجسم-دائما-وسيله لانتقال الثواب و العذاب إلى روح الإنسان.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۵۸]

اشاره

إِنَّ اَللّٰهَ یَأْمُرُکُمْ أَنْ تُؤَدُّوا اَلْأَمٰانٰاتِ إِلیٰ أَهْلِهٰا وَ إِذٰا حَکَمْتُمْ بَیْنَ اَلنّٰاسِ أَنْ تَحْکُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اَللّٰهَ نِعِمّٰا یَعِظُکُمْ بِهِ إِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ سَمِیعاً بَصِیراً (۵۸)

سبب النّزول

و روی فی تفسیر مجمع البیان و تفاسیر إسلامیه أخری إنّ هذه الآیه نزلت عند ما دخل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مکّه المکرمه منتصرا فاتحا،فاستحضر عثمان بن طلحه و کان سادن الکعبه فطلب منه مفتاح الکعبه المعظمه،لیطهرها من الأصنام و الأوثان الموضوعه فیها،فلمّا فرغ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من ذلک سأله العباس أن یعطیه المفتاح لیجمع له بین منصب السقایه و منصب السدانه الذی له فی العرب شان و شاو مجید(و الظاهر أنّ العباس أراد أن یستفید من نفوذ و مکانه ابن أخیه الاجتماعیه و السیاسیه لمصلحته الشخصیه)،و لکن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فعل خلاف ذلک، فإنّه بعد ما طهر الکعبه من الأصنام و الأوثان،أمر علیا علیه السّلام أن یردّ المفتاح إلی «عثمان بن طلحه»ففعل ذلک و هو یتلو الآیه الحاضره: إِنَّ اللّٰهَ یَأْمُرُکُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمٰانٰاتِ إِلیٰ أَهْلِهٰا... (۱) .

۱- ۱) -ذهب بعض المفسرین إلی أن الآیه الحاضره قبل فتح مکّه،و أنّ ما ذکر فی سبب النزول لیس بصحیح،و لکن ما

اشاره

قانونان إسلاميان مهمان:

الآيه الحاضره و إنّ نزلت-كالكثير من الآيات-فى مورد خاص،إلّا أن من البديهى أنّها تتضمّن حكما عامّا و شاملا للجميع،فهى تقول بصراحه: إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمٰانٰاتِ إِلىٰ أَهْلِهٰا .

و من الواضح أنّ للأمانه معنى وسيعا يشمل كلّ شيء مادى و معنوى،و يجب على كل مسلم-بصريح هذه الآيه-أن لا يخون أحدا فى أيه أمانه دون استثناء، سواء كان صاحب الأمانه مسلما أو غير مسلم،و هذا هو فى الواقع إحدى المواد فى«الميثاق الاسلامى لحقوق الإنسان»التى يتساوى تجاهها كل أفراد البشر.

و الجدير بالذكر أنّ الأمانه المذكوره فى سبب النزول لم تكن مجرد أمانه ماديه،و من جانب آخر كان صاحبها المؤدى إليه تلك الأمانه مشركا.

ثمّ إنّه سبحانه يشير-فى القسم الثّانى من الآيه-إلى قانون مهم آخر،و هو مسأله«العداله فى الحكومه»فيقول: وَ إِذٰا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّٰاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ أى إنّ اللّه يوصيكم أيضا أن تلتزموا جانب العداله فى القضاء و الحكم بين الناس، فتحكموا بعدل.

ثمّ قال سبحانه تأكيدا لهذين التعليمين: إِنَّ اللّٰهَ نِعِمّٰا يَعِظُكُمْ بِهِ .

ثمّ يقول مؤكدا ذلك أيضا: إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ سَمِيعاً بَصِيراً فهو يراقب أعمالكم و هو يسمع أحاديثكم و يرى أفعالكم.

إنّ هذا القانون هو الآخر قانون كلّى و عام،و يشمل كل نوع من القضاء و الحكومه،سواء فى الأمور الكبيره و الأمور الصغيره،إلى درجه أنّنا نقرأ فى الأحاديث الإسلاميه

أنّ صبيين ترافعا إلى الإمام الحسن بن على فى خط كتباه و حكماه فى ذلك ليحكم أىّ الخطين أجود،فبصر به علىّ عليه السّلام فقال:«يا بنى انظر

١)

ذكر فى سبب النزول صح أم لا،فإنّه لا يؤثر فى القانون المهم المستفاد من الآيه.

كيف تحكم فإن هذا حكم و اللّه سائلك عنه يوم القيامه» (۱) .

إنّ هـذين القانونين المهمّين(حفظ الأمانه،و العـداله فى الحكم و الحكومه) يمثلان قاعده المجتمع الإنسانى السـليم،و لا يسـتقيم أمر مجتمع،سواء كان ماديا أو إلهيا من دون تنفيذ و إجراء هذين الأصلين.

فالأصـل الأـوّل يقـول:إنّ الأـموال و الـثروات و المنـاصب و المسؤوليـات و المهـام و الرساميـل الإنسـانيه و الثقافـات و الـتراث و المخلفـات التـاريخيه،كلهـا أمانـات إلهيـه سـلمت بأيـدى أشـخاص مختلفيـن فى المجتمـع،و الجميـع مكلّفـون أن يحفظـوا هـذه الأمانات،و يجتهدوا فى تسليمها إلى أصحابها الأصليين،و لا يخونوا فيها أبدا.

و من جهه أخرى حيث إنّ الاجتماعـات تلاـزم التصادمات و الاحتكاكات فى المصالـح و المنافع،و لهـذا يتطلب الحل و الفصـل على أساس من الحكومه العادله و القضاء العادل حتى يزول و ينمحى كل أنواع التمييز الظالم من الحياه الاجتماعيه.

و كما أسـلفنا فإنّ الأمانه لا تنحصر فى الأموال التى يودعها الناس-بعضهم عند بعض-بل العلماء فى المجتمع هم أيضا مستأمنون يجب عليهم أن لاـ يكتموا الحقائق،بل حتى أبناء الإنسان و أولاده أمانات إلهيه لـدى الآباء و الأمهات فلا يفرطوا فى تربيتهم،و لا يقصـروا فى تـأديبهم و تعليمهم،و إلاّـ كـان ذلـك خيـانه فى الأمـانه الإلـهيه الـتى أمر اللّه بأدائهـا،بـل و فـوق ذلـك كلّه الوجود الإنسـانى،فهو و جميع الطاقـات المودوعه فيه«أمانـات اللّه»الـتى يجب على الإنسـان أن يجتهـد فى المحـافظه عليهـا،كمـا عليه أن يحافظ على صـحّه جسمه و سلامه روحه، و يحافظ على طاقه الشباب الفياضه،و فكره،و لا يفرط فيها،و لهذا لا يجوز له أن ينتحر أو يلحق الضرر بنفسه،حتى أنّه يستفاد من بعض الأحاديث و النصوص

۱- ۱) -تفسير مجمع البيان،ج ۳،ص ۶۴.

الإسلاميه إنّ علوم الإمامه و أسرارها و ودائعها التی یسلمها کل إمام إلی الإمام الذی بعده داخله فی هذه الآیه أیضا (۱) .

و الجدیر بالذکر،إنّ مسأله«أداء الأمانه»قدمت فی هذه الآیه علی مسأله «العداله»و لعلّ ذلک لأجل أنّ مسأله العدل فی القضاء و الحکم مترتبه دائما علی الخیانه،لأنّ الأصل هو أن أمناء بالأصاله،فإذا انحرف شخص أو أشخاص عن هذا الأصل وصل الدور إلی العداله لتوقّفهم علی مسئولیاتهم و تعرفهم بوظائفهم.

أهمیّه الأمانه و العدل فی الإسلام:

لقد ورد تأکید کبیر علی هذه المسأله فی المصادر الإسلامیه إلی درجه أنّنا قلّما نجد مثله فی مورد غیره من الأحکام و المسائل،و الأحادیث القصیره التالیه توضیح هذه الحقیقه:

-۱

عن الإمام الصّادق علیه السّلام أنّه قال:

«لا تنظروا إلی طول رکوع الرجل و سجوده فإن ذلک شیء اعتاده فلو ترکه استوحش،و لکن انظروا إلی صدق حدیثه و أداء أمانته» (۲) .

-۲

جاء فی حدیث آخر عن الإمام الصّادق علیه السّلام أنّه قال:

«إن علیّا إنّما بلغ ما بلغ به عند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بصدق الحدیث و أداء الأمانه» (۳) .

-۳

روی فی حدیث آخر عن الإمام الصّادق علیه السّلام أیضا قال لأحد أصحابه:

«أعلم أن ضارب علی بالسیف و قاتله لو ائتمننی و استنصحنی و استشارنی ثمّ قبلت ذلک منه لأدیت إلیه الأمانه» (۴) .

۱- ۱) -نور الثقلین،ج ۱،ص ۴۹۶.

۲- ۲) -نور الثقلین،ج ۱،ص ۴۹۶.

۳- ۳) -المصدر السابق.

۴- ۴) -المصدر السابق.

۴-و

فی روایات مرویه فی مصادر الشیعه و السنه عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نلاحظ هذا الحدیث السّاطع:

«آیه المنافق ثلاث:إذا حدّث کذب،و إذا وعد أخلف،و إذا ائتمن خان» (۱) .

۵-

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لعلی علیه السّلام:

«سوی بین أخصمین فی لحظک و لفظک» (۲) .

ص :۲۸۴

۱- ۱) -صحیح الترمذی و النسائی بناء علی نقل المنار و قد ورد نفس هذا المضمون فی سفینه البحار أیضا.

۲- ۲) -مجمع البیان،ج ۳،ص ۶۴.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۵۹]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اَللّٰهَ وَ أَطِیعُوا اَلرَّسُولَ وَ أُولِی اَلْأَمْرِ مِنْکُمْ فَإِنْ تَنٰازَعْتُمْ فِی شَیْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَی اَللّٰهِ وَ اَلرَّسُولِ إِنْ کُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ ذٰلِکَ خَیْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِیلاً (۵۹)

التّفسیر

اشاره

هذه الآیه و بعض الآیات اللاحقه تبحث عن واحده من أهم المسائل الإسلامیه،ألا و هی مسأله القیاده،و تعیین القاده و المراجع الحقیقیین للمسلمین فی مختلف المسائل الدینیه و الاجتماعیه.

فهی تأمر المؤمنین-أوّلا-بأن یطیعوا اللّه،و من البدیهی أنّه یجب أن تنتهی جمیع الطاعات-عند الفرد المؤمن-إلی طاعه اللّه سبحانه،و کل قیاده و ولایه یجب أن تنبع من ولایه اللّه سبحانه و ذاته المقدسه تعالی و تکون حسب أمره و مشیئته،لأنّه الحاکم و المالک التکوینی لهذا العالم،و کلّ حاکمیه و مالکیه یجب أن تکون بإذنه و بأمره: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللّٰهَ .

و فی المرحله الثّانیه تأمر باتّباع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إطاعته،و هو النّبی المعصوم الذی لا ینطق عن الهوی و لا ینطلق من الهوس،و النّبی الذی هو خلیفه اللّه بین الناس،و کلامه کلام اللّه،و قد أعطی هذا المقام من جانب اللّه سبحانه،و لهذا تکون

إطاعه اللّه ممّا تقتضيه خالقيته و حاكميه ذاته المقدسه، و لكن إطاعه النّبى و اتّباع أمره ناشئ من أمر اللّه.و بعباره أخرى فإنّ اللّه واجب الإطاعه بالذات و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم واجب الإطاعه بالعرض،و لعل تكرار«أطيعوا»فى هذه الآيه للإشاره إلى مثل هذا الفرق بين الطاعتين وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ .

و فى المرحله الثانيه يأمر سبحانه بإطاعه أولى الأمر القائمين من صلب المجتمع الإسلامى،و الذين يحفظون للناس أمر دينهم و دنياهم.

من هم أولوا الأمر؟

ثمّه كلام كثير بين المفسّرين فى المقصود من أولى الأمر فى هذه الآيه، و يمكن تلخيص أوجه النظر فى هذا المجال فى ما يلى:

۱-ذهب جماعه من مفسّرى أهل السنّه إلى أنّ المراد من«أولى الأمر» هم الأمراء و الحكام فى كل زمان و مكان،و لم يستثن من هؤلاء أحدا،فتكون نتيجه هذا الرأى هى:إنّ على المسلمين أن يطيعوا كل حكومه و سلطه مهما كان شكلها حتى إذا كانت حكومه المغول،و دولتهم الجائره.

۲-ذهب البعض من المفسّرين-مثل صاحب تفسير المنار و صاحب تفسير فى ظلال القرآن و آخرون-إلى أنّ المراد من«أولى الأمر»ممثلو كافه طبقات الأمه،من الحكام و القاده و العلماء و أصحاب المناصب فى شتى مجالات حياه الناس،و لكن لا تجب طاعه هؤلاء بشكل مطلق و بدون قيد أو شرط،بل هى مشروطه بأن لا تكون على خلاف الأحكام و المقررات الإسلاميه.

۳-ذهبت جماعه أخرى إلى أنّ المراد من«أولى الأمر»هم القاده المعنويون و الفكريون،أى العلماء و المفكرون العدول العارفون بمحتويات الكتاب و السنه معرفه كامله.

۴-و ذهب بعض مفسّرى أهل السنه إلى أنّ المراد من هذه الكلمه هم

«الخلفاء الأربعه»الـذين شـغلوا دست الخلافه بعد رسول اللّه خاصّه و لا تشـمل غيرهم،و على هذا لا يكون لأولى الأمر أى وجود خارجى فى الأعصر الاخرى.

۵-يفسر بعض المفسّرين«أولى الأمر»بصحابه الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

۶-هناك احتمال آخر يقول-فى تفسير أولى الأمر-إنّ المراد منه هم القاده العسكريون المسلمون،و أمراء الجيش و السرايا.

۷-ذهب كلّ مفسّرى الشيعه بالاتفاق إلى أنّ المراد من«أولى الأمر»هم الأئمّه المعصومون عليهم السّلام الذين أنيطت إليهم قياده الأمه الإسـلاميه الماديه و المعنويه فى جميع حقول الحياه من جانب اللّه سـبحانه و النّبى الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم،و لا تشـمل غيرهم،اللّهم إلاّ الذى يتقلد منصـبا من قبلهم،و يتولى أمرا فى إداره المجتمع الإسلامى من جانبهم-فإنّه يجب طاعته أيضا إذا توفرت فيه شروط معينه،و لا تجب طاعته لكونه من أولى الأمر،بل لكونه نائبا لأولى الأمر و وكيلا من قبلهم.

و الآن لنستعرض التفاسير المذكوره أعلاه باختصار:

لاـ شـك أنّ التّفسـير الأـوّل لا يناسب مفهوم الآيه و روح التعاليم الإسـلاميه بحال،إذ لا يمكن أن تقترن طاعه كل حكومه-مهما كانت طبيعتها-و من دون قيد أو شـرط بإطاعته اللّه و النّبى،و لهذا تصدى كبار علماء السـنه لنفى هذا الرأى و التّفسير مضافا إلى علماء الشيعه.

و كذا التّفسير الثّانى:فإنّه لا يناسب إطلاق الآيه الشريفه،لأنّ الآيه توجب إطاعه أولى الأمر من دون قيد أو شرط.

و هكـذا التّفسـير الثّالث،يعنى تفسـير«أولى الأـمر»بالعلمـاء و العـدول و العارفين بالكتاب و السـنه،فهو لا يناسب إطلاق الآيه،لأنّ لإطـاعه العلمـاء و إتبـاعهم شــروطا مـن جملتهـا أن لاـ يكـون كلاـمهم على خلاـف الكتـاب و الســنه، و على هـذا لـو ارتكبـوا خطأ(لكونهم عرضه للخطأ و غير معصومين)أو انحرفوا

عن جاده الحقّ لأی سبب آخر لم تجب طاعتهم،فی حین توجب الآیه الحاضره إطاعه أولی الأمر بنحو مطلق کإطاعه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،هذا مضافا إلی أنّ إطاعه العلماء إنّما هی فی الأحکام التی یستفیدونها من الکتاب و السنه،و علی هذا لا تکون إطاعتهم شیئا غیر إطاعه اللّه و إطاعه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فلا حاجه إلی ذکرها بصوره مستقله.

و أمّا التّفسیر الرّابع(و هو حصر عنوان أولی الأمر بالخلفاء الأربعه الأوائل) فمؤداه عدم وجود مصداق لأولی الأمر بین المسلمین فی هذا الزمان هذا مضافا إلی عدم وجود دلیل علی مثل هذا التخصیص.

و التّفسیر الخامس و السّادس:یعنیان تخصیص هذا العنوان بالصحابه أو القاده العسکریین المسلمین،و یرد علیها نفس الإشکال الوارد علی التّفسیر الرّابع،یعنی أنّه لا یوجد أی دلیل علی مثل هذا التخصیص أیضا.

و قد أراد جماعه من مفسّری السنه مثل«محمّد عبده»العالم المصری المعروف-تبعا لبعض ما قاله المفسّر المعروف الفخر الرازی-أن یقبل بالاحتمال الثّانی(القاضی بأنّ أولی الأمر هم ممثلو مختلف طبقات المجتمع الإسلامی من العلماء و الحکام و غیر هؤلاء من طبقات و فئات المجتمع الإسلامی)مشروطا ببعض الشروط و مقیدا ببعض القیود،مثل أن یکونوا مسلمین(کما یستفاد من کلمه«منکم»فی الآیه)و أن لا یکون حکمهم علی خلاف الکتاب و السنه،و أن یحکموا عن اختیار لا جبر و لا قهر،و أن یحکموا وفق مصالح المسلمین،و أن یتحدثوا فی مسائل یحقّ لهم التدخل فیها(لا مثل العبادات التی لها قوانین و أحکام ثابته فی الإسلام)و أن لا یکون قد ورد فی الحکم الذی أصدروه نص خاص من الشرع،و أن یکونوا-فوق کل هذا-متفقین فی الرأی و الحکم.

و حیث إنّ هؤلاء یعتقدون أن مجموع الأمّه أو مجموع ممثلیها لا تخطأ و لا تجتمع علی خطأ،-و بعباره أخری-أن مجموع الأمّه معصومه(أو أنّ الأمّه

بوصـفها معصومه)تكون نتيجه هذه الشروط وجوب إطاعه مثل هذا الحكم بشكل مطلق و من دون قيد أو شرط تماما مثل إطاعه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم(و مؤدى هـذا الكلام هـو حجّيّه الإجماع).و لكن ترد على هـذا التّفسير أيضا إشكالات و اعتراضات عديده و هى:

أوّلا:إنّ الاتفاق فى الرأى فى المسائل الاجتماعيه قلّما يتفق و قلّما يتحقق، و على هـذا فإن هـذا الرأى يستلزم وجود حاله من الفوضى و الانتظام فى أغلب شؤون المسلمين و بصوره دائمه.

و أمّا إذا أراد هؤلاء قبول رأى الأكثريه فيرد عليه: إنّ الأكثريه لا تكون معصومه أبدا،و لهذا لا تجب إطاعتها بنحو مطلق.

ثانيا:لقد ثبت فى علم الأصول،أنّه ليس هناك أى دليل على عصمه مجموع الأمّه من دون وجود الإمام المعصوم بينهم.

ثالثا:إنّ أحد الشرائط التى يذكرها أنصار هـذا التّفسير هو أن لا يكون حكم هؤلاء«أى أولوا الأمر»على خلاف الكتاب و السنه،فيجب حينئذ أن نرى من الذى يشخّص أن هـذا الحكم مخالف للكتاب و السنه أو لا،لا شك أن ذلك من مسئوليه المجتهدين و الفقهاء العارفين بالكتاب و السنه،و يعنى هـذا إنّ إطاعه أولى الأمر لا يجوز بدون إجازه المجتهدين و العلماء،بل تلزم أن تكون إطاعه العلماء أعلى من إطاعه أولى الأمر،و هذا لا يناسب و لا يوافق ظاهر الآيه الشريفه.

صحيح أن هؤلاء اعتبروا العلماء جزء من أولى الأمر«و لكن الحقيقه أن العلماء و المجتهدين-وفق هذا التّفسير-اعترف بهم على أنّهم المراقبون و المراجع العليا من بقيه ممثلى مختلف فئات الأمّه،لا أنّهم فى مستوى بقيه الممثلين المذكورين،لأنّ على العلماء و الفقهاء أن يشرفوا على أعمال الآخرين و يشخصوا موافقتها للكتاب و السنه،و بهذا يكون العلماء مراجع عليا لهم،و هذا لا

يناسب التّفسير المذكور و لا يوافقه.

و على هذا الأساس يواجه التّفسير الحاضر(أى الثّانى)إشكالات و مآخذ من وجهات عديده.

فيبقى تفسير واحد سليما من جميع الاعتراضات السابقه و هو التّفسير السّابع:(و هو تفسير أولى الأمر بالأئمّه المعصومين عليهم السّلام لموافقه هذا التّفسير لإطلاق وجوب الإطاعه المستفاد من الآيه المبحوثه هنا،لأن مقام«العصمه» يحفظ الإمام من كلّ معصيه و يصونه عن كل خطأ،و بهذا الطريق يكون أمره-مثل أمر الرّسول-واجب الإطاعه من دون قيد أو شرط،و ينبغى أن يوضع فى مستوى إطاعته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،بل و إلى درجه أنها تعطف على إطاعه الرّسول من دون تكرار«أطيعوا».

و الجدير بالانتباه إلى أنّ بعض العلماء المعروفين من أهل السنه،و منهم المفسر المعروف الفخر الرازى اعترف بهذه الحقيقه فى مطلع حديثه عند تفسير هذه الآيه حيث قال:«إنّ اللّه تعالى أمر بطاعه أولى الأمر على سبيل الجزم فى هذه الآيه،و من أمر اللّه بإطاعته على سبيل الجزم و القطع لا بدّ أن يكون معصوما عن الخطأ،إذ لو لم يكن معصوما عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ قد أمر اللّه بمتابعته،فيكون ذلك أمرا بفعل ذلك الخطأ،و الخطأ لكونه خطأ منهىّ عنه، فهذا يفضى إلى اجتماع الأمر و النهى فى الفعل الواحد،فثبت أن اللّه تعالى أمر بطاعه أولى الأمر على سبيل الجزم،و ثبت إن كل من أمر اللّه بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوما عن الخطأ».

و أضاف قائلا:«ذلك المعصوم إمّا مجموع الأمّه أو بعض الأمّه،و لا يجوز أن يكون بعض الأمّه لأن إيجاب طاعتهم قطعا مشروط بكوننا عارفين بهم،و نحن عاجزون عن الوصول إليهم،و إذا كان الأمر كذلك علمنا أنّ المعصوم الذى أمر اللّه المؤمنين بطاعته ليس بعضا من أبعاض الأمّه،و لمّا بطل هذا وجب أن يكون ذلك

المعصوم الـذی هو المراد بقوله:«و أولی الأمر»هم أهل الحل و العقد و من الأمّه (أی الأمّه کلها و ذلک یوجب القطع بأن إجماع الأمّه حجّه) (۱) .

و هکـذا نری الفخر الرازی مع ما نعهـد منه من کثیره الإشـکال فی مختلف المسائل العلمیه،قـد قبل دلاله هذه الآیه علی أنّ أولی الأـمر یجب أن یکونوا معصومین،غـایه ما فی الأمر حیث أنّه لم یکن عارفا بمـذهب أهل البیت النبوی علیهم السّـلام و أئمّه هـذا المـذهب تجاهل احتمال أن یکون«أولی الأمر»أشـخاصا معنیین من الامه،فاضـطر إلی تفسـیر«أولی الأمر»بمجموع الامّه(أو ممثلی عموم فئـات الاـمّه)،فی حین أن هـذا الاحتمـال لاـ یمکن القبول به،لأـن أولی الأـمر -کما قلنا فی ما سـبق-یجب أن یکونوا قاده المجتمع الإسـلامی،و تتمّ الحکومه الإسـلامیه و الحکم بین المسـلمین بهم،و نعلم أنه لاـ یمکن لا فی الحکومه الجماعیه(المتألفه من مجموعه الأـمّه)بـل و لا من ممثلی فئاتها أن یتحقق اجتماع و اتفاق فی الرأی مطلقا،لأنّ الحصول علی إجماع من جانب الامّه جمیعـا أو من جانب ممثلیها فی مختلف المسائل الاجتماعیه و السیاسـیه و الثقافیه و الخلقیه و الاقتصادیه،لا یتیسـر و لا یتحقق فی الأغلب،کما أنّ إتّباع الأکثریه-کـذلک-لا یعـد اتّباعا لأولی الأمر،و لهذا یلزم من کلام الرازی و من تبعه من العلماء المعاصـرین أن تتعطل مسأله إطاعه«أولی الأمر»،أو تصیر مسأله نادره و استثنائیه جدا....

و من کل ما قلناه نستنتج أنّ الآیه الشریفه تثبت قیاده و ولایه الأئمّه المعصومین الذین یشکلون نخبه من الامّه الإسلامیه(تأمل).

أجوبه علی أسئله:

ثمّ إنّ هناک اعتراضات و مآخذ علی هذا التّفسیر(السّابع)یجدر طرحها هنا

۱- ۱) -التّفسیر الکبیر للفخر الرازی،ج ۱۰،ص ۱۴۴،طبعه مصر،عام ۱۳۵۷.

بتجرّد و موضوعيه:

۱-إذا كـان المراد من«أولى الأمر»هم الأئمّه المعصومون،فإنّ ذلک لا يناسب مع كلمه«أولى»التى هى بصيغه الجمع،لأنّ الإمام المعصوم فى كل عصر،شخص واحد لا أكثر.

و الجواب على هذا السؤال:أنّ الإمام المعصوم و إن كان فى كل عصر شخصا واحدا لا أكثر،إلّا أنّ الأئمه المتعددين فى الأعصر المختلفه يشكلون جماعه، و نحن نعلم أنّ الآيه لا تحدد وظيفه الناس فى عصر واحد.

۲-إنّ أولى الأمر-بهذا المعنى-لم يكونوا فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فكيف أمر القرآن الكريم بإطاعتهم؟ إنّ الجواب على هذا السؤال يتّضح أيضا من الكلام السابق،لأنّ الآيه لا تنحصر(أو لا تعنى)زمانا خاصا،بل توضح و تبيّن وظيفه المسلمين و واجبهم فى جميع العصور و القرون.

و بعباره أخرى،يمكن أن نقول أن أولى الأمر فى زمان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان شخص النّبى بالذات،لأن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان له منصبان منصب«الرساله»الذى أشير إليه فى الآيه المذكوره تحت عنوان أَطِيعُوا الرَّسُولَ و الآخر منصب«قياده الأمّه الإسلاميه»الذى ذكره القرآن الكريم تحت عنوان أُولِي الْأَمْرِ .

و على هذا يكون القائد و ولى الأمر المعصوم فى عهد النّبى هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فهو مضافا إلى ما له من منصب الرساله و إبلاغ الأحكام الإسلاميه،له منصب قياده الأمّه و ولايه أمرها،و لعل عدم تكرار جمله(و أطيعوا)بين(الرّسول)و«أولى الأمر»لا يخلو عن الإشاره إلى هذه النقطه.

و بعباره أخرى إن منصب«الرساله»و منصب«أولى الأمر»منصبان مختلفان اجتمعا فى شخص رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و لكن المنصب الثّانى فقط يتوفر فى كل إمام على حده،فللإمام منصب اولى الأمر فقط.

۳-إذا كـان المقصود من«أولى الأمر»هم الأئمّه المعصومون،فلما ذا أشار سـبحانه فى ذيل الآيه إلى مسأله التنازع و الاختلاف بين المسـلمين إذ قـال: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً فإنّنـا لا نشاهـد هنا أى حـديث عن«أولى الأمر»بل أشـير إلى اللّه تعالى(كتاب اللّه-القرآن)و النّبى(السـنه)كمرجع يجب أن يرجع إليه المسلمون عند الاختلاف و التنازع.

فى الإجابه على هذا الإشكال يجب أن نقول:

أوّلا:إنّ هذا الإشكال لا يختص بالتّفسير الشّيعى لهذه الآيه،بل يردّ على بقيه التفاسير أيضا،إذا أمعنا النظر قليلا.

و ثانيـا:لا شک أنّ المراد من الاختلاف و التنازع فى العباره الحاضـره هو الاختلاف و التنازع فى الأحكام،لا فى المسائل المتعلقه بجزئيات الحكومه و القياده الإسلاميه،لأنّه فى هذه المسائل يجب إطاعه أولى الأمر(كما صرّح بذلک فى الجمله الأولى من الآيه المبحوثه هنا).

و على هذا فالمراد من الاختلاف هو الاختلاف فى الأحكام و القوانين الكليه الإسـلاميه التى يعود أمر تشريعها إلى اللّه سبحانه و نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،لأنّنـا نعلم أنّ الإمـام مجرّد منفـذ للأحكـام الإلـهيه و ليس مشـرعا،و لا ناسـخا لشـیء من تلک الأحكـام،و إنّمـا عليه فقـط أن يطبق الأحكـام و الأوامر الإلهيه و السـنه النّبويه فى حياه الأمه،و لهـذا جاء فى أحاديث أهل البيت عليهم السّلام إنّهم قالوا:«إذا بلغكم عنّا ما يخالف كتاب اللّه و سنه نبيّه فاضربوه عرض الحائط و لا تقبلوه»أى يستحيل أن نقول ما يخالف كتاب اللّه و سنه نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و على هـذا فإنّ أوّل مرجع يرجع إليه المسـلمون لحل خلافاتهم فى الأحكام الإسـلاميه هو اللّه سـبحانه و النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الـذى يوحى إليه،و إذا مـا بيّن الأئمّه المعصومون أحكامـا،فـإنّ تلـک الأحكـام ليست سوى اقتباس من كتاب اللّه،أو هى

من العلوم التی وصلت إلیهم من النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و بهذا تتّضح علّه عدم ذکر أولی الأمر إلی جانب المرجع فی حلّ الاختلاف فی الأحکام المذکوره فی هذا الجزء من الآیه (۱) .

شهاده الأحادیث:

هذا و قد وردت فی المصادر الإسلامیه أیضا أحادیث تؤید تفسیر«أولی الأمر»بأئمّه أهل البیت علیهم السّلام منها:

۱-ما کتبه المفسّر الإسلامی المعروف أبو حیان الأندلسی المغربی (المتوفی عام ۷۵۶)فی تفسیره البحر المحیط:من أنّ هذه الآیه نزلت فی حقّ علی علیه السّلام و أهل بیته (۲) .

۲-روی العالم السنی أبو بکر بن مؤمن الشیرازی فی رساله الإعتقاد (حسب نقل الکاشی فی المناقب)عن ابن عباس أنّ الآیه الحاضره نزلت فی علی علیه السّلام عند ما خلفه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی المدینه(فی غزوه تبوک)

فقال علی علیه السّلام:

یا رسول اللّه تخلفنی مع النساء و الصبیان؟فقال له رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

«أما ترضی أن تکون منی بمنزله هارون من موسی حین قال أخلفنی فی قومی و أصلح فقال عز و جل: وَ أُولِی اَلْأَمْرِ مِنْکُمْ (۳) .

۳-و

روی الشیخ سلیمان الحنفی القندوزی و هو من أعلام أهل السنه المشهورین فی کتابه«ینابیع الموده»من کتاب«المناقب»عن«سلیم بن قیس

۱- ۱) -و إذا رأیناه سبحانه یرجع الأمّه فی حلّ بعض اختلافاتها إلی أولی الأمر فی الآیه(۸۳)من هذه السوره فالمراد منه لیس هو الاختلاف فی الأحکام و القوانین الإسلامیه الکلیه،بل هو-کما سیأتی فی تفسیر هذه الآیه- الاختلاف فی المسائل المتعلقه بطریقه تطبیق الأحکام الإسلامیه،و سیأتی شرح مفصل فی هذا المجال عند تفسیر الآیه بإذن اللّه.

۲- ۲) -البحر المحیط،ج ۳،طبعه مصر،ص ۴۲۵.

۳- ۳) -إحقاق الحق،ج ۳،ص ۴۲۵.

الهلالی»قال سمعت علیا صلوات اللّه علیه یقول: أتاه رجل فقال أرنی أدنی ما یکون به العبد مؤمنا،و أدنی ما یکون به العبد کافرا،و أدنی ما یکون به العبد ضالا ـ فقال:قد سألت فافهم الجواب...و أمّا أدنی ما یکون العبد به ضالا أن لا یعرف حجه اللّه تبارک و تعالی و شاهده علی عباده الذی أمر اللّه عزّ و جلّ عباده بطاعته و فرض ولایته.قلت:یا أمیر المؤمنین.صفهم لی.قال:الذین قرنهم اللّه تعالی:

بنفسه و بنبیّه فقال: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ .

فقلت له:جعلنی اللّه فداک أوضح لی؟فقال:الذین قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی مواضع و فی آخر خطبه یوم قبضه اللّه عز و جل إلیه:«إنّی ترکت فیکم أمرین لن تضلوا بعدی إن تمسکتم بهما:کتاب اللّه عز و جل و عترتی أهل بیتی» (۱) .

۴-و کذلک کتب نفس العالم فی کتاب«ینابیع الموده»:و فی المناقب فی تفسیر مجاهد:إنّ هذه الآیه نزلت فی أمیر المؤمنین علی علیه السّلام (۲) .

۵-رویت أحادیث کثیره فی مصادر الشیعه مثل کتاب الکافی و تفسیر العیاشی و کتب الصدوق و مصنفاته و غیرها تشهد جمیعها بأنّ المراد من«أولی الأمر»هم الأئمّه المعصومون،حتی أن بعضها ذکرت أسماء الأئمّه علیهم السّلام واحدا واحدا (۳) .

۱- ۱) -ینابیع الموده طبعه النجف الأشرف(الطبعه السابعه ص ۱۳۶-۱۳۷).

۲- ۲) -ینابیع الموده النجف،ص ۱۳۴.

۳- ۳) -راجع تفسیر البرهان،ج ۱،تفسیر الآیه.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۶۰]

اشاره

أَ لَمْ تَرَ إِلَى اَلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى اَلطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَ يُرِيدُ اَلشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً (۶۰)

سبب النّزول

كان بين رجل من اليهود و رجل من المسلمين المنافقين خصومه و اختلاف، فعزما على أن يحتكما إلى شخص،و حيث كان اليهودى يعرف بعدل النّبى و حياده و لأنّه علم أنّه لا يأخذ الرّشوه و لا يجور فى الحكم قال:أحاكم إلى محمّد،و لكن المنافق قال:لا،بل بينى و بينك كعب بن الأشرف،(لأنّه يأخذ الرّشوه و هو من أقطاب اليهود)،و بذلك رفض التحاكم إلى رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فنزلت الآيه توبّخ أمثال هذا الشخص،و تشجب بشدّه موقفهم المشين هذا (۱) .

و قد ذكر بعض المفسرين أسبابا أخرى لنزول هذه الآيه تشهد بأنّ بعض المسلمين الحديثى العهد بالإسلام كانوا-على عادتهم فى الجاهليه-يحتكمون -فى مطلع الإسلام-إلى علماء اليهود أو الكهنه،فنزلت الآيه الحاضره تنهى عن

۱- ۱) -تفسير مجمع البيان،نقل هذا السبب عن أكثر المفسرين.

هذه العاده المقيته بشدّه (۱) .

التّفسير

اشاره

حكومه الطّاغوت:

الآيه الحاضره-هی فی الواقع-مكمله للآيه السابقه،لأنّ الآيه السابقه كانت تدعو المؤمنين إلی طاعه اللّه و الرّسول و أولی الأمر،و التحاكم إلی الكتاب و السنه،و هذه الآيه تنهی عن التحاكم إلی الطاغوت و اتّباع أمره و حكمه.

و الطّاغوت-كما أشرنا إلی ذلک سابقا-مشتقّه من الطغيان،و هذه الكلمه مع جميع مشتقاتها تعنی التجاوز و التعدی و كسر الحدود و تجاهل القيود،أو كل شیء يكون وسيله للطغيان أو التمرّد.

و علی هذا الأساس يكون كل من يحكم بالباطل طاغوتا،لأنّه تجاوز حدود اللّه و تعدی علی قوانين الحقّ و العدل،

ففی الحديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام أنّه قال:

«الطّاغوت كلّ من يتحاكم إليه ممن يحكم بغير الحقّ».

و الآيه الحاضره تنهی المسلمين عن أن يترافعوا فی الحكم و القضاء إلی مثل هؤلاء الحكام و تقول: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحٰاكَمُوا إِلَی الطّٰاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ .

ثمّ يضيف القرآن قائلا: وَ يُرِيدُ الشَّيْطٰانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاٰلاً بَعِيداً أی أنّ التحاكم إلی الطاغوت فخّ الشيطان ليضل المؤمنين عن الصراط المستقيم.

و غير خفی أن الآيه الحاضره-شأنها شأن سائر الآيات القرآنيه الاخری- تتضمّن حكما عاما،و تبيّن قانونا خالدا لجميع المسلمين فی جميع العصور و الدهور.و تحذرهم من مراجعه الطواغيت،و طلب الحكم منهم،و إنّ ذلک لا

۱- ۱) -تفسير المنار،ج ۵،ص ۲۲۲.

يناسب الإيمان باللّه و الكتب السماويه،هذا مضافا إلى كونه يضل الإنسان عن طريق الحقّ،و يلقيه فى مجاهيل الباطل بعيدا عن الحق.

إنّ مفاسد و تبعات مثل هذه الأقضيه و الأحكام،و أثرها فى تحطيم كيان المجتمع البشرى و تخريب علاقاته و روابطه و أسسه ممّا لا يخفى على أحد،فهى أحد العوامل المؤثره فى انحطاط المجتمعات و تأخرها.

الآيات [سوره النساء (۴): الآيات ۶۱ الی ۶۳]

اشاره

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اَللّهُ وَ إِلَى اَلرَّسُولِ رَأَيْتَ اَلْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً (۶۱) فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلاّ إِحْساناً وَ تَوْفِيقاً (۶۲) أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ يَعْلَمُ اَللّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً (۶۳)

التّفسير

اشاره

نتائج حكم الطّاغوت:

فی أعقاب النهی الشدید عن التحاكم إلی الطاغوت و حكام الجور الـذی مرّ فی الآیه السابقه جاءت هـذه الآیات الثلاث تدرس نتائج أمثال هذه الأحكام و الأقضیه،و ما یتمسک به المنافقون لتبریر تحاكمهم إلی الطّواغیت و حكام الجور و الباطل.

ففی الآیه الأولی یقول سبحانه: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً .

و فی الحقیقه یقول القرآن فی هـذه الآیه:إنّ التحاكم إلی الطاغوت لیس خطأ عابرا یمكن أن یعالج ببعض التذكیر،بل إنّ الإصرار علی هذا العمل یكشف عن ضعف إیمانهم و روح النفاق فیهم،و إلاّ لوجب أن ینتبهوا و یثوبوا إلی رشدهم علی

دعوه رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لهم و يعترفوا بخطئهم: وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا إِلىٰ مٰا أَنْزَلَ اللّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنٰافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً .

ثمّ فى الآيه الثّانيه يبيّن هذه الحقيقه،و هى أن هؤلاء المنافقين عند ما يتورطون فى مصيبه كنتيجه لمواقفهم و أعمالهم،و يواجهون طريقا مسدوده يعودون إليك عن اضطرار و يأس: فَكَيْفَ إِذٰا أَصٰابَتْهُمْ مُصِيبَهٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جٰاؤُكَ... .

و يحلفون فى هذه الحاله أنّ هدفهم من التحاكم إلى الآخرين لم يكن إلاّ الإحسان و التوصل إلى الوفاق بين طرفى الدّعوى: يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنٰا إِلاّ إِحْسٰاناً وَ تَوْفِيقاً .

و هنا لا بدّ من الإشاره إلى نقطتين:

الأولى:أن نرى ما هو المقصود من المصيبه التى تصيبهم؟ لا يبعد أن تكون المصيبه هى ما ينشأ من مضاعفات و مآسى و ويلات من حكم الطواغيت،لأنّه لا شك فى أن الحكم الصادر من الأشخاص غير الصالحين و الظالمين و إن كان ينطوى على منفعه آنيه لأحد جانبى الدعوى،و لكن لا يمضى زمان إلاّ و يوجب هذا الحكم ظهور الفساد و انتشار الظلم و الجور،و سياده الهرج و المرج و تبعثر الكيان الاجتماعى،و لهذا فإنّه سرعان ما تواجه هؤلاء المتحاكمين إلى الطواغيت تبعات و مفاسد عملهم هذا،و سرعان ما يندمون على فعلهم هذا.

هذا و يحتمل بعض المفسّرين أنّ المراد من«المصيبه»هو الفضيحه التى تلحق بالمنافقين،أو المصائب التى تصيبهم بأمر اللّه سبحانه(كالمآسى و المحن الغير المتوقعه).

النّقطه الثّانيه:إنّ مقصود المنافقين من«الإحسان»هل هو الإحسان إلى طرفى الدعوى،أو إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟يمكن أن يكون مرادهم كلا الأمرين،فهم تذرعوا

بحجج مضحكه لتحاكمهم إلى الطاغوت و الرجوع إلى الأجانب،من جملتها أنّهم كانوا يقولون:إنّ التحاكم إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا ـ يناسب شأنه و لا ـ يليق بمقامه،لأنّ الغالب أن يحصل شجار و صياح فى محضر القضاه و من جانب المتداعيين،و ذلك أمر لا يناسب شأن النّبى و لا يليق بمكانته و محضره.

هذا مضافا إلى أنّ القضاء ينتهى دائما إلى الإضرار بأحد الطرفين،و لذلك فهو يثير حفيظته و عداوته ضد القاضى و الحاكم،و كأنّهم بأمثال هذه الحجج الواهيه و الأعذار الموهونه،كانوا يحاولون تبرئه أنفسهم و تبرير مواقفهم الباطله، و ادعاء أنّ تحاكمهم إلى غير النّبى كان بهدف التخفيف عن النّبى.

و ربّما اعتذروا لذلك قائلين:إنّ هدفنا لم يكن ماديا فى الأساس،بل كان التوصل إلى وفاق بين المتداعيين.

و لكن كشف سبحانه فى الآيه الثّالثه النقاب عن وجههم،و أبطل هذه التبريرات الكاذبه و قال: أُولٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّٰهُ مٰا فِي قُلُوبِهِمْ .

و لكنّه سبحانه يأمر نبيّه مع ذلك أن ينصرف عن مجازاتهم و عقوبتهم فيقول:

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

.

و لقد كان رسول اللّه يدارى المنافقين ما أمكنه لأجل تظاهرهم بالإسلام، لأنّه كان مأمورا بالتعامل معهم على حسب ظواهرهم،فلم يكن يجازيهم إلاّ فى بعض الموارد الاستثنائيه،لأنّهم كانوا بين صفوف المسلمين-فى الظاهر- فكانت مجازاتهم يمكن أن تحمل على أنها نشأت من أغراض شخصيه.

ثمّ إنّه سبحانه يأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يعظهم،و أن ينفذ إلى قلوبهم بالقول البالغ، و العظه المؤثره،يذكرهم بنتائج أعمالهم: وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً .

ص :٣٠١

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۶۴]

اشاره

وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ لِيُطٰاعَ بِإِذْنِ اَللّٰهِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جٰاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اَللّٰهَ وَ اِسْتَغْفَرَ لَهُمُ اَلرَّسُولُ لَوَجَدُوا اَللّٰهَ تَوّٰاباً رَحِيماً (۶۴)

التّفسیر

فی الآیات السابقه شجب القرآن الکریم التحاکم إلی حکّام الجور،و فی هذه الآیه یقول سبحانه مؤکدا:

وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ لِيُطٰاعَ بِإِذْنِ اللّٰهِ

أی أنّنا بعثنا الأنبیاء لیطاعوا بإذن اللّه و أمره و لا یخالفهم أحد،لأنّهم کانوا رسل اللّه و سفراءه کما کانوا رؤساء الحکومه الإلهیه أیضا،و علی هذا یجب علی الناس أن یطیعوهم من جهه بیان أحکام اللّه و من جهه طریقه تطبیقها،و لا یکتفوا بمجرّد ادعاء الإیمان.

و من هذه العباره یستفاد أنّ الهدف من إرسال الرسل و بعث الأنبیاء هو إطاعه جمیع الناس لهم،فإذا أساء بعض الناس استخدام حریتهم و لم یطیعوا الأنبیاء کان اللوم متوجها إلی أنفسهم لا إلی أحد.و بهذا تنفی الآیه الحاضره عقیده الجبریین الذین یقولون:الناس صنفان:صنف کلّف بالطاعه من البدء، و صنف کلّف بالمعصیه من البدء.

كما أنّه يستفاد من عباره بِإِذْنِ اللّهِ أن كل ما عند الأنبياء من اللّه،أو بعباره أخرى:إن وجوب طاعتهم ليس بالذات،بل هى-أيضا-بأمر اللّه و من ناحيته.

ثمّ إنّه سبحانه يترک باب التوبه و الإنابه-عقيب تلك الآيه-مفتوحا على العصاه و المذنبين،و على الذين يراجعون الطواغيت و يتحاكمون إليهم أو يرتكبون معصيه بنحو من الأنحاء،و يقول: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوّاباً رَحِيماً .

و الجدير بالتأمل و الانتباه إنّ القرآن يقول بدل:عصوا أمر اللّه و تحاكموا إلى الطاغوت: إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ و هو إشاره إلى أنّ فائده الطاعه لأمر اللّه و أمر الرّسول تعود إليكم أنفسكم،و إن مخالفه ذلک نوع من الظلم توقعونه على أنفسكم،لأنّها تحطم حياتكم الماديه،و توجب تخلفكم و انحطاطكم من الناحيه المعنويه.

إنّ هذه الآيه تجيب ضمنا على كل الذين يعتبرون التوسل برسول اللّه أو بالإمام نوعا من الشرک،لأنّ الآيه تصرح بأن التوسل بالنّبى و الاستشفاع به إلى اللّه،و طلب الاستغفار منه لمغفره المعاصى،مؤثر و موجب لقبول التوبه و شمول الرحمه الإلهيه.

فلو كانت وساطه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و دعاؤه للعصاه المتوسلين به،و الاستشفاع به و طلب الاستغفار منه شركا،فكيف يمكن أن يأمر القرآن العصاه و المذنبين بمثل هذا الأمر؟ نعم،غايه ما فى الباب أنّ على العصاه و المذنبين أنفسهم أن يتوبوا هم و يرجعوا عن طريق الخطأ،ثمّ يستفيدوا-لقبول توبتهم-من استغفار النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و من البديهى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس من شأنه أن يغفر الذنوب،بل شأنه فى المقام أن يطلب من اللّه المغفره خاصّه،و هذه الآيه إجابه مفحمه للذين ينكرون مشروعيه أو فائده هذه الوساطات.

هـذا و المفلت للنظر أنّ القرآن الكريم لم يقل:استغفر لهم يا رسول اللّه،بل قال: وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ و هذا التعبير-لعلّه-إشاره إلى أن يستفيد النّبى من مقامه و مكانته و يستغفر للعصاه التائبين.

إنّ هذا الموضوع(أى تأثير استغفار النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للمؤمنين)ورد فى آيات أخرى من القرآن الكريم أيضا مثل الآيه(١٩)من سوره محمّد و الآيه(۵)من سوره المنافقون و الآيه(١١۴)من سوره التوبه التى تشير إلى استغفار إبراهيم لأبيه(عمّه)،و الآيات الاخرى التى تنهى عن الاستغفار للمشركين،و مفهومها جواز الاستغفار للمؤمنين،كما يستفاد من بعض الروايات إن الملائكه تستغفر لجماعه من المؤمنين المذنبين عند اللّه(سوره غافر الآيه ٧٧،و سوره الشورى الآيه ۵).

و خلاصه القول،إنّ هناك آيات كثيره تكشف عن هذه الحقيقه و هى إنّ الأنبياء،أو الملائكه،أو المؤمنين الصادقين الطيبين بامكانهم أن يستغفروا لبعض العصاه،و إن استغفارهم مؤثر عند اللّه،و هذا هو أحد معانى شفاعه النّبى أو الملائكه أو المؤمنين الطيبين للعصاه و الخاطئين،و لكن الشّفاعه كما قلنا تحتاج إلى أرضيه و صلاحيه و أهليه فى العصاه أنفسهم.

و العجيب أنّه يستفاد من بعض ما قاله جماعه من المفسّرين أنّهم أرادوا اعتبار استغفار النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-فى الآيه الحاضره-مرتبطا بالتجاوزات الواقعه فى شؤون النّبى خاصّه لا مطلق المعاصى و الذنوب،و كأنّهم أرادوا أن يقولوا:لو أنّ أحدا ظلم النّبى أو أساء إليه وجب استحلاله و استرضاؤه ليغفر اللّه تلك الإساءه و يتوب على ذلك التجاوز.

و لكن من الواضح البيّن أن إرجاع التحاكم إلى غير النّبى ليس ظلما شخصيا يهدف به شخص النّبى،بل هى مخالفه لمنصبه الإلهى الخاص(أو بعباره أخرى) إنّها مخالفه للأمر الإلهى،و حتى إذا كان ذلك ظلما شخصيا موجها إلى شخص

النّبی-افتراضا-فإن القرآن لم يقصـده و لم يركز عليه،بل ركز القرآن على هذا الموضوع و هو أن ذلک التحاکم مخالفه لأمر اللّه و تجاهل لإرادته.

هذا مضافا إلى أنّنا لو ظلمنا أحدا كفانا رضاه،فما الحاجه إلى طلب اسـتغفاره، و دعائه للمسیء؟بل و فوق ذلک كلّه،لو أننا فسّرنا الآيه بمثل هذا التّفسـير-فرضا-فما الذی نقوله فی تلک المجموعه الكبيره من الآيات التی تشـير إلى استغفار الأنبياء،و الملائكه و المؤمنين للعصاه و الخاطئين؟ فهل المقام فيها مقام الحقوق الشخصيه أيضا؟

ص :٣٠۵

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۶۵]

اشاره

فَلاٰ وَ رَبِّکَ لاٰ یُؤْمِنُونَ حَتّٰی یُحَکِّمُوکَ فِیمٰا شَجَرَ بَیْنَهُمْ ثُمَّ لاٰ یَجِدُوا فِی أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّٰا قَضَیْتَ وَ یُسَلِّمُوا تَسْلِیماً (۶۵)

سبب النّزول

وقع خصام بین الزّبیر بن العوام-و هو من المهاجرین-و بین رجل من الأنصار علی سقی نخیلهما التی کانت متقاربه فی المکان،فترافعا إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم -و حیث أن نخیل الزبیر کانت أعلی مکانا من نخیل الأنصاری،

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم للزبیر: «اسق ثمّ أرسل إلی جارک» (و قد کانت هذه هی العاده فی البساتین المتجاوره آنذاک)فغضب الأنصاری من حکم النّبی العادل هذا،و قال:یا رسول اللّه لئن کان ابن عمتک؟فتلون وجه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم انزعاجا من موقف الأنصاری و کلامه،فنزلت الآیه الحاضره تحذر المسلمین من مثل هذه المواقف.

و قد ذکرت فی بعض التفاسیر أسباب أخری لنزول الآیه تشابه-إلی درجه کبیره-ما ذکر فی سبب النزول المتقدم(راجع تفسیر التّبیان و الطّبرسی،و المنار).

ص: ۳۰۶

التّفسير

اشاره

التّسليم أمام الحق:

الآيه،و إن ذكر لها سبب نزولها خاص-و لكننا أسلفنا غير مرّه أن أسباب النزول الخاصّه لا تنافى عموميه مفهوم الآيات،و لهذا يمكن اعتبار هذه الآيه تكميلا لما جاء من البحث فى الآيات السابقه.

و لقد أقسم اللّه-فى هذه الآيه-بأنّ الأفراد لا يمكن أن يمتلكوا إيمانا واقعيا إلاّ إذا تحاكموا إلى النّبى و قضائه،و لم يتحاكموا إلى غيره فَلاٰ وَ رَبِّکَ لاٰ يُؤْمِنُونَ حَتّٰى يُحَكِّمُوكَ فِيمٰا شَجَرَ بَيْنَهُمْ .

ثمّ يقول سبحانه:يجب عليهم،أن يتحاكموا إليك فقط،و مضافا إلى ذلك ليرضوا بما تحكمه،سواء كان فى صالحهم أو فى ضررهم و لا يشعروا بأى حرج فى نفوسهم فضلا عن أن لا يعترضوا،و بالتالى ليسلموا تسليما.

ثُمَّ لاٰ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّٰا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً

:

و الانزعاج النفسى الباطنى من الأحكام التى ربّما تكون فى ضرر الإنسان، و إن كان فى الأغلب أمرا غير اختيارى،إلاّ أنّه على أثر التربيه الخلقيه المستمره يمكن أن تحصل لدى الإنسان روح التسليم أمام الحق،و الخضوع للعداله، خاصّه بملاحظه المكانه لواقعيه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،فلا ينزعج من أحكام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل و لا من أحكام العلماء الذين يخلفونه، و على كل فإن المسلمين الواقعيين مكلفون دائما بتنميه روح الخضوع للحق،و التسليم أمام العدل فى نفوسهم.

إن الآيه الحاضره تبيّن علائم الإيمان الواقعى الراسخ فى ثلاث مراحل:

١-أن يتحاكموا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-و حكمه النابع من الحكم الإلهى-فى ما اختلفوا فيه،كبيرا كان أم صغيرا،لا إلى الطواغيت و حكام الجور و الباطل.

٢-أن لا يشعروا بأى انزعاج أو حرج فى نفوسهم تجاه أحكام الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أقضيته العادله التى هى-فى الحقيقه-نفس الأوامر الإلهيه،و لا

يسيئوا الظن بهذه الأحكام.

۳-أن يطبقوا تلك الأحكام-فی مرحله تنفیذها-تطبیقا کاملا و یسلموا أمام الحق تسلیما مطلقا.

و من الواضح أنّ القبول بأی دین و أحکامه فی ما إذا کانت فی مصلحه الإنسان و کانت مناسبه لمنافعه و تطلعاته،لا یمکن أن یکون دلیلا علی إیمانه بذلک الدین،بل یثبت ذلک إذا کانت تلک الأحکام فی الاتجاه المتعاکس لمنافعه و تطلعاته ظاهرا،و إن کانت مطابقه للحق و العدل فی الواقع،فإذا قبل بمثل هذه الأحکام و سلم لها تسلیما کاملا کان ذلک دلیلا علی إیمانه و رسوخ اعتقاده.

فقد روی عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیه:«لو أن قوما عبدوا اللّه وحده لا شریک له و أقاموا الصلاه و آتوا الزکاه و حجوا البیت و صاموا شهر رمضان ثمّ قالوا لشیء صنعه اللّه و صنع رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم صنع هکذا و کذا،و لو صنع خلاف الذی صنع،أو وجدوا ذلک فی قلوبهم لکانوا بذلک مشرکین،ثمّ تلا هذه الآیه(الحاضره)ثمّ قال علیه السّلام:علیکم بالتسلیم» (۱) .

ثمّ أنّه یستفاد من الآیه الحاضره مطلبان مهمّان-ضمنا:

۱-إنّ الآیه إحدی الأدله علی عصمه النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،لأنّ الأمر بالتسلیم المطلق أمام جمیع أحکامه و أوامره قولا و عملا،بل و التسلیم القلبی و الخضوع الباطنی له أیضا دلیل واضح علی أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا یخطئ فی أحکامه و أقضیته و تعلیماته،و لا یتعمد قول ما یخالف الحق فهو معصوم عن الخطأ،کما هو معصوم عن الذنب أیضا.

۲-إنّ الآیه الحاضره تبطل کلّ اجتهاد فی مقابل النص الوارد عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و تنفی شرعیه کل رأی شخصی فی الموارد التی وصلت إلینا فیها أحکام صریحه من جانب اللّه تعالی و نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

۱- ۱) -تفسیر البرهان،ج ۲،ص ۳۸۹.

و على هذا الإساس فإن ما نراه فى التاريخ الإسـلامى من اجتهاد بعض الأشـخاص فى مقابل الأحكام الإلهيه و النصوص النبويه،و قولهم:قال النّبى كذا و نقول كذا،فليس أمامنا حياله إلاّ أن نذعن بأنّهم عملوا على خلاف صريح هذه الآيه،و خالفوا نصها.

ص :٣٠٩

الآيات [سوره النساء (۴): الآيات ۶۶ الى ۶۸]

اشاره

وَ لَوْ أَنّٰا كَتَبْنٰا عَلَيْهِمْ أَنِ اُقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اُخْرُجُوا مِنْ دِيٰارِكُمْ مٰا فَعَلُوهُ إِلاّٰ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مٰا يُوعَظُونَ بِهِ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً (۶۶) وَ إِذاً لَآتَيْنٰاهُمْ مِنْ لَدُنّٰا أَجْراً عَظِيماً (۶۷) وَ لَهَدَيْنٰاهُمْ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً (۶۸)

التّفسير

تكميلا للبحث السابق حول أولئك الذين يشعرون بضيق و حرج تجاه أحكام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أقضيته العادله بعض الأحيان-يشير القرآن هنا إلى بعض التكاليف و الفرائض الثقيله فى الأمم السالفه فيقول: وَ لَوْ أَنّٰا كَتَبْنٰا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ،أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيٰارِكُمْ مٰا فَعَلُوهُ إِلاّٰ قَلِيلٌ مِنْهُمْ .

أى أنّنا لم نكلّفهم بأيه فريضه شاقه لا تتحمل،و لو أنّنا كنّا نكلّفهم بمثل ما كلّفنا به الأمم السابقه(مثل اليهود الذين أمروا بأن يقتل بعضهم البعض الآخر كفاره لما ارتكبوه من عباده العجل،أو يخرجوا من وطنهم المحبب إليهم لذلك) كيف كانوا يتحملونه؟إنّهم لم يتحملوا حكما بسيطا أصدره النّبى فى أمر سقى نخلات،و لم يسلموا لهذا القضاء العادل،فكيف ترى يمكنهم أن يقوموا بالمهمات العظيمه و المسؤوليات الجسيمه و يمروا بالاختبارات الصعبه بنجاح،فلو أنّنا

أمرناهم بأن يقتلوا أنفسهم(أی يقتل بعضهم بعضا)أو يخرجوا من وطنهم المحبب عندهم لما فعله إلاّ قليل منهم.

إنّ مسأله«الاستعداد للقتل»تشبه-حسب قول بعض المفسّرين-مسأله «الخروج عن الوطن»من جهات عديده،لأنّ البدن وطن الروح الإنسانيه تماما كما أنّ الوطن مثل الجسم الإنسانی،فكما أنّ التغاضی عن ترک وطن الجسم أمر صعب،كذلک التغاضی عن الوطن الذی هو مسقط رأس الإنسان و محل ولادته و نشأته.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه يقول: وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مٰا يُوعَظُونَ بِهِ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً أی لو أنّهم قبلوا نصائح النّبی و مواعظه لكان ذلک من مصلحتهم، و لكان سببا لتقويه أسس الإيمان عندهم.

و الملفت للنظر أنّ القرآن يعبّر-فی هذه الآيه-عن الأحكام و الأوامر الإلهيه بالموعظه،و هو إشاره إلی أنّ الأحكام المذكوره ليست أمورا تصب فی مصلحه المشرّع(أی اللّه)أو تجر له نفعا،بل هی-فی الحقيقه-نصائح و مواعظ نافعه لكم، و لهذا يقول و دون تأخير: وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مٰا يُوعَظُونَ بِهِ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً أی تقويه لإيمانهم و ترسيخا لجذورها فی نفوسهم.

و لا بدّ أيضا أن ننتبه إلی هذه النقطه،و هی أنّ اللّه سبحانه يقول فی ختام هذه الآيه وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً أی كلّما اجتهد الإنسان فی السير فی سبيل طاعه اللّه و تنفيذ أوامره ازدادت استقامته و ازداد ثباته،و هذا يعنی أن إطاعه الأوامر الإلهيه نوع من الرياضه الروحيه التی تحصل للإنسان من تكرارها قوه و ثبات أكبر و استحكام أكثر،علی غرار ما يحصل للجسم نتيجه تكرار الرياضات الجسميه و التمارين الرياضيه البدنيه،فيصل الإنسان-نتيجه ذلک-إلی مرحله لا يمكن لأيه قدره أن تغلب قدرته أو تخدعه أو تزعزعه.

ثمّ إنّه سبحانه يبيّن-فی الآيه الثّانيه-الفائده الثّالثه من فوائد التسليم لأوامر

اللّه و طاعته إذ يقول: وَ إِذاً لَآتَيْنٰاهُمْ مِنْ لَدُنّٰا أَجْراً عَظِيماً أى إذا لأعطيناهم- مضافا إلى ما ذكرناه-أجرا من عندنا عظيما،لا يعرف منتهاه و لا يدرك مداه.

ثمّ فى آخر آيه من هذه الآيات يشير سبحانه إلى رابع نتيجه إذ يقول:

وَ لَهَدَيْنٰاهُمْ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً

.

و من الواضح البيّن أنّ المراد من هذه«الهدايه»ليس هو الإرشاد إلى أصل الدين،بل المراد الطاف جديده يمن بها اللّه سبحانه على مثل هؤلاء العباد الصالحين بعنوان الثواب و الهدايه الثانويه،فهو يشبه ما أشير إليه فى الآيه(١٧) من سوره محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ قال: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زٰادَهُمْ هُدىً .

و

قد روى أنّه عند ما نزل قوله: وَ لَوْ أَنّٰا كَتَبْنٰا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ...

قال رجل من المسلمين:و اللّه لو أمرنا لفعلنا فالحمد للّه الذى عافانا.

فلما بلغ هذا الكلام إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:

«إنّ من أمتى لرجالا الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى» (١) .

١- ١) -تفسير فى ظلال القرآن،ج ٢،ص ۴٢٨.

الآيتان [سوره النساء (۴): الآيات ۶۹ الی ۷۰]

اشاره

وَ مَنْ يُطِعِ اَللّٰهَ وَ اَلرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ اَلَّذِينَ أَنْعَمَ اَللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنَ اَلنَّبِيِّينَ وَ اَلصِّدِّيقِينَ وَ اَلشُّهَدٰاءِ وَ اَلصّٰالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً (۶۹) ذٰلِكَ اَلْفَضْلُ مِنَ اَللّٰهِ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ عَلِيماً (۷۰)

سبب النّزول

كان أحد الصّحابه يدعى«ثوبان»شديد الحبّ لرسول اللّه قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم و قد تغير لونه و نحل جسمه

فقال له النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: یا ثوبان ما غیر لونک؟ فقال:یا رسول اللّه ما من مرض و لا وجع غیر أنی إذا لم أراک اشتقت إلیک حتی ألقاک،ثمّ ذکرت الآخره فأخاف أنّی لا أراک،و إنّی إن أدخلت الجنّه کنت فی منزله أدنی من منزلتک،و إن لم أدخل الجنّه فذاک حتی لا أراک أبدا.

فنزلت الآیتان الحاضرتان تبشران أمثال هذا بأنّ المطیعین سیکونون مع النّبیین و من اختارهم اللّه و أنعم علیهم فی الجنّه.

ثمّ

أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «و الذی نفسی بیده لا یؤمنن عبد حتی أکون أحبّ إلیه من نفسه و أبویه و أهله و ولده و الناس أجمعین» أی یکون مسلما لتعالیمی و أوامری،تسلیما کاملا.

ص :۳۱۳

التّفسير

اشاره

رفقاء الجنّه:

فی هـذه الآیه یـبیّن القرآن میزه أخری من میزات من یطیع أوامر اللّه تعالی و النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و فی الحقیقه مکمله للمیزات التی جاء ذکرها فی الآیات السابقه، و هی صحبه الذین أتمّ اللّه نعمه علیهم و مرافقتهم: وَ مَنْ یُطِعِ اللّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولٰئِکَ مَعَ الَّذِینَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَیْهِمْ... .

و کما أسلفنا فی سوره الحمد فإنّ الذین أنعم اللّه علیهم هم الذین ساروا فی الطریق المستقیم و لم یرتکبوا أی خطأ،و لم یکن فیهم أی انحراف.

ثمّ یشیر-لدی توضیح هذه الجمله،و تحدید من أنعم اللّه علیهم-إلی أربع طوائف یشکلون فی الحقیقه الأرکان الأربعه لهذا الموضوع و هم:

۱-الأنبیاء:أی رسل اللّه تعالی الذین کانوا طلیعه السائرین فی سبیل هدایه الناس و دعوتهم إلی الصراط المستقیم مِنَ النَّبِیِّینَ .

۲-الصّادقون:و هم الذین یصدقون فی القول و یصدقون إیمانهم بالعمل الصالح،و یثبتون أنّهم لیسوا مجرّد أدعیاء الإیمان،بل مؤمنون بصدق بأوامر اللّه و تعالیمه وَ الصِّدِّیقِینَ .

و من هذا التعبیر یتّضح أنّه لیس بعد مقام النبوه أعلی من مقام الصدق، و الصدق هذا لا ینحصر فی الصدق فی القول فقط،بل هو الصدق فی الفعل و العمل...الصدق فی الممارسات و المواقف،و هو لذلک یشمل الأمانه و الإخلاص أیضا،لأن الأمانه هی الصدق فی العمل کما أن الصدق أمانه فی القول،و فی المقام لیس هناک صفه بعد الکفر أقبح من الکذب و النفاق و الخیانه فی القول و العمل(و یجب الانتباه-هنا-إلی أن الصدّیق صیغه مبالغه و هی بمعنی الصادق کله،ظاهرا و باطنا).

و قد فسّر«الصدّیق»فی بعض الروایات و الأخبار بعلی علیه السّلام و الأئمّه من أهل

البيت النّبوی علیهم السّلام، و هذا التّفسیر کما قلنا فی ما سبق من باب بیان المصداق الأکمل و الأوضح لهذه الآیات،فلا تفید الحصر و القصر.

۳-الشّهداء:الذین قتلوا فی سبیل اللّه و فی سبیل العقیده الإلهیه الطاهره،أو الذین یشهدون علی الناس و أعمالهم فی الآخره وَ الشُّهَدٰاءِ (۱) .

۴-الصّالحون:و هم الذین بلغوا بأعمالهم الصالحه و المفیده و باتّباع الأنبیاء و أوامرهم إلی مراتب عالیه و مقامات رفیعه وَ الصّٰالِحِینَ .

و لهذا فسّر«الصّالحون»فی روایاتنا و أحادیثنا،بالصفوه المختاره من أصحاب الأئمّه علیهم السّلام و هذا هو أیضا من باب بیان أظهر المصادیق و أوضحها کما أسلفنا فی تفسیر الصدیقین.

و النقطه الجدیره بالتذکیر هنا هی أن ذکر هذه المراحل الأربع یمکن أن یکون إشاره إلی أنّه لا بدّ لبناء المجتمع الإنسانی الصالح و السلیم من:أن یبدأ الأنبیاء-و هم القاده و الهداه بحق الهدایه،ثمّ یتبعهم المبلغون الصادقون بالقول و العمل،و هم الصادقون الذین یصدق عملهم قولهم و فعلهم دعواهم فینشروا الحقائق فی کل مکان،ثمّ بعد مرحله البناء الفکری و الاعتقادی هذه،یقوم جماعه فی وجه العناصر الفاسده و من یریدون الوقوف فی طریق الحقّ، فیضحون بأنفسهم و یقدمون أجسادهم و حیاتهم قرابین للحقّ و العدل،فیکون حاصل هذه الجهود و المساعی ظهور الصّالحین و استقرار المجتمع الطاهر السلیم.

و من الواضح البیّن أنّ علی الصالحین أیضا أن یقوموا بهذه الواجبات الثلاث أی علیهم أن یقودوا،و یبلغوا،و یضحوا لکی یبقوا علی جذوه الحق متقده،و علی مشعل العدل مضیئا للأجیال اللاحقه.

---

۱ - ۱) -الشهید فی أصل اللغه هو من یشهد،غایه ما هناک أن الإنسان قد یشهد علی حق بکلامه،و قد یشهد بعمله و قتله فی سبیل أهدافه الطاهره.

كما أنّه يستفاد من الآيات الحاضره ضمنا هذه الحقيقه،و هى أنّ مسأله مرافقه الصالحين و صحبه الرفقاء الطيبين لها من الأهميه بحيث تعتبر فى الآخره الجزء المكمل للنعم الإلهيه الكبرى التى يمنّ اللّه بها على المطيعين فى الجنّه،فهم علاوه على كل ما يحصلون عليه من نعم و ميزات سيحظون بمرافقه رفقاء كالأنبياء و الصّديقين و الشّهداء و الصّالحين.

و لعلنا فى غنى عن التذكير بأن معاشره المطيعين لهذه الطوائف الأربع ليس معناه أنّهم فى منزلتهم و رتبتهم،و إنّهم فى درجتهم من جميع الجهات،بل يعنى أن لكل واحد منهم-مع معاشره بعضهم لبعض-سهما خاصا(يتناسب و مقامه)من المواهب و الألطاف الإلهيه،فهم كأشجار بستان واحد و وروده و أعشابه،فهى مع كونها مجتمعه متجاوزه و مع أنّها تستفيد برمتها من ضوء الشمس و المطر،و لكنها ليست متساويه فى حجم الاستفاده من تلك العناصر،كما أنّها ليست متساويه فى القيمه.

ثمّ يبيّن سبحانه فى الآيه اللاحقه أهميه هذا الامتياز الكبير(أى مرافقه تلك الصفوه المختاره)إنّ هذه الهبه من جانب اللّه،و هو عليم بأحوال عباده و نواياهم و مؤهلاتهم: ذٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّٰهِ،وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ عَلِيماً ،فلا يخطئ فى الإثابه و الجزاء حيث أن«ذلک»إشاره إلى البعيد لهذا يوحى فى هذه الموارد إلى أهميه المقام و علوه.

ص:316

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۷۱]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً (۷۱)

التّفسیر

اشاره

الحذر الدّائم:

«الحذر»یعنی الیقظه و التأهب و الترقب لخطر محتمل،کما یعنی أحیانا الوسیله التی یستعان بها لدفع الخطر.

أمّا کلمه«ثبات»فتفید معنی المجموعات المتفرقه،و مفردها«ثبه»من ماده «ثبی»أی جمع.

و القرآن یخاطب عامّه المسلمین فی الآیه المذکوره أعلاه،و یقدم لهم اثنتین من التعالیم اللازمه لصیانه وجود المسلمین و المجتمع الإسلامی تجاه کل خطر یهدد هذا الوجود.

ففی البدایه تأمر الآیه المؤمنین بالتمسک بالیقظه و البقاء فی حاله التأهب من أجل مواجهه العدو،و تحذرهم من الغفله عن هذا الأمر: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ... .

ثمّ تأمر الآیه بالاستفاده من الأسالیب و التکتیکات المختلفه فی مواجهه

العدو،من ذلك الزحف على شكل مجموعات إن تطلب الأمر مثل هذا الأسلوب، أو على شكل جيش موحّد مترابط إن استدعت المواجهه هجوما شاملا منسجما،و فی کلتا الحالتین لا بدّ من المواجهه الجماعیه فَانْفِرُوا ثُبٰاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِیعاً .

ذهب بعض المفسّرین إلی أن معنی«الحذر»فی الآیه هو«السلاح»لا غیر، بینما للحذر معنی واسع لا یقتصر علی السلاح،ثمّ أن الآیه(۱۰۲)من هذه السوره تدل بوضوح علی أنّ الحذر غیر السلاح حیث یقول تعالی: ...أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَکُمْ وَ خُذُوا حِذْرَکُمْ... و جواز وضع السلاح(فی الصلاه)مع أخذ الحذر یدل علی أنّ الحذر لا یعنی السلاح بالذات.

الآیه الکریمه هذه تشتمل علی أمر عام مطلق لجمیع المسلمین فی کلّ العصور و الأزمنه،و یدعو هذا الأمر المسلمین إلی الالتزام بالیقظه و الاستعداد الدائم لمواجهه أی طاریء من جانب الأعداء و لحمایه أمن الأمّه،و ذلک عن طریق التحلّی بالاستعداد المادی و المعنوی الدائمین.

و کلمه«الحذر»أیضا تستوعب بمعانیها الواسعه-کل أنواع الوسائل المادیه و المعنویه الدفاعیه التی یتحتم علی المسلمین اتباعها،من ذلک التعرف علی قدره العدو من حیث العدّه و العدد،و أسالیبه الحربیه،و الإستراتیجیه،و مدی فاعلیه أسلحته،و کیفیه مواجهتها و الاحتماء من خطرها و خطر العدوّ نفسه، و بذلک یکون المسلمون قد أوفوا من حیث العمل بما یتطلبه منهم أمر«الحذر» من الاستعداد و التأهب و الیقظه لمواجهه أی خطر طاریء.

و یشتمل أمر«الحذر»أیضا علی الاستعداد النفسی و الثقافی و الاقتصادی، لتعبئه کافه الإمکانیات البشریه،و الاستفاده من أقوی أنواع الأسلحه و أکثرها تطورا فی الوقت المطلوب،و کذلک الإلمام بصور استخدام هذا السلاح و أسالیبه، فإذا کان المسلمون یلتزمون بهذا الأمر و یطبقونه علی حیاتهم لاستطاعوا أن

يجنّبوا أنفسهم و أمّتهم الفشل و التقهقر و الهزيمه على مدى تاريخهم الملىء بالأحداث.

و الشىء الآخر الذى يفهم من هذه الآيه الكريمه،هو اختلاف أساليب مواجهه العدو بحسب ما تقتضيه الضروره،و يعينه الظرف،و يحدد موقع العدو- فلو كان هذا الموقع يتطلب مقابله العدو بجماعات منفصله،لوجب استخدام هذا الأسلوب مع كل ما يحتاج إليه من عدد و عدّه و غير ذلك،و قد يكون موقع العدو بصوره تقتضى مواجهه العدو فى هجوم عام ضمن مجموعه واحده متماسكه، و عند هذا يجب أن يعدّ المسلمون العدّه اللازمه و العدد الكافى لمثل هذا الهجوم الشامل.

و من هنا يتّضح أنّ إصرار البعض على أن يكون للمسلمين أسلوب كفاحى واحد دون اختلاف فى التكتيك لا يقوم على منطق و لا تدعمه التجارب،إضافه إلى أنّه يتنافى مع روح التعاليم الإسلاميه.

لعل الآيه-أعلاه-تشير أيضا إلى أنّ المسأله الهامّه هى تحقيق الأهداف الواقعيه سواء تطلب الأمر أن يسلك الجميع أسلوبا واحدا،أو أن ينهجوا أساليب متنوعه.

و يفهم من كلمه«جميعا»أنّها تعنى أنّ المسلمين كافّه مكلّفون بالمشاركه فى أمر مواجهه العدو،و لا يختص هذا الحكم بطائفه معينه.

الآيتان [سوره النساء (۴): الآيات ۷۲ الى ۷۳]

اشاره

وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصٰابَتْكُمْ مُصِيبَهٌ قٰالَ قَدْ أَنْعَمَ اَللّٰهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً (۷۲) وَ لَئِنْ أَصٰابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اَللّٰهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّهٌ يٰا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً (۷۳)

التّفسير

بعد صدور الأمر العام إلى المسلمين بالجهاد و الاستعداد لمقابله العدوّ فى الآيه السابقه تبيّن هاتان الآيتان موقف المنافقين من الجهاد،و تفضح تذبذبهم،فهم يصرّون على الامتناع عن المشاركه فى صفوف المجاهدين فى سبيل اللّه...

وَ إِنَّ مِنْكُمْ (۱) لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ (۲) ...

.

و حين يعود المجاهدون من ميدان القتال أو حين تصل أنباء معاركهم،فإن

---

۱ – ۱) -ينبغى الالتفات إلى أنّ الآيه أعلاه تخاطب المؤمنين،لكنّها تتطرق إلى المنافقين أيضا،كما أنّ عباره«منكم» جعلت المنافقين جزءا من المؤمنين،و ما ذلك إلاّ لأنّ المنافقين كانوا دائما متغلغلين بين المؤمنين،و من هنا فهم يحسبون على الظاهر جزءا منهم.

۲ – ۲) -«ليبطئن»من«البطء»فى الحركه،و هو فعل لازم و متعد كما ذكر علماء اللغه،أى أنّهم يبطؤون فى حركتهم و يدعون الآخرين إلى البطء،و لعل استعمال الفعل فى باب التفعيل هنا يعنى أنّه متعد فقط،أى أنّهم يدفعون أنفسهم إلى البطء تاره،و يدفعون الآخرين إلى ذلك تاره أخرى.

کـان قـد أصابهم مکروه فی قتالهم یتحـدث المنافقون بابتهاج بأنّ اللّه قـد أنعم علیهم نعمه کبیره إذ لم یشارکوا المجاهـدین فی ذلـک القتال،و یفرحون لعـدم حضورهم فی مشاهـد الحرب الرهیبه فَإِنْ أَصٰابَتْکُمْ مُصِیبَهٌ قٰالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَیَّ إِذْ لَمْ أَکُنْ مَعَهُمْ شَهِیداً... .

و حین تصـل الأخبار بانتصار المسـلمین المجاهـدین و نیلهم المغانم،یتبـدل موقف هؤلاء المنافقین فتبـدو الحسـره علیهم و یظهر الندم علی وجوههم، و یشرعون-و کأنّهم غرباء لا تربطهم بالمسلمین أیه رابطه-بتردید عبارات التأسف: وَ لَئِنْ أَصٰابَکُمْ فَضْلٌ مِنَ اللّٰهِ لَیَقُولَنَّ کَأَنْ لَمْ تَکُنْ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَهُ مَوَدَّهٌ یٰا لَیْتَنِی کُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِیماً .

فی الآیه إشـاره إلی المفهوم المـادی للنصـر فی نظر المنـافقین،فالـذی یری الشـهاده و القتل فی سبیل اللّه مصـیبه و بلاء،و یخال النجـاه من القتـل أو الشـهاده فی هـذه السبیـل نعمه إلهیه،لا ینظر إلی النصـر و الفوز إلاّ من خلاـل منظار کسب الغنائم و المتاع المادی لا غیر.

هؤلاء المتلونون الموجودون-مع الأسف-فی کـل المجتمعات،سـرعان ما یغیرون أقنعتهم تجاه ما یواجهه المؤمنون من نصـر أو هزیمه،هؤلاء لا یشـارکون المؤمنین فی معانـاتهم و لا یساعـدونهم فی الملمـات،لکنّهم یتوقعون أن یکون لهم فی الانتصارات السّهم الأوفی،و أن یحصلوا علی ما یحصل علیه المجاهدون المؤمنون من امتیازات.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۷۴]

اشاره

فَلْیُقَاتِلْ فِی سَبِیلِ اَللّهِ اَلَّذِینَ یَشْرُونَ اَلْحَیٰاهَ اَلدُّنْیٰا بِالْآخِرَهِ وَ مَنْ یُقَاتِلْ فِی سَبِیلِ اَللّهِ فَیُقْتَلْ أَوْ یَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِیهِ أَجْراً عَظِیماً (۷۴)

التّفسیر

اشاره

إعداد المؤمنین للجهاد:

بعد أن أوضحت الآیه السابقه إحجام المنافقین عن مشارکه المجاهدین فی القتال تتوجه الآیه(۷۴)و التی تلیها-بلغه مشجعه مشوقه-إلی المؤمنین فتدعوهم إلی الجهاد فی سبیل اللّه،و نزول هذه الآیات حین کان الإسلام مهددا من قبل مختلف الأعداء-سواء من الداخل أو الخارج-یدل علی أهمیتها فی تربیه الروح الجهادیه لدی المسلمین.

و توضح الآیه فی بدایتها أنّ أعباء الجهاد یجب أن تکون علی عاتق أولئک النفر الذین باعوا حیاتهم الدنیویه المادیه الزائله،مقابل فوزهم بالحیاه الأخرویه الخالده: فَلْیُقَاتِلْ فِی سَبِیلِ اللّهِ الَّذِینَ یَشْرُونَ الْحَیٰاهَ الدُّنْیٰا بِالْآخِرَهِ... أی أن المجاهدون الحقیقیون هم وحدهم المستعدون للدخول فی هذه الصفقه،بعد أن انکشفت لهم دناءه الحیاه المادیه(و هو ما یفهم من لفظ الدنیا)،فهؤلاء أدرکوا أن هذه الحیاه لا قیمه لها تجاه الحیاه الأبدیه الخالده،أمّا الذین یرون الأصاله فی

الحياه الماديه الدنيئه،و يعتبرونها أرفع و أكبر من الأهداف الإلهيه المقدسه و الأهداف الإنسانيه الساميه،فلا يمكن أن يكونوا أبدا مجاهدين صالحين.

و تستمر الآيه مبينه أنّ مصير المجاهدين الحقيقيين الذين باعوا الحياه الدنيا بالآخره واضح لا يخرج عن حالتين:إمّا النصر على الأعداء،أو الشهاده فى سبيل اللّه،و هم فى كلتا الحالتين ينالون الأجر و الثواب العظيم من اللّه تعالى ...

وَ مَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً

و بديهى أن جنودا كهؤلاء لا يفهمون معنى الهزيمه،فهم يرون النصر إلى جانبهم فى الحالتين:

سواء تغلّبوا على العدو،أو نالوا الشهاده فى سبيل اللّه،و مثل هذه المعنويات كفيله بأن تمهد الطريق للانتصار على العدو،و يعتبر التاريخ خير شاهد على أنّ هذه المعنويات هى العامل فى انتصار المسلمين على أعداء فأقوهم عددا و عدّه.

و يؤكّد هذا الأمر حتى المفكرون من غير المسلمين ممن كتبوا عن انتصارات المسلمين السريعه التى حققوها فى عصر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فى العصور التاليه،فهؤلاء المفكرون يرون أن منطق الفوز بإحدى الحسنيين أحد العوامل الحاسمه فى تقدم المسلمين.

يقول مؤرخ غربى مشهور فى كتاب له فى هذا المجال:إنّ المسلمين لم يكونوا ليخافوا الموت فى سبيل دينهم الجديد،لما وعدوا به من هبات إلهيه فى الآخره،و أنّهم لم يعتقدوا بأصاله خلود هذه الحياه الدنيا،و لذلك فهم قد تنازلوا عن هذه الحياه فى سبيل العقيده و الهدف (1) .

و الجدير ذكره هنا هو أنّ هذه الآيه-و آيات أخرى من القرآن الكريم- اعتبرت الجهاد أمرا مقدسا إذا كان فى سبيل اللّه،و من أجل إنقاذ البشر، و إحياء مبادئ الحق و العداله و الطهاره و التقوى،على عكس الحروب التى تشن بهدف التوسع و بدافع من التعصب و التوحش و الاستعمار و الاستغلال.

١- ١) -راجع غوستاف لوبون،تاريخ الحضاره الإسلاميه و العربيه.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۷۵]

اشاره

وَ مٰا لَکُمْ لاٰ تُقٰاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ وَ اَلْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ اَلرِّجٰالِ وَ اَلنِّسٰاءِ وَ اَلْوِلْدٰانِ اَلَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا مِنْ هٰذِهِ اَلْقَرْیَهِ اَلظّٰالِمِ أَهْلُهٰا وَ اِجْعَلْ لَنٰا مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا وَ اِجْعَلْ لَنٰا مِنْ لَدُنْکَ نَصِیراً (۷۵)

التّفسیر

اشاره

الاستعانه بالعواطف و المشاعر الإنسانیه:

کانت الآیه السابقه تطالب المؤمنین بالجهاد معتمده علی إیمانهم باللّه و الیوم الآخر،و قد اعتمدت أیضا قضیه الربح و الخساره فی سیاق دعوتها إلی الجهاد، أمّا هذه الآیه فتستند فی دعوتها الجهادیه إلی العواطف و المشاعر الإنسانیه و تستثیرها فی هذا الاتجاه-فهی تخاطب مشاعر المؤمنین و عواطفهم بعرض ما یتحمله الرجال و النساء و الأطفال المضطهدون من عذاب و ظلم بین مخالب الطغاه الجبارین،و تطالب المؤمنین-مستثیره عواطفهم فی هذا الاتجاه-عن طریق عرض المشاهد المأساویه التی یعانی منها المستضعفون و تدعوهم إلی الجهاد فی سبیل اللّه من أجل إنقاذ هؤلاء المظلومین فتقول الآیه: وَ مٰا لَکُمْ لاٰ

تُقٰاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِینَ (۱) مِنَ الرِّجٰالِ وَ النِّسٰاءِ وَ الْوِلْدٰانِ...

.

و لأجل إثاره المشاعر أكثر،تنبّه الآيه المؤمنين بأنّ المستضعفين المذكورين لكثره معاناتهم من البطش و الإرهاب و الاضطهاد قد انقطع أملهم فی النجاه و يئسوا من كل عون خارجی،فأخذوا يدعون اللّه لإخراجهم من ذلك المحيط الرهيب المشحون بأنواع البطش و الرعب و الظلم الفاحش: اَلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا مِنْ هٰذِهِ الْقَرْيَهِ الظّٰالِمِ أَهْلُهٰا و يطلب المستضعفون من اللّه-أيضا-أن يرسل لهم من يتولى الدفاع عنهم و ينجيهم من الظالمين بقولهم:

وَ اجْعَلْ لَنٰا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنٰا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً

.

الآيه-فی الواقع-تشير إلى أنّ اللّه قد استجاب دعاء المستضعفين،فهذه الرساله الإنسانيه الكبرى قد أوكلت إليكم أنتم أيّها المسلمون المخاطبون،فقد أصبحتم أنتم«الولی»المرتقب و أنتم«النصير»من قبل اللّه تعالى لإنقاذ المستضعفين،من هنا عليكم أن تنهضوا بهذه المسؤوليه و تستثمروا هذه المكانه الكبرى المناطه إليكم و لا تضيعوها.

و الآيه هذه يستفاد منها أيضا عدّه أمور،هی:

۱-إنّ الجهاد فی سبيل اللّه و كما أشير إليه من قبل-ليس من أجل انتزاع الأموال و السلطه و الثروات من أيدی الآخرين،كما أنّه لا يستهدف إيجاد أسواق لاستهلاك البضائع أو لفرض عقائد خاصّه بالقوّه،بل أنه يستهدف نشر الفضيله و الإيمان و الدفاع عن المظلومين و المضطهدين من النساء و الرجال و الولدان، و من هذا المنطلق يتّضح أنّ للجهاد هدفين شاملين جامعين أشارت الآيه إليهما، أحدهما«ربّانی»،و آخر«إنسانی»يكمل أحدهما الآخر،و لا ينفصلان،بل

۱- ۱) -إنّ الفرق بين المستضعف و الضعيف واضح و جلی،فالضعيف هو من كان معدوم القدره و القوّه،و المستضعف هو من أصابه الضعف بسبب ظلم و جور الآخرين،سواء كان الاستضعاف فكريا أم ثقافيا أم كان أخلاقيا أو اقتصاديا أم سياسيا أم اجتماعيا،فالعباره هنا جامعه شامله تستوعب جميع أنواع الاستضعاف.

كلاهما يعودان إلى حقيقه واحده.

۲-إنّ الإسلام يرى أن المحيط السالم الذى يمكن للإنسان أن يعيش فيه، هو ذلک المحيط الذى يوفّر الحريه للإنسان، و يضمن له العمل بما يعتقد دون مانع أو أذى،و يرى الإسلام-أيضا-أنّ المحيط الذى يسوده الكبت و الإرهاب و القمع،و لا يستطيع المسلم فيه إظهار عقيدته أو إعلان إسلامه،فهو محيط لا يجدر بالإنسان المسلم أن يبقى فيه،لذلک فإن الآيه تنقل عن المؤمنين دعاءهم إلى اللّه لكى يخلصهم من مثل هذا الجو الملىء بالقمع و الإرهاب.

و على الرغم من أن مكّه كانت ملجأ و ملاذا للمهاجرين،فإنّ تفشى الظلم فيها جعل المؤمنين يدعون اللّه لإنقاذهم من ظلم أهل هذه المدينه،و ييسر لهم سبيلا إلى الخروج منها.

۳-و فى نهايه الآيه نرى أنّ المؤمنين الذين يعانون من محيطهم الظالم، يسألون اللّه أن يبعث لهم من يتولى شؤونهم،و أن يمدهم-أيضا-بمن ينصرهم على الظالمين و يخلصهم من مخالبهم،و يفهم من هذه الآيه أهميه القياده الصالحه،و أهميه قدره هذه القياده فى إنقاذ المظلومين و ضروره امتلاكها من العدد و العدّه ما يمكنها من القيام بمسؤوليتها الخطيره هذه.

بذلک نستنتج من الآيه العناصر التى يجب أن تتوفر فى كل قياده إسلاميه، و هى كما يلى:

أ-أن تكون القياده صالحه(بما فى كلمه الصلاح من شموليه) ب-أن تكون قويه مقتدره(أن تملک العدد و العدّه الكافيين،بالإضافه إلى الخطط العسكريه التى تضمن نجاح استخدام القوّه الموجوده).

۴-تبيّن الآيه أنّ المؤمنين يطلبون حاجاتهم من اللّه العلى القدير وحده،و لا يلجئون إلى غيره فى حوائجهم،حتى أنّهم يسألون اللّه أن يمدهم بمن يتولى الدفاع عنهم و ينصرهم على الظالمين.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۷۶]

اشاره

اَلَّذِینَ آمَنُوا یُقٰاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا یُقٰاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اَلطّٰاغُوتِ فَقٰاتِلُوا أَوْلِیٰاءَ اَلشَّیْطٰانِ إِنَّ کَیْدَ اَلشَّیْطٰانِ کٰانَ ضَعِیفاً (۷۶)

التّفسیر

لقد أوضحت الآیات السابقه قضیه الجهاد،و أبرزت عناصره و المخاطبین به و دوافعه،و فی هذه الآیه نلاحظ أنّها تحث المجاهدین علی القتال، و تبیّن أهدافهم،مؤکّده أنّهم یقاتلون فی سبیل اللّه و لمصلحه عباد اللّه،و أن الکافرین یقاتلون فی سبیل الطاغوت المتجبر: اَلَّذِینَ آمَنُوا یُقٰاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ وَ الَّذِینَ کَفَرُوا یُقٰاتِلُونَ فِی سَبِیلِ الطّٰاغُوتِ أی أنّ الحیاه فی کل الأحوال لا تخلو من الکفاح و الصراع،غیر أن جمعا یقاتلون فی طریق الحق،و جمعا یقاتلون فی طریق الشیطان و الباطل.

لذلک تطلب الآیه من أنصار الحق أن ینبروا لقتال أنصار الشیطان دونما رهبه و خوف: فَقٰاتِلُوا أَوْلِیٰاءَ الشَّیْطٰانِ .

کما توضح هذه الآیه حقیقه مهمّه،هی أنّ الطاغوت و القوی المتجبره-مهما امتلکت من قوه ظاهریه-ضعیفه فی نفسها و جبانه فی باطنها،و بهذا تطمئن الآیه

ص: ۳۲۷

المؤمنين کی لا يخافوا من هؤلاء الطواغيت مهما أوتوا من عدّه أو عدد،لأنّهم خالون من الهدف فارغون من الإيمان،و لذلک کانت خططهم کلها ضعيفه خاويه کقدرتهم و لأنّهم لا يعتمدون علی منشأ القدره الأزليه الأبديه الذی هو اللّه العزيز القدير،بل يعتمدون علی قدره الشيطان الضعيفه الجوفاء: إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً .

أما سبب قوه المؤمنين من أنصار الحق فيعود إلی أنهم يسيرون فی طريق أهداف و حقائق تنسجم مع قانون الخليقه و الوجود،و تتمتع بالصفه الأزليه الأبديه،فهم يجاهدون فی سبيل تحرير الإنسان و محو آثار الظلم و العدوان بينما الطاغوت و أنصاره يقاتلون من أجل منافعهم الشخصيه أو يعملون فی خدمه الطواغيت و المستکبرين من أجل استغلال البشر إرضاء لشهواتهم الفانيه الزائله، الأمر الذی يدفع فی النهايه بالمجتمع إلی الانحطاط و الزّوال،لأنّ عمل الطواغيت يتناقض و سرّ الوجود و يتعارض مع قوانين الفطره و الطبيعه،هذا من جهه،و من جهه أخری فإن المؤمنين باعتمادهم علی القوی الروحيه يتمتعون بثقه عاليه بالنفس و بهدوء باطنی يمهّد لهم سبيل النصر و الفوز علی العدو،بل و يهبهم القوّه و القدره علی الاندفاع لمواجهه الأعداء،بينما العدو و الکافر لا يعتمد علی أساس قوی أبدا.

و تجدر الملاحظه هنا أنّ الآيه قرنت الطاغوت بالشيطان،و هذا يدل علی أن القوی الطاغوتيه المتجبره إنّما تستمد القوه و العون من منبع ضعيف يتمثل فی القوی الشيطانيه و الجوفاء.

هذا المضمون تذکره-أيضا-الآيه(۲۷)من سوره الأعراف: إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ .

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۷۷]

اشاره

أَ لَمْ تَرَ إِلَى اَلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَ أَقِيمُوا اَلصَّلاٰةَ وَ آتُوا اَلزَّكٰاةَ فَلَمّٰا كُتِبَ عَلَيْهِمُ اَلْقِتٰالُ إِذٰا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ اَلنّٰاسَ كَخَشْيَةِ اَللّٰهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَ قٰالُوا رَبَّنٰا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا اَلْقِتٰالَ لَوْ لاٰ أَخَّرْتَنٰا إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتٰاعُ اَلدُّنْيٰا قَلِيلٌ وَ اَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اِتَّقىٰ وَ لاٰ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (۷۷)

سبب النّزول

روی جمع من المفسّرین کالشّیخ الطوسی فی التبیان،و القرطبی و صاحب المنار عن ابن عباس أنّ نفرا من المسلمین کانوا أثناء وجودهم فی مکّه قبل الهجره یعانون من ضغط المشرکین و أذائهم،فجاءوا إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و طلبوا منه أن یسمح لهم بقتال الأعداء فأجابهم النّبی فی حینه أنّه لم یؤمر بالجهاد.

و مضت أیّام علی طلب هؤلاء،حتی هاجر المسلمون إلی المدینه و تهیأت هناک ظروف و شروط الجهاد المسلح،و أمر اللّه المسلمین بالجهاد،فأخذ بعض من أولئک النفر الذین کانوا یصرّون علی النّبی للسماح لهم بالجهاد و قتال الأعداء فی مکّه یظهرون الکسل و التهاون فی تنفیذ الأمر الإلهی،و لم یبدوا أی حماس أو رغبه فی الجهاد،کما کانوا یظهرون ذلک فی مکّه،فنزلت هذه الآیه و هی تحثّ

المسلمین علی الجهاد و تؤنب المتهاونین و المتقاعسین عن هذا الواجب الحسّاس.

و قد تطرقت الآیه الکریمه إلی عدد من الحقائق فی هذا الصدد.

التّفسیر

اشاره

قوم بضاعتهم الکلام دون العمل:

تتحدث الآیه بلغه التعجب من أمر نفر أظهروا رغبه شدیده فی الجهاد خلال ظرف غیر مناسب،و أصرّوا علی السماح لهم بذلک،و قد صدرت الأوامر لهم- حینئذ-بالصبر و الاحتمال،و دعوا إلی إقامه الصلاه،و أداء الزکاه،و بعد أن سنحت الفرصه و آتت الظروف للجهاد بصوره کامله و أمروا به،استولی علی هؤلاء النفر الخوف و الرعب،و انبروا یعترضون علی الأمر الإلهی و یتهاونون فی أدائه.

تقول الآیه: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ قِیلَ لَهُمْ کُفُّوا أَیْدِیَکُمْ وَ أَقِیمُوا الصَّلاهَ وَ آتُوا الزَّکاهَ فَلَمّا کُتِبَ عَلَیْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِیقٌ مِنْهُمْ یَخْشَوْنَ النّاسَ کَخَشْیَهِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْیَهً... فکان هؤلاء فی اعتراضهم علی أمر الجهاد یقولون صراحه:لما ذا أسرع اللّه فی إنزال أمر الجهاد؟و یتمنون لو أخر اللّه هذا الأمر و لو قلیلا!أو یطلبون أن یناط أمر الجهاد للأجیال القادمه (۱) وَ قالُوا رَبَّنا لِمَ کَتَبْتَ عَلَیْنَا الْقِتالَ لَوْ لا أَخَّرْتَنا إِلی أَجَلٍ قَرِیبٍ... .

و القرآن الکریم یردّ علی هؤلاء أوّلا من خلال عباره: یَخْشَوْنَ النّاسَ کَخَشْیَهِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْیَهً أی أن هؤلاء بدل أن یخافوا اللّه القادر القهار،أخذتهم الرّجفه و استولی علیهم الرعب من إنسان ضعیف عاجز،بل أصبح خوفهم من هذا

۱- ۱) -تدل بعض الأحادیث أنّ هذا النفر من المسلمین کان قد سمع بحدیث نهضه المهدی المنتظر،فکان البعض منهم یترقب أن یؤخر الجهاد إلی زمن المهدی علیه السّلام،تفسیر نور الثقلین،الجزء الأوّل،ص ۵۱۸.

الإنسان أكبر من خشيتهم اللّه العلى القدير.

ثمّ يواجه القرآن هؤلاء بهذه الحقيقه:لو أنّهم استطاعوا بعد تركهم الجهاد أن يوفّروا لأنفسهم-فرضا-حياه قصيره رغيده هانئه،فإنّهم سيخسرون هذه الحياه لأنّها زائله لا محاله،بينما الحياه الأبديه التى وعد اللّه بها عباده المؤمنين المجاهدين الذين يخشونه و لا يخشون سواه،هى خير من تلك الحياه الزائله، و إن المتقين سيلقون فيها ثوابهم كاملا غير منقوص دون أن يصيبهم أى ظلم، قُلْ مَتٰاعُ الدُّنْيٰا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقىٰ وَ لاٰ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (۱) .

من الضرورى الالتفات إلى عده نقاط فى تفسير هذه الآيه،و هى:

۱-لما ذا أمرت أولئك النفر بإقامه الصلاه و أداء الزكاه دون غيرهما من الفرائض الكثيره الاخرى؟ و الجواب على هذا السؤال يتلخص فى أنّ الصلاه هى سر الاتصال باللّه سبحانه عزّ و جل،و الزكاه تعتبر مفتاحا لباب الاتصال بعباد اللّه،و على هذا الأساس فقد صدرت الأوامر للمسلمين بأن يعدّوا أنفسهم و أرواحهم و مجتمعهم للجهاد فى سبيل اللّه،عن طريقه إقامه الصله الوثيقه بينهم و بين اللّه و عباده، و بعباره أخرى أن يسعوا إلى بناء أنفسهم و إعدادها،و بديهى أن أى جهاد يحتاج بالضروره إلى إعداد النفس و الروح،و إلى توثيق عرى التلاحم الاجتماعى، و بدون ذلك لا يمكن إحراز أى انتصار.

و الإنسان يقوى صلته باللّه من خلال الصلاه و يربّى بها روحه و معنوياته، فيكون بذلك مستعدا لتقديم أغلى التضحيات بما فى ذلك التضحيه بالنفس،كما أنّ الزكاه هى الوسيله الوحيده لرأب كل صدع اجتماعى،بالإضافه إلى كونها دعما اقتصاديا فى سبيل إعداد ذوى الخبره و التجربه و العده الحربيه،و ما

۱- ۱) -الفتيل يعنى الشعيره الرفيعه جدا الموجوده بين فلقتى نواه التّمر،و قد تطرفنا إلى شرح ذلك فى الآيه(۴۹)من سوره النساء و فى هذا المجلد من تفسيرنا هذا.

يحتاجه المسلمون فى قتال الأعداء ليكونوا على استعداد لمواجهه العدو إذا صدر الأمر إليهم بذلك.

٢-المعروف أنّ حكم الزكاه ورد فى آيات نزلت فى المـدينه(أى أنّها آيات مدنيه)و لم يكلف المسـلمون بأداء الزكاه فى مكّه- فكيف إذن يمكن القول إن هـذه الآيه تتحدث عن وضع المسـلمين فى مكّه؟ يجيب على هذا السؤال الشيخ الطوسـى رحمه اللّه فى تفسـير«التّبيان»فيقول:إنّ المقصود بالزكاه الوارده فى هذه الآيه هو الزكاه المسـتحبه التى كانت معروفه فى مكّه،أى أنّ القرآن المجيـد كـان يحثّ المسـلمين حتى فى مكّه على تقـديم المساعـدات الماليه إلى مسـتحقيها و لـدعم اقتصاد المجتمع الإسـلامى الجديد فى مكّه.

٣-و تشـير هـذه الآـيه الكريمـه إلى حقيقـه مهمـه،هى أنّ المسـلمين فى مكّه كـان لهـم منهـج،ثمّ أصـبح لهم فى المـدينه منهج آخر،ففى مكّه انشـغل المسـلمون ببناء شخصـيتهم الإسلاميه بعد أن تحرروا من أدران الجاهليه،فكان سعى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مكّه منصبا على تربيه هؤلاء الذين نبذوا عباده الأصنام ليجعل منهم أناسا يسترخصون النفس و النفيس فى مواجهه مـا يعترض سبيـل المسـلمين من تحـديات،فما أحرزه المسـلمون من انتصارات باهره فى المـدينه المنوره،كان حصـيله عمليه بناء الشخصيه الإسلاميه،هذه العمليه التى تعهدت بها رساله الإسلام فى مكّه.

لقد تعلم المسـلمون الكثير فى مكّه و مارسوا تجارب جمّه و اكتسـبوا استعدادا روحيا و معنويا عظيما خلال العهد المكى،و دليل هذا الأمر هو نزول قرابه التسـعين سوره-من مجموع سور القرآن الكريم البالغه مائه و أربع و عشـره سوره-فى مكّه، و قد تناولت هذه السور فى الغالب الجوانب العقائديه التربويه الخاصّه بإعداد الشخصيه الإسلاميه-أمّا فى المدينه فقد انصرف المسلمون إلى

تشکیل الحکومه الإسلامیه و إقامه أسس المجتمع الإسلامی السلیم.

و یدل هذه-أیضا-علی عدم نزول حکم الجهاد و الزکاه الواجبین فی العصر المکی لأنّ الجهاد من واجبات الحکومه الإسلامیه مثل تشکیل بیت المال فإنّه من شؤون الحکومه الإسلامیه أیضا.

ص: ۳۳۳

الآیتان [سوره النساء (۴): الآیات ۷۸ الی ۷۹]

اشاره

أَیْنَما تَکُونُوا یُدْرِکْکُمُ اَلْمَوْتُ وَ لَوْ کُنْتُمْ فِی بُرُوجٍ مُشَیَّدَهٍ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَهٌ یَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَهٌ یَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِکَ قُلْ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ فَمٰا لِهٰؤُلاٰءِ اَلْقَوْمِ لاٰ یَکٰادُونَ یَفْقَهُونَ حَدِیثاً (۷۸) مٰا أَصٰابَکَ مِنْ حَسَنَهٍ فَمِنَ اَللّٰهِ وَ مٰا أَصٰابَکَ مِنْ سَیِّئَهٍ فَمِنْ نَفْسِکَ وَ أَرْسَلْنٰاکَ لِلنّٰاسِ رَسُولاً وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً (۷۹)

التّفسیر

اشاره

نستنتج من الآیات السابقه و اللاحقه أنّ هاتین الآیتین تقصدان مجموعه من المنافقین تسللوا إلی صفوف المسلمین،و قد قرأنا فی الآیات السابقه أن هؤلاء قد أبدوا الخوف و القلق من المشارکه فی مسئولیه الجهاد،و قد ظهر علیهم الضجر و الاستیاء حین نزول حکم الجهاد،فردّ علیهم القرآن الکریم و أنّبهم لموقفهم هذا بقوله: قُلْ مَتٰاعُ الدُّنْیٰا قَلِیلٌ وَ الْآخِرَهُ خَیْرٌ لِمَنِ اتَّقیٰ (۱) موضحا أن الحیاه بکل زخارفها سرعان ما تزول،و إنّ ما یناله المؤمنون الذین یخشون اللّه

۱- ۱) -الآیه ۷۷ من نفس السوره.

و لا يعصونه من الخير و الثواب هو خير من كل ما فى هذه الدنيا من خيرات.

و فى هـذا المقطع القرآنى ردّ آخر على أولئـك المنـافقين،حيث بيّن أن الموت آتيهم يومـا لا محاله،حتى إذا تحصـنوا فى قلاع عاليه و منيعه بحسب ظنّهم، و ما دام الموت يدرك الإنسان بهذه الصوره أليس من الخير له أن يموت على طريق مثمر و صـحيح كالجهـاد؟! و ممّـا يلفت الانتبـاه أنّ القرآن الكريم يطلق فى مواقع متعـدده اسم«اليقين» على الموت،كمـا فى الآـيه(٩٩)من سوره الحجر،و الآيه(۴٨)من سوره المـدثر- و معنى هـذه العباره القرآنيه هو أن الإنسان مهما كانت عقيدته-يؤمن بوجود الموت إيمانا لاـ يخامره فيه شك مطلقا،و مهما أنكر المرء من حقائق لا يسـتطيع إنكار الموت الـذى يشـهده بأم عينه أو يسـمع عنه كل يوم،و الإنسان الذى يحب الحياه و يخال أن الموت هو الفناء الذى لا حياه بعده أبدا يخاف من ذكر الموت و يفر من مظاهره.

الآيتان الأخيرتان تؤكـدان حقيقه عدم جدوى الفرار من الموت،فهو يدرك الإنسان يوما ما لا محاله،و هو حقيقه قطعيه يقينيه فى عالم الوجود.

و عبـاره يُدْرِكْكُمُ الوارده فى الآيه الأولى تعنى الملاحقه،و اللاحق هو الموت الـذى يـدرك الإنسان،و توحى بأنّ الفرار لا ينقذ الإنسان من هذا المصير الحتمى.

و تؤكد الحقيقه المذكوره الآيه الثّامنه من سوره الجمعه إذ تقول: قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ .

إذن ليس من العقل و المنطق أن يدرك الإنسان هذه الحقيقه و يفر بعد ذلك من ميدان الجهاد،و يحرم نفسه أشـرف ميته و هى الشـهاده فى سبيـل اللّه،فيموت على فراشه فلو عـاش الإنسـان بعـد فراره من الجهـاد أيّامـا أو شـهورا أو سـنوات لتكرر مـا فعـل و لتكررت أمامه المشاهد الماضيه،فهل من العقل أن يحرم الإنسان نفسه

لأجل هـذه المتكررات من الثواب الأبـدى الـذى يناله المجاهـد فى سبيل اللّه؟! و هنا أمر ثان يجب الانتباه له فى الآيه الأولى من هاتين الآيتين،و هو عباره بُرُوجٍ مُشَيَّدَهٍ (۱) التى تؤكـد أنّ الموت لا تحول دونه القلاع و الحصون المنيعه العاليه،و السرّ فى هـذا الأمر هو أنّ الموت الطبيعى لا يداهم الإنسان من خارج وجوده-خلافا لما يتصورون-و لا يحتاج إلى اجتياز القلاع و الحصون،بل يأتى من داخل وجود الإنسان حيث تقف أجهزه الإنسان عن العمل بعد نفاذ قدرتها المحدوده على البقاء.

نعم،الموت غير الطبيعى يأتى الإنسان طبعا من خارج وجوده،و بـذلك قـد تنفع القلاع و الحصون فى تأخير هذا النوع من الموت عنه.

و لكن ما ذا ستكون النهايه و النتيجه؟هل بمقدور القلاع و الحصون أن تحول دون وصول الموت الطبيعى الـذى سيدرك الإنسان-دون شك-فى يوم من الأيّام؟!

من أين تأتى الانتصارات و الهزائم؟

يشير القرآن فى هاتين الآيتين إلى و هم آخر من أوهام المنافقين،حين يوضح أن هؤلاء إذا أحرزوا نصرا أو غنموا خيرا قالوا:إنّ اللّه هو الذى أنعم عليهم بذلك،و زعموا أنّهم أهل لهذه النعمه: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَهٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ .

أمّا إذا منى هؤلاء بهزيمه أو لحقهم أذى فى ميدان القتال،ألقوا اللوم على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و افتروا عليه بقولهم إنّ ما نالهم من سوء هو من عنده،متهمين خططه

۱- ۱) -«مشيده»فى الأصل من ماده«شيد»على وزن فيل،بمعنى الجص و المواد الاخرى التى تستخدم لتقويه البنيان،و بما أن أكثر المواد استعمالا فى البناء فى تلك الازمنه هو الجص فان هـذه الكلمه تطلق عليه عاده،فيكون معنى«بروج مشيده»هو القلاع الرصينه و المتينه،و قد تستعمل و يراد بها المرتفعه و العاليه.و ذلك أيضا لنفس السبب لأنّه من دون استخدام الجص لم يكن بالإمكان بناء تلك الابنيه المرتفعه.

العسکریه بالضعف،من ذلک ما حدث فی غزوه أحد،تقول الآیه: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَهٌ یَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِکَ... .

و یحتمل بعض المفسّرین أن تکون هذه الآیه قد نزلت بشأن الیهود،و یرون أنّ المقصود بالحسنه و السیئه-هنا-هو ما کان یحدث من وقائع ساره و ضاره، حیث کان الیهود حین بعثه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ینسبون کلّ حدث سار و نافع إلی اللّه، و یعزون حدوث الوقائع الضّاره إلی وجود النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بین ظهرانیهم،بینما اتصال الآیه بالآیات السابقه و التالیه-التی یدور الحدیث فیها عن المنافقین-یدل علی أنّ المقصود فی هذه الآیه الأخیره هم المنافقون.

و مهما یکن من أمر،فإنّ القرآن الکریم یردّ علی هؤلاء مؤکدا إنّ الإنسان المسلم الموحد الذی یؤمن صادقا باللّه و یعبده و لا یعبد سواه،إنّما یعتقد بأنّ کل الوقائع و الأحداث و الانتصارات و الهزائم هی بید اللّه العلیم الحکیم،فاللّه هو الذی یهب الإنسان ما یستحقه و یعطیه بحسب قیمته الوجودیه،و فی هذا المجال تقول الآیه: قُلْ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ .

و الآیه-هذه-تحمل فی آخرها تقریعا و تأنیبا للمنافقین الذین لا یتفکرون و لا یمعنون فی حقائق الحیاه المختلفه،حیث تقول: فَمٰا لِهٰؤُلاٰءِ الْقَوْمِ لاٰ یَکٰادُونَ یَفْقَهُونَ حَدِیثاً .

و بعد هذا-فی الآیه التالیه-یصرّح القرآن بأنّ کل ما یصیب الإنسان من خیرات و فوائد و کل ما یواجهه الکائن البشری من سرور و انتصار هو من عند اللّه، و إن ما یحصل للإنسان من سوء و ضرر و هزیمه أو خساره فهو بسبب الإنسان نفسه تقول الآیه: مٰا أَصٰابَکَ مِنْ حَسَنَهٍ فَمِنَ اللّٰهِ وَ مٰا أَصٰابَکَ مِنْ سَیِّئَهٍ فَمِنْ نَفْسِکَ... و تردّ الآیه فی آخرها علی أولئک الذین کانوا یرون وجود النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سببا لوقوع الحوادث المؤسفه فیما بینهم فتقول: وَ أَرْسَلْنٰاکَ لِلنّٰاسِ رَسُولاً وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً .

ص :۳۳۷

جواب على سؤال مهم:

السّؤال المهم الـذى يتبادر إلى الذهن حين قراءه هاتين الآيتين الأخيرتين هو:لما ذا نسب الخير و الشـر فى الآيه الأولى كلّه للّه؟و لمـا ذا حصـرت الآـيه التاليه الخير-وحـده-للّه،و نسـبت الشـرّ إلى الإنسان؟ حين نمعن النظر فى الآيتين تواجهنا عـدّه أمور،يمكن لكل منها أن يكون هو الجواب على هذا السؤال.

۱-لو أجرينا تحليلا على عناصر تكوين الشر لرأينا أنّ لها اتجاهين:

أحدهما إيجابى و الآخر سـلبى،و الاتجاه الأخير هو الذى يجسد شـكل الشـر أو السيئه و يبرزه على صوره«خساره نسبيه»فالإنسان الـذى يقدم على قتل نظيره بسـلاح نارى أو سـلاح بارد يكون قد ارتكب بالطبع عملا شـريرا و سـيئا،فما هى إذن عوامل حدوث هذا العمل الشـرير؟ إنّها تتكون من:أوّلا:قدره الإنسان و عقله و قدره السلاح و القدره على الرمى و التهديف الصحيحين و اختيار المكان و الزمان المناسبين،و هذه تشـكل عناصـر الاتجاه الإيجابى للقضـيه،لأنّ كل عنصـر منها يسـتطيع فى حدّ ذاته أن يستخدم كعامل لفعل حسن إذا اسـتغل الاستغلال الحكيم،أمّا الاتجاه السلبى فهو فى استغلال كل من هذه العناصر فى غير محله،فبدلا من أن يسـتخدم السـلاح لدرء خطر حيوان مفترس أو للتصدى لقاتل و مجرم خطير،يستخدم فى قتل إنسان برىء،فيجسد بذلك فعل الشر،و إلاّ فإنّ قدره الإنسان و عقله و قدرته على الرمى و التهديف،و أصل السلاح و كل هذه العناصر،يمكن أن يستفاد منها فى مجال الخير.

و حين تنسب الآـيه الأـولى الخير و الشـرّ كلّه للّه،فإن ذلك معناه أنّ مصادر القوّه جميعها بيـد اللّه العليم القـدير حتى تلك القوّه التى يساء استخدامها،و من هذا المنطلق تنسب الخير و الشرّ للّه،لأنّه هو واهب القوى.

و الآيه الثّانيه:تنسب«السيئات»إلى الناس انطلاقا من مفهوم«الجوانب السلبيه»للقضيه و من الإساءه فى استخدام المواهب الإلهيه.

تماما مثل والد وهب ابنه مالا ليبنى به دارا جديده،لكن هذا الولد بدلا من أن يستخدم هذا المال فى بناء البيت المطلوب،اشترى مخدرات ضاره أو صرفه فى مجالات الفساد و الفحشاء،لا شك أنّ الوالد هو مصدر هذا المال،لكن أحدا لا ينسب تصرف الابن لوالده،لأنه أعطاه للولد لغرض خيرى حسن،لكن الولد أساء استغلال المال،فهو فاعل الشرّ،و ليس لوالده دخل فى فعلته هذه.

۲-و يمكن القول-أيضا-بأنّ الآيه الكريمه إنّما تشير إلى موضوع«الأمر بين الأمرين».

و هذه قضيه بحثت فى مسأله الجبر و التفويض،و خلاصه القول فيها أنّ جميع وقائع العالم خيرا كانت أم شرّا-هى من جانب واحد تتصل باللّه سبحانه القدير لأنّه هو الذى وهب الإنسان القدره و القوّه و حريه الانتخاب و الإختيار، و على هذا الأساس فإنّ كل ما يختاره الإنسان و يفعله بإرادته و حريته لا يخرج عن إراده اللّه،لكن هذا الفعل ينسب للإنسان لأنّه صادر عن وجوده،و إرادته هى التى تحدد اتجاه الفعل.

و من هنا فإنّنا مسئولون عن أعمالنا،و استناد أعمالنا إلى اللّه-بالشكل الذى أوضحناه-لا يسلب عنّا المسؤوليه و لا يؤدى إلى الإعتقاد بالجبر.

و على هذا الأساس حين تنسب«الحسنات»و«السيئات»إلى اللّه سبحانه و تعالى،فلفاعليه اللّه فى كل شىء،و حين تنسب السيئه إلى الإنسان فلإرادته و حريته فى الإختيار.

و حصيله هذا البحث إنّ الآيتين معا تثبتان قضيه الأمر«الأمر بين الأمرين» (تأمل بدقّه)! ۳-هناك تفسير ثالث للآيتين ورد فيما أثر عن أهل البيت عليهم السّلام،و هو أنّ

المقصود من عباره السّيئات جزاء الأعمال السيئه و عقوبه المعاصى التى ينزلها اللّه بالعاصين،و لما كانت العقوبه هى نتيجه لأفعال العاصـين من العباد،لذلک تنسب أحيانا إلى العباد أنفسهم و أحيانا أخرى إلى اللّه،و كلا النسبتين صحيحتان، إذ يمكن القول فى قضيه إنّ القاضى هو الذى قطع يد السارق،كما يجوز أن يقال إنّ السارق هو السبب فى قطع يده لارتكابه السرقه.

ص : ۳۴۰

الآيتان [سوره النساء (۴): الآيات ۸۰ الی ۸۱]

اشاره

مَنْ يُطِعِ اَلرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اَللّٰهَ وَ مَنْ تَوَلّٰى فَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (۸۰) وَ يَقُولُونَ طٰاعَةٌ فَإِذٰا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طٰائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ اَلَّذِى تَقُولُ وَ اَللّٰهُ يَكْتُبُ مٰا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اَللّٰهِ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلاً (۸۱)

التّفسير

اشاره

سنّه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بمنزله الوحی:

توضح الآیه الأولی موضع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من الناس و حسناتهم و سیئاتهم و تؤکد أوّلا بأن إطاعه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هی فی الحقیقه طاعه للّه:و مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللّٰهَ... أی لا انفصال بین طاعه اللّه و طاعه الرّسول،و ذلک لأن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا یخطو أیه خطوه خلافا لإراده اللّه...کل ما یصدر منه من فعل و قول و تقریر إنّما یطابق إراده اللّه سبحانه و تعالی و مشیئته.

ثمّ تبیّن إنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لیس مسئولا عن الذین یتجاهلون و یخالفون أوامره، کما أنه لیس مکلّفا بإرغام هؤلاء علی ترک العصیان،بل إن مسئولیه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هی الدعوه للرساله الإلهیه التی بعث بها،و الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، و إرشاد الضالین و الغافلین تقول الآیه: وَ مَنْ تَوَلّٰى فَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً .

ص: ۳۴۱

و تجدر الإشاره هنا إلى أن كلمه«حفيظ»صفه مشبهه باسم الفاعل،و تدل على ثبات و استمرار الصفه فى الموصوف،بخلاف اسم الفاعل«حافظ»،فعباره «حفيظ»تعنى الذى يراقب و يحافظ بصوره دائمه مستمره،و يستدل من الآيه على أن واجب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو قياده الناس و هدايتهم و إرشادهم،و دعوتهم إلى اتّباع الحقّ و اجتناب الباطل،و مكافحه الفساد،و حين يصر البعض على اتّباع طريق الباطل و الانحراف عن جاده الحقّ،فلا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مسئول عن هذه الانحرافات، و لا المطلوب منه أن يراقب هؤلاء المنحرفين فى كل صغيره و كبيره،كما ليس المطلوب منه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يستخدم القوه لإرغام المنحرفين على العدول عن انحرافهم،و لا يمكنه بالوسائل العاديه القيام بمثل هذه الأعمال.

و على هذا الأساس،فإنّ الآيه قد تكون-أيضا-إشاره إلى غزوات كغزوه أحد حيث كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مكلّفا-فقط-بتجنيد الإمكانيات المتوفره من الناحيه العسكريه فى إعداد خطه للدفاع عن المسلمين حيال هجمات الأعداء،و بديهى أن تكون إطاعه الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا الأمر إطاعه للّه،و لو افترضنا أنّ أفرادا عصوا الرّسول فى هذا المجال و أدى عصيانهم إلى تراجع المسلمين،فالعاصون- وحدهم-هم المسؤولون عن ذلك،و ليس الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و الأمر المهم الآخر فى هذه الآيه هو أنّها واحده من أكثر آيات القرآن دلاله على حجّيّه السنّه النّبويه الشّريفه،فهى حكم بوجوب الإذعان للأحاديث الصحيحه المرويه عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و استنادا إلى هذه الآيه لا يجوز لأحد القول بقبول القرآن وحده و عدم قبول أحاديث و سنّه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،لأنّ الآيه صريحه بأن إطاعه أقوال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أحاديثه المرويه عنه بطرق صحيحه، هى بمثابه إطاعه اللّه.

و من المنطلق نفسه تثبت حقيقه أخرى،هى ضروره إطاعه أئمه أهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و هى ما أكد عليها حديث«الثقلين»الوارد فى المصادر الإسلاميه السنيه و الشيعيه،و فيه بيّن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-صراحه-حجيه أحاديث أئمه أهل

البيت عليهم السّلام،و منه نستنتج أنّ إطاعه أوامرهم هى إطاعه للرسول و بالنتيجه إطاعه للّه تعالى،و لما كانت أحاديث أئمه أهل البيت عليهم السّلام بمثابه أحاديث النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،فلا يستطيع أحد أن يقول:إنّى أقبل القرآن و أرفض أحاديث أهل البيت عليهم السّلام،فذلك نقض للآيه المذكوره أعلاه و للآيات المشابهه.

و لذلك نقرأ فى الأحاديث التى أوردها صاحب تفسير البرهان فى تفسير هذه الآيه ما يؤكّد هذه الحقيقه:

إنّ اللّه وهب نبيّه حقّ الأمر و النهى فى الآيه المذكوره،و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بدوره وهب هذا الحق لعلى بن أبى طالب عليه السّلام و سائر الأئمّه عليهم السّلام من بعده،و الناس ملزمون بإطاعه أوامر هذه النخبه الطاهره عليهم السّلام،لأن أوامر و نواهى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّه من أهل بيته الكرام هى أوامر و نواهى اللّه،و طاعتهم طاعه للّه،و هم لا يأتون بشىء من عند أنفسهم و كل ما جاؤوا به للمسلمين هو من عند اللّه. (۱)

أمّا الآيه الثّانيه ففيها إشاره إلى وضع نفر من المنافقين أو المتذبذبين من ضعاف الإيمان،الذين يتظاهرون حين يحضرون عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين بأنّهم مع الجماعه،و يظهرون الطاعه للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليدفعوا بذلك الضرر عن أنفسهم و ليحموا مصالحهم الخاصّه،بدعوى الإخلاص و الطاعه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وَ يَقُولُونَ طاعَةٌ .

و بعد أن ينصرف الناس من عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يختلى هؤلاء بأنفسهم يتجاهلون عهودهم فى إطاعه النّبى و يتآمرون فى ندواتهم الخاصّه-السريه الليليه-على أقوال النّبى: فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ... .

نعرف من هذه الآيه أنّ المنافقين فى زمن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا لا يألون جهدا فى التآمر على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كانوا يخططون فى اجتماعاتهم السرّيه للوقوف

۱- ۱) -تفسير البرهان،ج ۱،ص ۳۹۶.

بوجه الدعوه.

و لكـن اللّـه يـأمر نـبيّه بـأن لاـ يلتفت إلى مكائـد هؤلاـء،و أن لاـ يخـافهم و لاـ يخشـى خططهم و أن يتجنب الاعتمـاد عليهم فى مشاريعه،بل يتوكل على اللّه الذى هو خير ناصر و معين: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَ كَفى بِاللّهِ وَكِيلاً .

ص :344

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۸۲]

اشاره

أَ فَلا یَتَدَبَّرُونَ اَلْقُرْآنَ وَ لَوْ کانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اَللّهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اِخْتِلافاً کَثِیراً (۸۲)

التّفسیر

اشاره

خلوّ القرآن من الاختلاف دلیل حی علی إعجازه:

هـذه الآیه تخاطب المنافقین و سائر الـذین یرتابون من حقیقه القرآن المجیـد، و تطلب منهم-بصـیغه السؤال-أن یحققـوا فی خصائص القرآن لیعرفوا بأنفسهم أنّ القرآن وحی منزل،و لو لم یکن کـذلک لکثر فیه التناقض و الاختلاف،و إذا تحقق لـدیهم عدم وجود الاختلاف،فعلیهم أن یذعنوا أنّه وحی من اللّه تعالی.

و التّدبر من ماده«دبر»و هو مؤخر الشیء و عاقبته «و التدبر»المطلوب فی هذه الآیه هو البحث عن نتائج آثار الشیء،و الفرق بین التدبر و التفکر هو أنّ الأخیر یعنی التحقیق فی علل و خصائص الموجود،أمّا التدبر فهو التحقیق فی نتائجه و آثاره.

و نستدل من هذه الآیه علی عدّه أمور:

۱-إنّ الناس مکلّفون بالبحث و التحقیق فی أصول الـدین و المسائل المشابهه لها،مثل صـدق دعوی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و حقانیه القرآن،و أن یتجنّبوا التقلید

و المحاكاه فی مثل هذه الحالات.

۲-إنّ القرآن-خلافا لما یظن البعض-قابل للفهم و الإدراک للجمیع،و لو کان علی غیر هذه الصوره لما أمر اللّه بالتدبر فیه.

۳-أحد الأدله التی تثبت أنّ القرآن حقّ،و أنّه منزل من اللّه الحکیم العلیم خلوه المطلق من کل تناقض أو اختلاف.

و لتوضیح هذه الحقیقه نقول:

الجوانب الروحیه للإنسان تتغیر باستمرار،«قانون التکامل»-فی الظروف العادیه الخالیه من الأوضاع الاستثنائیه-یستوعب الإنسان و جوانبه الروحیه و أفکاره،و بمرور الأیّام یتغیر بموجب هذا القانون کلام الإنسان و فکره و أحادیثه.

لو أمعنا النظر فیما یکتبه الکتاب،لما وجدنا مؤلفات الکاتب الواحد علی نمط واحد،بل أن بدایه کل کتاب تختلف أیضا عن نهایته.

هذا التغییر یزداد سرعه حین یعیش الإنسان فی خضم أحداث کبری کالتی تصاحب إرساء قواعد ثوره فکریه و اجتماعیه و عقائدیه شامله،الشخص الذی یعیش مثل هذه التحولات الاجتماعیه الکبری لا یستطیع أن یسیطر علی وحده کلامه،و لا یمکنه أن یوجد انسجاما کاملا فی أقواله،خاصّه إذا کان هذا الشخص غیر متعلم،و کان ناشئا فی بیئه اجتماعیه متخلفه.

و القرآن کتاب نزل خلال مدّه(۲۳)عاما بحسب ما یحتاجه الناس من تربیه و توجیه فی الظروف المختلفه،و موضوعات القرآن متنوعه،فهو لا یشبه کتابا عادیا متخصصا فی بحث اجتماعی أو سیاسی أو فلسفی أو حقوقی أو تاریخی، بل هو یتحدث تاره عن التوحید و أسرار الخلیقه،و تاره یطرح القوانین و الأحکام و الآداب و السنن،و تاره یقص علینا أخبار الأمم السابقه،و تاره یتناول المواعظ و النصائح و العبادات و ارتباط العبد بخالقه.

و كما يقول(غوستاف لوبون):القرآن-كتاب المسلمين السماوی-لا- يقتصر على التعاليم الدينيه،بل يتناول-أيضا-الأحكام السياسيه و الاجتماعيه للمسلمين.

مثل هذا الكتاب-بهذه الخصائص-لا يمكن أن يكون-عاده-خاليا من التناقض و التضاد و الاختلاف و التأرجح،أمّا حين نرى هذا الكتاب-مع كل ذلك-متناسقا متوازنا فی آياته خاليا من كل تضاد و اختلاف نستطيع أن نفهم-بوضوح-أنّ هذا الكتاب ليس وليد فكر بشری،بل هو من قبل اللّه تعالی، كما تذكر الآيه الكريمه أعلاه.

ص: ۳۴۷

الآيه [سوره النساء (۴): آيه ۸۳]

اشاره

وَ إِذٰا جٰاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ اَلْأَمْنِ أَوِ اَلْخَوْفِ أَذٰاعُوا بِهِ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى اَلرَّسُولِ وَ إِلىٰ أُولِي اَلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ اَلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ اَلشَّيْطٰانَ إِلاّٰ قَلِيلاً (۸۳)

التّفسير

اشاره

نشر الإشاعات:

تشير هذه الآيه إلى حركه منحرفه أخرى من حركات المنافقين أو ضعاف الإيمان،تتمثل في سعيهم إلى تلقف أي نبأ عن انتصار المسلمين أو هزيمتهم، و بثّه بين الناس في كل مكان،دون التحقيق و التدقيق في أصل هذا النبأ أو التأكد من مصدره،و كان الكثير من هذه الأنباء لا يتعدى إشاعه عمد أعداء المسلمين إلى بثّها لتحقيق أهدافهم الدنيئه و ليسيئوا إلى معنويات المسلمين و يضروا بهم، وَ إِذٰا جٰاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذٰاعُوا بِهِ... .

بينما كان من واجب هؤلاء أن يوصلوا هذه الأخبار إلى قادتهم كي يستفيدوا من معلومات هؤلاء القاده و فكرهم و لكي يتجنبوا دفع المسلمين إلى حاله من الغرور حيال انتصارات خياليه وهميه،أو إلى إضعاف معنوياتهم بإشاعه أنباء عن هزيمه لا حقيقه لها، وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ

يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ...

.

«يستنبطونه»من ماده«نبط»التى تعنى أوّل ما يستخرج من ماء البئر أو الينبوع،و الاستنباط استخراج الحقيقه من الأدله و الشواهد و الوثائق،سواء كانت العمليه فى الفقه أو الفلسفه أو السياسه أو سائر العلوم.

أُولِي الْأَمْرِ

فى الآيه هم المحيطون بالأمور القادرون على أن يوضحوا للناس ما كان حقيقيا منها و ما كان إشاعه فارغه.و هم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و خلفاؤه من أئمّه أهل البيت عليهم السّلام بالدّرجه الأولى.

و يأتى من بعدهم العلماء المتخصصون فى هذه المسائل.

روى عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام فى تفسير أُولِي الْأَمْرِ فى هذه الآيه قال:«هم الأئمّه» كما فى تفسير نور الثقلين،و هناك روايات أخرى أيضا فى هذا المجال بنفس المضمون.

و لعل هناك من يعترض على هذه الرّوايات قائلا:إنّ الأئمّه من أهل البيت عليهم السّلام لم يكونوا موجودين فى زمن نزول هذه الآيه،و لم يتعين أحد منهم فى ذلك الوقت بمنصب الإمامه أو الولايه،فكيف يمكن القول بأنّهم هم المعنيون بهذه الآيه؟ و الجواب على هذا الاعتراض:هو أنّ هذه الآيه مثل سائر الآيات القرآنيه الاخرى لا تقتصر على زمن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقط،بل تحمل حكما عاما يشمل كل الأزمنه و القرون التاليه لمواجهه الإشاعات التى يبثّها الأعداء أو البسطاء من المسلمين بين الأمّه.

أضرار اختلاق الإشاعه و نشرها:

لقد ابتليت المجتمعات البشريه و عانت الكثير من المصائب و النكبات الرهيبه،بسبب بروز ظاهره اختلاق الإشاعه و نشرها بين الأفراد حيث كانت تؤثر تأثيرا سلبيا كبيرا على معنويات أفراد المجتمع،و تضعف فيهم الروح الاجتماعيه و روح التفاهم و التعاون بين أبناء المجتمع الواحد.

ص:۳۴۹

و تبدأ الإشاعه بأن يختلق منافق كذبه،ثمّ ينشرها بين أفراد مغرضين أو بسطاء،ليقوموا بدورهم بالترويج لها بين أبناء المجتمع دون التحقيق فيها،بل يهولونها و يفرعونها ممّا يؤدى إلى استنزاف مقدار كبير من طاقات الناس و أفكارهم و أوقاتهم،و إلى إثاره القلق و الاضطراب بينهم،و كثيرا ما تؤدى الإشاعه إلى زعزعه الثقه بين أفراد المجتمع،و تؤدى إلى خلق حاله من اللامبالاه و التردد فى أداء المسؤوليات.

و مع أنّ بعض المجتمعات التى تعانى من الكبت و الإرهاب تعمد إلى الإشاعه كأسلوب من الكفاح السلبى،انتقاما من الحكومات الطاغيه الجائره، فالإشاعه بحدّ ذاتها تعتبر خطرا كبيرا على المجتمعات السليمه،فإذا اتجهت الإشاعه إلى الأفراد الكفوئين من المفكرين و الخبراء و العاملين فى المرافق الهامّه للمجتمع،فإنّها ستؤدى إلى حاله من البرود فى نشاطات هؤلاء،و قد تصادر مكانتهم الاجتماعيه،و تحرم المجتمع من خدماتهم.

من هنا كافح الإسلام بشده«اختلاق الإشاعات»و الافتراء و الكذب و التهمه،مثل ما حارب نشر الإشاعات كما فى هذه الآيه.

و تؤكد الآيه فى ختامها على أنّ اللّه قد صان المسلمين بفضله و لطفه و كرمه من آثار إشاعات المنافقين و المغرضين و ضعاف الإيمان،و أنقذهم من نتائجها و عواقبها الوخيمه،و لو لا الإنقاذ الإلهى ما نجى من الانزلاق فى خط الشيطان إلاّ قليلا: وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطٰانَ إِلاّٰ قَلِيلاً أى أنّ النّبى و أصحاب الرأى و العلماء المدققين هم وحدهم القادرون على أن يكونوا مصونين من وساوس الشائعات و مشيعيها،أمّا أكثريه المجتمع فلا بدّ لها من القياده السليمه لتسلم من عواقب اختلاق الشائعات و نشرها (۱) .

ص: ۳۵۰

۱- ۱) -يتبيّن ممّا قلناه أن عباره«إلاّ قليلا»هى استثناء من ضمير«اتبعتم»و لا يوجد فى الآيه تقديم أو تأخير(تأمل بدقّه).

الآيه [سوره النساء (۴): آيه ۸۴]

اشاره

فَقٰاتِلْ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ لاٰ تُکَلَّفُ إِلاّٰ نَفْسَکَ وَ حَرِّضِ اَلْمُؤْمِنِینَ عَسَی اَللّٰهُ أَنْ یَکُفَّ بَأْسَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ اَللّٰهُ أَشَدُّ بَأْساً وَ أَشَدُّ تَنْکِیلاً (۸۴)

سبب النّزول

ورد فی بعض التفاسیر مثل«مجمع البیان»و«القرطبی»و«روح المعانی» فی سبب نزول هذه الآیه أنّه حین عاد أبو سفیان و معه جیش قریش منتصرین فی واقعه أحد توعدوا المسلمین بالمواجهه مرّه أخری فی موسم«بدر الصغری»أی وقت إقامه السوق التّجاریه فی شهر ذی القعده الحرام فی منطقه بدر،و حین حان موعد المواجهه دعا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم المسلمین للاستعداد و التوجه إلی المنطقه المذکوره،إلاّ أنّ نفرا من المسلمین-الذین کانوا إلی ذلک الحین ما زالوا یعانون من مراره الهزیمه فی واقعه أحد-رفضوا التحرک مع النّبی،فنزلت هذه الآیه، فجدد النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الدّعوه إلی المسلمین بالتحرک،فما تبعه غیر سبعین رجلا منهم الذین حضروا موقع المواجهه،و لکن أبا سفیان الذی کان قد تملکه الرعب من مواجهه المسلمین جبن و لم یحضر إلی المکان الموعود و عاد الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع أصحابه سالما إلی المدینه.

ص: ۳۵۱

التّفسير

اشاره

كل انسان مسئول عمّا كلّف به:

بعد ما تقدم من الآيات الكريمه حول الجهاد،تأتی هذه الآیه لتعطی أمرا جدیدا و خطیرا إلی الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أنّه مکلّف بمواجهه الأعداء و جهادهم حتی لو بقی وحیدا و لم یرافقه أحد من المسلمین إلی میدان القتال.لأنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مسئول عن أداء واجبه هو،و لیس علیه مسئولیه بالنسبه للآخرین سوی التشویق و التحریض و الدعوه الی الجهاد: فَقاتِلْ فِی سَبِیلِ اللّهِ لا تُکَلَّفُ إِلاّ نَفْسَکَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِینَ .

الآیه تشتمل علی حکم اجتماعی مهم یخصّ القاده،و یدعوهم إلی التزام الرأی الحازم و العمل الجاد فی طریقهم و مسیرتهم نحو الهدف المقدس الذی یعملون و یدعون من أجله،حتی لو لم یجدوا من یستجیب لدعوتهم،لأنّ استمرار الدعوه غیر مشروط باستجابه الآخرین لها،و أی قائد لا یتوفر فیه هذا الحزم فهو بلا ریب عاجز عن النهوض بمهام القیاده،فلا یستطیع أن یواصل الطریق نحو تحقیق الأهداف المرجوه خاصّه القاده الإلهیون الذین یعتمدون علی اللّه...مصدر کل قدره و قوّه فی عالم الوجود،و هو سبحانه أقوی من کل ما یدبّره الأعداء من دسائس و مکائد بوجه الدّعوه،لذلک تقول الآیه: عَسَی اللّهُ أَنْ یَکُفَّ بَأْسَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ اللّهُ أَشَدُّ بَأْساً (۱) وَ أَشَدُّ تَنْکِیلاً (۲) .

معنی کلمتی«عسی»و«لعل»فی کلام اللّه:

فی کلمه«عسی»طمع و ترج،و فی کلمه«لعل»طمع و إشفاق،هنا یتبادر إلی

۱- ۱) -البأس و البأساء بمعنی الشدّه و القهر و الغلبه.

۲- ۲) -التنکیل من نکل فی الشیء،أی ضعف و عجز،و النکل:قید الدابه و حدیده اللجام لکونهما مانعین،و التنکیل: أداء عمل یردع مشاهده عن الذنب و هو العقاب الذی ینزل بالظالمین فیردعهم و یردع من یتعض بمصیرهم.

الذهن سؤال هو:لو كان التمنی و الترجی جائزین بالنسبه للإنسان لعدم علمه بالغیب و لمحدودیه قدرته و عجزه عن فعل و إنجاز کل ما یرید،فکیف یجوز استخدامهما من قبل اللّه العالم بالغیب و الشهاده و القادر علی کل شیء؟!و الطمع و الترجی یکونان فی جاهل عاجز و اللّه منزّه عن ذلک؟ ذهب کثیر من العلماء إلی تأویل معنی کلمتی«عسی»و«لعل»الواردتین فی کلام اللّه فقالوا:بأنّهما إذا وردتا فی کلامه سبحانه عزّ و جل فإنّهما تفقدان معانیهما الحقیقیه الأصلیه و تکتسبان معانی جدیده،و قالوا:إن کلمه«عسی»إذا أتت فی کلام اللّه جاءت بمعنی«الوعد»و إن کلمه«لعل»تأتی فی کلامه-عزّ من قائل-بمعنی«الطلب».

و الحق أنّ هاتین الکلمتین لا یتغیر معناهما إذا وردتا فی کلام اللّه،و لا یستلزمان الجهل أو العجز،لکن استخدامهما یأتی فی مواضع یکون الوصول فیها إلی الهدف بحاجه إلی مقدمات عدیده،فإن لم تتوفر إحدی هذه المقدمات أو بعضها لم یمکن القطع بتحقق ذلک الهدف،بل تأتی مسأله تحقق الهدف علی شکل احتمال،و یکون الحکم فی هذا المجال احتمالیا.

علی سبیل المثال یقول القرآن الکریم: وَ إِذٰا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۱) و لا یعنی هنا أنّ رحمه اللّه تشمل کل من یستمع أو ینصت إلی القرآن أثناء قراءته،بل أنّ الاستماع و الإنصات یکونان مقدمه من مقدمات نیل رحمه اللّه،و هناک مقدمات أخری مثل فهم القرآن و تدبر آیاته و العمل بأحکامه.

و یتّضح من هذا أنّ تحقیق مقدمه واحده لا یکفی لحصول النتیجه المطلوبه و لا یمکن الجزم أو القطع بحتمیه تحقق النتیجه،بل کل ما یمکن الحکم به هو احتمال حدوثها،و الحقیقه إن مثل هذه الکلمات حین تأتی فی کلام اللّه،یکون

۱- ۱) -الآیه ۲۰۴ من سوره الأعراف.

الهدف منها تنبيه السامع إلى وجود مقدمات و شروط أخرى يجب تحقيقها للوصول إلى الهدف بالإضافه إلى الشرط أو المقدمه المذكوره المصرح بها فى الكلام.

و قد تبيّن لنا أنّ نيل رحمه اللّه لا يتحقق فقط بالاستماع و الإنصات إلى القرآن فقط،بل يجب لنيل هذه الرحمه توفير المقدمات الاخرى لذلك.

من هنا فإنّ هذه الآيه التى نبحث فيها تقول إن قدره الكفار و قوتهم لا تزول و لا تضمحل بمجرّد دعوه المؤمنين إلى الجهاد و ترغيبهم فيه،بل يجب هنا-أيضا-أن يسعى المؤمنون لتوفير المقدمات الاخرى للقضاء على قدره الكفار،منها إعداد وسائل القتال و الالتزام بالخطه التى يضعها النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و السير عليها من أجل الوصول إلى الهدف النهائى.

و هكذا يتبيّن لنا أنّ لا ضروره لصرف كلمتى«عسى»و«لعل»و أشباههما عن معانيها الحقيقيه متى ما وردت فى كلام اللّه تعالى (1) .

1- 1) -يذكر الراغب فى«المفردات»احتمالا آخر فى تفسير«عسى»و«لعل»هو أنّ اللّه تعالى إذا ذكر ذلك يذكره ليكون الإنسان منه راجيا،لا لأن يكون اللّه هو الذى يرجو.أى انه يقول للإنسان كن أنت راجيا لا انا الذى أرجو.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۸۵]

اشاره

مَنْ يَشْفَعْ شَفٰاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهٰا وَ مَنْ يَشْفَعْ شَفٰاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهٰا وَ كٰانَ اَللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً (۸۵)

التّفسیر

اشاره

عواقب التّحریض علی الخیر أو الشرّ:

لقد أشیر فی الآیه السابقه إلی أنّ کل إنسان مسئول عن عمله و عمّا هو مکلّف بأدائه،و لا یسأل أی إنسان عن أفعال الآخرین.

أمّا هذه الآیه فقد جاءت لکی تسدّ الطریق أمام کل فهم خاطئ للآیه السابقه،فبیّنت أنّ الإنسان إذا حرّض الغیر علی فعل الخیر أو فعل الشر فینال نصیبا من ذلک الخیر أو الشر:

مَنْ يَشْفَعْ شَفٰاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهٰا وَ مَنْ يَشْفَعْ شَفٰاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهٰا...

.

و هذا بحدّ ذاته-حثّ علی دعوه الآخرین إلی فعل الخیر و التزام جانب الحق،و نهی الغیر عن فعل الشر،کما تبیّن هذه الآیه اهتمام القرآن بنشر الروح الاجتماعیه لدی المسلمین،و دعوتهم إلی نبذ الأنانیه أو الانطوائیه،و إلی عدم تجاهل الآخرین،و ذلک من خلال التواصی بالخیر و الحق و التحذیر من الشرّ

و الباطل.

و كلمه«الشّفاعه»الوارده فى الآيه من«الشّفع»و هو ضم الشىء إلى مثله، و قد يكون هذا الضم أحيانا فى عمل الإرشاد و الهدايه،أى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر،و تكون الشفاعه السيئه أمرا بالمنكر و نهيا عن المعروف.

و إذا حصلت الشفاعه للعاصين لإنقاذهم من نتائج أعمالهم السيئه،فهى بمعنى الإغاثه للعاصين اللائقين للشفاعه،بعباره أخرى قد تحصل الشفاعه قبل القيام بممارسه الذنب،و فتعنى الإرشاد و النصح،كما تحصل بعد ارتكاب الذنب أو الخطأ،و تعنى-هنا-إنقاذ المذنب أو الخاطئ من عواقب و نتائج جريرته، و كلا الحالتين يصدق عليهما معنى ضم شىء إلى آخر.

و مع أنّ مفهوم الآيه عام شامل لكل دعوه إلى الخير أو الشر،و لكن ورود الآيه ضمن آيات الدعوه إلى الجهاد يجعل معنى الشفاعه الحسنه دعوه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المسلمين إلى الجهاد،و حثّهم عليه،و يجعل معنى الشفاعه السيئه دعوه المنافقين المسلمين إلى ترك الجهاد و عدم المشاركه فيه،و الآيه تؤكد بأن كلا الشفيعين ينال نصيبا من شفاعته.

ثمّ إن ورود كلمه الشفاعه هنا ضمن الحديث عن القياده(القياده إلى الحسنات أو إلى السيئات)قد يكون إشاره إلى أن حديث القائد(قائد خير كان أم قائد شرّ)لا يدخل قلوب الآخرين إلاّ إذا ألغوا كل امتياز يفرقهم عن هؤلاء الآخرين،فلا بدّ لهم أن يكونوا قرناء للناس و منضمّين إليهم كى تكون لهم الكلمه النافذه،و هذه مسأله هامه فى تحقيق الأهداف الاجتماعيه.

و ما ورد عباره«أخوهم»أو«أخاهم»فى الحديث عن الأنبياء و الرسل،ضمن آيات سور الشعراء و الأعراف و هود و النمل و العنكبوت، إلاّ للإشاره إلى هذه المسأله.

و الشىء الآخر الذى تجدر الإشاره إليه هنا،هو أنّ القرآن أتى بعباره

«نصیب»لدی الحدیث عن الشفاعه الحسنه،بینما استخدم عباره«کفل»حین تحدث عن الشفاعه السیئه،و الفرق بین التعبیرین هو أنّ الأولی تستخدم حین یکون الحدیث عن حصّه من الربح و الفائده و الخیر،أمّا الثّانیه فتستخدم إذا کان الکلام عن الخساره و الضرر و الشرّ،فالنصیب تعبیر عن نصیب الخیر،و الکفل تعبیر عن حصّه الشرّ (۱) .

و هذه الآیه،تبیّن نظره إسلامیه أصیله إلی المسائل الاجتماعیه،و تصرّح أنّ الناس شرکاء فی مصائر ما یقوم به قسم منهم من أعمال عن طریق الشفاعه و التشجیع و التوجیه،من هنا فکل کلام أو عمل-بل کل سکوت-یؤدی إلی تشجیع الآخرین علی الخیر،فإنّ المشجع یناله سهم من نتائج ذلک العمل دون أن ینقص شیء من سهم الفاعل الأصلی.

فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من أمر بمعروف أو نهی عن منکر أو دل علی خیر أو أشار به،فهو شریک،و من أمر بسوء أو دل علیه أو أشار به،فهو شریک».

و یبیّن هذا الحدیث الشریف ثلاث مراحل لدعوه الأشخاص إلی الخیر أو إلی الشر.

المرحله الأولی:الأمر،و هی الأقوی.

و الثّانیه:الدلاله و هی الوسطی.

و الثّالثه:الإشاره و هی المرحله الضّعیفه.

و علی هذا الأساس فإن حثّ الآخرین أو تحریضهم علی ممارسه فعل معین، سیجعل للمحرض نصیبا من نتیجه هذا الفعل یتناسب و مدی قوّه التحریض وفق المراحل الثلاث المذکوره.

و بناء علی هذه النظره الإسلامیه،فإن مرتکبی الذنب لیسوا هم وحدهم

ص: ۳۵۷

۱- ۱) -الکفل هو عجز الحیوان و مؤخرته التی یصعب رکوبها و یشق،من هنا فکل ذنب و حصه ردیئه کفل،و الکفاله کل عمل ینطوی علی تعب و عناء.

مذنبین،بل یشترک فی الذنب معهم کل الذین شجعوا المرتکبین علی ذنبهم،عن طریق وسائل الإعلام المختلفه أو إعداد الأجواء المساعده،بل حتی عن طریق إطلاق کلمه صغیره مشجعه،و هکذا الذین یقومون بمثل هذه الأعمال علی طریق الخیرات ینالون سهمهم من نتائجها.

و یستشف من الأحادیث المرویه فی تفسیر هذه الآیه أنّ الشفاعه بکلا جانبیها تطلق-أیضا-علی الدعاء بالخیر أو بالشر للآخرین،و إنّ الدعاء للآخرین أو علیهم یعتبر نوعا من الشفاعه لدی اللّه تعالی.

نقل عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: «من دعا لأخیه المسلم بظهر الغیب أستجیب له و قال له الملک:فلک مثلاه،فذلک النصیب» (1) .

و لا ینافی هذا التّفسیر ما تطرقنا إلیه سابقا،بل یعتبر توسعا فی معانی الشفاعه،فکل إنسان یقدم مساعده لنظیره الإنسان،سواء کانت عن طریق الدعوه إلی فعل الخیرات أو الدعاء له أو عن أی طریق آخر،فسینال نصیبا من ثمار هذه المساعده.

و بهذا الأسلوب من المشاطره الفعلیه الخیره یخلق الإسلام لدی الإنسان روحا اجتماعیه تخرجه من أنانیته و انطوائیته و تجعله یعتقد أن لن یصیبه ضرر إذا سعی فی حاجه أخیه الإنسان أو ساعد علی تحقیق مصالح غیره،بل سیناله الخیر،و سیکون شریکا لأخیه فیما سعی إلی تحقیقه له من مصالح و منافع.

و الآیه-هذه-تؤکد أیضا حقیقه ثابته أخری،و هی أنّ اللّه قادر علی مراقبه الإنسان و تدوین ما یقوم به من أعمال،ثمّ محاسبته علیها،و اثابته علی خیرها، و معاقبته علی شرها وَ کانَ اللّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ مُقِیتاً .

و عباره«مقیت»مشتقه من«القوت»و هو الغذاء الذی یساعد جسم الإنسان علی البقاء و علی هذا یکون«مقیت»اسم فاعل من باب افعال،و تعنی هنا

ص:358

1- 1) -تفسیر الصافی،فی تفسیر الآیه الکریمه.

الشخص الذی یعطی الآخرین قوتهم و غذاءهم،و هو بهذه الوسیله یکون حافظا لحیاتهم و لهذا تأتی کلمه«مقیت»بمعنی«حافظ»و الحافظ یمتلک القدره علی الحفظ،و من هنا تکون کلمه«مقیت»بمعنی«المقتدر»أیضا،کما أن المقتدر یمتلک حساب من یعملون ضمن قدرته فتکون عندئذ کلمه«المقیت»بمعنی «الحسیب»أیضا،و قد یکون معنی الکلمه فی الآیه شاملا لکل هذه المعانی.

ص:۳۵۹

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۸۶]

اشاره

وَ إِذٰا حُیِّیتُمْ بِتَحِیَّهٍ فَحَیُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهٰا أَوْ رُدُّوهٰا إِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ حَسِیباً (۸۶)

التّفسیر

اشاره

دعوه إلی مقابله الودّ بالودّ:

رغم أنّ بعض المفسّرین یرون أنّ العلاقه بین هذه الآیه و الآیات السابقه ناشئه عن کون الآیات تلک تناولت موضوع الجهاد و الحرب،و الآیه الأخیره تدعو المسلمین إلی أن یواجهوا کل بادره سلیمه من قبل العدو بموقف یناسبها، و لکن هذه الصله لا تمنع أن تکون الآیه الأخیره حکما عاما یشمل کل أقسام تبادل المشاعر الخیره النّبیله بین مختلف الأطراف و الأفراد،و هذه الآیه تأمر المسلمین بمقابله مشاعر الحبّ بما هو أحسن منها،أو علی الأقل بما یساویها أو یکون مثلها،فتقول الآیه: وَ إِذٰا حُیِّیتُمْ بِتَحِیَّهٍ فَحَیُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهٰا أَوْ رُدُّوهٰا .

و«التّحیه»مشتقه من«الحیاه»و تعنی الدعاء لدوام حیاه الآخرین،سواء کانت التحیه بصیغه«السّلام علیکم»أو«حیاک اللّه»أو ما شاکلهما من صیغ التحیه و السلام،و مهما تنوعت صیغ التحیه بین مختلف الأقوام تکون صیغه«السلام» المصداق الأوضح من کل تلک الأنواع،و لکن بعض الروایات و التفاسیر تفید أنّ

مفهوم التحیه یشمل-أیضا-التعامل الودی العملی بین الناس.

فی تفسیر علی بن إبراهیم عن الباقر و الصّادق علیهما السّلام أن:«المراد بالتّحیه فی الآیه السلام و غیره من البر».

و فی«المناقب»أنّ جاریه أهدت إلی الإمام الحسن علیه السّلام باقه من الورد فأعتقها،و حین سئل عن ذلک استشهد بقوله تعالی: وَ إِذٰا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهٰا .

و هکذا یتّضح لنا أنّ الآیه هی حکم عام یشمل الردّ علی کل أنواع مشاعر الودّ و المحبّه سواء کانت بالقول أو بالعمل- و تبیّن الآیه فی آخرها أنّ اللّه یعلم کل شیء،حتی أنواع التحیه و السلام و الردّ المناسب لها،و أنّه لا یخفی علیه شیء أبدا،حیث تقول: إِنَّ اللّٰهَ کٰانَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ حَسِیباً .

السّلام،تحیه الإسلام الکبری:

لا یخفی أنّ لکل جماعه إنسانیه تقالید خاصّه فی التحیه لدی التلاقی فیما بینهم،بها یتبادلون مشاعر الحبّ و الصفاء،و الموده،و التحیه کما هی صیغه لفظیه یمکن أن تکون-أیضا-حرکه عملیه یستدل منها علی مشاعر الحبّ و الودّ المتبادله.

و قد جاء الإسلام بکلمه«السّلام»مصطلحا للتحیه بین المسلمین،و الآیه موضوع البحث مع کونها عامه شامله لأنواع التحیه،لکن المصداق الأوضح و الأظهر لها یتجسد فی کلمه«السّلام».

و بناء علی ذلک فإنّ المسلمین مکلّفون بردّ السّلام بأحسن منه،أو علی الأقل بما یماثله.

و فی آیه أخری إشاره واضحه إلی أنّ السّلام هو التحیه حیث تقول: فَإِذٰا

دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلىٰ أَنْفُسِكَمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللّهِ

(۱)

و یمکن الاستدلال من هذه الآیه علی أن عباره(السلام علیکم)هی فی الأصل«سلام اللّه علیکم»أی لیهبک اللّه السلامه و الأمن،و هکذا یتّضح لنا أنّ السلام یعتبر دلاله علی الحبّ و الود المتبادل،کما هو دلاله علی نبذ الحرب و النزاع و الخصام.

و قد دلت آیات قرآنیه أخری علی أنّ السّلام هو تحیه أهل الجنّه،حیث یقول سبحانه: أُوْلٰئِکَ یُجْزَوْنَ الْغُرْفَهَ بِمٰا صَبَرُوا وَ یُلَقَّوْنَ فِیهٰا تَحِیَّهً وَ سَلاٰماً (۲) .

و یقول تعالی: تَحِیَّتُهُمْ فِیهٰا سَلاٰمٌ... (۳) .

کما أنّ آیات قرآنیه أخری دلت علی أنّ السلام أو أی صیغه أخری تعادله، کان سائدا بین الأقوام التی سبقت الإسلام،و هذا هو ما تشیر إلیه الآیه(۲۵)من سوره الذاریات فی قصه إبراهیم مع الملائکه حیث تقول: إِذْ دَخَلُوا عَلَیْهِ فَقٰالُوا سَلاٰماً قٰالَ سَلاٰمٌ قَوْمٌ مُنْکَرُونَ .

و الشعر الجاهلی فیه دلائل تثبت أن السلام کان-أیضا-تحیه أهل الجاهلیه (۴) .

إنّ تحیه الإسلام تبرز أهمیتها و قیمتها العظیمه،لدی مقارنتها بما لها من نظائر لدی الأمم و الأقوام الاخری.

النصوص الإسلامیه تؤکد کثیرا علی السّلام و التّحیه،حیث

یروی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من بدأ بالکلام قبل السّلام فلا تجیبوه» (۵) .

ص: ۳۶۲

۱- ۱) -النّور،۶۱.

۲- ۲) -الفرقان،۷۵.

۳- ۳) -إبراهیم،۲۳.

۴- ۴) -روی أن«نوبه»و هو من شعراء الجاهلیه قال: و لو أن لیلی الأخیلیه سلمت علی و دونی جندل و صفائح لسلمت تسلیم البشاشه أو زقا إلیها صدی من جانب القبر صائح

۵- ۵) -أصول الکافی،الجزء الثانی،باب التسلیم.

كما

يروى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ اللّه يقول: «البخيل من يبخل بالسّلام» (۱) و عن الإمام الباقر عليه السّلام:«إنّ اللّه يحبّ إفشاء السلام» (۲) .

و قد ورد في الروايات و الأحاديث آداب كثيره للتحيه و السلام،منها أنّ السلام يجب أن يشيع بين جميع أبناء المجتمع و أن لا ينحصر في إطار الأصدقاء و الأقارب،

فقد روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه سئل:أى العمل خير:فأجاب صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«تطعم الطّعام و تقرأ السّلام على من عرفت و من لم تعرف» (۳) .

كما ورد في الأحاديث أن من آداب التحيه أن يسلم الراكب على الراجل، و الراكب على دابه غاليه الثمن يسلم على من يركب دابه أقل ثمنا،و قد يكون الأمر حثّا على التزام التواضع،و نهيا عن التكبر أو محاربه له،فالتكبر غالبا ما يستولى على أهل المال و الجاه و هذا عكس ما نشاهده في عصرنا حيث يتحتم على الطبقات الدانيه من المجتمع أن تبادر الطبقات العليا بالسّلام،و بذلك يضفون على هذا الأمر طابعا استعباديا وثنيا،بينما كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو أوّل من يبادر الآخرين بالسلام،و كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يبتدئ بالسلام حتى على الصبيه الصغار،و بديهى أنّ هذا الأمر لا ينافى ما ورد في الروايات من حثّ صغار السن على مبادره كبارهم بالسلام و التحيه و الاحترام،لأنّ هذا السلوك يعتبر نوعا من الآداب الإنسانيه الحميده،و لا ارتباط له بالتمييز الطبقى.

و من جانب آخر نجد روايات تأمر بعدم السّلام على المرابين و الفاسقين و أمثالهم،و يعتبر هذا الأمر سلاحا لمحاربه الفساد و الربا،أمّا إذا كان السلام يؤدى إلى التأثير على المفسد و المنحرف،و يجعله يرتد عن غيه و يترك الفساد و الانحراف،فلا مانع منه و لا بأس به.

۱- ۱) -أصول الكافى،الجزء الثانى،باب التسليم.

۲- ۲) -أصول الكافى،الجزء الثانى،باب التسليم.

۳- ۳) -تفسير فى ظلال القرآن،فى هامش الآيه.

و لاـ يفوتنـا هنـا أن نوضـح أنّ المراد من رد التحيه بالأـحسن هـو أن نعقب السـلام بعبـارات مثـل«و رحمه اللّه»أو«و رحمه اللّه و بركاته».

ورد فی تفسـير«الدّر المنثور» أنّ شـخصا أتی النّبی صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم و قال:السّلام عليكم.فإجابه النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:و عليك السّلام و رحمه اللّه.ثمّ جاءه آخر و قال:

السّلام عليكم و رحمه اللّه.

فأجابه النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و عليک السّلام و رحمه اللّه و بركاته.فجاءه ثالث و قال:

السّـلام عليـک و رحمه اللّه و بركاته.فقـال النّبی صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم:«و عليـک»-و عنـد مـا سـئل عن علّه هـذا الجواب القصير،قال:إنّ القرآن يقول:إذا حيّيتم بتحيه فحيوا بأحسن منها،و لكنك لم تبق شيئا» (۱) .

و فی الحقيقه أنّ الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم قد ردّ التحيه بأحسن منها فی الموردين السابقين،أمّا فی المورد الثّالث ردّها بالمساوی كلمه«و عليک»تعنی أنّ كل ما قلته لی مردود عليک.

۱- ۱) -الدرّ المنثور،ج ۲،ص ۸.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۸۷]

اشاره

اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلىٰ يَوْمِ اَلْقِيٰامَهِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اَللّٰهِ حَدِيثاً (۸۷)

التّفسیر

جاءت هـذه الآیه مکمله لما سـبقتها و مقـدمه لما تلیها من آیات،فالآیه السابقه بعـد أن أمرت بردّ التحیه قالت: إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً .

و الآـیه موضوع البحث تشیر إلی قضـیه غیـبیه مهمّه هی قضیه یوم البعث و الحسـاب،حیث محکمه العـدل الإلـهیه العـامّه للبشـر أجمعین،و تقرنها بمسأله التوحید الذی هو رکن آخر من أرکان الإیمان اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَهِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ .

و عباره لَيَجْمَعَنَّكُمْ تدلّ علی الشـمولیه لکل البشـر من أوّلهم حتی آخرهم، حیث سیجمعون«کلّهم»فی یوم واحد هو یوم الحشر و القیامه.

و فی موضـع آخر من القرآن(الآیتـان ۹۳ و ۹۴ من سوره مریم)أشـیر أیضـا إلی هـذه الحقیقه...حقیقه بعث جمیع عبـاد اللّه-من سکن منهم علی هذه الکره الأرضیه أو علی کرات أخری-فی یوم واحد.

و عباره لاٰ رَيْبَ فِيهِ الوارده فی الآیه و فی آیات أخری،إنّما هی إشاره

إلى الأدله القطعيه البديهيه على وقوع يوم القيامه،مثل دليل«قانون التكامل» و«حكمه الخلق»و«قانون العدل الإلهى»،المذكوره بالتفصيل فى مبحث المعاد.

و تؤكد الآيه فى نهايتها على حقيقه أنّ اللّه هو أصدق الصادقين: مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً من هنا لا يجوز أن يساور أحد الشك فيما يعد به اللّه من بعث و نشور و غيره من الوعود،فالكذب لا يصدر إلاّ عن جهل أو ضعف و حاجه،و اللّه أعلم العالمين،و إليه سبحانه يحتاج العباد دون أن يحتاج هو إلى أحد مطلقا،فهو منزّه عن صفات الجهل و الضعف و العجز،و لذلك فهو أصدق الصادقين،بل إن الكذب بالنسبه إلى اللّه تعالى لا مفهوم له إطلاقا.

ص: ۳۶۶

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۸۸]

اشاره

فَمٰا لَكُمْ فِي اَلْمُنٰافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَ اَللّٰهُ أَرْكَسَهُمْ بِمٰا كَسَبُوا أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اَللّٰهُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اَللّٰهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (۸۸)

سبب النّزول

نقل جمع من المفسّرین عن ابن عباس أن نفرا من أهل مکّه من الذین کانوا قد أظهروا الإسلام امتنعوا عن ترک مجاوره و مداهنه المنافقین،و أحجموا لذلک عن الهجره إلی المدینه،و کان هؤلاء فی الحقیقه یساندون و یدعمون عبده الأوثان المشرکین،إلاّ أنّهم اضطروا فی النهایه إلی الخروج من مکّه(و ساروا مع المسلمین حتی وصلوا إلی مشارف المدینه،و لعلّهم فعلوا ذلک لدرء الفضیحه عن أنفسهم أو بهدف التجسس علی المسلمین المهاجرین)و کانوا یظهرون الفرح لانطواء حیلتهم علی المسلمین،کما حسبوا أن دخولهم إلی المدینه سوف لا تعترضه أی مشاکل من قبل الآخرین-لکن المسلمین انتبهوا الی حقیقه هؤلاء، غیر أنّهم انقسموا إلی فئتین،فئه منهم رأت ضروره طرد أولئک النفر من المنافقین الذین کانوا فی الحقیقه یدافعون عن المشرکین أعداء الإسلام،و الفئه الثانیه من المسلمین الذین کانوا لسذاجتهم یرون ظاهر الأمور دون باطنها،و خالفوا طرد المنافقین و اعترضوا بزعمهم أنّه لا یمکن محاربه أو طرد من یشهد للّه بالوحدانیه

ص: ۳۶۷

و لمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالنّبوه،و قالوا:أنّه لا يمكن استباحه دماء هؤلاء لمجرّد عدم هجرتهم مع المسلمين:فنزلت هذه الآيه الكريمه و هى تلوم الفئه الأخيره على خطئها،و ترشدها إلى طريق الحقّ الصواب (۱) .

التّفسير

استنادا إلى سبب النزول الذى ذكرناه،تتّضح لنا الصّله الوثيقه بين هذه الآيه و الآيات التى تليها،و كذلك الآيات السابقه التى تناولت مواضيع و قضايا عن المنافقين.

فهذه الآيه تخاطب فى البدايه المسلمين و تلومهم على انقسامهم إلى فئتين، كل فئه تحكم بما يحلو لها بشأن المنافقين،حيث تقول: فَمٰا لَكُمْ فِي الْمُنٰافِقِينَ فِئَتَيْنِ... (۲) و تنهى المسلمين عن الاختلاف فى أمر نفر أبوا أن يهاجروا معهم، و تعاونوا مع المشركين،و أحجموا عن مشاركه المجاهدين،فظهر بذلك نفاقهم، و دلت على ذلك أعمالهم،فلا يجوز للمسلمين أنّ ينخدعوا بتظاهر هؤلاء بالتوحيد و الإيمان،كما لا يجوز لهم أن يشفعوا فى هؤلاء،و قد أكّدت الآيه السابقه أن: مَنْ يَشْفَعْ شَفٰاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهٰا .

و تبيّن الآيه بعد ذلك:إنّ اللّه قد سلب من هؤلاء المنافقين كل فرصه للنجاح، و حرمهم من لطفه و عنايته بسبب ما اقترفوه و إنّ اللّه قد قلب تصورات هؤلاء بصوره تامّه فأصبحوا كمن يقف على رأسه بدل رجليه: ...وَ اللّٰهُ أَرْكَسَهُمْ بِمٰا كَسَبُوا... (۳) .

۱- ۱) -ذكرت أسباب أخرى لنزول هذه الآيه و الآيات التى تليها،و قيل أنّها نزلت فى واقعه أحد بينما الآيات التاليه تتحدث عن الهجره و لا تنسجم مع هذا القول،بل تنسجم مع سبب النزول الذى ذكرناه أعلاه.

۲- ۲) -فى هذه الجمله،جمله أخرى محذوفه تتضح لدى الإمعان فى الأجزاء الاخرى من الآيه و التقدير:«فما لكم تفرقتم فى المنافقين فئتين...».

۳- ۳) -«أركسهم»:من ركس و هو قلب الشيء على رأسه،و تأتى أيضا بمعنى ردّ أوّل الشيء إلى آخره.

و تدل عباره«بما كسبوا»على أنّ كل ارتداد أو خروج عن جاده الحقّ و طريق الهدايه و السعاده و النجاه،إنّما يتمّ بعمل الإنسان و فعله،و حين ينسب الإضلال إلى اللّه سبحانه عزّ و جلّ،فذلك معناه أنّ اللّه القدير الحكيم يجازى كل إنسان بما كسبت يداه و يثيبه بقدر ما يستحق من ثواب.

و فى الختام تخاطب الآيه أولئك البسطاء من المسلمين الذين انقسموا على أنفسهم و أصبحوا يدافعون لسذاجتهم عن المنافقين،فتؤكد لهم أنّ هدايه من حرمه اللّه من لطفه و رحمته بسبب أفعاله الخبيثه الشنيعه أمر لا يمكن تحقيقه، لأنّ اللّه قد كتب على هؤلاء المنافقين ما يستحقونه من عذاب و ضلال و حرمان من الهدايه و النجاه أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللّٰهُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً .

إذ أنّ عمل كل شخص لا ينفصل عنه...و هذه سنه إلهيه...فكيف يؤمل فى هدايه أفراد امتلأت أفكارهم و قلوبهم بالنفاق،و اتجهت أعمالهم إلى حمايه أعداء اللّه؟!إنّه أمل لا يقوم على دليل (۱) .

ص :۳۶۹

۱- ۱) -فى المجلد الأول من هذا التّفسير بحث عن الهدايه و الضلاله،فراجعه.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۸۹]

اشاره

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِی سَبِيلِ اَللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اُقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ لاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَ لاَ نَصِيراً (۸۹)

التّفسیر

اشاره

لقد تحدثت الآیه السابقه عن المنافقین الذین کانوا یحظون بحمایه نفر من المسلمین البسطاء و شفاعتهم،و أوضحت أنّ هؤلاء المنافقین غرباء عن الإسلام، و هذه الآیه تبیّن أنّ المنافقین لفرط انحرافهم و ضلالتهم یعجبهم أن یجروا المسلمین إلی الکفر کی لا یظلوا وحدهم کافرین: وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً .

و لهذا السبب فإنّ المنافقین أسوأ من الکفار،لأنّ الکافر لا یحاول سلب معتقدات الآخرین،و المنافقون یفعلون هذا الشیء و یسعون دائما لإفساد المعتقدات،و هم بطبعهم هذا لا یلیقون بصحبه المسلمین أبدا،تقول الآیه الکریمه: فَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ... إلاّ إذا غیروا ما فی أنفسهم من شرّ، و تخلوا عن کفرهم و نفاقهم و أعمالهم التخریبیه.

و لکی یثبتوا حصول هـذا التغییر،و یثبتوا صـدقهم فیه،علیهم أن یبادروا إلی الهجره من مرکز الکفر و النفاق إلی دار الإسـلام(أی یهـاجروا من مکّه إلی المـدینه) فتقول الآیه: حَتّی یُهاجِرُوا فِی سَبِیلِ اللّهِ... أمّا إذا رفضوا الهجره فلیعلم المسـلمون بأن هؤلاء لا یرضون لأنفسهم الخروج من حاله الکفر و النفاق،و إن تظاهرهم بالإسلام لیس إلاّ من أجل تمریر مصالحهم و أهدافهم الدنیئه و من أجل أن یسهل علیهم التآمر و التجسس علی المسلمین.

و فی هـذه الحاله یسـتطیع المسـلمون أن یأسـروهم حیثما وجدوهم،و أن یقتلوهم إذا اسـتلزم الأمر،تقول الآیه الکریمه: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ .

و تکرر هذه الآیه التأکید علی المسلمین أن یتجنّبوا مصاحبه هؤلاء المنافقین و أمثالهم فتقول: لا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً .

و القرآن فی هذا الحکم یؤکّد حقیقه مصیریه للمجتمع،هی أنّ حیاه أی مجتمع تمرّ بمرحله إصلاحیه لا یمکن أن تستمر بصوره سلیمه ما لم یتخلص من جراثیم الفساد المتمثله بهؤلاء المنافقین أو الأعداء الذین یتظاهرون بالإخلاص، و هم فی الحقیقه عناصر مخربه هدامه تعمل فی التآمر و التجسس علی المجتمع و مصالحه العامّه.

و الطریف هنـا أنّ الإسـلام-مع اهتمـامه برعـایه أهـل الکتـاب من الیهود و النصـاری و غیرهم و منعه الظلم و العـدوان عنهم-نراه یشـدد کثیرا فی التحذیر من خطر المنافقین،و یری ضـروره التعامل معهم بعنف و قسوه،و رغم تظاهرهم بالإسـلام یصـرح القرآن بأسرهم،بل حتی بقتلهم إن استلزم الأمر.

و ما هذا التشدید إلاّ لأنّ هؤلاء یستطیعون ضرب الإسلام تحت ستار الإسلام،و هذا ما یعجز عن أدائه أی عدو آخر.

ص :۳۷۱

سؤال:

قد یری البعض أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یتحاشی قتل المنافقین کی لا یتهمه الأعداء بأنّه یقتل أصحابه،أو أنّه لم یقتلهم حتی لا یستغل الآخرون هذا الأمر فیقتلون کل من یعادونه بدعوی أنّه منافق،فکیف یتلاءم هذا الموقف مع الآیه الشریفه.

الجواب:

الحقیقه أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم اتّبع هذا الأسلوب مع منافقی المدینه الذین لم یظهروا العداء الصریح له أو للإسلام،بینما اتّبع مع منافقی مکّه الذین جهروا بعدائهم للمسلمین و ساعدوا الکفار علیهم أسلوبا غیر هذا.

ص: ۳۷۲

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۹۰]

اشاره

إِلاَّ اَلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثٰاقٌ أَوْ جٰاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقٰاتِلُوكُمْ أَوْ يُقٰاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَ لَوْ شٰاءَ اَللّٰهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقٰاتَلُوكُمْ فَإِنِ اِعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقٰاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ اَلسَّلَمَ فَمٰا جَعَلَ اَللّٰهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (۹۰)

سبب النّزول

وردت روایات عدیده تفید أنّ إثنتین من القبائل العربیه فی زمن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هما قبیلتا«بنی ضمره»و«أشجع»کانت إحداهما و هی قبیله بنی ضمره قد عقدت مع النّبی اتفاقا بترک النزاع،و کانت القبیله الثانیه حلیفه للقبیله الأولی دون أن تعقد مثل هذا الاتفاق مع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و تقول الروایات إن بعض المسلمین أخذوا یشککون فی وفاء«بنی ضمره»للمسلمین،و اقترحوا علی النّبی أن یهاجم هذه القبیله قبل أن تبادر هی بالهجوم علی المسلمین،

فرد النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قائلا:

«کلاّ،فإنّهم أبر العرب بالوالدین،و أوصلهم للرّحم،و أوفاهم بالعهد».

و بعد فتره علم المسلمون أنّ قبیله«أشجع»و علی رأسها«مسعود بن رجیله»قد وصلت حتی مشارف المدینه،و هی فی سبعمائه رجل،فبعث النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم وفدا للتعرف علی سبب مجیئهم إلی ذلک المکان،فأجابت هذه القبیله

بأنّها جاءت لكى تعقـد اتفاقا مع المسـلمين مماثلا لاتفاق«بنى ضـمره»معهم،و ما أن علم النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بهـذا الأمر حتى أمر أصـحابه بأن يأخـذوا مقـدارا من التمر هـديه لهذه القبيله،ثمّ التقى بهم النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فأخبروه بأنّهم لعجزهم عن موازره المسـلمين فى قتال الأعـداء،و لعـدم رغبتهم فى المشاركه فى قتال ضد المسـلمين، لما تربطهم بهم من صله الجوار،لذلك يرومون عقد اتفاق أو ميثاق مع المسلمين بتحريم العدوان بينهما،فنزلت الآيه المذكوره بهذا الشأن و هى تبيّن للمسلمين ما يجب عليهم أن يفعلوه فى مثل هذه الحاله.

و يقول مفسـرون آخرون إنّ قسـما من هـذه الآيه قـد نزل فى شأن قبيله «بنى مدلج»التى جاءت إلى النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أخـبرته أنّهـا تريـد الاتفـاق معه على عـدم اللجوء إلى العـدوان فيمـا بينهمـا،و ذلـك لرغبتهـا فى البقـاء على الحيـاد تجـاه المسلمين و دعوتهم.

التّفسير

اشاره

التّرحيب باقتراح السّلم:

بعد أن أمر القرآن الكريم المسـلمين فى الآيات السابقه باسـتخدام العنف مع المنافقين الذين يتعاونون مع أعداء الإسـلام،تستثنى هذه الآيه من الحكم المذكور طائفتين:

١-من كانت لهم عهود و مواثيق مع حلفائكم إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثٰاقٌ .

٢-من كانت ظروفهم لا تسـمح لهم بمحاربه المسـلمين،كما أنّ قدرتهم ليست على مستوى التعاون مع المسلمين لمحاربه قبيلتهم أَوْ جٰاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقٰاتِلُوكُمْ أَوْ يُقٰاتِلُوا قَوْمَهُمْ .

و من الواضح أنّ أفراد الطائفه الأولى يجب أن يكونوا مستثنين من هذا

ص :٣٧۴

القانون احتراما للعقود و العهود،و أمّا المجموعه الثانيه-و إن لم تكن معذوره،بل عليها أن تستجيب للحق بعد معرفته-فقد أعلنت حيادها،و لذلك فمجابهتها يتعارض مع مبادئ العداله و المروءه.

و لكى لا يستولى الغرور على المسلمين إزاء كل هذه الانتصارات الباهره، و كى لا يعتبروا ذلك نتيجه قدرتهم العسكريه و ابتكارهم،و لا تستفز مشاعرهم تجاه هذه المجموعات المحايده تقول الآيه: وَ لَوْ شاءَ اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ .

و هذا تذكير للمسلمين بعدم نسيان اللّه فى كل انتصار،و أن يتجنّبوا الغرور و العجب حيال ما لديهم من قوّه،و أن لا يعتبروا العفو عن الضعفاء خساره أو ضررا لأنفسهم.

و تكرر الآيه فى ختامها التأكيد بأنّ اللّه لا يسمح للمسلمين بالمساس بقوم عرضوا عليهم الصلح و تجنبوا قتالهم،و إن المسلمين مكلفون بأن يقبلوا دعوه الصلح هذه،و يصافحوا اليد التى امتدت إليهم و هى تريد الصلح و السلام فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً .

يلفت النظر أنّ القرآن فى هذا الموضع و مواضع أخرى يذكر مقترح السلام بعباره«إلقاء السلام»و قد يكون ذلك إشاره إلى التباعد بين الجانبين المتنازعين قبل الصلح،حتى أنّ أحد الجانبين يطرح اقتراحه باحتياط و عن بعد ليلقيه على الجانب الآخر.

ص: ٣٧٥

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۹۱]

اشاره

سَتَجِدُونَ آخَرِینَ یُرِیدُونَ أَنْ یَأْمَنُوکُمْ وَ یَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ کُلَّمٰا رُدُّوا إِلَی اَلْفِتْنَهِ أُرْکِسُوا فِیهٰا فَإِنْ لَمْ یَعْتَزِلُوکُمْ وَ یُلْقُوا إِلَیْکُمُ اَلسَّلَمَ وَ یَکُفُّوا أَیْدِیَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَ اُقْتُلُوهُمْ حَیْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أُولٰئِکُمْ جَعَلْنٰا لَکُمْ عَلَیْهِمْ سُلْطٰاناً مُبِیناً (۹۱)

سبب النّزول

لقد ذکروا أسبابا مختلفه لنزول هذه الآیه،و أشهرها هو أنّ نفرا من أهل مکّه کانوا حین یحضرون عند النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یتظاهرون بالإسلام کذبا و خداعا،و ما أن یرجعوا إلی قریش یعودون لعباده الأصنام،و قد انتخب هؤلاء هذا النوع من السلوک درءا لخطر المسلمین و خطر قریش عن أنفسهم،بالإضافه إلی سعیهم لإمرار مصالحهم لدی الطرفین،فنزلت هذه الآیه و أمرت المسلمین بالتعامل مع هؤلاء بعنف و شدّه.

التّفسیر

اشاره

عقاب ذی الوجهین:

إنّ هذه الآیه تصور لنا طائفه من الناس نقیض تلک الطائفه التی تحدثت عنها

الآيه السابقه و أمرت بقبول الصلح منها،و الطائفه تتشكل من أفراد نفعيين انتهازيين،همّهم الوحيد تحقيق مصالحهم و التحرك بحريه تامّه لدى المسلمين، و قريش عن طريق الرياء و الخيانه و الخداع،و التظاهر بتأييد و اتباع الجانبين و التعاون معهما،و فى هذا المجال تقول الآيه الكريمه: سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَ يَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ... .

و هؤلاء حين تسنح لهم الفرصه ينقلبون على أعقابهم و ينغمسون فى الفتنه و الشرك نكسا على رؤوسهم كُلَّمٰا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَهِ أُرْكِسُوا فِيهٰا... .

و عمل هؤلاء و سلوكهم على عكس سلوك الطائفه السابقه التى أرادت أن تبقى على الحياد فقد تجنبت الفئه السابقه إيذاء المسلمين،أمّا هذه الأخيره فقد انطوت سريرتها على إيذاء المسلمين و الوقوف ضدهم.

و قد اشترط القرآن الكريم على هذه الطائفه ثلاثه شروط من أجل أن تبقى فى مأمن من انتقام المسلمين،و هذه الشروط هى:اعتزال المسلمين،أو مصالحتهم،أو الكف عن إيذائهم حيث تقول الآيه الكريمه: فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَ يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ... .

و إذا رفضت هذه الطائفه الشروط المذكوره و أصرت على العصيان و التمرد، فالمسلمون مكلّفون عند ذلك بإلقاء القبض على أفرادها و قتلهم أينما وجدوا، كما تقول الآيه: فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ .

و لما كانت الحجّه قد تمّت على هؤلاء،تقول الآيه فى الخاتمه: أُولٰئِكُمْ جَعَلْنٰا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطٰاناً مُبِيناً .

و قد يكون هذا التسلط فى مجال الكلام و المنطق إذا تغلب منطق المسلمين على منطق المشركين و الكافرين،و قد يكون سلطانا ماديا ظاهريا عليهم لأنّ الآيه نزلت فى وقت كان المسلمون يتمتعون فيه بقدر كاف من القوّه.

و تشير عباره«ثقفتموهم»الوارده فى الآيه إلى احتياج المسلمين إلى الدقه

و المهـاره فی التعرف علی هـذه الفئه المنـافقه الخطیره،لمـا لهـا مـن قـابلیه عجیبـه علی التلـون و الخـداع و الانفلاـت من العقـاب،فعبـاره«ثقفتمـوهم»مشـتقه مـن المصـدر«ثقـافه»الـذی یعنی الحصـول علی شـیء باسـتخدام الـدقّه و المهـاره،بینما الفعل«وجد»یعنی الحصول علی الشیء بصوره مطلقه.

الآيه [سوره النساء (۴): آیه ۹۲]

اشاره

وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاّٰ خَطَأً وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلىٰ أَهْلِهِ إِلاّٰ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كٰانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ إِنْ كٰانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثٰاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلىٰ أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيٰامُ شَهْرَيْنِ مُتَتٰابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللّٰهِ وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً (۹۲)

سبب النّزول

ذکروا أنّ مشرکا من أهل مکّه و هو«الحارث بن زید»کان یعذب أحد المسلمین-و لفتره طویله-بالتعاون مع أبی جهل،و کان اسم هذا المسلم«عیاش بن أبی ربیعه»و لم یکن تعذیبه بسبب جرم اقترفه،بل کان یعذب لمجرّد أنّه آمن بالإسلام،و بعد هجره المسلمین إلی المدینه هاجر«عیاش»إلیها،فصادف یوما «الحارث بن زید»فی إحدی طرقات المدینه فقتله ظنّا منه أنّه ما زال عدوا للمسلمین،و لم یکن علی علم بأن الحارث کان قد تاب و أسلم،فعلم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بهذا الحادث،فنزلت الآیه الشّریفه و هی تبیّن حکم مثل هذا القتل الناتج عن الخطأ.

ص: ۳۷۹

التّفسير

اشاره

أحكام القتل النّاتج عن الخطأ:

لقد أطلقت الآيه السابقه أيدى المسلمين فى المنافقين الذين كانوا يشكلون خطرا كبيرا على الإسلام،و سمحت لهم حتى بقتل أمثال هؤلاء المنافقين،و لكن تفاديا لاستغلال هذا الحكم استغلالا سيئا،و لسد الطريق أمام الأغراض الشخصيه التى قد تدفع صاحبها إلى قتل إنسان بتهمه أنّه منافق،و أمام أى تساهل فى سفك دماء الأبرياء،بيّنت هذه الآيه و التى تليها أحكام قتل الخطأ و قتل العمد،لكى يكون المسلمون على غايه الدقّه و الحذر فى مسأله الدّماء التى تحظى باهتمام بالغ فى الإسلام،تقول الآيه الكريمه: وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاّٰ خَطَأً .

هذه الآيه تقرر فى الواقع حقيقه من الحقائق،فالمؤمن لا يسمح لنفسه إطلاقا أن يسفك دما بريئا،لأنّ المشاعر الإيمانيه تجعل من الجماعه المؤمنه أعضاء جسد واحد،و هل يقدم عضو فى جسد على قطع عضو آخر إلّا خطأ!من هذه الحقيقه يتّضح أنّ مرتكب جريمه القتل متهم أوّلا فى إيمانه.

و عباره«إلاّ خطأ»لا تعنى السماح بارتكاب قتل الخطأ!لأنّ مثل هذا القتل لا يكون عن قرار مسبق،و لا يكون مرتكبه حين الارتكاب على علم بخطئه أنّها- إذن-تقرير لحقيقه عدم ارتكاب المؤمن مثل هذه الجريمه إلّا عن خطأ.

ثمّ تبيّن الآيه الكريمه غرامه قتل الخطأ،و تقسمها إلى ثلاثه أنواع:

فالنّوع الأوّل:هو أن يحرر القاتل عبدا مسلما،و يدفع الديه عن دم القتيل إلى أهله إذا كان القتيل ينتمى إلى عائله مسلمه وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَهٍ مُؤْمِنَهٍ وَ دِيَهٌ مُسَلَّمَهٌ إِلىٰ أَهْلِهِ فإذا وهب أهل القتيل الديه و تصدقوا بها له فلبس على القاتل أن يدفع شيئا: إِلاّٰ أَنْ يَصَّدَّقُوا... .

و النّوع الثّانى:من غرامه قتل الخطأ يكون فى حاله ما إذا كان القتيل مسلما،

و لكن من عائله معاديه للإسلام و يجب فى هذه الحاله عتق عبد مسلم و لا تدفع الديه إلى أهل القتيل،لأنّ الإسلام يرفض تعزيز الحاله الماليه لأعدائه،بالإضافه إلى ذلك فإنّ الإسلام قد قطع الصله بين هذا الفرد و عائلته المعاديه للإسلام،فلا معنى إذن لجبران الخساره.

أما النّوع الثّالث:من غرامه القتل الناتج عن الخطأ،فيكون فى حاله كون القتيل من عائله غير مسلمه لكن بينها و بين المسلمين عهدا و ميثاقا،فى مثل هذه الحاله أمر بدفع ديه القتيل إلى أهله،كما أمر-أيضا-بتحرير عبد من العبيد المسلمين احتراما للعهود و المواثيق تقول الآيه: وَ إِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلىٰ أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ... .

و اختلف المفسّرون فى قتيل الحاله الثالثه،هل يجب أن يكون من المسلمين، أم أن الحكم يشمل غيرهم من الكفار الذميين؟ و ظاهر الآيه و الروايات التى وردت فى تفسيرها تدل على أنّ المقصود فيها هو القتيل«المسلم».

كما اختلف المفسّرون فى جواز دفع الديه إلى أهل القتيل غير المسلمين، حيث أنّ الديه تعتبر جزءا من الإرث،و الكافر لا يرث المسلم،و لكن ظاهر الآيه يدل على وجوب دفع الديه إلى أهل مثل هذا القتيل،و ذلك تأكيدا من الإسلام لاحترامه للعهود و المواثيق.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الديه تدفع فى هذه الحاله إلى المسلمين من ورثه القتيل دون الكافرين منهم معتمدين على أنّ الكافر لا يرث المسلم و أنّ الديه هى جزء من الإرث،و قد وردت إشارات إلى هذا المعنى فى بعض الروايات أيضا.

بينما ظاهر الآيه يدل على أن الورثه ليسوا من المسلمين،و ذلك حين تقول:

مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ...

لأن العهود و المواثيق كانت فى ذلك الزمان

بین المسلمین و بین غیرهم،و لم تکن بین المسلمین أنفسهم-حینذاک-عهود أو مواثیق،(و هنا یجب الإمعان و التدقیق کثیرا من الأمر).

و تستطرد الآیه فی بیان الحکم فتتطرق إلی أولئک النفر من المسلمین الذین یرتکبون القتل عن خطأ،و لا یسعهم-لفقرهم-دفع المال دیه عن القتیل،کما لا یسعهم شراء عبد لتحریر رقبته غرامه عن ارتکابهم للقتل الخطأ،و تبیّن حکم هؤلاء،و تعلن أنهم یجب أن یصوموا شهرین متتابعین غرامه عن القتل الخطأ الذی ارتکبوه،بدلا من الدیه و تحریر الرقبه،و قد اعتبرت ذلک نوعا من تخفیف الجزاء علی الذین لا یطیقون الغرامه المالیه و توبه منهم إلی اللّه،علما أنّ جمیع أنواع الغرامات التی ذکرت فی الآیه عن القتل الخطأ،إنما هی توبه و کفاره للذنب المرتکب فی هذا المجال،و اللّه یعلم بخفایا الأمور و قد أحاط علمه بکل شیء حیث تقول الآیه: تَوْبَهً مِنَ اللّٰهِ وَ کٰانَ اللّٰهُ عَلِیماً حَکِیماً .

لقد وردت فی الآیه-موضوع البحث-أمور عدیده یجدر الانتباه إلیها و هی:

۱-ذکرت الآیه ثلاثه أنواع من التعویض عند حصول قتل عن خطأ،و کل نوع فی حدّ ذاته تعویض عن الخساره الناجمه عن هذا القتل.

فتحریر رقبه عبد مسلم یعتبر تعویضا عن خساره اجتماعیه ناتجه عن القتل الواقع علی إنسان مسلم،إذ بعد أن خسر المجتمع فردا نافعا من أفراده بسبب وقوع القتل علیه،حصل علی تعویض مماثل و ذلک بدخول إنسان نافع آخر بین أفراده عن طریق التحریر.

و أمّا التعویض المادی«الدیه»فهو مقابل الخساره المادیه اللاحقه بأهل القتیل نتیجه فقدهم إیاه،و الحقیقه أن الدیه لیست ثمنا لدم القتیل المسلم البریء، لأن دمه لا تعادله قیمه،بل هی-و کما أسلفنا-نوع من التعویض عن خساره مادیه لاحقه بذوی القتیل بسبب فقدانه.

و أمّا الخیار الثّالث الوارد فی حاله تعذر تقدیم التعویض المادی،فیتمثل فی

صيام شهرين متتابعين يقوم به القاتل،فهو تعويض أخلاقى و معنوى لخساره معنويه لحقت بالقاتل نفسه بسبب ارتكابه لحادث قتل،فالكفاره تتحقق فى الدرجه الأولى فى تحرير رقبه مؤمنه،فإن عجز القاتل فصيام شهرين متتابعين- و يجب الانتباه هنا إلى أن تحرير العبيد يعتبر بحدّ ذاته عباده،لما له من أثر معنوى على العبد الذى يتحرر من قيود الرق.

٢-ورود عباره إِلاّ أَنْ يَصَّدَّقُوا بالنسبه إلى أهل القتيل الذين هم من المسلمين،أى أن يتنازلوا عن«ديه»قتيلهم،حيث لم ترد هذه العباره بالنسبه لغير المسلمين-و سبب ذلك واضح،و هو لأن الأرضيه للصفح و العفو متوفره لدى المسلمين حيال أمثالهم،بينما لا تتوفر مثل هذه الأرضيه لدى غير المسلمين تجاه المسلمين،كما أن المسلم يجب أن لا يقبل معروفا أو منّه من غير المسلم فى هذه الحالات.

٣-و ممّا يجلب الانتباه أنّ الحاله الثالثه الوارده فى آيه موضوع البحث،قد قدمت كفاره الديه على كفاره التحرير، و هذه الحاله تتناول مسأله القتل الخطأ الواقع على شخص لا- ينتمى أهله إلى الإسلام،بينما الحاله الأولى-التى كان القتيل فيها من عائله إسلاميه-تقدمت فيها كفاره التحرير على كفاره الديه.

و يمكن الاستنتاج من هذا التقديم و التأخير أن مسأله دفع الديه فى موعد متأخر بالنسبه للمسلمين فيما بينهم،لا تترك أثرا سلبيا عليهم-فى الغالب-بينما لو كان أهل القتيل من غير المسلمين لوجب التعجيل فى دفع الديه-أوّلا-اتقاء للفتنه،و لكى لا يفسّر أهل القتيل و قومه مسأله القتل الحاصله بأنّها نقض للعهد من جانب المسلمين.

۴-لم تحدد الآيه الكريمه مقدار الديه أو مبلغها فى أى من الحالات الثلاثه المذكوره،و يستنتج من هذا أن مسأله التحديد هذه إنّما أوكلت إلى السنه التى عينت بالفعل مقدارها الكامل بألف مثقال من الذهب،أو بمائه بعير،أو مائتين من

البقر،و یمکن أن یکون ثمن هـذه الأنـواع مالاـ إذا حصل اتفاق بین طرفی القضـیه، (و بـدیهی أن تخصـیص الـذهب أو نوع من أنواع الماشیه دیه عن القتل،إنما هو سنه إسلامیه تستند مبرراتها علی الأمور الطبیعیه لا الوضعیه المتغیره بتغیر الزمان).

۵-قد یرد هذا الوهم لدی البعض بأنّ القتل الواقع خطأ،یجب أن لا یکون بإزائه غرامه أو عقوبه،لأن القاتل لم یرتکب جریمه عن عمد أو سبق إصرار و إن الخطأ لا عقوبه أو غرامه مالیه علیه.

و جواب هذا-أو توضیحه-هو أن القتل،دون سواه من الجرائم،تدخل فیه قضیه بالغه الأهمیه و هی قضیه الدم المراق فیها و الحیاه الإنسـانیه الـتی تسـلب عضو من أعضـاء المجتمع...و لکی یبیّن الإسـلام اهتمـامه الکبیر بحیـاه الأـفراد، و یـدفع معتنقیه إلی التزام الحیطه و الحـذر الـدقیقین لعدم التورط فی ارتکاب مثل هذه الأخطاء،شدد فی مسأله الغرامه و العقوبه حرصا منه علی حیاه أفراد المجتمع،و لکی لا یصبح الخطأ عذرا یتوسل به من شاء فی إهدار دماء الأبریاء من الناس.

و العبـاره الأـخیره من الآیه الکریمه التی هی تَوْبَهً مِنَ اللّهِ... قـد تکون إشاره إلی أنّ وقوع الخطأ یکون غالبا بسـبب التهاون و قله الحـذر،و ان الخطأ إذا کان کبیرا کالقتل-یجب التعویض عنه أوّلا و إرضاء أهل القتیل لکی تشـمل القاتل أو الخاطئ بعـد ذلک التوبه الإلهیه.

ص :۳۸۴

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۹۳]

اشاره

وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزٰاؤُهُ جَهَنَّمُ خٰالِداً فِيهٰا وَ غَضِبَ اَللّٰهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذٰاباً عَظِيماً (۹۳)

سبب النّزول

ذکروا أنّ«المقیس بن صبابه الکنانی» کان قد وجد قاتل أخیه«هشام»فی محله بنی النجار،و أخبر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بهذا الأمر،فبعثه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع«قیس بن هلال المهری»إلی زعماء بنی النجار یأمرهم أن یسلموا قاتل«هشام»إلی أخیه «المقیس»و إن لم یکن لهم علم به أو بمکانه فلیدفعوا إلی«المقیس»دیه أخیه القتیل،فدفع بنو النجار الدیه لعدم علمهم بمکان القاتل،فأخذ«المقیس»الدیه و توجه إلی المدینه مع«قیس بن هلال المهری»إلاّ أنه فی الطریق راودته نعره من نعرات الجاهلیه،فظن أنه قد جلب علی نفسه العار بقبوله المال بدل دم أخیه، فعمد إلی قتل رفیق سفره،أی قیس بن هلال الذی کان من قبیله بنی النجار، انتقاما لدم أخیه علی حسب ظنّه،ثمّ هرب«المقیس»إلی مکّه و ارتد عن إسلامه،فاستباح النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دم هذا القاتل،أی«المقیس»لخیانته،و قد نزلت هذه الآیه فی هذه المناسبه و هی تبیّن عقوبه مرتکب القتل العمد.

التّفسير

اشاره

عقوبه القتل العمد:

لقد بيّنت الآيه السابقه عقوبه-أو غرامه-القتل الناتج عن الخطأ،و جاءت الآيه الأخيره عقوبه القتل عن عمد و سبق إصرار،في حاله إذا كان القتيل من المؤمنين،و بما أن جريمه قتل الإنسان من أعظم و أكبر الجرائم و أخطر الذنوب، و ان التهاون في مكافحه مثل هذه الجريمه يهدد أمن المجتمع و سلامه أفراده، الأمن الذي يعتبر من أهم متطلبات المجتمع السليم،لذلك فإنّ القرآن الكريم قد تناول هذه القضيه في آيات مختلفه بأهميه بالغه،حتى أنّه اعتبر قتل النفس الواحده قتلا للناس جميعا،إلاّ أن يكون القتل عقابا لقتل مثله أو عقابا لجريمه الإفساد في الأرض حيث يقول القرآن في هذا المجال: مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِيعاً (1) .

و قد قررت الآيه-موضوع البحث-أربع عقوبات أخرويه لمرتكب القتل العمد،و عقوبه أخرى دنيويه هي القصاص،و العقوبات الأخرويه هي:

١-الخلود و البقاء الأبدي في نار جهنم،حيث تقول الآيه: وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزٰاؤُهُ جَهَنَّمُ خٰالِداً فِيهٰا .

٢-احاطه غضب اللّه و سخطه بالقاتل: وَ غَضِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِ... .

٣-الحرمان من رحمه اللّه: وَ لَعَنَهُ .

۴-العذاب العظيم الذي ينتظره يوم القيامه: وَ أَعَدَّ لَهُ عَذٰاباً عَظِيماً و الملاحظ هنا أن العقاب الأخروي الذي خصصه اللّه للقاتل في حاله العمد،هو أشدّ أنواع العذاب و العقاب بحيث لم يذكر القرآن عقابا أشدّ منه في مجال آخر أو لذنب آخر.

أمّا العقاب الدنيوي الذي وردت تفاصيله في الآيه(١٧٩)من سوره البقره،

١- ١) -الآيه ٣٢ من سوره المائده.

فهو القصاص،و قد تطرقنا إليه لدى تفسير هذه الآيه فى الجزء الأوّل من كتابنا هذا.

جريمه القتل العمد و العقاب الأبدی:

يرد سؤال فی هـذا المجال،و هو أن الخلود فی العـذاب قد ورد بالنسـبه إلی من يموت كافرا،بينما قد يكون مرتكب جريمه القتل العمـد مؤمنـا،كمـا يحتمل أن ينـدم علی ما ارتكبه من إثم و يتوب عن ذلك فی الـدنيا،و يسـعی إلی تعويض و تلافی ما حصـل بسـبب جريمته،فكيف إذن يسـتحق مثـل هـذا الإنسان عـذابا أبـديا و عقابا يخلـد فيه؟ إنّ جواب هـذا السؤال يشـتمل علی ثلاث حالات هی:

۱-قد يكون المراد بقتل المؤمن-الوارد فی الآيه موضوع البحث-هو القتل بسبب إيمان الشخص،أی استباحه دم المؤمن،و واضح من هـذا إنّ الذی يعمد إلی ارتكاب جريمه قتل كهذه إنما هو كافر عديم الإيمان،و إلا كيف يمكن لمؤمن أن يسـتبيح دم أخيه المؤمن،و بناء علی هذا يستحق القاتل الخلود فی النار و يستحق العذاب و العقاب المؤبد،و قد نقل عن الإمام الصادق عليه السّلام حديث بهذا الفحوی (۱) .

۲-كمـا يحتمل أن يموت مرتكب جريمه القتل العمـد مسـلوب الإيمان بسـبب تعمـده قتل إنسان مؤمن بریء،فلا يحظی بفرصـه للتوبه عن جريمته،فينال فی الآخره العذاب العظيم المؤبد.

۳-و يمكن أيضا-أن يكون المراد بعباره«الخلود»الوارده فی الآيه هو العذاب الذی يستمر لآماد طويله و ليس العذاب المؤبد.

و يمكن أن يطرح سؤال آخر-فی هذا المجال-و هو هل أنّ جريمه القتل

۱- ۱) - فقد ورد فی كتاب الكافی و تفسير العياشی فی تفسير هذه الآيه عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله:«إن من قتل مؤمنا علی دينه فذلك المتعمد الذی قال اللّه تعالی فی كتابه عنه: «وَ أَعَدَّ لَهُ عَذٰاباً عَظِيماً» .

العمد قابله للتوبه؟! لقد ردّ جمع من المفسّرين بالنفى صريحا على هذا السؤال،و قالوا:أن هذه الجريمه التى ورد ذكرها فى الآيه موضوع البحث غير قابله للتوبه مطلقا،حيث أشارت الروايات الوارده فى هذا الأمر إلى ذلك،فقد صرحت الروايات بأنّ لا توبه لقاتل المؤمن عمدا.

و لكن الذى نستنتجه من روح التعاليم الإسلاميه،و روايات الأئمّه عليهم السّلام، و غيرهم من علماء الدين الكبار،و كذلك من فلسفه التوبه القائمه على أساس التربيه و الوقايه من الوقوع فى الذنوب و الخطايا فى مستقبل الفرد المسلم...

المستخلص من ذلك كله هو أنه لا يوجد ذنب غير قابل للتوبه،لكن التوبه من بعض الذنوب تكون مقيده بشروط قاسيه جدا يصعب بل يستحيل أحيانا على الفرد تحقيقها.

و الدليل على هذا الأمر هو قول القرآن الكريم: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ (1) .

و قد قلنا فى تفسير هذه الآيه:إنّها وردت فى شأن العفو عن الذنوب بواسطه الشفاعه و ما شاكل ذلك،و لكن المعروف أنّه حتى الشرك-ذاته-يعتبر من الجرائم و الذنوب القابله للتوبه،إذا تخلى الإنسان عنه و عاد فآمن باللّه الواحد الأحد و أسلم وجهه للّه،كما حصل للجاهليين الذين تخلوا عن شركهم و قبلوا الإسلام و تابوا إلى اللّه فعفا عنهم و غفر لهم ذنوبهم السابقه.

و يتبيّن من هذا العرض الموجز أنّ كل الذنوب-حتى الشرك-قابله للتوبه، و تؤكد على ذلك الآيتان(۵۳ و ۵۴)من سوره الزمر حيث يقول تعالى: إِنَّ اللّٰهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنِيبُوا إِلىٰ رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ .

و قد ذكر بعض المفسّرين أن الآيات التى تتحدث عن غفران جميع الذنوب

۱- ۱) -النساء،۴۷.

هی آیات عامّه قابله للتخصیص- و لکن لا یمکن الحکم بصحه هذا القول،لأنه یتناقض و منطق هذه الآیه التی اعتبرت التوبه نعمه و منه من اللّه علی المذنبین، و أکدت ذلک بالقرائن،لذلک لا یمکن تخصیص هذه الآیات،فهی-کما فی الاصطلاح-تأبی التخصیص.

إضافه إلی ذلک کلّه فقد یحتمل أن یلجأ مرتکب القتل العمد إلی التوبه، و یخلص الطاعه للّه فی بقیه عمره،و یتجنب ارتکاب الذنوب و لا یعصی اللّه بعد ذلک،و لا یعمد إلی ارتکاب جریمه قتل مشابهه،فهل یصح أن ییأس التائب-فی مثل هذه الحاله-من رحمه اللّه و عفوه و مغفرته؟و هل یجوز القول بأن هذا الشخص مع توبته و ندمه و سیبقی مشمولا بعذاب اللّه المؤبد؟إن القول برفض توبه إنسان کهذا یکون مخالفا لروح التعالیم الدینیه السامیه التی جاء بها الأنبیاء لتربیه البشر و هدایتهم فی جمیع مراحل التاریخ.

و الذی نلاحظه فی تاریخنا الإسلامی،هو أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد عفا عن أخطر المجرمین من أمثال«وحشی»الذی قتل«حمزه بن عبد المطلب»عم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قبل النّبی توبته،و کذلک لا یمکن القول بأن ارتکاب جریمه القتل فی حال الشرک یختلف عنه فی حال الإیمان،بحیث یقال باحتمال التغاضی و العفو عن الجریمه فی الحاله الأولی،و عدم احتماله فی حاله الإیمان،و قد سبق أن علمنا أن لیس هناک ذنب أعظم من الشرک باللّه،و عرفنا أنّ هذا الذنب-أیضا-قابل للتوبه و ان اللّه یعفو عن المشرک إذا تاب عن شرکه و اعتنق الإسلام...فکیف- و الحاله هذه-یمکن القول بأنّ جریمه القتل العمد-التی لم یذکر القرآن أنّها أعظم الجرائم لیست قابله للتوبه أو العفو؟ إنّ قولنا بأنّ جریمه قتل العمد قابله للتوبه و العفو لا یقلل من عظم خطوره هذه الجریمه،و قبول التوبه فی هذا المجال لا یعنی أنّ التوبه متیسره بسیطه فی مثل هذه الحاله،بل أنّها من أصعب الأمور،و هی إن أرید تحقیقها-تحتاج إلی

بذل و تضحيات كبيره للتعويض عما خلفته الجريمه من آثار خطيره و سيئه على المجتمع،و التعويض فى هذا المجال ليس بالأمر اليسير (١) و لكننا أردنا من ذلك أن نبين أن باب التوبه ليست مغلقه على من تاب و آمن و عمل صالحا ثمّ اهتدى، حتى لو كان قد ارتكب فى وقت من الأوقات جريمه كالقتل المتعمد.

ما هى أنواع القتل؟

لقد قسم الفقهاء القتل إلى ثلاثه أنواع:كما ورد فى كتب القصاص و الديات، و قد استندوا فى هذا التقسيم على ما استلهموه من الآيات القرآنيه و الروايات و الأحاديث الوارده فى هذا المجال...و هذه الأنواع هى:

١-القتل العمد.

٢-القتل شبه العمد.

٣-القتل الخطأ.

و القتل العمد هو الذى يحصل باستخدام وسائل القتل مع وجود سبق إصرار على ارتكاب هذه الجريمه،مثل أن يعمد إنسان إلى قتل إنسان آخر مستخدما فى ذلك وسائل كالسكين أو العصى أو الحجاره أو غير ذلك من الوسائل القاتله.

أمّا القتل شبه العمد فهو الذى يكون مسبوقا بإصرار القاتل على إيذاء القتيل دون استهداف قتله،فيؤدى الإيذاء إلى القتل،كأن يضرب شخص شخصا آخر، دون أن يقصد قتله،فيؤدى الضرب إلى قتل المضروب.

و القتل الخطأ هو القتل الذى يحصل دون أن يكون لدى القاتل سبق إصرار على ارتكاب هذه الجريمه،و لم يكن يهدف إلى إيذاء القتيل،و يحدث هذا-مثلا-

---

١- ١) -إنّ الآيات التى وردت فى بيان خطوره قتل الأبرياء لها أثر يهز الإنسان من الأعماق،و فى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: «لزوال الدنيا أهون على اللّه من قتل امرئ مسلم» و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا: «لو أن رجلا قتل بالمشرق و آخر رضى بالمغرب لاشرك فى دمه» من تفسير المنار،الجزء الخامس،ص ٣٦١.

لدی محاوله إنسان اصـطیاد بعض الحیوانات بنوع من أنواع السـلاح،فبدل أن یقع السـلاح فی الحیوان یقع سهوا علی إنسان آخر فیقتله.

و قد وردت الأحکام المختلفه لهذه الأنواع الثلاثه من القتل فی الکتب الفقهیه.

ص :۳۹۱

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۹۴]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِی سَبِیلِ اَللّهِ فَتَبَیَّنُوا وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقی إِلَیْکُمُ اَلسَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ اَلْحَیاهِ اَلدُّنْیا فَعِنْدَ اَللّهِ مَغانِمُ کَثِیرَهٌ کَذلِکَ کُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اَللّهُ عَلَیْکُمْ فَتَبَیَّنُوا إِنَّ اَللّهَ کانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیراً (۹۴)

سبب النّزول

لقد ذکرت الرّوایات و التفاسیر الإسلامیه أسباب عده لنزول هذه الآیه، و کلها تتشابه مع بعضها الآخر،و من ذلک أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حین عاد من واقعه خیبر بعث أسامه بن زید مع جمع من المسلمین إلی یهود کانوا یسکنون فی قریه فدک،من أجل دعوتهم إلی الإسلام أو الإذعان لشروط الذمّه،مرداس الیهودی، و هو أحد الذین عرفوا بقدوم جیش الإسلام و کان قد أخذ أمواله و أولاده و لجأ بهم إلی أحد الجبال،هبّ لاستقبال المسلمین و هو یشهد بوحدانیه اللّه و رساله النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و قد ظن أسامه بن زید أن هذا الیهودی یتظاهر بالإسلام خوفا علی نفسه و حفظا لماله و أنه لا یبطن الإسلام فی الحقیقه فعمد أسامه إلی قتل هذا الیهودی و استولی علی أغنامه،و ما أن وصل نبأ هذه الواقعه إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تأثر تأثرا شدیدا منها و قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ما معناه إن أسامه لم یکن لیعرف ما فی نفس هذا

ص:۳۹۲

الإنسان فلعله كان قد أسلم حقيقه.

عند ذلک نزلت الآیه المذکوره فحذرت المسلمین من أن تکون الغنائم الحربیه أو أمثالها سببا فی رفض إسلام من یظهر الإسلام،مؤکده ضروره قبول إسلام مثل هذا الإنسان.

التّفسیر

اشاره

بعد أن وردت التأکیدات اللازمه-فی الآیات السابقه-فیما یخص حمایه أرواح الأبریاء،ورد فی هذه الآیه أمر احترازی یدعو إلی حمایه أرواح الأبریاء الذین قد یعرضون إلی الاتهام من قبل الآخرین،إذ تقول: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِی سَبِیلِ اللّهِ فَتَبَیَّنُوا وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقی إِلَیْکُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً... .

تأمر هذه الآیه المسلمین أن یستقبلوا-بکل رحابه صدر-أولئک الذین یظهرون الإسلام و أن یتجنبوا إساءه الظن بإیمان أو إسلام هؤلاء،و تؤکد الآیه بعد ذلک محذره و ناهیه عن أن تکون نعم الدنیا الزائله سببا فی اتهام أفراد أظهروا الإسلام،أو قتلهم علی أنّهم من الأعداء و الاستیلاء علی أموالهم،إذ تقول الآیه:

...تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَیاهِ الدُّنْیا...

(۱)

.و تؤکّد علی أنّ النعم الخالده القیمه هی عند اللّه بقوله: ...فَعِنْدَ اللّهِ مَغانِمُ کَثِیرَهٌ .

و تشیر الآیه أیضا إلی حروب الجاهلیه التی کانت تنشب بدوافع مادیه مثل السلب و النهب فتقول: ...کَذلِکَ کُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ... (۲) و تضیف-مخاطبه المسلمین-أنّهم فی ظل الإسلام و لطف اللّه و کرمه و فضله قد نجوا من ذلک الوضع السیء مؤکّده أنّ شکر هذه النعمه الکبیره یستلزم منهم التحقق و التثبیت

---

۱ – ۱) -العرض کلمه علی وزن(مرض)و تعنی کل شیء زائل لا دوام له،و علی هذا الأساس فإن«عرض الحیاه الدنیا»معناه رؤوس الأموال الدنیویه التی یکون مصیر جمیعها إلی الزوال و الفناء لا محاله.

۲ – ۲) -و قد ورد فی تفسیر هذه الآیه احتمال آخر،هو أنّها تخاطب المسلمین بأنهم کان لهم نفس الحاله عند إسلامهم، أی أنّهم أقروا بالإسلام بألسنتهم و قبل منهم إسلامهم،و فی حین لم یکن أحد غیر اللّه یعلم بما یخفونه فی سرائرهم.

من الأمور،إذ تقول الآيه: ...فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكَمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللّهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً .

الجهاد الإسلامی نفی من البعد المادی:

توضح الآیه السالفه هذه الحقیقه بصوره جلیه،و هی أنّ أی مسلم یجب أن لا یتقدم إلی ساحه الجهاد بأهداف مادیه،و لذلک علیه أن یقبل-منذ الوهله الأولی-من العدو إظهاره للإیمان و یلبی نداءه للصلح و السلام،حتی لو حرم المسلم بقبوله إیمان العدو الکثیر من الغنائم المادیه،و السبب فی ذلک أن هدف الجهاد فی الإسلام لیس التوسع و لا الاستیلاء علی الغنائم المادیه، بل الهدف من الجهاد الإسلامی هو تحریر البشر من قیود العبودیه لغیر اللّه،سواء کان هذا الغیر هم الطغاه الجبابره،أو کانت العبودیه للمال و للثروه و الجاه،و یجب علی کل مسلم أن یسعی إلی هذه الحقیقه کلما برقت له بارقه أمل صوبها.

و تذکّر الآیه الکریمه المسلمین بعهدهم فی الجاهلیه،حیث کانوا یحملون الأفکار المادیه الدنیئه قبل إسلامهم،فکانوا یتسببون فی إراقه سیول من الدماء لأسباب مادیه محضه،و قد نجوا الیوم بفضل إسلامهم و إیمانهم من تلک الحروب و تغیر أسلوب حیاتهم.

کما تشیر الآیه إلی حقیقه أخری،و هی أنّ المسلمین ساعه إظهارهم الإسلام لم یکن أحد لیعرف حقیقه هذا الإظهار أو حقیقه ما ینویه المظهر للإسلام،و تؤکد لهم ضروره أن یطبقوا ما کانوا هم علیه عند إسلامهم علی من یظهر الإسلام أمامهم من الأعداء.

سؤال:

قد یطرأ علی الذهن سؤال،و هو لو أنّ الإسلام قبل دعوی کل من یتظاهر بالإسلام منذ الوهله الأولی دون التحقیق من حقیقه هذه الدعوی،لأصبح ذلک

سببا فی إیجاد أرضیه النفاق و ظهور المنافقین فی المحیط الإسلامی،و بهذا الأسلوب یمکن للکثیر من الأعداء إساءه استغلال هذه الظاهره و التستر فی ظل الإسلام،و من خلال ذلک القیام بأعمال عدائیه ضد الإسلام؟

الجواب:

من الممکن القول أن لیس هناک قانون فی العالم لا یمکن إساءه استغلاله أبدا،بل المهم فی القانون هو أن یحوی فی أغلب جوانبه النفع للعموم،لو رفضنا-منذ الوهله الأولی-إسلام من یظهر الإسلام من الأعداء و غیرهم لمجرّد عدم معرفتنا بسریره هذا الذی یظهر الإسلام،لأدی رفضنا فی کثیر من الحالات إلی مفاسد لا تحمد عقباها،بل ستکون أکثر ضررا علی الإسلام،إذ أنّها تعنی سحق المبادئ و العواطف الإنسانیه،و یکون-هذا الرفض-عند ذلک وسیله بید کل من یضمر العداء لصاحبه لیتهمه بأنّ إظهاره للإسلام لم یکن إظهارا حقیقیا مخلصا أو مطابقا لما فی سریرته، و بهذه الصوره من الممکن أن تراق دماء کثیره لأناس أبریاء.

و فوق کل ذلک فإنّ الکثیرین لدی بدء کل دعوه ممن تکون توجهاتهم لهذه الدّعوه بسیطه و شکیله و ظاهریه،و لکنهم بمرور الزمان و اتصالهم الدائم بتلک الدّعوه-تتجذر فی نفوسهم مبادئ الدعوه و تتأصل و تتعزز،لذلک لا یمکن القبول برفض مثل هؤلاء الضعیفی الصله بالدّعوه.

ص: ۳۹۵

الآیتان [سوره النساء (۴): الآیات ۹۵ الی ۹۶]

اشاره

لاٰ یَسْتَوِی اَلْقٰاعِدُونَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ غَیْرُ أُولِی اَلضَّرَرِ وَ اَلْمُجٰاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اَللّٰهُ اَلْمُجٰاهِدِینَ بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَی اَلْقٰاعِدِینَ دَرَجَةً وَ کُلاًّ وَعَدَ اَللّٰهُ اَلْحُسْنیٰ وَ فَضَّلَ اَللّٰهُ اَلْمُجٰاهِدِینَ عَلَی اَلْقٰاعِدِینَ أَجْراً عَظِیماً (۹۵) دَرَجٰاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً وَ کٰانَ اَللّٰهُ غَفُوراً رَحِیماً (۹۶)

التّفسیر

اشاره

تناولت الآیات السابقه الحدیث عن الجهاد،و الآیتان الأخیرتان تبیّنان التمایز بین المجاهدین و غیرهم من القاعدین،فتؤکد عدم التساوی بین من یبذل المال و النفس رخیصین فی سبیل الهدف الإلهی السامی،و بین من یقعده عن هذا البذل سبب آخر غیر المرض الذی یحول دونه و دون المشارکه فی الجهاد، لاٰ یَسْتَوِی الْقٰاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ غَیْرُ أُولِی الضَّرَرِ وَ الْمُجٰاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ... .

و واضح من هذه الآیه أنّ المقصود بالقاعدین فیها هم أولئک المؤمنون بالإسلام الذین لم یشارکوا فی الجهاد فی سبیله بسبب افتقارهم إلی العزم الکافی

ص :۳۹۶

لـذلك،و تبيّن هنـا-أيضـا-أنّ الجهـاد المقصود لم يكن واجبـا عينيـا،فلو كـان واجبا عينيا لما تحـدث القرآن عن هؤلاء التاركين للجهاد بمثل هذه اللهجه المرنه و لم يكن ليوعدهم بالثواب.

و على هـذا الأساس فإنّ فضل المجاهـدين على القاعدين لا يمكن إنكاره حتى لو كان الجهاد ليس واجبا عينيا،و لا تشـمل الآيه بـأى حـال من الأـحوال أولئـك الـذين أحجموا عن المشاركه فى الجهاد نفاقا،و عـدوانا و يجب الانتباه-أيضا-إلى أنّ عباره غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ لها مفهوم واسع يشـمل كل أولئك الـذين يعانون من نقص العضو أو المرض أو الضـعف الشديـد،مما يحرمهم من المشاركه فى الجهاد،فهؤلاء مستثنون من ذلك.

و تكرر الآيه من جديـد مسأله التفاضل بشـكل أوضـح و أكثر صـراحه،و تؤكـد فى نهايه المقارنه،أنّ اللّه وهب المجاهدين أجرا عظيما، فَضَّلَ اللّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً (١) .

و لكن-كما أسلفنا-لما كان فى الجانب المقابل لهؤلاء المجاهدين يقف أولئك الذين لم يكن الجهاد بالنسبه لهم واجبا عينيا أو لم يشاركوا فى الجهاد بسبب مرض أو عجز أو عله أخرى أعجزتهم عن هذه المشاركه،فذلك و لأجل أن لا يغفل ما لهؤلاء من نيّه صـالحه و إيمـانه و أعمـال صـالحه أخرى فقـد وعـدوا خيرا حيث تقول الآيه الكريمه: ...وَ كُلًّا وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنى إلاّ أنّه من البـديهى أن هنـاك فرقـا شاسـعا بيـن الخير الـذى وعـد به المجاهـدون،و بين ذلـك الـذى يصـيب القاعـدين من العـاجزين عن المشاركه فى الجهاد.

و تبيّن الآيه القرآنيه فى هذا المجال:أنّ لكل عمل صالح نصيب محفوظ من

١- ١) -لقـد وردت عبـاره«درجه»فى الآـيه على صـيغه النكره،و تؤكـد كتب الأدب بأن النكره فى مثل هـذه الحالات تأتى لبيان العظمه و الأهميه-أى أن درجه المجاهـدين من السـمو و الرفعه بحيث لا يمكن للبشـر معرفتها بصوره كامله-و هـذا شبيه بالعباره التى تطلق لبيان القيمه العظيمه لشىء يجهل قيمته البشر.

الثواب لا یغفل و لا ینسی،خاصّه و هی تتحدث عن قاعدین أحبّوا المشارکه فی الجهاد و کانوا یرونه ساميا مقدسا،و بما أن عدم کون هذا الجهاد واجبا عینیا قد حال دون تحقق هذا الهدف السامی المقدس فإن أولئک الذین قعدوا عن المشارکه فیه سینالون من الثواب علی قدر رغبتهم فی المشارکه،أمّا أولئک الذین عجزوا عن المشارکه بسبب عاهه أو مرض إلّا أنّهم کانوا یرغبون فی الاشتراک فی الجهاد برغبه جامحه،بل کانوا یعشقون الجهاد،لذلک فإنّ لهم- أیضا-سهم و نصیب لا ینکر من ثواب المجاهدین،کما

جاء فی حدیث مروی عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یخاطب فیه جند الإسلام فیقول: «لقد خلفتم فی المدینه أقواما ما سرتم مسیرا و لا قطعتم وادیا إلّا کانوا معکم،و هم الذین صحت نیاتهم و نصحت جیوبهم و هوت أفئدتهم للجهاد و قد منعهم عن المسیر ضرر أو غیره». (۱)

و بما أنّ أهمیه الجهاد فی الإسلام بالغه جدا،لذلک تتطرق الآیه مرّه أخری للمجاهدین و تؤکد بأن لهم أجرا عظیما یفوق کثیرا أجر القاعدین عن الجهاد عن عجز، ...وَ فَضَّلَ اللّٰهُ الْمُجٰاهِدِینَ عَلَی الْقٰاعِدِینَ أَجْراً عَظِیماً .

و تشرح الآیه التالیه-و هی الآیه(۹۶)من سوره النساء-نوع هذا الأجر العظیم فتقول أنّه: دَرَجٰاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَهً وَ رَحْمَهً فلو أنّ أفرادا من بین المجاهدین تورطوا فی زله أثناء أدائهم لواجبهم فندموا علی تلک الزّله،فقد وعدهم اللّه بالمغفره و العفو،حیث یقول فی نهایه الآیه: ...وَ کٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِیماً .

نکات مهمه حول المجاهدین:

۱-لقد کررت الآیه(۹۵)عباره المجاهدین ثلاث مرات:

فی المرّه الأولی ذکر المجاهدون مع الهدف و الوسیله الخاصّه بالجهاد:

۱- ۱) -تفسیر الصافی،هامش الآیه المذکوره.

اَلْمُجاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اللّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ...

.

و فی الثّانیه:ذکر اسم المجاهدین مقرونا بوسیله الجهاد،و لم یذکر شیء عن الهدف: اَلْمُجاهِدُونَ (فِی سَبِیلِ اللّهِ) بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ... .

و أمّا فی المرحله الأخیره فقد جاءت الآیه باسم المجاهدین فقط،حیث یدل ذلک بوضح علی الأسلوب البلاغی الرفیع فی الکلام القرآنی،حیث یتعرف السامع شیئا فشیئا بواسطته علی الموضوع و تخف قیوده و صفاته لدیه،و تصل درجه التعرف إلی مرحله یفهم السامع بها کل شیء من خلال إشاره واحده.

۲-لقد ذکرت الآیه فی البدایه تفوق المجاهدین علی القاعدین بعباره مفرده و هی«درجه»بینما فی الآیه التالیه جاءت هذه العباره بصیغه الجمع«درجات» و جلّی أن لا تناقض بین هاتین العبارتین،لأن القصد من العباره الأولی تبیان تفوق المجاهدین علی غیرهم،و لکن العباره الثانیه تشرح هذا التفوق حین تقترن بذکر عبارات«المغفره»و«الرحمه»،و بعباره أخری فإن الفرق بین هاتین العبارتین «درجه»و«درجات»هو الفرق بین المجمل و المفصل.

کما یمکن الاستفاده من عباره«درجات»علی أنّها تعنی أن المجاهدین لیسوا کلّهم فی درجه أو مستوی واحد،بل تختلف درجاتهم باختلاف درجه إخلاصهم و تفانیهم و تحملهم للمشاق،و تختلف بذلک منزلتهم المعنویه،لأنّه من البدیهی أن الذین یجاهدون الأعداء فی صف واحد لیسوا جمیعا بمستوی جهادی واحد،کلها تختلف درجات الإخلاص لدی کل واحد منهم بالقیاس إلی أمثالهم،و لذلک فإنّ لکل واحد منهم ثوابا خاصا به یتناسب مع عمله الجهادی و نیّته فی هذا العمل.

الأهمیه بالبالغه للجهاد:

إنّ الجهاد قانون عام فی عالم الخلیقه،فإنّ کل مخلوق سواء کان من

النباتـات أو الحيوانـات يسـعى لإزاله مـا يعترض طريقه من موانع بواسـطه الجهـاد، لكى يسـتطيع كـل واحـد منهم بلوغ الكمـال المطلوب فى التكوين.

و على سبيل المثال فجـذر النبات الـذى ينشط للحصول على الغذاء و الطاقه بصوره دائمه،لو ترك نشاطه،هذا و كف عن السـعى لاستحال عليه إدامه حياته.

و لـذلك فإن هـذا الجذر حين يعترض طريقه مانع فى عمق الأرض يحال تخطيه بثقبه،و العجيب هنا أنّ الجذور الرقيقه تعمل فى مثل هذه الحاله كالمسـمار الفولاذى فى ثقب الموانع التى تعترضـها،فلو عجزت فى هذا المجال لحرفت طريقها و اجتازت المانع عن طريق الالتفات حوله.

و فى داخـل وجود الإنسـان أيضـا و حتى فى ساعـات النوم هنـاك صـراع غريب و مسـتمر مـا دام الإنسان حيا،و هو الصـراع بين كريـات الـدم البيضـاء و الأجسـام المعـاديه المهـاجمه،فلـو أن هـذا الصـراع توقف لسـاعه واحـده و تخلت الكريـات الـبيض عن الدفاع،لتسلطت الجراثيم و المكروبات المتنوعه على كافه أجهزه جسم الإنسان و لعرضت حياته إلى الخطر.

إنّ مـا هو موجود فى أوسـاط المجتمعـات و القوميّات و الشـعوب فى العـالم من كفـاح من أجـل البقاء،هو عين ذلك الكفاح و الجهاد الذى لمسناه فى النبات و فى جسم الإنسان.

و على هذا الأساس فإن كل من يواصل«الجهاد»و«المراقبه»تكون الحياه من نصـيبه و هو منتصر دائما-أما الذين تلهيهم عن الجهاد الأـهواء و الملـذات و الشـهوات و الأنـانيه و حبّ الـذات فلن ينـالهم غير الفنـاء و الـدمار عاجلا أو آجلا، و سـيحل محلهم أناس يمتازون بالحيويه و النشاط و الكفاح الدؤوب.

و هذا هو الشىء الذى يؤكّد عليه

رسول اللّه محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ يقول: «فمن ترك الجهاد ألبسه اللّه ذلا و فقرا فى معيشته،و محقا فى دينه،إنّ اللّه أعزّ أمّتى بسنابك خيلها

و مراكز رماحها» (۱) .

و

يقول النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مناسبه أخرى: «اغزوا تورثوا أبناءكم مجدا» (۲) .

أمّا

أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام فهو يقول فى مستهل خطبته عن الجهاد «...فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنه،فتحه اللّه لخاصّه أوليائه،و هو لباس التقوى،و درع اللّه الحصينه،و جنّته الوثيقه،فمن تركه رغبه عنه ألبسه اللّه ثواب الذّل و شمله البلاء،و ديث بالصغار و القماء...» (۳) .

و يجب الالتفات إلى أنّ الجهاد لا يقتصر معناه على الحرب أو القتال المسلح،بل هو أيضا كل سعى حثيث و جهد جهيد يبذل من أجل التقدم نحو تحقيق الأهداف المقدسه-الإلهيه-و من هذا المنطلق فإنّه بالإضافه إلى الحروب الدفاعيه أو الهجوميه-أحيانا-فإنّ الكفاح العلمى و المنطقى و الاقتصادى و الثقافى و السياسى يعتبر نوعا من الجهاد.

۱- ۱) -الوسائل،كتاب الجهاد،ج ۱،ص ۲ و ۱۶.

۲- ۲) -الوسائل،كتاب الجهاد،ج ۱،ص ۲ و ۱۶.

۳- ۳) -نهج البلاغه،الخطبه ۲۷.

الآیات [سوره النساء (۴): الآیات ۹۷ الی ۹۹]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِینَ تَوَفّاهُمُ اَلْمَلائِکَهُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِیمَ کُنْتُمْ قالُوا کُنّا مُسْتَضْعَفِینَ فِی اَلْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَکُنْ أَرْضُ اَللّهِ واسِعَهً فَتُهاجِرُوا فِیها فَأُولئِکَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِیراً (۹۷) إِلاَّ اَلْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ اَلرِّجالِ وَ اَلنِّساءِ وَ اَلْوِلْدانِ لا یَسْتَطِیعُونَ حِیلَهً وَ لا یَهْتَدُونَ سَبِیلاً (۹۸) فَأُولئِکَ عَسَی اَللّهُ أَنْ یَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ کانَ اَللّهُ عَفُوًّا غَفُوراً (۹۹)

سبب النّزول

لقد أنذر رؤساء قریش قبل بدء غزوه بدر جمیع الأفراد من أهالی مکّه الذین یستطیعون حمل السلاح،أنّ علیهم أن یتأهبوا لقتال المسلمین،محذرین بأن من یخالف هذا الأمر ستهدم داره و تصادر أمواله،و قد أدی هذا التهدید بنفر من الذین کانوا قد أسلموا فی الظاهر،و لکنّهم کانوا قد رفضوا الهجره لشده حبهم لموطنهم و لأموالهم...أدی بهؤلاء إلی أن یرغموا علی مشارکه الوثنیین فی التحرک إلی ساحه الحرب،و راودهم الشک فی انتصار المسلمین لقلّه عددهم، فکان أن قتلوا و هم إلی جانب المشرکین.

فنزلت الآیات المذکوره و حدثت عن المصیر الأسود الذی لاقاه هؤلاء بسبب إصرارهم علی البقاء فی موطن الشرک.

ص: ۴۰۲

التّفسير

اشاره

تعقيبا للبحوث الخاصّه بالجهاد،تشير الآيات الثلاث الأخيره إلى المصير الأسود الذى كان من نصيب أولئك الذين ادعوا الإسلام و لكنهم رفضوا أن يطبقوا خطه الإسلام فى الهجره،فانحرفوا إلى مزالق رهيبه،فكانت نتيجه انحرافهم أن أصابهم القتل و هم فى صفوف المشركين.

فالقرآن الكريم يذكر كيف أنّ الملائكه لدى قبضهم لأرواح هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم،يسألونهم عن حالهم فى الدنيا و أنّهم لو كانوا حقا من المسلمين، فلما ذا اشتركوا فى صفوف المشركين لقتال المسلمين إِنَّ الَّذِينَ تَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَهُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِیمَ کُنْتُمْ... فيجيب هؤلاء بأنّهم تعرضوا فى مواطنهم للضغط و أن ذلك أعجزهم عن تنفيذ الأمر الإلهى قالُوا کُنّا مُسْتَضْعَفِینَ فِی الْأَرْضِ .

لكن عذرهم هذا لم يقبل منهم،إذ يرد الملائكه عليهم قائلين:لما ذا لم تتركوا موطن الشرك و تنجوا بأنفسكم من الظلم،و الكبت عن طريق الهجره إلى أرض غير أرضكم من أرض اللّه الواسعه، قالُوا أَ لَمْ تَکُنْ أَرْضُ اللّهِ واسِعَهً فَتُهاجِرُوا فِیها .

و فى النهايه تشير الآيه إلى مصير هؤلاء فتقول بأنّ الذين امتنعوا عن الهجره لأسباب واهيه أو لمصالحهم الشخصيه،و قرروا البقاء فى محيط ملوث و فضلوا الكبت و القمع على الهجره فإن مكان هؤلاء سيكون فى جهنم،و إن نهايتهم و عاقبتهم هناك ستكون سيئه لا محاله: فَأُولئِکَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِیراً .

أمّا الآيه الاخرى من الآيات الثلاث المذكوره،فهى تستثنى المستضعفين و العاجزين الحقيقيين لا المزيفين،فتقول:إنّ أولئك الرجال و النساء و الأطفال الذين لم يجدوا لأنفسهم مخرجا للهجره،و لم يتمكنوا من إيجاد وسيله للنجاه من

محیطهم الملوث،فهم مستثنون من حکم العذاب،لأنّ هؤلاء معذورون فی الحقیقه،و إنّ اللّه لا یکلف نفسا ما لا تطیق، إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ الرِّجٰالِ وَ النِّسٰاءِ وَ الْوِلْدٰانِ لاٰ یَسْتَطِیعُونَ حِیلَهً وَ لاٰ یَهْتَدُونَ سَبِیلاً .

و الآیه الأخیره من الآیات الثلاث المذکوره تبیّن احتمال أن یشمل اللّه بعفوه هؤلاء،إذ تقول: فَأُولٰئِکَ عَسَی اللّٰهُ أَنْ یَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ کٰانَ اللّٰهُ عَفُوًّا غَفُوراً .

و قد یرد هنا سؤال و هو:لو أن هؤلاء الأشخاص کانوا فی الحقیقه معذورین، فلما ذا لا تعدهم الآیه بعفو إلهی حتمی،بل تبین احتمال أن یشملهم هذا العفو إذ تأتی الآیه بعباره«عسی»لتأکید احتمالیه الأمر؟ و جواب هذا السؤال هو نفس الجواب الذی ذکرناه فی ذیل الآیه(۸۴)من سوره النساء و الذی بیّنا من خلاله أن القصد من استخدام مثل هذه العبارات هو أن الحکم الوارد فی الآیه مقید بشروط خاصّه یجب الالتفات إلیها،و هنا یکون الشرط هو أن یتبادر هؤلاء المستضعفون حقیقه إلی الهجره-دون تردد-حتی ما سنحت لهم فرصه ذلک دون أن یقصروا فی هذا الأمر فعند ذلک یشملهم العفو الإلهی.

نقاط یجب الالتفات إلیها:

اشاره

۱-استقلال الرّوح

إن الإتیان بکلمه توفی فی الآیه الشریفه الماره الذکر بدلا من ذکر کلمه «الموت»إنّما هو فی الحقیقه إشاره إلی أنّ الموت لیس هو الفناء التام،بل هو حاله تتلقی فیها الملائکه روح الإنسان،أی أن الملائکه یقبضون من الإنسان روحه التی هی جوهر وجوده،فتؤخذ هذه الروح إلی العالم الآخر،و إنّ الإتیان بمثل هذه العباره بصوره متکرره فی القرآن الکریم،یعتبر من أوضح الأدله القرآنیه علی قضیه وجود الروح و بقائها بعد الموت،حیث سنتطرق إلی ذلک لدی تفسیر

ص:۴۰۴

الآیه الخاصّه بالروح.

و إن هذا هو جواب أولئک الذین یزعمون أنّ القرآن لم یشر مطلقا إلی قضیه الروح (۱) .

۲-ملک الموت أم ملائکه الموت

لدی البحث فی موارد متعدده من القرآن الکریم(أی حوالی ۱۲ موردا) و التی وردت فیها عباره«توفی»و هی تتحدث عن الموت،نستنتج أن قبض الأرواح یقوم به ملائکه متعددون و لیس ملکا واحدا،و هؤلاء الملائکه هم المکلّفون بنقل أرواح بنی آدم من هذه الدنیا إلی العالم الآخر،ففی الآیه المار ه الذکر ورد اسم الملائکه بصیغه الجمع،و هذا هو أحد الأدله علی أن قبض الأرواح یقوم به ملائکه متعددون فنحن.

نقرأ فی الآیه(۶۱)من سوره الأنعام قوله تعالی: حَتّٰی إِذٰا جٰاءَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنٰا... .

و هناک من الآیات ما ینسب قبض الروح إلی ملک الموت (۲) ،و هذا الملک هو کبیر ملائکه قبض الروح الذی ذکر فی الأحادیث باسم«عزرائیل».

و یتّضح لنا ممّا سبق جواب من یسأل عن کیفیه قیام ملک واحد بقبض أرواح أناس عدیدین فی آن واحد و فی مناطق مختلفه.

و مع ذلک فإننا لو افترضنا أنّ هناک ملک واحد فقط لقبض الأرواح لا العدید من الملائکه،فعند هذا الفرض لا یرد أیضا أی معضل،و السبب هو أنّ التجرّد الوجودی لهذا الملک یقتضی أن تکون دائره عمله و نفوذه وسیعه مترامیه الأطراف بشکل خارق للعاده،لأن أی وجود مجرّد عن الماده یمکن أن تکون إحاطته واسعه بما یخص عالم الماده-و

قد نقل عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّ

۱- ۱) -لمعرفه معنی«توفی»من الناحیه اللغویه یرجی مراجعه الجزء الثانی من تفسیرنا هذا.

۲- ۲) -سوره السجده.

النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حین سأل ملک الموت عن کیفیه إحاطته بما فی العالم،أجابه هذا الملک:«ما الدنیا عندی کلها فیما سخرها اللّه لی و مکننی علیها إلاّ کالدرهم فی کف الرجل یقلبه کیف یشاء» (۱) .

و لکننا نری فی بعض الآیات أن قبض الروح ینسب إلی اللّه عزّ و جلّ: اَللّٰهُ یَتَوَفَّی اَلْأَنْفُسَ حِینَ مَوْتِهٰا (۲) ،و هذا لا یتناقض مع الآیات السابقه،لأن فی کثیر من الحالات حین یتمّ عمل بوسیله معینه،ینسب فعل هذا العمل تاره للوسیله ذاتها،و أخری للذی أوجد و صنع هذه الوسیله،و کلا النسبتین صحیحتان.

و الطریف أنّ القرآن قد نسب فعل الکثیر من أحداث العالم إلی الملائکه الذین هم مکلفون من قبل اللّه سبحانه و تعالی،و نحن نعلم أن لعباره«ملائکه»أو «ملک»معانی واسعه تدور بین معنی«الموجودات المجرّده العاقله»إلی معنی «الطاقات و القوی الطبیعیه».

۳-من هو المستضعف؟

لدی البحث فی الآیات القرآنیه و الأحادیث و الروایات یستنتج أن المستضعف هو ذلک الشخص الذی یعانی من ضعف فکری أو بدنی أو اقتصادی یمنعه من التعرف علی الحق و الباطل،أو أنه ذلک الذی یستطیع التعرف علی العقیده الصادقه الحقه،إلاّ أنّه و لمعاناته من عجز جسمانی أو مالی أو قیود یفرضها علیه المحیط الذی یعیش فیه،یعجز عن أداء واجباته التی کلّف بها بصوره کامله،کما یعجز عن القیام بالهجره.

و

عن أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام أنّه قال: «و لا یقع اسم الاستضعاف علی من بلغته الحجه فسمعتها أذنه و وعاها قلبه» (۳) .

۱- ۱) -تفسیر البرهان،الجزء الثانی،ص ۳۹۱،هامش الآیه الأولی من سوره الإسراء.

۲- ۲) -من سوره الزمر الآیه ۴۲.

۳- ۳) -نور الثقلین،الجزء الأول،ص ۵۳۶.

و

عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام أنه حين سئل:أى قوم يقال لهم المستضعفون؟ فأجاب عليه السّلام كتابه:«الضعيف من لم ترفع له حجه،و لم يعرف الاختلاف،فإذا عرف الاختلاف فليس بضعيف» (١) .

و واضح من الروايات المذكوره أنّ المستضعف هو ذلك الذى يعانى من ضعف فكرى عقائدى،إلّا أنّ الآيه موضوع البحث و الآيه(٧٥)من نفس هذه السوره التى سبق و أن تحدثنا فيها تدلان على أنّ المستضعف هو ذلك الذى استضعف عمليا،فهو يعرف الحق و يميزه،و لكن الكبت الذى يعانى منه فى المحيط الذى يعيش فيه لا يسمح له بالعمل بالحق الذى عرفه.

١- ١) -نور الثقلين،الجزء الأول،ص ٥٣٩.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱۰۰]

اشاره

وَ مَنْ یُهٰاجِرْ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ یَجِدْ فِی اَلْأَرْضِ مُرٰاغَماً کَثِیراً وَ سَعَهً وَ مَنْ یَخْرُجْ مِنْ بَیْتِهِ مُهٰاجِراً إِلَی اَللّٰهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ یُدْرِکْهُ اَلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَی اَللّٰهِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ غَفُوراً رَحِیماً (۱۰۰)

التّفسیر

اشاره

الهجره حکم اسلامی بنّاء:

بعد أنّ بحثت الآیات السابقه حول الأفراد الذین یقعون فریسه الذّل و المسکنه بسبب عدم إیفائهم بواجب الهجره،تشرح الآیه الأخیره بشکل صریح و حاسم أهمیه الهجره فی قسمین:

فی القسم الأوّل:تشیر هذه الآیه إلی نعم و برکات الهجره فی الحیاه الدنیا، فتقول إن الذی یهاجر فی سبیل اللّه إلی أی نقطه من نقاط هذه الأرض الواسعه، سیجد الکثیر من النقاط الآمنه الواسعه لیستقر فیها،و یعمل هناک بالحقّ و یرغم أنف المعارضین وَ مَنْ یُهٰاجِرْ فِی سَبِیلِ اللّٰهِ یَجِدْ فِی الْأَرْضِ مُرٰاغَماً کَثِیراً وَ سَعَهً ... .

و یجب الالتفات إلی أن عباره«مراغم»مشتقه من المصدر«رغام»علی وزن «کلام»و الذی یعنی التراب،و الإرغام معناه التمریغ فی التراب و الإذلال

ص :۴۰۸

و«مراغم»صيغه لاسم المفعول و اسم مكان أيضا.

و قد وردت فى الآيه هذه بمعنى اسم مكان كذلك،أى أنّها المكان الذى يمكن فيه تحقيق الحق و تطبيقه و العمل به،كما يمكن فيه إدانه المعارضين للحق و تمريغ أنفهم بالتراب.

بعد ذلك تشير الآيه فى القسم الثانى منها إلى الجانب المعنوى الأخروى للهجره: وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ وَ كانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً ، و على هذا الأساس فإن المهاجرين فى كل الأحوال سينالهم نصر كبير،سواء وصلوا إلى المكان الذى يستهدفونه ليتمتعوا فيه بحريه العمل بواجباتهم،أو لم يصلوا إليه فيفقدوا حياتهم فى هذا الطريق،و فى هذا المجال و على الرغم من بداهه حقيقه تلقى الصالحين أجرهم من اللّه سبحانه و تعالى،إلاّ أنّ الآيه موضوع البحث قد صرحت بهذا الأمر بقولها:

فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ...

و هذا يوضح مدى عظمه و أهميه الثواب و الأجر الذى يناله المهاجرون.

الإسلام و الهجره:

إنّ الإسلام-استنادا إلى هذه الآيه و آيات كثيره أخرى-يأمر المسلمين بكل صراحه بالهجره من المحيط الذى يعانون فيه-لأسباب خاصّه-من عدم التمكن من أداء واجباتهم إلى محيط و منطقه آمنه،و سبب هذا الأمر واضح،لأنّ الإسلام لا يحدّ بمكان و لا يقيد بمحيط معين خاص،و لهذا فإن التمسك المفرط بالمحيط و محل التولد و العلاقات المختلفه الاخرى لا تقف فى نظر الإسلام حائلا دون هجره المسلمين.

و لذلك نرى انفصام كل هذه العلاقات فى الصدر الأوّل للإسلام و من أجل حمايه الإسلام و تقدمه،و فى هذا المجال يقول أحد المؤرخين الغربيين:إنّ

ص:۴۰۹

القبيله و العائله هما الشجره الوحيده التى تنبت فى الصحراء،و لن يستطيع أحد الحياه دون اللجوء إليها،إلّا أنّ محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد قلع هذه الشجره التى نمت بلحم و دم عائلته،و فعل ذلک من أجل ربه و خالقه(فقد فصم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم علاقته بقريش فى سبيل الإسلام) (۱) .

علاوه على ما ذكر فإن من بين جميع الموجودات الحيّه،حين تتعرض حياه أى واحدا أو مجموعه منها إلى الخطر،نراها تضطر إلى ترک مكان تواجدها و الهجره منه إلى مأوى و ملجأ أمن آخر،و الكثير من أبناء البشر الأقدمين عمدوا إلى الهجره من مكان ولادتهم-بسبب تغير الظروف الجغرافيه فيه-إلى نقاط أخرى من العالم من أجل مواصله الحياه،و ليس البشر وحدهم الذين مارسوا الهجره،بل هناک من بين الحيوانات أنواع كثيره عرفت بالحيوانات المهاجره، مثل الطيور التى تضطر أحيانا إلى الدوران حول الأرض تقريبا من أجل إيجاد مأوى تواصل فيه حياتها،و بعض هذه الطيور تهاجر من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى،و أحيانا تقطع مسافه حوالى(۱۸)ألف كيلومتر للوصول الى المكان الذى تريد العيش فيه.

و هذه الشواهد هى خير دليل على أنّ الهجره هى إحدى القوانين الخالده للحياه،فهل يصح أن يكون الإنسان أقل حظا من الحيوان فى هذا المجال؟ و حين تتعرض،حياته المعنويه،و كيانه و أهدافه المقدسه التى هى أثمن و أغلى من حياته الماديه إلى الخطر،فهل يستطيع هذا الإنسان البقاء فى مكان الخطر متشبثا بالأرض و المولد و غير ذلک متحملا ألوان الذل و الإهانه و الحرمان و سلب الحريات،و الأهم من ذلک كلّه زوال أهدافه التى يعيش من أجلها؟! أو أن عليه أن يختار قانون الطبيعه فى الهجره،و يترک ذلک المكان،و يختار مكانا آخر يتيسر فيه المجال لنموه المادى و المعنوى؟

ص: ۴۱۰

۱- ۱) -محمّد خاتم الأنبياء،الجزء الأول.

الطریف فی هـذا الأـمر أنّ الهجره-أی تلـک الهجره التی کـانت لأجل حفظ النفس و حمایه الشـریعه الإسـلامیه-تعتبر مبـدأ-أو بدایه-التاریخ الإسلامی، و هی بذلک تعد البنیه الأساسیه لکل الأحداث السیاسیه و الاعلامیه و الاجتماعیه للمسلمین.

فلننظر لمـا ذا انتخبت هجره الرّسـول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم مبـدأ-أو بـدایه-للتاریـخ الإسـلامی؟ إنّ هـذا الموضـوع جـدیر بالملاـحظه،لأنّنـا نعلـم أن أی مجمـوعه بشـریه صـغرت أو کـبرت،تتخـذ لنفسـها مبـدأ أو بـدایه تـاریخیه تحسـب منـه تاریخهـا، فالمسـیحیون مثلا اتّخـذوا بدایه تاریخهم السـنه التی ولد فیها عیسـی علیه السّـلام، أمّا المسـلمون فمع وجود أحداث مهمه کثیره وقعت لهم قبل الهجره،مثل یوم ولاده النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و یوم البعثه المحمّدیه الشریفه،و فتح مکّه،و وفاه الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سـلّم، لکنهم لم یتخـذوا أی واحـد من الأحـداث مبدأ أو بدایه لتاریخهم،بل اعتبروا حادثه الهجره وحدها بدایه للتاریخ الإسلامی.

إنّ التاریـخ یقول أنّ المسـلمین بـدأوا یفکرون بتعیین بـدایه تـاریخهم الـذی له أهمیه عامّه و شامله فی زمن الخلیفه الثانی الـذی توسـعت فی عهـده رقعه البلاد الإسـلامیه-و أنّ المسـلمین بعـد البحث الکثیر فی هـذا الأمر،اختاروا رأی علی بن أبی طالب علیه السّلام باتّخاذ حادثه الهجره النبویه الشریفه مبدأ و بدایه للتاریخ الإسلامی (۱) .

و الحقیقه أنّ هـذا الإختیار کان هو المتعیّن،لأنّ الهجره کانت أهم و المع حـدث أو برنامج حصل للإسـلام،و کانت الهجره مبدأ فصل جدید مهم فی التاریخ الإسلامی،فالمسلمون حین وجودهم فی مکّه کانوا یمارسون تعلم شؤونهم

۱- ۱) -تاریخ الطبری،الجزء الثانی،ص ۱۱۲،و یجب التنبیه إلی وجود رسائل من أیّام الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم،مذیله بالتاریخ الهجری.راجع کتاب(مکاتیب الرّسول)للأحمدی.

الحياتيه وفق دينهم الجديد(الإسلام)و لم تكن لديهم فى هذه الحاله-على ما يبدو-أى قدره سياسيه و اجتماعيه،و لكنهم بعد الهجره شكلوا مباشره الدوله الإسلاميه التى تقدمت بسرعه فائقه-فى كل المجالات-و لو أنّ المسلمين لم يذعنوا لأمر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى اختيار الهجره و فضلوا البقاء فى مكّه،لما تيسر عند ذلك للإسلام أن يمتد خارج حدود مكّه،بل حتى كان من الممكن أن يقبر الإسلام فى مكّه و يمحى أثره.

و يتّضح لنا أنّ الهجره لم تكن حكما خاصا بزمن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،بل أنّها تجب على المسلمين متى ما تعرضوا لظروف مشابهه لتلك الظروف التى اضطرت النّبى و أصحابه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى ترك مكّه و الهجره إلى المدينه.

و القرآن يعتبر الهجره فى الأساس جوهرا لوجود الحريه و الرفاه،و قد أشارت الآيه-موضوع البحث-إلى هذا الأمر،كما أن الآيه(۴۱)من سوره النحل تشير من جانب آخر إلى هذه الحقيقه،إذ تقول: وَ الَّذِينَ هٰاجَرُوا فِي اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مٰا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيٰا حَسَنَةً .

و تجدر الإشاره-أيضا-إلى هذه النقطه،و هى أنّ الهجره فى نظر الإسلام لا تقتصر على الهجره المكانيه و الخارجيه،بل يلزم قبل ذلك أن تتحقق لدى الفرد المسلم هجره باطنيه فى نفسه،يترك بها كل ما ينافى الأصاله و الكرامه الإنسانيه، لكى يتيسر له بهذا السبيل إلى الهجره المكانيه-إذن فالهجره الباطنيه ضروريه قبل أن يبدأ الإنسان المسلم هجرته الخارجيه-و إذا لم يكن هذا الإنسان بحاجه إلى الهجره الخارجيه،يكون قد نال درجه المهاجرين بهجرته الباطنيه.

و الإساس فى الهجره هو الفرار من«الظلمات»إلى«النور»و من الكفر إلى الإيمان،و من الخطأ و العصيان إلى إطاعه حكم اللّه،لذلك نجد فى الحديث ما يدل على أنّ المهاجرين الذين هاجروا بأجسامهم دون أن تتحقق الهجره فى بواطنهم و أرواحهم،ليسوا فى درجه المهاجرين،و على عكس هؤلاء فإنّ من تتحقق لديه

الهجره الباطنيه الروحيه و لم يتمكن أو لم يحتج إلى الهجره الخارجيه فهو فى عداد المهاجرين حقا.

و

عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام قوله: «و يقول الرجل هاجرت،و لم يهاجر،إنّما المهاجرون الذين يهجرون السيئات و لم يأتوا بها».

و

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من فر بدينه من أرض إلى أرض و إن كان شبرا من الأرض،استوجب الجنّه و كان رفيق محمّد و إبراهيم عليهما السّلام» (۱) . لأنّ هذين النّبيين هما قاده و أئمّه مهاجرى العالم.

۱- ۱) -نور الثقلين،الجزء الأول،ص ۵۴۱.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱۰۱]

اشاره

وَ إِذٰا ضَرَبْتُمْ فِی اَلْأَرْضِ فَلَیْسَ عَلَیْکُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ اَلصَّلاٰهِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ یَفْتِنَکُمُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا إِنَّ اَلْکٰافِرِینَ کٰانُوا لَکُمْ عَدُوًّا مُبِیناً (۱۰۱)

التّفسیر

اشاره

صلاه المسافر:

بعد الآیات التی تحدثت سابقا عن الجهاد و الهجره،تتطرق الآیه(۱۰۱)من سوره النساء-التی هی موضوع بحثنا الآن-إلی صلاه المسافر،فتبیّن أن لا مانع للمسلم من أن یقصر صلاته لدی السّفر إذا خاف من خطر الکافرین الذین هم الأعداء البارزون للمسلمین،و قد عبّرت هذه الآیه عن السّفر بالضرب فی الأرض،لأنّ المسافر یضرب الأرض برجلیه لدی السّفر (۱) .

و یرد هنا سؤال:و هو أن الآیه هذه قد جعلت الخوف من العدو شرطا لقصر الصّلاه،بینما نقرأ فی البحوث الفقهیه أنّ حکم صلاه القصر یعتبر حکما عاما یشمل جمیع أنواع السّفر،سواء کان فیه الخوف من الأعداء أو کان سفرا آمنا لا خوف فیه،و قد وردت روایات عدیده عن طرق الشیعه و السنه فی مجال صلاه

۱- ۱) -مفردات الراغب،ماده«ضرب».

القصر تؤيد كلّها شموليه حكم صلاه القصر لكل أنواع السّفر المباح (۱) .

و فی جواب هذا السؤال یجب القول:بأنّ تقیید حکم القصر فی صلاه بالخوف قد یکون سببه واحدا من الموارد التالیه:

أ-إنّ القید جاء بسبب وضع المسلمین فی بدایه العصر الإسلامی،و یصطلح علی هذا القید ب«القید الغالب»أی أنّ أغلب أسفار المسلمین فی ذلک الزمن کانت مشوبه بالخوف،و جاء فی علم الأصول أنّ القیود الغالبه لا مفهوم لها مستدلا بآیه وَ رَبٰائِبُکُمُ اللاّٰتِی فِی حُجُورِکُمْ (۲) أی بنات نسائکم اللواتی تربونهنّ و هنّ من أزواج سابقین و هنّ حرام علیکم.

حیث نواجه فی هذه الآیه نفس مسأله«القید الغالب»لأن بنات الزوجه یعتبرن محارم للزوج-سواء تربین فی حجره أم لم یتربین لدیه-و لکن بما أنّ أغلب النساء المطلقات اللواتی یتزوجن مرّه أخری هنّ نساء شابات لداهنّ أطفال صغار تتمّ تربیتهم فی حجر الزوج الجدید،لذلک جاءت الآیه بقید «حجورکم».

ب-و یعتقد بعض المفسّرین أنّ صلاه القصر شرعت فی البدایه لزمن الخوف-کما جاء فی الآیه موضوع البحث-و إنّ هذا الحکم قد توسع فیما بعد فشمل جمیع الحالات.

ج-و یحتمل أیضا أن یکون فی هذا القید جانب توکیدی،أی أن صلاه القصر لازمه للمسافر أینما کان،و لکن فی حاله الخوف من العدو تکون هذه الصّلاه مؤکده أکثر.

و علی أی حال،فلیس هناک من شک أنّ صلاه القصر للمسافر-مع الأخذ

۱- ۱) -للاطلاع أکثر راجع الجزء الخامس من کتاب وسائل الشیعه،و کتاب سنن البیهقی،الجزء الثّالث،ص ۱۳۴ و غیرهما من الکتب.

۲- ۲) -النساء،۲۳.

بنظر الاعتبار الرّوايات المفسّره لهذه الآيه-لا تقتصر على حاله الخوف،و لهذا السبب فإن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان فى أسفاره حتى فى موسم الحج(فى أرض منى) يقصر صلاته.

سؤال:

و هنا يرد سؤال آخر،و هو أنّ الآيه قد أتت بعباره وَ لاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ و ليس فى هذه العباره دلاله الحتميه فى الحكم،أى لا تحتم على المسافر أن يقصر صلاته،فكيف يمكن القول أنّ صلاه القصر واجب عينى للمسافر و ليس واجبا تخييريا؟

الجواب:

لقد وجّه هذان السؤالان إلى أئمّه الإسلام،فأشاروا لدى الإجابه عليهما إلى نقطتين مهمتين:

النّقطه الأولى:هى أنّ عباره«لا جناح»،أى لا ذنب عليكم،قد استخدمت فى بعض الموارد فى القرآن الكريم للدلاله على الوجوب،فمثلا فى آيه: إِنَّ الصَّفٰا وَ الْمَرْوَهَ مِنْ شَعٰائِرِ اللّٰهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمٰا (۱) فى حين أن جميع المسلمين يعرفون أنّ السعى بين الصفا و المروه واجب سواء فى الحج أو العمره.

و كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّه عليهم السّلام و المسلمون يؤدون السعى بعنوان الواجب...

و قد نقل عن الإمام الباقر عليه السّلام حديث بهذا المضمون (۲) .

و بعباره أخرى فإنّ عباره«لا جناح»-فى الآيه موضوع البحث و كذلك فى آيه الحج-جاءت لنفى التحريم،و السبب هو أنّ بعض المسلمين فى بدء الإسلام، و لوجود أصنام على جبلى الصفا و المروه،كانوا يظنون أنّ السعى بينهما من

۱- ۱) -من سوره البقره،الآيه ۱۵۸.

۲- ۲) -نور الثقلين،الجزء الأوّل،ص ۵۴۲.

عادات و تقالید الوثنیین،فی حین أنّه لم یکن کذلک،فجاءت عباره-«لا جناح» فی الآیه المذکوره لرفع الوهم الحاصل.

و کذلک فی حاله المسافر،من الممکن أن یتوهّم البعض أنّ قصر الصّلاه فی السّفر قد یعتبر نوعا من المعصیه،فجاء القرآن الکریم فی الآیه بعباره«لا جناح» لرفع هذا الوهم أیضا.

و النّقطه الثّانیه:هی أنّ بعض الرّوایات قد أشارت إلی أنّ قصر الصّلاه فی السّفر نوع من التسهیل الإلهی،و تقتضی الأدب أن لا یرد هذا التسهیل و لا یتجاهل.

و فی روایات أهل السنّه

نقل عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال فی موضوع قصر الصّلاه:«صدقه تصدق اللّه بها علیکم فاقبلوا صدقته» (۱) .

کما ورد مثل هذا الحدیث فی مصادر الشّیعه حیث

ینقل الإمام الصّادق علیه السّلام عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قوله بأن:الإفطار فی السّفر و قصر الصّلاه فیه هدیتان إلهیتان فمن انصرف عنهما أصبح رادّا لهدیه اللّه (۲) .

أمّا النّقطه الثّالثه:التی یجب الانتباه لها فهی أنّ بعض المسلمین قد تصوروا أن الآیه(۱۰۱)من سوره النساء تبیّن حکم صلاه الخائف(أثناء الحروب و أمثال ذلک)و یستدلون لذلک بعباره إِنْ خِفْتُمْ الوارده فی الآیه،و لکن جمله إِذٰا ضَرَبْتُمْ فِی الْأَرْضِ فیها مفهوم عام یشمل کل أنواع السّفر سواء کان من الأسفار الاعتیادیه أو کان سفرا من أجل الجهاد،و الذی تناولته الآیه التالیه بصوره مستقله.

إذن فعباره إِنْ خِفْتُمْ -و کما أسلفنا-تعتبر نوعا من القیود أو الشروط

ص: ۴۱۷

---

۱ - ۱) -جاء هذا الحدیث فی سنن البیهقی،الجزء الثّالث،ص ۱۳۴ نقلا عن صحیح مسلم،کما ورد فی کتب التفاسیر و الفقه أیضا.

۲- ۲) -وسائل الشیعه الجزء الخامس،ص ۵۴۰.

الغالبه،حیث أنّ أغلب أسفار المسلمین فی ذلک الزمان کانت مشوبه بالخوف و الخطر-لذلک فلا دلاله علی اقتصار الآیه علی الصّلاه فی حاله الخوف، بالإضافه إلی ذلک،فإنّ الخوف من هجوم العدو موجود أثناء الحروب و لیس فی محلّه أن یقال لمن فی ساحه الحرب إِنْ خِفْتُمْ من هجوم العدو،و هذا دلیل آخر علی أنّ الآیه تشیر إلی جمیع أنواع السّفر التی یحتمل أن یوجد فیها بعض الأخطار علی المسافر.

کما یجب التنبیه إلی أنّ شروط صلاه المسافر لم ترد فی القرآن،کما لم ترد شروط و أوصاف بقیه الأحکام الإسلامیه فیه أیضا،بل أشارت إلی ذلک السنّه الشریفه.

و من هذه الشروط أنّ صلاه القصر لا تجب فی الأسفار التی لا تبلغ المسافه فیها ثمانیه فراسخ،لأنّ المسافر فی تلک الأیّام کان یقطع فی الیوم الواحد مسافه الثمانیه فراسخ بصوره اعتیادیه.

و الشرط الآخر هو أنّ المسافر الذی یتّخذ من السّفر حرفه لنفسه أو جزءا من برنامج حیاته الیومیه مستثنی من القصر فی الصّلاه،لأنّ السّفر بالنسبه إلی أمثال هؤلاء أمر اعتیادی،و لیس أمرا استثنائیا.

کما أنّ من یسافر من أجل ارتکاب معصیه،لا یکون مشمولا لحکم صلاه المسافر،أی لا یجوز له القصر فی الصّلاه،و السبب هو أن حکم القصر یعتبر نوعا من التسهیل الإلهی،و لا یمکن أن یشمل هذا التسهیل من یسیر فی طریق معصیه اللّه.

کما أنّ أی مسافر لم یصل إلی حدّ الترخیص(أی إلی النقطه التی لا یمکن سماع صوت أذان المدینه فیها،أو لا یمکن مشاهده أسوار المدینه عندها)لا یمکنه أن یقصر صلاته،لأنّه فی هذه الحاله لا یعد خارجا عن حدود المدینه و لا یعتبر فی عداد المسافرین.

و بالإضافه إلى ما ذكر هناك أحكام أخرى ذكرتها كتب الفقه بالتفصيل،و قد ذكرت الأحاديث التى وردت فى هذا الأمر كتب الحديث.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱۰۲]

اشاره

وَ إِذا کُنْتَ فِیهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ اَلصَّلاٰهَ فَلْتَقُمْ طائِفَهٌ مِنْهُمْ مَعَکَ وَ لْیَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذا سَجَدُوا فَلْیَکُونُوا مِنْ وَرائِکُمْ وَ لْتَأْتِ طائِفَهٌ أُخْریٰ لَمْ یُصَلُّوا فَلْیُصَلُّوا مَعَکَ وَ لْیَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِکُمْ وَ أَمْتِعَتِکُمْ فَیَمِیلُونَ عَلَیْکُمْ مَیْلَهً واحِدَهً وَ لاٰ جُناحَ عَلَیْکُمْ إِنْ کانَ بِکُمْ أَذیً مِنْ مَطَرٍ أَوْ کُنْتُمْ مَرْضیٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَکُمْ وَ خُذُوا حِذْرَکُمْ إِنَّ اَللّٰهَ أَعَدَّ لِلْکافِرِینَ عَذاباً مُهِیناً (۱۰۲)

سبب النّزول

نزل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع عدد من المسلمین أرض الحدیبیه-و هم فی طریقهم إلی مکّه-فسمعت قریش بذلک فبعثت بخالد بن الولید علی رأس زمره من مائتی شخص لاعتراض طریق النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین الذین معه و منعهم من الوصول إلی مکّه،فاستقرّ خالد و الذین رافقوه فی الجبال القریبه من مکه.

و لما کان موعد صلاه الظهر،أذن بلال،فصلّی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالمسلمین جماعه،فشاهد خالد بن الولید صلاه المسلمین ففکر فی خطّه للهجوم علی المسلمین،و أخبر جماعته أن یغتنموا فرصه أداء المسلمین لصلاه العصر التی

يعتبرونها أعزّ عليهم من أعينهم،فيباغتونهم بهجوم خاطف و هم فى الصّلاه و يقضون عليهم.

و فى هذه الأثناء نزلت الآيه بحكم صلاه الخوف التى تصون المسلمين من كل هجوم خاطف.

و هذه الآيه إحدى معاجز القرآن الكريم حيث أخبرت عن وقوع هجوم قبل قيام العدو بتنفيذه و بذلك أفشلت خطه العدو،و يقال بأنّ خالدا أعلن إسلامه حال مشاهدته لذلك المشهد بعينه.

التّفسير

اشاره

بعد آيات الجهاد السابقه تبيّن هذه الآيه للمسلمين طريقه صلاه الخوف التى تؤدى فى ساحه الحرب،فتخاطب الآيه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائله: وَ إِذٰا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاٰةَ فَلْتَقُمْ طٰائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ... فإذا سجدت جماعه و انقضت الركعه الأولى من الصّلاه،على النّبى أن يقف فى مكانه فتؤدى الجماعه-سريعا-الركعه الثّانيه و تعود إلى ساحه القتال لمواجهه العدو.

و تأتى بعد ذلك الجماعه الثّانيه التى لم تصل بعد،و تأخذ مكان الجماعه الأولى فتصلّى مع النّبى: فَإِذٰا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرٰائِكُمْ وَ لْتَأْتِ طٰائِفَةٌ أُخْرىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ... و على الجماعه الثّانيه أن لا تضع أرضا لامه حربها،بل تحتفظ بها معها: وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ... .

و تشير الآيه إلى أنّ أداء الصّلاه بهذا الأسلوب من أجل أن يبقى المسلمون فى مأمن من أى هجوم مباغت قد يقوم به العدو عليهم،لأنّه يتحين الفرص دائما لتنفيذ هذا الهجوم،و يتمنى لو تخلى المسلمون و غفلوا عن أسلحتهم و أمتعتهم ليشنّ عليهم حملته الغادره: وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وٰاحِدَةً... .

و لما كـان حمل السـلاح و الوسائل الـدفاعيه الأخرى صـعبا أثناء أداء الصّلاه فى بعض الأحيان مثل أن يكون بعض المسـلمين يعـانون من ضـعف بـدنى أو مرضـى أو جراحات تحملوها من ساحه القتال،فيشق عليهم بـذلك حمل السـلاح أو وسائل الـدفاع الأخرى،لذلك تأمر الآيه فى الختام قائله: وَ لاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كٰانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ .

و هـذا مشـروط بأن يحتفظ المسـلمون بما يقيهم من وسائل الـدفاع كالدروع، و أمثالها حتى فى حاله وجود العذر كالضـعف أو المرض،و ذلك لحمايه أنفسهم إذا باغتهم العدو بهجومه إلى أن تصلهم الإمدادات حيث تقول الآيه: وَ خُذُوا حِذْرَكُمْ... .

و هنا عدّه ملاحظات جديره بالانتباه،هى:

۱-واضـح أنّ الهـدف من وجود النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بين المسـلمين فى حال إقامه صـلاه الخوف،لا يعنى أنّ هـذه الصّلاه لا تقام إلّا بوجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،بل القصد و الهدف هنا فى الآيه هو أن يكون للمقاتلين و المجاهدين إمام أو قائد يتقدمهم و يؤمهم فى صـلاه الجماعه أثناء الحرب،و من هذا المنطلق نرى الإمام على و الإمام الحسـين عليهما السّلام قد أقاما صـلاه الخوف،كما أنّ العديد من قاده الجيوش الإسـلاميه كحذيفه قد قاموا بهذه العباده الإسـلاميه فى ساعات الضروره (۱) .

۲-و الآـيه تـأمر المجموعه الأـولى بـأن تحتفظ بسـلاحها أثناء أداء صـلاه الخوف،لكنها تقول للمجموعه الثّانيه أن لا تلقى أرضـا بوسائلها الدفاعيه كالدروع و الأسلحه الأخرى.

و من المحتمـل أن يكـون الفرق بين هـاتين المجموعـتين هـو أنّ العـدو قـد لاـ يكـون على علم بعـد بخطه المسـلمين أثنـاء أداء المجموعه الأولى لصلاتها،و فى

۱- ۱) -كنز العرفان،الجزء الأوّل،ص ۱۹۱.

هذه الحاله يكون احتمال هجوم العدو على المسلمين ضعيفا،أمّا بالنسبه للمجموعه الثانيه-حين-ينتبه العدو لمراسم الصّلاه فيكون هجومه على المسلمين أكثر احتمالا.

۳-إنّ القصد من الاحتفاظ بالمتاع المطلوب من المسلمين فى الآيه- موضوع البحث-هو أن يراقب المسلمون وسائلهم الأخرى الحربيه و الشخصيه و الغذائيه و الحيوانات التى جلبوها لتكون غذاء لهم،بالإضافه إلى الدفاع عن أنفسهم.

۴-من الواضح أنّ أداء الصّلاه جماعه ليست واجبه فى الإسلام،لكنّها من المستحبات المؤكده كثيرا،و هذه الآيه تعتبر أحد الأدله الحيه على التأكيد بالنسبه لأهميه مراسيم صلاه الجماعه فى الإسلام،بحيث إنّ هذه الصّلاه-صلاه الجماعه-تقام حتى فى ساحه الحرب بالاستفاده من أسلوب و طريقه صلاه الخوف، و يستدل من هذا الموضوع على أهميه الصّلاه نفسها بالإضافه إلى أهميه إقامتها جماعه.

و من الطبيعى أن يكون لصلاه الجماعه تأثير نفسى و معنوى على المقاتلين من زاويه التنسيق فى الهدف،كما أنّ لها تأثير على العدو-أيضا-حين يرى أنّ المسلمين حتى و هم فى ساحه القتال يهتمون بواجباتهم الدينيه.

كيفيه صلاه الخوف:

لا يبدو فى الآيه-موضوع البحث-التوضيح اللازم لكيفيه أداء صلاه الخوف.و هذا هو أسلوب القرآن إذ يبيّن كليات الحكم،و يترك شرح الأحكام إلى السنّه الشريفه.

و طريقه أداء صلاه الخوف-كما توضحها السنّه-هى أن تتحول الصّلاه الرباعيه إلى صلاه ثنائيه،أى تحويل صلاه الظهر أو العصر مثلا التى هى أربع

رکعات فی کل منهما إلی صلاه برکعتین،فتصلی المجموعه الأولی رکعه واحده مع الإمام،ثمّ یتوقف الإمام بعد أداء الرکعه الأولی فتؤدی المجموعه الأولی الرکعه الثانیه فرادی،ثمّ تعود إلی جبهه القتال،فتأتی المجموعه الثانیه لتأخذ مکان المجموعه الأولی خلف الإمام،فتؤدی الرکعه الأولی جماعه مع الإمام و تؤدی الرکعه الثّانیه فرادی(و قد وردت طرق أخری لأداء صلاه الخوف،و لکن أشهرها الطریقه التی تحدثنا عنها هنا).

ص:424

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱۰۳]

اشاره

فَإِذٰا قَضَیْتُمُ اَلصَّلاٰهَ فَاذْکُرُوا اَللّٰهَ قِیٰاماً وَ قُعُوداً وَ عَلیٰ جُنُوبِکُمْ فَإِذَا اِطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِیمُوا اَلصَّلاٰهَ إِنَّ اَلصَّلاٰهَ کٰانَتْ عَلَی اَلْمُؤْمِنِینَ کِتٰاباً مَوْقُوتاً (۱۰۳)

التّفسیر

اشاره

أهمیه فریضه الصّلاه:

بعد أن ذکرت الآیه السابقه صلاه الخوف،و أکدت ضروره إقامتها حتی فی جبهات الحرب،تحث الآیه(۱۰۳)المسلمین علی أن لا ینسوا ذکر اللّه بعد أداء الصّلاه،و لیذکروا اللّه حین قیامهم و قعودهم و أثناء نومهم علی جنوبهم و لیسألوه العون و النصر،و القصد من ذکر اللّه فی حاله القیام و القعود و النوم علی الجنبین، یحتمل أن یکون فی فترات الاستراحه التی تسنح للمسلمین و هم فی ساحه الحرب،کما یحتمل أن تکون فی الحالات المختلفه للقتال،أی أثناء وقوف المقاتل أو جلوسه أو استلقائه علی أحد جنبیه و هو یقاتل بأحد أنواع الأسلحه الحربیه کالقوس و السهم مثلا. (۱)

۱- ۱) -«قیام»تاره یأتی بمعناه المصدری،(و یعنی به حاله القیام،و تاره یأتی للجمع أی«قائمین»-و«قعود»کذلک أیضا،فیأتی بمعنی حاله القعود و الجلوس،و یأتی بمعنی«قاعدین»للجمع.و فی الآیه أعلاه یحتمل کلا الأمرین.

إنّ هذه الآيه تشير فی الحقیقه إلی أمر إسلامی مهم،یدل علی أنّ أداء الصّلاه فی أوقات معینه لیس معناه أن ینسی الإنسان ذکر اللّه فی الحالات الأخری، فالصّلاه أمر انضباطی یحیی و یجدد روح التوجه إلی اللّه لدی الفرد،فیستطیع فی أوقات أخری غیر وقت الصّلاه أن یحتفظ بذکر اللّه فی ذهنه،سواء کان فی ساحه القتال أو فی مکان آخر.

و قد فسّرت هذه الآیه فی روایات عدیده علی أنّها تبیّن کیفیه أداء الصّلاه بالنسبه للمرضی،أی أنّهم إذا استطاعوا فلیؤدوا الصّلاه قیاما،و إن لم یقدروا علی ذلک فقعودا،و إذا عجزوا عن القعود فعلی أحد جنبیهم.

و هذا التّفسیر فی الحقیقه نوع من التعمیم و التوسع فی معنی الآیه،و لو أنّها لا تخص هذا المجال (1) .

و تؤکد هذه الآیه أنّ حکم صلاه الخوف هم حکم استثنائی طاریء،و علی المسلمین إذا ارتفعت عنهم حاله الخوف أن یؤدوا صلاتهم بالطریقه المعتاده فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِیمُوا الصَّلاٰهَ... .

و توضح الآیه فی النهایه سر التأکید علی الصّلاه بقولها إن الصّلاه فریضه ثابته للمؤمنین و أنّها غیر قابله للتغییر: ...إِنَّ الصَّلاٰهَ کٰانَتْ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ کِتٰاباً مَوْقُوتاً .

إنّ عباره«موقوت»من المصدر«وقت»،و علی هذا الأساس فإن الآیه تبیّن أنّه حتی فی ساحه الحرب یجب علی المسلمین أداء هذه الفریضه الإسلامیه، لأنّ للصّلاه أوقات محدده لا یمکن تخطیها (2) .

و لکن الروایات العدیده التی وردت فی شرح هذه الآیه تبیّن أنّ عباره

1- 1) -للاطلاع أکثر عن الأحادیث التی وردت فی هذا المجال راجع کتاب نور الثقلین الجزء الأوّل،ص 545.

2- 2) -و یؤید کتاب کنز العرفان،فی الجزء الأوّل،ص 59،هذا المعنی،کما جاء فی تفسیر التبیان و فی مجمع البیان أیضا ذکر هذا الأمر.

«موقوتا»تعنى«ثابتا»و«واجبا»ممّا لا ينافى مفهوم الآيه أيضا،و النتيجه هى أنّهما قريبين من المعنى الأوّل.

سؤال:

يقول البعض:إنّهم لا ينكرون فلسفه و اهميه الصّلاه و آثارها التربويه، و لكنهم يسألون عن ضروره إقامتها فى أوقات محدده،و يرون أن الأحسن أن يترك الناس أحرارا لكى يؤدى كل منهم الصّلاه متى ما سنحت له الفرصه أو متى ما وجد استعدادا روحيا لأداء هذه الفريضه؟

الجواب:

إنّ التّجربه قد أثبت أنّ القضايا التربويه لو لم تخضع لشروط و قيود معينه، فإن العديد من الناس سيتجاهلون و يتركون هذه القضايا،و سيؤدى هذا التجاهل إلى أن تتزلزل أركانها،لذلك فإن القضايا التربويه يجب أن تخضع لقيود خاصّه و يخصص لأدائها أوقات محدده،و أن لا يسمح لأحد بتخطى هذه القيود أو تجاهل تلك الأوقات،خاصّه و إنّ أداء فريضه كالصّلاه و فى وقت معين و بصوره جماعيه يظهر عظمتها و هيبتها و تأثيرها القوى الذى لا يمكن لأحد نكرانه، و الصّلاه فى الحقيقه من أهم العوامل فى تربيه الإنسان و تكوين شخصيته الإنسانيه.

ص :۴۲۷

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱۰۴]

اشاره

وَ لاٰ تَهِنُوا فِی اِبْتِغٰاءِ اَلْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمٰا تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اَللّٰهِ مٰا لاٰ يَرْجُونَ وَ كٰانَ اَللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۰۴)

سبب النّزول

اشاره

قرع السّلاح بسلاح یشابهه:

روی عن ابن عباس و مفسّرین آخرین أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم-بعد الأحداث الألیمه لواقعه أحد-صعد إلی جبل أحد و کان علی الجبل أبو سفیان، فخاطب النّبی بلهجه الفاتح بقوله:«یا محمّد یوم بیوم بدر!»و عنی أبو سفیان بذلک أن انتصارهم فی أحد کان مقابل هزیمتهم فی واقعه بدر.

فطلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من المسلمین أن یردوا علیه فورا،و لعل النّبی أراد أن یثبت لأبی سفیان إنّ من تربوا فی ظل الرساله الإسلامیه یتمتعون بکامل الوعی، فرد المسلمون علی أبی سفیان:هیهات أن یستوی الوضع بین المؤمنین و المشرکین،فشهداء المؤمنین فی الجنّه و قتلی المشرکین فی النّار.

فأجاب أبو سفیان-صارخا و مفتخرا-بالعباره التالیه:

«لنا العزّی و لا عزّی لکم»فردّ علیه المسلمون:

«اللّه مولانا و لا مولی لکم»و لما عجز أبو سفیان عن الردّ علی هـذا الجواب و الشـعار الإسـلامی الحی تخلی عن صـنمه«العزی»و عرج علی صـنم آخر هو «هبـل»متوسـلا إلیه بقوله:«أعل هبل،أعل هبل»فردّ علیه المسـلمون بجواب قوی علّمهم إیاه نبی الإسـلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو:

«اللّه أعلی و أجل».

فما أعیت أبا سفیان الحیله و لم تجده شعاراته الوثنیه نفعا قال صارخا:

«موعدنا فی أرض بدر الصغری».

عاد المسـلمون من ساحه القتال مثخنین بالجراح،و حین کان یعتصرهم الألم من أحداث أحد،نزلت الآیه المذکوره أعلاه محذره المسـلمین من الغفله عن المشـرکین مطالبه إیاهم بملاحقه قوی الشرک دون کلل أو ملل،و أن لا یتأثروا بحوادث مؤلمه کحادثه أحد،فهب المسـلمون و هم فی تلک الحاله لملاحقه العدو، فما أن سمع المشرکون بعزم المسلمین حتی أسرعوا الخطی مبتعدین عن المدینه و عادوا إلی مکّه (1) .

إنّ سـبب النّزول هـذا یعلّمنا أنّ المسـلمین یجب أن لا یغیب عن بالهم أنواع التکتیک الـذی یسـتخدمه العـدو،و أن یواجهوا کل أسـلوب حربی یتبعه العدو،سواء الأسـلوب القتالی أو النفسـی بأسـلوب إسـلامی أقوی،و أعنف من أسـلوب العدو، و أن یواجهوا منطق الأعداء بمنطق أقوی و أشد،و یقابلوا سـلاحهم بسـلاح أمضـی، و حتی شـعارات الأعداء یجب أن تقابل بشـعارات إسلامیه ضاربه،و بغیر ذلک فإنّ الریاح ستجری بما یشتهیه الأعداء.

و من هـذا المنطلق،فإنّنا نحن المسـلمین-بدلا من أن نجلس و نذرف الدموع علی ما مر و یمر علینا من أحداث مؤلمه مریره،و ما تشهده مجتمعاتنا من مفاسد رهیبه تحیط بهذه المجتمعات من کل جانب،علینا أن نبادر بصوره فعاله إلی

۱- ۱) -تفسیر التبیان الجزء الثّالث،ص ۳۱۴،تفسیر مجمع البیان،الجزء الثّالث،ص ۱۰۵.

العمل،فنواجه العـدوان المكتوب بكتابات تدحضه و تقمعه،و نواجه الإعلام الضال المسـموم المضـلل بأسـلوب إعلامى يحبطه و يقضـى على أمره،و نقابـل مراكز اللهـو الخليع ببنـاء مراكز للهو الـبرىء السـليم لشـبابنا و أبنائنـا،و نقرع الأفكـار و الأطروحـات و المذاهب السياسيه و الاقتصاديه و الاجتماعيه بالفكر الإسلامى الجامع بأسلوب عصرى يفهمه الجميع.

و إذا اسـتطعنا أن نواجه أعـداءنا بهـذه الصوره فقـد أفلحنـا فى الحفـاظ على كياننا الإسـلامى،و فى أن نبرز للعالم بشـكل مجتمع تقدمى أصيل.

التّفسير

أعقبت الآيه-موضوع البحث هـذه-الآيات السابقه التى تحـدثت عن الجهاد و الهجره و اسـتهدفت إحياء روح التضـحيه و الفـداء لدى المسلمين بقولها:

وَ لاٰ تَهِنُوا فِي اِبْتِغٰاءِ الْقَوْمِ

و هـذا تأكيـد على ضـروره أن لا يواجه المسـلمون عـدوهم اللدود بأسـلوب دفاعى،بل عليهم أن يقابلوا هذا العدو بروح هجوميه دائما،لأنّ هذا الأسلوب الأخير له أثر قامع للعدو و مؤكد على معنوياته.

و قد جرّب المسلمون هذا الأمر فى مواجهتهم للعدو بعد واقعه أحد التى هزموا فيها،فارغموا العدو على الفرار مع أنّه كان لم يزل يتلـذذ بطعم الإنتصار الـذى أحرزه فى أحد.إذ لما علم المشـر كون بقدوم المسـلمين خافوا من العوده إلى ساحه القتال،و أسـرعوا مبتعدين عن المدينه.

بعد ذلك تأتى الآيه باسـتدلال حى و واضح للحكم الذى جاءت به،فتسأل المسـلمين لما ذا الوهن؟فأنتم حين يصـيبكم ضرر فى سـاحه الجهاد فإنّ عـدوكم سيصـيبه هو الآخر سـهم من هـذا الضـرر،مع فارق هو أنّ المسـلمين يأملون أن يعينهم اللّه و يشـملهم برحمته الواسـعه،بينمـا الكـافرون لاـ يرجون و لاـ يتوقعون ذلك،حيث تقول الآيه: إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمٰا تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَرْجُونَ... .

و فى الختام-و من أجل إعاده التأكيد-تطلب الآيه من المسلمين أن لا ينسوا علم اللّه بجميع الأمور،فهو يعلم معاناه المسلمين و مشاكلهم و آلامهم و مساعيهم و جهودهم،و يعلم أنّهم أحيانا يصابون بالتهاون و الفتور،فتقول الآيه:

وَ كانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً

و سيرى المسلمون نتيجه كل الحالات تلك.

ص :۴۳۱

الآیتان [سوره النساء (۴): الآیات ۱۰۵ الی ۱۰۶]

اشاره

إِنّا أَنْزَلْنا إِلَيْکَ اَلْکِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْکُمَ بَيْنَ اَلنّاسِ بِما أَراکَ اَللّهُ وَ لا تَکُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً (۱۰۵) وَ اِسْتَغْفِرِ اَللّهَ إِنَّ اَللّهَ کانَ غَفُوراً رَحِيماً (۱۰۶)

سبب النّزول

لقد نقلوا واقعه مفصله عن سبب نزول الآیتین المذکورتین،خلاصتها أنّ فی قبیله بنی الأبیرق المعروفه نسبیا کان ثلاثه أشقاء هم«بشر»و«بشیر»و«مبشر» سطا أحدهم و هو«بشیر»علی دار أحد المسلمین و یدعی«رفاعه»فسرق سیفه و درعه و کمیه من الغذاء،و کان ابن أخیه و یدعی«قتاده»من مجاهدی بدر فأخبر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالواقعه.

و لکن الأشقاء الثّلاثه اتهموا شخصا من المسلمین اسمه«لبید»الذی کان یسکن فی دار واحد معهم،فتألم لبید ألما شدیدا من هذه التهمه الباطله و استل سیفه و توجه إلی الأشقاء الثلاثه صارخا فی وجوههم قائلا:«ا تتهموننی أنا بالسّرقه و أنتم أجدر بهذا العمل؟فأنتم هم أولئک المنافقون الذین کنتم تهجون النّبی و تنسبون أبیات الهجو إلی قریش،فأمّا أن تثبتوا ما تنسبونه لی من تهمه،أو أن أهوی بسیفی علی رؤسکم».

ص:۴۳۲

فلمّا رأی أخوه السارق ذلک حاولوا استرضاء«لبید»و لکنّهم لمّا علموا أنّ القضیه قد وصلت إلی أسماع النّبی بواسطه«قتاده»لجؤوا إلی أحد متکلمی قبیلتهم فطلبوا منه أن یذهب مع جمع من الناس إلی النّبی و یتظاهر بأنّ الحق إلی جانبهم لیبرئ السارق و یتهم«قتاده»بتلفیق التهمه علی شقیقهم،و قد قبل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم استنادا إلی واجب العمل بظاهر الأمور-شهاده تلک المجموعه و أنّب «قتاده»علی عمله.

و قد تألم«قتاده»الذی کان یعرف نفسه برئیا...تألم من هذه الواقعه و عاد إلی عمّه و أخبره بالحادث مظهرا أسفه الکبیر لما حصل،فخفف علیه عمّه و قال «لا تحزن یا قتاده إن اللّه فی عوننا»فنزلت الآیتان المذکورتان لتعلنا براءه الرجل، و تؤنبا مرتکبی الخیانه الحقیقیین.

و نقلوا-أیضا-واقعه أخری فی سبب نزول الآیتین،و هی أن درعا لأحد الأنصار کانت قد سرقت فی إحدی الحروب،و کان الشک یدور علی شخص من قبیله«الأبیرق»فی سرقه ذلک الدرع،و لما علم السارق بأنّ الشکوک بدأت تدور حوله رمی بالدرع فی دار أحد الیهود،و طلب من قبیلته أن یشهدوا ببراءته أمام النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یستدلوا بذلک علی وجود الدرع فی دار الیهودی،و لمّا رأی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الأمر بتلک الصوره برأ هذا السارق بحسب ظاهر الشهاده التی جاءت لصالحه و أدین الرجل الیهودی بسرقه الدرع،فنزلت الآیتان المذکورتان لتوضحا الحقیقه.

التّفسیر

اشاره

منع الدّفاع عن الخائنین:

یعرف اللّه سبحانه و تعالی-فی بدایه الآیه(۱۰۵)من سوره النساء-نبیّه محمّدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأنّ الهدف من إنزال الکتاب السماوی هو تحقیق مبادئ الحق

و العداله بين الناس،إذ تقول الآيه: إِنّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما أَراكَ اللّهُ... .

ثمّ يحذّر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من حمايه الخائنين أبدا بقوله: وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً .

و مع أنّ الآيه خطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و لكن ممّا لا شك فيه هو أنّ هذا الحكم حكم عام لجميع القضاه و المحكمين،و بهذا الدليل فإنّ مثل هذا الخطاب ليس المفهوم منه أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تبدر منه مثل هذه الأعمال،لأن الحكم المذكور يشمل جميع الأفراد.

أمّا الآيه الأخرى فهى تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بطلب المغفره من اللّه سبحانه و تعالى، إذ تقول: وَ اسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً .

و حول سبب الاستغفار المطلوب فى هذه الآيه توجد احتمالات عديده، هى:

الأوّل:إنّ الاستغفار هو لترك الأولى الذى حصل بسبب الاستعجال فى الحكم فى القضيه التى نزلت بسببها الآيتان،أى مع أنّ ذلك القدر من الاعتراف، و شهاده الطرفين كان كافيا لإصدار الحكم من قبل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،إلاّ أنّه كان الأحرى أن يجرى تحقيق أكثر فى ذلك المجال.

و الثّانى:هو أنّ النّبى قد حكم فى تلك القضيه وفقا لقوانين القضاء الإسلامى، و بما أنّ الأدله التى جاء بها الخائنون كانت بحسب الظاهر أقوى،لذلك أعطى الحق لهم،و بعد انكشاف الحقيقه و وصول الحق إلى صاحبه يأتى الأمر بطلب المغفره من اللّه،ليس لذنب مرتكب،بل لتعرض حق فرد مسلم إلى خطر الزوال بسبب خيانه البعض من الأشخاص(أى أن الاستغفار بحسب الاصطلاح-لأجل الحكم الحقيقى لا الحكم الظاهرى).

و قد احتمل البعض أن يكون الاستغفار مطلوبا من طرفى الدعوى اللذين

ظهر منهما الخلاف فی عرض و متابعه دعواهما.

و

فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّما أنا بشر،و إنّکم تختصمون إلیّ و لعل بعضکم یکون الحن بحجته من بعض،فأقضی بنحو ما أسمع،فمن قضیت له من حق أخیه شیئا فلا یأخذه،فإنّما أقطع له قطعه من نار» (۱) .

یتبیّن لنا من هذا الحدیث أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مکلّف بالحکم وفقا لظاهر القضیه و استنادا إلی أدله طرفی الدعوی،و بدیهی أن الحق فی مثل هذه الحاله یصل إلی صاحبه،و یحتمل أحیانا أن لا ینطبق ظاهر الدلیل و شهاده الشهود مع الحقیقه، فیجب الانتباه هنا إلی أنّ حکم الحاکم لا یغیر من الحقیقه شیئا فلا یصبح الحق باطلا و لا الباطل حقا.

۱- ۱) -تفسیر المنار،الجزء الخامس،ص ۳۹۴،نقلا عن صحیحی مسلم و البخاری.

الآيات [سوره النساء (۴): الآيات ۱۰۷ الى ۱۰۹]

اشاره

وَ لاٰ تُجٰادِلْ عَنِ اَلَّذِينَ يَخْتٰانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ مَنْ كٰانَ خَوّٰاناً أَثِيماً (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ اَلنّٰاسِ وَ لاٰ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اَللّٰهِ وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مٰا لاٰ يَرْضىٰ مِنَ اَلْقَوْلِ وَ كٰانَ اَللّٰهُ بِمٰا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (١٠٨) هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ جٰادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا فَمَنْ يُجٰادِلُ اَللّٰهَ عَنْهُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰامَهِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩)

التّفسير

بعد الآيات التى جاءت بتحريم الدّفاع عن الخائنين،تستطرد الآيات الثلاث الأخيره فى التشديد على حرمه الدفاع عن الخائنين،بالأخص أولئك الذين يخونون أنفسهم.

و يجب الانتباه هنا إلى أن الآيه(١٠٧)تشير إلى الذين يخونون أنفسهم، بينما الذى عرفنا من سبب نزول الآيات السابقه،هو أنّها نزلت فى شأن الذين يخونون الغير،و فى هذا إشاره إلى ذلك المعنى الدقيق الذى ينبه إليه القرآن فى العديد من الآيات،و هو أن أى عمل يصدر عن الإنسان يتأثر بنتيجته-سواء كانت حسنه أو سيئه-الإنسان ذاته قبل غيره،كما جاء فى الآيه(٧)من سوره

الإسراء،إذ تقول إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها .

أو أنّ الآيه المذكوره تشير إلى موضوع آخر أكّد عليه القرآن أيضا،و هو أن جميع أفراد البشر هم جميعا كأعضاء جسد واحد،فإذا أضر أحدهم بغيره فكأنما أضرّ بنفسه،أى يكون بالضبط كالذى يصنع نفسه بنفسه.

و الأمر الآخر فى الآيه أنّها لا تخص الذين يرتكبون الخيانه لمرّه واحده ثمّ يندمون على ما فعلوا،حيث لا ضروره لاستعمال العنف و الشده مع هؤلاء،بل هم بحاجه إلى الرأفه أكثر،و الشدّه يجب أن تطبق على أولئك الذين يحترفون الخيانه و تكون جزءا من حياتهم.

و يدل على هذه القرينه الوارده فى الآيه من خلال عباره يَخْتانُونَ التى هى فعل مضارع يدل على الاستمراريه،بالإضافه إلى القرينه الأخرى التى تفهم من عبارتى خَوّاناً أى كثير الخيانه و أَثِيماً أى كثير الذّنب،و الكلمه الأخيره جاءت لتأكيد عباره«خوان»فى الآيه،كما أنّ الآيه السابقه جاءت بكلمه «خائن»التى هى اسم فاعل و التى لها معنى وصفى يدل على تكرار الفعل.

لقد تعرض الخائنون فى الآيه الأخرى إلى التوبيخ،حيث قالت أن هؤلاء يستحيون أن تظهر بواطن أعمالهم و سرائرهم و تنكشف إلى الناس،لكنهم لا يستحيون لذلك من اللّه سبحانه و تعالى،إذ تقول الآيه: يَسْتَخْفُونَ مِنَ النّاسِ وَ لا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ... فلا يتورع هؤلاء من تدبير الخطط الخيانيه فى ظلام الليل، و التحدث بما لا يرضى اللّه الذى يراهم و يراقب أعمالهم،أينما كانوا: وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ وَ كانَ اللّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً .

بعد ذلك تتوجه الآيه(١٠٩)من سوره النساء بالحديث عن شخص السارق الذى تمّ الدفاع عنه،و تقول بأنّه على فرض أن يتمّ الدفاع عن هؤلاء فى الدنيا فمن يستطيع الدفاع عنهم يوم القيامه،أن من يقدر أن يكون لهؤلاء وكيلا ليرتب أعمالهم و يحل مشاكلهم؟!حيث تقول الآيه: ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَهِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً

.و لـذلك فإنّ الـدفاع عن هؤلاء الخونه فى الـدنيا ليس له أثر إلا القليل،لأنّهم سوف لا يجـدون أبدا من يدافع عنهم أمام اللّه فى الحياه الآخره الخالده.

و الحقيقه هى أنّ الآيات الثلاث الأخيره تحمل فى البدايه إرشادات إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إلى كل قاض يريد أن يحكم بالحق،بأن ينتبهوا حتى يفوتوا الفرصه على أولئك الذين يريدون انتهاك حقوق الآخرين،عبّر وسائل مصطنعه و شهود مزورين.

بعد ذلك تحذر الآيه الخائنين و من يدافع عنهم،بأن ينتظروا عواقب سيئه لأعمالهم فى هذه الدنيا و فى الآخره أيضا.

و فى تلك الآيات سر من أسرار البلاغه القرآنيه،حيث أنّها أحاطت جميع جوانب القضيه و أعطت الإرشادات و التحذيرات اللازمه فى كل مورد،مع أنّ موضوع القضيه يبدو موضوعا صغيرا بحسب الظاهر،إذ يدور حول درع مسروقه أو مواد غذائيه أو يهودى من أعداء الإسلام.

و قد تناولت الآيه-أيضا-الإشاره إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى يعتبر إنسانا معصوما عن الخطأ،كما أشارت إلى الأفراد الذين يحترفون الخيانه،أو الذين يدافعون عن الخائنين اندفاعا وراء عصبيات قبليه، إشارات تتناسب و منزله الأشخاص المشار إليهم فى الآيات المذكوره.

ص :۴۳۸

الآيات [سوره النساء (۴): الآيات ۱۱۰ الی ۱۱۲]

اشاره

وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اَللّٰهَ يَجِدِ اَللّٰهَ غَفُوراً رَحِيماً (۱۱۰) وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمٰا يَكْسِبُهُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَ كٰانَ اَللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۱۱) وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ اِحْتَمَلَ بُهْتٰاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۱۱۲)

التّفسير

اشاره

لقد بيّنت هذه الآيات الثلاث،ثلاثه أحكام كليه بعد أن تطرقت الآيات السابقه إلى مسائل خاصّه بالخيانه و التهمه.

۱-لقد وردت فى الآيه(۱۱۰)من الآيات الثلاث أعلاه الإشاره أوّلا إلى هذه الحقيقه و هى أن باب التوبه مفتوح أمام المسيئين على كل حال،فإذا ارتكب أحد ظلما بحقّ نفسه أو غيره،و ندم حقيقه على فعلته،أو استغفر اللّه لذنبه،و كفّر عن خطيئته فيجد اللّه غفورا رحيما،حيث تقول الآيه: وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّٰهَ يَجِدِ اللّٰهَ غَفُوراً رَحِيماً .

۲-يجب الانتباه إلى أنّ الآيه الأولى تشير إلى نوعين من الذنوب،حيث جاءت فيها كلمه«سوء»و كلمه«الظلم»للنفس،و لدى النظر إلى قرينه المقابله، و كذلك الأصل اللغوى لعباره«سوء»التى تعنى هنا الإضرار بالغير،يفهم من الآيه

أنّ أى نوع من الذنوب-سواء كانت من نوع الإضرار بالغير،أو الإضرار بالنفس قابله للغفران إذا تاب فاعلها توبه حقيقيه و سعى إلى التكفير عنها.

و يفهم-أيضا-من العباره القرآنيه: يَجِدِ اللّٰهَ غَفُوراً رَحِيماً إنّ التوبه الحقيقيه لها من الأثر بحيث يجد الإنسان التائب نتيجتها فى باطن نفسه،فمن ناحيه فإنّ تأنيب الضمير الذى يخلقه ارتكاب الذّنب يزول عن المذنب التائب نظرا للغفران الذى يناله من اللّه الغفور،و من جانب آخر يحسّ الإنسان التائب بالقرب إلى اللّه بسبب رحمته سبحانه و تعالى بعد أن كان يحس بالبعد عنه بسبب الذنب الذى ارتكبه.

۳-إنّ الآيه الثانيه من الآيات الثلاث الأخيره،تحكى نفس الحقيقه التى وردت بصوره إجماليه فى الآيات السابقه،حيث تؤكّد أنّ أى ذنب يقترفه الإنسان ستكون نتيجته فى النهايه على المذنب نفسه،و يكون قد أضرّ بنفسه بذنبه،إذ تقول الآيه: وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمٰا يَكْسِبُهُ عَلىٰ نَفْسِهِ... .

و فى آخر الآيه تأكيد على أنّ اللّه عالم بأعمال العباد،و هو حكيم يجازى كل إنسان بما يستحقه: وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً .

و بالصوره المارة الذكر فإنّ الذنوب مهما اختلفت فى الظاهر،فإنّ اضرارها ستلحق أحيانا بالغير و تلحق أحيانا أخرى بمرتكبها،و لكن بالتحليل النهائى، فإنّ الذنب تعود نتيجته كلها إلى الإنسان المذنب نفسه،و إن الآثار السيئه للذنب تظهر قبل كل شىء فى روح و نفس الشخص المذنب.

۴-أمّا الآيه الثّالثه من الآيات الأخيره،فهى تشير إلى خطوره خطيئه اتهام الناس الأبرياء،إذ تقول: وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتٰاناً وَ إِثْماً مُبِيناً .

و قد قسمت هذه الآيه الذنب الذى يرتكبه شخص و ينسبها زورا إلى غيره، إلى قسمين:سمت الأوّل بالخطيئه،و الثّانى بالإثم.

ص: ۴۴۰

و قـد قال المفسّرون الكثير فى شأن الفرق بين هـذين النوعين من الـذنب، و أقرب الأقوال إلى الذهن هو أنّ الخطيئه مشـتقه من الخطأ،و الذى يعنى فى الأصل:الزلل أو الذنب الذى يصدر دون قصد من صاحبه،و يكون أحيانا مشـمولا بالكفاره و الغرامه لكن معنى الخطيئه قد توسع تدريجيا،و أخذ يشـمل كل ذنب سواء المتعمد أو غير المقصود،حيث أنّ روح الإنسان لا تحتمل الذنب-أ كان عمـدا أو عن غير عمـد-و حين يصـدر الذنب من الإنسان إنّما هو فى الحقيقه نوع من الزلل و الخطأ الذى لا يناسب مقامه كإنسان.

و النتيجه من هذا القول أنّ الخطيئه لها معنى واسع يشـمل الذنب المتعمد و الذنب الصادر عن غير عمد،أمّا كلمه«إثم»فتطلق عاده على الـذنوب الصادره عن عمـد،و تعنى-فى الأصل-ذلك الشـىء الذى يمنع الإنسان من عمل معين، و لما كانت الذنوب تحول دون وصول الخيرات إلى الإنسان فقد سميت«إثما».

و تجـدر الإشاره إلى أنّ الآيه اسـتخدمت كنايه جميله بالنسـبه للتهمه،و هى أنّها جعلت الذنب فى هذا المجال كالسـهم،و جعلت نسبته إلى الغير زورا بمثابه رمى السهم صوب الهدف،و هذه إشاره إلى أنّه فى حين أن تصويب السهم نحو إنسان آخر قد يؤدى إلى القضاء عليه،فإنّ رمى الإنسان البرىء بذنب لم يقترفه يكون بمثابه رميه بسهم يقضى على سمعته التى هى بمنزله دمه.

و بـديهى أنّ وزر و عاقبه هذا العمل تكونان فى النهايه-و إلى الأبد-على عاتق الشـخص الذى ينسب التهمه زورا إلى غيره،و أن عباره«احتمل»الوارده فى الآيه تعنى أخذ على عاتقه إنّما جاءت للدلاله على ثقل و بقاء هذه المسؤوليه!

جريمه البهتان:

إنّ اتهام إنسان برىء يعتبر من أقبح الأعمال التى أدانها الإسلام بعنف،و إنّ

الآیه المذکوره أخیرا التی وردت بهذا الشأن-بالإضافه إلی الروایات الإسلامیه العدیده التی إلی جانبها-توضح رأی الإسلام الصریح عن هذا العمل.

ینقل الإمام جعفر بن محمّد الصّادق علیه السّلام عن أحد الحکماء أنّه قال: «أن البهتان علی البریء أثقل من جبال راسیات» (۱) و

نقل عنه علیه السّلام قوله: «إذا اتهم المؤمن أخاه انماث الإیمان فی قلبه کما ینماث الملح فی الماء» أی أن الإیمان یذوب و یزول من قلب المؤمن بسبب اتهامه لأخیه المؤمن،کما یذوب الملح فی الماء و یزول عن النظر (۲) .

فالتهمه و البهتان-فی الحقیقه-هما أقبح أنواع الکذب،لأنّهما بالإضافه إلی احتوائهما لمفاسد الکذب،فإنّهما أیضا یحملان أضرار الغیبه،و هما کذلک من أسوأ أنواع الظلم و الجور و لهذا السبب

یقول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بهذا الخصوص: «من بهت مؤمنا أو مؤمنه أو قال فیهما ما لیس فیهما أقامه اللّه تعالی یوم القیامه علی تل من نار حتی یخرج ممّا قاله» (۳) .

و حقیقه الأمر أن إشاعه مثل هذا العمل الجبان-فی أی محیط إنسانی کان- یؤدی فی النهایه إلی انهیار نظام العداله الاجتماعیه،و اختلاط الحق بالباطل، و تورط البریء و تبرئه المذنب،و زوال الثقه من بین الناس.

۱- ۱) -سفینه البحار،الجزء الأوّل،فی ماده بهت.
۲- ۲) -أصول الکافی،الجزء الثّانی،ص ۲۶۹،باب التهمه و سوء الظن.
۳- ۳) -سفینه البحار،الجزء الأوّل،ص ۱۱۱.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱۱۳]

اشاره

وَ لَوْ لاـ فَضْلُ اَللّٰهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طٰائِفَهٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِـلُّوكَ وَ مٰا يُضِـلُّونَ إِلاّٰ أَنْفُسَـهُمْ وَ مٰا يَضُـرُّونَكَ مِنْ شَـيْءٍ وَ أَنْزَلَ اَللّٰهُ عَلَيْكَ اَلْكِتٰابَ وَ اَلْحِكْمَهَ وَ عَلَّمَكَ مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كٰانَ فَضْلُ اَللّٰهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (۱۱۳)

التّفسیر

اشاره

فی هذه الآیه الکریمه إشاره أخری إلی حادثه«بنی الأبیرق»التی تحدثنا عنها لدی تطرقنا إلی سبب النّزول فی آیات سابقه،و هذه تؤکد أن اللّه قد صان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بفضله و رحمته-سبحانه و تعالی-من کید بعض المنافقین الذین کانوا یأتمرون به صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لیحرفوه عن طریق الحق و العدل،فکانت رحمه اللّه أقرب إلی نبیّه فصانته من کید المنافقین،حیث تقول الآیه: وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طٰائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ .

لقد سعی أولئک المنافقون-من خلال اتهامهم لشخص بریء و جرّ النّبی و توریطه فی هذه الحادثه-إلی إلحاق ضربه بشخصیه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الاجتماعیه و المعنویه أوّلا-و تحقیق مآربهم الدنیئه بحق إنسان مسلم بریء ثانیا،و لکنّ اللّه العزیز العلیم کان لهم بالمرصاد،فصان نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من تلک المؤامره و أحبط عمل المنافقین.

ص: ۴۴۳

و يذكر بعض المفسّرين سببا آخر لنزول هذه الآيه و هو أنّ جماعه من قبيله «بنى ثقيف»وردوا على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فذكروا له أنّهم مستعدون لمبايعته بشرطين:

الأوّل هو أن يرغم أفراد هذه القبيله على كسر أصنامهم بأيديهم،و الثّانى أن يسمح النّبى لهم بأن يواصلوا عباده صنمهم(العزى)لسنه واحده أخرى!فنزل أمر اللّه على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا يبدى أيه مرونه أمام هؤلاء،حيث نزلت الآيه المذكوره و أعلنت بأن فضل اللّه و رحمته قد شملت النّبى و صانته من تلك الوساوس.

بعد ذلك تذكر الآيه أن هؤلاء القوم إنّما يرمون بأنفسهم فى الضلاله و لا يضرّون بعملهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شيئا،إذ تقول... وَ مٰا يُضِلُّونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ... .

و أخيرا توضح الآيه سبب عصمه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن الخطأ و الزلل و الذنب، فتذكر أنّ اللّه أنزل على نبيّه الكتاب و الحكمه و علمه ما لم يكن يعلم من قبل:

وَ أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مٰا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ...

ثمّ تردف الآيه ذلك بجمله: وَ كٰانَ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكَ عَظِيماً .

مصدر عصمه الأنبياء!:

إنّ هذه الآيه الأخيره من الآيات التى تشير إلى عصمه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن ارتكاب الخطأ و السهو و الذنب،فتقول بأنّ العون الإلهى الذى شمل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو الذى صانه من الخطأ و الضلاله التى كان يريد المنافقون أن يوقعوه فيهما، و لكنّهم و بفضل هذه المعونه الإلهيه عجزوا عن تحقيق مآربهم،و لم يلحق النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أى ضرر نتيجه كيد المنافقين.

و هكذا فقد عصم اللّه نبيّه و صانه من كل خطأ أو سهو أو ذنب،كى يستطيع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يصبح قدوه و أسوه للامّه الإسلاميه و نبراسا لها فى فعل الخيرات

ص :۴۴۴

و الحسنات،و قد صانه اللّه العزيز القدير من عواقب كل خطأ يحتمل أن يقع فيه أى زعيم،لكى يبعد الأمّه الإسلاميه عن الحيره فى قضيه إطاعه الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و ليجنبها التناقض بين فعلى الطاعه و عدمها،نعم لقد عصم اللّه نبيّه محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من كل خطأ،لكى يضمن له ثقه المسلمين الكامله به،حيث تعتبر هذه الثقه من أولويات شروط الزعامه الإلهيه.

و قد ورد فى آخر الآيه دليل من الأدله الأساسيه لقضيه العصمه بشكل مجمل،و هذا الدليل هو قوله تعالى أنّه علم نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من العلوم و المعارف التى يكون النّبى فى ظلها مصونا من الوقوع فى أى خطأ أو زلل،و لأنّ العلم و المعرفه تكون نتيجتهما فى المرحله النهائيه حفظ الإنسان من ارتكاب الخطأ.

فالطبيب-مثلا-لا يقدم أبدا على شرب ماء ملوث بأنواع الجراثيم الفتاكه، بعد أن أجرى عليه الفحوصات المختبريه و اكتشف تلوثه بتلك الجراثيم الخطيره.

نستنتج من هذا المثل أنّ علم الطب الذى تعلمه هذا الطبيب،هو السبب فى حفظه و منعه من شرب الماء الملوث بالجراثيم القاتله،فقد وفّر هذا العلم العصمه و المصونه للطبيب حيال ارتكاب مثل هذا الخطأ،لكن الإنسان الذى يجهل خطوره ذلك الماء يحتمل كثيرا أن يقدم على شربه.

و هكذا يتبيّن أنّ مصدر الكثير من الأخطاء هو الجهل بمقدمات العمل أو مستلزماته أو عواقبه،لذلك فإنّ من يحاط عن طريق الوحى الإلهى إحاطه كامله بالقضايا المختلفه و مقدماتها و مستلزماتها و عواقبها لن يقع فى خطأ،و لن يرتكب أى زلل أبدا،و لن يضل الطريق،و لن يمارس ذنبا مطلقا.

و يجب أن لا نقع فى الوهم هنا،فإنّ هذا العلم الذى بحوزه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من جانب اللّه سبحانه و تعالى ليس عملا- مفروضا و لا- يحمل طابع القسر و الإجبار، أى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس مجبورا أبدا على أن يعمل بعلمه،بل أنّه يمارس عمله بكامل اختياره،فكما أنّ الطبيب الذى ذكرناه فى مثلنا السابق مع علمه بحاله

الماء الملوث فإنّه ليس مرغما على عدم شرب هذا الماء،بل هو بإرادته المطلقه يمتنع عن شربه.

و إذا تساءل أحد:لما ذا شمل اللّه نبيّه وحده بهذا الفضل الإلهی،و لم يشمل الآخرين؟ كان الجواب:إنّ ذلک قد حدث للمسؤوليه العظيمه و الخطيره التی تتضمنها القياده التی أنيطت بالنّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و حمل أعبائها الثقيله علی عاتقه،و لأن الآخرين لا يحملون مثل هذه الأعباء الثقيله،لذلک فإن اللّه اللطيف الخبير يهب لعبده من القدره و الطاقه بمقدار ما يضع علی عاتق هذا العبد من مسئوليات،و لن يكلف اللّه نفسا إلّا وسعها فيجب التعمق فی هذا الأمر.

ص :۴۴۶

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱۱۴]

اشاره

لاٰ خَیْرَ فِی کَثِیرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ إِلاّٰ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَهٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاٰحٍ بَیْنَ اَلنّٰاسِ وَ مَنْ یَفْعَلْ ذٰلِکَ اِبْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِ اَللّٰهِ فَسَوْفَ نُؤْتِیهِ أَجْراً عَظِیماً (۱۱۴)

التّفسیر

اشاره

النجوی أو الهمس:

لقد أشارت الآیات السابقه إلی اجتماعات سریه شیطانیه کان یعقدها بعض المنافقین أو أشباههم،و قد تطرقت الآیه الأخیره إلی هذا الأمر بشیء من التفصیل،و کلمه«النجوی»لا تعنی الهمس فقط،بل تطلق علی کل اجتماع سری أیضا،لأنّها مشتقه من الماده«نجوه»علی وزن«دفعه»أی بمعنی الأرض المرتفعه،و بما أنّ الأرض المرتفعه تکون شبه معزوله عن الأراضی التی حولها، و أن الجلسات السریه و الهمس یتمّان بمعزل عن الأفراد الذین یکونون فی الأراضی المحیطه بها سمّیت هذه الأخیره بالنجوی.

و یری بعضهم أنّ کلمه«النجوی»مشتقه من ماده«النجاه»أی التحرر، و بمعنی أن البقعه المرتفعه تکون بمنأی و منجی عن خطر السیل،و إن الاجتماع السری أو الهمس یکونان بمنجی من معرفه الآخرین.

ص: ۴۴۷

و الآیه هنا تـذکر أنّ أغلب الاجتماعات السـرّیه التی یعقـدها أولئک تهدف إلی غایات شـیطانیه شـریره لا خیر فیها و لا فائده،إذ تقول: لاٰ خَیْرَ فِی کَثِیرٍ مِنْ نَجْوٰاهُمْ .

و لکی لاـ یحصـل و هم من أن کـل نجوی أو همس أو اجتماع سـری یعتبر عملا مـذموما أو حراما جاءت الآیه بأمثال کمقـدمه لبیان قانون کلی،و أوضـحت الموارد التی تجوز فیها النجوی،مثل أن یوصـی الإنسان بصـدقه أو بمعونه للآخرین أو بالقیام بعمل صالح أو أن یصلح بین الناس،فتقول الآیه فی هذا المجال: إِلاّٰ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَهٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاٰحٍ بَیْنَ النّٰاسِ .

فإذا کان هذا النوع من النجوی أو الهمس أو الاجتماعات السـرّیه لا یشوبه الریاء و التظاهر،بل کان مخصـصا لنیل مرضاه اللّه،فإنّ اللّه سیخصـص لمثـل هـذه الأعمـال ثوابـا و أجرا عظیما،حیث تقول الآیه: وَ مَنْ یَفْعَلْ ذٰلِکَ ابْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِ اللّٰهِ فَسَوْفَ نُؤْتِیهِ أَجْراً عَظِیماً .

و قـد عرف القرآن النجوی و الهمس و الاجتماعـات السرّیه-من حیث المبـدأ -بأنّهـا من الأعمال الشّیطانیه،فی قوله تعالی: إِنَّمَا النَّجْویٰ مِنَ الشَّیْطٰانِ... (۱)

و السبب هو أنّ هذه الأعمال غالبا ما تحدث لأغراض سـیئه،و حیث أنّ عمل الخیر و الشیء النافع و الإیجابی لا یحتاج فی العاده إلی أن یکون-أو یبقی-سـرّیا أو مکتوما عن الناس،و لـذلک فلا حاجه بالتحدث عن مثل هذه الأعمال بالهمس و النجوی،أو فی اجتماعات سرّیه.

و لمّا کان من المحتمل أن تطرأ ظروف اسـتثنائیه تجبر الإنسان علی الاسـتفاده من أسـلوب النجوی فی أعمال الخیر،لـذلک ورد الاستثناء بصوره مکرره فی القرآن،کما فی قوله تعالی:

۱- ۱) -المجادله،۱۰.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَهِ الرَّسُولِ وَ تَناجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوى...

(۱)

.

و النجوى إذا حصلت ابتداء فى جمع من الناس،أثارت لديهم سوء الظّن حيالها،حتى أنّ سوء الظن قد يبدر من الأصدقاء حيال النجوى التى تحصل بينهم،و على هذا الأساس فإنّ الأفضل أن لا يبادر الإنسان إلى النجوى إلاّ إذا اقتضت الضروره ذلك،و هذه هى فلسفه هذا الحكم الوارد فى القرآن.

و بديهى أنّ سمعه الإنسان تستلزم-أحيانا-اتباع أسلوب النجوى،و من جمله هذه الموارد تأتى مسأله الصدقات أو المعونات الماليه،التى أجاز القرآن استخدام النجوى بشأنها لحفظ ماء الوجه و سمعه الأشخاص الذين يتلقون هذه المعونات.

و المجال الآخر للنجوى هو عند الأمر بالمعروف،حيث أنّ هذا الأمر لو تمّ أحيانا بصوره علنيه لأصبح سببا فى فضيحه أو خجل الشخص المخاطب بالمعروف بين الناس الحاضرين،و قد يصبح سببا فى أن يمتنع عن قبول ذلك و يقاوم هذا الأمر الذى عبّرت عنه الآيه بالمعروف.

و الحاله الأخرى التى يجوز فيها النجوى هى فى مجال الإصلاح بين الناس، الذى يقتضى أن يكون سريا أحيانا لضمان تحقيقه،إذ من الممكن لو أنّ الأمر تمّ بصوره علنيه لحال دون حدوث الإصلاح،لذلك يجب أن يتمّ الإصلاح بالتحدث إلى كل طرف من أطراف النزاع بصوره خفيه،أى بطريق النجوى.

إذن فالنجوى جائزه و قد تكون ضروريه فى الحالات الثلاث التى مر الحديث عنها،و كذلك فى حالات مشابهه.

و الملفت للنظر فى الحالات الثلاث المذكوره أعلاه هو أنّها تأتى كلها ضمن معنى«الصدقه»و ذلك لأنّ من يأمر بالمعروف إنّما يدفع زكاه علمه،و من يسعى فى إصلاح ذات البين يدفع بذلك زكاه قدرته و منزلته المؤثره فى الناس.

۱- ۱) -المجادله،۹.

و

قد نقل عن علی بن أبی طالب أمیر المؤمنین علیه السّلام قوله: «إنّ اللّه فرض علیکم زکاه جاهکم کما فرض علیکم زکاه ما ملکت أیدیکم» (۱) .

و

نقل عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قوله لأبی أیوب: «أ لا أدلک علی صدقه یحبّها اللّه و رسوله تصلح بین الناس إذا تفاسدوا و تقرب بینهم إذا تباعدوا» (۲) .

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،الجزء الأوّل،ص ۵۵۰،و فی کتب أخری للتفسیر.

۲- ۲) -تفسیر القرطبی،الجزء الثّالث ص ۱۹۵۵ فی شرح الآیه.

الآيه [سوره النساء (۴): آيه ۱۱۵]

اشاره

وَ مَنْ يُشاقِقِ اَلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُ اَلْهُدىٰ وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ اَلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مٰا تَوَلّٰى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ سٰاءَتْ مَصِيراً (۱۱۵)

سبب النّزول

لقد قلنا فى سبب نزول الآيه السابقه:إنّ بشير بن الأبيرق كان قد سرق من أحد المسلمين،و أتهم إنسانا بريئا بهذه السرقه،و استطاع بالأجواء المزيفه التى اختلقها أمام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يبرئ نفسه،و لكن حين نزلت تلك الآيات افتضح أمره،فبدلا من أن يختار طريق التوبه بعد فضيحته،سار فى طريق الكفر و ارتد عن الإسلام بصوره علنيه رسميه.

فنزلت الآيه الأخيره متضمنه إشاره إلى هذا الموضوع،بالإضافه إلى بيانها لحكم إسلامى عام و كلى.

التّفسير

اشاره

حين يرتكب الإنسان خطأ و يدرك هذا الخطأ،فليس أمامه سوى طريقين:

أحدهما:طريق العوده و التوبه التى أشارت الآيات السابقه إلى أثرها فى

غسل الذنوب عن الإنسان.

و الطّريق الثّانى:هو أن يسلك الإنسان سبيل العناد،و قد أشارت الآيه الأخيره إلى الآثار و العواقب السيئه لهذا الطريق،حيث أعلنت أنّ من يواجه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالعناد و المخالفه بعد وضوح الحق له،و يسير فى طريق غير طريق المؤمنين فإنّ اللّه سوف لن يهديه إلى غير هذا الطريق،و سيرسله اللّه فى يوم القيامه إلى جهنم، و ما أسوأ هذا المكان الذى ينتظره!فتقول الآيه: وَ مَنْ يُشٰاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدىٰ وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مٰا تَوَلّٰى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ سٰاءَتْ مَصِيراً .

و يجب الانتباه إلى أنّ عباره يُشٰاقِقِ مأخوذه من ماده«شقاق»بمعنى المخالفه الصريحه المقرونه بالحقد و الضغينه و تؤكّد جمله مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدىٰ هذا المعنى أيضا،و فى الحقيقه فإنّ من يكون هذا شأنه فلن يلقى مصيرا خيرا ممّا ذكرته الآيه له،مصير ينطوى على نهايه مشؤومه له فى هذه الدنيا و عاقبه سيئه أليمه فى الدار الآخره،فهو فى الدنيا-كما تقول الآيه-يستمر منجرفا فى الطريق الأعوج الذى اختاره،فتتوسع بذلك زاويه انحرافه عن جاده الحق و الصواب،و هذا الطريق هو الذى اختاره لنفسه و البناء الذى وضع أساسه بيده،و لهذا لم يكن قد وقع عليهم أى ظلم من الخارج.

و أمّا بالنسبه لقول الآيه: نُوَلِّهِ مٰا تَوَلّٰى فهو إشاره إلى حرمان هؤلاء من التوفيق المعنوى،لتمييز الحقّ،و مواصلتهم السير فى طريق الضلاله،و قد بيّنا تفاصيل هذا الموضوع لدى الحديث عن تفسير الهدايه و الضلاله فى الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا.

و حين تقول الآيه: نُصْلِهِ جَهَنَّمَ فهى تشير إلى مصير هؤلاء يوم القيامه.

و هناك تفسير آخر حول جمله نُوَلِّهِ مٰا تَوَلّٰى و هو أن هؤلاء و أمثالهم، يوكل أمرهم إلى الآلهه المصطنعه التى انتخبوها لأنفسهم.

ص:۴۵۲

حجیه الإجماع:

یعتبر الإجماع أحد الأدله الفقهیه الأربعه،و هو بمعنی اتفاق علماء و مفکری الإسلام حول مسأله فقهیه.و ذکروا فی علم أصول الفقه أدله مختلفه لإثبات حجیه الإجماع،و من ضمنها الآیه الأخیره التی مرّ البحث فی تفسیرها،إذ یعتبرها البعض دلیلا علی حجیه الإجماع لأنّها تقول أنّ من یختار طریقا غیر طریق المؤمنین سیکون له مصیر مشؤوم أسود فی الدنیا و الآخره.

و بناء علی هذه الآیه،فإنّ أی طریق یختاره المؤمنون-فی أی مسأله کانت -یجب علی الجمیع السیر فی هذا الطریق.

و الحقیقه أنّ هذه الآیه لا صله لها بمسأله حجیه الإجماع،لا من قریب و لا من بعید(و طبیعی إنّنا نقبل حجّیه الإجماع الذی یکشف لنا عن قول المعصوم، و لکننا نعتبر حجیه السنه و قول المعصوم دلیلا لحجیه هذا الإجماع،و لیس الآیه المذکوره).

و السبب فی عدم قبولنا دلاله هذه الآیه علی حجیه الإجماع،هو أنّها تعین أوّلا:عقوبات للأشخاص الذین یخالفون النّبی صراحه و عن علم و إدراک، و یختارون طریقا غیر طریق المؤمنین،فهذان العنصران یشکّلان باتحادهما العلّه لذلک المصیر المشؤوم،مع التأکید بأن هذا المصیر إنّما یتحقق لدی اختیار الشخص للعنصرین المذکورین عن علم و درایه.و لیس لهذا الموضوع أیه صله بمسأله حجیه الإجماع،و لا یدل بوحده علی هذه الحجیه.

و الأمر الثّانی:هو أنّ المقصود بعباره سَبِیلِ الْمُؤْمِنِینَ الوارده فی الآیه،هو طریق التوحید و الخضوع للّه وحده،و هو مبدأ الإسلام، و لیس معناه الفتاوی الفقهیه أو الأحکام الفرعیه،و هذه الحقیقه یثبتها ظاهر الآیه بالإضافه إلی ما قیل فی سبب نزولها.

و الحقیقه هی أنّ السیر فی طریق غیر طریق المؤمنین لا یتجاوز عن کونه

مخالفه للنّبی،و کلا العنصرین یعودان إلی موضوع واحد.

و ینقل أنّه حین کان أمیر المؤمنین علی علیه السّلام فی الکوفه،جاءه جمع من الناس و طلبوا منه أن یعین لهم إماما لصلاه الجماعه(لکی یصلوا خلفه صلاه التراویح جماعه،حیث کان عمر بن الخطاب فی زمانه قد أمر بأن تصلّی هذه الصّلاه جماعه)و ما کان من الإمام غیر أن یمتنع عمّا طلبوا منه،و نهی عن إقامه جماعه کتلک(لأن الجماعه لم تشرع فی النوافل)لکن هذه الجماعه التی سمعت الحکم الصریح الحازم من الإمام علی علیه السّلام أصرّت علی عنادها،و أخذت بالصراخ و العویل،داعیه الناس إلی الإحتجاج علی حکم الإمام.

فجاءت جماعه أخری إلی الإمام علی علیه السّلام و أخبرته بما أخذ یفعله أولئک القوم و بعصیانهم لأمره،فطلب أن یترکوا و شأنهم لیختاروا من شاؤوا لیصلّی بهم تلک الجماعه غیر الشرعیه (1) ثمّ تلی الإمام هذه الآیه الأخیره،و فی هذا الخبر دلیل آخر علی التّفسیر الذی تحدثنا عنه بالنسبه لهذه الآیه.

۱- ۱) -نور الثقلین،الجزء الأوّل،ص ۵۵۱.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱۱۶]

اشاره

إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِکَ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ مَنْ یُشْرِکْ بِاللّٰهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً بَعِیداً (۱۱۶)

التّفسیر

اشاره

الشّرک ذنب لا یغتفر:

تشیر هـذه الآـیه مره أخری إلی خطوره جریمه الشـرک الـذی یعتبر ذنبـا لا یغتفر و لا یتصور وجود ذنب أعظم منه،و یأتی هـذا البحث بعد أن تحدثت الآیات السابقه عن المنافقین و المرتدین الذین ینساقون بعد إسلامهم إلی الکفر.

و لقـد مرّ ما یشابه مضـمون هـذه الآیه،فی نفس سوره النساء فی الآیه(۴۸) و مـا إعاده تکرار مثل هـذه المسائل التربویه إلا دلیل علی بلاغه القرآن،لأنّ المسائل الأساسیه تستلزم التکرار فی فواصل مختلفه بغیه ترسیخها فی الأذهان و النفوس.

و الحقیقـه أنّ الـذنوب تشـبه سـائر الأـمراض،فمـا دام المرض لـم یهـاجم موقعـا مهمـا فی جسـم الإنسـان و لـم یشـل أحـد هـذه المواقع،کانت القدره الدفاعیه للجسم تحمل معها الشفاء و التحسن،و لکن لو هاجم المرض مرکزا حساسا فی جسم الإنسان-مثل الدماغ-و أوجد نتیجه لذلک شللا فی الجسم،فإنّ أبواب الأمل

ص: ۴۵۵

بالشفاء و التحسن قد تغلق فی مثل هذه الحاله التی تنذر بقدوم الموت المحتم.

و الشرک کهذا المرض الأخیر یشل مرکزا حساسا فی روح الإنسان،و ینشر الظلمه فی نفسه،و إذا استمر الشرک فلا أمل یرتجی فی نجاه الإنسان،بینما لو بقیت حقیقه التوحید و عباده الواحد الأحد التی هی ینبوع کل فضیله و حرکه...

لو بقیت هذه الحقیقه حیه فلا یعدم الإنسان الآمل فی غفران ذنوبه الأخری،و فی هذا المجال تقول الآیه الکریمه: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِکَ لِمَنْ یَشٰاءُ .

و قد قلنا:بأنّ هذه الآیه قد تکررت مرّتین فی هذه السوره،و ما ذلک إلاّ لتزیل آثار الشرک و الوثنیه-و إلی الأبد-من نفوس أولئک الناس الذین ظل الشرک یعشش فی أعماق نفوسهم لآماد طویله،و لتظهر آثار التوحید المعنویه و المادیه علی وجوه هؤلاء.

و لکن تتمه الآیتین تختلف فی إحداهما عن الأخری اختلافا طفیفا،حیث تقول الآیه الأخیره: وَ مَنْ یُشْرِکْ بِاللّٰهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً بَعِیداً بینما الآیه السابقه تقول: وَ مَنْ یُشْرِکْ بِاللّٰهِ فَقَدِ افْتَریٰ إِثْماً عَظِیماً .

و فی الحقیقه فإنّ الآیه السابقه تشیر إلی الفساد العظیم الذی ینطوی علیه الشرک فیما یخص الجانب الإلهی،و معرفه اللّه،أمّا الآیه الأخیره فقد بیّنت الأضرار التی یلحقها الشرک بنفس الإنسان و التی لا یمکن تلافیها،فهناک تبحث الآیه فی الجانب العلمی من القضیه،و هنا تتناول الآیه الأخیره الجانب العملی منها و نتائجها الخارجیه.

و یتّضح من هذا أنّ الآیتین تعتبر إحداهما بالنسبه للأخری بمثابه اللازم و الملزوم بحسب الاصطلاح(و قد اشتمل الجزء الثّالث من نفس هذا التّفسیر علی توضیحات أکثر حول هذه الآیه).

ص :۴۵۶

الآيات [سوره النساء (۴): الآيات ۱۱۷ الی ۱۲۱]

اشاره

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ إِناثاً وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلاّ شَيْطاناً مَرِيداً (۱۱۷) لَعَنَهُ اَللّهُ وَ قالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (۱۱۸) وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ اَلْأَنْعامِ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اَللّهِ وَ مَنْ يَتَّخِذِ اَلشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اَللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً (۱۱۹) يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ اَلشَّيْطانُ إِلاّ غُرُوراً (۱۲۰) أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ لا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً (۱۲۱)

التّفسیر

اشاره

مكائد الشّيطان:

إنّ الآيه الأولى-من مجموع الآيات الخمس الأخيره-تشرح أوضاع المشركين الذين أشارت إليهم الآيه السابقه لهذه الأخيره،و هذه الآيه إنّما تبيّن سبب ضلال المشركين،فتذكر أنّهم يعانون من ضيق شديد فى أفق تفكيرهم،إذ يتركون عباده اللّه خالق و منشئ عالم الوجود الوسيع،و يخضعون أمام المخلوقات التى لا تملك أقل أثر إيجابى فى الوجود،بل هى-أحيانا مضلله كالشّيطان: إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ إِناثاً وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلاّ شَيْطاناً مَرِيداً .

و ممّا يلفت النظر أن هذه الآيه تحصر أصنام المشركين بنوعين من المخلوقات هما«إناث»و«شيطان مريد».

و كلمه«إناث»مشتقه من المصدر«أنث»على وزن«أدب»و تعنى المخلوق الرقيق اللطيف و المرن،و لهذا السبب فإنّ العرب تقول:«أنث الحديد»إذا لانّ فى النار،و قد سمى جنس المرأه ب«الإناث»لأنّها أكثر رقّه و لطفا و لينا من الرجل.

لكن بعض المفسّرين يرى هنا-أنّ القرآن يشير فى هذه الآيه إلى أصنام كانت معروفه لدى قبائل العرب حيث انتخبت كل قبيله صنما من هذه الأصنام و وضعت له اسما مؤنثا.فالصنم«اللات»سمّى هكذا ليكون مؤنثا لكلمه لفظ الجلاله«اللّه»،أمّا الصنم«عزى»فهو مؤنث كلمه«أعز»و كذلك أصنام أخرى مثل«مناه»و«نائله»و أمثالها.

بينما يرى بعض آخر من كبار المفسّرين أنّ القصد من كلمه«إناث»الوارده فى الآيه ليس المعنى المعروف بالمؤنث،بل أنّ القصد منها هو الجذر اللغوى الذى اشتقت منه هذه اللفظه،أى أنّ المشركين يعبدون مخلوقات ضعيفه و مطاوعه بين يدى الإنسان،و أن وجود هذه المخلوقات بكاملها قابل للتأثر و الانحناء أمام الأحداث،و بعباره أوضح:أنّها موجودات لا تملك الإراده و الإختيار و لا تنفع و لا تضرّ شيئا أبدا.

أمّا كلمه«مريد»و هى من حيث الجذر اللغوى مأخوذه من ماده«مرد» بمعنى سقوط أوراق و أغصان الشجر،و لهذا سمّى الشاب اليافع الذى لم ينبت الشعر فى وجهه بالأمرد،و على هذا فإنّ الشيطان المريد يعنى ذلك الشيطان الذى سقطت منه جميع صفات الفضيله،و لم يبق فى وجوده شىء من مصادر القوّه.

أو قد تكون هذه الكلمه مأخوذه من الأصل«مرود»بمعنى الطغيان و الجبروت،أى أن معبود هؤلاء الوثنيين هو شيطان متكبر متجبر.

و الحقيقه أنّ القرآن قسم أصنام هؤلاء المشركين إلى نوعين:بعضها ضعيف

الإراده مطلقا،و البعض الآخر طاغ متكبر متجبر،لكى يبيّن أن الذى يسلم قياده و يخضع لمثل هذه الأصنام إنّما يعيش فى ضلال واضح مبين.

بعد ذلك كله تشير الآيه إلى صفات الشيطان و أهدافه و عدائه الخاص لأبناء آدم و تتناول بالشرح بعضا من خططه الدنيئه،و قبل كل شيء تؤكد أن اللّه قد أبعد الشيطان عن رحمته لَعَنَهُ اللّٰهُ .

و فى الحقيقه فإنّ أساس شقاء و تعاسه الشيطان هو البعد عن رحمه اللّه،التى أصابته بسبب غروره و تكبره المفرطين،و بديهى أنّ من يكون بعيدا عن رحمه اللّه كالشيطان،يكون خاويا من كل خير أو حسن،و لا يمكنه أن يترك خيرا أو حسنا فى حياه غيره،و فاقد الشيء لا يعطيه،فهو لن يكون غير نافع فحسب،بل سيكون ضارا أيضا.

ثمّ تذكر الآيه التاليه أنّ الشيطان قد أقسم على أن ينفذ بعضا من خططه:

أوّلها:أن يأخذ من عباد اللّه نصيبا معينا،حيث تقول الآيه حاكيه قول الشيطان: وَ قٰالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبٰادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً فالشيطان يعلم بعجزه عن إغواء جميع عباد اللّه،لأنّ من يستسلم لإراده الشيطان و يخضع له هم فقط أولئك المنجرفون وراء الأهواء و النزوات،و الذين لا إيمان لهم،أو ضعاف الإيمان.

و الثّانيه:خطط الشيطان تلخصها الآيه بعباره: وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ .

و الثّالثه:اشغلهم بالامنيات العريضه و طول الأمل وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ (۱) .

أمّا الخطّه الرّابعه:ففيها يدعو الشيطان اتباعه إلى القيام بأعمال خرافيه،مثل قطع أو خرق أذان الحيوانات كما جاء فى الآيه: وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذٰانَ الْأَنْعٰامِ و هذه إشاره لواحد من أقبح الأعمال التى كان يرتكبها الجاهليون

۱- ۱) -إنّ عباره«و لامنّينّهم»تعود إلى المصدر«منى»على وزن«منع»و تعنى قياس الشيء أو تقييمه،و لكنّها ترد فى أغلب الأحيان لتعنى القياس و التقييم و الآمال الوهميه و الخياليه أمّا النطفه التى تسمّى ب«منى»فمعناها أن قياس تركيب أولى الموجودات الحسيه قد تمّ فيها.

المشركون،حيث كانوا يقطعون أو يخرقون أذان بعض المواشى،و كانوا يحرمون على أنفسهم ركوبها بل يحرمون أى نوع من أنواع الانتفاع بهذه الحيوانات.

و خامس:الخطط التى أقسم الشيطان أن ينفذها ضد الإنسان،هى ما ورد على لسانه فى الآيه إذ تقول: وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ... و هذه الجمله تشير إلى أنّ اللّه قد أوجد فى فطره الإنسان منذ خلقه إياه-النزعه إلى التوحيد و عباده الواحد الأحد،بالإضافه إلى بقيه الصفات و الخصال الحميده الأخرى، و لكن وساوس الشيطان و الانجراف وراء الأهواء و النزوات تبعد الإنسان عن الطريق المستقيم الصحيح،و تحرفه إلى الطرق المعوجه الشاذه.

و الشاهد على و القول أيضا الآيه(٣٠)من سوره الرّوم،إذ تقول: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِى فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ .

و نقل عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه فسّره بأنّ القصد من التغيير المذكور فى هذه الآيه من سوره النساء هو تغيير فطره الإنسان و حرفها عن التوحيد و عن أمر اللّه (١) .

و هذا الضرر الذى لا يمكن التعويض عنه،يلحقه الشيطان بأساس سعاده الإنسان،لأنّه يعكس له الحقائق و الوقائع و يستبدلها بمجموعه من الأوهام و الخرافات و الوساوس التى تؤدى إلى تغيير السعاده بالشقاء للناس،و قد أكّدت الآيه فى آخرها مبدأ كليا،و هو أنّ أى إنسان يعبد الشيطان و يجعله لنفسه وليا من دون اللّه،فقد ارتكب إثما و ذنبا واضحا إذ تقول الآيه: وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً .

و الآيه التى تلت هذه الآيه جاءت ببعض النقاط بمثابه الدليل على ما جاءت به الآيه السابقه حيث ذكرت أنّ الشيطان يستمر فى إعطائه الوعود الكاذبه

١- ١) -تفسير التبيان،الجزء الثّالث،ص ٣٣۴.

لأولئک و یمنیهم الأمنیات الطوال العراض،و لکنه لا یفعل شیئا بالنسبه لهؤلاء غیر الإغواء و الخداع: یَعِدُهُمْ وَ یُمَنِّیهِمْ وَ مٰا یَعِدُهُمُ الشَّیْطٰانُ إِلاّٰ غُرُوراً (۱) .

و بیّنت آخر آیه من الآیات الخمس الأخیره مصیر اتباع الشیطان،بأنّهم ستکون نتیجتهم السکنی فی جهنم التی لا یجدون منها مفرا أبدا،فتقول الآیه:

أُولٰئِکَ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ لاٰ یَجِدُونَ عَنْهٰا مَحِیصاً

(۲)

.

۱- ۱) -الغرور یعنی فی الأصل الأثر الواضح للشیء،و لکنه یطلق فی الغالب علی الآثار التی لها ظاهر خادع و باطن کریه،و یطلق علی کل شیء یخدع الإنسان مثل المال و الجاه و السلطان التی تبعد الإنسان عن الحق و عن جاده الصواب علی أنّه ماده للغرور.

۲- ۲) -المحیص مشتق من المصدر«حیص»و یعنی العدول و الانصراف عن الشیء،و علی هذا الأساس فإن المحیص هو وسیله الانصراف و الفرار.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱۲۲]

اشاره

وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها أَبَداً وَعْدَ اَللّهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اَللّهِ قِیلاً (۱۲۲)

التّفسیر

لقد بیّنت الآیات السابقه أنّ الذین یتخذون الشیطان ولیا لهم،إنّما ینالهم ضرر واضح و مبین،و أنّ الشیطان یعدهم زیفا و خداعا و یلهیهم بالأمنیات الواهیه الخیالیه الطویله العریضه،و إن وعد الشیطان مکر و خداع لا غیر.

أمّا فی هذه الآیه الأخیره-التی هی موضوع بحثنا الآن-فقد بیّنت مقابل أولئک فی النهایه أعمال المؤمنین و الثواب الذی سینالونه یوم القیامه،من جنّات و بساتین و أنهار تجری فیها،حیث تقول الآیه: وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ .

و إنّ هذه النعمه العظیمه دائمه أبدا،و لیست کنعم الدنیا الزائله،فالمؤمنون فی الجنّه یتمتعون بما أوتوه من خیر دائما أبدا،تؤکّد هذه بعباره خالِدِینَ فِیها أَبَداً .

و إنّ هذا الوعد وعد صادق و لیس کوعود الشیطان الزّائفه،حیث تقول الآیه:

وَعْدَ اللّهِ حَقًّا

.

و بـديهى أنّ أى فرد لا يستطيع -أبـدا-أن يكون أصـدق قولا من اللّه العزيز القدير فى وعوده و فى كلامه،كما تقول الآيه: وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً و طبيعى أنّ عدم الوفاء بالوعد ناتج إمّا عن العجز و إمّا الجهل و الحاجه،و اللّه سبحانه و تعالى منزه عن هذه الصفات.

الآيتان [سوره النساء (۴): الآيات ۱۲۳ الی ۱۲۴]

اشاره

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَ لاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ اَلْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اَللَّهِ وَلِيًّا وَ لاَ نَصِيراً (۱۲۳) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ اَلصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ اَلْجَنَّهَ وَ لاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً (۱۲۴)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر مجمع البیان-و تفاسیر أخری-أنّ المسلمین و أهل الکتاب کانوا یتفاخرون بعضهم علی بعض،فکان أهل الکتاب یتباهون بکون نبیّهم قد بعث قبل نبیّ الإسلام و إن کتابهم أسبق من کتاب المسلمین،بینما کان المسلمون یفتخرون علی أهل الکتاب بأنّ نبیّهم هو خاتم الأنبیاء و أن کتابه هو آخر الکتب السماویه و أکملها.

و فی روایه أخری،نقل أنّ الیهود کانوا یدعون أنّهم هم الشعب المختار،و أنّ نار جهنم لا تمسّهم إلاّ لأیّام معدودات،کما ورد فی سوره البقره-الآیه(۸۰) وَ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا اَلنَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَهً... و أن المسلمین کانوا یقولون،ردّا علی کلام الیهود هذا:بأنّهم خیر الأمم لأنّ اللّه قال فی شأنهم: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّهٍ

أَخْرِجَتْ لِلنّاسِ...

(١)

و لذلک نزلت الآیه الأخیره هذه و دحضت کل تلک الدعاوی و حددت قیمه کل شخص بما یقوم به من أعمال.

التّفسیر

اشاره

امتیازات حقیقیه و أخری زائفه:

لقد بیّنت هذه الآیه واحدا من أهم أعمده أو أرکان الإسلام،هو أنّ القیمه الوجودیه لأی إنسان و ما یناله من ثواب أو عقاب،لا تمت بصله إلی دعاوی و أمنیات هذا الإنسان مطلقا،بل أن تلک القیمه ترتبط بشکل وثیق بعمل الإنسان و إیمانه و أنّ هذا مبدأ ثابت،و سنّه غیر قابله للتغییر،و قانون تتساوی الأمم جمیعها أمامه،و لذلک تقول الآیه فی بدایتها: لَیْسَ بِأَمٰانِیِّکُمْ وَ لاٰ أَمٰانِیِّ أَهْلِ الْکِتٰابِ... و تستطرد فتقول: مَنْ یَعْمَلْ سُوءاً یُجْزَ بِهِ وَ لاٰ یَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَلِیًّا وَ لاٰ نَصِیراً .

و کذلک الذین یعلمون الخیر،و یتمتعون بالإیمان،سواء أ کانوا من الرجال أو النساء-فإنّهم یدخلون الجنّه و لا یصیبهم أقل ظلم أبدا،حیث تقول الآیه: وَ مَنْ یَعْمَلْ مِنَ الصّٰالِحٰاتِ مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثیٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِکَ یَدْخُلُونَ الْجَنَّهَ وَ لاٰ یُظْلَمُونَ نَقِیراً (٢) .

و بهذه الصوره یعمد القرآن إلی نبذ کل العصبیات بکل بساطه،معتبرا الاعتبارات و الارتباطات المصطنعه الخیالیه و الاجتماعیه و العرقیه و أمثالها خاویه من کل قیمه إذا قیست برساله دینیه،و یعتبر الإیمان بمبادئ الرساله و العمل بأحکامها هو الأساس.

و فی تفسیر الآیه الأولی من الآیتین الأخیرتین حدیث نقلته مصادر الشیعه

۱- ۱) -آل عمران،۱۱۰.

۲- ۲) -لقد أوضحنا المراد من عباره«نقیر»فی تفسیر الایه ۵۳ من نفس هذه السوره.

و السنّه،مفاده أنّ المسلمين حين نزلت هذه الآيه استولى عليهم الرعب و أخذوا يبكون خوفا،لمعرفتهم بأنّ الإنسان معرض للخطأ و يحتمل كثيرا صدور ذنوب منه،فلو فرض عدم وجود عفو أو غفران و أن يؤاخذ كل إنسان بجريرته،فإنّ الأمر سيكون فى غايه الصعوبه،لذلك لجؤوا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فذكروا له أن هذه الآيه قد أفقدتهم كل أمل،فأقسم النّبى لهم باللّه أنّه ما جاءت به الآيه هو الصحيح، و لكنه بشّرهم بأنّها ستكون خير محفز لهم للتقرب إلى اللّه و القيام بالأعمال الصالحه،و إنّ ما سيصيبهم من محن و مصائب و آلام حتى لو كانت من وخز شوكه سيكون كفاره لذنوبهم (۱) .

سؤال:

من الممكن أن يستدل البعض من الجمله القرآنيه التاليه: وَ لا ـ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَ لا ـ نَصِ ـ يراً على أنّ قضيه الشفاعه و نظائرها قد ألغيت بهذه الآيه بصوره تامّه،فيعتبرونها دليلا لإلغاء الشفاعه بصوره مطلقه.

الجواب:

لقد أشرنا سابقا إلى أن الشفاعه لا تعنى أنّ الشفعاء من أمثال الأنبياء و الأئمه و الصالحين لهم جهاز أو تنظيم مستقل يقابل قدره اللّه،بل الصحيح هو أنّ الشفعاء لا يشفعون لأحد إلاّ بإذن اللّه،و على هذا الأساس فإنّ مثل هذه الشفاعه ستعود فى النهايه إلى اللّه و تعتبر فرعا من ولايه و نصره و عون اللّه.

ص :۴۶۶

۱- ۱) -نور الثقلين،الجزء الأوّل،ص ۵۵۳.

الآيتان [سوره النساء (۴): الآيات ۱۲۵ الی ۱۲۶]

اشاره

وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اِتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرٰاهِيمَ حَنِيفاً وَ اِتَّخَذَ اَللّٰهُ إِبْرٰاهِيمَ خَلِيلاً (۱۲۵) وَ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ مُحِیطاً (۱۲۶)

التّفسير

لقد تحدثت الآيات السابقه عن أثر الإيمان و العمل،كما بيّنت أن اتّباع أى مذهب أو شريعه غير شرع اللّه لا يغنى عن الإنسان شيئا،و الآيه الحاضره تداركت كل و هم قد يطرأ على الذهن من سياق الآيات السابقه،فأوضحت أفضليه شريعه الإسلام و تفوقها على سائر الشرائع الموجوده،حيث قالت وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرٰاهِيمَ حَنِيفاً .

و مع أنّ هذه الآيه قد جاءت بصيغه الاستفهام،إلاّ أنّها تهدف إلى كسب الاعتراف من السامع بالحقيقه التى أوضحتها.

لقد بيّنت الآيه-موضوع البحث-أمورا ثلاثه تكون مقياسا للتفاضل بين الشرائع و بيانا لخيرها:

۱-الاستسلام و الخضوع المطلق للّه العزيز القدير،حيث تقول الآيه: أَسْلَمَ

وَجْهَهُ لِلّهِ

(١)

.

٢-فعل الخير،كما تقول الآيه: وَ هُوَ مُحْسِنٌ و المقصود بفعل الخير-هنا- كل خير يفعله الإنسان بقلبه أو لسانه أو عمله،و

فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذكره صاحب تفسير الثقلين فى تفسيره للآيه-هذه- و هو جواب لمن سأل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تحديد معنى الإحسان،فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».

فالإحسان فى هذه الآيه هو كل عمل ينجزه الإنسان و يقصد به التعبد للّه و التقرب إليه،و أن يكون الإنسان لدى إنجازه لهذا العمل قد جعل اللّه نصب عينيه، و كأنّه يراه،فإن كان هو يعجز عن رؤيه اللّه فإن اللّه يراه و يشهد على أعماله.

٣-إتّباع شريعه إبراهيم النقيه الخالصه،كما فى الآيه: وَ اتَّبَعَ مِلَّهَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً (٢) .

و دليل الاعتماد على شريعه إبراهيم ما ذكرته الآيه نفسها فى آخرها:إذ تقول: وَ اتَّخَذَ اللّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلاً .

ما هو معنى الخليل؟

إنّ كلمه«خليل»قد تكون مشتقه من المصدر«خلّه»على وزن«حجّه»الذى يعنى الصداقه،و قد يكون اشتقاقها من المصدر«خله»على وزن«ضربه»بمعنى الحاجه.

١- ١) -الوجه فى اللغه هو مقدمه الرأس،أو ذلك الجزء من البدن الذى يشمل الجبهه و العينين و الأنف و الفم و الجبين، و لما كان الوجه بمثابه مرآه لروح الإنسان و قلبه،و فيه الحواس التى تربط باطن الإنسان بالعالم الخارجى،لذلك جاء فى الآيه التعبير عنه بذات الإنسان و نفسه.

٢- ٢) -إنّ عباره«ملّه»الوارده فى الآيه أعلاه تعنى«الشريعه أو الدين»و الفرق بين الملّه و الدين أن الأولى لا تنسب إلى اللّه،أى لا يقال«ملّه اللّه»و يمكن أن تضاف إلى النّبى بينما كلمه الدين أو الشريعه يمكن أى يضافا إلى لفظ الجلاله فيقال:«دين اللّه»أو«شريعه اللّه»كما يمكن إضافتهما إلى النّبى أيضا،و عباره«حنيف»تعنى الشخص الذى يترك الأديان الباطله و يتبع دين الحق.

و قد اختلف المفسّرون فی أی المعنیین أقرب إلی مفهوم الآیه موضوع البحث.

فرأی البعض منهم أنّ المعنی الثّانی أقرب لحقیقه هذه الآیه،لأنّ إبراهیم علیه السّلام کان یؤمن بأنّه محتاج إلی اللّه فی کل شؤونه بدون استثناء،و لکن مفسّرین آخرین یرون أنّه ما دامت الآیه تتحدث عن منزله وهبها اللّه لنبیه إبراهیم فالمقصود بکلمه«الخلیل»الوارده هو«الصدیق»لأننا لو قلنا أنّ اللّه قد انتخب إبراهیم صدیقا له،یکون أقرب کثیرا إلی الذهن من قولنا أن اللّه انتخب إبراهیم لیکون محتاجا إلیه.لأنّ الحاجه إلی اللّه لا تقتصر علی إبراهیم وحده،بل یشارکه و یساویه فیها جمیع المخلوقات،فالکل محتاجون إلی اللّه دون استثناء،و کان تقول الآیه(۱۵)من سوره فاطر: یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرٰاءُ إِلَی اللّٰهِ و هذا علی عکس الصداقه و الخلّه مع اللّه التی لا یتساوی فیها کل المخلوقات.

و فی روایه عن الإمام الصّادق علیه السّلام أنّه قال:«أنّه(اللّه)إنّما اتّخذ إبراهیم خلیلا لطاعته و مسارعته إلی رضاه لا لحاجه منه سبحانه إلی خلقه»و تدل هذه الروایه (۱) أیضا بأن عباره«خلیل»الوارده فی الآیه المذکوره إنّما تعنی الصدیق و لا تعنی غیره.

و علی هذا الأساس لنری ما الذی امتاز به إبراهیم لینال هذه المنزله العظیمه من اللّه،لقد ذکرت الروایات الوارده فی هذا المجال عللا مختلفه تکون بمجملها دلیلا لهذا الانتخاب،و من هذه الروایات

قول الإمام الصّادق علیه السّلام «إنّما اتّخذ اللّه إبراهیم خلیلا لأنّه لم یرد أحدا و لم یسأل أحدا غیر اللّه» (۲) .

و تفید روایات أخری أن إبراهیم قد حاز هذه الدرجه لکثره سجوده للّه، و إطعامه للجیاع و إقامه صلاه اللیل،أو لسعیه فی طریق مرضاه اللّه و طاعته.

۱- ۱) -مجمع البیان فی هامش الآیه الشریفه.

۲- ۲) -عیون أخبار الرضا،و تفسیر الصافی فی هامش الآیه المذکوره و فی تفسیر البرهان الجزء الأوّل،ص ۴۱۷.

بعد ذلك تتحدث الآيه التاليه بملكيه اللّه و المطلقه و إحاطته بجميع الأشياء، حيث تقول: وَ لِلّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ کانَ اللّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ مُحِیطاً و هذه إشاره إلی أنّ اللّه حین انتخب إبراهیم خلیلا له،لیس من أجل الحاجه إلی إبراهیم فاللّه منزّه عن الاحتیاج لأحد،بل أن هذا الإختیار قد تمّ لما لإبراهیم من صفات و خصال و سجایا طیبه بارزه لم توجد فی غیره.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱۲۷]

اشاره

وَ یَسْتَفْتُونَکَ فِی اَلنِّسٰاءِ قُلِ اَللّٰهُ یُفْتِیکُمْ فِیهِنَّ وَ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فِی اَلْکِتٰابِ فِی یَتٰامَی اَلنِّسٰاءِ اَللاّٰتِی لاٰ تُؤْتُونَهُنَّ مٰا کُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْکِحُوهُنَّ وَ اَلْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ اَلْوِلْدٰانِ وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْیَتٰامیٰ بِالْقِسْطِ وَ مٰا تَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ فَإِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ بِهِ عَلِیماً (۱۲۷)

التّفسیر

اشاره

عود علی حقوق المرأه:

تجیب الآیه الأخیره هذه علی أسئله وردت حول النساء من قبل المسلمین (و بالأخص حول الیتامی منهنّ)فتخاطب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تبیّن له أنّ اللّه هو الذی یفتی فی الأسئله التی وجهت إلیک یا محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حول الأحکام الخاصّه بحقوق النساء،فتقول: وَ یَسْتَفْتُونَکَ فِی النِّسٰاءِ قُلِ اللّٰهُ یُفْتِیکُمْ... .

و تضیف الآیه إنّ ما ورد فی القرآن الکریم حول الفتیات الیتامی اللواتی کنتم تتصرفون فی أموالهنّ،و لم تکونوا لتتزوجوا بهنّ،و لم تدفعوا أموالهنّ إلیهنّ لکی یتزوجن من آخرین،فإنّه یجیب علی قسم آخر من اسئلتکم و یبیّن لکم قبح ما کنتم تعلمون من ظلم بحق هؤلاء النسوه، وَ مٰا یُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فِی الْکِتٰابِ فِی یَتٰامَی

النِّسٰاءِ اللاّٰتِی لاٰ تُؤْتُونَهُنَّ مٰا کُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْکِحُوهُنَّ...

(۱)

.

ثمّ توصی الآیه الکریمه بالأولاد الذکور الصغار الذین کانوا یحرمون من الإرث وفق التقالید الجاهلیه،فتؤکد ضروره رعایه حقوقهم،حیث تقول:

وَ الْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ الْوِلْدٰانِ

.

کما تعود الآیه فتکرر التأکید علی حقوق الیتامی،فتذکر أن اللّه یوصیکم فی أن تراعوا العداله فی تعاملکم مع الیتامی: وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْیَتٰامیٰ بِالْقِسْطِ... .

و فی الختام تجلب الآیه الانتباه إلی أن أی عمل خیر یصدر منکم و بالأخص إذا کان فی حق الیتامی و المستضعفین-فإنّه لا یخفی علی اللّه- و إنّکم ستنالون أجر ذلک فی النهایه،حیث تقول الآیه: وَ مٰا تَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ فَإِنَّ اللّٰهَ کٰانَ بِهِ عَلِیماً .

هذا و یجب الالتفات إلی أنّ عباره یَسْتَفْتُونَکَ مشتقه من المصدر«فتوی» أو«فتیا»و معناها الإجابه علی کل سؤال معضل،و لما کانت هذه الکلمه تعود فی الأصل إلی کلمه«فتی»أی الشاب الیافع،فمن الممکن أن الفتوی کانت تستخدم للتعبیر عن الإجابه علی الأسئله المستحدثه،و بعد ذلک أصبحت تطلق بصوره شامله علی کل أنواع الأجوبه الخاصّه بالمسائل المنتخبه.

۱- ۱) -بناء علی التّفسیر الذی أوردناه بشأن الآیه أعلاه یتبیّن لنا أنّ عباره«ما یتلی»مبتدأ و خبرها جمله«یفتیکم فیهنّ»التی حذفت للقرینه الموجوده فی القسم السابق من الآیه.کما أنّ عباره«ترغبون»هنا تعنی عدم المیل و الرغبه،حیث تشیر القرائن إلی تقدیر«عن»بعد عباره«ترغبون»فی هذه الآیه و الفرق بین«رغب عنه»و«رغب فیه»واضح.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱۲۸]

اشاره

وَ إِنِ اِمْرَأَهٌ خٰافَتْ مِنْ بَعْلِهٰا نُشُوزاً أَوْ إِعْرٰاضاً فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِمٰا أَنْ يُصْلِحٰا بَيْنَهُمٰا صُلْحاً وَ اَلصُّلْحُ خَيْرٌ وَ أُحْضِرَتِ اَلْأَنْفُسُ اَلشُّحَّ وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۱۲۸)

سبب النّزول

لقد ورد فی الکثیر من کتب التّفسیر و الحدیث،فی سبب نزول هذه الآیه،أنّه کان فی زمن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم شخص یدعی«رافع بن خدیج»و کانت له زوجتان، إحداهما کبیره السن عجوز،و الأخری شابه، فطلق«رافع»زوجته العجوز(اثر خلافات بینهما)لکنه-قبل أی تنتهی عدّتها-عرض علیها الصلح مشترطا علیها أن لا تضجر إذا قدم علیها زوجته الشابه،أو أن تصبر حتی تنتهی عدتها فیتم الفصل و الفراق بینهما،فقلبت زوجته العجوز الشرط أو الاقتراح الأوّل، فاصطلحا،فنزلت هذه الآیه الکریمه مبیّنه حکم هذا العمل.

ص :۴۷۳

التّفسير

اشاره

الصّلح خير:

لقد قلنا سابقا-فی هامش الآیتین(۳۴ و ۳۵)من نفس سوره النساء-إنّ کلمه«نشوز»مشتقه من المصدر«نشز»بمعنی«الأرض المرتفعه»و حین تستخدم هذه العابره فی شأن الرجل و المرأه تعنی ذلک«التکبر»و«الطغیان».

و قد بیّنت الآیات السابقه حکم نشوز المرأه،و فی هذه الآیه إشاره لنشوز الرجل فالآیه تتحدث عن المرأه إذا أحست من زوجها التکبر و الإعراض عنها، و تبیّن أن لا مانع من أن تتنازل عن بعض حقوقها،و تتصالح مع زوجها،من أجل حمایه العلاقه الزوجیه من التصدع،فتقول: وَ إِنِ امْرَأَهٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً فَلا جُناحَ عَلَیْهِما أَنْ یُصْلِحا بَیْنَهُما صُلْحاً .

و لمّا کانت المرأه تتنازل عن بعض حقوقها طوعا و عن طیب خاطر و من غیر إکراه فلا ذنب فی هذا العمل،حیث عبّرت الآیه عن ذلک بعباره«فلا جناح» أی لا ذنب،للدلاله علی الحقیقه المذکوره.

و عند النظر إلی سبب نزول الآیه،نستخلص منها مسألتین فقهیتین:

الأولی: إنّ حکما مثل تقسیم أیّام الأسبوع بین الزوجات،له طابع الحق أکثر من طابع الحکم،و لذلک فبإمکان المرأه التخلی عن هذا الحق بشکل تام إذا شاءت أو بصوره جزئیه.

و المسأله الثّانیه:إنّ التراضی و التصالح لا یشترط أن یکون بالمال،بل یصح أن یکون بالتنازل عن حق من الحقوق.

بعد ذلک تؤکد الآیه علی أنّ الصلح خیر و أحسن،حیث تقول: وَ الصُّلْحُ خَیْرٌ و هذه الجمله الصغیره مع أنّها جاءت فی مجال الخلافات العائلیه،لکنها تبیّن قانونا کلیا عاما شاملا،و تؤکد أنّ الصلح هو المبدأ الأوّل فی کل المجالات، و أنّ الخلاف و النزاع و الصراع و الفراق لیس له وجود فی الطبع و الفطره الإنسانیه السلیمه،و لذلک فلا تسوغ هذه الفطره التوسل بالنزاع و ما یجری مجراه إلّا فی

الحالات الاستثنائيه الطارئه.

و هـذا الأـمر على عكس مـا يصوّره الماديون من أنّ الصـراع من أجل البقاء هو الأصل فى حياه الموجودات الحيّه،و يزعمون أن التكامل يحصل من خلال هذا الصراع.

و قـد كان هـذا النوع من التفكير سـببا فى بروز الكثير من النزاعات الـدّمويه و الحروب فى القرون الأخيره،لكن الإنسان لا يقاس بالحيوانـات الأـخرى المفترسه بسـبب مـا يملكه من عقـل و إحساس،و إنّ تكامله يتمّ فى ظل التعاون و ليس فى ظل النزاع،و من حيث المبدأ فإن الصراع من أجل البقاء حتى فى الحيوانات لا يعتبر مبدأ مقبولا للتكامل (۱) .

و تشـير الآيه بعد ذلك مباشره إلى أنّ الإنسان بسبب غريزه حبّ الذات التى يمتلكها تحيط به أمواج البخل،بحيث أنّ كل إنسان يسعى إلى نيل حقوقه دون التنازل عن أقل شىء منها،و هذا هو سبب و منبع النزاع و الصراع، تقول الآيه:

وَ أُحْضِرَتِ اَلْأَنْفُسُ الشُّحَّ

.

و لـذلك فلـو أحسّ كـلّ مـن الزوجيـن بـأنّ البخـل هـو منبـع الكـثير مـن الخلاـف و أدركـوا حقيقـه البخـل و أنّـه من الصـفات القبيحه،وسـعوا لإصـلاح ذات بينهم و أبـدوا العفو و الصـفح،فسوف لا يؤدى هـذا إلى زوال الخلاف و النزاع العائلى فحسب،بل سيؤدى أيضا إلى إنهاء الكثير من الصراعات الاجتماعيه.

و لكى لاـ يسـىء الرجـال اسـتغلال هـذا الحكم الـوارد فى الآـيه،وجه الخطـاب إليهم فى نهايتهـا و دعوا إلى فعـل الخير و الـتزام التقوى،و نبهوا إلى أنّ اللّه يراقب أعمالهم دائما فليحـذروا الانحراف عن جاده الحق و الصواب،تقول الآيه فى هـذا المجال: وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللّهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً .

۱- ۱) -من أجل معرفه تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع راجع الجزء الثّانى من هذا التّفسير فى فصل«الصراع من أجل البقاء».

الآیتان [سوره النساء (۴): الآیات ۱۲۹ الی ۱۳۰]

اشاره

وَ لَنْ تَسْتَطِیعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَیْنَ اَلنِّسٰاءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ فَلاٰ تَمِیلُوا کُلَّ اَلْمَیْلِ فَتَذَرُوهٰا کَالْمُعَلَّقَهِ وَ إِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ غَفُوراً رَحِیماً (۱۲۹) وَ إِنْ یَتَفَرَّقٰا یُغْنِ اَللّٰهُ کُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ وٰاسِعاً حَکِیماً (۱۳۰)

التّفسیر

اشاره

العداله شرط فی تعدد الزّوجات:

نستنتج من الجمله التی وردت فی نهایه الآیه السابقه-التی تمّ البحث عنها و التی دعت الرجال إلی فعل الخیر و التزام التقوی-إنّها تعتبر نوعا من التهدید للأزواج من الرجال،بأن یراقبوا حالهم و لا ینحرفوا قید شعره عن جاده الحق و العداله لدی التعامل مع زوجاتهم.

و قد یرد اعتراض و هو:إنّ تحقیق العداله فی مجال الحبّ و العلاقات القلبیه أمر بعید المنال،فکیف یمکن إذن و الحاله هذه اتباع العدل مع الزوجات؟ و ردا علی الاعتراض المذکور توضح الآیه(۱۲۹)من سوره النساء،بأنّ تحقیق العداله فی مجال الحبّ بین الزوجات أمر غیر ممکن،مهما بذل الإنسان من سعی فی هذا المجال فتقول الآیه: وَ لَنْ تَسْتَطِیعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَیْنَ النِّسٰاءِ وَ لَوْ

حَرَصْتُمْ

و یتبیّن من عباره وَ لَوْ حَرَصْتُمْ هذه وجود أشخاص بین المسلمین کانوا یسعون کثیرا لتحقیق تلک العداله المطلوبه،و لعل سعیهم ذلک کان من أجل الحکم المطلق الذی طالب المسلمین باتّباع العدل من زوجاتهم و الذی ورد فی الآیه الثّالثه من سوره النساء،التی تقول: ...فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّ تَعْدِلُوا فَواحِدَهً .

بدیهی أنّ أی حکم سماوی لا یمکن أن ینزل علی خلاف فطره البشر،کما لا یمکن أن یکون تکلیفا بما لا یطاق،و لمّا کانت العلاقات القلبیه تنتج عن عوامل یکون بعضها خارجا عن إراده الإنسان،لم یحکم اللّه بتحقیق العداله فی مجال الحبّ القلبی بین الزوجات،أمّا فیما یخص الأعمال و أسلوب التعامل و رعایه الحقوق بین الأزواج ممّا یمکن للإنسان تحقیقه،فقد تمّ التأکید علی تحقیق العداله فیه.

و لکی لا یسیء الرجال استغلال هذا الحکم، طالبت الآیه الرجال بأن لا یظهروا المیل الکامل لإحدی الزوجات إذا تعسر علیهم تحقیق المساواه فی حبّهم لهنّ جمیعا،کی لا یضیع حق الأخریات و لا یحرن فی أمرهنّ ما ذا یفعلن! حیث تقول الآیه: فَلا تَمِیلُوا کُلَّ الْمَیْلِ فَتَذَرُوها کَالْمُعَلَّقَهِ... .

و تحذر الآیه فی آخرها أولئک الذین یجحفون فی حقّ زوجاتهم،و تطالبهم بأن یتبعوا طریق الإصلاح و التقوی،و یعرضوا عمّا فات فی الماضی،کی یشملهم اللّه برحمته و عفوه،فتقول الآیه: وَ إِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللّهَ کانَ غَفُوراً رَحِیماً... .

لقد وردت روایات اشتملت علی مواضیع تخص مسأله تحقیق العداله بین الزّوجات،و تبیّن عظمه هذا الحکم و القانون الإسلامی.

من هذه الروایات ما

روی عن علی بن أبی طالب أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه کان له امرأتان،فکان إذا کان یوم واحده لا یتوضأ فی بیت الاخری» .(1)

۱- ۱) -تفسیر التبیان،الجزء الثّالث،ص ۳۵۰.

و

روى عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن ءابائه عليهم السّلام «أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يقسم بين نسائه فى مرضه،فيطاف به بينهن». (۱)

و كان معاذ بن جبل له امرأتان ماتتا فى الطاعون أقرع بينهما أيّهما تدفن قبل الاخرى؟ (۲) أى أيّهما يقدم أوّلا فى الدفن لكى يتجنب ما من شأنه أن يخدش العدل المفروض اتباعه بين الزوجات.

جواب على سؤال ضرورى:

كنّا قد نوّهنا-فى هامش الآيه(۳)من نفس هذه السوره-بأنّ بعضا ممن ليس لهم علم استنتجوا-من ضم تلك الآيه إلى هذه الآيه-أن تعدد الزوجات مشروط بتحقيق العداله بينهنّ،و أنّه لمّا كان تحقيق العداله أمرا غير ممكن، فلذلك قالوا بأنّ الإسلام قد منع تعدد الزوجات.

و يفهم من الروايات الإسلاميه أنّ أوّل من طرح هذا الرأى هو«ابن أبى العوجاء»و كان من أصحاب المذهب المادى،و من المعاصرين للإمام الصّادق عليه السّلام، و جاء طرحه لرأيه هذا فى نقاش له مع المفكر الإسلامى المجاهد«هشام بن الحكم»فلما أعيى«هشاما»الجواب توجه من بلدته الكوفه إلى المدينه المنوره «لمعرفه الجواب»فقدم على الإمام الصّادق عليه السّلام فتعجب الإمام من مقدمه قبل حلول موسم الحج أم العمره،و لكن هشاما أخبر الإمام بسؤال ابن أبى العوجاء، فكان جواب الإمام الصّادق عليه السّلام على السؤال هو أنّ المقصود بالعداله الوارده فى الآيه الثّالثه من سوره النساء،هى العداله فى النفقه(و ضروره رعايه الحقوق الزوجيه و أسلوب التعامل مع الزوجه)أمّا العداله الوارده فى الآيه(۱۲۹)من نفس السوره(و التى اعتبر تحقيقها أمرا مستحيلا)فالمقصود بها العداله فى

۱- ۱) -المصدر السابق.

۲- ۲) -المصدر السابق.

المیول القلبیه،(و علی هـذا الأساس فإن تعدد الزوجات لیس ممنوعا و لا مستحیلا إذا روعیت فیه الشروط الإسلامیه)،فلما رجع هشام بالجواب إلی ابن أبی العوجاء حلف هذا الأخیر أن هذا الجواب لیس من عندک.

و معلوم أنّ تفسیرنا لکلمتی العداله-الواردتین فی الآیه الثّالثه و الآیه (۱۲۹)من سوره النساء-بمعنین یختلف أحدهما عن الآخر،إنّما هو للقرینه الواضحه الوارده مع کل من الآیتین المذکورتین،لأنّ الآیه الأخیره تأمر الإنسان أن لا یمیل میلا شدیدا لإحدی زوجاته و یترک الأخریات فی الحیره من شأنهنّ، و لهذا فهی تدل علی جواز تعدد الزوجات مع اشتراط أن لا یحصل إجحاف بحق إحداهنّ لحساب الأخری،مع الإذعان باستحاله تحقق المساواه فی الحب القلبی لکلا الزوجتین،أمّا فی الآیه الثّالثه من سوره النساء فقد ورد التصریح فی أوّلها بجواز تعدد الزوجات.

أمّا الآیه الثانیه من الآیتین الأخیرتین،فهی تشیر إلی هذه الحقیقه،و هی أنّه لو استحال مواصله الحیاه الزوجیه للطرفین-الزوج و الزوجه-و استحال الإصلاح بینهما،فإنّهما-و الحاله هذه-غیر مرغمین علی الاستمرار فی مثل هذه الحیاه المرّه الکریهه،بل یستطیعان أن ینفصلا عن بعضهما و علیهما اتخاذ موقف شجاع و حاسم فی هذا المجال دون خوف أو رهبه من المستقبل،لأنّهما لو انفصلا فی مثل تلک الحاله فإن اللّه العلیم الحکیم سیغنیهما من فضله و رحمته،فلا یعدمان الأمل فی حیاه مستقبلیه أفضل،فتقول الآیه الکریمه فی هذا المجال:

وَ إِنْ یَتَفَرَّقا یُغْنِ اللّهُ کُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَ کانَ اللّهُ واسِعاً حَکِیماً

.

الآیات [سوره النساء (۴): الآیات ۱۳۱ الی ۱۳۴]

اشاره

وَ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ لَقَدْ وَصَّیْنَا اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ إِیّٰاکُمْ أَنِ اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ غَنِیًّا حَمِیداً (۱۳۱) وَ لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ وَکِیلاً (۱۳۲) إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ أَیُّهَا اَلنّٰاسُ وَ یَأْتِ بِآخَرِینَ وَ کٰانَ اَللّٰهُ عَلیٰ ذٰلِکَ قَدِیراً (۱۳۳) مَنْ کٰانَ یُرِیدُ ثَوٰابَ اَلدُّنْیٰا فَعِنْدَ اَللّٰهِ ثَوٰابُ اَلدُّنْیٰا وَ اَلْآخِرَهِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ سَمِیعاً بَصِیراً (۱۳۴)

التّفسیر

لقد أوضحت الآیه السابقه أن إذا اقتضت الضروره لزوجین أن ینفصلا عن بعضهما دون أن یجدا حلا بدیلا عن الانفصال فلا مانع من ذلک،و لیس علیهما أن یخافا من حیاه المستقبل،لأن اللّه سیشملهما بکرمه و فضله،و یزیل احتیاجاتهما برحمته و برکته.

أمّا فی الآیه-موضوع البحث-فإنّ اللّه یؤکّد قدرته علی إزاله و رفع تلک الاحتیاجات،لأنّه مالک ما فی السموات و ما فی الأرض وَ لِلّٰهِ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ و إنّ من یملک ملکا لا نهایه له کهذا الملک،و یملک قدره لا نفاذ

ص:۴۸۰

لها أبدا،لن يكون عاجزا-مطلقا-عن رفع احتياجات خلقه و عباده.

و لكى تؤكّد الآيه ضروره التقوى فى هذا المجال و فى أى مجال آخر،تشير الآيه إلى أنّ اليهود و النصارى و كل من كان له كتاب سماوى قبل المسلمين قد طلب منهم جميعا كما طلب منكم مراعاه التقوى وَ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ إِيّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللّهَ... .

بعد ذلك تتوجه الآيه إلى مخاطبه المسلمين،فتؤكد لهم أن الالتزام بحكم التقوى سيجلب النفع لهم،و أن ليس للّه بتقواهم حاجه،كما تؤكد أنّهم إذا عصوا و بغوا،فإنّ ذلك لا يضرّ اللّه أبدا،لأنّ اللّه هو مالك ما فى السّموات و ما فى الأرض،فهو غير محتاج إلى أحد أبدا،و من حقّه أن يشكره عباده دائما و أبدا، وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلّهِ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ وَ كانَ اللّهُ غَنِيًّا حَمِيداً .

الغنى و عدم الحاجه هما من صفات اللّه سبحانه و تعالى-حقيقه-لأنّه عزّ و جلّ غنى بالذات،و ارتفاع حاجات غيره و زوالها إنّما يتمّ بعونه و مدده،و كل المخلوقات محتاجه إليه احتياجا ذاتيا، لذلك فهو يستحق-لذاته-أن يشكره عباده و مخلوقاته،كما أنّ كمالاته التى تجعله أهلا للشكر ليست خارجه عن ذاته،بل هى كلّها فى ذاته،و هو ليس كالمخلوقات التى تمتلك صفاتا كماليه عرضيه خارجيه مكتسبه من الغير.

و فى الآيه التاليه جرى التأكيد-و للمره الثّالثه-على أنّ كل ما فى السموات و ما فى الأرض هو ملك للّه،و إنّ اللّه هو الحافظ و المدبر و المدير لكل الموجودات وَ لِلّهِ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ وَ كَفى بِاللّهِ وَكِيلاً .

و قد يرد سؤال-هنا-عن سبب تكرار موضوع واحد لثلاث مرات و فى فواصل متقاربه جدّا،و هل أن هذا التكرار من أجل التأكيد على الأمر الوارد فى هذا الموضوع،أم هناك سرّ آخر؟ و بالإمعان فى مضمون الآيات يظهر لنا أن الموضوع المتكرر ينطوى فى كل

مرّه علی أمر خاص:

ففی المرّه الأولی حیث تحمل الآیه وعدا لزوجین بأنّهما إذا انفصلا فإن اللّه سیغنیهما و لأجل إثبات قدره اللّه علی ذلک،یذکر اللّه ملکیته لما فی السموات و ما فی الأرض.

أمّا فی المرّه الثّانیه فإنّ الآیه توصی بالتقوی،و لکی لا یحصل و هم بأن إطاعه هذا الأمر ینطوی علی نفع أو فائده للّه،أو أن مخالفته ینطوی علی الضرر له،فقد تکررت الجمله للتأکید علی عدم حاجه اللّه لشیء،و هو مالک ما فی السموات و ما فی الأرض.

و هذا الکلام یشبه فی الحقیقه ما قاله أمیر المؤمنین علی علیه السّلام فی مستهل خطبه الهمّام الوارده

فی کتاب نهج البلاغه حیث قال علیه السّلام: «بأنّ اللّه سبحانه و تعالی خلق الخلق حین خلقهم غنیّا عن طاعتهم آمنا عن معصیتهم لأنه لا تضرّه معصیه من عصاه و لا تنفعه طاعه من أطاعه» (۱) .

و یذکر اللّه ملکیته لما فی السموات و ما فی الأرض للمرّه الثّالثه کمقدمه للموضوع الذی یلی فی الآیه(۱۳۳)،ثمّ یبیّن-عز من قائل-أنّه لا یأبه فی أن یزیل قوما عن الوجود،لیأتی مکانهم بقوم آخرین أکثر استعدادا و عزما و أکثر دأبا فی طاعه اللّه و عبادته،و اللّه قادر علی هذا الأمر إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ أَیُّهَا النّٰاسُ وَ یَأْتِ بِآخَرِینَ وَ کٰانَ اللّٰهُ عَلیٰ ذٰلِکَ قَدِیراً .

و فی تفسیر«التبیان»و تفسیر«مجمع البیان»نقلا عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه حین نزلت هذه الآیه ربت علی کتف سلمان الفارسی و قال بأن المعنی بالآخرین فی الآیه هم قوم من العجم من بلاد فارس.

و هذا الکلام-فی الحقیقه-تنبؤ بالخدمات الکبیره التی قدمها المسلمون الإیرانیون إلی الإسلام.

ص:۴۸۲

۱- ۱) -نهج البلاغه،الخطبه ۱۹۳.

و الآـيه الأـخيره من الآيات الأربع الماضـيه،ورد الحـديث فيها عن أناس يزعمون أنّهم مسـلمون،و يشاركون فی ميادين الجهاد،و يطبقون أحكـام الإسـلام، دون أن يكون لهم هـدف إلهی،بـل يهـدفون لنيـل مكاسب ماديه مثل غنائم الحرب فتنبه الآيه إلى أنّ الـذين يطلبون الأجر الـدنيوى يتوهمون فی طلبهم هذا،لأنّ اللّه عنده ثواب الدنيا و الآخره معا مَنْ كانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللّهِ ثَوابُ الدُّنْيا وَ الْآخِرَهِ .

فلما ذا لا يطلب-و لا يرجوا-هؤلاء،الثوابين معا؟!و اللّه يعلم بنوايا الجميع، و يسـمع كل صوت،و يرى كل مشـهد،و يعرف أعمال المنافقين و أشباههم، وَ كانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً .

و تكرر هذه الآيه الأخيره حقيقه أنّ الإسلام لا ينظر فقط إلى الجوانب المعنويه و الأخرويه،بل أن ينشد لأتباعه السعادتين الماديه و المعنويه معا.

ص :۴۸۳

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱۳۵]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا کُونُوا قَوّامِینَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلّهِ وَ لَوْ عَلی أَنْفُسِکُمْ أَوِ اَلْوالِدَیْنِ وَ اَلْأَقْرَبِینَ إِنْ یَکُنْ غَنِیًّا أَوْ فَقِیراً فَاللّهُ أَوْلی بِهِما فَلا تَتَّبِعُوا اَلْهَوی أَنْ تَعْدِلُوا وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اَللّهَ کانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیراً (۱۳۵)

التّفسیر

اشاره

العداله الاجتماعیه:

علی غرار الأحکام التی وردت فی الآیات السابقه حول تطبیق العـداله مع الأیتام و الزوجات تذکر الآیه الأخیره-موضوع البحث-مبدأ أساسیا و قانونا کلیا فی مجال تطبیق العداله فی جمیع الشؤون و الموارد بدون استثناء،و تأمر جمیع المؤمنین بإقامه العداله یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کُونُوا قَوّامِینَ بِالْقِسْطِ... .

و یجب الانتباه إلی أنّ کلمه«قوامین»هی جمع لکلمه«قوّام»و هی صیغه مبالغه من«قائم»و تعنی«کثیر القیام»أی أن علی المؤمنین أن یقوموا بالعدل فی کل الأحوال و الأعمال و فی کل العصور و الدهور،لکی یصبح العدل جزءا من طبعهم و أخلاقهم،و یصبح الانحراف عن العدل مخالفا و مناقضا لطبعهم و روحهم.

ص :۴۸۴

و الإتيـان بكلمه«القيـام»فی هـذا المکان،يحتمل أن يکون بسـبب أنّ الإنسان حين يريـد القيام بأی عمل،يجب عليه أن يقوم علی رجليه بصوره عـامّه و يتـابع ذلـک العمـل،و علی هـذا الأساس فإن التعبير هنا بالقيام کنايه عن العزم و الإراده الرّاسـخه و الإجراء لإنجاز العمل،حتی لو کان هذا العمل من باب حکم القاضی الذی لا يحتاج إلی القيام لدی ممارسه عمله.

و يمکن أن يکون التعبير بالقيـام جـاء لسـبب آخر،و هو أنّ کلمه«القائم»تطلق عاده علی شـیء يقف بصوره عموديه علی الأرض دون أن يکون فيه انحراف إلی اليمين أو الشـمال،و علی هذا فإن المعنی المراد منه فی الآيه يکون تأکيدا لضروره تحقيق العداله دون أقل انحراف إلی أی جهه کانت.

و لتأکيـد الموضـوع جـاءت الآـيه بکلمـه«الشـهاده»فشـددت علی ضـروره التخلی عن کـل الملاحظـات و المجاملاـت أثنـاء أداء الشـهاده،و أن يکون هدف الشـهاده بالحق هو کسب مرضاه اللّه فقط،حتی لو أصـبحت النتيجه فی ضرر الشاهد أو أبيه أو أمه أو أقاربه شُهَدٰاءَ لِلّٰهِ وَ لَوْ عَلیٰ أَنْفُسِکُمْ أَوِ الْوٰالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ... .

و قـد شاع هذا الأمر فی کل المجتمعات،و بالأخص المجتمعات الجاهليه، حيث کانت الشـهاده تقاس بمقدار الحبّ و الکراهيه و نوع القرابه بين الأشخاص و الشاهد،دون أن يکون للحق و العدل أثر فيما يفعلون.

و قـد نقل عن ابن عباس حـديث يفيـد أنّ المسـلمين الجدد کانوا بعد وصولهم إلی المدينه يتجنبون الإدلاء بالشـهاده لاعتبارات القرابه و النسب،إذا کانت الشهاده تؤدی إلی الإضرار بمصالح اقربائهم، فنزلت الآيه المذکوره محذره لمثل هؤلاء (۱) .

و لکن-و کما تشير الآيه الکريمه-فإنّ هذا العمل لا يتناسب و روح الإيمان،

۱- ۱) -تفسير المنار،الجزء الخامس،ص ۴۵۵.

لأنّ المؤمن الحقيقى هو ذلك الشخص الذى لا يعير اهتماما للاعتبارات فى مجال الحق و العدل،و يتغاضى عن مصلحته و مصلحه أقاربه من أجل تطبيق الحق و العدل.

و تفيد هذه الآيه أنّ للأقارب الحق فى الإدلاء بالشهاده لصالح-أو ضد- بعضهما البعض،شرط الحفاظ على مبدأ العداله(إلّا إذا كانت القرائن تشير إلى وجود انحياز أو تعصب فى الموضوع).

و تشير الآيه بعد ذلك عوامل الانحراف عن مبدأ العداله،فتبيّن أنّ ثروه الأغنياء يجب أن لا تحول دون الإدلاء بالشهاده العادله،كما أنّ العواطف و المشاعر التى تتحرك لدى الإنسان من أجل الفقراء،يجب أن تكون سببا فى الامتناع عن الأدلاء بالشهاده العادله حتى و لو كانت نتيجتها لغير صالح الفقراء، لأنّ اللّه أعلم من غيره بحال هؤلاء الذين تكون نتيجه الشهاده العادله ضدهم،فلا يستطيع صاحب الجاه و السلطان أن يضرّ بشاهد عادل يتمتع بحمايه اللّه،و لا الفقير سيبيت جوعانا بسبب تحقيق العداله،تقول الآيه فى هذا المجال: إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللّٰهُ أَوْلىٰ بِهِمٰا .

و للتأكيد أكثر تحكم الآيه بتجنّب اتّباع الهوى،لكى لا يبقى مانع أمام سير العداله و تحقيقها إذ تقول الآيه: فَلاٰ تَتَّبِعُوا الْهَوىٰ أَنْ تَعْدِلُوا (۱) .

و يتّضح من هذه الجمله-بجلاء-أن مصدر الظلم و الجور كلّه،هو اتّباع الهوى،فالمجتمع الذى لا تسوده الأهواء يكون بمأمن من الظلم و الجور.

و لأهميه موضوع تحقيق العداله،يؤكّد القرآن هذا الحكم مرّه أخرى،فيبيّن أنّ اللّه ناظر و عالم بأعمال العباد-فهو يشهد و يرى كل من يحاول منع صاحب

---

۱ – ۱) -يمكن أن تكون عباره«تعدلوا»اشتقاقا إمّا من ماده«العداله»أو من ماده«العدول»فإن كانت من ماده «العداله»يكون معنى الجمله القرآنيه هكذا:فلا تتبعوا الهوى لأن تعدلوا أى لكى تستطيعوا تحقيق العدل،و أما إذا كانت من ماده«العدول»يكون المعنى هكذا:فلا تتبعوا الهوى فى أن تعدلوا أى لا تتبعوا الهوى فى سبيل الانحراف عن الحق.

الحق عن حقّه،أو تحريف الحق،أو الاعراض عن الحق بعد وضوحه،فتقول الآيه: وَ إِنْ تَلْوُوا (١) أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللّهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً .

و جمله إِنْ تَلْوُوا تشير-فى الواقع-إلى تحريف الحق و تغييره،بينما تشير جمله«تعرضوا»إلى الامتناع عن الحكم بالحق،و هذا هو ذات الشىء المنقول عن الإمام الباقر عليه السّلام (٢) .

و الطريف أن الآيه اختتمت بكلمه خَبِيراً و لم تختتم بكلمه«عليما»لأنّ كلمه«خبير»تطلق بحسب العاده على من يكون مطلعا على جزئيات و دقائق موضوع معين،و فى هذا دلاله على أن اللّه يعلم حتى أدنى انحراف يقوم به الإنسان عن مسير الحق و العدل بأى عذر أو وسيله كان،و هو يعلم كل موطن يتعمد فيه إظهار الباطل حقا،و يجازى على هذا العمل.

و تثبت الآيه اهتمام الإسلام المفرط بقضيه العداله الاجتماعيه،و إن مواطن التأكيد المتكرره فى هذه الآيه تبيّن مدى هذا الاهتمام الذى يوليه الإسلام لمثل هذه القضيه الإنسانيه الاجتماعيه الحساسه،و ممّا يؤسف له كثيرا أن نرى الفارق الكبير بين عمل المسلمين و هذا الحكم الإسلامى السامى،و إن هذا هو سرّ تخلف المسلمين.

١- ١) -إن عباره«تلووا»مشتقه من المصدر«لى»على وزن«طى»و تعنى المنع و الإعاقه و قد وردت فى الأصل بمعنى اللى و البرم.

٢- ٢) -تفسير التبيان،الجزء الخامس،ص ٣٥٦.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱۳۶]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ اَلْکِتٰابِ اَلَّذِی نَزَّلَ عَلیٰ رَسُولِهِ وَ اَلْکِتٰابِ اَلَّذِی أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِاللّٰهِ وَ مَلاٰئِکَتِهِ وَ کُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً بَعِیداً (۱۳۶)

سبب النّزول

نقل عن ابن عباس أنّ هـذه الآیه نزلت فی شأن جمع من کبار شخصیات أهل الکتاب-مثل عبد اللّه بن سلام و أسد بن کعب و أخیه أسید بن کعب و نفر آخر من هؤلاء-و السبب هو أنّهم قدموا منذ البدایه علی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قالوا له:إنّهم قد آمنوا به و بکتابه السماوی و بموسی و التوراه و العزیز،و لم یؤمنوا ببقیه الأنبیاء، فنزلت هذه الآیه و أعلمتهم ضروره الإیمان بجمیع الأنبیاء و الکتب السماویه (۱) .

التّفسیر

یتبیّن من سبب النّزول أنّ الکلام فی الآیه موجه إلی جمع من مؤمنی أهل

۱- ۱) -تفسیر مجمع البیان و المنار.

الکتاب الـذین قبلوا الإسـلام،و لکنهم لعصبیات خاصّه أبوا أن یؤمنوا بما جاء قبل الإسـلام من أنبیاء و کتب سـماویه غیر الـدین الـذی کانوا علیه،فجاءت الآیه توصـیهم بضـروره الإیمان و الإقرار و الاعتراف بجمیع الأنبیاء و المرسـلین و الکتب السـماویه،لأنّ هؤلاء جمیعا یسـیرون نحو هدف واحد،و هم مبعوثون من مبدأ واحد(علما بأن لکل واحد منهم مرتبه خاصّه به،فکل واحد منهم جاء لیکمل ما أتی به النّبی أو الرّسول الذی سبقه من شریعه و دین).

و لـذلک فلاـ معنی لقبـول البعض و إنکـار البعض الآـخر من هؤلاـء الأنبیـاء و الرسـل،فـالحقیقه الواحـده لاـ یمکن التفریـق بین أجزائها،و أنّ العصبیات لیس بإمکانها الوقوف أمام الحقائق،لـذلک تقول الآیه الکریمه: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْکِتٰابِ الَّذِی نَزَّلَ عَلیٰ رَسُولِهِ وَ الْکِتٰابِ الَّذِی أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ... .

و بعض النظر عـن سـبب النّزول المـذکور،فإنّنـا لـدی تفسـیرنا لهـذه الآـیه نحتمـل أن یکـون الخطـاب موجهـا فیهـا لعـامّه المؤمنین،أولئک الذین اعتنقوا الإسـلام إلاّ أنّه لم یتغلغل بعد فی أعماق قلوبهم،و لهذا السـبب یطلب منهم أن یکونوا مؤمنین من أعماقهم.

کما یوجـد احتمال آخر،و هو أنّ الکلام فی هـذه الآیه موجه لجمیع المؤمنین الذین آمنوا بصوره إجمالیه باللّه و الأنبیاء،إلاّ أنّهم ما زالوا لم یتعرفوا علی جزئیات و تفاصیل العقائد الإسلامیه.

و من هـذا المنطلـق یـبیّن القرآن أنّ المـؤمنین الحقیقیین یجب أن یعتقـدوا بجمیـع الأنبیـاء و الکتب السـماویه السـابقه و ملاـئکه اللّه،لأن عـدم الإیمان بالمـذکورین یعطی مفهوم إنکار حکمه اللّه،فهل یمکن أن یترک اللّه الحکیم الملل السابقه بـدون قائد أو زعیم یرشدهم فی حیاتهم؟! و هل أنّ الملائکه المعنیین بالآیه هم ملائکه الوحی-فقط-الذین یعد

الإیمان بهم جزءا لا یتجزأ من الإیمان الضروری بالأنبیاء و الکتب السماویه،أو أنّهم جمیع الملائکه؟ فکما أن بعض الملائکه مکلّفون بأمر الوحی و التشریع، یلتزم جمع آخر منهم بتدبیر و إراده عالم الکون و الخلیقه؛و إن الإیمان بهم فی الحقیقه جزء من الإیمان باللّه سبحانه و تعالی و قد بیّنت الآیه-فی آخرها-مصیر الذین یجهلون هذه الحقائق،حیث قالت: وَ مَنْ یَکْفُرْ بِاللّهِ وَ مَلائِکَتِهِ وَ کُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِیداً .

و فی هذه الآیه اعتبر الإیمان واجبا و ضروریا بخمسه مبادئ،فبالإضافه إلی ضروره الإیمان بالمبدأ و المعاد،فإن الإیمان لازم و ضروری بالنسبه إلی الکتب السماویه و الأنبیاء و الملائکه.

إنّ عباره«ضلال بعید»عباره دقیقه،و تعنی أنّ الذین لا یؤمنون بالمبادئ الخمسه الماره الذکر،قد انجرفوا خارج الصراط أو الطریق المبدئی،و أن عودتهم إلی هذا الطریق لا تتحقق بسهوله.

ص:۴۹۰

الآيات [سوره النساء (۴): الآيات ۱۳۷ الى ۱۳۹]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ اِزْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اَللّٰهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لاٰ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (۱۳۷) بَشِّرِ اَلْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۱۳۸) اَلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ اَلْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اَلْمُؤْمِنِينَ أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ اَلْعِزَّةَ فَإِنَّ اَلْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً (۱۳۹)

التّفسير

اشاره

مصير المنافقين المعاندين:

تماشيا مع البحث الذى ورد فى الآيه السابقه و الذى تناول وضع الكفار و ضلالهم البعيد،تشير هذه الآيات الأخيره إلى وضع مجموعه من الكفار الذين يتلوّنون فى كل يوم تلون الحرباء،فهم فى يوم إلى جانب المؤمنين،و فى يوم آخر إلى جانب الكفار،ثمّ إلى جانب المؤمنين، و فى النهايه إلى جانب الكفار المعاندين،حتى يموتوا على هذه الحاله! فالآيه الأولى من الآيات الثلاثه الأخيره تتحدث عن مصير أفراد كهؤلاء، فتؤكد بأنّ اللّه لن يغفر لهم أبدا،و لن يرشدهم إلى طريق الصواب: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللّٰهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لاٰ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً .

إنّ هذا السلوك الحربائى فى التلون المتوالى،إمّا أن يكون نابعا من الجهل و عدم إدراك الأسس الإسلاميه،و إمّا أن يكون خطّه نفّذها المنافقون و الكفار المتطرفون من أهل الكتاب لزعزعه إيمان المسلمين الحقيقيين،و قد سبق شرح هذا الموضوع فى الآيه(۷۲)من سوره آل عمران.

و لا تدل الآيه-موضوع البحث-على عدم قبول توبه أمثال هؤلاء،و لكنها تتناول أفرادا يموتون و هم فى كفر شديد،فإنّ هؤلاء-نتيجه لأعمالهم-لا يستحقون العفو و الهدايه إلّا إذا غيروا اسلوبهم ذلك.

ثمّ تؤكّد الآيه التاليه نوع العذاب الذى يستحقه هؤلاء فتقول: بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً .

و استخدام عباره(بشر)فى الآيه إنّما جاء من باب التهكم و الاستهزاء بالأفكار الخاويه الواهيه التى يحملها هؤلاء المنافقون،أو أنّ العباره مشتقه من المصدر«بشر»بمعنى الوجه،و فى هذه الحاله تحتمل معانى واسعه فتشمل كل خبر يؤثر فى سحنه الإنسان،سواء كان الخبر مفرحا أو محزنا.

و قد أشارت الآيه الأخيره إلى المنافقين بأنّهم يتخذون الكفار أصدقاء و أحباء لهم بدلا من المؤمنين،بقولها: اَلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .

ثمّ يأتى التساؤل فى الآيه عن هدف هؤلاء المنافقين من صحبه الكافرين، و هل أنّهم يريدون حقّا أن يكتسبوا الشرف و الفخر عبر هذه الصحبه؟تقول الآيه:

أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّهَ

بينما العزه و الشرف كلها للّه فَإِنَّ الْعِزَّهَ لِلّهِ جَمِيعاً لأنّها تنبع من العلم و القدره،و أن الكفار لا يمتلكون من القوّه و العلم شيئا،و لذلك فإنّ علمهم لا شىء أيضا،و لا يستطيعون إنجاز شىء لكى يصبحوا مصدرا للعزّه و الشرف.

إنّ هذه الآيه-فى الحقيقه-تحذير للمسلمين بأن لا يلتمسوا الفخر و العزّه

فی شؤونهم الاقتصادیه و السیاسیه و الاجتماعیه و الثقافیه عن طریق إنشاء علاقات الود و الصداقه مع أعداء الإسلام،بل إنّ علیهم أن یعتمدوا فی ذلک علی الذات الإلهیه الطاهره التی هی مصدر للعزه و الشرف کله،و أعداء الإسلام لا عزّه لدیهم لکی یهبوها لأحد،و حتی لو امتلکوها لما أمکن الرکون إلیهم و الاعتماد علیهم،لأنّهم متی ما اقتضت مصالحهم الشخصیه تخلوا عن أقرب حلفائهم و رکضوا وراء مصالحهم،و کأنّهم لم یکونوا لیعرفوا هؤلاء الحلفاء مسبقا، و التاریخ المعاصر خیر دلیل علی هذا السلوک النفعی الانتهازی.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱۴۰]

اشاره

وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي اَلْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اَللّهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اَللّهَ جامِعُ اَلْمُنافِقِينَ وَ اَلْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً (۱۴۰)

سبب النّزول

نقل عن ابن عباس أنّ نفرا من المنافقين کانوا يحضرون اجتماعات لعلماء اليهود،حيث کانوا يستهزئون بآيات القرآن فی تلک الاجتماعات،فنزلت هذه الآيه و أوضحت النهايه المشؤومه لهذه اللقاءات.

التّفسير

اشاره

النّهی عن المشارکه فی مجالس يعصی اللّه فيها:

لقد ورد فی الآيه(۶۸)من سوره الانعام أمر صريح إلی النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فی أن يعرض عن أناس يستهزئون بآيات القرآن و يتکلمون بما لا يليق،و طبيعی أنّ هذا الحکم لا ينحصر بالنّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم،وحده بل يعتبر حکما و أمرا عاما يجب علی جميع المسلمين اتّباعه،و قد جاء هذا الحکم علی شکل خطاب موجه إلی النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم،

و فلسفته جليه واضحه،لأنّه يكون بمثابه كفاح سلبى ضد مثل تلك الأعمال.

و الآيه هـذه تكرر الحكم المـذكور مرّه أخرى،و تحـذر المسـلمين مـذكره إياهم بحكم سابق فى القرآن نهى فيه المسـلمون عن المشاركه فى مجالس يسـتهزأ فيها و يكفر بالقرآن الكريم،حتى يكفّ أهل هـذه المجالس عن الاسـتهزاء و يـدخلوا فى حـديث آخر،تقول الآيه: وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَـمِعْتُمْ آياتِ اللّهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْـتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ .

بعـد ذلـك تبيّن الآـيه لنـا نتيجه هـذا العمـل،و تؤكـد أن من يشـارك فى مجالس الاسـتهزاء بالقرآن فهو مثل بقيه المشاركين و سيكون مصيره نفس مصير أولئك المستهزئين،تقول الآيه: إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ .

ثمّ تكرر الآـيه التأكيـد على أنّ المشـاركه فى المجـالس المـذكوره تـدل على الروحيه النفاقيه التى يحملها المشاركون،و إن اللّه يجمع المنافقين و الكافرين فى جهنم حيث العذاب الأليم،تقول الآيه: إِنَّ اللّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً .

إنّ الآيه تخبرنا عن عده أمور:

۱-إنّ المشـاركه فى مجالس المعصـيه تكون بمثابه المشاركه فى ارتكاب المعصـيه،حتى لو بقى المشارك ساكتا أو ساكنا و لم يشارك فى الاستهزاء بنفسه، لأنّ السكوت فى مثل هذه الأحوال دليلا على رضا صاحبه بالذنب المرتكب.

۲-لو تعذر النهى عن المنكر بالشـكل الإيجابى له،فلا بدّ أن يتحقق النهى و لو بالصوره السلبيه،مثل أن يبتعد الإنسان عن مجالس المعصيه و يتجنب الحضور فيها.

۳-إنّ الذين يشـجعون أهل المعاصـى بسـكوتهم و حضورهم فى مجالس المعصـيه،إنّما يجازون و يعاقبون بمثل عقاب العاصـين أنفسهم.

۴-لا ضـير من مجالسه الكفار إن لم يـدخلوا فى حديث فيه اسـتهزاء و كفر بالآيات الإلهيه و لم تكن هذه المجالسه تحمل خطرا آخر،و يـدل على إباحه المشاركه فى مجالس الكفار التى لا يعصون فيها اللّه قوله تعالى فى الآيه: حَتّٰى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ .

۵-إنّ المجامله و المـداهنه مع العاصـين المـذنبين،إنّما تدل على وجود روح النفاق لدى الشـخص المجامل،و ذلك لأن المسـلم الحقيقى الـواقعى لاـ يمكنـه أن يشـارك فى مجلس يعصـى فيه اللّه و يسـتهزأ بآيـاته الكريمه و أحكـامه السـاميه،دون أن يبـدى اعتراضا على هذه المعاصى،أو-على الأقل-أن عدم رضاه عليها بترك هذا المجلس.

ص: ۴۹۶

الآيه [سوره النساء (۴): آیه ۱۴۱]

اشاره

اَلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اَللّهِ قالُوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَ إِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَ نَمْنَعْكُمْ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ اَلْقِيامَهِ وَ لَنْ يَجْعَلَ اَللّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى اَلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (۱۴۱)

التّفسير

اشاره

صفات المنافقين:

تبيّن هذه الآيه-و آيات أخرى تاليه-قسما آخر من صفات المنافقين و أفكارهم المضطربه،فتؤكد أنّ المنافقين يسعون دائما لاستغلال أى حدث لصالحهم،فلو انتصر المسلمون حاول المنافقون أن يحشروا أنفسهم بين صفوف المؤمنين،زاعمين بأنّهم شاركوا المؤمنين فى تحقيق النصر و أدعوا بأنّهم قدموا دعما مؤثرا للمؤمنين فى هذا المجال،مطالبين بعد ذلك بمشاركه المؤمنين فى الثمار المعنويه و الماديه للنصر حيث تقول الآيه فى حقهم: اَلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللّهِ قالُوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ... .

و هؤلاء المنافقون ينقلبون على أعقابهم حين يكون النصر الظاهرى من نصيب أعداء الإسلام فيتقربون إلى هؤلاء الأعداء،و يعلنون لهم الرضى و الموافقه

بقولهم أنّهم هم الذين شجعوهم على قتال المسلمين و عدم الاستسلام لهم، و يدعون بأنّهم شركاء فى النصر الذى حققه أعداء الإسلام تقول الآيه: وَ إِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ... . (۱)

و على هذا المنوال تحاول هذه الفئه المنافقه أن تستغل الفرصه لدى انتصار المسلمين ليكون لهم نصيب من هذا النصر و سهم من الغنائم،و لإظهار المنّه على المسلمين،و فى حاله انكسار المسلمين تظهر هذه الفئه الرضى و الفرح لدى الكفار،و تدفعهم إلى الإصرار على كفرهم و تتجسس لصالحهم،و تهيئ لهم أسباب الفوز المادى،فهم تاره رفاق الطريق مع الكفار،و تاره شركاؤهم فى الجريمه،و هكذا يمضون حياتهم بالتلون و النفاق و اللعب على الحبال المختلفه.

و لكن القرآن الكريم يوضح بعباره واحده مصير هؤلاء و نهايتهم السوداء، و يبيّن أنّهم-لا محاله-سيلاقون ذلك اليوم الذى تكشف فيه الحجب عن جرائمهم و يرفع النقاب عن وجوههم الكريهه،و عند ذلك-أى فى ذلك اليوم، و هو يوم القيامه-سيحكم اللّه بينهم و هو أحكم الحاكمين،فتقول الآيه فى هذا المجال: فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ .

و لكى يطمئن القرآن المؤمنين الحقيقيين من خطر هؤلاء،تؤكد هذه الآيه-فى آخرها-بأنّ اللّه لن يجعل للكافرين مجالا للانتصار أو التسلط على المسلمين،و ذلك حيث تقول الآيه: وَ لَنْ يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً .

و هنا يرد هذا السؤال،و هو:هل أنّ العباره الأخيره تفيد عدم انتصار الكفار على المؤمنين من حيث المنطق،أو أنّها تشمل عدم انتصار الكفار من الناحيه العسكريه أيضا؟ و لما كانت كلمه«سبيل»نكره جاءت فى سياق النفى و تؤدى معنى عاما،

۱- ۱) -إن عباره«استحوذ»مشتقه من«حوذ»و هى تعنى هنا دفع أو ساق إلى القيام بأمر معين.

لـذلك يفهم من الآـيه أن الكافرين بالإضافه إلى عـدم انتصارهم من حيث المنطق على المؤمنين،فهم لن ينتصـروا و لن يتسـلطوا على المؤمنين فى أى من النواحى العسكريه و السياسيه و الثقافيه و الاقتصاديه،بل و لا فى أى مجال آخر.

و ما نشاهده من انتصار للكافرين على المسـلمين فى الميادين المختلفه،إنّما هو بسـبب أنّ المسلمين المغلوبين لم يكونوا ليمثلوا-فى الحقيقه-المسـلمين، المؤمنين الحقيقيين،بل هم مسلمون نسوا آدابهم و تقاليدهم الإيمانيه،و تخلوا عن مسئولياتهم و تكاليفهم و واجباتهم الـدينيه بصوره تامّه،فلا كلام عن الاتحاد و التضامن و الأخوه الإسـلاميه بينهم،و لا هم يقومون بواجب الجهاد بمعناه الحقيقى،كمـا لم يبادروا إلى اكتساب العلم الـذى أوجبه الإسـلام و جعله فريضه على كل مسـلم و مسـلمه و دعا إلى تحصـيله و طلبه من يوم الولاده حتى ساعه الوفاه،حيث

قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أطلب العلم من المهد إلى اللّحد».

و لما أصبحوا هكذا فقد استحقوا أن يكونوا مغلوبين للكفار.

و قـد اسـتدل جمع من الفقهـاء بهـذه الآـيه على أنّ الكفـار لا يمكن أن يتسـلطوا على المسـلمين المؤمنين من الناحيه الحقوقيه و الحكميه،و نظرا للعموميه الملحوظه فى الآيه،لا يستبعد أن تشمل الآيه هذا الأمر أيضا.

و ممّا يلفت النظر فى هذه الآيه هو التعبير عن انتصار المؤمنين بكلمه «الفتح»بينما عبّرت الآيه عن انتصار الكفار بكلمه«النصيب»و هو إشاره إلى أن انتصار الكفار إنّما هو نصيب محدود و زائل،و أنّ الفتح و النصر النهائى هو للمؤمنين.

الآيتان [سوره النساء (۴): الآيات ۱۴۲ الی ۱۴۳]

اشاره

إِنَّ اَلْمُنٰافِقِینَ یُخٰادِعُونَ اَللّٰهَ وَ هُوَ خٰادِعُهُمْ وَ إِذٰا قٰامُوا إِلَی اَلصَّلاٰهِ قٰامُوا کُسٰالیٰ یُرٰاؤُنَ اَلنّٰاسَ وَ لاٰ یَذْکُرُونَ اَللّٰهَ إِلاّٰ قَلِیلاً (۱۴۲) مُذَبْذَبِینَ بَیْنَ ذٰلِکَ لاٰ إِلیٰ هٰؤُلاٰءِ وَ لاٰ إِلیٰ هٰؤُلاٰءِ وَ مَنْ یُضْلِلِ اَللّٰهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِیلاً (۱۴۳)

التّفسیر

لقد وردت فی هذه الآیه خمس صفات للمنافقین،فی عباره قصیره،و هی:- ۱-إنّ هؤلاء-لأجل تحقیق أهدافهم الدنیئه-یتوسلون بالخدعه و الحیله، حتی أنّهم یریدون علی حسب ظنهم أن یخدعوا اللّه تعالی أیضا،و لکنهم یقعون فی نفس الوقت و من حیث لا یشعرون فی حبال خدعتهم و مکرهم،إذ هم- لأجل اکتساب ثروات مادیه تافهه-یخسرون الثروات الکبیره الکامنه فی وجودهم،تقول الآیه فی هذا المجال: إِنَّ الْمُنٰافِقِینَ یُخٰادِعُونَ اللّٰهَ وَ هُوَ خٰادِعُهُمْ ... .

و یستفاد التّفسیر المذکور أعلاه بالواو الحالیه الوارده مع عباره: وَ هُوَ خٰادِعُهُمْ .

هناک قصّه مشهوره مفادها أن أحد الأکابر کان ینصح أهل الحرف من

مواطنيه،بأن ينتبهوا لکی لا يخدعهم المسافرون الغرباء،فقال أحدهم:کيف يمکن للغرباء البسطاء الذين لا يعرفون شيئا عن وضع المدينه و أهلها،أن يخدعوا أهل الحرف فيها نحن بمقدورنا خداع أولئک الغرباء،فأجابهم بأن قصده من الانخداع بالغرباء هو هذا المعنی،أی أن تنالوا من هؤلاء ثروه تافهه بالخداع، و تفقدوا بذلک ثروه الإيمان العظيمه! ٢-إنّ المنافقين بعيدون عن رحمه اللّه،و لذلک فهم لا يتلذذون بعباده اللّه و التقرب إليه،و يدل علی ذلک أنّهم حين يريدون أداء الصّلاه يقومون إليها و هم کسالی خائر و القوی،تقول الآيه فی هذا الأمر: وَ إِذٰا قٰامُوا إِلَی الصَّلاٰهِ قٰامُوا کُسٰالیٰ... .

٣-و لما کان المنافقون لا يؤمنون باللّه و بوعوده،فهم حين يقومون بأداء عباده معينه،إنّما يفعلون ذلک رياء و نفاقا و ليس من أجل مرضاه اللّه،تقول الآيه:

يُرٰاؤُنَ النّٰاسَ...

.

۴-و لو نطقت ألسن هؤلاء المنافقين بشیء من ذکر اللّه،فإنّ هذا الذکر لا يتجاوز حدود الألسن،لأنّه ليس من قلوبهم،و لا هو نابع من وعيهم و يقظتهم، و حتی لو حصل هذا الأمر فهو نادر و قليل،تقول الآيه: وَ لاٰ يَذْکُرُونَ اللّٰهَ إِلاّٰ قَلِيلاً .

۵-إنّ المنافقين يعيشون فی حيره دائمه و دون أی هدف أو خطّه لطريقه الحياه معينه،و لهذا فهم يعيشون حاله من التردد و التذبذب،فلا هم مع المؤمنين حقّا و لا هم يقفون إلی جانب الکفار ظاهرا،و فی هذا تقول الآيه الکريمه:

مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذٰلِکَ لاٰ إِلیٰ هٰؤُلاٰءِ وَ لاٰ إِلیٰ هٰؤُلاٰءِ...

.

و يحسن هنا الالتفات إلی أنّ کلمه«مذبذب»اسم مفعول من الأصل«ذبذب» و هی تعنی فی الأصل صوتا خاصا يسمع لدی تحريک شیء معلق إثر تصادمه بأمواج الهواء،و قد أطلقت کلمه«مذبذب»علی الإنسان الحائر الذی يفتقر إلی

الهدف أو إلى أى خطّه و طريقه للحياه.

هـذا واحـد من أدق التعابير التى أطلقها القرآن الكريم على المنافقين،كما هى إشاره إلى إمكانيه معرفه المنافقين عن طريق هـذا التذبذب الظاهر فى حركتهم و نطقهم،كما يمكن أن يفهم من هذا التعبير أن المنافقين هم كشىء معلق يتحرك بدون أى هدف و ليس لحركته أى اتجاه معين،بل يحركه الهواء من أى صوب كان اتجاهه و يأخذه معه إلى الجهه التى يتحرك فيها.

و تبين الآيه فى الختام مصير هؤلاء المنافقين،و توضح أنّهم أناس قد سلب اللّه عنهم حمايته نتيجه لأعمالهم و تركهم يتيهون فى الطريق المنحرف الذى سلكوه بأنفسهم،فهم لن يهتدوا أبدا إلى طريق النجاه،لأنّ اللّه كتب عليهم التيه و الضلاله عقابا لهم على أعمالهم.

تقول الآيه الكريمه فى ذلك: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ،(و قد شرحنا معنى الإضلال،و بيّنا كيف أنّه لا يتنافى مع حريه الإراده و الانتخاب، و ذلك فى الجزء الأوّل من هذا التّفسير فى هامش الآيه(۲۶)من سوره البقره).

ص :۵۰۲

الآيات [سوره النساء (۴): الآيات ۱۴۴ الى ۱۴۶]

اشاره

يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا اَلْكاٰفِرِينَ أَوْلِيٰاءَ مِنْ دُونِ اَلْمُؤْمِنِينَ أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاٰناً مُبِيناً (۱۴۴) إِنَّ اَلْمُنٰافِقِينَ فِي اَلدَّرْكِ اَلْأَسْفَلِ مِنَ اَلنّٰارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (۱۴۵) إِلاَّ اَلَّذِينَ تٰابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اِعْتَصَمُوا بِاللّٰهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلّٰهِ فَأُولٰئِكَ مَعَ اَلْمُؤْمِنِينَ وَ سَوْفَ يُؤْتِ اَللّٰهُ اَلْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (۱۴۶)

التّفسير

لقد أشارت الآيات السابقه إلى قسم من صفات المنافقين،و الآيات التاليه- هذه-تحذر المؤمنين و تأمرهم أن لا يعتمدوا على المنافقين و الكفار بدل الاعتماد على المؤمنين،و أن لا يطلبوا النصره منهم يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الْكٰافِرِينَ أَوْلِيٰاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .

و تبيّن أنّ الاعتماد على الكفار يعتبر جريمه و خرقا صارخا للقانون الإلهى و شركا باللّه،و نظرا لقانون العدل الإلهى فإن هذه الجريمه تستحق عقابا شديدا، حيث تؤكد الآيه: أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰاناً مُبِيناً (۱) .

۱- ۱) -إنّ كلمه«سلطان»مشتقه من ماده أو مصدر«سلاطه»على وزن«مقاله»و هى تعنى القوه و القدره على التغلب

و فی الآیه الثانیه من الآیات الأخیره بیان لأحوال المنافقین،الذین اتخذهم بعض الغافلین من المؤمنین أصدقاء لأنفسهم،حیث توضح الآیه أنّ المنافقین یستقرون فی القیامه فی أحط و أسفل درکه من درکات جهنم،و لن یستطیع أحد أن ینصرهم أو ینقذهم من هذا المصیر أبدا،تقول الآیه: إِنَّ الْمُنافِقِینَ فِی الدَّرْکِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِیراً . (۱)

و یتبیّن من هذه الآیه أن النفاق فی نظر الإسلام أشد أنواع الکفر،و إن المنافقین أبعد الخلق من اللّه،و لهذا السبب فإن مستقرهم و مکانهم النهائی فی أحط نقطه من نقاط جهنم،و هم یستحقون هذا العقاب،لأنّ ما یلحق البشریه من ویلات من جانب هؤلاء هو أشد خطرا من کل الأخطار، فإنّ هؤلاء بسبب احتمائهم بظاهر الإیمان یحملون بصوره غادره و بمطلق الحریه علی المؤمنین العزل و یطعنونهم من الخلف بخناجرهم المسمومه،و بدیهی أن یکون حال اعداء -کهؤلاء-یظهرون بلباس الأصدقاء،أشدّ خطرا من الأعداء المعروفین الذین یعلنون عداوتهم صراحه،و فی الواقع فإنّ النّفاق هو أسلوب و سلوک کل فرد ابتر و منحط و مشبوه و جبان و ملوث بکل الخبائث و من لا شخصیه له.

و قد أوضحت الآیه الثّالثه من الآیات الأخیره،أنّ المجال مفتوح حتی لأکثر الناس تلوثا للتوبه من أعمالهم و إصلاح شأنهم،و السعی للتعویض بالخیر عن ماضیهم المشین،و العوده إلی رحمه اللّه و التمسک بحبله و الإخلاص للّه بالإیمان به تقول الآیه: إِلاَّ الَّذِینَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللّهِ وَ أَخْلَصُوا دِینَهُمْ لِلّهِ .

(۱)

علی الآخرین،و فی کلمه«سلطان»معنی لاسم المصدر حیث تطلق علی کل أنواع التسلط،و لهذا السبب تطلق کلمه«سلطان»أیضا علی«السبب»الذی یسلط الإنسان علی الآخرین من أمثاله،کما تطلق علی أصحاب القدره و النفوذ،و لکنها فی الآیه المذکوره أعلاه إنما تعنی الحجه و الدلیل.

---

۱ - ۱) -إنّ کلمه«درک»تعنی أحط نقطه فی أعماق البحر،و یسمی آخر حبل متصل بالحبال التی توصل الإنسان إلی قعر البحر،ب«الدرک»أیضا،و یظهر أن هذه المعانی مأخوذه من معنی«درک الشیء»أی الوصول إلیه-کما تسمّی السلالم التی توصل الإنسان إلی موضع سفلی کالسرداب و البئر ب«الدرک»و هذه العباره تقابل السلالم التی یتسلق بها الإنسان إلی أعلی حیث تسمّی بالدرجات.

فالتائبون هؤلاء سيكونون أهلا للنجاه فى النهايه و يستحقون صحبه المؤمنين،تقول الآيه: فَأُولٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ... .

و إنّ اللّه سيهب ثوابا و أجرا عظيما لكل المؤمنين وَ سَوْفَ يُؤْتِ اللّٰهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً .

و ممّا يلفت النظر أنّ الآيه تبيّن أن هؤلاء التائبين مع المؤمنين،و ذلك للتدليل على أن منزله المؤمنين الثابتين أكبر و أعظم من منزله هؤلاء،فالمؤمنون الراسخون فى إيمانهم هم الأصل،و هؤلاء هم الفروع،و ما يظهر عليهم من نور و صفاء إنّما هو بسبب وجودهم فى ظل المؤمنين الراسخين.

و هناك أمر ثان يجب الانتباه إليه فى هذه الآيه،و هو أنّها بيّنت مسير المنافقين بصوره واضحه و صريحه،إذ عينت لهم أحط نقطه من الجحيم مكانا و مستقرا،بينما شخصت للمؤمنين الأجر و الثواب العظيم الذى لا حدّ له و لا حصر،بل هو منوط بعظمه اللّه و لطفه جلت عظمته.

ص :۵۰۵

الآيه [سوره النساء (۴): آيه ۱۴۷]

اشاره

مٰا يَفْعَلُ اَللّٰهُ بِعَذٰابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ وَ كٰانَ اَللّٰهُ شٰاكِراً عَلِيماً (۱۴۷)

التّفسير

اشاره

العقاب الإلهى ليس دافعه الانتقام:

لقد أظهرت و بيّنت الآيات السابقه صورا من عقاب الكافرين و المنافقين، و الآيه الأخيره-التى هى موضوع بحثنا الآن-تشير إلى حقيقه ثابته و هى أنّ العقاب الإلهى الموجه للبشر العاصين ليس بدافع الانتقام و لا هو بدافع التظاهر بالقوّه،كما أنّه ليس تعويضا عن الخسائر الناجمه عن تلك المعاصى،فهذه الأمور إنّما تحصل ممن فى طبيعته النقص و الحاجه،و اللّه سبحانه و تعالى منزّه من كل نقص و لا يحتاج أبدا إلى شىء.

إذن فالعقاب الذى يلحق الإنسان لما يرتكبه من معاص،إنما هو انعكاس للنتائج السيئه التى ترتبت على تلك المعاصى-سواء كانت فعليه أو فكريه- و لذلك يقول اللّه تعالى عزّ من قائل فى هذه الآيه: مٰا يَفْعَلُ اللّٰهُ بِعَذٰابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ .

و بالنظر إلى أنّ حقيقه الشكر هى أن يستغل الإنسان النعم التى وهبها اللّه له

فی الجهات المخصصه لها فی الطبیعه و الخلق،یتّضح لنا أنّ القصد من الآیه إنّما هو:إنّ من یؤمن و یعمل الخیر و یستغل الهبات الإلهیه فی المجالات التی خصصت لها من حیث الخلق- دون إساءه هذا الاستغلال-فلا شک أنّ هذا الإنسان المؤمن لا یصیبه أی عقاب من اللّه،و لتأکید هذا الأمر تضیف الآیه مبیّنه أنّ اللّه عالم بأعمال و نوایا عباده،و هو یشکر و یثیب کل من یفعل الخیر من العباد لوجه اللّه.فتقول الآیه: وَ کانَ اللّهُ شاکِراً عَلِیماً .

و قد قدمت هذه الآیه مسأله الشکر علی الإیمان لأجل بیان هذه الحقیقه، و هی أنّ الإنسان ما لم یدرک نعم اللّه و هباته العظیمه و یشکره علی هذه النعم فلن یستطیع التوصل إلی معرفه اللّه و الایمان به،لأن أنعمه سبحانه و تعالی إنّما هی وسائل لمعرفته.

و قد ورد فی کتب العقیده الإسلامیه فی بحث«وجوب معرفه اللّه»عن جمع من الباحثین أنّهم استدلوا علی معرفه اللّه بوجوب شکر النعم و جعلوا من الوجوب الفطری لشکر المنعم دلیلا علی لزوم معرفته(فدقق).

ص :۵۰۷

الآيتان [سوره النساء (۴): الآيات ۱۴۸ الی ۱۴۹]

اشاره

لا يُحِبُّ اَللّهُ اَلْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ اَلْقَوْلِ إِلاّ مَنْ ظُلِمَ وَ كانَ اَللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً (۱۴۸) إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اَللّهَ كانَ عَفُوًّا قَدِيراً (۱۴۹)

التّفسير

اشاره

فی هذه الآیه إشارتان إلی التکالیف الأخلاقیه الإسلامیه:

الأولی:تبیّن أنّ اللّه لا یحبّ التجاهر بالکلام البذیء،و لا یرضی بما یصدر من کلام عن عیوب الناس و فضائح أعمالهم،فتقول الآیه: لا يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ... .

إن عدم الرضی من نشر فضائح أعمال الناس،نابع من حقیقه أنّ اللّه هو ستار العیوب،فلا یجب أن یقوم عباده بکشف سیئات الآخرین من أمثالهم أو الإساءه إلی سمعتهم،و ممّا لا یخفی علی أحد هو أنّ لکل إنسان نقاط ضعف خفیه،و لو انکشفت هذه العیوب لساد المجتمع جو من سوء الظن بین أفراده،فیصعب عندئذ قیام التعاون بین هؤلاء الأفراد،لذلک منع الإسلام و حرّم التحدث عن نقائص أو فضائح أعمال الآخرین دون وجود هدف سلیم،لتبقی الأواصر الاجتماعیه قویه مستحکمه،و رعایه للجوانب الإنسانیه الأخری فی هذا المجال.

ص:۵۰۸

و تجـدر الإشاره إلى أنّ كلمه«سوء»تشـمل كل أنواع القبح و الفضـيحه، و المقصود من عباره«الجهر...من القول»هو كل حاله من الكشف و الفضح اللفظى،سواء كان بصوره شكوى،أو على شكل حكايه أو لعن أو ذم أو غيبه.

و قد استدل بهذه الآيه-أيضا على تحريم الغيبه،إلاّ أن مفهومها لا ينحصر بهذه الصفه الأخيره،بل يشمل كل أنواع الكلام البذىء و المذموم.

إلاّـ أنّ الآـيه الكريمه لم تحرم القول بالسوء تحريما مطلقا،فقـد اسـتثنت حاله يمكن فيها أن يصار إلى الكشف و الفضـح،و هـذه الحـاله هى إذا وقع الإنسـان مظلومـا حين قـالت الآيه: إِلاّ مَنْ ظُلِمَ و بهـذا الـدليل يسـتطيع المظلوم-فى مقام الـدفاع عن نفسه-أن يكشف فضائـح الظالم،سواء عن طريق الشـكوى أو فضـح مساوئ الظالم أو توجيه النقـد له،أو اسـتغابته، و لا يسـكت على الظلم حتى استعاده حقوقه من الظالم.

و حقيقه هذا الاستثناء هى أنّ اللّه أراد به أن يسلب من الظالمين فرصه إساءه استغلال حكم المنع و التحريم،و لكى لا يكون هذا الحكم سببا فى سكوت المظلوم عن المطالبه بحقه من الظالم.

واضـح من الآيه بأنّ عمليه الكشف و الفضـح يجب أن تنحصـر فى إطار بيان مساوئ الظالم لـدى الـدفاع عن المظلومين أو لدى دفاع المظلوم عن نفسه.

و لكى تسـد الآيه الطريق على كل انتهازى كاذب يريـد إساءه اسـتغلال هذا الحكم بدعوى وقوع الظلم عليه أكّدت على أنّ اللّه يراقب أعمال البشر و يعلم و يسمع بكل ما يصدر عنهم من أفعال حيث تقول الآيه: وَ كانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً .

و فى الآيه التاليه يشـير القرآن الكريم إلى النقطه المواجهه لهـذا الحكم،حيث يبيـح التحـدث عن محاسن الأفراد أو كتمانها(على عكس المساوئ التى يجب أن تكتم إلاّ فى حاله اسـتثنائيه)كما تبيح-أو بالأحرى تحثّ-الفرد على إصدار العفو على من ارتكب السوء بحقّه،لأنّ العفو عند المقدره من صفات اللّه العزيز

ص:۵۰۹

القـدير الذى يعفو عن عباده مع امتلاكه القدره على الانتقام بأى صوره شاء، فتقول الآيه فى هذا المجال: إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللّهَ كانَ عَفُوًّا قَدِيراً .

العفو عن المعتدى و أثره على نزعه العدوان:

سؤال يطرأ هنا على الـذهن و هو:ألا يعتبر العفو عن الظالم المعتـدى تأييـدا لظلمه و تشـجيعا لنزعه العـدوان لديه؟ألا يؤدى العفو إلى ظهور حاله سلبيه من اللامبالاه لدى المظلومين.

و الجواب هو:أنّ العفو لا صـله له بمسأله تحقيق العدل و مكافحه الظالم، و الدليل على ذلك ما نقرؤه فى الأحكام الإسـلاميه من نهى عـن ارتكـاب الظلم و أمر بعـدم الخضـوع له،كمـا فى الآـيه لاـ تَظْلِمُـونَ وَ لاـ تُظْلَمُـونَ (۱) و قـول أمير المـؤمنين على عليه السّلام«كونا للظالم خصما و للمظلوم عونا» (۲) و قوله تعالى: فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللّهِ (۳) .

كما نقرأ من جانب آخر الأمر بالعفو و الصـفح كما فى قوله تعالى: وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى (۴) و قوله: وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا أَ لا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَكُمْ . (۵)

من الممكن أن يتبـادر إلى ذهن بعض البسـطاء أن هنـاك تناقضـا بين هـذين الحكمين، و لـدى الإمعـان فيمـا ورد فى المصـادر الإسـلاميه فى هذا المجال،يتّضح أنّ العفو و الصـفح يجب أن يكون فى موضع بحيث لا يساء استغلاله،و إنّ الدعوه إلى مكافحه الظلم و قمع الظالم يكون له مجال آخر.

۱- ۱) -البقره،۲۷۹.

۲- ۲) -نهج البلاغه،الوصيه رقم ۴۸.

۳- ۳) -الحجرات،۹.

۴- ۴) -البقره،۲۳۷.

۵- ۵) -النور،۲۲.

و يجدر توضيح أنّ العفو و الصفح يكونان لدى تملك القدره و عند الإنتصار على العدو و هزيمته النهائيه،أى فى حال لا يحتمل فيها حصول أى خطر جديد من جانب العدو،و يكون العفو و الصفح عنه سببا لإصلاحه و استقامته و دفعه إلى إعاده النظر فى سلوكه،و التاريخ الإسلامى فيه أمثله كثيره فى هذا المجال، و

الحديث المشهور القائل «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدره عليه» (۱) خير دليل على هذا القول.

أمّا فى حاله وجود خطر من جانب العدو،و احتمال أن يؤدى العفو عنه إلى تجريه و تماديه أكثر فى عدوانه،أو إذا اعتبر العفو استسلاما للظلم و خضوعا أمامه و رضى به،فإنّ الإسلام لا يجيز مطلقا مثل هذا العفو،و كما أنّ أئمّه الإسلام لم ينتخبوا طريق العفو فى مثل هذه المجالات.

۱- ۱) -نهج البلاغه،الكلمات القصار،الكلمه العاشره.

الآیات [سوره النساء (۴): الآیات ۱۵۰ الی ۱۵۲]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِینَ یَکْفُرُونَ بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ یُرِیدُونَ أَنْ یُفَرِّقُوا بَیْنَ اَللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ یَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَکْفُرُ بِبَعْضٍ وَ یُرِیدُونَ أَنْ یَتَّخِذُوا بَیْنَ ذٰلِکَ سَبِیلاً (۱۵۰) أُولٰئِکَ هُمُ اَلْکافِرُونَ حَقًّا وَ أَعْتَدْنا لِلْکافِرِینَ عَذاباً مُهِیناً (۱۵۱) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ یُفَرِّقُوا بَیْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولٰئِکَ سَوْفَ یُؤْتِیهِمْ أُجُورَهُمْ وَ کانَ اَللّهُ غَفُوراً رَحِیماً (۱۵۲)

التّفسیر

اشاره

لا تمییز بین الأنبیاء:

تحدثت الآیات الأخیره عن مواقف طائفه من الکافرین،و مواقف أخری لطائفه من المؤمنین،کما ذکرت هذه الآیات نهایه کل من الطائفتین،و هی بهذا تأتی مکمله للآیات السابقه التی تحدثت بشأن المنافقین.

و تشیر الآیه الأولی إلی طائفه فرقوا بین الأنبیاء،فاعتبروا بعضهم علی حق و البعض الآخر علی باطل،فتؤکد أنّ هذا النفر من الناس کفار حقیقیون.

و الواقع أنّ هذه الآیه توضح موقف الیهود و النصاری،فالیهود کانوا یرفضون الإیمان بالنّبی عیسی نبی النصاری،و الیهود و النصاری معا کانوا یرفضون

الإذعان لنبوه نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی حین أنّ کتابیهم السماویین قد أثبتا نبوه هؤلاء الأنبیاء.

و هذا التمییز بین الحقائق الثابته و قبول بعضها و رفض البعض الآخر،سببه أنّ هؤلاء کانوا یتبعون أهواءهم و نزواتهم و یسیرون وراء عصبیاتهم الجاهلیه، و ینبع أحیانا من حسد هؤلاء و نظرتهم الضیقه.

و هذا دلیل عدم إیمان هؤلاء بالأنبیاء و باللّه،لأنّ الإیمان لیس هو قبول ما طابق هوی النفس أو رفض ما یخالف الأهواء و المیول،فهذه الحاله ما هی إلاّ نوع من عباده الهوی و لا صله لها بالإیمان،فالإیمان الحقیقی هو ذلک الذی یدفع الإنسان إلی قبول الحقیقه-سواء طابقت هواه و میوله أو خالفتهما- و لذلک فإنّ القرآن الکریم اعتبر الذین یزعمون أنّهم یؤمنون باللّه و ببعض الأنبیاء کفارا حقیقیین،و علی هذا الأساس فإن ما یتظاهرون به من إیمان لا حقیقه و لا قیمه له مطلقا،لأنّه لا ینبع من روح طلب الحقیقه.

و القرآن الکریم یهدد هؤلاء-و أمثالهم-بأنّهم یلقون الذل و الهوان،حیث تقول الآیه: وَ أَعْتَدْنا لِلْکافِرِینَ عَذاباً مُهِیناً و قد یکون وصف العذاب فی هذه الآیه ب«المهین» سببه أنّ هؤلاء بقبولهم بعض الأنبیاء و رفضهم الإیمان بالبعض الآخر منهم،إنّما یوجّهون الإهانه بحق عدد من الأنبیاء،لذلک یجب أن ینال هؤلاء عذابا مهینا یتناسب و اهانتهم تلک.

التّناسب بین الذّنب و العقاب:

و یجدر هنا توضیح أنّ العذاب قد یکون ألیما أحیانا،مثل:الجلد و التعذیب الجسدی،و قد یکون مهینا کرش الشخص بالقاذورات،أو یکون العذاب عظیما کأن یکون العقاب أمام أعین الناس،و قد یکون أثره عمیقا فی نفس الإنسان یستمر معه لمدّه طویله و یسمی هذا بالعذاب الشدید،و ما إلی ذلک من أنواع العذاب.

ص :۵۱۳

و واضح أنّ وصف العذاب بواحد من الصفات يتناسب مع نوع الذنب،و لذلک فقد ورد فی کثیر من الآیات القرآنیه أنّ عقاب الظالمین هو العذاب الألیم،لأنّه یتناسب و ألم الظلم الذی یمارسه الظالم علی المظلوم،و هکذا بالنسبه للأنواع الأخری من العذاب،و قد قصدنا بهذا الشرح تقریب مسأله العذاب إلی الأذهان، علما بأنّ العذاب الأخروی شیء لا یمکن مقارنته بما هو موجود من عذاب فی حیاتنا الدنیویه هذه.

و قد تطرقت الآیه الأخیره إلی موقف المؤمنین الذین آمنوا باللّه و بجمیع أنبیائه و رسله و لم یفرقوا بین أی من الأنبیاء و الرسل و أخلصوا للحق،و کافحوا کل أنواع العصبیات الباطله،و بیّنت أنّ اللّه سیوفّی هؤلاء المؤمنین أجرهم و ثوابهم فی القریب العاجل، فتقول الآیه: وَ الَّذِینَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ یُفَرِّقُوا بَیْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولٰئِکَ سَوْفَ یُؤْتِیهِمْ أُجُورَهُمْ... .

و بدیهی أنّ الإیمان بجمیع الأنبیاء و الرسل لا یتنافی و مسأله تفضیل بعضهم علی البعض الآخر،لأنّ مسأله التفاضل هذه ترتبط ارتباطا وثیقا بأهمیه و عظم المسؤولیه التی تحمّلها کل منهم،و طبیعی أنّ المسؤولیات المناطه بالأنبیاء علیهم السّلام تتفاوت من حیث الأهمیه و الخطوره بالنسبه لکل منهم،و قد ثبت هذا الأمر بالدلیل القطعی و المهم هنا أن لا یحصل تمایز أو تفریق فی الإیمان بالأنبیاء و الإقرار بنبوّتهم.

و قد أکدت الآیه فی الختام أنّ اللّه سیغفر للمؤمنین الذین ارتکبوا اخطاء بالانجرار وراء العصبیات و ممارسه التفرقه بین الأنبیاء إن أخلص هؤلاء المؤمنون فی إیمانهم و عادوا إلی اللّه،أی تابوا إلیه من اخطائهم السابقه،حیث تقول الآیه: وَ کٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِیماً .

و یجب الانتباه هنا إلی أنّ الآیات الأخیره ذکرت الذین یعمدون إلی التفرقه بین الأنبیاء بأنّهم کفار حقیقیون،بینما لم تذکر الذین یؤمنون بجمیع الأنبیاء بأنّهم

مؤمنون حقا و حقیقه،بل وصفتهم بالمؤمنین فقط،و قد یکون هذا التفاوت فی الوصف هو لبیان أنّ المؤمنین حقّا هم أولئک الذین استقرّ الإیمان فی قلوبهم و ظهرت آثاره علی أعمالهم،و کما

یقول الخبر المأثور بأنّ «الإیمان ما وقر فی القلب و صدقه العمل».

و یدلّ علی هذا الأمر آیات وردت فی بدایه سوره الأنفال التی ذکرت المؤمنین بأوصاف عدیده:أوّلها الإیمان باللّه،و یلی ذلک إقامه الصّلاه و إیتاء الزکاه و التوکل علی اللّه و الاعتماد علیه،ثمّ یأتی التأکید بعد سرد هذه الصفات فی قول اللّه تعالی فی الآیه المذکوره: أُولٰئِکَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا... .

ص:515

الآیتان [سوره النساء (۴): الآیات ۱۵۳ الی ۱۵۴]

اشاره

یَسْئَلُکَ أَهْلُ اَلْکِتٰابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَیْهِمْ کِتٰاباً مِنَ اَلسَّمٰاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسیٰ أَکْبَرَ مِنْ ذٰلِکَ فَقٰالُوا أَرِنَا اَللّٰهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ اَلصّٰاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اِتَّخَذُوا اَلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ اَلْبَیِّنٰاتُ فَعَفَوْنٰا عَنْ ذٰلِکَ وَ آتَیْنٰا مُوسیٰ سُلْطٰاناً مُبِیناً (۱۵۳) وَ رَفَعْنٰا فَوْقَهُمُ اَلطُّورَ بِمِیثٰاقِهِمْ وَ قُلْنٰا لَهُمُ اُدْخُلُوا اَلْبٰابَ سُجَّداً وَ قُلْنٰا لَهُمْ لاٰ تَعْدُوا فِی اَلسَّبْتِ وَ أَخَذْنٰا مِنْهُمْ مِیثٰاقاً غَلِیظاً (۱۵۴)

سبب النّزول

جاء فی تفاسیر«التبیان»و«مجمع البیان»و«روح المعانی»حول سبب نزول هاتین الآیتین،أنّ عددا من الیهود جاءوا إلی النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قالوا له:لو کنت حقّا نبیّا مرسلا من قبل اللّه فأرنا کتابک السماوی کلّه دفعه واحده،کما جاء موسی بالتوراه کلّها دفعه واحده،فنزلت الآیتان جوابا لهؤلاء الیهود.

التّفسیر

اشاره

هدف الیهود من اختلاق الأعذار:

تشیر الآیه الأولی إلی طلب أهل الکتاب«الیهود»من النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأن ینزل علیهم کتابا من السماء کاملا و فی دفعه واحده،فتقول:

يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتٰابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتٰاباً مِنَ السَّمٰاءِ...

.

و لا شک أنّ هؤلاء لم یکونوا صادقین فی نوایاهم مع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،لأنّ الهدف من نزول الکتاب السماوی هو الإرشاد و الهدایه و التربیه،و قد یتحقق هذا الهدف أحیانا عن طریق نزول کتاب کامل من السماء دفعه واحده،و أحیانا أخری یتحقق الهدف عن طریق نزول الکتاب السماوی علی دفعات و بصوره تدریجیه.

و بناء علی هذا فقد کان الأجدر بالیهود أن یطالبوا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالدلیل و یسألوه عن تعالیم سامیه قیمه،لا أن یحددوا له طریقه لنزول الکتب السماویه و یطالبوه بأن ینزل علیهم کتابا الطریقه التی عینوها.

و لهذا السبب فضح اللّه نوایاهم السیئه بعد طلبهم هذا،و أوضح للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأنّ هذا العمل هو دیدن الیهود،و أنّهم معروفون بصلفهم و عنادهم و اختلافهم الأعذار مع نبیّهم الکبیر موسی بن عمران علیه السّلام،فقد طلب هؤلاء من نبیّهم ما هو أکبر و أعجب إذ سألوه أن یریهم اللّه جهارا و علنا!تقول الآیه: فَقَدْ سَأَلُوا مُوسیٰ أَکْبَرَ مِنْ ذٰلِکَ فَقٰالُوا أَرِنَا اللّٰهَ جَهْرَةً... .

و ما مصدر هذا الطلب العجیب الغریب البعید عن المنطق غیر الصلف و العناد،فهم بطلبهم هذا قد تبنّوا عقیده المشرکین الوثنیین فی تجسید اللّه و تحدیده، و قد أدی عنادهم هذا إلی نزول عذاب اللّه علیهم،صاعقه من السماء أحاطت بهم لما ارتکبوه من ظلم کبیر،تقول الآیه: فَأَخَذَتْهُمُ الصّٰاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ .

ثمّ تشیر الآیه إلی عمل قبیح آخر ارتکبه الیهود،و ذلک حین لجئوا إلی عباده العجل بعد أن شاهدوا بأعینهم المعجزات الکثیره و الدلائل الواضحه،فتقول: ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ الْبَیِّنٰاتُ... .

و مع کل هذا الصلف و العناد و الشرک،یریهم اللّه لطفه و رحمته و یغفر لهم لعلهم یرتدعوا عن غیّهم،و یهب لنبیّهم موسی علیه السّلام ملکا بارزا و سلطانا مبینا،و یفضح السامری صاحب العجل و یخمد فتنته و فی هذا تقول الآیه: فَعَفَوْنٰا عَنْ ذٰلِکَ وَ آتَیْنٰا مُوسیٰ سُلْطٰاناً مُبِیناً .

ص :517

لکن الیهود بسبب ما انطوت علیه سریرتهم من شرّ-لم یستیقظوا من غفلتهم،و لم یخرجوا من ضلالتهم،و لم یتخلوا عن صلفهم و غرورهم،فرفع اللّه جبل الطور لینزله علی رؤوسهم،حتی أخذ منهم العهد و المیثاق و أمرهم أن یدخلوا خاضعین خاشعین-من باب بیت المقدس-دلیلا علی توبتهم و ندمهم، و أکّد علیهم أن یکفوا عن أی عمل فی أیّام السبت،و أن لا یسلکوا سبیل العدوان، و أن لا یأکلوا السمک الذی حرم صیده علیهم فی ذلک الیوم،و فوق کل ذلک أخذ اللّه منهم میثاقا غلیظا مؤکّدا،و لکنّهم لم یثبتوا-مطلقا-وفاءهم لأی من هذه المواثیق و العهود (۱) یقول القرآن الکریم فی هذا المجال: وَ رَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِیثَاقِهِمْ وَ قُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَ قُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُوا فِی السَّبْتِ وَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِیثَاقاً غَلِیظاً .

فهل یصح أن تکون هذه المجموعه مع ما تمتلکه من سوابق سیئه و تاریخ أسود صادقه مع النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیما طلبته منه و إن کان هؤلاء صادقین،لما ذا إذن لم یلتزموا بما نزل علیهم صریحا فی کتابهم السماوی و حول العلامات الخاصّه بخاتم النّبیین؟و لما ذا أصروا علی تجاهل کل ما أتی به النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من براهین و أدله واضحه بیّنه؟ و هنا تجدر الإشاره إلی أمرین،و هما:

أوّلا-لو اعترض معترض فقال:إن تلک الأعمال کانت خاصّه بالیهود السابقین،فما صلتها بالیهود فی زمن النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟ فنقول:إنّ الیهود فی زمن النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یبدوا اعتراضا و استنکارا- أبدا-لأعمال أسلافهم السابقین،بل کانوا یظهرون الرضی عن تلک الأعمال.

۱- ۱) -للاطلاع أکثر علی قضیه جبل الطّور،و هل أنّ رفعه فوق رؤوس الیهود کان نتیجه زلزله،أم هناک عامل آخر و کذلک فیما یتعلق بعجل السامری،و مساوئ الیهود،راجع الجزء الأوّل من هذا التّفسیر فی البحث الخاص بهذه المواضیع.

أمّا الأمر الثّانی:فیخصّ مسأله نزول التوراه دفعه واحده،حیث قلنا فی سـبب نزول الآیتین الأخیرتین:«إنّ الیهود کانوا یزعمون نزول هـذا الکتاب السـماوی دفعه واحـده،فی حین أنّ هذا الأمر لا یعتبر من الأمور المؤکّده،و لعل الشـیء الذی أدی إلی حصول هذا الوهم هو الوصایا العشـره»التی نزلت فی ألواح دفعه واحده علی النّبی موسی علیه السّلام،بینما لا یوجد لدینا دلیل علی نزول بقیه أحکام التوراه دفعه واحده.

ص :۵۱۹

الآیات [سوره النساء (۴): الآیات ۱۵۵ الی ۱۵۸]

اشاره

فَبِمٰا نَقْضِهِمْ مِیثٰاقَهُمْ وَ کُفْرِهِمْ بِآیٰاتِ اَللّٰهِ وَ قَتْلِهِمُ اَلْأَنْبِیٰاءَ بِغَیْرِ حَقٍّ وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنٰا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اَللّٰهُ عَلَیْهٰا بِکُفْرِهِمْ فَلاٰ یُؤْمِنُونَ إِلاّٰ قَلِیلاً (۱۵۵) وَ بِکُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلیٰ مَرْیَمَ بُهْتٰاناً عَظِیماً (۱۵۶) وَ قَوْلِهِمْ إِنّٰا قَتَلْنَا اَلْمَسِیحَ عِیسَی اِبْنَ مَرْیَمَ رَسُولَ اَللّٰهِ وَ مٰا قَتَلُوهُ وَ مٰا صَلَبُوهُ وَ لٰکِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ اَلَّذِینَ اِخْتَلَفُوا فِیهِ لَفِی شَکٍّ مِنْهُ مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اِتِّبٰاعَ اَلظَّنِّ وَ مٰا قَتَلُوهُ یَقِیناً (۱۵۷) بَلْ رَفَعَهُ اَللّٰهُ إِلَیْهِ وَ کٰانَ اَللّٰهُ عَزِیزاً حَکِیماً (۱۵۸)

التّفسیر

اشاره

نماذج أخری من ممارسات الیهود العدوانیه:

تشیر هذه الآیات إلی نماذج أخری من انتهاکات بنی إسرائیل و ممارساتهم العدوانیه التی واجهوا بها أنبیاء اللّه.

فالآیه الأولی تشیر إلی قیام الیهود بنقض العهود،و إلی ارتداد بعضهم و کفرهم بآیات اللّه و قتلهم للأنبیاء،بحیث استوجبوا غضب اللّه و الحرمان من رحمته و حرمانهم من قسم من نعم اللّه الطاهره.

فقد أنکر هؤلاء آیات اللّه و کفروا بها بعد نقضهم للعهد و اتّبعوا بذلک سبیل

الضلال و لم یکتفوا بهذا الحدّ،بل تمادوا فی غیّهم،فارتکبت أیادیهم الآثمه جریمه کبری،إذ عمدوا إلی قتل الهداه و القاده إلی طریق الحق من أنبیاء اللّه، إیغالا منهم فی اتباع طریق الباطل و الابتعاد عن طریق الحق.

لقد کان هؤلاء الیهود بدرجه من العناد و الصلف و الوقاحه،بحیث کانوا یواجهون کلام الأنبیاء بالسخریه و الاستهزاء،و وصل بهم الأمر إلی أن یقولوا بکل صراحه أنّ قلوبهم تغطیها حجب عن سماع و قبول قول الأنبیاء!تقول الآیه الأولی من الآیات الأربع الأخیره: فَبِمٰا نَقْضِهِمْ (۱) مِیثٰاقَهُمْ وَ کُفْرِهِمْ بِآیٰاتِ اللّٰهِ وَ قَتْلِهِمُ الْأَنْبِیٰاءَ بِغَیْرِ حَقٍّ وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنٰا غُلْفٌ... .

و هنا یؤکّد القرآن الکریم أنّ قلوب هؤلاء مختومه حقا،بحیث لا ینفذ إلیها أی حقّ،و سبب ذلک هو کفرهم و انعدام الإیمان لدیهم،فهم لا یؤمنون لعنادهم و صلفهم إلاّ القلیل منهم.

و قد تجاوز هؤلاء المجرمون الحدّ،فالصقوا بمریم العذراء الطاهره تهمه شنیعه و بهتانا عظیما،هی أمّ لأحد أنبیاء اللّه الکبار،و ذلک لأنّها حملت به بإذن اللّه دون أن یمسها رجل،تقول الآیه فی هذا المجال: وَ بِکُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلیٰ مَرْیَمَ بُهْتٰاناً عَظِیماً .

و قد تباهی هؤلاء الجناه و افتخروا بقتلهم الأنبیاء،و زعموا أنّهم قتلوا المسیح عیسی بن مریم رسول اللّه،تقول الآیه: وَ قَوْلِهِمْ إِنّٰا قَتَلْنَا الْمَسِیحَ عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ رَسُولَ اللّٰهِ... و لعل هؤلاء کانوا یأتون بعباره«رسول اللّه»استهزاء و نکایه،و قد کذبوا بدعواهم هذه فی قتل المسیح،فهم لم یقتلوه و لم یصلبوه،بل صلبوا شخصا شبیها بعیسی المسیح علیه السّلام،و إلی هذه الواقعه تشیر الآیه بقولها:

ص:۵۲۱

۱- ۱) -إن عباره«فبما نقضهم»من ناحیه الإعراب جار و مجرور،و یجب أن یکون لها عامل محذوف قد یکون تقدیره «لعناهم»أو جمله«حرمنا علیهم»الوارده فی الآیه(۱۶۰)التالیه،و علی هذا الأساس فإن ما ورد فی هذا الإطار یکون بمثابه جمله معترضه،تضفی فی مثل هذه الحاله جمالا أکثر علی الکلام القرآنی البلیغ.

وَ مٰا قَتَلُوهُ وَ مٰا صَلَبُوهُ وَ لٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ...

و أكّدت الآيه أنّ الـذين اختلفوا فى أمر المسيح عليه السّلام كانوا-هم أنفسهم-فى شك من أمرهم،فلم يكن أحدهم يؤمن و يعتقد بما يقول،بل كانوا يتبعون الأوهام و الظن،تقول الآيه: وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبٰاعَ الظَّنِّ... .

و قد بحث المفسّرون حول موضوع الخلاف الوارد فى هذه الآيه، فاحتمل بعضهم أن يكون الخلاف حول منزله و مقام المسيح عليه السّلام حيث اعتبره جمع من المسيحيين ابنا للّه،و رفض البعض الآخر-كاليهود-كونه نبيّا،و إن كل هؤلاء كانوا على خطأ من أمرهم.

و قد يكون المقصود بالخلاف هو موضوع كيفيه قتل المسيح عليه السّلام حيث قال البعض بأنّه قتل،و قال آخرون بأنّه لم يقتل،و لم يكن أى من هاتين الطائفتين ليثق بقول نفسه.

أو لعل الذين ادعوا قتل المسيح وقعوا فى شك من هذا الأمر لعدم معرفتهم بالمسيح عليه السّلام،فاختلفوا فى الذى قتلوه هل كان هو المسيح،أو هو شخص غيره...؟! و يأتى القرآن ليؤكّد هنا بأن هؤلاء لم يقتلوا المسيح أبدا،بل رفعه اللّه إليه، و اللّه هو القادر على كل شيء،و هو الحكيم لدى فعل أى شيء،تقول الآيه: وَ مٰا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ إِلَيْهِ وَ كٰانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً .

اسطوره الصّليب؟

يؤكّد القرآن الكريم فى الآيه المارّه الذكر على أنّ المسيح عليه السّلام لم يقتل و لم يصلب،بل اشتبه الأمر على اليهود فظنوا أنّهم صلبوه،و هم لم يقتلوه أبدا! أمّا الأناجيل الأربعه الموجوده اليوم فى متناول أيدينا فهى كلها تقول بأنّ

المسیح علیه السّلام قد صلب و قتل علی هذه الصوره،و قد جاء هذا القول فی الفصول الأخیره من هذه الأناجیل الأربعه«متی-لوقا-مرقس-یوحنا»و بصوره تفصیلیه.

و المسیحیون الیوم یعتقدون بهذا الأمر بصوره عامّه،و مسأله الصلب أو قتل المسیح علیه السّلام تعتبر الیوم أحد أهم المسائل الأساسیه للدیانه المسیحیه،و نحن نعلم أنّ المسیحیین الیوم لا یعتبرون المسیح علیه السّلام مجرّد نبی أرسل لهدایه و إرشاد البشریه،بل یعتقدون بأنّه«ابن اللّه»من أرکان الثالوث المقدس لدیهم،و یزعمون بأنّ هدف مجیء المسیح إلی هذا العالم لیکون قربانا یفتدی بنفسه مقابل الخطایا و الآثام التی یرتکبها البشر.

فیقولون:إنّه جاء لیضحی بنفسه من أجل ذنوبهم و خطایاهم،و قد صلب و قتل لیغسل بدمه ذنوب البشر،و لینقذ البشریه من العقاب،و لذلک فهم یعتقدون بأنّ طریق الخلاص و النجاه من العذاب و العقاب هو الإیمان بهذا الموضوع.

و من هذا المنطلق فهم-أحیانا-یدعون المسیحیه بدین«الإنقاذ»أو دین «الفداء»و یسمّون المسیح علیه السّلام ب«المنقذ»أو«المخلص»أو«الفادی».

و اعتمادهم المفرط علی الصلیب و اتخاذه شعارا لأنفسهم إنّما یرتکز علی قضیه القتل و الصلب هذه.

کانت تلک نبذه عن عقیده المسیحیین حول مصیر المسیح علیه السّلام.

أمّا المسلمون فلا یشکّ أحدهم ببطلان و زیف هذه العقیده،و السبب هو أنّ المسیح عیسی بن مریم علیه السّلام،کان نبیّا کسائر أنبیاء اللّه أوّلا،و لم یکن هو اللّه و لا ابن اللّه،لأن اللّه واحد أحد فرد صمد لا شبیه و لا مثیل و لا زوج له و لا ولد.

و ثانیا:إنّ مسأله الفداء و التضحیه من أجل خطایا الآخرین،تعتبر مسأله بعیده عن المنطق کل البعد،فکل إنسان یؤاخذ بجریرته و عمله،و إنّ طریق النجاه و الخلاص یکون فی الإیمان و العمل الصالح فقط.

و ثالثا:إنّ عقيده الفداء من أجل الخطايا تعتبر خير مشجع على الفساد و ممارسه الذنوب،و تؤدى بالبشريه إلى التلوث و الهلاك.

و حين تلاحظ أن القرآن يؤكّد على قضيه عدم صلب المسيح عليه السّلام مع أنّ هذه القضيه تظهر للعيان و كأنّها مسأله اعتياديه بسيطه،من أجل دحض عقيده الفداء الخرافيه بشدّه،لمنع المسيحيين من الإيغال فى هذا الإعتقاد الفاسد،و لكى يؤمنوا بأنّ طريق الخلاص و النجاه إنّما هو فى أعمالهم هم أنفسهم و ليس فى ظل الصليب.

رابعا:هناك قرائن موجوده تثبت وهن و ضعف قضيه الإعتقاد بصلب المسيح عليه السّلام هى:

۱-المعروف أنّ الأناجيل الأربعه المتداوله فى الوقت الحاضر،و التى تشهد بصلب المسيح عليه السّلام-كانت قد دوّنت بعده بسنين طويله،و قد دوّنها حواريوه أو التالون من أنصاره عليه السّلام-و هذه حقيقه يعترف بها حتى المؤرخون المسيحيون.

كما نعرف أيضا أنّ حوارى المسيح عليه السّلام قد هربوا حين هجم الأعداء عليه، و الأناجيل نفسها تشهد بهذا الأمر (۱) و على هذا الأساس فإنّ هؤلاء الحواريين قد تلقفوا مسأله صلب عيسى المسيح عليه السّلام من أفواه الناس الآخرين،و لم يكونوا حاضرين أثناء تنفيذ عمليه الصلب،و قد أدت التطورات التى حصلت آنذاك إلى تهيئه الأجواء المساعده للاشتباه بشخص آخر و صلبه بدل المسيح عليه السّلام، و سنوضح هذا الأمر فيما يلى من حديثنا.

۲-إنّ العامل الآخر الذى يجعل من الاشتباه بشخص آخر بدل المسيح عليه السّلام أمرا محتملا هو أنّ المجموعه التى كلّفت بالقبض على عيسى المسيح عليه السّلام و التى ذهبت إلى بستان«جستيمانى»هذه المجموعه كانت تتشكل من أفراد الجيش الرومى الذين كانوا منهمكين فى أمور عسكريه،فهم لم يكونوا يعرفون اليهود

۱- ۱) -لقد ترك الحواريون المسيح عليه السّلام فى ذلك الوقت و هربوا كلهم...(من إنجيل متى،الإصحاح ۲۶ الجمله ۵۷).

و لغتهم و تقاليدهم،كما لم يميزوا بين حوارى المسيح عليه السّلام و بين المسيح نفسه.

۳-تذكر الأناجيل أن الهجوم على مقر عيسى المسيح عليه السّلام قد تمّ ليلا، و بديهى أنّ ظلام الليل يعتبر خير ستار للشخص المطلوب ليتخفى به و يهرب، و ليقع شخص آخر فى أيدى المهاجمين.

۴-يستنتج من نصوص جميع الأناجيل أنّ المقبوض عليه قد اختار الصمت أمام«بيلاطيس»الحاكم الرومى لبيت المقدس-آنذاك- و لم يتفوه إلّا بالقليل دفاعا عن نفسه و يستبعد كثيرا أن يقع عيسى المسيح عليه السّلام فى خطر كهذا و لا يدافع عن نفسه بما يستحقه الدفاع عن النفس،و هو المعروف بالفصاحه و البلاغه و الشجاعه و الشهامه.

أ لا يحتمل فى هذا المجال أن يكون شخص آخر-ك«يهوذا الأسخربوطى» الذى خان و وشى بعيسى المسيح عليه السّلام و كان يشبهه كثيرا-قد وقع هو بدل المسيح فى الأسر و أنّه لهول الموقف قد استولى عليه الخوف و الرعب،فعجز عن الدفاع عن نفسه أو التحدث أمام الجلادين بشىء.

نقرأ فى الأناجيل أنّ«يهوذا الأسخربوطى»لم يظهر بعد حادثه الصّلب أبدا، و أنّه-كما تقول هذه الأناجيل-قد قتل نفسه و انتحر (۱) .

۵-لقد بيّنا أنّ حوارى المسيح عليه السّلام-و كما ذكرت الأناجيل-قد هربوا حين أحسوا بالخطر يحدق بهم،كما هرب و اختفى الأنصار الآخرون،و أخذوا يراقبون الأوضاع عن بعد،بحيث أصبح الشخص المقبوض عليه وحيدا بين الجنود الرومان،و لم يكن أى من أصحابه قريبا منه،و لذلك لا يستبعد و لا يبدو غريبا أن يقع خطأ أو سهو فى تشخيص هويه الشخص المقبوض عليه.

۶-و نقرأ فى الأناجيل-أيضا-أنّ الشخص المصلوب قد اشتكى من ربه

۱- ۱) -إنجيل متى،الإصحاح ۳۷،الجمله ۶.

(و ليس لربّه)لأنّه-بحسب قوله-قد جفاه و تركه بأيدى الأعداء ليقتلوه (۱) ! فلو صدقنا مقوله أنّ المسيح جاء لهذه الدنيا ليصلب و لينقذ بصلبه البشريه من عواقب خطاياهم و آثامهم،فلا يليق لمن يحمل هدفا ساميا كهذا الهدف أن يصدر منه هذا الكلام،و هذا دليل على أن الشخص المصلوب لم يكن المسيح نفسه،بل كان إنسانا ضعيفا و جبانا،و عاجزا،و مثل هذا الإنسان يمكن أن يصدر منه كلام كالذى سبق،لا يمكن أن يكون هذا الإنسان هو المسيح عليه السّلام (۲) .

۷-لقد نفت بعض الأناجيل الموجوده مثل إنجيل«برنابا»قضيه صلب المسيح عليه السّلام(و هذا الإنجيل هو غير الأناجيل الأربعه التى يقبلها المسيحيون)كما أنّ بعضا من الطوائف المسيحيه أبدت شكوكها حول قضيه الصلب (۳) و قد ذهب بعض الباحثين إلى أبعد من هذا،فادعوا بأن التاريخ قد ذكر شخصين باسم «عيسى»أحدهما عيسى المصلوب و الآخر هو عيسى غير المصلوب و بينهما فاصل زمنى يقدر بخمسمائه عام (۴) .

كانت تلك مجموعه من القرائن المؤيده لقول القرآن الكريم فى قضيه الشبه الحاصل فى قتل أو صلب المسيح عليه السّلام.

۱- ۱) -إنجيل متى-الإصحاح ۲۷،الجملتان ۴۶ و ۴۷.

۲- ۲) -لقد اقتبسنا عددا من القرائن المذكوره أعلاه من كتاب«بطل الصليب».

۳- ۳) -تفسير المنار،الجزء السابع،ص ۳۴.

۴- ۴) -الميزان،الجزء الثّالث،ص ۳۴۵.

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱۵۹]

اشاره

وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ اَلْكِتٰابِ إِلاّٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (۱۵۹)

التّفسیر

اشاره

هنالک احتمالان فی تفسیر هذه الآیه،و کل واحد منهما جدیر بالملاحظه من جوانب متعدده:

۱-إنّ الآیه تؤکّد أنّ أی إنسان یمکن أن لا یعتبر من أهل الکتاب ما لم یؤمن قبل موته بالمسیح علیه السّلام حیث تقول: وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ إِلاّٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ... و أن هذا الأمر یتمّ حین یشرف الإنسان علی الموت و تضعف صلته بهذه الدنیا،و تقوی هذه الصله بعالم ما بعد الموت،و ترفع عن عینیه الحجب فیری بعد ذلک الکثیر من الحقائق و یدرکها،و فی هذه اللحظه یری المسیح بعین بصیرته و یؤمن به،فالذین أنکروا نبوته یؤمنون به،و الذین وصفوه بالألوهیه یدرکون فی تلک اللحظه خطأهم و انحرافهم.

و بدیهی أنّ مثل هذا الإیمان لا ینفع صاحبه،کما أنّ فرعون و الأقوام الأخری و أقوام استولی علیهم العذاب،فقالوا:آمنا فلم ینفعهم إیمانهم أبدا، فالأجدر بالإنسان أن یؤمن قبل أن تدرکه لحظه العذاب عند الموت،حین لا ینفع الإیمان صاحبه.

و تجدر الإشاره-هنا-إلی أنّ الضمیر فی عباره«قبل موته»یعود لأهل الکتاب بناء علی التّفسیر الذی ذکرناه.

۲-قد یکون المقصود فی الآیه هو أنّ جمیع أهل الکتاب یؤمنون بعیسی المسیح قبل موته،فالیهود یؤمنون بنبوته و المسیحیون یتخلون عن الإعتقاد بربوبیه المسیح علیه السّلام،و یحدث هذا-طبقا للروایات الإسلامیه-حین ینزل المسیح علیه السّلام من السماء لدی ظهور المهدی المنتظر عجل اللّه تعالی فرجه،و واضح أن عیسی المسیح سیعلن فی مثل هذا الیوم انضواءه تحت رایه الإسلام،لأن الشریعه السماویه التی جاء بها إنّما نزلت قبل الإسلام،و لذلک فهی منسوخه به.

و بناء علی هذا التّفسیر فإن الضمیر فی عباره«قبل موته»یعود إلی عیسی المسیح علیه السّلام.

و

قد نقل عن النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: «کیف بکم إذا نزل فیکم ابن مریم و إمامکم منکم» (۱) و طبیعی أنّ هذا التّفسیر یشمل الیهود و المسیحیین الموجودین فی زمن ظهور المهدی المنتظر عجل اللّه تعالی فرجه الشریف،و نزول عیسی المسیح علیه السّلام من السماء.

و جاء فی تفسیر«علی بن إبراهیم»نقلا عن«شهر بن حوشب»إنّ الحجاج ذکر یوما أن هناک آیه فی القرآن قد أتبعته کثیرا و هو حائر فی معناها،فسأله«شهر» عن الآیه،فقال الحجاج:إنّها آیه وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ... و ذکر أنّه قتل یهودا و مسیحیین و لم یشاهد فیهم أثرا لمثل هذا الإیمان.

فأجابه«شهر»بأنّ تفسیره للآیه لم یکن تفسیرا صحیحا،فاستغرب الحجاج و سأل عن التّفسیر الصحیح للآیه.

فأجاب«شهر»بأنّ تفسیر الآیه هو أن المسیح ینزل من السماء قبل نهایه العالم،فلا یبقی یهودی أو غیر یهودی إلاّ و یؤمن بالمسیح قبل موته،و أن المسیح

۱- ۱) -مسند أحمد،و صحیح البخاری،و صحیح مسلم،و سنن البیهقی،کما جاء فی تفسیر المیزان.

سیقیم الصّلاه خلف المهدی المنتظر عجل اللّه تعالی فرجه الشریف.

فلما سمع الحجاج هذا الکلام قال ل«شهر»ویلک من أین جئت بهذا التّفسیر؟فأجابه«شهر»بأنّه قد سمعه من محمّد بن علی بن الحسین بن علی بن أبی طالب علیهم السّلام.

و عند ذلک قال الحجاج:«و اللّه جئت بها من عین صافیه» (۱) .

و تقول الآیه فی الختام: وَ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ یَکُونُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً أی شهاده المسیح علیه السّلام علی قومه بأنّه قد بلّغهم رساله اللّه و لم یدعهم لاتّخاذه إلها من دون اللّه،بل دعاهم إلی الإقرار بربوبیه اللّه الواحد القهار.

سؤال:

و قد یعترض البعض بأنّ المسیح علیه السّلام-کما جاء فی الآیه(۱۱۷)من سوره المائده-إنّما یقصر شهادته علی الزمن الذی کان هو موجودا فیه بین قومه و یتنصل عن الشهاده بالنسبه للأزمنه التی جاءت بعده،و ذلک بدلاله الآیه التی جاءت علی لسانه و هی تقول: وَ کُنْتُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً مٰا دُمْتُ فِیهِمْ فَلَمّٰا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ وَ أَنْتَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ لکن الآیه التی هی موضوع بحثنا الآن تدل علی أنّ المسیح علیه السّلام یشهد علی الجمیع یوم القیامه،سواء أولئک الذین کانوا فی عصره و زمانه أو الذین لم یکونوا فی ذلک الزمان.

الجواب:

و الجواب علی هذا الاعتراض هو أنّنا لو أمعنا النظر فی مضمون الآیتین المذکورتین،لرأینا أنّهما تدلان علی أنّ الآیه الأخیره التی هی موضوع البحث- تتحدث عن الشهاده حول تبلیغ الرساله و نفی الألوهیه عن المسیح علیه السّلام بینما الآیه (۱۱۷)من سوره المائده تشهد علی أعمال أولئک القوم.

فالآیه الأخیره تذکر أنّ عیسی المسیح علیه السّلام سیشهد علی جمیع الذین نسبوا

۱- ۱) -تفسیر البرهان،الجزء الأوّل،ص ۴۲۶.

له الألوهيه،سواء من كانوا فى زمانه أو من جاءوا بعد ذلك الزمان،و أن المسيح عليه السّلام يؤكّد أنّه لم يدع هؤلاء القوم إلى مثل هذا الأمر أبدا،بينما الآيه(١١٧)من سوره المائده تذكر على لسان المسيح عليه السّلام أنّه علاوه على الدعوه لرسالته بالأسلوب الصحيح،فهو قد حال طيله فتره بقائه بين قومه-دون انحرافهم،إلاّ أنّهم انحرفوا بعده و نسبوا له الألوهيه فى زمن لم يكن هو موجودا بينهم،ليشهد على أعمالهم و ليحول دون انحرافهم.

ص :٥٣٠

الآيات [سوره النساء (۴): الآيات ۱۶۰ الى ۱۶۲]

اشاره

فَبِظُلْمٍ مِنَ اَلَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا عَلَيْهِمْ طَيِّبٰاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ كَثِيراً (۱۶۰) وَ أَخْذِهِمُ اَلرِّبٰوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَكْلِهِمْ أَمْوٰالَ اَلنّٰاسِ بِالْبٰاطِلِ وَ أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ مِنْهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً (۱۶۱) لٰكِنِ اَلرّٰاسِخُونَ فِي اَلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ اَلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ اَلْمُقِيمِينَ اَلصَّلاٰةَ وَ اَلْمُؤْتُونَ اَلزَّكٰاةَ وَ اَلْمُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ أُولٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (۱۶۲)

التّفسير

اشاره

مصير الصالحين و الطالحين من اليهود:

لقد أشارت الآيات السابقه إلى نماذج من انتهاكات اليهود،أما الآيات الأخيره فإنما ذكرت نماذج أخرى من تلك الانتهاكات،و بيّنت العقوبات التى استحقها اليهود بسبب تمردهم و عصيانهم،و العذاب الذى لا قوه و سيلاقوه نتيجه لذلك فى الدنيا و الآخره.

فالآيه الأولى من الآيات الأخيره تبيّن أنّ اللّه قد حرم بعضا من الأشياء الطاهره على اليهود بسبب ممارستهم الظلم و الجور،و تصديهم للسائرين فى

طريق اللّه،حيث تقول الآيه: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا عَلَيْهِمْ طَيِّبٰاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ كَثِيراً كما عاقبهم اللّه بالحرمان من تلك الطيبات لتعاملهم بالربا على الرغم من منعهم من ممارسه المعاملات الربويه و لاستيلائهم على أموال الآخرين بطرق غير مشروعه،فتقول الآيه فى هذا المجال: وَ أَخْذِهِمُ الرِّبٰوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَكْلِهِمْ أَمْوٰالَ النّٰاسِ بِالْبٰاطِلِ... .

و تؤكّد الآيه أنّ عذاب اليهود لمعاصيهم تلك لا يقتصر على العقاب الدنيوى، بل سيذيقهم اللّه-أيضا-عقاب و عذاب الآخره الأليم الذى يشمل الكافرين من اليهود،تقول الآيه الكريمه: وَ أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ مِنْهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً .

و تجدر الإشاره-هنا إلى عده أمور،و هى:

١-إنّ المقصود بالطيبات المحرمه على اليهود هى تلك التى ذكرتها الآيه (١۴۶)من سوره الأنعام، و التى شملت بعض الحيوانات و شحوم حيوانات أخرى كالبقر و الأغنام التى أحبّها اليهود،و لم يكن هذا التحريم تحريما تكوينيا، بل كان تحريما تشريعيا قانونيا،أى أن اليهود منعوا من استعمال هذه النعم مع أنّها كانت متيسره فى أيديهم.

و قد جاء ذكر بعض هذا التحريم فى التوراه المتداوله بيد اليهود حاليا،فى «سفر الآويين»فى الفصل الحادى عشر،و لكن لم تشر التوراه الحاليه إلى الطابع العقابى لهذا التحريم (١) .

٢-أمّا هل أنّ هذا التحريم يتميز بطابع شمولى،أى هل يشمل غير الظالمين من اليهود،أم يخص الظالمين وحدهم؟فإنّ ظاهر الآيه المذكوره أعلاه و الآيه (١۴۶)من سوره الأنعام،يدلان على أنّ التحريم له طابع عام بدلاله عباره«لهم» على عكس العقاب الأخروى الذى تخصصه الآيه لِلْكٰافِرِينَ مِنْهُمْ و على هذا الأساس فإن هذا التحريم له طابع عقابى بالنسبه للظالمين من اليهود،كما يحمل

١- ١) -راجع الجزء الثّانى من تفسيرنا هذا.

طابع الاختبار و الامتحان بالنسبه لأخيارهم الذين يشكلون الأقليه فيهم.

و قد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ هذا التحريم يشمل الظالمين من اليهود فقط،كما تدل بعض الروايات على هذا الرأى-أيضا- فقد جاء فى تفسير البرهان فى تفسير الآيه(۱۴۶)من سوره الأنعام،

نقلا عن الإمام الصّادق عليه السّلام: «إنّ زعماء بنى إسرائيل كانوا قد حرموا على فقراء طائفتهم أكل لحوم الطيور و شحوم الحيوانات،و لهذا السبب حرم اللّه على هؤلاء الظالمين مثل هذه الطيبات عقابا لهم على ظلمهم و جورهم (۱) ».

۳-و تدل هذه الآيه-أيضا-على أنّ تشريع تحريم«الربا»لم يقتصر على الإسلام وحده، بل كان محرما لدى الأقوام و الديانات السابقه،و التوراه المتداوله حاليا و المحرفه إنّما تحرم على اليهود أخذ الربا من أبناء عقيدتهم فقط،و لا تعتبر أخذه من أبناء الديانات الأخرى حراما عليهم (۲) .

و قد أشارت الآيه الثّالثه من الآيات الأخيره إلى حقيقه مهمّه اعتمدها القرآن الكريم مرارا فى آيات متعدده،و هى أنّ ذمّ اليهود و انتقادهم فى القرآن لا يقومان على أساس عنصرى أو طائفى على الإطلاق،لأنّ الإسلام لم يذم أبناء أى طائفه أو عنصر لانتمائهم الطائفى أو العرقى،بل وجه الذم و الانتقاد للمنحرفين و الضالمين منهم فقط،لذلك استثنت هذه الآيه المؤمنين الأتقياء من اليهود و مدحتهم و بشرتهم بنيل أجر عظيم،حيث تقول الآيه الكريمه: لٰكِنِ الرّٰاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلاٰةَ وَ الْمُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أُولٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (۳) .

ص: ۵۳۳

۱- ۱) -تفسير البرهان،الجزء الأوّل،ص ۵۵۹.

۲- ۲) -التوراه،سفر التثنيه،الفصل ۲۳،الجملتان ۱۹ و ۲۰.

۳- ۳) -لقد شرحنا بنوع من التفصيل،معنى عباره«الراسخون فى العلم»و ذلك فى الجزء الثّانى من تفسيرنا هذا.

و قد آمن جمع من كبار الطائفه اليهوديه بالإسلام حين بعث النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و حين شاهدوا على يديه الكريمتين دلائل أحقّيّه الإسلام،و دافع هؤلاء بأرواحهم و أموالهم عن الإسلام،و كانوا موضع احترام و تقدير النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سائر المسلمين.

ص :۵۳۴

الآیات [سوره النساء (۴): الآیات ۱۶۳ الی ۱۶۶]

اشاره

إِنّٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ كَمٰا أَوْحَيْنٰا إِلىٰ نُوحٍ وَ اَلنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ اَلْأَسْبٰاطِ وَ عِيسىٰ وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هٰارُونَ وَ سُلَيْمٰانَ وَ آتَيْنٰا دٰاوُدَ زَبُوراً (۱۶۳) وَ رُسُلاً قَدْ قَصَصْنٰاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اَللّٰهُ مُوسىٰ تَكْلِيماً (۱۶۴) رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلاّٰ يَكُونَ لِلنّٰاسِ عَلَى اَللّٰهِ حُجَّةٌ بَعْدَ اَلرُّسُلِ وَ كٰانَ اَللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۱۶۵) لٰكِنِ اَللّٰهُ يَشْهَدُ بِمٰا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ اَلْمَلاٰئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً (۱۶۶)

التّفسیر

لقد تناولت الآیات السابقه مسأله التمییز الذی مارسه الیهود بشأن الأنبیاء، حیث کانوا یؤمنون و یصدقون ببعض أنبیاء اللّه تعالی و یکفرون بالبعض الآخر منهم.

أمّا الآیات أعلاه فهی ترد علی الیهود،و تؤکّد أنّ اللّه أوحی إلی نبیّه محمّدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما أنزل الوحی علی أنبیائه نوح و النّبیین الذین جاؤوا من بعد نوح، و کما أوحی إلی إبراهیم و إسماعیل و إسحاق و یعقوب علیهم السّلام و أنزل الوحی علی

الأنبياء من أبناء يعقوب،و على عيسى و أيوب و يونس و هارون و سليمان عليهم السّلام، و كما أنزل اللّه على داود عليه السّلام كتاب الزّبور،حيث تقول الآيه: إِنّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنا إِلىٰ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِيسىٰ وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَيْمانَ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً .

و هذه الآيه تردّ على اليهود مؤكّده على أنّ شرائع الأنبياء العظام مستقاه كلها من ينبوع الوحى الإلهى،و إنّهم جميعا يسيرون فى طريق واحد،و لذلك لا تجوز التفرقه بينهم.

و قد تكون هذه الآيه خطابا للمشركين و الكفار من عرب الجاهليه،الذين كانوا يظهرون الدهشه و العجب من نزول الوحى على نبى الإسلام محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فهى تردّ على هؤلاء مؤكّده أن لا عجب فى نزول الوحى على محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد نزل قبل ذلك على الأنبياء السابقين.

ثمّ تبيّن الآيه أنّ الوحى لم يقتصر نزوله على هؤلاء الأنبياء،بل نزل على أنبياء آخرين حكى اللّه قصصهم للنّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قبل،و أنبياء لم يحك اللّه قصصهم،و كل هؤلاء الأنبياء أرسلهم اللّه إلى خلقه،و أنزل عليهم الوحى من عنده،تقول الآيه: وَ رُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ... .

و تبيّن هذه الآيه فى آخرها قضيه مهمّه جدّا،و هى أنّ اللّه قد كلم موسى بدل أن ينزل عليه الوحى،فتقول: وَ كَلَّمَ اللّٰهُ مُوسىٰ تَكْلِيماً... .

و على هذا الأساس فإنّ صله الوحى ظلت باقيه بين البشر،و لم يكن من عدل اللّه أن يترك البشر دون مرشد أو قائد،أو أن يتركهم دون أن يعين لهم واجباتهم و تكاليفهم،و هو الذى بعث الأنبياء و الرسل للبشر مبشرين و منذرين، لكى يبشروا الناس برحمته و ثوابه،و ينذرونهم من عذابه و عقابه لكى يتمّ الحجه عليهم فلا يبقى لهم عذر أو حجّه،تقول الآيه: رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلاّ

يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ

.

فقد أحكم اللّه العزيز القدير خطّه إرسال الأنبياء و نفذها بكل دقه،و بهذا تؤكد الآيه وَ كانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً فحكمته توجب تحقيق هذا العمل،و قدرته تمهد السبيل إلى تنفيذه،و على عكس ذلك فإن إهمال هذا الأمر المهم،إمّا أن يدل على الافتقار إلى الحكمه و المعرفه،أو أنّه دلاله على العجز،و اللّه منزّه عن كل هذه العيوب.

أمّا الآيه الأخرى فهى تطمئن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و توضح له أن المهم هو أنّ اللّه قد شهد بما أنزل عليه من كتاب،و ليس المهم أن يؤمن نفر من هؤلاء بهذا الكتاب أو يكفروا به-فتؤكد الآيه فى هذا المجال- لكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ .

و لم يكن اختيار اللّه لمحمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لمنصب النّبوه أمرا عبثا-و العياذ باللّه-بل كان هذا الإختيار نابعا من علم اللّه بما كان يتمتع به النّبى من لياقه و كفاءه لهذا المنصب العظيم،و لنزول آيات اللّه عليه-حيث تقول الآيه: أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ .

و يمكن-أيضا-أن تشمل هذه الآيه معنى آخر،و هو أن ما نزل على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من آيات إنّما ينبع من بحر علم اللّه اللامتناهى،و إن محتوى هذه الآيات يعتبر دليلا واضحا على أنّها نابعه من علم اللّه-و على هذا الأساس فإن الشاهد على صدق ادعاء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو الآيات القرآنيه،و لا يحتاج إلى دليل آخر لإثبات دعوته،فلو لم يكن محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتلقى الوحى من قبل اللّه سبحانه و تعالى لما أمكنه أبدا-و هو المعروف بالأمى-أن يأتى بكتاب كالقرآن يشتمل على أرفع و أسمى التعاليم و الفلسفات و القوانين و المبادئ الأخلاقيه و البرامج الاجتماعيه.

و القرآن الكريم يؤكّد أن ليس اللّه وحده الذى يشهد بأن دعوه محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى الحق،بل يشهد معه ملائكته بأحقّيه هذه الدعوه،مع أن شهاده اللّه كافيه وحدها فى هذا المجال تقول الآيه الكريمه: وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفى بِاللّهِ شَهِيداً .

و یجب-هنا-الانتباه إلی عدّه أمور،و هی:

١-إنّ بعض المفسّرین فهموا من عباره إِنّٰا أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ کَمٰا أَوْحَیْنٰا... إنّها تهدف إلی بیان حقیقه من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هی أنّ جمیع الخصائص التی وردت فی الشرائع السماویه التی نزلت علی الأنبیاء قبله،جاءت مجتمعه فی الشریعه التی أنزلها اللّه علیه،و إنّ کل خصله اتصف بها عباد اللّه الصالحون هی موجوده فیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و قد أشارت بعض الروایات الوارده عن أهل البیت علیهم السّلام إلی هذا الموضوع أیضا فکان ما استلهمه المفسّرون من هذه الآیه نابعا أو مستندا علی تلک الروایات (١) .

٢-نقرأ فی الآیات الأخیره أنّ الزّبور من الکتب السماویه أنزله اللّه علی داود -و لا یتنافی هذا مع ما ورد من أنّ الأنبیاء أولی العزم الذین نزلت علیهم کتب من اللّه هم خمسه أنبیاء فقط،حیث إن الآیات القرآنیه و الروایات الإسلامیه توضح أن الکتب السماویه التی نزلت علی الأنبیاء کانت علی نوعین،هما:

النّوع الأوّل:الکتب التی اشتملت علی الأحکام التشریعیه،حیث أن کل کتاب من هذه الکتب قد أعلن عن شریعه جدیده،و أن هذه الکتب السماویه هی خمسه فقط نزلت علی خمسه أنبیاء هم«اولوا العزم».

النّوع الثّانی:الکتب التی لم تحتو علی أحکام جدیده،بل کان فیها الحکم و النصائح و الإرشادات و الوصایا و أنواع الدعاء، و کتاب«الزّبور»الذی نزل علی داود علیه السّلام من هذا النّوع الثّانی من الکتب السماویه-و«مزامیر داود»أو«زبور داود»الذی ورد اسمه فی«العهد القدیم»دلیل علی هذا الأمر الذی أثبتناه،مع العلم أنّ کتاب«العهد القدیم»لم یسلم من التحریف،کما لم تسلم کتب العهد الجدید و القدیم الأخری من التحریف أیضا،إلاّ أنّ ما یمکن قوله هو أنّ هذه

١- ١) -راجع تفاسیر الصافی،ص ١٣٩،و البرهان الجزء الأوّل،ص ٤٢٧،و نور الثقلین،الجزء الأوّل،ص ٥٧٣.

الكتب قد احتفظت نوعا ما بشكلها القديم.

و كتاب«مزامير داود»يشتمل على مائه و خمسين فصلا،يسمى كل فصل منه «مزمورا»و هو من أوّله إلى آخره يشتمل على صنوف النصح و الإرشاد و الدعاء و المناجاه.

و

نقل عن أبى ذر رضى اللّه عنه أنّه سأل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن عدد الأنبياء فأجابه النّبى:بأن عددهم يبلغ مائه و أربعا و عشرين ألفا،فسأل أبو ذر رضى اللّه عنه عن عدد الرسل من بين هؤلاء الأنبياء-فأجابه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:بأن عددهم هو ثلاثمائه و ثلاثه عشر رسولا و الباقون كلهم أنبياء...فسأل أبو ذر مره أخرى عن عدد الكتب السماويه التى نزلت على أولئك الأنبياء و الرسل،فأجابه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:بأنّها مائه و أربع كتب،نزل عشره منها على آدم،و نزل خمسون منها على شيث،و ثلاثون على إدريس، و عشره كتب على إبراهيم،حيث يصبح مجموع هذه الكتب مائه كتاب،و الأربعه الأخرى هى التوراه،و الإنجيل و الزبور و القرآن (١) .

٣-إنّ عباره«أسباط»هى صيغه للجمع و مفردها«سبط»و معناها طوائف بنى إسرائيل،و لكن المقصود منها فى الآيه هم الأنبياء الذين بعثوا من هذه الطوائف (٢) .

۴-لقد كان نزول الوحى على الأنبياء يتمّ بصور مختلفه،فمرّه ينزل بالوحى ملك من الملائكه المكلفين به و أحيانا يلقى الوحى على النّبى بواسطه الإلهام القلبى،و أخرى ينزل بصوره صوت يسمعه النّبى،أى أن اللّه يخلق الأمواج الصوتيه فى الفضاء أو الأجسام فيسمعها أنبياؤه و بهذه الواسطه كان يتمّ التخاطب بينهم و بين اللّه سبحانه و تعالى.

و من الذين حظوا بمزيه التخاطب مع اللّه النّبى موسى بن عمران عليه السّلام،فكان

١- ١) -مجمع البيان،الجزء الأوّل،ص ۴٧۶.

٢- ٢) -لقد ورد ذكر الأسباط بالتفصيل فى الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا.

یسمع الصوت،أحیانا من شجره وادی الأیمن،و أحیانا فی جبل طور،و لذلک لقب هذا النّبی بلقب«کلیم اللّه»، و لعل مجیء اسم النّبی موسی علیه السّلام فی الآیات الأخیره بصوره منفصله کان من أجل بیان هذه الخصیصه التی امتاز بها موسی علیه السّلام علی غیره من أنبیاء اللّه علیهم السّلام.

ص :۵۴۰

الآيات [سوره النساء (۴): الآيات ۱۶۷ الی ۱۶۹]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلاٰلاً بَعِيداً (۱۶۷) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اَللّٰهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لاٰ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (۱۶۸) إِلاّٰ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً وَ كٰانَ ذٰلِكَ عَلَى اَللّٰهِ يَسِيراً (۱۶۹)

التّفسير

جرى البحث فى الآيـات السـابقه حول المؤمنين و غير المؤمنين،أمّـا الآيات الثلاثه الأخيره فهى تشـير إلى مجموعه اختارت أقبح أنواع الكفر،فهؤلاء-بالإضافه-إلى انحرافهم و ضـلالهم سـعوا إلى تحريف و إضـلال الآخرين،و قد ظلموا أنفسـهم بفعلهم هذا و ظلموا الآـخرين معهم لأـنهم لم يسـيروا فى طريق الحق و لم يسـمحوا للآخرين-أيضا-باتّباع هـذا السبيل، و الآيه الكريمه تصـف هؤلاء بأنّهم فى ضلال بعيد و ذلك بقولها: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلاٰلاً بَعِيداً .

فلمـا ذا-يـا ترى-اسـتحق هؤلاـء الإبعـاد عن طريـق الحق؟إنّهم اسـتحقوا ذلـك لـدعوتهم الآـخرين إلى طريق الضـلال،حيث من المستبعد جدّا أن يتخلوا عن طريق هم يدعون الآخرين لاتّباعه-فقط خلط هؤلاء كفرهم بالعناد،و وضعوا

أقدامهم فی طریق الضلال و الانحراف،و ابتعدوا بذلک کثیرا عن طریق الحق و الصواب.

أمّا الآیه الأخری فتشیر إلی الذین کفروا و ظلموا،إذ ظلموا الحق أوّلا لعدم التزامهم بالصواب،کما ظلموا أنفسهم بذلک-أیضا- إذ حرموها من السعاده و سقطوا فی هوه الضلاله،و ظلموا الآخرین حین منعوهم من التوجه إلی طریق الحق و الصواب،فهؤلاء لن یشملهم أبدا عفو اللّه،و إن اللّه لا یهدیهم أبدا إلاّ إلی طریق جهنم،تقول الآیه: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ یَکُنِ اللّٰهُ لِیَغْفِرَ لَهُمْ وَ لاٰ لِیَهْدِیَهُمْ طَرِیقاً إِلاّٰ طَرِیقَ جَهَنَّمَ... .

فهؤلاء باقون و خالدون فی جهنم دائما و أبدا،کما تقول الآیه: خٰالِدِینَ فِیهٰا أَبَداً... .

و علی هؤلاء أن یعلموا أنّ وعد اللّه حق،و أن تهدیده یتحقق لا محاله،فلیس ذلک علی اللّه بالأمر الصعب تقول الآیه: وَ کٰانَ ذٰلِکَ عَلَی اللّٰهِ یَسِیراً .

و نشاهد فی الآیتین المذکورتین تأکیدا من طراز خاص حول هذا النوع من الکفار و العقوبات التی ینالونها-فمن جهه یوصف انحرافهم بالضلال البعید،و من جهه ثانیه تؤکد الآیه باستخدام عباره لَمْ یَکُنِ اللّٰهُ... أنّ العفو عن هؤلاء الکفار لا یلیق بمنزله اللّه سبحانه و تعالی،و من جانب آخر فقد جاء التأکید علی خلود هؤلاء فی النار و التشدید علی أنّه خلود أبدی،لأنّ هؤلاء و أمثالهم بالإضافه إلی خروجهم عن جاده الحق و انحرافهم،سعوا إلی إبعاد و حرف الآخرین عن هذا السبیل، و بذلک تحملوا مسئولیه و إثما عظیما.

ص :۵۴۲

الآيه [سوره النساء (۴): آيه ۱۷۰]

اشاره

يَا أَيُّهَا اَلنَّاسُ قَدْ جٰاءَكُمُ اَلرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ كٰانَ اَللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۷۰)

التّفسير

لقد أوضحت الآيات السابقه نهايه و عاقبه الناس الذين انعدم لديهم عنصر الإيمان،أمّا الآيه الأخيره فهى تدعو إلى الإيمان و تبيّن نتيجه هذا الإيمان، و تستخدم فى ترغيب الناس إلى هذا الهدف السامى عبارات و اصطلاحات تثير عند الأفراد الرغبه و الاندفاع نحو الإيمان.

و هذه الآيه تشير فى البدايه إلى أنّ النّبى المرسل هو ذلك الذى كان ينتظر الناس ظهوره،و الذى أشارت إليه الكتب السماويه السابقه،و هو يحمل إليهم شريعه الحق و العداله فتقول الآيه فى هذا المجال: يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ قَدْ جٰاءَكُمُ الرَّسُولُ (۱) بِالْحَقِّ (۲) .

ص: ۵۴۳

۱- ۱) -يبدو من سياق الآيه أنّ حرفى«ال»الداخله على كلمه«رسول»هما«ال»العهديه،و فيها إشاره إلى النّبى الذى كانوا ينتظرون قدومه،و لم يقتصر هذا الانتظار على اليهود و النصارى وحدهم،بل أنّ المشركين-أيضا-كانوا يتوقعون-لما سمعوه من أهل الكتاب-ظهور النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

۲- ۲) -لقد فسّرت بعض الروايات الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام كلمه«الحق»الوارده فى الآيه إشاره إلى ولايه على بن أبى طالب عليه السّلام،و قد بيّنا سابقا إن مثل هذه التفاسير واضحه فى بيان المصاديق،و هى لا تدل على الحصر.

ثمّ تردف الآیه بأن هذا النّبی قد جاء إلی الناس من اللّه الذی تعهد تربیه الخلق أجمعین،و ذلک من خلال العباره القرآنیه الوارده فی هذه الآیه،و هی عباره: مِنْ رَبِّکُمْ .

و بعد ذلک تؤکّد الآیه-علی أنّ إیمان الأفراد إنّما تعود فائدته و یعود نفعه علیهم أنفسهم،أی أن الإنسان إذا آمن إنما یخدم نفسه بهذا الإیمان قبل أن یخدم به غیره تقول الآیه: فَآمِنُوا خَیْراً لَکُمْ .

کما تؤکّد الآیه فی النهایه علی أن من یتخذ الکفر سبیلا لنفسه فلن یضرّ اللّه بعمله هذا أبدا،لأن اللّه یملک کل ما فی السماوات و ما فی الأرض،فهو بهذا لا یحتاج إلی أی شیء من الآخرین،تقول الآیه فی هذا الصدد: وَ إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ لِلّٰهِ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .

و تبیّن الآیه فی النهایه أنّ أحکام اللّه و أوامره کلّها لمصلحه البشر،لأنّها نابعه من حکمه اللّه و علمه و هی قائمه علی أساس تحقیق مصالح الناس،و منافعهم الخیّره،فتقول الآیه: وَ کٰانَ اللّٰهُ عَلِیماً حَکِیماً .

و من المنطلق نفسه فإنّ ما أرسله اللّه من شرائع لتنظیم الحیاه الاجتماعیه للبشر بواسطه الأنبیاء علیهم السّلام،لم یکن-مطلقا-لحاجه اللّه إلی ذلک،بل إنّه نابع من علمه و حکمته،فهل یحق للبشر بعد هذا البیان أن یترکوا طریق الإیمان و یتبعوا سبیل الکفر؟

ص :۵۴۴

الآیه [سوره النساء (۴): آیه ۱۷۱]

اشاره

یا أَهْلَ اَلْکِتابِ لا تَغْلُوا فِی دِینِکُمْ وَ لا تَقُولُوا عَلَی اَللّهِ إِلاَّ اَلْحَقَّ إِنَّمَا اَلْمَسِیحُ عِیسَی اِبْنُ مَرْیَمَ رَسُولُ اَللّهِ وَ کَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلی مَرْیَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَهٌ اِنْتَهُوا خَیْراً لَکُمْ إِنَّمَا اَللّهُ إِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ یَکُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فِی اَلسَّماواتِ وَ ما فِی اَلْأَرْضِ وَ کَفی بِاللّهِ وَکِیلاً (۱۷۱)

التّفسیر

اشاره

اسطوره التثلیث الوهمیه:

تتطرق هـذه الآیه و الآیه التی تلیها إلی واحد من أهم انحرافات الطائفه المسیحیه،و هذا الانحراف هو اعتقاد المسیحیین بالتثلیث،أی وجود آلهه ثلاثه و یأتی التطرق إلی هذا البحث فی سیاق البحوث القرآنیه التی وردت فی الآیات السابقه عن أهل الکتاب و الکفار.

فهذه الآیه تحذر فی البدایه أهل الکتاب من المغالاه و التطرف فی دینهم، و تدعوهم أن لا یقولوا علی اللّه غیر الحق،حیث تقول: یا أَهْلَ الْکِتابِ لا تَغْلُوا فِی دِینِکُمْ وَ لا تَقُولُوا عَلَی اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ... .

لقد کانت قضیه الغلو فی حق القاده السابقین إحدی أخطر منابع الانحراف

ص: ۵۴۵

فی الأدیان السماویه،فالإنسان بما أنّه یمیل إلی ذاته ینـدفع بهـذا المیل إلی إظهار زعمائه و قادته بصوره أکبر ممّا هم علیه،لکی یضـفی علی نفسه الأهمیه و العظمه من خلال هؤلاء القاده،و قـد یـدفع الإنسان التصور الواهی بأن الإیمان هو المبالغه و الغلو فی احترام و تعظیم القاده-إلی الوقوع فی متاهات هذا النوع من الانحراف الرهیب.

و الغلو فی أصله ینطوی علی عیب کبیر یفسد العنصر الأساسی للدین- الذی هو عباده اللّه و توحیده-و لهذا السبب فقد عامل الإسلام الغلاه أو المغالین بعنف و شدّه،إذ عرفت کتب الفقه و العقائد هذه الفئه من الناس بأنّهم أشد کفرا من الآخرین.

بعد ذلک تشیر الآیه الکریمه إلی عدّه نقاط،یعتبر کل واحد منها فی حدّ ذاته دلیلا علی بطلان قضیه التثلیث،و عدم صحه الوهیه المسیح علیه السّلام،و هذه النقاط هی:

۱-لقد حصرت الآیه بنوه السید المسیح علیه السّلام بمریم علیها السّلام إِنَّمَا الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ ،و إشاره البنوه-هذه الوارده فی سته عشر مکانا من القرآن الکریم-إنّما تؤکّد أنّ المسیح علیه السّلام هو إنسان کسائر الناس،خلق فی بطن امّه،و مرّ بدور الجنین فی ذلک الرحم،و فتح عینیه علی الدنیا حین ولد من بطن مریم علیها السّلام کما یولد أفراد البشر من بطون أمهاتهم و مرّ بفتره الرضاعه و تربی فی حجر امّه،ممّا یثبت بأنّه امتلک کل صفات البشر فکیف یمکن-و حاله المسیح علیه السّلام هذه-أن یکون إلها أزلیا أبدیا،و هو فی وجوده محکوم بالظواهر و القوانین المادیه الطبیعیه و یتأثر بالتحولات الجاریه فی عالم الوجود؟! و عباره الحصر التی هی«إنّما»الوارده فی الآیه تحصر بنوه المسیح علیه السّلام بمریم علیها السّلام و تؤکّد علی أنّه و إن لم یکن له والد،فلیس معنی ذلک أن أباه هو اللّه،بل هو فقط ابن مریم علیها السّلام.

۲-تؤكّد الآيه الكريمه أنّ المسيح عليه السّلام هو رسول اللّه و مبعوث إلى البشر من قبله سبحانه و تعالى،و إن هذه المنزله-أى منزله النّبوه-لا تتناسب و مقام الألوهيه.

و الجدير بالذكر هو أنّ معظم كلام المسيح عليه السّلام الوارد قسم منه فى الأناجيل المتداوله فى الوقت الحاضر،إنّما يؤكّد نبوته و بعثته لهدايه الناس،و ليس فيه دلاله على ادعائه الألوهيه و الربوبيه.

۳-تبيّن الآيه أن عيسى المسيح عليه السّلام هو كلمه اللّه التى ألقاها إلى مريم عليها السّلام حيث تقول: وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلىٰ مَرْيَمَ .

و قد وردت عباره:«كلمه»فى وصف المسيح فى عدد من الآيات القرآنيه، و هذه إشاره إلى كون المسيح مخلوقا بشريا،إذ أن الكلمات مخلوقه من قبل اللّه، كما أنّ الموجودات فى الكون من مخلوقاته عزّ و جلّ،فكما أن الكلمات تبيّن مكنونات أنفسنا-نحن البشر-و تدل على صفاتنا و أخلاقياتنا،فإنّ مخلوقات الكون تحكى صفات خالقها و جماله و تدل على جلاله و عظمته.

و على هذا الأساس فقد وردت عباره«كلمه»فى عدد من العبارات القرآنيه، لتشمل جميع مخلوقات اللّه،كما فى الآيه(۱۰۹)من سوره الكهف و الآيه(۲۹) من سوره لقمان،و بديهى أنّ الكلمات الإلهيه تتفاوت بعضها مع البعض فى المنزله و الأهميه و عيسى عليه السّلام يعتبر إحدى كلمات اللّه البارزه الأهميه،لكونه ولد من غير أب،إضافه إلى كونه يتمتع بمقام الرساله الإلهيه.

۴-تشير الآيه إلى أنّ عيسى المسيح عليه السّلام هو روح مخلوقه من قبل اللّه،حيث تقول وَ رُوحٌ مِنْهُ و هذه العباره التى وردت فى شأن خلق آدم-أو بعباره أخرى خلق البشر أجمعين-فى القرآن الكريم،إنما تدل على عظمه تلك الروح التى خلقها اللّه تعالى و أودعها فى أفراد البشر بصوره عامّه،و فى المسيح عليه السّلام و سائر الأنبياء بصوره خاصّه.

و علی الرغم من أنّ البعض أساء الاستفاده من هذه العباره و فسّرها بأنّ المسیح علیه السّلام هو جزء من اللّه سبحانه و تعالی،مستندا إلی عباره«منه»و لکن الواضح فی مثل هذه الحالات أن کلمه«من»لیست للتبعیض،بل تدل علی مصدر و منشأ و أصل وجود الشیء.

و هناک طرفه تاریخیه تذکر أنّه کان لهارون الرشید طبیب نصرانی، دخل یوما فی نقاش مع«علی بن الحسین الواقدی»و هو أحد المفکرین الإسلامیین فی ذلک العصر،فقال له هذا الطبیب:«توجد فی کتابکم السماوی آیه تبیّن أنّ المسیح علیه السّلام هو جزء من اللّه...»و تلا هذا النصرانی الآیه موضوع البحث،فرد علیه «الواقدی»مباشره تالیا هذه الآیه: وَ سَخَّرَ لَکُمْ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً مِنْهُ... (۱) ،و أضاف مبیّنا أنّ کلمه«من»لو کانت تفید التبعیض،لاقتضی ذلک أن تکون جمیع موجودات السماء و الأرض-بناء علی هذه الآیه-جزءا من اللّه،فلما سمع الطبیب النصرانی کلام الواقدی أسلم فی الحال،و سر إسلامه هارون الرشید فکافأ الواقدی بجائزه مناسبه (۲) .

إنّ ما یثیر العجب-إضافه إلی ما ذکر-هو أنّ المسیحیین یرون ولاده المسیح من أمّ دون أب دلیلا علی ألوهیته،و هم ینسون فی هذا المجال أن آدم علیه السّلام کان قد ولد من غیر أب،و لا أم،و لم یر أحد هذه الخصیصه الموجوده فی آدم دلیلا علی ربوبیته.

بعد ذلک تؤکّد الآیه علی ضروره الإیمان باللّه الواحد الأحد و بأنبیائه،و نبذ عقیده التثلیث،مبشره المؤمنین بأنّهم إن نبذوا هذه العقیده فسیکون ذلک خیرا لهم حیث قالت الآیه: فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ لاٰ تَقُولُوا ثَلاٰثَهٌ انْتَهُوا خَیْراً لَکُمْ... .

ص: ۵۴۸

۱- ۱) -الجاثیه،۱۳.

۲- ۲) -تفسیر المنار،الجزء السادس،ص ۸۴.

و تعيد الآيه التأكيد على وحدانيه اللّه قائله: إِنَّمَا اللّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ... و هى تخاطب المسيحيين لأنهم حين يدعون التثليث يقبلون-أيضا-بوحدانيه اللّه، فلو كان للّه ولد لوجب أن يكون شبيهه،و هذه حاله تناقض أساس الوحدانيه.

فكيف-إذن-يمكن أن يكون للّه ولد،و هو منزّه من نقص الحاجه إلى زوجه أو ولد،كما هو منزّه من نقائص التجسيم و أعراضه؟تقول الآيه: سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ... و اللّه هو مالك كل ما فى السموات و ما فى الأرض و الموجودات كلها مخلوقاته و هو خالقها جميعا،و المسيح عليه السّلام-أيضا-واحد من خلق اللّه،فكيف يمكن الادعاء بهذا الاستثناء فيه؟و هل يمكن المملوك و المخلوق أن يكون ابنا للمالك و الخالق؟!حيث تؤكد الآيه: لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ... و اللّه هو المدبر و الحافظ و الرازق و الراعى لمخلوقاته،تقول الآيه: وَ كَفَىٰ بِاللّهِ وَكِيلًا .

و الحقيقه هى أنّ اللّه الأزلى الأبدى الذى يرعى جميع الموجودات منذ الأزل إلى الأبد لا يحتاج مطلقا إلى ولد،فهل هو كسائر الناس لكى يحتاج إلى ولد يخلفه من بعد الموت؟

عقيده التثليث أكبر خرافه مسيحيه:

ليس فى الانحرافات التى تورط بها العالم المسيحى أكبر من انحراف عقيده التثليث،لأنّ المسيحيين يعتقدون صراحه بالثالوث الإلهى،و هم فى نفس الوقت يصرحون بأن اللّه واحد!أى أنّهم يرون الحقيقه فى التثليث و التوحيد فى أن واحد.

و قد خلقت هذه القضيه-التى لها حدان متناقضان-مشكله كبيره للمفكرين و الباحثين المسيحيين.

فلو كان المسيحيون مستعدين لقبول مسأله التوحيد بأنّها«مجازيه»و قبول

مسأله التثليث بأنّها مسأله حقيقيه أو قبول العكس،لأمكن تبرير هذا الأمر، و لكنهم يرون الحقيقه فى الجمع بين هذين المتناقضين،فيقولون أن الثلاثه واحد كما يقولون أن الواحد ثلاثه فى نفس الوقت.

و ما يلاحظ من ادعاء فى الكتابات التبشيريه الأخيره للمسيحيين،و التى توزع للناس الجهلاء،من أن التثليث شىء مجازى،إنّما هو كلام مشوب بالرياء و لا يتلاءم مطلقا مع المصادر الأساسيه للمسيحيه،كما لا يتفق مع الآراء و المعتقدات الحقيقيه للمفكرين المسيحيين.

و يواجه المسيحيون-هنا-قضيه لا تتفق مع العقل فالمعادله التى افترضوا فيها أن ١ ٣ لا يقبلها حتى الأطفال الذين هم فى مرحله الدراسه الابتدائيه.

و لهذا السبب ادعوا أنّ هذه القضيه لا تقاس بمقياس العقل،و طلبوا الإذعان بها عبر ما سمّوه بالرؤيه التعبديه القلبيه.

و كان هذا التناقض منشأ للتباعد الحاصل لديهم بين الدين و العقل،و سببا لجر الدين إلى متاهات خطيره،الأمر الذى اضطرهم إلى القول بأن الدين ليس له صله بالعقل،أو ليس فيه الطابع العقلانى،و أنّه ذو طابع تعبدى محض.

و هذا هو أساس التناقض بين الدين و العلم فى منطق المسيحيه،فالعلم يحكم بأنّ الثلاثه لا تساوى الواحد،و المسيحيه المعاصره تصر على أنّهما متساويان! و يجب الالتفات-هنا-إلى عدّه نقاط حول هذا الإعتقاد المسيحى:

١-لم يشر أى من الأناجيل المتداوله فى الوقت الحاضر إلى مسأله التثليث لذلك يعتقد الباحثون المسيحيون أنّ مصدر التثليث فى الأناجيل خفى و غير بارز،و فى هذا المجال يقول الباحث الأمريكى المستر هاكس:«إنّ قضيه التثليث تعتبر فى العهدين القديم و الجديد خفيه و غير واضحه،(القاموس المقدس،ص ٣۴۵،طبعه بيروت).

و ذكر المؤرّخون أنّ قضيه التثليث قد برزت بعد القرن الثّالث الميلادى لدى المسيحيين و إن منشأ هذه البدعه كان الغلو من جانب،و اختلاط المسيحيين بالأقوام الأخرى من جانب آخر.

و يرى البعض احتمال أن يكون مصدر التثليث عند المسيحيين واردا من عقيده الثالوث الهندى،أى عباده الهنود للآلهه الثلاثه (۱) .

۲-إنّ قضيه التثليث القائله بأن الثلاثه واحد تعتبر أمرا غير معقول أبدا، و يرفضها العقل بالبداهه،و الشيء الذى نعرفه هو أن الدين لا يمكنه أن يكون منفصلا عن العقل و العلم،فالعلم الحقيقى و الدين الواقعى كلاهما متفقان و متناسقان دائما-و لا يمكن القول بأن الدين أمر تعبدى محض-لأننا لو أزحنا العقل جانبا عند قبول مبادئ الدين و أذعنا للعباده العمياء الصماء،فلا يبقى لدينا ما نميز به بين الأديان المختلفه.

و فى هذه الحاله،أى دليل يوجب على الإنسان أن يعبد اللّه و لا يعبد الأصنام؟و أى دليل يدعو المسيحيين إلى التبشير لدينهم لا للأديان الأخرى؟ و من هذا المنطلق فإن الخصائص التى يراها المسيحيون لدينهم و يصرّون على دعوه الناس للقبول بها،هى بحدّ ذاتها دليل على أن الدين يجب أن يعرف بمنطق العقل،و هذا يناقض دعواهم حول قضيه التثليث التى يرون فيها انفصال الدين عن العقل.

و ليس هناك كلام يستطيع تحطيم الدين أشد و أقبح من أن يقال:إن الدين لا يمتلك طابعا عقلانيا و منطقيا،و أنّه ذو طابع تعبدى محض! ۳-إنّ الأدله العديده التى يستشهد بها-فى مجال إثبات التوحيد،و وحدانيه الذات الإلهيه-ترفض كل أنواع التثنيه أو التثليث-فاللّه سبحانه و تعالى هو وجود مطلق لا يحد بالجهات،و هو أزلى أبدى لا حدود لعلمه و لقدرته و لقوته.

۱- ۱) -انظر دائره المعارف للقرن العشرين(لفريد وجدى)فى ماده(ثالوث)...

و بـديهى أنّه لا يمكن تصور التثنيه فى اللامتناهى،لأنّ فرض وجود لا متناهيين يجعل من هذين الإثنين متناهيين و محدودين،لأن وجود الأـوّل يفتقر إلى قـدره و قوه و وجود الثّـانى كمـا أن وجود الثّانى يفتقر إلى وجود و خصائص الأوّل،و على هـذا الأساس فإن كلا الوجودين محدودان.

و بعباره أخرى:إنّنا لو افترضنا وجود لا متناهيين من جميع الجهات،فلا بدّ حين يصل اللامتناهى الأوّل إلى تخوم اللامتناهى الثّانى ينتهى إلى هـذا الحـد كمـا أن اللامتنـاهى الثّـانى حين يصـل إلى حـد اللامتنـاهى الأوّل ينتهى هو أيضا،و على هـذا الأساس فإن كليهما يكونان محدودين و لا تنطبق صـفه اللامتناهى على أى منهما،بل هما متناهيان محدودان،و النتيجه هى أن ذات اللّه-الذى هو وجود لا متناه-لا يمكن أن تقبل التعدد أبدا.

و هكـذا فإنّنا لو اعتقدنا بأن الذات الإلهيه تتكون من الأقانيم الثلاثه،لا يسـتلزم أن يكون كل من هذه الأقانيم محدودا،و لا تصـح فيه صـفه اللامحـدود و اللامتنـاهى،و كـذلك فـإن أى مركب فى تكوينه يكون محتاجـا إلى أجزائه التى تكونه،فوجود المركب يكون معلولا لوجود أجزائه.

و إذا افتراضـنا الـتركيب فى ذات اللّـه لزم أن تكـون هـذه الـذات محتـاجه أو معلـوله لعلّه سـابقه فى حين إنّنـا نعرف أنّ اللّه غير محتاج،و هو العلّه الأولى لعالم الوجود،و علّه العلل كلها منذ الأزل و إلى الأبد.

۴-بالإضـافه إلى كـل مـا ذكر،كيف يمكن للـذات الإلـهيه أن تتجسـد فى هيكل إنسانى لتصـبح محتاجه إلى الجسم و المكان و الغـذاء و اللباس و أمثالها؟ إنّ فرض الحدود للّه الأزلى الأبدى،أو تجسـيده فى هيكل إنسان و وضـعه جنينا فى رحم أمّ،يعتبر من أقبـح التهم الـتى تلصق بـذات اللّه المقـدسه المنزهه عن كـل النقـائص،كمـا أنّ افـتراض وجود الاـبن للّه-و هو يسـتلزم عوارض التجسيم المختلفه-إنما هو افتراض غير منطقى و بعيد عن العقل بعدا مطلقا.

بـدليل أنّ أى إنسان لم ينشأ فى محيط مسـيحى و لم يتربّ منـذ طفولته على هـذه التعليمات الوهميه الخاطئه عنـد ما يسـمع هذه التعابير المنافيه للفطره الإنسانيه و المخالفه لما يحكم به العقل البشـرى،يشـعر بالسـخط و الاشمئزاز،و إذا كان المسيحيون أنفسهم لا يرون بأسا فى كلمات مثل«اللّه الأب»و«اللّه الابن» فما ذلك إلاّ لأنّهم جبلوا على هذه التعاليم الخاطئه منذ نعومه أظفارهم.

۵-لوحظ فى السـنين الأخيره أنّ جماعه من المبشـرين المسيحيين يلجؤون إلى أمثله سفسطائيه من أجل خداع الجهلاء من الناس فى قبول قضيه التثليث.

مـن هـذه الأمثله قـولهم أن اجتمـاع التوحيـد و التثليـث معـا يمكـن تشـبيهه بقرص الشـمس و النـور و الحراره النـابعتين من هـذا القرص،حيث أنّها ثلاثه أشياء فى شىء واحد.

أو تشبيههم ذلك بانعكاس صوره إنسان فى ثلاث مرايا فى آن واحـد،فهذا الإنسان مع كونه واحدا إلاّ أنّه يظهر و كأنّه ثلاثه فى المرايا الثلاث.

كما يشـبهون التثليث بالمثلث الـذى له ثلاث زوايا من الخارج،و يقولون بأنّ هـذه الزوايا لو مـدت من الدخل لوصـلت كلها إلى نقطه واحـده؟! لكننا بالتعمق قليلا فى هـذه الأمثله يتبيّن لنا أن لا صـله لها بموضوع بحثنا الحاضـر،فقرص الشـمس شـىء و نورها شىء آخر و النور الذى يتكون من الأشـعه فوق الحمراء يختلف عن الحراره التى تتكون من الأشـعه دون الحمراء،و هذه الأشـياء الثلاثه تختلف الواحده منها عن الأخرى من حيث النظره العلميه، و هى ليست بمجموعها شيئا واحدا من خلال هذه النظره.

و إذا صح القول بأنّ هذه الأشياء الثلاثه شىء واحد،إنّما يكون ذلك من باب التسامح أو التعبير المجازى ليس إلاّ.

و الأوضـح من ذلك مثال الجسم و المرايا الثلاث،فالصوره الموجوده فى المرايا عن الجسم ليست إلاّ انعكاسا للنور،و بـديهى أنّ انعكاس النّور عن جسم

معین غیر ذات الجسم،و علی هذا الأساس فلیس هناک أی اتحاد حقیقی أو ذاتی بین الجسم و صورته المنعکسه فی المرآه،و هذه قضیه یدرکها حتی الدارس المبتدی لعلم الفیزیاء.

أمّا فی مثال المثلث فالأمر واضح کما فی المثالین السابقین،حیث أن زوایا المثلث المتعدده لا علاقه لها بالبداهه بالامتداد الداخلی الحاصل للزوایا،و الذی یوصلها جمیعا إلی نقطه واحده.

و الذی یثیر العجب-أکثر من ذلک-هو محاوله بعض المسیحیین المستشرقین مطابقه قضیه«التوحید فی التثلیث»مع نظریه«وحده الوجود»التی یقول بها الصوفیون (۱) و الأمر الواضح من غیر دلیل-فی هذا المجال-هو إنّما لو قبلنا بالنظریه الخاطئه و المنحرفه القائله بوحده الوجود،لاقتضی ذلک منّا أن نذعن بأن کل موجودات العالم أو الکون هی جزء من ذات اللّه سبحانه و تعالی، بل الإذعان بأنّها هی عین ذاته.

عند ذلک لا یبقی معنی للتثلیث،بل تصبح جمیع الموجودات-صغیرها و کبیرها-جزءا أو مظهر اللّه سبحانه،و علی هذا الأساس فلا یمکن تطابق نظریه التثلیث المسیحیه بالنظریه الصوفیه القائله بوحده الوجود بأی شکل من الأشکال،علما بأن النظریه الصوفیه هذه قد دحضت و بان بطلانها.

۶-یقول بعض المسیحیین-أحیانا-إنّها حین یسمّون المسیح علیه السّلام ب«ابن اللّه»إنّما یفعلون ذلک کما یفعل المسلمون فی تسمیه سبط الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الحسین بن علی بن أبی طالب علیه السّلام ب«ثار اللّه و ابن ثاره»أو کالتسمیه التی وردت فی بعض الروایات لعلی بن أبی طالب علیه السّلام حیث سمی فیها ب«ید اللّه»،و هؤلاء المسیحیون یفسرون کلمه«ثار»بأنّها تعنی الدم،أی أنّ العباره الوارده فی الحسین الشهید علیه السّلام

۱- ۱) -المراد بوحده الوجود عند الصوفیه،هی وحده الموجود،و یستدلون بها علی أن الوجود لیس أکثر من واحد یظهر فی صور مختلفه،و إن هذا الواحد هو اللّه.

تعنی«دم اللّه و ابن دمه».

إنّ هذا الأمر هو عین الخطأ:

أوّلا:لأنّ العرب لم تطلق کلمه الثأر أبدا لتعنی بها الدم،بل اعتبرت الثأر دائما ثمنا للدم،و لذلک فإن معنی العباره أن اللّه هو الذی یأخذ ثمن دم الحسین الشهید،و أن هذا الأمر منوط به سبحانه و تعالی،أی أنّ الحسین علیه السّلام لم یکن ملکا أو تابعا لعشیره أو قبیله معینه لتطالب بدمه،بل هو یخص العالم و البشریه جمعاء و یکون تابعا لعالم الوجود و ذات اللّه المقدسه،و لذلک فإن اللّه هو الذی یطالب و یأخذ ثمن دم هذا الشهید-کما أن الحسین هو ابن علی بن أبی طالب علیه السّلام الذی استشهد فی سبیل اللّه،و اللّه هو الذی یطالب و یأخذ ثمن دمه أیضا.

و ثانیا:حین یعبّر فی بعض الأحیان عن بعض أولیاء اللّه بعباره«ید اللّه»فإن هذا التعبیر-حتما-من باب التشبیه و الکنایه و المجاز لیس إلاّ.

فهل یجیز أی مسیحی لنفسه أن یقال فی عباره«ابن اللّه»الوارده عندهم فی حق المسیح علیه السّلام أنّها ضرب من المجاز و الکنایه؟بدیهی أنّه لا یقبل ذلک،لأنّ المصادر المسیحیه الأصلیه اعتبرت صفه البنوه للّه سبحانه منحصره بالمسیح علیه السّلام وحده و لیس فی غیره،و اعتبروا تلک الصفه حقیقیه لا مجازیه،و ما بادر إلیه بعض المسیحیین من الادعاء بأن هذه الصفه هی من باب الکنایه أو المجاز،إنّما هو من أجل خداع البسطاء من الناس.

و لإیضاح هذا الأمر نحیل القاری إلی کتاب«القاموس المقدس»فی ماده «اللّه»حیث یقول هذا الکتاب بأنّ عباره«ابن اللّه»هی واحده من القاب منجی و مخلص وفادی المسیحیین،و أن هذا اللقب لا یطلق علی أی شخص آخر إلاّ إذا وجدت قرائن تبیّن بأنّ المقصود هو لیس الابن الحقیقی للّه (۱) .

۱- ۱) -القاموس المقدس،طبعه بیروت،ص ۳۴۵.

الآيتان [سوره النساء (۴): الآيات ۱۷۲ الی ۱۷۳]

اشاره

لَنْ يَسْتَنْكِفَ اَلْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّهِ وَ لاَ اَلْمَلاٰئِكَةُ اَلْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (۱۷۲) فَأَمَّا اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَمَّا اَلَّذِينَ اِسْتَنْكَفُوا وَ اِسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً وَ لاٰ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اَللّهِ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً (۱۷۳)

سبب النّزول

روی جمع من المفسّرین أنّ هذه الآیه نزلت بشأن طائفه من مسیحیی نجران،حین زاروا النّبی محمّدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و استفسروا منه عن سبب اعتراضه علی نبیّهم المسیح علیه السّلام،فسألهم النّبی علیه السّلام عن أی اعتراض هم یتحدثون؟ فقالوا للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:«إنّك تقول بأنّ المسیح هو عبد اللّه و رسوله...»فنزلت الآیتان جوابا علی قولهم هذا.

ص :۵۵۶

التّفسير

اشاره

المسيح هو عبد اللّه:

على الرغم من أنّ هاتين الآيتين لهما سبب نزول خاص بهما،إلاّ أنّهما جاءتا في سياق الآيات السابقه التي تحدثت في نفي الألوهيه عن المسيح عليه السّلام و علاقتهما بالآيات السابقه في دحض قضيه التثليث واضحه و جليه.

في البدايه تشير الآيه الأولى إلى دليل آخر لدحض دعوى ألوهيه المسيح، فتقول مخاطبه المسيحيين:كيف تعتقدون بألوهيه عيسى عليه السّلام في حين أنّ المسيح لم يستنكف عن عباده اللّه و الخضوع بالعبوديه له سبحانه،كما لم يستنكف الملائكه المقرّبون من هذه العباده؟حيث قالت الآيه: لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّهِ وَ لاَ الْمَلاٰئِكَهُ الْمُقَرَّبُونَ .

و بديهي أنّ من يكون عبدا لا يمكن أن يصبح معبودا في آن واحد،فهل يمكن أن يعبد فرد نفسه؟أو هل يكون العابد و المعبود و الرّب فردا واحدا؟ و في هذا المجال ينقل بعض المفسّرين حادثه طريفه تحكي أن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السّلام لكي يدين و يفند عقيده التثليث المنحرفه قال لكبير المسيحيين في ذلك الحين-و كان يلقب ب«الجاثليق»-بأنّ المسيح عليه السّلام كان حسنا في كل شيء لو لا وجود عيب واحد فيه،و هو قله عبادته للّه،فغضب الجاثليق و قال للإمام الرضا عليه السّلام:ما أعظم هذا الخطأ الذي وقعت فيه،إنّ عيسى المسيح كان من أكثر أهل زمانه عباده،فسأله الإمام عليه السّلام على الفور:و من كان يعبده المسيح؟!فها أنت قد أقررت بنفسك أنّ المسيح كان عبدا و مخلوقا للّه و أنّه كان يعبد اللّه و لم يكن معبودا و لا ربّا؟فسكت الجاثليق و لم يحر جوابا. (۱)

بعد ذلك تشير الآيه إلى أن الذين يمتنعون عن عباده اللّه و الخضوع له بالعبوديه،يكون امتناعهم هذا ناشئا عن التكبر و الأنانيه و إنّ اللّه سيحضر هؤلاء

۱- ۱) -مناقب ابن شهر آشوب،ج ۴،ص ۳۵۲.

الناس فی یوم القیامه و یجازی کل واحد منهم بالعقاب الذی یناسبه،فتقول الآیه:

وَ مَنْ یَسْتَنْکِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ یَسْتَکْبِرْ فَسَیَحْشُرُهُمْ إِلَیْهِ جَمِیعاً

.

و إنّ اللّه العزیز القدیر سیکافئ فی یوم القیامه أولئک الذین آمنوا و عملوا الصالحات و قاموا بالأعمال الخیره،و یعطیهم ثوابهم کاملا غیر منقوص و یجزل لهم الثواب و النعم،أمّا الذین تکبروا و امتنعوا عن عباده اللّه،فإنهم سینالون منه عذابا ألیما شدیدا،و لن یجدوا فی یوم القیامه لأنفسهم ولیا أو حامیا من دون اللّه، حیث تقول الآیه: فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ فَیُوَفِّیهِمْ أُجُورَهُمْ وَ یَزِیدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَمَّا الَّذِینَ اسْتَنْکَفُوا وَ اسْتَکْبَرُوا فَیُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِیماً وَ لا یَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً .

فی هذه الآیه نقطتان یجب الانتباه إلیهما،و هما:

۱-إنّ کلمه«استنکاف»تأتی بمعنی الامتناع أو الاستیاء الشدید من شیء، و لها معان واسعه،و تحدد معناها-هنا-بما أتی بعدها من قرینه فی عباره اِسْتَکْبَرُوا لإنّ الامتناع عن عباده اللّه و رفض الخضوع له بالعبودیه إمّا ناشئ عن الجهل أو الغفله.و أحیانا أخری ینشأ هذا الامتناع عن التکبر و الأنانیه و الغرور،و مع أن الامتناعین یعتبران ذنبا،إلاّ أن الامتناع الأخیر یفوق الأوّل قبحا بمراتب کبیره.

۲-إنّ الآیه جاءت بعباره توضح عدم استنکاف الملائکه المقرّبین عن عباده اللّه،و ذلک ردّا علی المسیحیین الذین یثلثون الآلهه(الأب و لابن و روح القدس)و لتدحض عن هذا الطریق فرضیه وجود المعبود الثّالث الذی ادعاه المسیحیون و مثلوه فی أحد الملائکه المسمی ب«روح القدس»و لتثبت التوحید و وحدانیه ذات اللّه سبحانه و تعالی.

و قد تکون هذه الآیه إشاره إلی الشرک الذی وقع فیه الوثنیون العرب، و الشرک الذی تورط به المسیحیون حیث أنّ مشرکی الجاهلیه کانوا یعتبرون

الملائکه أبناء اللّه سبحانه،أو یعدونهم جزءا منه،فجاءت هذه الآیه لترد علیهم و تدخص أقوالهم هذه.

و عنـد التعمق فی هـذین الأـمرین یتبیّن لنا-بجلاء-أنّ الآیه لم تأت لبیان التفاضل بین الملائکه و الأنبیاء،بل جاءت فقط لـدحض عقیده«الأقنوم الثّالث» أو دحض عقیده المشـرکین العرب فی الملائکه،و لیس فیها أی دلاله علی مسأله التفاضل بین المسیح علیه السّلام و بین الملائکه.

ص:۵۵۹

الآيتان [سوره النساء (۴): الآيات ۱۷۴ الى ۱۷۵]

اشاره

يا أَيُّهَا اَلنّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (۱۷۴) فَأَمَّا اَلَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ اِعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِی رَحْمَهٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً (۱۷۵)

التّفسير

اشاره

النّور المبين:

بعد أن تناولت الآيات السابقه بعضا من انحرافات أهل الكتاب بالنسبه لمبدأ التوحيد و مبادئ و تعاليم الأنبياء،جاءت الآيتان الأخيرتان لتختما القول فی بيان سبيل النّجاه و الخلاص من تلك الانحرافات.

لقد توجه الخطاب أوّلا-إلى عامّه الناس،مبينا أنّ اللّه قد بعث من جانبه نبيّا يحمل معه الدلائل و البراهين الواضحه،و بعث معه النور المبين المتجسد فی القرآن الكريم الذی يهدی الناس إلى طريق السعاده الأبديه،حيث تقول الآيه الأولى: يا أَيُّهَا النّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً .

و يعتقد بعض العلماء أنّ كلمه«برهان»المشتقه من المصدر«بره»على وزن «فرح»تعنی الابيضاض-و لمّا كانت الأدله الواضحه تجلی للمسامع وجه الحق و تجعله واضحا مشرقا أبيض لذلك سميت ب«البرهان».

ص: ۵۶۰

و المقصود بالبرهان الوارد فى الآيه موضوع البحث-و كما يقول جمع من المفسّرين و تؤكّد ذلك القرائن-هو شخص نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و أنّ المقصود بالنور هو القرآن المجيد الذى عبّرت عنه آيات أخرى بالنور أيضا.

و قد فسّرت الأحاديث المتعدده المنقوله عن أهل البيت عليهم السّلام-و التى أوردتها تفاسير«نور الثقلين»و«على بن إبراهيم»و«مجمع البيان»-أن«البرهان»هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و«النّور»هو على بن أبى طالب عليه السّلام.

و لا يتنافى هذا التّفسير مع ذلك الذى أوردناه قبله،حيث يمكن أن يقصد بعباره«النور»معان عديده لتشمل«القرآن»و«أمير المؤمنين على عليه السّلام»الذى يعتبر حافظا و مفسّرا للقرآن و مدافعا عنه.

و توضح الآيه الثانيه عاقبه اتّباع هذا البرهان و هذا النور، فتؤكّد على أنّ الذين آمنوا باللّه و تمسكوا بهذا الكتاب السماوى،سيدخلهم اللّه عاجلا فى رحمته الواسعه،و يجزل لهم الثواب من فضله و رحمته،و يهديهم إلى الطريق المستقيم.تقول الآيه: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَهٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً (۱) .

ص: ۵۶۱

۱- ۱) -راجع تفسير سوره الحمد فى تفسيرنا هذا الجزء الأوّل للاطلاع على تفسير عباره«الصراط المستقيم».

الآيه [سوره النساء (۴): آیه ۱۷۶]

اشاره

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اَللّٰهُ يُفْتِيكُمْ فِي اَلْكَلاٰلَهِ إِنِ اِمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهٰا نِصْفُ مٰا تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُهٰا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهٰا وَلَدٌ فَإِنْ كٰانَتَا اِثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا اَلثُّلُثٰانِ مِمّٰا تَرَكَ وَ إِنْ كٰانُوا إِخْوَهً رِجٰالاً وَ نِسٰاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ اَلْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اَللّٰهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اَللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۷۶)

سبب النّزول

نقل الكثير من المفسرين عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى قوله بأنّه كان يعانى من مرض شديد،فعاده النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و توضأ عنده و رشّ عليه من ماء وضوئه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فذكر جابر-و هو يفكر فى الموت-للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّ ورثته هن أخواته فقط، و استفسر من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن كيفيه تقسيم الإرث بينهنّ،فنزلت هذه الآيه و التى تسمّى-أيضا-ب«آيه الفرائض»و بيّنت طريقه تقسيم الإرث بينهنّ(و قد وردت الرّوايه المذكوره أعلاه بفارق طفيف فى تفاسير«مجمع البيان» و«التبيان»و«المنار»و«الدر المنثور»و غيرها من التفاسير...).

و يعتقد البعض أن هذه الآيه هى آخر آيه من آيات الأحكام نزولا على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (۱) .

ص: ۵۶۲

۱- ۱) -تفسير الصافى فى هامش الآيه.

التّفسير

تبيّن الآيه الوارده أعلاه كميه الإرث للأخوه و الأخوات،و قد بيّنا فی أوائل سوره النساء-فی تفسير الآيه الثانيه عشر منها-إنّ القرآن اشتمل على آيتين توضحان مسأله الإرث للأخوه و الأخوات و إن إحدى هاتين الآيتين هی الآيه الثانيه عشره من سوره النساء،و الثانيه هی الآيه الأخيره موضوع بحثنا هذا و هی آخر آيه من سوره النساء.

و على الرغم ممّا ورد من اختلاف فی الآيتين فيما يخص مقدار الإرث،إلّا أنّ كل آيه من هاتين الآيتين تتناول نوعا من الأخوه و الأخوات كما أوضحنا فی بدايه السوره.

فالآيه الأولى تخصّ الأخوه و الأخوات غير الأشقاء،أی الذين هم من أمّ واحده و آباء متعددين.

أمّا الآيه الثانيه أی الأخيره،فهی تتناول الإرث بالنسبه للأخوه الأشقاء،أی الذين هم من أمّ واحده و أب واحد،أو من أمهات متعددات و أب واحد.

و الدليل على قولنا هذا،أن من ينتسب إلی شخص المتوفی بالواسطه يتعين إرثه بمقدار ما يرثه الواسطه من شخص المتوفی.

فالأخوه و الأخوات غير الأشقاء-أی الذين هم من أمّ واحده و آباء متعددين-يرثون بمقدار حصّه أمّهم من الإرث و التی هی الثلث.

أمّا الأخوه و الأخوات الأشقاء-أی الذين هم من أمّ واحده و أب واحد،أو من أب واحد و أمهات متعددات-فهم يرثون بمقدار حصّه والدهم من الإرث التی هی الثلثان.

و لمّا كانت الآيه الثانيه عشره من سوره النساء تتحدث عن حصّه الثلث من الإرث للأخوه و الأخوات،و تتناول الآيه الأخيره حصّه الثلثين،لذلک يتّضح أنّ الآيه السابقه تخص الأخوه و الأخوات غير الأشقاء الذين يرتبطون بشخص

المتوفى عن طريق أمهم،و أنّ الآيه الأخيره تخصّ الأخوه و الأخوات الأشـقاء الذين يرتبطون بشخص المتوفى عن طريق الأب أو عن طريق الأب و الأمّ معا.

و الروايات الوارده عن الأئمّه عليهم السّلام فى هذا المجال تؤكّد هذه الحقيقه أيضا.

و على أى حال فإن كانت حصّه الأخ أو الأخت هى الثلث أو الثلثان،فإنّ الباقى من الإرث يوزع بناء على القانون الإسلامى بين الباقين من الورثه،و هكذا و بعد أن توضح لنا عدم وجود أى تناقض بين الآيتين،نتطرق الآن إلى تفسير الأحكام الوارده فى الآيه الأخيره.

و تجدر الإشاره هنا إلى أنّ الآيه جاءت لتفصل إرث الكلاله أى إرث الأخوه و الأخوات (١) فتقول الآيه: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّٰهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاٰلَةِ... أى يسألونك فخبرهم بأنّ اللّه هو الذى يعين حكم«الكلاله»(أى الأخوه و الأخوات).

بعد ذلك تشير الآيه إلى عدد من الأحكام،و هى:

١-إذا مات رجل و لم يكن له ولد و كانت له أخت واحده،فإنّ هذه الأخت ترث نصف ميراثه تقول الآيه الكريمه: إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهٰا نِصْفُ مٰا تَرَكَ... .

٢-و إذا ماتت امرأه و لم يكن لها ولد،و كان لها أخ واحد-شقيق من أبيها وحده أو من أبيها و أمها معا-فإنّ أخاها الوحيد يرثها،تقول الآيه: وَ هُوَ يَرِثُهٰا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهٰا وَلَدٌ... .

٣-و إذا مات شخص و كانت له أختان فقط،فإنّهما ترثان ثلثى ما تركه من الميراث،تقول الآيه الكريمه: فَإِنْ كٰانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثٰانِ مِمّٰا تَرَكَ... .

٤-و إذا كان ورثه الشخص المتوفى عددا من الأخوه و الأخوات أكثر من اثنين،فإن ميراثه يقسم جميعه بينهم،بحيث تكون حصّه الأخ من الميراث ضعف

١- ١) -لمعرفه معنى«الكلاله»و سبب إطلاقها على الأخوه و الأخوات،راجع تفسير الآيه الثانيه عشره من سوره النساء.

حصّه الأخت الواحده منه.تقول الآيه الكريمه: وَ إِنْ كانُوا إِخْوَهً رِجالاً وَ نِساءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ... .

و فی الختام تؤكد الآیه أنّ اللّه يبيّن للناس هذه الحقائق لكی يصونهم من الانحراف و الضلاله،و يدلهم على طريق الصواب و السعاده(و حقيق أن يكون الطريق الذی يرسمه اللّه للناس و يهديهم إليه هو الطريق الصحيح)و اللّه هو العالم العارف بكل شیء،و فی هذا المجال تقول الآيه الكريمه: يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱) .

و الجدير بالذكر هنا أنّ الآيه-موضوع البحث-إنّما تبيّن إرث الأخوه و الأخوات فی حاله عدم وجود ولد الشخص المتوفی،و لم تتطرق الآيه إلی وجود الأب و الأم للشخص المتوفی،و لكن بناء على الآيات الوارده فی بدايه سوره النساء-فإن الأب و الأمّ يأتون فی مصاف الأبناء فی الطبقه الأولی من الوارثين،و لذلك يتوضح أن المقصود من الآيه الأخيره هی حاله عدم وجود أبناء و عدم وجود أبوين للشخص المتوفی.

انتهی تفسير سوره النساء

ص :۵۶۵

۱- ۱) -و جمله«أن تضلوا»بمعنی«أن لا تضلوا»حيث تكون كلمه«لا»مقدره،و القرآن و كلام العرب الفصحاء مليئان بمثل هذه التعابير البليغه.

سوره المائده

اشاره

مدنيّه و عدد آياتها مائه و عشرون آيه

ص :۵۶۷

محتویات سوره المائده

إنّ هـذه السوره من السور المـدنيه،و تشـتمل على مائه و عشـرين آيه،و قيل أنّها نزلت بعـد سوره الفتـح،و تدل روايات على أنّها نزلت كلّها فى فتره حجّه الوداع بين مكه و المدينه (۱) .

و تشتمل هذه السوره على مجموعه من المعارف و العقائد الإسلاميه بالإضافه إلى سلسله من الأحكام و الواجبات الدينيه.

و قـد وردت فى القسم الأوّل منها الإشاره إلى قضيه الخلاف بعـد النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و قضايا أخرى مثل:عقيـده التثليث المسيحيه،و مواضيع خاصّه بيوم القيامه و الحشر و استجواب الأنبياء حول أممهم.

أمّـا القسم الثّـانى فقـد اشـتمل على قضـيه الوفـاء بـالعهود و المواثيق،و قضايـا العـداله الاجتماعيه،و الشـهاده العادله،و تحريم قتل النفس(من خلال ذكر قضـيه ابنى آدم،و قتل قابيل لأخيه هابيل)بالإضافه إلى بيان أقسام من الأغـذيه المحرمه و المحلله،و أقسام من أحكام الوضوء و التيمم.

أمّـا وجـه تسـميه السـوره ب«سـوره المائـده»فهـو لـورود قصّـه نزول المائـده السـماويه على حـوارى المسـيح عليـه السّـلام فى الآيه(۱۱۴)منها.

ص :۵۶۹

۱- ۱) -تفسير المنار-الجزء السادس،ص ۱۱۶،و يجب الانتباه إلى أنّ المقصود بالسوره المدنيه،هو نزولها بعد هجره النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم من مكّه إلى المدينه،حتى لو لم تكن السوره قد نزلت فى المدينه نفسها.

الآيه [سوره المائده (۵): آیه ۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ اَلْأَنْعٰامِ إِلاّٰ مٰا يُتْلىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي اَلصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اَللّٰهَ يَحْكُمُ مٰا يُرِيدُ (۱)

التّفسير

اشاره

الإلزام بالوفاء بالعهد و الميثاق:

تدل الروايات الإسلاميه و أقوال المفسّرين على أنّ هذه السوره هى آخر سوره أو من السور الأخيره التى نزلت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و

قد ورد فى تفسير العياشى نقلا عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّ الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام قال: «نزلت المائده قبل أن يقبض النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بشهرين أو ثلاثه» (۱) .

و ما ورد بشأن هذه السوره من أنّها من السور الناسخه و ليست المنسوخه يعتبر إشاره إلى المعنى المذكور أعلاه.

و لا يتنافى هذا الكلام مع ذلك الذى ورد فى الجزء الثّانى من تفسيرنا هذا-

ص: ۵۷۰

۱- ۱) -تفسير البرهان-الجزء الأوّل،ص ۴۳۰،يجب الانتباه إلى أن ورد أحكام الوضوء و التيمم و أمثالهما فى هذه السوره،لا ينافى كونها آخر سوره من سور القرآن،لأنّ أغلب هذه الأحكام لها طابع تكرارى،أى أنّها وردت بصوره مكرره للتأكيد عليها،لذلك ترى بعضا من هذه الأحكام قد وردت فى سوره النساء أيضا.

فی هامش الآیه(۲۸۱)من سوره البقره-حیث قلنا هناک بأنّ هـذه الآیه هی آخر آیه نزلت علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لأنّ کلامنا الحالی هو عن آخر سوره نزلت علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و کلامنا السابق کان عن آیه واحده.

لقـد تمّ التأکیـد فی هـذه السـوره-لمـا تمتـاز به من موقـع خـاص-علی مجمـوعه من المفـاهیم الإسـلامیه،و علی آخر البرامـج و المشاریع الـدینیه،و قضـیه قیاده الأمّه و خلافه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و قـد یکون هـذا هو السـبب فی اسـتهلال سوره المائـده بقضـیه الإلـزام بالوفـاء بالعهـد و المیثـاق،حیث تقول الآیه فی أوّل جمله لها: یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ... و ذلک لکی تلزم المؤمنین بالوفاء بعهودهم التی عقدوها فی الماضی مع اللّه أو تلک التی أشارت إلیها هذه السوره.

و یأتی هذا التأکید علی غرار ما یفعله المسافر فی اللحظات الأخیره،من الوداع مع أهله و أقاربه و أنصاره حیث یؤکّد علیهم أن لا ینسوا وصایاه و نصائحه، و أن یوفوا بالعهود و المواثیق التی عقدوها معه.

و یجب الالتفات إلی أنّ کلمه«عقود»هی صیغه جمع من«عقد»التی تعنی فی الأصل شد أطراف شیء معین ببعضها شدا محکما،و من هنا یسمّی شد طرفی الحبل أو شد حبلین ببعضهما «عقدا».

بعـد ذلک تنتقل الآیه من هـذا المعنی المحسوس إلی المفهوم المعنوی فتسـمّی کلّ عهد أو میثاق عقدا،لکن بعض المفسّـرین- قـالوا بـأنّ کلمه«عقـد»مفهـوم أضـیق من العهـد،لأنّ کلمه العقـد تطلق علی العهود المحکمه إحکامـا کافیـا،و لا تطلق علی کل العهود،و إذا وردت فی بعض الروایات أو فی عبارات المفسّرین کلمتا العقـد و العهد للدلاله علی معنی واحد فذلک لا ینافی ما قلناه،لأنّ المقصود فی هذه الروایات أو العبارات هو التّفسیر الإجمالی لهاتین الکلمتین لا بیان جزئیاتهما.

و نظرا لأنّ کلمه العقود هی صیغه جمع دخلت علیها الألف و اللام للدلاله

على الاستغراق،و الجمله التى وردت فيها هذه الكلمه جمله مطلقه أيضا إطلاقا تاما،لذلك فإن الآيه-موضوع البحث-تعتبر دليلا على وجوب الوفاء بجميع العهود التى تعقد بين أفراد البشر بعضهم مع البعض الآخر،أو تلك العهود التى تعقد مع اللّه سبحانه و تعالى عقدا محكما.

و بذلك تشمل هذه الآيه جميع العهود و المواثيق الإلهيه و الإنسانيه و الاتفاقيات السياسيه و الاقتصاديه و الاجتماعيه،و التجاريه،و عقود الزواج، و أمثال ذلك،و لها مفهوم واسع يطوى بين جنبيه جميع جوانب حياه الإنسان العقائديه و العمليه،و يشمل العهود الفطريه و التوحيديه و حتى العهود التى يعقدها الناس فيما بينهم على مختلف قضايا الحياه.

و جاء فى تفسير«روح المعانى»عن«الراغب الأصفهانى»أنّ العقد-نظرا لطرفيه ينقسم إلى ثلاثه أنواع،فأحيانا يكون عقدا بين العبد و ربّه،و طورا بين الفرد و نفسه،و حينا بين الفرد و نظائره من سائر أفراد البشر (۱) .

و طبيعى أن لكل من هذه الأنواع الثلاثه من العقود طرفين،و غايه الأمر أنّ الإنسان حين يتعاقد مع نفسه يفترض هذه النفس بمثابه الشخص الثّانى،أو الطرف الآخر من العقد.

و على أى حال،فإنّ مفهوم هذه الآيه-لسعته-يشمل حتى تلك العقود و العهود التى يقيمها المسلمون مع غير المسلمين.

و هناك عدّه أمور فى هذه الآيه يجب الانتباه إليها و هى:

۱-تعتبر هذه الآيه من الآيات التى تستدل بها جميع كتب الفقه،فى البحوث الخاصّه بالحقوق الإسلاميه و تستخلص منها قاعده فقهيه مهمه هى«أصاله اللزوم فى العقود»أى أنّ كل عقد أو عهد يقام بين اثنين حول أشياء أو أعمال يكون لازم التنفيذ.

۱- ۱) -تفسير«روح المعانى»الآيه موضوع البحث.

و یعتقد جمع من الباحثین أنّ أنواع المعاملات و الشرکات و الاتفاقیات الموجوده فی عصرنا الحاضر،و التی لم یکن لها وجود فی السابق،أو التی ستوجد بین العقلاء فی المستقبل،و التی تقوم علی أسس و مقاییس صحیحه- تدخل ضمن هذه القاعده،حیث تؤکّد هذه الآیه صحتها جمیعا(و طبیعی أن الضوابط الکلیه التی أقرّها الإسلام للعقود و العهود یجب أن تراعی فی هذا المجال).

و الاستدلال بهذه الآیه کقاعده فقهیه لیس معناه أنّها لا تشمل العهود الإلهیه المعقوده بین البشر و بین اللّه تعالی،أو القضایا الخاصّه بالقیاده و الزعامه الإسلامیه التی أخذ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم العهد و المیثاق فیها من الأمّه،بل إنّ للآیه مفهوما واسعا یشمل جمیع هذه الأمور.

و تجدر الإشاره هنا إلی أن حقیقه العهد و المیثاق ذات طرفین،و لزوم الوفاء بالعهد یبقی ساریا ما دام لم یقم أحد من المتعاقدین بنقض العهد،و لو نقض أحد الطرفین العقد لم یکن الطرف الثّانی عند ذلک ملزما بالوفاء بالعهد إذ یخرج العهد بهذا النقض من حقیقه العهد و المیثاق.

۲-إنّ قضیه الوفاء بالعهد و المیثاق التی تطرحها الآیه-موضوع البحث- تعتبر واحدا من أهم مستلزمات الحیاه الاجتماعیه،إذ بدونها لا یتمّ أی نوع من التعاون و التکافل الاجتماعی،و إذا فقد نوع البشر هذه الخصله فقدوا بذلک حیاتهم الاجتماعیه و آثارها أیضا.

و لهذا تؤکد مصادر التشریع الإسلامی بشکل لا مثیل له-علی قضیه الوفاء بالعهود التی قد تکون من القضایا النوادر التی تمتاز بهذا النوع من السعه و الشمولیه،لأنّ الوفاء لو انعدم بین أبناء المجتمع الواحد لظهرت الفوضی و عم الاضطراب فیه و زالت الثقه العامّه،و زوال الثقه یعتبر من أکبر و أخطر الکوارث.

و

قد ورد فی نهج البلاغه من قول الإمام علی بن أبی طالب علیه السّلام لمالک

ص:۵۷۳

الأشتر رضی اللّه عنه ما یلی:

«فإنّه لیس من فرائض اللّه شیء للناس أشدّ علیه اجتماعا-مع تفرق أهوائهم و تشتت آرائهم-من تعظیم الوفاء بالعهود،و قد لزم ذلک المشرکون فیما بینهم-دون المسلمین-لما استوبلوا من عواقب الغدر» (۱) .

و جمله

«لما استوبلوا من عواقب الغدر» معناها:لما نالهم من وبال من عواقب الغدر.

و

ینقل عن الإمام أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه لا یقبل إلاّ العمل الصالح،و لا یقبل اللّه إلاّ الوفاء بالشروط و العهود» (۲) .

و

نقل عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «لا دین لمن لا عهد له» (۳) .

و التأکیدات الشدیده هذه کلها تدل علی أنّ موضوع الوفاء بالعهد لا فرق فی الالتزام به بین إنسان و إنسان آخر-سواء کان مسلما أو غیر مسلم-و هو-کما یصطلح علیه-یعتبر من حقوق الإنسان بصوره عامّه،و لیس-فقط-من حقوق أنصار الدین الواحد.

و

فی حدیث عن الإمام الصّادق علیه السّلام أنّه قال: «ثلاث لم یجعل اللّه عزّ و جلّ لأحد فیهنّ رخصه:أداء الأمانه إلی البر و الفاجر،و الوفاء بالعهد للبر و الفاجر،و بر الوالدین برین کانا أو فاجرین!» (۴) .

نقل عن الإمام علی علیه السّلام بأن العهد حتی لو کان بالإشاره یجب الوفاء به، و ذلک فی قوله:«إذا أومی أحد من المسلمین أو أشار إلی أحد من المشرکین،فنزل علی ذلک فهو فی أمان» (۵) .

۱- ۱) -نهج البلاغه،رسائل الإمام علی علیه السّلام،الرساله ۵۳.

۲- ۲) -سفینه البحار،الجزء الثّانی،ص ۲۹۴.

۳- ۳) -البحار،الجزء السادس عشر،ص ۱۴۴.

۴- ۴) -أصول الکافی،ج ۲،ص ۱۶۲.

۵- ۵) -مستدرک الوسائل،ج ۲،ص ۲۵۰.

و بعـد أن تطرقت الآـيه إلى حكم الوفـاء بالعهـد و الميثـاق-سواء كـان إلهيـا أو إنسانيـا محضـا-أردفت ببيان مجموعه أخرى من الأحكام الإسـلاميه،كان الأوّل منها حليه لحوم بعض الحيوانات،فبيّنت أن المواشـى و أجنتها تحل لحومهما على المسـلمين،حيث تقول الآيه: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَهُ الْأَنْعٰامِ و كلمه«الأنعام»صيغه جمع من«نعم»و تعنى الإبل و البقر و الأغنام (۱) .

أمّـا كلمـه«بهيمـه»فهى مشـتقه مـن المصـدر«بهمـه»على وزن«تهمـه»و تعنى فى الأصـل الحجر الصـلب،و يقـال لكـل مـا يعسـر دركه«مبهمـا»و جميع الحيوانـات التى لاـ تمتلـك القـدره على النطق تسـمى«بهيمه»لأنّ أصواتها تكون مبهمه للبشـر، و قـد جرت العاده على إطلاق كلمه«بهيمه»على المواشى من الحيوانات فقط، فأصبحت لا تشمل الحيوانات الوحشيه و الطيور.

و من جانب آخر فإن جنين المواشى يطلق عليه اسم«بهيمه»لأنّه يكون مبهما نوعا ما.

و على الإسـاس المـذكور فـإنّ حكم حليه بَهِيمَهُ الْأَنْعٰامِ يشـمل إمّا جميع المواشـى ما عـدا التى اسـتثنتها الآيه فيما بعـد،أو تكون الجمله بمعنى أجنه الحيوانات من ذوات اللحم الحلال(تلك الأجنه التى اكتمل نموها و هى فى بطن أمّها،و كسـى جلدها بالشعر أو الصوف) (۲) .

و لمـا كـان حكـم حليه حيوانـات كالإبـل و البقر و الأغنـام قـد تبيّن للنـاس قبـل هـذه الآيه،لـذلك من المحتمل أن تكون الآيه-موضوع البحث-إشاره إلى حليه أجنه هذه الحيوانات.

و الظاهر من الآيه أنّها تشمل معنى واسعا،أى تبيّن حليه هذه الحيوانات

۱- ۱) -إذا جاءت كلمه«نعم»مفرده فهى تعنى الإبل،و إذا جاءت جمعا فتعنى الأنواع الثلاثه،مفردات الراغب ماده (نعم).

۲- ۲) -لو قلنا:إنّ كلمه«بهيمه»تعنى الحيوانات وحدها دون الأجنه،لكانت إضافه كلمه«بهيمه»إلى كلمه«أنعام» إضافه بيانيه،أمّا إذا قلنا:إنها تعنى الأجنه أيضا،تكون هذه الإضافه«لاميه».

بالإضافه إلى حليه لحوم أجنتها أيضا،و مع أنّ هـذا الحكم كان قـد توضـح فى السابق إلاّ أنّه جاء مكررا فى هـذه الآيه كمقـدمه للاستثناءات الوارده فيها.

و يتبيّن لنـا ممّـا تقـدم أن علاقه الجمله الأخيره و حكمهـا بالأصـل الكلى-الـذى هو لزوم الوفاء بالعهـد-هى التأكيـد على كون الأحكام الإلهيه نوعا من العهد بين اللّه و عباده-حيث تعتبر حليه لحوم بعض الحيوانات و حرمه لحوم البعض الآخر منها قسما من تلك الأحكام.

و فى الختـام تـبيّن الآيه موردين تستثنيهما من حكم حليه لحوم المواشـى، و أحـد هـذين الموردين هو اللحوم الـتى سيتم بيـان حرمتها فيما بعـد،حيث تقول الآيه: إِلاّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ و المورد الثّانى هو أن يكون الإنسان فى حاله إحرام للحج أو العمره، حيث يحرم عليه الصيد فى هذه الحاله،فتقول الآيه: غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ (١) .

و فى آخر الآيه يأتى التأكيد على أنّ اللّه إذا أراد شيئا أو حكما انجزه أو أصدره،لأنه عالم بكل شىء،و هو مالك الأشياء كلها،و إذا رأى أن صدور حكم تكون فيه مصلحه عباده و تقتضى الحكمه صدوره،أصدر هذا الحكم و شرعه، حيث تقول الآيه فى هذا المجال: إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ .

١- ١) -طبيعى أن جمله«إلاـ مـا يتلى عليكم»هى جمله اسـتثنائيه،و إن جمله«غير محلى الصـيد»هى حـال من ضـمير «كم»و تكون نتيجه للاستثناء بحسب المعنى.

الآيه [سوره المائده (۵): آیه ۲]

اشاره

يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعٰائِرَ اَللّٰهِ وَ لاَ اَلشَّهْرَ اَلْحَرٰامَ وَ لاَ اَلْهَدْيَ وَ لاَ اَلْقَلاٰئِدَ وَ لاَ آمِّينَ اَلْبَيْتَ اَلْحَرٰامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوٰاناً وَ إِذٰا حَلَلْتُمْ فَاصْطٰادُوا وَ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَ تَعٰاوَنُوا عَلَى اَلْبِرِّ وَ اَلتَّقْوىٰ وَ لاٰ تَعٰاوَنُوا عَلَى اَلْإِثْمِ وَ اَلْعُدْوٰانِ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ شَدِيدُ اَلْعِقٰابِ (٢)

التّفسير

اشاره

ثمانيه احكام فى آيه واحده:

لقد بيّنت هذه الآيه عددا من الأحكام الإلهيه الإسلاميه المهمه،و هى من الأحكام الأواخر التى نزلت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كلها أو أغلبها تتعلق بحج بيت اللّه، و هى على الوجه التالى:

١-الطلب من المؤمنين بعدم انتهاك شعائر اللّه،و نهيهم عن المساس بحرمه هذه الشعائر المقدسه،كما تقول الآيه الكريمه:يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُحِلُّوا شَعٰائِرَ اللّٰهِ... و اختلف المفسّرون حول المراد بكلمه«الشعائر»الوارده هنا، و بالنظر إلى الأجزاء الأخرى من هذه الآيه،و إلى السنه التى نزلت فيها و هى السنه

العاشره للهجره التی أدی فیها النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم آخر حجّه إلی مکّه المکرمه هی حجّه الوداع،یتّضح أنّ المراد بهذه الکلمه مناسک الحج التی کلف المسلمون باحترامها کلّها،و یؤکّد هذا الرأی مجیء کلمه«الشّعائر»فی القرآن الکریم مقترنه بالحدیث عن مناسک الحج دائما (۱) .

۲-دعت الآیه إلی احترام الأشهر الحرم و هی شهور من السنه القمریه،کما نهت عن الدخول فی حرب فی هذه الشهور،حیث قالت: وَ لاَ الشَّهْرَ الْحَرٰامَ... .

۳-حرمت الآیه المساس بالقرابین المخصصه للذبح فی شعائر الحج،سواء ما کان منها ذا علامه و هو المسمّی ب«الهدی» (۲) أو تلک الخالیه من العلامات و التی تسمّی ب«القلائد» (۳) أی نهت عن ذبحها و أکل لحومها حتی تصل إلی محل القربان للحج و تذبح فیه،فقالت الآیه: وَ لاَ الْهَدْیَ وَ لاَ الْقَلاٰئِدَ... .

۴-أوجبت الآیه توفیر الحریه التامّه لحجاج بیت اللّه الحرام أثناء موسم الحج،الذی تزول خلاله کل الفوارق القبلیه و العرقیه و اللغویه و الطبقیه،و نهت عن مضایقه المتوجهین إلی زیاره بیت اللّه الحرام ابتغاء لمرضاته،أو حتی الذین توجهوا إلی هذه الزیاره و هم یحملون معهم أهدافا أخری کالتجاره و الکسب الحلال لا فرق فیهم بین صدیق أو غریم،فما داموا کلهم مسلمین و قصدهم زیاره بیت اللّه،فهم یتمتعون بالحصانه کما تقول الآیه الکریمه: وَ لاَ آمِّینَ الْبَیْتَ الْحَرٰامَ یَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوٰاناً... .

یعتقد بعض المفسّرین و الفقهاء أنّ الجمله القرآنیه المذکوره أعلاه ذات معنی عام و تشمل غیر المسلمین،أی المشرکین أیضا إن هم جاءوا لزیاره بیت اللّه الحرام یجب أن یتعرضوا للمضایقه من قبل المسلمین.

۱- ۱) -سوره البقره،الآیه ۱۵۸ و سوره الحج،الآیتان ۳۲ و ۳۶.

۲- ۲) -الهدی جمع«هدیه»و هو یعنی هنا المواشی التی تهدی لتکون قرابین إلی بیت اللّه الحرام.

۳- ۳) -القلائد جمع«قلاده»و هی الشیء الذی یوضع حول رقبه الإنسان أو الحیوان،و تعنی هنا المواشی التی تعلم بالقلائد لذبحها فی مراسم الحج.

و لكن نظرا لنزول آيه تحريم دخول المشركين إلى المسجد الحرام فى سوره التوبه التى نزلت فى العام التاسع للهجره،و نزول سوره المائده فى أواخر عمر النّبى الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أى فى العام العاشر للهجره و هى سوره لم يطرأ النسخ على أىّ من الأحكام الوارده فيها-بحسب روايات الطائفتين الشيعه و السنه-لذلك يستبعد أن يكون هذا التّفسير صحيحا،و الحق أن الحكم المذكور خاص بالمسلمين وحدهم.

۵-لقد خصصت هذه الآيه حكم حرمه الصيد بوقت الإحرام فقط،و أعلنت أنّ الخروج من حاله الإحرام إيذان بجواز الصيد للمسلمين-حيث تقول الآيه الكريمه: وَ إِذٰا حَلَلْتُمْ فَاصْطٰادُوا .

۶-منعت هذه الآيه الكريمه المسلمين من مضايقه أولئك النفر من المسلمين الذين كانوا قبل إسلامهم يضايقون المسلمين الأوائل فى زياره بيت اللّه الحرام و يمنعونهم من أداء مناسك الحج،و كان هذا فى واقعه الحديبيه،فمنع المسلمون من تجديد الأحقاد و مضايقه أولئك النفر فى زمن الحج بعد أن أسلموا و قبلوا الإسلام لهم دينا، تقول الآيه الكريمه: وَ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ أَنْ تَعْتَدُوا (۱) .

و مع أنّ هذا الحكم قد نزل فى مجال زياره بيت اللّه الحرام،لكنه-فى الحقيقه-يعد حكما عاما،و قانونا كليا يدعو المسلمين إلى نبذ«الحقد»و عدم إحياء الأحداث السابقه فى أذهانهم بهدف الانتقام من مسببيها.

و لمّا كانت خصله الحقد إحدى عناصر ظهور و بروز النفاق و الفرقه لدى المجتمعات يتّضح لنا-منذ ذلك-جليا أهميه هذا الحكم الإسلامى فى التصدى و الوقوف بوجه استعار نار النفاق بين المسلمين و بالأخص فى زمن كان نبى

۱- ۱) -تفيد أقوال أهل اللغه و التّفسير أنّ كلمه«جرم»تعنى فى الأصل قطع الثمار أو قطفها من الأغصان قبل الأوان، و تطلق-أيضا على كل عمل مكروه،كما تطلق على الآخرين بالقيام بعمل غير محبوب-و هنا فإن عباره«لا يجر منكم»تعنى لا يحملنكم على القيام بعمل غير صائب.

الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوشک على وداع المسلمين و الرحيل عنهم.

۷-تؤكّد الآيه-جريا على سياق البحث الذى تناولته و بهدف إكماله-على أنّ المسلمين بدلا من أن يتحدوا للانتقام من خصومهم السابقين الذين أسلموا- و أصبحوا بحكم إسلامهم أصدقاء-عليهم جميعا أن يتحدوا فى سبيل فعل الخيرات و التزام التقوى،و أن لا يتعاونوا-فى سبيل الشر و العدوان تقول الآيه:

وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوىٰ وَ لاٰ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ...

.

۸-و لكى تعزز الآيه الأحكام السابقه و تؤكّدها تدعو المسلمين فى الختام إلى اتّباع التقوى و تجنّب معصيه اللّه،محذره من عذاب اللّه الشديد،فتقول:

وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعِقٰابِ

.

التعاون فى أعمال الخير:

إنّ الدعوه إلى التعاون التى تؤكّد عليها الآيه الكريمه تعتبر مبدأ إسلاميا عاما،تدخل فى إطاره جميع المجالات الاجتماعيه و الأخلاقيه و السياسيه و الحقوقيه و غيرها و قد أوجبت هذه الدعوه على المسلمين التعاون فى أعمال الخير،كما منعتهم و نهتهم عن التعاون فى أعمال الشرّ و الإثم اللّذين يدخل إطارهما الظلم و الاستبداد و الجور بكل أصنافها.

و يأتى هذا المبدأ الإسلامى تماما على نقيض مبدأ ساد فى العصر الجاهلى، و ما زال يطبق حتى فى عصرنا الحاضر،و هو المبدأ القائل:«انصر أخاک ظالما أو مظلوما»،و كان فى العصر الجاهلى إذا غزت جماعه من إحدى القبائل جماعه من قبيله أخرى،هب أفراد القبيله الغازيه لموازره الغازين بغض النظر عمّا إذا كان الغزو لغرض عادل أو ظالم،و نرى فى وقتنا الحاضر-أيضا-آثار هذا المبدأ الجاهلى فى العلاقات الدوليه،و بالذات لدى الدول المتحالفه حين تهب فى الغالب لحمايه بعضها البعض،و التضامن و التعاون معا حيال القضايا الدوليه دون رعايه لمبدأ العداله و دون تمييز بين الظالم و المظلوم:لقد ألغى الإسلام هذا المبدأ

الجاهلی،و دعی المسلمین إلی التعاون فی أعمال الخیر و المشاریع النافعه و البناءه فقط،و نهی عن التعاون فی الظلم و العدوان.

و الطریق فی هذا المجال هو مجیء کلمتی«البر»و«التقوی»معا و علی التوالی فی الآیه،حیث أنّ الکلمه الأولی تحمل طابعا إیجابیا و تشیر الی الأعمال النافعه،و الثانیه لها طابع النهی و المنع و تشیر إلی الامتناع عن الأعمال المنکره-و علی هذا الأساس-أیضا- فإن التعاون و التآزر یجب أن یتمّ سواء فی الدّعوه إلی عمل الخیر،أو فی مکافحه الأعمال المنکره.

و قد استخدم الفقه الإسلامی هذا القانون فی القضایا الحقوقیه،حیث حرّم قسما من المعاملات و العقود التجاریه التی فیها طابع الإعانه علی المعاصی أو المنکرات،کبیع الأعناب إلی مصانع الخمور أو بیع السلاح إلی أعداء الإسلام و أعداء الحق و العداله،أو تأجیر محل للاکتساب لتمارس فیه المعاملات غیر الشرعیه و الأعمال المنکره(و بدیهی أن لهذه الأحکام شروطا تناولتها کتب الفقه الإسلامی بالتوضیح).

إنّ إحیاء هذا المبدأ لدی المجتمعات الإسلامیه،و تعاون المسلمین فی أعمال الخیر و المشاریع النافعه البناءه دون الاهتمام بالعلاقات الشخصیه و العرقیه و النسبیه،و الامتناع عن تقدیم أی نوع من التعاون إلی الأفراد الذین یمارسون الظلم و العدوان،بغض النظر عن تبعیه أو انتمائیه الفئه الظالمه،کل ذلک من شأنه أن یزیل الکثیر من النواقص الاجتماعیه.

أمّا فی العلاقات الدولیه،فلو امتنعت دول العالم عن التعاون مع کل دوله معتدیه-أیّا کانت-لقضی بذلک علی جذور العدوان و الاستعمار و الاستغلال فی العالم،و لکن حین ینقلب الوضع فتتعاون الدول مع المعتدین و الظالمین بحجّه أنّ مصالحهم الدولیه تقتضی ذلک،فلا یمکن توقع الخیر أبدا من وضع کالذی یسود العالم الیوم.

لقد تناولت الأحادیث و الروایات الإسلامیه هذه القضیه بتأکید کبیر،

و نورد-هنا-بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر.

-۱

نقل عن النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی هذا المجال قوله: «إذا کان یوم القیامه نادی مناد:أین الظلمه و أعوان الظلمه و أشباه الظلمه حتی من بریء لهم قلما و لاق لهم دواه؟ قال:فیجتمعون فی تابوت من حدید ثمّ یرمی بهم فی جهنّم» (۱) .

-۲

نقل عن صفوان الجمال،و هو أحد أنصار الإمام السابع موسی بن جعفر الکاظم علیه السّلام، بأنّه تشرف بلقاء الإمام علیه السّلام فقال له الکاظم علیه السّلام:یا صفوان کل شیء منک حسن جمیل ما خلا شیئا واحدا.

قلت:جعلت فداک،أی شیء؟ قال:اکراؤک جمالک من هذا الرجل،یعنی هارون.

قال:و اللّه ما أکریته أشرا و لا بطرا و لا للصید و لا للهو و لکنّی أکریته لهذا الطریق-یعنی طریق مکّه-و لا أتولّاه بنفسی،و لکن أبعث معه غلمانی.

فقال لی:یا صفوان،أیقع کراؤک علیهم؟ قلت:نعم.

قال:من أحب بقاءهم فهو منهم،و من کان منهم کان ورد النار...إلی آخر الحدیث (۲) .

و

فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خاطب به علیّا علیه السّلام قائلا:

«یا علی کفر باللّه العلی العظیم من هذه الأمّه عشره...و بائع السلاح لأهل الحرب» (۳) .

۱- ۱) -وسائل الشیعه،ج ۱۲،ص ۱۳۱.

۲- ۲) -الوسائل،ج ۱۲،ص ۱۳۱-۱۳۲.

۳- ۳) -وسائل الشیعه،ج ۱۲،ص ۷۱.

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۳]

اشاره

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ اَلْمَيْتَهُ وَ اَلدَّمُ وَ لَحْمُ اَلْخِنْزِيرِ وَ مٰا أُهِلَّ لِغَيْرِ اَللّٰهِ بِهِ وَ اَلْمُنْخَنِقَهُ وَ اَلْمَوْقُوذَهُ وَ اَلْمُتَرَدِّيَهُ وَ اَلنَّطِيحَهُ وَ مٰا أَكَلَ اَلسَّبُعُ إِلاّٰ مٰا ذَكَّيْتُمْ وَ مٰا ذُبِحَ عَلَى اَلنُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلاٰمِ ذٰلِكُمْ فِسْقٌ اَلْيَوْمَ يَئِسَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اِخْشَوْنِ اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ اَلْإِسْلاٰمَ دِيناً فَمَنِ اُضْطُرَّ فِي مَخْمَصَهٍ غَيْرَ مُتَجٰانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳)

التّفسير

اشاره

لقد تمّت الإشاره فی بدایه السوره إلی الحلال من لحوم المواشی، و ورد-أیضا-أنّ هناک استثناءات تحرم فیها لحوم المواشی،حیث ذکرتها الآیه الأخیره-موضوع البحث-فی أحد عشر موردا تکرر ذکر بعضها فی آیات قرآنیه أخری علی سبیل التأکید.

و المحرمات التی وردت فی هذه الآیه،بحسب الترتیب الذی جاءت علیه کما یلی:

أوّلا:المیته.

ص :۵۸۳

ثانیا:الدم.

ثالثا:لحم الخنزیر.

رابعا:الحیوانات التی تذبح باسم الأصنام،أو باسم غیر اسم اللّه،کما کان یفعل الجاهلیّون،و قد تحدثنا عن هذه اللحوم الأربعه المحرمه فی الجزء الأوّل من تفسیرنا هذا.

خامسا:الحیوانات المخنوقه،سواء کان الخنق بسبب الفخ الذی تقع فیه أو بواسطه الإنسان أو بنفسها،و کان الجاهلیون یخنقون الحیوانات أحیانا للانتفاع بلحومها و قد أشارت الآیه إلی هذا النوع باسم«المنخنقه».

و ورد فی بعض الروایات أنّ المجوس کان من عادتهم أن یخنقوا الحیوانات التی یریدون أکلها،و لهذا یمکن أن تشملهم الآیه أیضا (۱) .

سادسا:الحیوانات التی تموت نتیجه تعرضها للضرب و التعذیب،أو التی تموت عن مرض و سمّیت فی الآیه ب«الموقوذه» (۲) .

و نقل القرطبی فی تفسیره أن عرب الجاهلیه اعتادوا علی ضرب بعض الحیوانات حتی الموت إکراما لأصنامهم و تقربا لها.

سابعا:الحیوان الذی یموت نتیجه السقوط من مکان مرتفع،و قد سمی هذا النوع فی الآیه ب«المتردیه».

ثامنا:الحیوان الذی یموت جراء نطحه من قبل حیوان آخر،و قد سمت الآیه هذا النوع من الحیوانات ب«النطیحه».

تاسعا:الحیوان الذی یقتل نتیجه هجوم حیوان متوحش علیه،و سمی هذا النوع فی الآیه ب«ما أکل السبع».

و قد یکون جزءا من فلسفه تحریم هذه الأنواع من الحیوانات،هو عدم

۱- ۱) -وسائل الشیعه،ج ۱۶،ص ۱۷۳.

۲- ۲) -الموقوذه المضروبه بعنف حتی الموت.

نزفها المقدار الكافی من الدم لدی الموت أو القتل،لأنّه ما لم تقطع عروق رقابها لا تنزف الدم بمقدار کاف،و لما کان الدم محیطا مناسبا جدا لنمو مختلف أنواع الجراثیم،و بما أنّه یتفسخ حین یموت الحیوان قبل الأجزاء الأخری من الجسد، لذلک یتسمم لحم الحیوان و لا یمکن أن یعد هذا اللحم من اللحوم السلیمه،و غالبا ما یحصل هذا التسمم عند ما یموت الحیوان علی أثر مرض أو من جراء التعذیب أو نتیجه تعرضه لملاحقه حیوان متوحش آخر.

من جانب آخر فإنّ الشرط المعنوی للذبح لا یتحقق فی أی نوع من تلک الحیوانات،أی شرط ذکر اسم اللّه و توجیه الحیوان صوب القبله لدی الذبح.

لقد ذکرت الآیه شرطا واحدا لو تحقق لأصبحت لحوم الحیوانات المذکوره حلالا،و هذا الشرط هو أن یذبح الحیوان قبل موته وفق الآداب و التقالید الإسلامیه،لیخرج الدم منه بالقدر الکافی فیحل بذلک لحمه،و لذلک جاءت عباره إِلاّ مٰا ذَکَّیْتُمْ بعد موارد التحریم مباشره.

و یری بعض المفسّرین أن هذا الاستثناء یخص القسم الأخیر فقط،أی ذلک الذی جاء تحت عنوان: وَ مٰا أَکَلَ السَّبُعُ لکن أغلب المفسّرین یرون أنّ الاستثناء یشمل جمیع الأنواع المذکوره،و النظریه الأخیره أقرب للحقیقه من غیرها.

و هنا قد یسأل البعض:لما ذا لم تدخل جمیع أنواع الحیوانات المحرمه فی الآیه فی إطار«المیته»التی ذکرت کأوّل نوع من المحرمات الأحد عشر فی الآیه، أ لیست المیته فی مفهومها تعنی کل الأنواع المذکوره؟ و الجواب هو:إنّ المیته لها معان واسعه من حیث مفهوم الفقهی الشرعی، فکل حیوان لم یذبح وفق الطریقه الشرعیه یدخل فی إطار مفهوم المیته،أمّا المعنی اللغوی للمیته فیشمل-فقط-الحیوان الذی یموت بصوره طبیعیه.و لهذا السبب فإن الأنواع المذکوره فی الآیه-غیر المیته-لا تدخل من الناحیه اللغویه

ضمن مفهوم المیته،و هی محتاجه إلی البیان و التوضیح.

عاشرا:کان الوثنیون فی العصر الجاهلی ینصبون صخورا حول الکعبه لیست علی أشکال أو هیئات معینه،و کانوا یسمون هذه الصخور ب«النصب» حیث کانوا یذبحون قرابینهم أمامها و یمسحون الصخور تلک بدم القربان.

و الفرق بین النصب و الأصنام هو أنّ النصب لیست لها أشکال و صور بخلاف الأصنام،و قد حرم الإسلام لحوم القرابین التی کانت تذبح علی تلک النصب، فجاء حکم التحریم فی الآیه بقوله تعالی: وَ مٰا ذُبِحَ عَلَی النُّصُبِ .

و واضح أنّ تحریم هذا النوع من اللحوم إنّما یحمل طابعا معنویا و لیس مادیا.و فی الحقیقه فإن هذا النوع یعتبر من تلک القرابین التی تدخل ضمن مدلول العباره القرآنیه: وَ مٰا أُهِلَّ لِغَیْرِ اللّٰهِ بِهِ و قد ذکر تشخیصا فی الآیه بسبب رواجه لدی عرب الجاهلیه.

أحد عشر:و هناک نوع آخر من اللحوم المحرمه،و هو اللحوم التی تذبح و توزع بطریقه القمار،و توضیح ذلک هو أنّ عشره من الأشخاص یتراهنون فیما بینهم فیشترون حیوانا و یذبحونه،ثمّ یأتون بعشره سهام کتب علی سبعه منها عباره«فائز»،و علی الثلاثه الأخری کتبت عباره«خاسر»،فتوضع فی کیس و تسحب واحده واحده باسم کل من الأشخاص العشره علی طریقه الاقتراع، فالأشخاص الذین تخرج النبال السبعه الفائزه بأسمائهم یأخذون قسما من اللحم دون أن یدفعوا ثمنا لما أخذوه من اللحم،أمّا الأشخاص الثلاثه الآخرون الذین تخرج النبال الخاسره بأسمائهم فیتحملون ثمن الحیوان بالتساوی،فیدفع کلّ واحد منهم ثلث قیمه الحیوان دون أن یناله شیء من لحمه.

و قد سمی الجاهلیون هذه النبال ب«الأزلام»و هی صیغه جمع من«زلم»و قد حرم الإسلام هذا النوع من اللحوم،لا بمعنی وجود تأصل الحرمه فی اللحم،بل لأنّ الحیوان کان یذبح فی عمل هو أشبه بالقمار،و یجب القول هنا أن تحریم

القمار و أمثاله لا ينحصر فی اللحوم فقط،بل إن القمار محرم فی کل شیء و بأیّ صوره کان.

و لکی تؤکّد الآیه موضوع التحریم و تشدد علی حرمه تلک الأنواع من اللحوم تقول فی الختام: ذٰلِکُمْ فِسْقٌ . (۱)

الاعتدال فی تناول اللحوم:

إنّ الـذی نسـتنتجه من البحث المار الذکر و من المصادر الإسـلامیه الأخری، هو أنّ الإسـلام اتبع فی قضـیه تناول اللحوم أسـلوبا معتدلا تمام الاعتدال جریا علی طریقته الخاصّه فی أحکامه الأخری.

و یختلف أسـلوبه هذا اختلافا کبیرا مع ما سار علیه الجاهلیون فی أکل لحم النصب و المیته و الدم و أشـباه ذلک،و ما یسـیر علیه الکثیر من الغربیین فی الوقت الحاضر فی أکل حتی الدیدان و السلاحف و الضفادع و غیرها.

و یختلف مع الطریقه التی سار علیها الهنود فی تحریم کل أنواع اللحوم علی أنفسهم.

فقد أباح الإسـلام لحوم الحیوانات التی تتغذی علی الأشیاء الطاهره التی لا تعافها النفس البشریه، و ألغی الأسالیب التی فیها طابع الإفراط أو التفریط.

و قد عیّن الإسـلام شروطا أبان من خلالها أنواع اللحوم التی یحلّ للإنسان الاستفاده منها،و هی:- ۱-لحوم الحیوانات التی تقتات علی الأعشـاب،أمّا الحیوانات التی تقتات علی اللحوم فهی غالبا ما تأکل لحوم حیوانات میته أو موبوءه،و بـذلک قـد تکون سـببا فی نقل أنواع الأمراض لدی تناول لحومها،بینما الحیوانات التی تأکل

---

۱ – ۱) -بـالرغم من أنّ«ذلکم»اشـاره لمفرد،إلاّ أنّه لمّـا کـان یحتـوی علی ضـمیر الجمـع،و قـد فرض المجمـوع بمثـابه الشـیء الواحد،فلا اشکال فی هذا الاستعمال.

العشب یکون غذاؤها سلیما و خالیا من الأمراض.

و قد تقدم أیضا فی تفسیر الآیه(۷۲)من سوره البقره بأنّ الحیوانات تورث صفاتها عن طریق لحومها أیضا،فمن یأکل لحم حیوان متوحش یرث صفات الوحش کالقسوه و العنف،و بناء علی هذا الدلیل-أیضا-حرمت لحوم الحیوانات الجلاّله،و هی التی تأکل فضلات غیرها من الحیوانات.

۲-أن لا تکون الحیوانات التی ینتفع من لحمها کریهه للنفس الإنسانیه.

۳-أن لا یترک لحم الحیوان أثرا سیئا أو ضارا علی جسم أو نفس الإنسان.

۴-لقد حرمت الحیوانات التی تذبح فی طریق الشرک فی سبیل الأصنام، و أمثال ذلک لما فیها من نجاسه معنویه.

۵-لقد بیّن الإسلام أحکاما خاصّه لطریقه ذبح الحیوانات لکل واحد منها-بدوره-الأثر الصحی و الأخلاقی علی الإنسان.

بعد أنّ بیّنت الآیه الأحکام التی مرّ ذکرها أوردت جملتین تحتویان معنی عمیقا:الأولی منهما تقول: اَلْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ .

و الثّانیه هی: اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلاٰمَ دِیناً .

متی أکمل اللّه الدین للمسلمین:

إنّ أهمّ بحث تطرحه هاتان الفقرتان القرآنیتان یترکز فی کنهه و حقیقته کلمه «الیوم»الوارده فیهما.

فأیّ یوم یا تری هو ذلک«الیوم»الذی اجتمعت فیه هذه الأحداث الأربعه

المصیریه،و هی یأس الکفار،و إکمال الدین،و إتمام النعمه،و قبول اللّه لدین الإسلام دینا ختامیا لکل البشریه؟ لقد قال المفسّرون الکثیر فی هذا المجال،و ممّا لا شک فیه و لا ریب أن یوما عظیما فی تاریخ حیاه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم-کهذا الیوم- لا یمکن أن یکون یوما عادیا کسائر الأیّام،و لو قلنا بأنّه یوم عادی لما بقی مبرر لإضفاء مثل هذه الأهمیه العظیمه علیه کما ورد فی الآیه.

و قیل أنّ بعضا من الیهود و النصاری قالوا فی شأن هذا الیوم بأنّه لو کان قد ورد فی کتبهم مثله لاتّخذوه عیدا لأنفسهم و لاهتموا به اهتماما عظیما (۱) .

و لنبحث الآن فی القرائن و الدلائل و فی تاریخ نزول هذه الآیه و تاریخ حیاه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الروایات المختلفه المستفاده من مصادر إسلامیه عدیده،لنری أی یوم هو هذا الیوم العظیم؟ تری هل هو الیوم الذی أنزل فیه اللّه الأحکام المذکوره فی نفس الآیه و الخاصّه بالحلال و الحرام من اللحوم؟ بدیهی أنّه لیس ذلک لأنّ نزول هذه الأحکام لا یوجب إعطاء تلک الأهمیه العظیمه،و لا یمکن أن یکون سببا لإکمال الدین،لأنّها لم تکن آخر الأحکام التی نزلت علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و الدلیل علی هذا القول ما نراه من أحکام تلت الأحکام السابقه فی نزولها، کما لا یمکن القول بأن الأحکام المذکوره هی السبب فی یأس الکفار،بل إنّ ما یثیر الیأس لدی الکفار هو إیجاد دعامه راسخه قویه لمستقبل الإسلام،و بعباره أخری فإنّ نزول أحکام الحلال و الحرام من اللحوم لا یترک أثرا فی نفوس الکفار،فما ذا یضیرهم لو کان بعض اللحوم حلالا و بعضها الآخر حراما؟! فهل المراد من ذلک«الیوم»هو یوم عرفه من حجّه الوداع،آخر حجّه قام بها

۱- ۱) -تفسیر المنار،ج ۶،ص ۱۵۵.

النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم(كما احتمله بعض المفسّرين)؟ و جواب هذا السؤال هو النفى أيضا،لأنّ الدلائل المذكوره لا تتطابق مع هذا التّفسير،حيث لم تقع أىّ حادثه مهمّه فى مثل ذلك اليوم لتكون سببا ليأس الكفار و لو كان المراد هو حشود المسلمين الذين شاركوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى يوم عرفه،فقد كانت هذه الحشود تحيط بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مكّه قبل هذا اليوم أيضا،و لو كان المقصود هو نزول الأحكام المذكوره فى ذلك اليوم،فلم تكن الأحكام تلك شيئا مهمّا مخيفا بالنسبه للكفار.

ثمّ هل المقصود بذلك«اليوم»هو يوم فتح مكه(كما احتمله البعض)؟و من المعلوم أنّ سوره المائده نزلت بعد فتره طويله من فتح مكه! أو أنّ المراد هو يوم نزول آيات سوره البراءه،و لكنها نزلت قبل فتره طويله من سوره المائده.

و الأعجب من كل ما ذكر هو قول البعض بأن هذا اليوم هو يوم ظهور الإسلام و بعثه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع أن هذين الحدثين لا علاقه زمنيه بينهما و بين يوم نزول هذه الآيه مطلقا و بينهما فارق زمنى بعيد جدّا.

و هكذا يتّضح لنا أنّ أيّا من الاحتمالات السته المذكوره لا تتلاءم مع محتوى الآيه موضوع البحث.

و يبقى لدينا احتمال أخير ذكره جميع مفسّرى الشيعه فى تفاسيرهم و أيدوه كما دعمته روايات كثيره،و هذا الاحتمال يتناسب تماما مع محتوى الآيه حيث يعتبر«يوم غدير خم»أى اليوم الذى نصب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليا أمير المؤمنين عليه السّلام بصوره رسميه و علنيه خليفه له،حيث غشى الكفار فى هذا اليوم سيل من اليأس، و قد كانوا يتوهمون أن دين الإسلام سينتهى بوفاه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أن الأوضاع ستعود إلى سابق عهد الجاهليه،لكنّهم حين شاهدوا أنّ النّبى أوصى بالخلافه بعده لرجل كان فريدا بين المسلمين فى علمه و تقواه و قوته و عدالته،و هو على

بن أبی طالب علیه السّلام،و رأوا النّبی و هو یأخذ البیعه لعلی علیه السّلام أحاط بهم الیأس من کل جانب،و فقدوا الأمل فیما توقعوه من شر لمستقبل الإسلام و أدرکوا أن هذا الدین باق راسخ.

ففی یوم غدیر خم أصبح الدین کاملا،إذ لو لم یتمّ تعیین خلیفه للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لو لم یتمّ تعیین وضع مستقبل الأمّه الإسلامیه،لم تکن لتکتمل الشریعه بدون ذلک و لم یکن لیکتمل الدین.

نعم فی یوم غدیر خم أکمل اللّه و أتمّ نعمته بتعیین علی علیه السّلام،هذا الشخصیه اللائقه الکفؤ،قائدا و زعیما للأمه بعد النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و فی هذا الیوم-أیضا-رضی اللّه بالإسلام دینا،بل خاتما للأدیان،بعد أن اکتملت مشاریع هذا الدین،و اجتمعت فیه الجهات الأربع.

و فیما یلی قرائن أخری إضافه إلی ما ذکر فی دعم و تأیید هذا التّفسیر:

أ-لقد ذکرت تفاسیر«الرازی»و«روح المعانی»و«المنار»فی تفسیر هذه الآیه أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یعش أکثر من واحد و ثمانین یوما بعد نزول هذه الآیه،و هذا أمر یثیر الانتباه فی حد ذاته،إذ حین نری أنّ وفاه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کانت فی الیوم الثّانی عشر من ربیع الأوّل(بحسب الروایات الوارده فی مصادر جمهور السنّه،و حتی فی بعض روایات الشیعه،کالتی ذکرها الکلینی فی کتابه المعروف بالکافی) نستنتج أن نزول الآیه کان بالضبط فی یوم الثامن عشر من ذی الحجّه الحرام، و هو یوم غدیر خم (۱) .

ب-ذکرت روایات کثیره-نقلتها مصادر السنّه و الشیعه-أنّ هذه الآیه الکریمه نزلت فی یوم غدیر خم،و بعد أن أبلغ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم المسلمین بولایه علی

۱- ۱) -إنّ هذا الحساب یکون صحیحا إذا لم ندخل یوم وفاه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یوم غدیر خم فی الحساب،و أن یکون فی ثلاثه أشهر متتالیات مشهرات عدد أیّام کل منهما(۲۹)یوما،و نظرا لأن أی حدث تاریخی لم یحصل قبل و بعد یوم غدیر خم،فمن المرجح أن یکون المراد بالیوم المذکور فی الآیه هو یوم غدیر خم.

بن أبی طالب علیه السّلام،و من هذه الروایات:

۱-ما نقله العالم السنّی المشهور«ابن جریر الطبری»فی کتاب«الولایه»عن «زید بن أرقم»الصحابی المعروف،أنّ هذه الآیه نزلت فی یوم غدیر خم بشأن علی بن أبی طالب علیه السّلام.

۲-و نقل الحافظ«أبو نعیم الأصفهانی»فی کتاب«ما نزل من القرآن بحق علی علیه السّلام»عن«أبی سعید الخدری»و هو صحابی معروف-أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أعطی فی«یوم غدیر خم»علیا منصب الولایه...و إنّ الناس فی ذلک الیوم لم یکادوا لیتفرقوا حتی نزلت آیه: اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ... فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و فی تلک اللحظه«اللّه أکبر علی إکمال الدین و إتمام النعمه و رضی الرب برسالتی و بالولایه لعلی علیه السّلام من بعدی»ثمّ

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من کنت مولاه فعلی مولاه،اللّهم و ال من والاه و عاد من عاداه،و انصر من نصره و اخذل من خذله».

۳-و روی«الخطیب البغدادی»فی«تاریخه»عن«أبی هریره»عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ آیه اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ... نزلت عقیب حادثه«غدیر خم» و العهد بالولایه لعلی علیه السّلام و قول عمر بن الخطاب:«بخ بخ لک یا ابن أبی طالب، أصبحت مولای و مولی کل مسلم» (۱) .

و جاء فی کتاب«الغدیر»إضافه إلی الروایات الثلاث المذکوره،ثلاث عشره روایه أخری فی هذا المجال.

ورود فی کتاب«إحقاق الحق»نقلا عن الجزء الثّانی من تفسیر«ابن کثیر»من الصفحه ۱۴ و عن کتاب«مقتل الخوارزمی»فی الصفحه ۴۷

عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ هذه الآیه نزلت فی واقعه غدیر خم.

۱- ۱) -لقد أورد العلاّمه الأمینی رحمه اللّه هذه الروایات الثلاثه بتفاصیلها فی الجزء الأوّل من کتابه«الغدیر»فی الصفحات ۲۳۰ و ۲۳۱ و ۲۳۲ کما ورد فی کتاب«إحقاق الحق»فی الجزء السادس و الصفحه ۳۵۳ أن نزول الآیه کان فی حادثه غدیر خم نقلا عن أبی هریره من طریقین،کما نقلها عن أبی سعید الخدری من عده طرق.

و نرى فى تفسير«البرهان»و تفسير«نور الثقلين»عشر روايات من طرق مختلفه حول نزول الآيه فى حق على عليه السّلام أو فى يوم غدير خم،و نقل كل هذه الروايات يحتاج إلى رساله منفرده (۱) .

و قد ذكر العلاّمه السيد عبد الحسين شرف الدين فى كتابه«المراجعات»أن الروايات الصحيحه المنقوله عن الإمامين الباقر و الصّادق عليهما السّلام تقول بنزول هذه الآيه فى«يوم غدير خم»و إنّ جمهور السنّه أيضا قد نقلوا سته أحاديث بأسانيد مختلفه عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تصرح كلها بنزول الآيه فى واقعه غدير خم (۲) .

يتّضح ممّا تقدم أنّ الروايات و الأخبار التى أكّدت نزول الآيه-موضوع البحث-فى واقعه غدير خم ليست من نوع أخبار الآحاد لكى يمكن تجاهلها، عن طريق اعتبار الضعف فى بعض أسانيدها،بل هى أخبار إن لم تكن فى حكم المتواتر فهى على أقل تقدير من الأخبار المستفيضه التى تناقلتها المصادر الإسلاميه المشهوره.

و مع ذلك فإنّنا نرى بعضا من العلماء المتعصبين من أهل السنّه كالآلوسى فى تفسير«روح المعانى»الذى تجاهل الأخبار الوارده فى هذا المجال لمجرّد ضعف سند واحد منها،و قد وصم هؤلاء هذه الروايه بأنّها موضوعه أو غير صحيحه، لأنّها لم تكن لتلائم أذواقهم الشخصيه،و قد مرّ بعضهم فى تفسيره لهذه الآيه مرور الكرام و لم يلمح إليها بشىء،كما فى تفسير المنار،و لعل صاحب المنار وجد نفسه فى مأزق حيال هذه الروايات فهو إن وصمها بالضعف خالف بذلك منطق العدل و الإنصاف،و إن قبلها عمل شيئا خلافا لميله و ذوقه.

و قد وردت فى الآيه(۵۵)من سوره النور نقطه مهمّه جديره بالانتباه- فالآيه تقول:

۱- ۱) -راجع تفسير الآيه فى الجزء الأول من تفسير البرهان و الجزء الأول من تفسير«نور الثقلين».

۲- ۲) -راجع كتاب«المراجعات»الطبعه الرابعه،ص ۳۸.

وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكَمْ وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكَنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً... و اللّه سبحانه و تعالى يقطع فى هذه الآيه وعدا على نفسه بأن يرسخ دعائم الدين،الذى ارتضاه للمؤمنين فى الأرض.

و لمّا كان نزول سوره النور قبل نزول سوره المائده،و نظرا إلى جمله رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً الوارده فى الآيه الأخيره-موضوع البحث-و التى نزلت فى حق على بن أبى طالب عليه السّلام،لذلك كله نستنتج أنّ حكم الإسلام يتعزز و يترسخ فى الأرض إذا اقترن بالولايه،لأن الإسلام هو الدين الذى ارتضاه اللّه و وعد بترسيخ دعائمه و تعزيزه،و بعباره أوضح أن الإسلام إذا أريد له أن يعم العالم كله يجب عدم فصله عن ولايه أهل البيت عليهم السّلام.

أمّا الأمر الثّانى الذى نستنتجه من ضمن الآيه الوارده فى سوره النور إلى الآيه التى هى موضوع بحثنا الآن،فهو أن الآيه الأولى قد أعطت للمؤمنين و عودا ثلاثه:

أوّلها:الخلافه على الأرض.

و الثّانى:تحقق الأمن و الاستقرار لكى تكون العباده للّه وحده.

و الثّالث:استقرار الدين الذى يرضاه اللّه فى الأرض.

و لقد تحققت هذه الوعود الثلاثه فى«يوم غدير خم»بنزول آيه: اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ... فمثال الإنسان المؤمن الصالح هو على عليه السّلام الذى نصب وصيّا للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و دلت عباره اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ... على أن الأمن قد تحقق بصوره نسبيه لدى المؤمنين،كما بيّنت عباره: وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً إنّ اللّه قد اختار الدين الذى يرتضيه،و أقرّه بين عباده المسلمين.

و هذا التّفسير لا ينافى الروايه التى تصرح بأنّ آيه سوره النور قد نزلت فى شأن المهدى المنتظر عجل اللّه تعالى فرجه الشريف،و ذلك لأنّ عباره آمَنُوا مِنْكُمْ لها معنى واسع تحقق واحد من مصاديقه فى«يوم غدير خم»و سيتحقق

على مدى أوسع و أعم فى زمن ظهور المهدى عجل اللّه تعالى فرجه الشريف (و على أساس هذا التّفسير فإنّ كلمه الأرض فى الآيه الأخيره ليست بمعنى كل الكره الأرضيه،بل لها مفهوم واسع يمكن أن يشمل مساحه من الأرض أو الكره الأرضيه بكاملها).

و يدل على هذا الأمر المواضع التى وردت فيها كلمه«الأرض»فى القرآن الكريم،حيث وردت أحيانا لتعنى جزءا من الأرض،و أخرى لتعنى الأرض كلها،(فأمعنوا النظر و دققوا فى هذا الأمر).

سؤال يفرض نفسه:

و أخيرا بقى سؤال ملح و هو:

أوّلا:إن الأدله المذكوره فى الآيه-موضوع البحث-و الأدله التى ستأتى فى تفسير الآيه(۶۷)من سوره المائده و التى تقول: يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ... لو كانت كلها تخص واقعه واحده،فلما ذا فصل القرآن بين هاتين الآيتين و لم تأتيا متعاقبين فى مكان واحد؟ و ثانيا:لا يوجد ترابط موضوعى بين ذلك الجزء من الآيه الذى يتحدث عن واقعه«غدير خم»و بين الجزء الآخر منها الذى يتحدث عن الحلال و الحرام من اللحوم،فما هو سبب هذه المفارقه الظاهره؟ (۱)

الجواب:

أوّلا:نحن نعلم أنّ الآيات القرآنيه-و كذلك سور القرآن الكريم-لم تجمع كلها مرتبه بحسب نزولها الزمنى،بل نشاهد كثيرا من السور التى نزلت فى المدينه فيها آيات مكيه أى نزلت فى مكه،كما نلاحظ آيات مدنيه بين السور المكيه أيضا.

و بناء على هذه الحقيقه،فلا عجب-إذن-من وجود هذا الفاصل فى القرآن

۱- ۱) -لقد أورد هذا الاعتراض تلميحا صاحب تفسير«المنار»لدى الحديث عن هذه الآيه،ج ۶،ص ۲۶۶.

بین الآیتین المـذکورتین(و یجب الاعتراف بأن ترتیب الآیات القرآنیه بالصوره التی هی علیها الآن قد حصل بأمر من النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم نفسه)فلو کانت الآیات القرآنیه مرتبه بحسب زمن نزولها لأصبح الاعتراض واردا فی هذا المجال.

ثانیا:هناک احتمال بأن یکون سـبب حشـر موضوع واقعه«غدیر خم»فی آیه تشـمل علی موضوع لا صله لها به مطلقا،مثل موضوع أحکام الحلال و الحرام من اللحوم،إنما هو لصیانه الموضوع الأوّل من أن تصل إلیه ید التحریف أو الحذف أو التغییر.

إنّ الأحداث التی وقعت فی اللحظات الأخیره من عمر النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و الاعتراض الصـریح الذی واجهه طلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لکتابه وصیته، إلی حدّ وصفوا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لدی طلبه هذا الأمر بأنّه یهجر(و العیاذ باللّه)و قد وردت تفاصـیل هذه الوقائع فی الکتب الإسـلامیه المعروفه،سواء عن طریق جمهور السـنّه أو الشـیعه، و هی تدل بوضوح علی الحساسـیه المفرطه التی کانت لدی نفر من الناس تجاه قضیه الخلافه بعد النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث لم یترکوا وسیله إلّا استخدموها لإنکار هذا الأمر (۱) .

فلاـ یسـتبعد-و الحـاله هـذه-أن تتخـذ اجراءات وقـائیه لحمـایه الأـدله و الوثـائق الخـاصّه بالخلافه من أجل إیصالها إلی الأجیال المتعاقبه دون أن تمسّـها ید التحریف أو الحذف،و من هذه الإجراءات حشـر موضوع الخلافه-المهم جدّا- فی القرآن بین آیات الأحکام الشرعیه الفرعیه لإبعاد عیون و أیدی المعارضین و العابثین عنها.

إضافه إلی ذلک-و کما أسلفنا فی حدیثنا-فإنّ الوثائق الخاصّه بنزول آیه:

ص: ۵۹۶

۱- ۱) -نقل هذه الواقعه واحد من أشـهر کتب السـنّه و هو کتاب«صحیح البخاری»و فی عدّه أبواب منها باب«کتاب المرضی»فی الجزء الرابع،و بـاب«کتاب العلم»فی الجزء الأوّل،ص ۲۲ و فی باب«جوائز وفـد»من کتاب الجهاد، ص ۱۱۸،ج ۲ کما وردت فی کتاب«صـحیح مسـلم»فی آخر الوصایا بالإضافه إلی کتب أخری ذکرها المرحوم السـید عبد الحسـین شرف الدین رحمه اللّه فی کتابه«المراجعات»تحت عنوان«رزیه یوم الخمیس».

اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكَمْ دِينَكَمْ...

الوارده فى واقعه«غدير خم»حول قضيه الخلافه بعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم تقتصر كتب الشيعه وحدهم على ذكرها،بل تناقلها-أيضا- الكثير من كتب السنّه من طرق متعدده عن ثلاثه من الصحابه المعروفين.

لقد أعادت الآيه-فى نهايتها-الكره فى التحدث عن اللحوم المحرمه فبيّنت حكم الاضطرار فى حاله المعاناه من الجوع إذ أجازت تناول اللحم المحرم بشرط أن لا يكون هدف الشخص ارتكاب المعصيه من تناول ذلك، مشيره إلى غفران اللّه و رحمته فى عدم إلجاء عباده عند الاضطرار إلى تحمل المعاناه و المشقه،و عدم معاقبتهم فى مثل هذه الحالات.قالت الآيه الكريمه:

فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

.

و المراد بالمخمصه هنا الجوع الشديد الذى يؤدى إلى انخماص البطن،سواء كان بسبب حاله المجاعه العامّه،أو كان ناتجا عن الحرمان الخاص.

أمّا عباره غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فمعناها غير مائل إلى ارتكاب الذنب،و قد يكون الإتيان بها تأكيدا لمفهوم الاضطرار،أو أنّ الهدف منها هو المنع من الإفراط فى أكل اللحم الحرام أثناء الضروره،توهما من الشخص بأن ذلك حلال فى مثل هذه الحاله،و منعا من أن يحاول الشخص بنفسه إعداد مقدمات الاضطرار أو أن يحصل الاضطرار أثناء قيام الشخص بسفر من أجل ارتكاب الحرام فيه.

هذه المعانى كلها يحتمل ورودها ضمن العباره الأخيره الماضيه«و لأجل الاطلاع على توضيحات أكثر فى هذا المجال،راجع الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا».

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۴]

اشاره

یَسْئَلُونَکَ مٰا ذٰا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَکُمُ اَلطَّیِّبٰاتُ وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ اَلْجَوٰارِحِ مُکَلِّبِینَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّٰا عَلَّمَکُمُ اَللّٰهُ فَکُلُوا مِمّٰا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ وَ اُذْکُرُوا اِسْمَ اَللّٰهِ عَلَیْهِ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ سَرِیعُ اَلْحِسٰابِ (۴)

سبب النّزول

ذکر المفسرون أسبابا عدیده لنزول هذه الآیه،و أکثر هذه الأسباب ملاءمه مع فحوی الآیه هو:أنّ«زید الخیر»و«عدی بن حاتم»اللذین کانا من الصحابه المقرّبین،قدما علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أخبراه بأنّ قومهما یصیدون بواسطه کلاب و صقور الصید،و إنّ هذه الکلاب تصید لهم الحیوانات الوحشیه من ذوات اللحم الحلال،و تأتی بالحیوان المصید حیا فی بعض الأحیان فیذبح،و أحیانا أخری تأتی به و قد قتلته قبل وصولها إلی أصحابها دون أن یتاح لهم ذبحه،و سألا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن حکم الصید و المقتول بواسطه کلاب الصید و هل یعتبر میته و حراما أم لا؟...فنزلت الآیه هذه و أجابت علی سؤالهما. (۱)

ص: ۵۹۸

۱- ۱) -تفسیر القرطبی،ج ۳،تفسر الآیه موضوع البحث.

التّفسير

اشاره

الحلال من الصيد:

أعقبت الآيه الأخيره آيتين سبق و أن تناولتا أحكاما عن الحلال و الحرام عن اللحوم،و قد بيّنت هذه الآيه نوعا آخر من اللحوم أو الحيوانات التی يحل للإنسان تناولها،و جاءت على صيغه جواب لسؤال ذكرته الآيه نفسها بقولها:

يَسْئَلُونَکَ مٰا ذٰا أُحِلَّ لَهُمْ...

.

فتأمر الآيه النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-أوّلا-بأن يخبرهم إنّ كل ما كان طيبا و طاهرا فهو حلال لهم،حيث تقول: قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبٰاتُ... داله على أنّ كل ما حرمه الإسلام يعتبر من الخبائث غير الطاهره، و إن القوانين الإلهيه لا تحرم-مطلقا-الموجودات الطاهره التی خلقها اللّه لينتفع بها البشر،و إن الجهاز التشريعی يعمل دائما بتنسيق تام مع الجهاز التكوينی و فی كل مكان.

ثمّ تبيّن الآيه أنواع الصيد الحلال،فتشير إلى الصيد الذی تجلبه أو تصيده الحيوانات المدربه على الصيد،فتؤكد بأنّه حلال،بقولها: وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّٰا عَلَّمَكُمُ اللّٰهُ (1) .

و عباره جوارح مشتقه من المصدر«جرح»الذی يعنی أحيانا«الكسب» و تاره يعنی«الجرح»الذی يصاب به البدن،و لذلک يطلق على الحيوانات المدرّبه على الصيد،سواء كانت من الطيور أو من غيرها،اسم«جارحه»و جمعها «جوارح»أی الحيوان الذی يجرح صيده،أو بالمعنى الآخر الحيوان الذی يكسب لصاحبه،و أمّا إطلاق لفظه«الجوارح»على أعضاء الجسم فلأن الإنسان يستطيع بواسطتها إنجاز الأعمال أو الاكتساب.

و جمله وَ مٰا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوٰارِحِ تشمل كل الحيوانات المدرّبه على

---

1 – 1) -هناک محذوف مقدر فی بدايه هذه الجمله القرآنيه،حيث إن الأصل يفترض أن يكون«و صيد ما علمتم»و ذلک استدلالا بالقرينه الوارده فی جمله فَكُلُوا مِمّٰا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ... (فليلاحظ ذلک).

الصيد،و لكن كلمه«مكلبين»التى تعنى تدريب الكلاب للقيام بأعمال الصيد، و المشتقه من ماده«كلب»أى الكلب،تقيد هذه الجمله و تخصصها بكلاب الصيد،و لذلك فإنّها لا تشمل الصيد بحيوانات غير هذه الكلاب مثل الصقور المدرّبه على الصيد.

و لذلك ذهب فقهاء الشيعه إلى تخصيص الصيد الحلال بما يصاد من قبل كلاب الصيد،لكن جمعا من علماء السنّه و مفسّريهم ذهبوا إلى جواز الكل و أعطوا تفسيرا واسعا لعباره«مكلبين»و لم يخصصوا ذلك بكلاب الصيد فقط.

إلاّ أنّنا نرى أنّ المصدر الأساس لهذه الكلمه المشتقه إنما يدل على أنّها مخصصه بكلاب الصيد فقط،و بديهى أنّ الصيد الذى تجلبه حيوانات مدرّبه أخرى،يعتبر حلالا فى حاله جلبه حيّا و ذبحه وفق الطريقه الشرعيه.

أمّا عباره تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فإنّها تشير إلى عدّه أمور هى ١-إنّ تدريب مثل هذه الحيوانات يجب أن يستمر،فلو نسيت ما تعلمته و قتلت حيوانا كما تفعله بعض الكلاب السائبه،فلا يعتبر عند ذلك ما قتلته صيدا، و لا يحل لحم هذا الحيوان المقتول فى مثل هذه الحاله،و الدليل على هذا القول هو كون فعل«تعلمونهن»فعلا مضارعا،و الفعل المضارع يدل على الحال و الاستقبال.

٢-يجب أن يتمّ تدريب هذه الكلاب وفق الأصول الصحيحه التى تتلاءم مع مفهوم العباره القرآنيه مِمّا عَلَّمَكُمُ... .

إنّ العلوم كلها-سواء كانت بسيطه أم معقده-مصدرها هو اللّه،و إنّ الإنسان لا يملك بنفسه شيئا ما لم يعلمه اللّه.

إضافه إلى ما ذكر فإنّ كلاب الصيد يجب أن تدرب بحيث تأتمر بأمر صاحبها،أى تتحرك بأمره و تعود إليه بأمره أيضا.

و بديهى أنّ الحيوان الذى تصيده كلاب الصيد،يجب أن يذبح وفق الطريقه

الشرعيه إن جلب حيّا،و إن مات الحيوان قبل دركه فلحمه حلال و إن لم يذبح.

و أخيرا أشارت الآيه الكريمه إلى شرطين آخرين من شروط تحليل مثل هذا النوع من الصيد.

أوّلهما:أن لا يأكل كلب الصيد من صيده شيئا،حيث قالت الآيه: فَكُلُوا مِمّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ... .

و على هذا الأساس فإن الكلاب لو أكلت من الصيد شيئا قبل إيصاله إلى صاحبها،و تركت قسما آخر منه،فلا يحل لحم مثل هذا الصيد و يدخل ضمن حكم مّا أَكَلَ السَّبُعُ الذى ورد فى الآيه السابقه،و مثل هذا الكلب الذى يأكل الصيد لا يعتبر فى الحقيقه كلبا مدربا،كما لا يعتبر ما تركه من الصيد مصداقا لعباره مِمّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ لأنّه فى هذه الحاله يكون(أى الكلب) قد صاد لنفسه (لكن بعض الفقهاء لم يروا فى هذا الموضوع شرطا،مستندين إلى روايات وردت فى مصادر الحديث و ذكرتها كتب الفقه بالتفصيل).

و مجمل القول هو أن كلاب الصيد يجب أن تدرب بحيث لا تأكل من الصيد الذى تمسكه.

و الأمر الثّانى:هو ضروره ذكر اسم اللّه على الصيد بعد أن يتركه الكلب،حيث قالت الآيه: وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ... .

و لكى تضمن الآيه رعايه الأحكام الإلهيه-هذه-كلها،أكّدت فى الختام قائله: وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ داعيه إلى الخوف من اللّه العزيز القدير، و من حسابه السريع (1) .

ص:601

1- 1) -لقد شرحنا معنى جمله«سريع الحساب»فى الجزء الثّانى من تفسيرنا هذا.

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۵]

اشاره

اَلْیَوْمَ أُحِلَّ لَکُمُ اَلطَّیِّباتُ وَ طَعامُ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتابَ حِلٌّ لَکُمْ وَ طَعامُکُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَ اَلْمُحْصَناتُ مِنَ اَلْمُؤْمِناتِ وَ اَلْمُحْصَناتُ مِنَ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتابَ مِنْ قَبْلِکُمْ إِذا آتَیْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِینَ غَیْرَ مُسافِحِینَ وَ لا مُتَّخِذِی أَخْدانٍ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِالْإِیمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِی اَلْآخِرَهِ مِنَ اَلْخاسِرِینَ (۵)

التّفسیر

اشاره

حکم طعام أهل الکتاب و حکم الزّواج بهم:

تناولت هذه الآیه،التی جاءت مکمله للآیات السابقه،نوعا آخر من الغذاء الحلال،فبیّنت أنّ کل غذاء طاهر حلال،و إن غذاء أهل الکتاب حلال للمسلمین، و غذاء المسلمین حلال لأهل الکتاب،و حیث قالت الآیه: اَلْیَوْمَ أُحِلَّ لَکُمُ الطَّیِّباتُ وَ طَعامُ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ حِلٌّ لَکُمْ وَ طَعامُکُمْ حِلٌّ لَهُمْ... .

و تشتمل هذه الآیه الکریمه علی أمور نجلب الالتفات إلیها،و هی:

۱-إنّ المراد بکلمه«الیوم»الوارده فی هذه الآیه هو یوم«عرفه»بناء علی ما اعتقده بعض المفسّرین،و قد ذهب مفسرون آخرون إلی أنّ المراد هو الیوم

الـذی تلا فتح خیبر-و لا یبعد-أن یکون هو نفس«یوم غدیر خم»الذی تحقق فیه النصـر الکامل للمسـلمین علی الکفار(و سـنتاول هذا الموضوع بالشرح قریبا).

۲-لقد تناولت هذه الآیه قضـیه تحلیل الطیبات مع أنّها کانت حلالا قبل نزول الآیه و الهدف من ذلک هو أن تکون هذه القضـیه مقدمه لبیان حکم«طعام أهل الکتاب».

۳-ما هو المقصود ب«طعام أهل الکتاب»الذی اعتبرته الآیه حلالا علی المسلمین؟ یعتقد أغلب مفسّری علماء السنه أن«طعام أهل الکتـاب»یشـمل کـل أنـواع الطعـام،سـواء کـان من لحوم الحیوانـات المـذبوحه بأیـدی أهـل الکتـاب أنفسـهم أو غیر ذلـک من الطعـام،بینما تعتقـد الأغلبیه الساحقه من مفسّـری الشـیعه و فقهائهم أنّ المقصود من«طعام أهل الکتاب»هو غیر اللحوم المـذبوحه بأیدی أهل الکتاب، إلاّ أن هناک القلیل من علماء الشیعه-أیضا-ممن یقولون بصحه النظریه الأولی التی اتبعها أهل السنه.

و تؤکد رأی غالبیه الشیعه-فی هذا المجال-الروایات العدیده الوارده عن أئمّه أهل البیت علیهم السّلام.

فقد جاء فی تفسیر علی بن إبراهیم عن الإمام الصّادق علیه السّلام أنّه قال فی هذه الآیه: «عنی بطعامهم ها هنا الحبوب و الفاکهه غیر الذبائح التی یذبحون،فإنه لا یذکرون اسم اللّه علیها».

و وردت روایات عدیده أخری فی هذا المجال فی الجزء السادس عشـر من کتاب وسائل الشیعه فی الباب ۵۱ من أبواب الأطعمه و الأشربه،فی الصفحه ۳۷۱.

و بالإمعـان فی الآیـات السـابقه یتـبیّن أن التّفسـیر الثّـانی ذهبـت إلیه الأـکثریه من مفسّـری الشـیعه و فقهـائهم(تفسـیر الطعـام بغیر الذبیحه)هو أقرب إلی الحقیقه من

التّفسير الأوّل.

و ذلك-كما أوضح الإمام الصّادق عليه السّلام فى الروايه التى أوردناها أعلاه-لأنّ أهل الكتاب لا يراعون الشروط الإسلاميه فى ذبائحهم،فهم لا يذكرون اسم اللّه على الذبيحه،و لا يوجهونها صوب القبله أثناء ذبحها،كما أنّهم لا يلتزمون برعايه الشروط الأخرى-فهل يعقل أن تحرم الآيه السابقه-و بصوره صريحه-لحم الحيوان المذبوح بهذه الطريقه،و تأتى آيه أخرى بضدها لتحلله؟! و ترد على الذهن فى هذا المجال أسئله نلخصها فيما يلى:

١-لو كان المقصود بالطعام سائر الأغذيه ما عدا لحوم ذبائح أهل الكتاب، فإنّ هذه الأغذيه كانت حلالا من قبل،و لا فرق بين وجودها فى أيدى أهل الكتاب أو غيرهم،فهل كان شراء الحبوب و الغلات من أهل الكتاب قبل نزول هذه الآيه شيئا مخالفا للشرع،فى حين أن المسلمين كانوا دائما يتعاطون مع أهل الكتاب شراء و بيع هذه الأشياء؟! إذا توجهنا إلى نقطه أساسيه فى الآيه الكريمه،يتوضح لنا بجلاء جواب هذا السؤال،فالآيه الأخيره-هذه-نزلت فى زمن كان للإسلام فيه السلطه الكامله على شبه الجزيره العربيه و قد أثبت الإسلام وجوده فى كل الساحات و الميادين على طول هذه الجزيره و عرضها،بحيث أنّ أعداء الإسلام قد تملكهم اليأس التام لعجزهم عن دحر المسلمين، و لذلك اقتضت الضروره-فى مثل هذا الظرف المناسب للمسلمين-أن ترفع القيود و الحدود التى كانت مفروضه قبل هذا فى مجال مخالطه المسلمين لغيرهم،حيث كانت هذه القيود تحول دون تزاور المسلمين مع الغير.

لذلك نزلت هذه الآيه الكريمه و أعلنت تخفيف قيود التعامل و المعاشره مع أهل الكتاب،بعد أن ترسخت قواعد و أساس الحكومه الإسلاميه،و لم يعد هناك ما يخشى منه من جانب غير المسلمين،فسمحت الآيه بالتزاور بين المسلمين

و غيرهم،و أحلت طعام بعضهم لبعض كما أحلت التزواج فيها بينهم(و لكن على أساس الشروط التى سنبيّنها).

جدير بالقول أنّ الذين لا يرون طهاره أهل الكتاب يشترطون أن يكون طعامهم خاليا من الرطوبه أو البلل،و إذا كان الطعام رطبا يشترط أن لا تكون أيادى أهل الكتاب قد مسته لكى يستطيع المسلمين تناول هذا الطعام،كما يرى هؤلاء عدم جواز تناول طعام أهل الكتاب إن لم تتوفر الشروط المذكوره فيه.

إلاّ أنّ مجموعه أخرى من العلماء الذين يرون طهاره أهل الكتاب،لا يجدون بأسا فى تناول الطعام مع أهل الكتاب و الحلول ضيفا عليهم،شرط أن لا يكون طعامهم من لحوم ذبائحهم و أن يحصل اليقين من براءته من نجاسه عرضيه (كأن يكون قد تنجس باختلاطه أو ملامسته للخمره أو الجعه«ماء العشير»).

و خلاصه القول:إنّ الآيه-موضوع البحث-جاءت لترفع الحدود و القيود السابقه الخاصّه بمعاشره أهل الكتاب،و الدليل على ذلك هو إشاره الآيه لإباحه طعام المسلمين لأهل الكتاب،أى السماح للمسلمين باستضافتهم،كما تتطرق الآيه بعد ذلك مباشره إلى حكم التزاوج بين المسلمين و أهل الكتاب(أى الزواج بنساء أهل الكتاب).

و بديهى أنّ النظام الذى يمتلك السيطره الكامله على أوضاع المجتمع،هو وحده القادر على إصدار مثل هذا الحكم لمصلحه أتباعه دون أن يساوره أى قلق بسبب الأعداء،و قد ظهرت هذه الحاله فى الحقيقه فى يوم غدير خم،أو فى يوم عرفه فى حجّه الوداع كما اعتقده البعض،أو بعد فتح خيبر،مع أن يوم غدير خم هو الأقرب إلى هذا الموضوع.

أورد صاحب تفسير المنار فى كتابه اعتراضا آخر فى تفسير هذه الآيه، حيث يقول بأنّ كلمه«طعام»وردت فى كثير من آيات القرآن بمعنى كل أنواع الطعام،و هى تشمل اللحوم أيضا،فكيف يمكن تقييد الآيه بالحبوب و الفواكه

ص:۶۰۵

و أمثالها؟،ثمّ يقول بأنّه طرح هذا الاعتراض فى مجلس كان يضم جمعا من الشيعه فلم يجب أحد عليه.

و باعتقادنا نحن أنّ جواب اعتراض صاحب كتاب المنار واضح،فنحن لا ننكر أنّ لفظه«طعام»تحمل مفهوما واسعا،إلاّ أنّ ما ورد فى الآيات السابقه، كبيان أنواع اللحوم المحرمه-و بالأخص لحوم الحيوانات التى لم يذكر اسم اللّه عليها لدى ذبحها-إنّما يخصص هذا المفهوم الواسع و يحدد كلمه«طعام»فى الآيه بغير اللحوم،و لا ينكر أحد أن كل عام أو مطلق قابل للتخصيص و التقييد، كما نعلم أنّ أهل الكتاب لا يلتزمون بذكر اسم اللّه على ذبائحهم،ناهيك على أنّهم لا يراعون-أيضا-الشروط الوارده فى السنّه فى مجال الذبح.

و جاء فى كتاب«كنز العرفان»حول تفسير هذه الآيه اعتراض آخر خلاصته أن كلمه«طيبات»لها مفهوم واسع،و هى«عامّه»بحسب الاصطلاح،بينما جمله وَ طَعٰامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ خاصّه،و طبيعى أنّ ذكر الخاص بعد العام يجب أن يكون لسبب،و لكن السبب فى هذا المجال غير واضح،ثمّ يرجو صاحب الكتاب من اللّه أن يحل له هذه المعضله العلميه (1) .

إنّ جواب هذا الاعتراض يتّضح أيضا ممّا قلناه سابقا بأنّ الآيه إنّما جاءت بعباره أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبٰاتُ كمقدمه من أجل بيان رفع القيود فى التقارب مع أهل الكتاب،فالحقيقه أنّ الآيه تقول بأنّ كل شىء طيب هو حلال للمسلمين، و بناء على هذا فإن طعام أهل الكتاب(إذ كان طيبا و طاهرا)هو حلال أيضا للمسلمين-و أن الحدود و القيود التى كانت تقف حائلا دون تقارب المسلمين مع أهل الكتاب قد رفعت أو خففت فى هذا اليوم بعد الانتصارات التى أحرزها المسلمون فيه،(فليمعن النظر فى هذا).

1- 1) -كنز العرفان،ج ۲،ص ۳۱۲.

حكم الزّواج بغير المسلمات:

بعـد أن بيّنت هـذه الآيه حليه طعام أهل الكتاب تحدثت عن الزواج بالنساء المحصـنات من المسـلمات و من أهل الكتاب،فقالت بأنّ المسـلمين يسـتطيعون الزّواج بالنساء المحصـنات من المسلمات و من أهل الكتاب،شرط أن يدفعوا لهن مهورهن،حيث تقول الآـيه: وَ الْمُحْصَـنٰاتُ مِنَ الْمُؤْمِنٰاتِ وَ الْمُحْصَـنٰاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذٰا آتَيْتُمُـوهُنَّ أُجُورَهُنَّ... على أن يكـون التواصل بوسـيله الزّواج المشـروع و ليس عن طريق الزنا الصـريح،و لا عن طريق المعاشـره الخفيه،حيث تقول الآيه: مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسٰافِحِينَ وَ لاٰ مُتَّخِذِى أَخْدٰانٍ (۱) .

و هـذا الجزء من الآـيه الكريمه يقلـل فى الحقيقه الحـدود التى كـانت مفروضه على الزواج بين المسـلمين و غيرهم،و يبيّن جواز زواج المسلم بالمرأه الكتابيه ضمن شروط خاصّه.

و قد اختلف فقهاء المسلمين فى أنّ جواز الزواج بالمرأه الكتابيه هل ينحصر بالنوع المؤقت من الزّواج،أو يشمل النوعين:الدائم و المؤقت؟ لا يرى علماء السنّه فرقا بين نوعى الزواج فى هـذا المجال،و يعتقدون بأنّ الآيه عامّه،بينما يعتقد جمع من علماء الشـيعه أنّ الآيه مقتصره على الزواج المؤقت، و تؤيّد روايات وردت عن أئمّه أهل البيت عليهم السّلام هذا الرأى أيضا.

و القرائن الموجوده فى الآيه يمكن أن تكون دليلا على هذا القول.

و أوّل هـذه القرائن هـو قـوله تعـالى: إِذٰا آتَيْتُمُـوهُنَّ أُجُورَهُنَّ و لـو أن لفظه «الأـجر»تطلـق على المهر فى نـوعى الزواج الـدائم و المؤقت،إلّا أنّها غالبا ما ترد لبيان المهر فى الزواج المؤقت،أى أنّها تناسب هذا الأخير أكثر.

ص: ۶۰۷

۱- ۱) -لقد أوضحنا فى هذا الجزء من تفسيرنا هذا فى تفسير الآيه(۲۵)من سوره النساء،أنّ كلمه«أخذان»جمع «خدن»و هى تعنى فى الأصل الصديق،و عاده ما تطلق على الصداقه السريه غير الشرعيه مع الجنس الآخر.

أمّا القرينه الثّانيه فهى قوله تعالى: غَيْرَ مُسٰافِحِينَ وَ لاٰ مُتَّخِذِى أَخْدٰانٍ...

فهى تتلاءم أكثر مع الزواج المؤقت،لأنّ الزواج الدائم ليس فيه شبه الزنا أو الصداقه السريه لكى ينهى عنه،بينما يشتبه بعض السذج من الناس-أحيانا-فى الزواج المؤقت فيخلطون بينه و بين الزنا و الصداقه السريه غير المشروعه مع المرأه.

أضف إلى ذلك كلّه ورد هذه التعابير فى الآيه(٢٥)من سوره النساء،و كما نعلم فإنّ تلك الآيه نزلت فى شأن الزواج المؤقت.

مع ذلك كلّه فإنّ هناك العديد من الفقهاء ممن يجيزون الزواج بالكتابيات بصوره مطلقه،و لا يرون القرائن المذكوره كافيه لتخصيص الآيه،كما يستدلون فى هذا المجال ببعض الروايات«للاطلاع على تفاصيل أكثر فى المجال يجدر الرجوع إلى كتب الفقه».

و لا يخفى علينا ما شاع فى عالم اليوم من تقاليد الجاهليه بصوره مختلفه، و من ذلك انتخاب الرجل أو المرأه خليلا من الجنس الآخر و بصوره علنيه،و قد تمادى إنسان عالم اليوم أكثر من نظيره الجاهلى فى التحلل و الخلاعه و المجون الجنسى،ففى حين كان الإنسان الجاهلى ينتخب الأخلاء سرّا و فى الخفاء، أصبح إنسان اليوم لا يرى بأسا من إعلان هذا الأمر و التباهى به بكل صلف و وقاحه،و يعتبر هذا التقليد المشين نوعا صريحا و مفضوحا من الفحشاء و هديه مشؤومه انتقلت من الغرب إلى الشرق و أصبحت مصدرا للكثير من النكبات و الكوارث.

و لا يفوتنا أن نوضح هذه النقطه و هى أن الآيه أجازت تناول طعام أهل الكتاب كما أجازت إطعامهم وفق الشروط التى ذكرت،بينما فى قضيه الزواج أجازت فقط الزواج بنساء أهل الكتاب،و لم تجز للنساء المسلمات الزواج بالرجال من أهل الكتاب.

و فلسفه هذا الأمر جليه واضحه لا تحتاج إلى الشرح و التفصيل،لأنّ النساء بما يمتلكنه من عواطف و مشاعر رقيقه يكن أكثر عرضه لاكتساب أفكار أزواجهنّ،من الرجال.

و لكى تسد الآيه طريق إساءه استغلال موضوع التقارب و المعاشره مع أهل الكتاب و الزواج من المرأه الكتابيه على البعض من ضعاف النفوس،و تحول دون الانحراف إلى هذا الأمر بعلم أو بدون علم،حذرت المسلمين فى جزئها الأخير فقالت: وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِی الْآخِرَه مِنَ الْخاسِرِينَ .

و هذه إشاره إلى أنّ التسهيلات الوارده فى الآيه بالإضافه إلى كونها تؤدى إلى السعه و رفع الحرج عن حياه المسلمين،يجب أن تكون-أيضا-سببا لتغلغل الإسلام إلى نفوس الأجانب،لا أن يقع المسلمون تحت نفوذ و تأثير الغير فيتركوا دينهم،و حيث سيؤدى بهم هذا الأمر إلى نيل العقاب الإلهى الصارم الشديد.

و هناك احتمال آخر فى تفسير هذا الجزء من الآيه نظرا لبعض الروايات الوارده و سبب النّزول المذكور،و هو أن نفرا من المسلمين أعلنوا-بعد نزول هذه الآيه و حكم حليه طعام أهل الكتاب و الزواج بالكتابيات-استياءهم من تطبيق هذه الأحكام، فحذرتهم الآيه من الاعتراض على حكم اللّه و من الكفر بهذه الحكم،و أنذرتهم بأنّ أعمالهم ستذهب هباء و ستكون عاقبتهم الخسران.

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۶]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَی اَلصَّلاهِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَکُمْ وَ أَیْدِیَکُمْ إِلَی اَلْمَرافِقِ وَ اِمْسَحُوا بِرُؤُسِکُمْ وَ أَرْجُلَکُمْ إِلَی اَلْکَعْبَیْنِ وَ إِنْ کُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضی أَوْ عَلی سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ اَلْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ اَلنِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَیَمَّمُوا صَعِیداً طَیِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِکُمْ وَ أَیْدِیکُمْ مِنْهُ ما یُرِیدُ اَللّهُ لِیَجْعَلَ عَلَیْکُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لکِنْ یُرِیدُ لِیُطَهِّرَکُمْ وَ لِیُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکُمْ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۶)

التّفسیر

اشاره

تطهیر الجسم و الرّوح:

لقد تناولت الآیات السابقه بحوثا متعدده عن الطیبات الجسمانیه و النعم المادیه،أمّا الآیه الأخیره فهی تتحدث عن الطیبات الروحیه و ما یکون سببا لطهاره الرّوح و النفس الإنسانیه،فقد بیّنت هذه الآیه أحکاما مثل الوضوء و الغسل و التیمم،التی تکون سببا فی صفاء و طهاره الروح الإنسانیه-فخاطبت المؤمنین فی البدایه موضحه أحکام الوضوء بقولها: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا

ص:۶۱۰

قُمْتُمْ (۱) إِلَى الصَّلاٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكَمْ وَ أَيْدِيَكَمْ إِلَى الْمَرٰافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكَمْ وَ أَرْجُلَكَمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ

.

لم توضّح الآيه مناطق الوجه التى يجب غسلها فى الوضوء،لكن الروايات التى وردت عن أئمّه أهل البيت عليهم السّلام قد بيّنت بصوره مفصله طريقه الوضوء التى كانت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعمل بها.

۱-إنّ حدود الوجه طولا من منابت الشعر على الجبهه حتى منتهى الذقن، و عرضا ما يقع من الوجه بين الأصبع الوسطى و الإبهام-و هذا هو ما يسمّى و يفهم من الوجه عرفا،لأنّ الوجه هو ذلك الجزء من الجسم الذى يواجه الإنسان لدى التلاقى مع نظيره.

۲-لقد ذكرت الآيه حدود ما يجب غسله من اليدين فى الوضوء،فأشارت إلى أنّ الغسل يكون حتى المرفقين-و قد جاء التصريح بالمرفقين فى الآيه لكى لا يتوهم بأنّ الغسل المطلوب هو للرسغين كما هو العاده فى غسل الأيدى.

و يتبيّن من هذا التوضيح أنّ كلمه«إلى»الوارده فى الآيه هى لمجرّد بيان حد الغسل و ليست لبيان أسلوبه كما التبس على البعض،حيث ظنوا أنّ المقصود فى الآيه هو غسل اليدين ابتداء من أطراف الأصابع حتى المرفقين(و راج هذا الأسلوب لدى جماعات من أهل السنه).

و لتوضيح هذا الأمر نقول:أنّه حين يطلب إنسان من صباغ أن يصبغ جدار غرفه من حد ارضيتها لغايه متر واحد،فالمفهوم من ذلك أنّه لا يطلب أن يبدأ

---

۱ – ۱) -وردت روايات عديده عن أئمّه أهل البيت عليهم السّلام تؤكّد أنّ المراد بجمله«قمتم»هو القيام من النوم،حيث لدى الإمعان فى محتويات الآيه يتأكد لنا هذا الأمر أيضا،لأن الجمل التاليه التى تبين فيها الآيه حكم التيمم قد وردت فيها عباره أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغٰائِطِ ،فلو كانت الآيه تبيّن فى بدايتها حكم جميع من ليسوا على وضوء،فإن عطف الجمله الأخيره-و بالأخص-بحرف«أو»لا يتلاءم و ظاهر هذه الآيه،لأنّ المقصود فيها يدخل ضمن عنوان من هو ليس على وضوء أيضا.أمّا إذا كان الآيه فى بدايتها تتكلم بصوره خاصه عن الذين يقومون من النوم،أى أنها تبيّن فقط ما أصطلح عليه ب«حدث النوم»فإن الجمله المذكوره تصبح مفهومه بشكل تام.

الصباغ عمله من تحت إلى فوق،بل إنّ ذكر هذه الحدود هو فقط لبيان المساحه المراد صبغها لا أكثر و لا أقل،و على هذا الأساس فإن الآيه أرادت من ذكر حدود اليد بيان المقدار الذى يجب غسله منها لا أسلوب و كيفيه الغسل.

و قد شرحت الروايات الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام أسلوب الغسل وفق سنّه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو غسل اليدين من المرفق حتى أطراف الأصابع.

و يجب الانتباه إلى أنّ المرفق-أيضا-يجب غسله أثناء الوضوء،لأن الغايه فى مثل هذه الحالات تدخل ضمن المغيّى،أى أن الحدّ يدخل فى حكم المحدود (۱) .

۳-إنّ حرف(ب)الوارد مع عباره«برؤوسكم»فى الآيه يعنى التبعيض،كما صرّحت به بعض الروايات و أيده البعض من علماء اللغه،و المراد بذلك بعض من الرأس،أى مسح بعض من الرأس حيث أكدت روايات الشيعه أنّ هذا البعض هو ربع الرأس من مقدمته،فيجب مسح جزء من هذا الربع حتى لو كان قليلا باليد، بينما الرائج بين البعض من طوائف السنّه فى مسح كل الرأس و حتى الأذنين لا يتلاءم مع ما يفهم من هذه الآيه الكريمه.

۴-إنّ اقتران عباره«أرجلكم»بعباره«رؤوسكم»دليل على أنّ الأرجل يجب أن تمسح هى-أيضا-لا أن تغسل،و ما فتح اللام فى«أرجلكم»إلّا لأنّها معطوفه محلا على«رؤوسكم»و ليست معطوفه على«وجوهكم» (۲) .

۵-تعنى كلمه«كعب»فى اللغه النتوء الظاهر خلف الرجل،كما تعنى-أيضا-

---

۱- ۱) -لقد ذكر«سيبويه»الذى هو من مشاهير علماء اللغه العربيه أنّه متى ما كان الشىء الوارد بعد(إلى)و الشىء الوارد قبلها من جنس واحد،و يدخل هذا(المابعد)فى الحكم-أمّا لو كانا من جنسين مختلفين فيعتبر خارجا عن الحكم-فلو قيل:أمسك إلى آخر ساعه من النهار،يكون المفهوم من هذه الجمله أن الإمساك يشمل الساعه الأخيره أيضا،بينما لو قيل:أمسك إلى أول الليل فإن أوّل الليل لا يدخل ضمن حكم الإمساك(المنار،ج ۶،ص ۲۲۳).

۲- ۲) -ليس هناك من شك بأنّ عباره«وجوهكم»تفصلها مسافه كبيره نسبيا عن عباره«أرجلكم»لذلك يستبعد أن تكون الأخيره معطوفه على«وجوهكم»،إضافه إلى ذلك فإنّ الكثير من القراء قد قرءوا عباره«أرجلكم»بكسر اللام.

المفصل الذی یربط مشط الرجل بالساق (۱) .

بعـد ذلـک کله بیّنت الآـیه حکم الغسـل عـن جنـابه حیـث قـالت: وَ إِنْ کُنْتُمْ جُنُبـاً فَـاطَّهَّرُوا... و الواضـح أنّ المراد من جمله«فـاطّهروا»هو غسـل جمیع الجسم، لأـنّه لو کـان المراد جزءا خاصـا منه لاقتضـی ذکر ذلـک الجزء،و علی هـذا الأساس فإنّ العباره المذکوره تعنی جمیع الجسم-و قد جاء حکم مشابه لهذا الحکم فی الآیه(۴۳)من سوره النساء حیث تقول: حَتّی تَغْتَسِلُوا .

إنّ کلمه«جنبا»-و کما أوضحنا سابقا فی الجزء الثّالث من تفسیرنا هذا، لدی تفسیر الآیه(۴۳)من سوره النساء-مصدر،و قد وردت بمعنی اسم الفاعل، و تعنی فی الأصل«المتباعـد»أو«البعیـد»لأنّ الجـذر الأصـلی هو«جنابه»بمعنی «بعـد»،و سـبب إطلاق هذا اللفظ علی الإنسان المجنب لأن هذا الإنسان یجب علیه أن یبتعد عن الصلاه و التوقف فی المساجد و أمثالها.

و تطلق هذه الکلمه«جنب»علی المفرد و الجمع و المذکر و المؤنث،و إطلاق «جار الجنب»علی البعید هو لنفس المناسبه.

و یمکن أن یستدل من الآیه التی تدعو المجنب إلی الاغتسال قبل الصّلاه علی أن غسل الجنابه یجزئ،و ینوب عن الوضوء أیضا.

و من ثمّ بادرت الآیه إلی بیان حکم التیمم حیث قالت: وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضی أَوْ عَلی سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَیَمَّمُوا صَعِیداً طَیِّباً... .

---

۱ – ۱) -لقـد ذکر القـاموس ثلاـثه معـان للکعب و هی:النتـوء الظـاهر خلف الرجـل،و المفصـل،و النتوئین البـارزین علی جـانبی الرجل-و قد بینت السـنه الشـریفه أن المراد فی الآیه لیس النتوآت المذکورات و لکن العلماء اختلفوا فی هل أن المراد هو النتوء البارز خلف الرجل أو هو المفصل؟-و علی أی حال-فإن الاحتیاط یوجب أن یکون المسح حتی المفصل.

و هنا يجب الالتفات إلى أن جملتى أَوْ جٰاءَ أَحَدٌ مِنْكَمْ مِنَ الْغٰائِطِ و أَوْ لاٰمَسْتُمُ النِّسٰاءَ هما-كما أشرنا سابقا-معطوفتان على بدايه الآيه،أى على جمله: إِذٰا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاٰهِ فالآيه أشارت فى البدايه حقيقه إلى قضيه النوم، و تطرقت فى آخرها إلى نوعين آخرين من موجبات الوضوء و الغسل.

أمّا لو عطفنا الجملتين على جمله عَلىٰ سَفَرٍ فسنواجه مشكلتين فى هذه الآيه و هما أوّلا:إنّ عوده الإنسان بعد التخلى لا يمكن أن تكون كحاله المرض أو السّفر فلا تناظر بين تلك و هاتين الحالتين،لذلك ترانا مضطرين إلى أن نأخذ حرف«أو»الوارد فى الآيه بمعنى الواو العاطفه(و أكّد هذا الأمر جمع من المفسّرين)و هذا خلاف لظاهر الآيه.

بالإضافه إلى ذلك فإنّ ذكر التغوط بصوره خاصّه من بين كل موجبات الوضوء سيبقى بدون مبرر،لكننا لو فسّرنا الآيه بالصوره التى قلناها سابقا فلا يبقى بعد ذلك مبرر لهذين الاعتراضين الأخيرين،(و مع أنّنا اعتبرنا فى تفسير الآيه(۴۳)من سوره النساء)،و جريا على ما فعله الكثير من المفسّرين،اعتبرنا كلمه«أو»بمعنى الواو العاطفه،إلاّ أنّ الذى ذكرناه مؤخرا-هنا-يعتبر أقرب إلى القبول من ذلك.

أمّا الموضوع الآخر فهو تكرار موضوع الجنابه مرّتين فى هذه الآيه، و يحتمل أن يكون هدف هذا التكرار هو التأكيد على هذه القضيه،أو قد تكون كلمه«جنبا»الوارده بمعنى الجنابه التى تحدث أثناء النوم أو بسبب الاحتلام، بينما المراد من جمله أَوْ لاٰمَسْتُمُ النِّسٰاءَ هو الجنابه الحاصله نتيجه المقاربه الجنسيه بين الرجل و المرأه،و إذا فسّرنا كلمه«قمتم»الوارده فى الآيه بالقيام من النوم(كما ورد فى روايات أئمّه أهل البيت عليهم السّلام و أيضا اشتملت الآيه على قرينه بهذا الخصوص)يكون تفسيرنا هذا تأييدا للمعنى الذى أوردناه بخصوص تكرار موضوع الجنابه.

لقد بيّنت الآيه-بعد ذلك-أسلوب التيمم بصوره إجماليه فقالت: فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكَمْ وَ أَيْدِيكَمْ مِنْهُ... و الواضح هنا هو أنّ المراد ليس حمل شيء من التراب و مسح الوجه و اليدين به،بل أنّ المقصود هو ضرب الكفين على تراب طاهر ثمّ مسح الوجه و اليدين بهما،لكن بعض الفقهاء استدلوا بعباره«منه» الموجوده فى الآيه و قالوا بضروره أن يلاصق الكفين شيء و لو قليل من التراب (۱) .

بقيت مسأله أخيره فى هذا المجال،و هى مسأله معنى كلمتى صَعِيداً طَيِّباً فقد ذهب الكثير من علماء اللغه إلى أنّ لكلمه«صعيد»معنيين هما التراب أوّلا،أو كل شيء يغطى سطح البسيطه أى الكره الأرضيه ثانيا،سواء كان ترابا أو صخرا أو حصى أو حجرا أو غير ذلك من الأشياء،و قد أدى هذا إلى حصول اختلاف فى آراء الفقهاء حول الشيء الذى يجوز التيمم به،هل هو التراب وحده أو أنّ الحجر و الرمل و أمثالهما-أيضا-يجوز التيمم بهما؟ و حين نرجع إلى الأصل اللغوى لكلمه«صعيد»الذى يدل على«الصعود و الارتفاع»فإن المعنى الثّانى لهذه الكلمه يبدو أقرب إلى الذهن.

و تطلق كلمه«طيب»على الأشياء التى تلائم الطبع و الذوق الإنسانى،و قد أطلق القرآن الكريم هذه الكلمه فى موارد كثيره مثل:«البلد الطيب»و«مساكن طيبه»و«ريح طيبه»و«حياه طيبه»و غيرها...و كذلك فإنّ كل شيء طاهر يعتبر طيبا،لأنّ طبع الإنسان ينفر من الأشياء النجسه المدنّسه،و من هذا نستدل على أنّ تراب التيمم يجب أن يكون ترابا طاهرا أيضا.

و قد أكّدت الروايات الوارده إلينا عن أئمّه الإسلام عليهم السّلام على هذا الموضوع

۱- ۱) -لقد أوضحنا فى تفسير الآيه(۴۳)من سوره النساء،بصوره مفصله،أحكام التيمم و فلسفتها الإسلاميه و كيف أن التيمم لا يعتبر مغايرا للوقايه الصحيّه،بل فيه جانب وقائى صحى أيضا،و كذلك حول معنى«غائط»و قضايا أخرى فليراجع....

بصوره متكرره،و نقرأ واحده من هذه الروايات و هى تقول:

«نهى أمير المؤمنين أن يتيمم الرجل بتراب من أثر الطريق» (۱) .

و الجدير بالنظر أنّ عباره«التيمم»الوارده فى القرآن و الحديث بمعنى التكليف الشرعى الذى مضى الحديث عنه،جاءت فى اللغه بمعنى«القصد» و القرآن الكريم يقرر أنّ الإنسان لدى قصد التيمم عليه أن يختار قطعه طاهره من الأرض من بين القطعات المختلفه للتيمم منها.قطعه ينطبق عليها مفهوم «الصعيد»معرضه للأمطار و الشمس و الرياح،و بديهى أن تكون قبل اتخاذهما للتيمم مثل هذه القطعه من الأرض التى لم تتعرض لوطء الأقدام،فيها الصفات التى تستوعبها كلمه«طيب»و عندئذ فإن هذه القطعه من الأرض-بالإضافه إلى كونها لا تضرّ بالصحّه-تكون أيضا-و كما أسلفنا لدى تفسيرنا للآيه(۴۳)من سوره النساء-ذات أثر أيضا فى قتل الجراثيم و الميكروبات،كما يؤكّده العلماء من ذوى الإختصاص فى هذا المجال.

فلسفه الوضوء و التيمم:

لقد تناولنا فلسفه التيمم بالبحث بصوره وافيه فى الآيه(۴۳)من سوره النساء،أمّا بالنسبه لفلسفه الوضوء فالشيء الذى لا يختلف عليه اثنان،هو أنّ للوضوء فائدتين واضحتين:

إحداهما صحيه و الأخرى أخلاقيه معنويه،فغسل الوجه و اليدين فى اليوم خمس مرّات أو على الأقل ثلاث مرات،لا يخفى أثره فى نظافه الإنسان و صحته،أمّا الفائده الأخلاقيه المعنويه فهى فى الأثر التربوى الذى يخلفه قصد التقرّب إلى اللّه فى نفس الإنسان حين يعقد النيّه للوضوء بالأخصّ حين ندرك أنّ المفهوم النفسى للنيه يعنى أن حركه الإنسان أثناء الوضوء و التى تبدأ من الرأس

۱- ۱) -وسائل الشيعه،ج ۲،ص ۹۶۹.

و تنتهی بالقدمین-هی خطوات فی طاعه اللّه.

و نقرأ

فی روایه عن الإمام علی بن موسی الرّضا علیه السّلام قوله: «إنّما أمر بالوضوء و بدئ به لأن یکون العبد طاهرا إذا قام بین یدی الجبار عند مناجاته إیّاه،مطیعا له فیما أمره نقیا من الأدناس و النجاسه،مع ما فیه من ذهاب الکسل،و طرد النعاس، و تزکیه الفؤاد للقیام بین یدی الجبار» (۱) .

و تتوضح فلسفه الوضوء أکثر فی الحدیث عن فلسفه الغسل،و الذی سنتناوله فیما یلی:

فلسفه الغسل:

قد یسأل البعض لما ذا أمر الإسلام بغسل کامل الجسم لدی حصول «الجنابه»فی حین أن عضوا معینا واحدا یتلوث أو یتسخ فی هذه الحاله؟ فهل هناک فرق بین البول الخارج من ذلک العضو،و بین«المنی»الخارج منه أثناء الجنابه بحیث یجزی غسل العضو وحده فی حاله التبول،بینما یجب غسل الجسم کله بعد خروج المنی من العضو؟ لهذا السّؤال جوابان،مجمل و مفصل،و هما کما یلی:فالجواب المجمل یتلخص فی أن خروج المنی من الإنسان لا ینحصر أثره فی العضو الذی یخرج منه،أی أنّه لیس کالبول و الفضلات الأخری.

و الدلیل علی هذا القول هو تأثر الجسم کله أثناء خروج المنی من العضو بحیث تطرأ علی خلایا الجسم کلها حاله من الاسترخاء و الخمول،و هذه الحاله هی الدلیل علی تأثیر الجنابه علی أجزاء الجسم کلها،و قد أظهرت بحوث العلماء المتخصصین-فی هذا المجال-أن هناک سلسلتین عصبیتین نباتیتین فی جسم الإنسان،هما السلسله السمبثاویه(الأعصاب المحرکه)و السلسله شبه

ص: ۶۱۷

۱- ۱) -وسائل الشیعه،ج ۱،ص ۲۵۷.

السـمبثاويه(الاعصاب الكابحه)تمتدان فی کافه أجزاء الجسم و أجهزته الداخليه،و تتولی السلسـله السمبثاويه تحفير أجهزه الجسم علی العمل و تسـريع عملها،بينما السلسـله شـبه السـمبثاويه تعمل عكس الأولی،فتحـدّ عمل أجهزه الجسم و تبطئها فالأولی تلعب دور جهـاز دفع البنزين فی السـياره من أجـل تحريكهـا و الأـخری يكون دورهـا دور الكابـح فيها لإيقافها عن الحركه،و بالتوازن الحاصل فی عمل هاتين السلسلتين العصبيتين تعمل جمع أجهزه جسم الإنسان بصوره متوازنه أيضا.

و قد تحدث فی جسم الإنسان-أحيانا-فعاليات تعيق استمرار هذا التوازن فيطغی عمل أحد السلسلتين العصبيتين علی عمل الجمله الأـخری،و من هـذه الفعاليـات وصول الإنسان إلی الـذروه فی اللـذه الجنسـيه،أی ما يسـمی بحاله «الأوركازم»التی تقترن بخروج المنی من عضو الإنسان،و فی هذه الحاله يطغی عمل السلسـله العصبيه شـبه السمبثاويه الكابح علی عمل السلسله العصبيه الأخری التی هی السمبثاويه الدافعه فيختل التوازن بصوره سلبيه فی جسم الإنسان،و قد ثبت بالتجربه أن الشیء الذی يمكنه إعاده التوازن بين عمـل تلـك السلسـلتين العصبيتين،هو وصول المـاء إلی جسم الإنسـان،و لمـا كانت حاله «الأوركازم»التی يصل إليها الإنسان لدی«الجنابه»تؤثر بصوره محسوسه علی أجهزه جسم الإنسان و تخل بتوازن السلسلتين العصبيتين المذكورتين،لذلك أمر الإسلام بأن يباشـر الإنسان غسل كل جسـمه بعـد كل مقاربه جنسـيه،أو لـدی خروج«المنی»منه،حيث يعود بهـذا الغسل التوازن بين عمل السلسلتين العصبيتين السمبثاويه و شبه السمبثاويه فی كل أجزاء الجسم،فتعود لها حالتها الطبيعيه فی الحركه و الحياه (1) .

ص: ۶۱۸

۱- ۱) -و نقرأ فی روايه عن الإمام الثامن علی بن موسی الرضا عليه السّلام قوله:«إنّ الجنابه خارجه من كل جسده فلذلك

و بـديهى أنّ فائده الغسل لا تنحصـر فى الذى تحدثنا عنه قبل قليل،بل أنّ الغسل يعتبر أيضا نوعا من العباده التى لها آثار أخلاقيه لا تنكره،و لهذا السـبب يبطل الغسل إن لم يكن مقترنا بنيّه الطاعه و التقرب إلى اللّه سبحانه، لأنّ الحقيقه هى أنّ الجسم و الروح كليهما يتأثران أثناء خروج«المنى»من الإنسان أو لدى حصول المقاربه الجنسيه-فالروح تجر بذلك وراء الشهوات الماديه و يدفع الجسم إلى حاله الخمول و الركود.

و غسـل الجنـابه يعتبر غسـلا للجسم بمـا يشـمله من عمليه إيصـال الماء إلى جميع أجزائه،و يعتبر غسـلا للروح بما يحتويه من نيه الطـاعه و التقرب إلى اللّه،أى أنّ لهـذا الغسـل أثرين مـادى و روحى،يـدفع الأـثر المـادى منه الجسم إلى اسـتعاده حاله النشاط و الفعاليه،و يدفع الأثر الروحى الإنسان للتوجه إلى اللّه و إلى المعنويات.

أضف إلى ذلـك كلّه أنّ وجوب غسـل الجنـابه فى الإسـلام هو أيضـا من أجل إبقاء جسم الإنسان المسـلم طاهرا،كما هو رعايه للجانب الصحى فى حياه الإنسان،و قد يوجد الكثير من الناس ممن لا يعتنون بنظافه أجسامهم لكن هذا الأمر و الواجب الإسلامى يجبرهم على غسـل أجسـامهم بين فتره و أخرى و لاـ يقتصـر التهـاون فى غسـل الجسم على إنسـان العهود القـديمه،بـل حتى فى عصـرنا الحاضـر هناك الكثير ممن لا يعتنون بغسل أجسامهم،بل يتهاونون فى هـذا الأمر الحياتى المهم(و طبيعى أن حكم غسـل الجنابه حكم عام،و قانون كلى يشمل حتى الشخص الذى غسل جسمه قبل حصول الجنابه بقليل).

إنّ الجوانب الثلاثه المذكوره فيما سبق-توضح بمجموعها سبب وجوب الغسل لدى خروج المنى من الإنسان سواء كان فى أثناء النوم أو اليقظه و كذلك

(۱)

وجب عليه تطهير جسده كله»و فى هذه الروايه إشاره للبحث الذى تناولناه أعلاه-من وسائل الشيعه،ج ۱،ص ۴۶۶.

بعد المقاربه الجنسيه(حتى لو لم تؤد إلى خروج المنى).

و قد أوضحت الآيه-فى آخرها-أنّ الأوامر الإلهيه ليس فيها ما يحرج الإنسان أو يوجد العسر له،بل إنها أوامر شرعت لتحقق فوائد و منافع معينه للناس،فقالت الآيه مٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

و تؤكد هذه العبارات القرآنيه الأخيره أنّ جميع الأحكام و الأوامر الشرعيه الإلهيه و الضوابط الإسلاميه هى فى الحقيقه لمصلحه الناس و لحمايه منافعهم، و ليس فيها أى هدف آخر،و إنّ اللّه يريد بالأحكام الأخيره الوارده فى الآيه- موضوع البحث-أن يحقق للإنسان طهارته الجسمانيه و الروحيه معا.

و يجب هنا الانتباه إلى أن جمله مٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ مع أنّها وردت فى أواخر الآيات التى اشتملت على أحكام الغسل و الوضوء و التيمم، إلاّ أنّها تبيّن قانونا عامّا معناه أنّ أحكام اللّه ليست تكاليف شاقّه أبدا،و لو كان فى أى حكم شرعى العسر و الحرج لأى فرد لسقط التكليف عن هذا الفرد بناء على الاستثناء الوارد فى الجمله القرآنيه الأخيره من الآيه موضوع البحث،و لهذا لو كان الصوم يشكل مشقه و عناء على أى فرد بسبب مرض أو شيخوخه أمّا ما شابه ذلك،لسقط أداؤه عن هذا الفرد و ارتفع التكليف عنه،بناء على هذا الدليل نفسه.

و لا يخفى-أيضا-أنّ هناك من الأحكام الإلهيه ما يظهر فيها الصعوبه و المشقه بذاتها مثل حكم الجهاد،إلاّ أنّه و لدى مقارنه المصالح التى تتحقق بالجهاد مع الصعوبات و المشاق التى فيه،تترجح كفه المصالح و أهميتها فلا تكون المشاق أمامها شيئا يذكر،و قد سمى القانون الذى أثبتته الجمله القرآنيه الأخيره بقانون«لا حرج»و هو مبدأ أساسى يستخدمه الفقهاء فى أبواب مختلفه و يستنبطون منه أحكاما كثيره.

ص:۶۲۰

الآيه [سوره المائده (۵): آیه ۷]

اشاره

وَ اُذْكُرُوا نِعْمَهَ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ مِيثٰاقَهُ اَلَّذِي وٰاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۷)

التّفسير

اشاره

العهود الرّبانيه:

تناولت الآيه السابقه مجموعه من الأحكام الإسلاميه بالإضافه إلى موضوع إكمال النعمه الإلهيه على المسلمين،و جاءت الآيه الأخيره لتكمل السياق الموضوعى لما سبق من آيات،فاستقطبت انتباه المسلمين إلى أهميه و عظمه النعم الإلهيه التى أعظمها و أهمها نعمه الإيمان و الهدايه و الإسلام،تقول الآيه: وَ اذْكُرُوا نِعْمَهَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ... و مع أن كلمه«نعمه»جاءت بصيغه المفرد فى هذه الآيه،إلاّ أنّها وردت اسم جنس لتفيد العموم،حيث عنى بالنعمه جميع النعم،كما يحتمل أيضا أن يكون المراد نعمه الإسلام بصوره خاصّه،و التى أشارت إليها الآيه السابقه بصوره إجماليه حيث قالت: وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ...

فأى نعمه أعظم من أن ينال الإنسان-فى ظل الإسلام-كل الهبات الإلهيه و المفاخر و الإمكانيات الدنيويه،بعد أن كان الناس يعانون فى الجاهليه من التشتت و الجهل و الضلال و يسود بينهم قانون الغاب،و كان الفساد و الظلم يعم

مجتمعهم آنذاک، و قد تحولوا بفضل الإسلام إلی مجتمع یسوده الاتحاد و التماسک و العلم،و یرفل بالنعم و الإمکانیات المادیه و المعنویه الزّاخره.

بعد هذا تعید الآیه إلی الأذهان ذلک العهد الذی بین البشر و بین اللّه،فتقول وَ مِیثٰاقَهُ الَّذِی وٰاثَقَکُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا... .

هناک احتمالان حول المعنی المراد بلفظه«العهد»الوارده فی الآیه و موضوعه.

الاحتمال الأوّل:أن یکون هو ذلک العهد الذی عقده المسلمون فی بدایه ظهور الإسلام فی واقعه«الحدیبیه»أو واقعه«حجه الوداع»أو«العقبه»مع اللّه،أو بصوره عامّه هو العقد الذی عقده جمیع المسلمین بصوره ضمنیه مع اللّه بمجرّد قبولهم الإسلام.

و الاحتمال الثّانی:هو أن یکون العهد المقصود فی الآیه الکریمه الأخیره هو ذلک العهد المعقود بین کل فرد إنسانی-بحکم فطرته و خلقه-و بین اللّه،و الذی یقال عنه بأنّه تم فی«عالم الذر» (1) .

و بیان ذلک هو أنّ اللّه حین خلق الإنسان أودع فیه استعدادات و مواهب کثیره،و منها نعمه العلم التی بها یتتبع أسرار الخلیقه،و تتحقق لدیه معرفه الحق، و کذلک نعم کالعقل و الذکاء و الإدراک لیعرف الإنسان بها أنبیاء اللّه و یلتزم بأوامرهم،و اللّه سبحانه حین أودع هذه النعم لدی الإنسان أخذ منه عهدا بأنّ یستغلها خیر استغلال،و أن لا یهملها أو یسیء استعمالها،فردّ الإنسان بلسان الحال و الاستعداد«سمعنا و أطعنا».

و یعتبر هذا العهد أوسع و أحکم و أعم عهد أخذه اللّه من عباده البشر،و هذا هو العهد الذی یشیر إلیه الإمام علی بن أبی طالب علیه السّلام فی خطبته الأولی الوارده

فی کتاب«نهج البلاغه»بقوله: «لیستأدوهم میثاق فطرته» أی لیطلب منهم أداء

1- 1) -سیرد شرح مفصل عن«عالم الذر»و سبب تسمیته بهذا الاسم فی تفسیر الآیه(172)من سوره الأعراف،بإذن اللّه.

الميثاق الفطری الذی أخذه منهم و الوفاء به.

و بدیهی أنّ یشمل هذا العهد الواسع جمیع المسائل و الأحکام الدینیه.

و لا مانع مطلقا من أن تکون فی هذه الآیه إشاره إلی جمیع العهود و المواثیق التکوینیه و التشریعیه التی أخذها اللّه أو النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من المسلمین بمقتضی فطرتهم فی مراحل مختلفه،و هنا یتوضح لنا الحدیث القائل بأنّ المراد من المیثاق هو العهد الذی أخذه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من المسلمین فی حجّه الوداع بخصوص ولایه علی بن أبی طالب علیه السّلام (1) و یتفق هذا التّفسیر مع ما ورد أعلاه.

و قد أکّدنا مرارا أنّ التفاسیر التی ترد علی الآیات القرآنیه،ما هی إلاّ إشاره لواحد من المصادیق الجلیه المعنیه فی کل آیه،و لا تعنی مطلقا انحصار المعنی بالتّفسیر الوارد.

و تجدر الإشاره-أیضا-إلی أنّ کلمه«میثاق»مشتقّه من المصدر«وثاقه»أو «وثوق»و تعنی الشدّ المحکم بالحبل و أمثاله،کما یطلق علی کل عمل یؤدی إلی راحه البال و اطمئنان الخاطر،حیث أنّ العهد یکون بمثابه عقده تربط شخصین أو جماعتین أحدهما بالآخر،و لذلک سمّی«میثاقا».

و فی النهایه تؤکّد الآیه علی ضروره التزام التقوی،محذره أنّ اللّه محیط بأسرار البشر،و عالم بما یختلج فی صدورهم،بقولها: وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ .

و تدل عباره بِذاتِ الصُّدُورِ علی أنّ اللّه عالم بأدقّ أسرار البشر المکنونه فی أعماق نفوسهم و التی لا یمکن لأیّ مخلوق معرفتها غیر صاحب السرّ و خالقه،أی اللّه العالم بذات الصدور.

و قد شرحنا فی الجزء الأوّل من تفسیرنا هذا سبب نسبه العواطف و المشاعر و النوایا و العزائم إلی القلب أو إلی مکنونات الصدور.

1- 1) -تفسیر البرهان،ج 1،ص 454.

الآيات [سوره المائده (۵): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشاره

يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ لِلّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلىٰ أَلاّٰ تَعْدِلُوا اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ وَ اِتَّقُوا اَللّهَ إِنَّ اَللّهَ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ (۸) وَعَدَ اَللّهُ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحٰاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۹) وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ اَلْجَحِيمِ (۱۰)

التّفسير

اشاره

دعوه مؤكّده إلى العداله:

إنّ الآيه الأولى من الآيات الثلاث أعلاه تدعو إلى تحقيق العداله،و هى شبيهه بتلك الدعوه الوارده فى الآيه(۱۳۵)من سوره النساء،التى مضى ذكرها مع اختلاف طفيف.

فتخاطب هذه الآيه أوّلا المؤمنين قائله: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ لِلّهِ شُهَدٰاءَ بِالْقِسْطِ .

ثمّ تشير إلى أحد أسباب الانحراف عن العدله،و تحذّر المسلمين من هذا الانحراف مؤكّده أنّ الأحقاد و العداوات القبليه و الثارات الشخصيه،يجب أن لا تحول دون تحقيق العدل،و يجب أن لا تكون سببا للاعتداء على حقوق

الآخرين،لأنّ العداله أرفع و أسمى من كل شيء،فتقول الآيه الكريمه: وَ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلىٰ أَلاّٰ تَعْدِلُوا... و تكرر الآيه التأكيد لبيان ما للعدل من أهميه قصوى فتقول اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ .

و بما أنّ العداله تعتبر أهم أركان التقوى،تؤكّد الآيه مرّه ثالثه قائله: وَ اتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ .

و الفرق بين فحوى هذه الآيه و الآيه المشابهه لها الوارده في سوره النساء، يتحدد من عدّه جهات:

أوّلا:إنّ الآيه الوارده في سوره النساء دعت إلى إقامه العدل و الشهاده للّه،أمّا الآيه الأخيره فقد دعت إلى القيام للّه و الشهاده بالحق و العدل،و لعل وجود هذا الفارق لأنّ الآيه الوارده في سوره النساء استهدفت بيان ضروره أن تكون الشهاده للّه،لا لأقارب و ذوي الشاهد،بينما الآيه الأخيره و لكونها تتحدث عن الأعداء أوردت تعابير مثل الشهاده بالعدل و القسط أي تجنب الشهاده بالظلم و الجور.

ثانيا:أشارت الآيه الوارده في سوره النساء إلى واحد من عوامل الانحراف عن العداله،بينما الآيه الأخيره أشارت إلى عامل آخر في نفس المجال،فهناك ذكرت الآيه عامل الحب المفرط الذي لا يستند على تبرير أو دليل، بينما ذكرت الآيه الأخيره الحقد المفرط الذي لا مبرر له.

و لكن الآيتين كليهما تتلاقيان في عامل إتّباع الأهواء و النزوات التي تتحدث عنها الآيه الأولى في جمله: فَلاٰ تَتَّبِعُوا الْهَوىٰ أَنْ تَعْدِلُوا... لأنّ الهوى مصدر كلّ ظلم و جور ينشأ من الاندفاع الأعمى وراء الأهواء و المصالح الشخصيه،لا من دافع الحب أو الكراهيه،و على هذا الأساس فإنّ المصدر الحقيقي للانحراف عن العدل هو نفس إتّباع الهوى،و

قد جاء في كلام النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

ص :۶۲۵

و الإمام علی بن أبی طالب علیه السّلام قولهما: «امّا إتّباع الهوی فیصدّ عن الحق» (۱) .

العدل رکن إسلامی مهم:

قلما نجد قضیه أعطی الإسلام لها أهمیه قصوی کقضیه العدل،فهی و قضیه التوحید سیان فی تشعب جذورهما إلی جمیع الأصول و الفروع الإسلامیه، و بعباره أخری:کما أنّ جمیع القضایا العقائدیه و العملیه و الاجتماعیه و الفردیه و الأخلاقیه و القانونیه لا تنفصل مطلقا عن حقیقه التوحید،فکذلک لا تنفصل کل هذه القضایا و لا تخلو أبدا من روح العدل.

و لیس من العجیب و الحاله هذه أن یکون العدل واحدا من أصول العقیده و الدین،و أساسا من أسس الفکر الإسلامی،و هو مع کونه صفه من صفات اللّه سبحانه و یدخل ضمن مبادئ المعرفه الإلهیه،إلاّ أنّه یشتمل علی معان واسعه فی خصائصه و مزایاه، و لذلک کان ما أولته البحوث الاجتماعیه فی الإسلام من الاهتمام بالعدل و الاعتماد علیه یفوق ما حظیت به المبادئ الإسلامیه الأخری من ذلک.

و یکفی إیراد عدد من الأحادیث و الرّوایات نماذج لدرک أهمیه هذه الحقیقه:

-۱

روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إیّاکم و الظلم فإنّ الظلم عند اللّه هو الظلمات یوم القیامه» (۲) .

و بدیهی أن کل ما هو موجود من خیر و برکه و نعم هو من النور و فی النور،

۱- ۱) -ورد هذا الحدیث نقلا عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی کتاب سفینه البحار فی ماده(هوی)،و ورد فی کتاب نهج البلاغه فی الخطبه ۴۲ نقلا عن علی بن أبی طالب علیه السّلام.
۲- ۲) -سفینه البحار،ماده(ظلم).

و إنّ الظلام هو مصدر كل عدم وفاقه.

۲-و

قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا: «بالعدل قامت السموات و الأرض» (۱) .

و يعتبر هذا القول من أوضح التعابير التى قيلت فى شأن العدل،و معناه أنّ حياه البشر المحدوده فى الكره الأرضيه ليست وحدها التى يكون قوامها العدل، بل إنّ حياه و وجود الكون بأكمله،و السماوات و الأرضين كلها قائمه بالعدل، و فى ظل حاله من توازن القوى الفاعله فيها،و وجود و استقرار كل شيء فى محله منها،بحيث لو أنّها انحرفت عن هذا التوازن لحظه واحده أو بمقدار قيد أنمله لحكمت على نفسها بالفناء و الزوال.

و يؤيد هذا القول حديث آخر هو:«الملك يبقى مع الكفر و لا يبقى مع الظلم» لأنّ للظلم أثرا سريعا فى هذه الحياه الدنيويه و من نتائجه الحروب و الاضطرابات و القلاقل و الفوضى السياسيه و الاجتماعيه و الأخلاقيه و الأزمات الاقتصاديه التى تعمّ العالم اليوم،و هذا ما يثبت الحقيقه المذكوره بصوره جيده.

و يجب الانتباه جيدا إلى أنّ اهتمام الإسلام لم ينصب فى مجرد العداله،بل إنّه أولى أهميه أكبر لتحقيق العداله،و طبيعى أنّ محض تلاوه هذه الآيات فى المجالس أو من على المنابر،و كتابتها فى الكتب،لا يجدى نفعا فى استعاده العداله المفقوده،و علاج التمييز الطبقى و العنصرى،و الفساد و الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى،بل إنّ عظمه هذه الآيات و الأحكام تتجلّى فى يوم تطبق فيه العداله فى صميم حياه المسلمين.

بعد التأكيد الشديد الذى حملته الآيه الكريمه حول قضيه العداله و ضروره تطبيقها بادرت الآيه التاليه و تمشيا مع الأسلوب القرآنى،فأعادت إلى الأذهان

۱- ۱) -تفسير الصافى،فى تفسير الآيه ۷ من سوره الرحمن.

ما أعده اللّه للمؤمنين العاملين بالخير من غفرانه و نعمه العظيمه،حيث تقول الآيه:

وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ

.

كما ذكرت الآيه فى المقابل جزاء الكافرين الـذين يكـذبون بآيات اللّه، فقالت: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ الْجَحِيمِ .

و ممّا يلفت النظر أنّ الآيه جعلت المغفره و الأجر العظيم فى إطار«وعد اللّه» بينما ذكرت عقاب جهنم بأنّه نتيجه للكفر و للتكذيب بآيات اللّه،و ما هذا إلاّ إشاره إلى فضل اللّه و رحمته لعباده فيما يخص نعم و هبات الآخره التى لا يمكن لأعمال الإنسان مهما كبرت و عظمت أن تباريها أو تعادلها مطلقا،كما أنّها إشاره -أيضا-إلى أنّ عقاب الآخره ليس فيه طابع انتقامى أبدا،بل هو نتيجه عادله لما ارتكبه الإنسان من أعمال سيئه فى حياته.

أمّا فيما يخص معنى عباره«أصحاب الجحيم» (1) فهى مع ما فى كلمه «أصحاب»من معنى الملازمه،أى أن الكافرين و المكذبين بآيات اللّه يلازمون جهنم،لكن هذه الآيه لوحدها لا يمكن أن تكون دليلا على مسأله«الخلود»فى نار جهنم،كما جاء توضيح ذلك فى تفسيرى«التبيان»و«مجمع البيان»و تفسير «الفخر الرّازى»،لأنّ الملازمه ربما تكون دائمه،و قد تستمر لفتره طويله ثمّ تنقطع،بدلاله التعبير القرآنى الوارد فى شأن ركاب سفينه نوح النّبى عليه السّلام حيث وردت فيهم عباره«أصحاب السفينه»و هم لم يكونوا ملازمين لتلك السفينه ملازمه دائمه.

و مع انتفاء الشك حول خلود الكفار فى نار جهنم،فالآيه الكريمه-موضوع البحث-لم تتحدث بشىء عن هذا«الخلود»بل يستنتج هذا من آيات قرآنيه أخرى.

ص :628

1- 1) -إنّ كلمه جحيم تعنى النار الشديده الالتهاب،و قد أطلقت فى القرآن على نار جهنم كما فى هذه الآيه،و على نار الدنيا كالنار التى سعروها لحرق النّبى إبراهيم عليه السّلام الآيه(97)من سوره الصافات.

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۱۱]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا اُذْکُرُوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ عَلَیْکُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ یَبْسُطُوا إِلَیْکُمْ أَیْدِیَهُمْ فَکَفَّ أَیْدِیَهُمْ عَنْکُمْ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ عَلَی اَللّٰهِ فَلْیَتَوَکَّلِ اَلْمُؤْمِنُونَ (۱۱)

التّفسیر

لقد ذکرت الآیات السابقه بعضا من النعم الإلهیه،و جاءت الآیه الأخیره تخاطب المسلمین و تذکر لهم أنواعا من النعم التی أنعم اللّه بها علیهم،لکی یؤدوا شکرها عن طریق طاعه اللّه و السعی لتحقیق مبادئ العداله،فتقول الآیه: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اذْکُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَیْکُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ یَبْسُطُوا إِلَیْکُمْ أَیْدِیَهُمْ فَکَفَّ أَیْدِیَهُمْ عَنْکُمْ... .

و قد دأب القرآن الکریم فی کثیر من آیاته علی تذکیر المسلمین بالنعم المختلفه التی أنعم اللّه بها علیهم،و ذلک من أجل تعزیز دافع الإیمان لدیهم، و لاستثاره و تحفیز دافع الشکر و الصمود فیهم لیقفوا بوجه المشاکل،و الآیه الأخیره من سنخ تلک الآیات.

و اختلف المفسّرون حول الواقعه التی تشیر إلیها الآیه موضوع البحث، فبعضهم قال:بأنّها إشاره إلی إنقاذ المسلمین من قبیله«بنی النضیر»الیهودیه التی

تواطأت على قتل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين فى المدينه.

و ذهب البعض الآخر من المفسّرين على أنّها إشاره إلى واقعه«بطن النخل» التى حصلت فى العام السادس من الهجره النبويه فى واقعه«الحديبيه»حيث قرر المشركون هناك فى ذلك الحين-بزعامه(خالد بن الوليد)-الهجوم على المسلمين أثناء أدائهم لصلاه العصر،فعلم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذه المؤامره فصلّى صلاه الخوف القصيره،ممّا أدى إلى إحباط المؤامره.

و قد ذكر مفسّرون آخرون وقائع أخرى من حياه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين المليئه بالحوادث،و قالوا بأنّ هذه الآيه إشاره لتلك الوقائع.

و يرى مفسّرون آخرون أن هذه الآيه إشاره إلى كل الوقائع و الأحداث التى حصلت طيله التاريخ الإسلامى حتى ذلك الوقت.

و لو تغاضينا عن كلمه«قوم»الوارده فى هذه الآيه بصيغه النكره التى تدل على وحده المجموعه المعينه،فإنّ هذا التّفسير يمكن اعتباره من أحسن التفاسير فى هذا المجال.

و الآيه على كل حال تلفت انتباه المسلمين إلى الأخطار التى تعرضوا لها، و كان يحتمل أن تدفع بالوجود الإسلامى إلى الفناء و الزوال و إلى الأبد،و لكن فضل اللّه و نعمته شملتهم و أنقذت الإسلام و المسلمين من تلك الأخطار.

كما تحذر الآيه المسلمين و تنبههم إلى ضروره التزام التقوى و الاعتماد على اللّه كدليل على شكر ذلك الفضل و تلك النعمه،و ليعلموا بأنّهم بتقواهم سيضمنون لأنفسهم الدعم و السند و الحمايه من اللّه فى حياتهم الدنيويه هذه،و فى هذا المجال تقول الآيه الكريمه: وَ اتَّقُوا اللّٰهَ وَ عَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

و واضح أنّ التوكل على اللّه ليس معناه التخلى عن المسؤوليات أو الاستسلام لحوادث الزمان،بل يعنى أنّ الإنسان حين يستخدم طاقاته و الإمكانيات المتوفره لديه،يجب عليه أن ينتبه فى نفس الوقت إلى أنّ هذه

الطاقات و الإمكانيات ليست من عنده بل أن مصدرها و منشأها هو اللّه تعالى، و إذا حصل هذا التوجه فإن من شأنه أن يقضى على دافع الغرور و الأنانيه عند الإنسان أوّلا،و من ثمّ لا يدع إلى نفسه طريقا للخوف و القلق و اليأس حيال الأحداث و المشاكل مهما كبرت و عظمت،لأنّه يعلم بأنّ سنده و حاميه هو اللّه الذى فاقت قدرته كل القدرات.

إضافه إلى ما ذكر،فإنّ تقديم الأمر بالتقوى على قضيه التوكل يستشف منه أنّ حمايه اللّه و رعايته تشمل حال المتقين.

و يجب الانتباه إلى أنّ عباره«التقوى»المشتقه من المصدر«وقايه»معناها حمايه النفس و إبعادها عن عناصر السوء و الفساد.

ص :۶۳۱

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۱۲]

اشاره

وَ لَقَدْ أَخَذَ اَللّٰهُ مِيثٰاقَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ وَ بَعَثْنٰا مِنْهُمُ اِثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَ قٰالَ اَللّٰهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ اَلصَّلاٰةَ وَ آتَيْتُمُ اَلزَّكٰاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ وَ أَقْرَضْتُمُ اَللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوٰاءَ اَلسَّبِيلِ (۱۲)

التّفسیر

لقد أشارت هذه الآیه أوّلا إلی قضیه الوفاء بالعهد،و قد تکررت هذه الإشاره فی مناسبات مختلفه فی آیات قرآنیه عدیده،و ربّما کانت إحدی فلسفات هذا التأکید المتکرر علی أهمیه الوفاء بالعهد و ذم نقضه،هی إعطاء أهمیه قصوی لقضیه میثاق الغدیر الذی سیرد فی الآیه(۶۷)من هذه السوره.

و الآیه فی بدایتها تشیر إلی العهد الذی أخذه اللّه من بنی إسرائیل علی أن یعملوا بأحکامه،و إرساله إلیهم بعد هذا العهد اثنی عشر زعیما و قائدا لیکون کل واحد منهم زعیما لطائفه واحده من طوائف بنی إسرائیل الاثنتی عشر-حیث تقول الآیه الکریمه: وَ لَقَدْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ وَ بَعَثْنٰا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً .

و الأصل فى كلمه«نقيب»إنّها تعنى الثقب الكبير الواسع،و تطلق بالأخص على الطرق المحفوره تحت الأرض،و سبب استخدام كلمه نقيب للدلاله على الزعامه،لأنّ زعيم كل جماعه يكون عليما بأسرار قومه،و كأنّه قد صنع ثقبا كبيرا يطلع من خلاله على أسرارهم،كما تطلق كلمه نقيب أحيانا على الشخص الذى يكون بمثابه المعرف للجماعه،و حين تطلق كلمه«مناقب»على الفضائل و المآثر،يكون ذلك لأنّ الفضائل لا تعرف إلاّ عن طريق البحث و التنقيب فى آثار الشخص.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ كلمه«نقيب»الوارده فى الآيه موضوع البحث إنما تعنى-فقط-العارف بالأسرار،لكننا نستبعد هذا الأمر استنادا لما يدلنا عليه التاريخ و الحديث و هو أن نقباء بنى إسرائيل هم زعماء الطوائف الإسرائيليه،جاء فى تفسير«روح المعانى»عن ابن عباس قوله:

«إنّهم كانوا وزراء ثمّ صاروا أنبياء بعد ذلك».أى أنّهم كانوا وزراء للنّبى موسى عليه السّلام ثمّ نالوا منزله النّبوه بعده (۱) .

و نقرأ فى أحوال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه حين قدم أهل المدينه فى ليله العقبه لدعوته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى منطقه العقبه،أمر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أهل المدينه لينتخبوا من بينهم اثنى عشر نقيبا على عدد نقباء بنى إسرائيل،و بديهى أنّ مهمّه هؤلاء كانت زعامه قومهم و ليس فقط إخبار النّبى بتقارير عن أوضاعهم (۲) .

لقد وردت روايات عديده من طرق السنه،و هى تلفت الانتباه- لما فيها من إشاره إلى خلفاء النّبى الأئمّه الإثنى عشر عليهم السّلام و بيان أن عددهم يساوى عدد نقباء بنى إسرائيل-ننقل هنا قسما من هذه الروايات:

۱-ينقل«أحمد بن حنبل»-و هو أحد أئمّه السنّه الأربعه،عن«مسروق»أنّه

ص :۶۳۳

۱- ۱) -تفسير روح المعانى،ج ۶،ص ۷۸.

۲- ۲) -سفينه البحار،فى ماده«نقيب».

سأل عبد اللّه بن مسعود:كم عدد الذين سيحكمون هذه الأمّه؟فرد ابن مسعود قائلا:

«لقد سألنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال:«اثنى عشر كعدّه نقباء بنى إسرائيل» (۱) .

۲-و

جاء فى تاريخ«ابن عساكر»نقلا عن ابن مسعود، أنّهم سألوا النّبى عن عدد الخلفاء الذين سيحكمون هذه الأمّه،فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّ عدّه الخلفاء بعدى عده نقباء موسى» (۲) ۳-و ورد فى«منتخب كنز العمال»عن جابر بن سمره قوله«سيحكم هذه الأمّه اثنا عشر خليفه بعدد نقباء بنى إسرائيل» (۳) .

و جاء مثل هذا الحديث أيضا فى كتاب(ينابيع الموده)فى الصفحه ۴۴۵ و كذلك فى كتاب(البدايه و النهايه)،ج ۶ فى الصفحه ۲۴۷ أيضا.

و تشير الآيه بعد ذلك إلى وعد اللّه لبنى إسرائيل حيث تقول: وَ قٰالَ اللّٰهُ إِنِّي مَعَكُمْ .

و إنّ هذا الوعد سيتحقق إذا التزم بنو إسرائيل بالشروط التاليه:

۱-أن يلتزموا بإقامه الصّلاه كما تقول الآيه: لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاٰةَ .

۲-و أن يدفعوا زكاه أموالهم: وَ آتَيْتُمُ الزَّكٰاةَ .

۳-أن يؤمنوا بالرسل الذين بعثهم اللّه و يحترموا و ينصروا هؤلاء الرسل، حيث تقول الآيه وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ (۴) .

۱- ۱) -مسند أحمد،ص ۳۹۸،طبعه مصر،سنه ۱۳۱۳.
۲- ۲) -كتاب فيض القدير فى شرح الجامع الصغير،ج ۲،ص ۴۵۹.
۳- ۳) -منتخب كنز العمال فى حاشيه مسند أحمد،ج ۵،ص ۳۱۲.
۴- ۴) -إنّ عباره«عزرتموهم»مشتقه من ماده«تعزير»أى المنع أو العون،أمّا حين تسمى بعض العقوبات الإسلاميه بالتعزير فذلك لأنّ هذه العقوبات تكون فى الحقيقه عونا للمذنب لكى يرتدع عن مواصله الذنب،و هذا دليل على أنّ العقوبات الإسلاميه لا تتسم بطابع الانتقام بل تحمل طابعا تربويا لذلك سمّيت بالتعزير.

۴-و بالإضافه إلى الشروط الثلاثه المذكوره أعلاه،أن لا يمتنع بنو إسرائيل عن القيام ببعض أعمال الإنفاق المستحب التى تعتبر نوعا من معاملات القرض الحسن مع اللّه سبحانه و تعالى حيث تقول الآيه: وَ أَقْرَضْتُمُ اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً .

ثمّ أردفت الآيه الكريمه ببيان نتائج الوفاء بالشروط المذكوره بقوله تعالى:

لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ

.

كما بيّنت الآيه مصير الذين يكفرون و لا يلتزمون بما أمر اللّه حيث تقول:

فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوٰاءَ السَّبِيلِ

.

لقد أوضحنا فى الجزء الثّانى من تفسيرنا هذا لما ذا اصطلح القرآن المجيد على الإنفاق،أنّه قرض للّه سبحانه؟ و يبقى فى هذا المجال-أيضا-سؤال أخير و هو لما ذا تقدمت مسألتا الصّلاه و الزكاه على الإيمان بموسى عليه السّلام،فى حين أنّ الإيمان يجب أن يسبق العمل؟ و يجيب بعض المفسّرين على هذا السؤال بقولهم:إن المراد بعباره«الرسل» الوارده فى الآيه هم الأنبياء الذين جاءوا بعد النّبى موسى عليه السّلام و ليس موسى نفسه، لذلك فإن الأمر الوارد هنا بخصوص الإيمان بالرسل يحمل على أنّه أمرّ لمّا يستقبل من الزمان،فلا يتعارض لذلك وروده بعد الأمر بالصّلاه و الزكاه،كما يحتمل-أيضا-أن يكون المراد بعباره«الرسل»هم«نقباء»بنى إسرائيل حيث أخذ اللّه الميثاق من بنى إسرائيل بأن يكونوا أولياء معهم،(و نقرأ فى تفسير«مجمع البيان»أنّ بعضا من المفسّرين القدماء،احتملوا أن يكون نقباء بنى إسرائيل رسلا من قبل اللّه،و يؤيد هذا الاحتمال الرأى الأخير الذى ذهبنا إليه).

ص:۶۳۵

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۱۳]

اشاره

فَبِمٰا نَقْضِهِمْ مِيثٰاقَهُمْ لَعَنّٰاهُمْ وَ جَعَلْنٰا قُلُوبَهُمْ قٰاسِيَةً يُحَرِّفُونَ اَلْكَلِمَ عَنْ مَوٰاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمّٰا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لاٰ تَزٰالُ تَطَّلِعُ عَلىٰ خٰائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاّٰ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اِصْفَحْ إِنَّ اَللّٰهَ يُحِبُّ اَلْمُحْسِنِينَ (۱۳)

التّفسير

اشاره

إنّ هذه الآیه الکریمه جاءت تشیر إلی نقض بنی إسرائیل للعهد الذی أخذه اللّه علیهم و الذی ذکرته الآیه السابقه.

کما ذکرت هذه الآیه نتائج و عواقب هذا النقض حیث تقول: فَبِمٰا نَقْضِهِمْ مِيثٰاقَهُمْ لَعَنّٰاهُمْ وَ جَعَلْنٰا قُلُوبَهُمْ قٰاسِيَةً (۱) .

و الحقیقه هی أن هؤلاء عوقبوا بهذین الجزاءین بسبب نقضهم لمیثاقهم،فقد حرموا من رحمه اللّه،و تحجرت أفکارهم و قلوبهم فلم تعد تبدی أی مرونه أمام الحقائق.

ص: ۶۳۶

---

۱ – ۱) -إنّ کلمه«لعن»تعنی فی اللغه«الطرد و الإبعاد»و حین ینسب اللعن إلی اللّه فإنه یعنی الحرمان من رحمته،أمّا کلمه«قاسیه»فهی فی الأصل مشتقه من المصدر«قساوه»و تطلق علی الأخص علی الحجر الصلد،و لذلک أطلقت علی الذین لا یبدون أی مرونه من جانبهم أمام الحقائق التی تتکشف لهم.

و تشرح الآیه آثار هذا التحجّر فتقول: یُحَرِّفُونَ الْکَلِمَ عَنْ مَوٰاضِعِهِ...

و وَ نَسُوا حَظًّا مِمّٰا ذُکِّرُوا بِهِ.... .

و لا یستبعد أن تکون علامات و آثار نبیّ الإسلام محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و التی أشیر إلیها فی آیات قرآنیه أخری،جزءا من الأمور التی نسیها بنو إسرائیل-کما یحتمل أن تکون هذه الجمله القرآنیه إشاره إلی ما حرفه أو نسیه جمع من علماء الیهود أثناء تدوینهم للتوراه من جدید بعد أن فقدت التوراه الأصلیه،و إنّ ما وصل إلی هؤلاء من کتاب موسی الحقیقی کان جزءا من ذلک الکتاب و قد اختلط بالکثیر من الخرافات،و قد نسی هؤلاء حتی هذا الجزء الباقی من کتاب موسی علیه السّلام.

ثمّ تتطرق الآیه إلی ظاهره خبیثه طالما برزت لدی الیهود-بصوره عامّه- إلاّ ما ندر منهم،و هی الخیانه التی کانت تتکشف للمسلمین بین فتره و أخری، تقول الآیه الکریمه فی هذا المجال: وَ لاٰ تَزٰالُ تَطَّلِعُ عَلیٰ خٰائِنَهٍ (۱) مِنْهُمْ إِلاّٰ قَلِیلاً مِنْهُمْ... .

و فی الختام تطلب الآیه من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یعفو عن هؤلاء و یصفح عنهم، مؤکّده أنّ اللّه یحب المحسنین،و ذلک فی قوله تعالی: فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللّٰهَ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ .

و لنری هل أنّ المراد فی الآیه أن یعفو النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن الأخطاء السابقه للأقلیه الصالحه من الیهود،أم أنّ المراد هو العفو عن الأغلبیه الطالحه منهم؟ إنّ ظاهر الآیه یدعم و یؤیّد الاحتمال الثّانی،لأنّ الأقلیه الصالحه لم ترتکب ذنبا أو خیانه لکی یطلب من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم العفو عنهم-و الظن الغالب هو أنّ العفو

۱- ۱) -إنّ کلمه«خائنه»مع کونها اسما للفاعل،فهی فی هذه الآیه تکون بمعنی المصدر و تطابق کلمه الخیانه...و قد جرت عاده العرب علی استخدام مثل هذه الاستعمالات فی أشعارهم حیث جاؤوا باسم الفاعل و عنوا به المصدر فی کلمات مثل«العافیه»و الخاطیه»و قد احتملوا أیضا أنّ تکون کلمه«خائنه»صفه للطائفه.

و الصـفح المطلوبان فى الآيه يشـملان-فقط-تلك الحالات التى كان اليهود يوجهون فيها أذاهم و تحرشاتهم و استفزازاتهم إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و لا يشـملان أخطاء اليهود و جرائمهم بحق الأهداف و المبادئ الإسلاميه،حيث لا معنى للعفو فى هذا المجال.

الممارسات التّحريفيه لليهود:

إنّ مـا يسـتشف من مجموع الآيـات الوارده فى القرآن الكريم بخصوص الممارسـات التحريفيه لليهود،هو أنّهم كـانوا يمـارسون أنواع التحريف فى الكتب السماويه الخاصّه بهم.

و كـان تحريفهم يتخـذ أحيانـا طابعـا معنويـا،أى أنّهم كـانوا يفسّرون العبـارات الوارده فى تلـك الكتب بشـكل ينـاقض المعنى الحقيقى لهـا،فهم كـانوا يحفظون الألفـاظ كما هى لكنهم كانوا يغيرون معانيها و هو(التحريف المعنوى)، و كانوا-أيضا-يقومون بتحريف الألفـاظ فى بعض الأحيـان،فهم بـدل أن يقولوا «سـمعنا و أطعنا»كانوا يقولون«سـمعنا و عصـينا»كما كانوا أحيانا يخفون بعض الآيـات الإلـهيه،فمـا كان يطابق أهواءهم أظهروه،و أخفوا الآيات التى لم تكن لتتلاءم مع ميولهم و رغباتهم و هو«التحريف اللفظى»،و قـد وصلت بهم الوقاحه إلى حـد أنّهم مع موجود الكتاب السـماوى بين أيـديهم كانوا يخادعون الناس بوضع أيديهم على الحقائق الوارده فيها،لكى لا يستطيع الناظر قراءتها.

و ستأتى تفاصيل هذا الموضوع لدى تفسير الآيه(۴۱)من نفس هذه السوره فى قصّه«ابن صوريا».

هل يجعل اللّه قلب الإنسان قاسيا؟

نقرأ فى الآيه-موضوع البحث-إنّ اللّه ينسب لنفسه فعل جعل القسوه فى

قلوب مجموعه من اليهود!و الـذى نعرفه هو أنّ هـذه القسوه ما هى إلاّ نتيجه لارتكاب الـذنوب و الانحرافات،فكيف إذن ينسب اللّه فعل جعل القسوه فى قلوب أولئك اليهود إلى نفسه؟و لو كان هـذا الفعل من اللّه،فكيف يكون أولئك الأشخاص مسئولين عن أعمالهم،ألا يعتبر هـذا نوعا من الجبر؟ ولـدى الإمعان بـدقه فى الآيات القرآنيه المختلفه،و منها الآيه موضوع البحث،يتبيّن لنا أنّ الأشخاص إنما يحرمون-بسبب اخطائهم و ذنوبهم-من لطف اللّه و رحمته و هـدايته،و أن أعمالهم هـذه فى الحقيقه مصـدر لمجموعه من الانحرافات الفكريه و الأخلاقيه،بحيث يستحيل على الإنسان-أحيانا-أن يجنب نفسه عواقبها و نتائجها.

و بمـا أنّ العلـل-أو الأسباب-تعطى آثارها بإذن اللّه،لـذلك نسب مثل هـذه الآثار فى القرآن الكريم إلى اللّه،ففى الآيه موضوع البحث نقرأ أنّ اليهود-نتيجه لنقضـهم الميثاق-جعل الله قلوبهم قاسيه.كما نقرأ فى الآيه(۲۷)من سوره إبراهيم قوله تعالى وَ يُضِلُّ اللّهُ الظّالِمِينَ و فى الآيه(۷۷)من سوره التوبه نقرأ قوله سبحانه: فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إِلىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ .

و واضـح أنّ هـذه الآثار السيئه تنبع من عمل الإنسان نفسه،و لا تناقض فى هـذا الأمر حريه الإراده و الإختيار،لأنّ مقدمات تلك الآثـار تكون من عمل الإنسان و تصـدر عنه بعلمه و اختياره،و لأنّ آثار عمله هى النتيجه الحتميه للعمل نفسه،و على سبيل المثال لو أنّ إنسانـا تنـاول شيئا من المشروبات الكحوليه، و حصـلت لـديه حاله من السـكر،فقام على أثر هـذه الحاله بارتكاب جريمه معينه، فهو و إن كـان لاـ يمتلك إرادته فى حاله السـكر،إلاّ أنّه قبل ذلك أقـدم على شرب الخمره مختارا و مـدركا لما يفعل،و بذلك هيّأ بنفسه مقدمات العمل الجنائى،و هو يعمل احتمال صدور هذا العمل منه فى حاله السكر،و لذلك فهو مسئول عن هذا

العمل،فلو قيل فى مثل هـذه الحاله:إنّ شـخصا قـد شـرب الخمره فسـلبنا منه عقله، فتورط نتيجه عمله فى ارتكاب جريمه،فهل فى هذا القول أى تناقض أو هل يستشف منه مفهوم الجبر؟ و خلاصه القول فإنّ كل أنواع الهدايه و الضلال و أمثالها التى تنسب فى القرآن الكريم إلى اللّه سبحانه،إنّما تحصل بشكل حتمى كنتيجه للمقدمات و الأعمال التى تصدر من الإنسان نفسه،و على أثرها يسـتحق إمّا الهدايه أو الضلال،و فى غير ذلک فإنّ العدل و الحكمه الإلهيين،لا يسمحان مطلقا أن يساق إنسان إلى طريق الهدايه دون أى مبرر،أو أن يساق آخر إلى طريق الضلال دون وجود سبب لذلک (۱) .

۱- ۱) -لقد وردت تفاصيل أخرى فى هذا المجال-أيضا-فى الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا.

الآيه [سوره المائده (۵): آيه ۱۴]

اشاره

وَ مِنَ اَلَّذِينَ قٰالُوا إِنّٰا نَصٰارىٰ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمّٰا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنٰا بَيْنَهُمُ اَلْعَدٰاوَةَ وَ اَلْبَغْضٰاءَ إِلىٰ يَوْمِ اَلْقِيٰامَةِ وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اَللّٰهُ بِمٰا كٰانُوا يَصْنَعُونَ (۱۴)

التّفسير

اشاره

العداء الأبدى:

لقد تناولت الآيه السابقه ظاهره نقض بنى إسرائيل للعهد الذى أخذه اللّه منهم،أمّا الآيه الأخيره-هذه-فهى تتحدث عن نقض العهد عند النصارى الذين نسوا قسما من أوامر اللّه التى كلّفوا بها-فتقول الآيه فى هذا المجال: وَ مِنَ الَّذِينَ قٰالُوا إِنّٰا نَصٰارىٰ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمّٰا ذُكِّرُوا بِهِ فهذه الآيه تدل بوضوح على أنّ النصارى-أيضا-كانوا قد عقدوا مع اللّه عهدا على أن لا ينحرفوا عن حقيقه التوحيد،و أن لا ينسوا أوامر و أحكام اللّه،و أن لا يكتموا علائم خاتم النّبيين صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،لكنّهم تورطوا بنفس ما تورط به اليهود مع فارق واحد، و هو أنّ القرآن الكريم يصرّح بالنسبه لليهود بأنّ القليل منهم كانوا من الصالحين، بينما يذكر القرآن بأنّ مجموعه من النصارى اختارت طريق الانحراف،حيث يفهم من هذه التعبير أنّ المنحرفين من اليهود كانوا أكثر من المنحرفين من

ص :۶۴۱

النصاری.

إنّ تاريخ تدوين الأناجيل المتداوله يدل علی أنّها كتبت بعد المسيح عليه السّلام بسنين طويله و بأيدی بعض المسيحيين،و هذا هو دليل وجود الكثير من التناقض الصريح فيها،و يدلنا هذا-أيضا-علی أنّ كتبه الأناجيل قد نسوا- بصوره تامّه-أجزاء غير قليله من الإنجيل الأصلی،و وجود خرافات فی الأناجيل المتداوله من قبيل قصه صنع المسيح عليه السّلام للخمره (۱) الأمر الذی يرفضه العقل و يتنافی حتی مع بعض آيات التوراه و الإنجيل المتداولين،و كذلك قصّه مريم المجدليه (۲) و غيرها من القصص،كلها دليل علی ذلك التناقض.

أمّا كلمه«نصاری»التی وردت فی الآيه فهی صيغه جمع نصرانی،فقد وردت تفاسير مختلفه حولها،و منها أن المسيح قد تربی فی صباه ببلده الناصره، و قيل-أيضا-أنّ هذه الكلمه هی نسبه إلی نصران،و هی قريه يوليها المسيحيون احتراما خاصا،و يحتمل-أيضا-أن يكون وجه التسميه ناشئا عن قول المسيح عليه السّلام كما تحكيه الآيه عنه إذ تقول: كَمَا قَالَ عِيسَی ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِی إِلَی اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللّهِ (۳) فسمّی المسيحيون لذلك بالنصاری.

و لما كان جمع من النصاری يقولون ما لا يفعلون، و يزعمون أنّهم من أنصار المسيح عليه السّلام يقول القرآن فی هذه الآيه: وَ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنّا نَصَارَی... و هم لم يكونوا صادقين فی دعواهم هذه،لذلك تستطرد الآيه الكريمه فتبيّن نتيجه هذا الادعاء الكاذب،و هو انتشار عداء أبدی فيما بينهم حتی يوم القيامه،كما تقول الآيه: فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ إِلَی يَوْمِ الْقِيَامَهِ .

۱- ۱) -إنجيل يوحنا،الإصحاح ۲،الآيات ۲-۱۲.

۲- ۲) -إنجيل لوقا،الإصحاح ۷،الآيات ۳۶-۴۷.

۳- ۳) -يوسف،۱۴.

كما ذكرت الآيه نوعا آخر من الجزاء و العقاب لهذه الطائفه النصرانيه،و هو أنّهم سوف يعلمون نتيجه أعمالهم و سيرونها بأعينهم حيث تقول الآيه: سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ .

و تجدر الإشاره هنا إلى عدّه أمور،هي:

١-إنّ عباره«أغرينا»مشتقه من المصدر«إغراء»و تعنى الصاق شيء بشيء آخر،كما تعنى الترغيب أو حمل الشخص على القيام بعمل معين،بحيث يدفع الشخص إلى الارتباط بأهداف معينه.

و على هذا الأساس يكون مفهوم الآيه-موضوع البحث-هو أن نقض النصارى لعهدهم و ارتكابهم المعاصى أديا إلى أن تنتشر العداوه فيما بينهم و يعمهم النفاق و الخلاف،(و المعلوم أن آثار الأسباب التكوينيه و الطبيعيه تنسب إلى اللّه)و ما نراه اليوم من صراعات كثيره بين الدول المسيحيه،كانت فى يوم ما سببا لاندلاع الحربين العالميتين،و هى كذلك سبب للتكتلات المقترنه بالعداله و البغضاء المستمره فيما بينهم،أضف إلى ذلك الخلافات المذهبيه الكثيره التى تسود بين الطوائف المسيحيه التى ما زالت سببا لاستمرار الصراع و الاقتتال فيما بينهم.

و قد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المراد من استمرار العداوه،هو العداوه و البغضاء الموجوده بين اليهود و النصارى و استمرارها حتى فناء العالم،و لكن الملاحظ من ظاهر الآيه هو استمرار العداوه بين المسيحيين أنفسهم (١) .

و غنى عن البيان أنّ مثل هذه العاقبه لا تقتصر على المسيحيين وحدهم،فلو أن المسلمين ساروا فى نفس هذا الطريق فإن مصيرهم سيكون مشابها لمصير المسيحيين أيضا.

٢-إنّ كلمه«العداوه»مشتقه من المصدر«عدو»و هى بمعنى التجاوز

١- ١) -و على هذا الأساس فإن الضمير فى كلمه«بينهم»تعود إلى كلمه«النصارى»المذكوره فى بدايه الآيه.

و الانتهاك،أمّا كلمه«البغضاء»المشتقه من المصدر«بغض»فهى تعنى النفور و الاستياء الشديد من شىء معين،و يحتمل أن يكون الفرق بين الكلمتين المذكورتين هو أنّ لكلمه«بغض»طابع وجدانى أكثر ممّا هو عملى،كما فى كلمه «العداوه»التى لها طابع عملى،و قد يكون لكلمه«بعض»أو«بغضاء»مفهوم أشمل يستوعب العملى منه و القلبى الوجدانى.

٣-يستدل من الآيه هذه على أنّ النصارى كطائفه دينيه(أو اليهود و النصارى معا)سيكون لهم وجود فى هذه الدنيا حتى يوم القيامه،و قد يقول معترض فى هذا المجال:أنّ الأخبار الإسلاميه تفيد بأن دينا واحدا سيعم العالم كله بعد ظهور المهدى(عج)و لن تكون هناك أديان أخرى غير هذا الدين الذى هو الإسلام الحنيف،فكيف إذن يمكن الجمع و التوفيق و رفع هذا التناقض الظاهر؟ و الجواب هو أنّه يحتمل أن يبقى من المسيحيه و اليهوديه حتى بعد ظهور المهدى(عج)شىء ضئيل على شكل أقليه ضعيفه جدا،لأن ما نعلمه هو بقاء حرّيه الإراده للبشر حتى فى عصر المهدى(عج)و إنّ الدين الإسلامى فى ذلك العصر لا يأخذ طابعا إجباريا،مع أن الأغلبيه العظمى من البشر ستتبع طريق الحق و تميل إليه،و الأهم من هذا كله فإن الحكم فى الأرض سيكون للإسلام وحده.

الآيتان [سوره المائده (۵): الآيات ۱۵ الی ۱۶]

اشاره

يٰا أَهْلَ اَلْكِتٰابِ قَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولُنٰا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمّٰا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ اَلْكِتٰابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جٰاءَكُمْ مِنَ اَللّٰهِ نُورٌ وَ كِتٰابٌ مُبِينٌ (۱۵) يَهْدِي بِهِ اَللّٰهُ مَنِ اِتَّبَعَ رِضْوٰانَهُ سُبُلَ اَلسَّلاٰمِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ اَلظُّلُمٰاتِ إِلَى اَلنُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۶)

التّفسير

بعد أنّ تحدثت الآيات السابقه عن نقض اليهود و النصارى لميثاقهم،جاءت الآيه الأخيره لتخاطب أهل الكتاب بصوره عامّه و تدعوهم إلى الإسلام الذى طهر الديانتين اليهوديه و المسيحيه من الخرافات التى لصقت بهما،و الذى يهديهم إلى الصراط السّوى المستقيم،و الذى ليس فيه أى انحراف أو اعوجاج.

و تبيّن الآيه-فى البدايه-أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المبعوث إليهم جاء ليظهر الكثير من الحقائق الخاصّه بالكتب السماويه التى أخفوها هم(أهل الكتاب)و كتموها عن الناس،و إن هذا الرّسول يتغاضى عن كثير من تلك الحقائق التى انتفت الحاجه إليها و زال تأثيرها بزوال العصور التى نزلت لها،فتقول الآيه فى هذا المجال: يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ قَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولُنٰا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمّٰا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ

الْكِتابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ...

.

و تدلّ هذه الجمله القرآنيه على أنّ أهل الكتاب كانوا قد أخفوا و كتموا الكثير من الحقائق،لكن نبيّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد أظهر من تلك الحقائق ما يفى منها بحاجه البشريه فى عصر الإسلام،مثل بيان حقيقه التوحيد و طهاره الأنبياء و تنزههّم عمّا نسب إليهم فى التوراه و الإنجيل المزورين،كما بيّن تحريم الربا، و الخمره و أمثالهما،بينما بقيت حقائق تخص الأمم السابقه و الأزمنه الغابره ممّا لا أثر لذكرها فى تربيه الأجيال الإسلاميه،فلم يتمّ التطرق إليها.

و تشير الآيه الكريمه-أيضا-إلى أهميه و عظمه القرآن المجيد و آثاره العميقه فى هدايه و إرشاد و تربيه البشريه،فتقول: قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ النور الذى يهدى به اللّه كل من يبتغى كسب مرضاته إلى سبل السلام، كما تقول الآيه الأخرى: يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ... و ينقذهم من أنواع الظلمات(كظلمه الشرك و ظلمه الجهل و ظلمه التفرقه و النفاق و غيرها...)و يهديهم إلى نور التوحيد و العلم و الاتحاد،حيث تقول الآيه:

وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ...

.

و إضافه إلى ذلك كلّه يرشدهم إلى الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج و لا انحراف فى جانبيه العقائدى و العملى أبدا،كما تقول الآيه: وَ يَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ .

لقد اختلف المفسّرون فى المعنى المراد من كلمه«النّور»الوارده فى الآيه، فذهب البعض منهم إلى أنّها تعنى شخص النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و قال مفسّرون آخرون:إنّ المعنى بالنور هو القرآن المجيد.

و حين نلاحظ آيات قرآنيه عديده تشبه القرآن بالنور،يتبيّن لنا أنّ كلمه «النور»الوارده فى الآيه-موضوع البحث-إنّما تعنى القرآن،و على هذا الأساس فإنّ عطف عباره«كتاب مبين»على كلمه(النور)يعتبر من قبيل عطف التوضيح،

كما نقرأ فى الآيه(۵۷)من سوره الأعراف: فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ و فى الآيه(۸)من سوره التغابن نقرأ ما يلى: فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنٰا... و آيات عديده أخرى تشير إلى نفس المعنى،بينما لا نجد فى القرآن آيه أطلقت فيها كلمه النور على شخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و إضافه إلى ما ذكر فإنّ الضمير المفرد الوارد فى عباره«به»الوارده فى الآيه الثانيه من الآيتين الأخيرتين،يؤكّد هذا الموضوع أيضا،و هو أن النور و الكتاب المبين هما إشارتان لحقيقه واحده.

و مع إنّنا نجد روايات عديده تفسّر كلمه«النّور»على أنّها إشاره إلى الإمام على بن أبى طالب أمير المؤمنين عليه السّلام أو الأئمّه الإثنى عشر عليهم السّلام جميعهم،لكن الواضح هو أنّ هذا التّفسير يعتبر من باب بيان بواطن الآيات،لأنّنا كما نعلم أنّ للآيات القرآنيه-بالإضافه إلى معانيها الظاهريه-معان باطنيه يعبّر عنها ب«بواطن القرآن»أو«بطون القرآن»،و دليل قولنا هذا أنّ الأئمّه عليهم السّلام لم يكن لهم وجود فى زمن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكى يدعو القرآن أهل الكتاب للإيمان بهم.

أمّا الأمر الثّانى الوارد فى الآيه الثانيه من الآيتين الأخيرتين،فهو أنّ القرآن يبشر أولئك الذين يسعون لكسب مرضاه اللّه بأنّهم سيحظون فى ظل القرآن بنعم عظيمه ثلاثه هى:

أوّلا:الهدايه إلى سبل السلامه التى تشمل سلامه الفرد و المجتمع،و الروح و الجسد و العائله،و السلامه الأخلاقيه،و كل هذه الأمور تدخل فى الجانب العملى من العقيده.

و ثانيا:نعمه النجاه من ظلمات الكفر و الإلحاد.

و ثالثا:الهدايه إلى النور،و فى هذا دلاله على الطابع العقائدى،و يتمّ كل ذلك من خلال أقصر و أقرب الطرق و هو الذى أشارت إليه الآيه ب اَلصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ .

ص :۶۴۷

و بـديهى أن هـذه النعم لاـ يحظى بهـا إلاّـ من أسـلم وجهه للّه،و خضع للحق بـالعبوديه و الطـاعه،و كان مصـداقا للعباره القرآنيه القائله: مَنِ اتَّبَعَ رِضْوٰانَهُ بينما لا يحضـى المنافقون و المعانـدون و أعـداء الحق بأىّ فائده مطلقا،كما تشـير إلى ذلك آيات قرآنيه عديده.

و بـديهى-أيضا-أنّ كل هذه النتائج و الآثار،إنّما تحصل بمشـيئه اللّه و إرادته وحده دون سواه،كما تشـير عباره«بإذنه»الوارده فى الآيه الأخيره.

الآيه [سوره المائده (۵): آیه ۱۷]

اشاره

لَقَدْ كَفَرَ اَلَّذِينَ قٰالُوا إِنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْمَسِيحُ اِبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اَللّٰهِ شَيْئاً إِنْ أَرٰادَ أَنْ يُهْلِكَ اَلْمَسِيحَ اِبْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي اَلْأَرْضِ جَمِيعاً وَ لِلّٰهِ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۷)

التّفسير

اشاره

كيف يمكن للمسيح أن يكون هو اللّه؟!

جاءت هذه الآيه الكريمه لتكمل بحثا تطرقت إليه آيات سابقه،فحملت بعنف على دعوى ربوبيه المسيح عليه السّلام،و بيّنت أنّ هذه الدعوى ما هي إلاّ الكفر الصريح،حيث قالت: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قٰالُوا إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ... .

و لكي يتّضح لنا مفهوم هذه الجمله،يجب أن نعرف أنّ للمسيحيين عدّه دعاوى باطله بالنسبه إلى اللّه سبحانه و تعالى.

فهم أوّلا:يعتقدون بالآلهه الثلاث(أي الثالوث) و قد أشارت الآيه(۱۷۱)من سوره النساء إلى هذا الأمر حيث قالت: لاٰ تَقُولُوا ثَلاٰثَهٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللّٰهُ

إِلهٌ واحِدٌ...

(۱)

.

و ثانیا:إنّهم یقولون:إنّ خالق الکون و الوجود هو واحد من هؤلاء الآلهه الثلاث و یسمونه بالإله الأب (۲) و القرآن الکریم یبطل هذا الإعتقاد-أیضا-فی الآیه(۷۳)من سوره المائده حیث یقول: لَقَدْ کَفَرَ الَّذِینَ قالُوا إِنَّ اللّهَ ثالِثُ ثَلاثَهٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلاّ إِلهٌ واحِدٌ... و سیأتی بإذن اللّه تفسیر هذه الآیه قریبا فی نفس هذا الجزء.

و ثالثا:إنّ المسیحیین یقولون:إنّ الآلهه الثلاث مع تعددهم الحقیقی هم واحد،حیث یعبرون عن ذلک أحیانا ب«الوحده فی التثلیث»،و هذا الأمر أشارت إلیه الآیه الأخیره حیث قالت حکایه عن دعوی المسیحیین: إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِیحُ ابْنُ مَرْیَمَ... و قالوا:إنّ المسیح ابن مریم هو اللّه!و إن هذین الإثنین یشکلان مع روح القدس حقیقه واحده فی ذوات ثلاثه متعدده! و قد ورد کل جانب من جوانب عقیده التثلیث،الذی یعتبر من أکبر انحرافات المسیحیین فی واحده من الآیات القرآنیه،و نفی نفیا شدیدا(راجع تفسیر الآیه ۱۷۱-من سوره النساء من تفسیرنا هذا و فیه التوضیح اللازم فی بیان بطلان عقیده التثلیث).

و یتبیّن-ممّا سلف-أنّ بعض المفسّرین مثل«الفخر الرازی»قد توهّموا فی قولهم بعدم وجود أحد من النصاری ممن یصرح باعتقاده فی اتحاد المسیح باللّه، و ذلک لعدم إلمام هؤلاء المفسّرین بالکتب المسیحیه،مع أنّ المصادر المسیحیه المتداوله تصرح بقضیه«الوحده فی التثلیث»و من المحتمل أن مثل هذه الکتب لم تکن متداوله فی زمن الرازی،أو أنّها لم تصل إلیه و إلی أمثاله الذین شارکوه

۱- ۱) -لقد مضی تفسیر هذه الآیه فی بدایه هذا الجزء من تفسیرنا.

۲- ۲) -نقرأ فی المصادر المسیحیه أنّ«الإله الأب»هو خالق جمیع الکائنات(قاموس الکتاب المقدس،الصفحه ۳۴۵) کما نقرأ أنّ الرّب هو الموجود بنفسه،و إن هذا هو اسم خالق جمیع المخلوقات و حاکم کلّ الکائنات،و إنّه هو الروح اللامتناهیه الأزلیه الأبدیه...(قاموس الکتاب المقدس،ص ۳۴۴).

فى هذا الرأى.

بعد ذلك و لكى تبطل الآيه الكريمه عقيده ألوهيه المسيح عليه السّلام تقول: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرٰادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ... و هذه إشاره إلى أنّ المسيح عليه السّلام إنّما هو بشر كأمه و كسائر أفراد البشر،و على هذا الأساس فهو يعتبر-لكونه مخلوقا-فى مصاف المخلوقات الأخرى يشاركها فى الفناء و العدم،و من حاله كهذا كيف يمكنه أن يكون إلها أزليا أبديا؟! و بتعبير آخر:لو كان المسيح عليه السّلام إلها لاستحال على خالق الكون أن يهلكه، و تكون نتيجه ذلك أن تتحدد قدره هذا الخالق،و من كانت قدرته محدوده لا يمكن أن يكون إلها،لأنّ قدره اللّه كذاته لا تحدّها حدود مطلقا(تدبّر جيدا).

إنّ ذكر عباره«المسيح بن مريم»بصوره متكرره فى الآيه،قد يكون إشاره إلى هذه الحقيقه،و هى اعتراف المسيحيين ببنوّه المسيح عليه السّلام لمريم،أى أنّه ولد من أم و أنّه كان جنينا فى بطن أمّه قبل أن يولد،و حين ولد طفلا احتاج إلى النموّ ليصبح كبيرا،فهل يمكن أن يستقر الإله فى محيط صغير كرحم الأمّ،و يتعرض لجميع تحولات الوجود و الولاده و يحتاج للأمّ حين كان جنيا و حين الرضاعه؟! و الجدير بالانتباه أنّ الآيه الأخيره تذكر بالإضافه إلى اسم المسيح عليه السّلام اسم أمّه و تذكرها بكلمه«أمه»و بهذه الصوره تميز الآيه أمّ المسيح عليه السّلام عن سائر أفراد البشر،و يحتمل أن يكون هذا التعبير بسبب أنّ المسيحيين أثناء ممارستهم للعباده،يعبدون أمّ المسيح أيضا،و الكنائس الموجوده اليوم تشتمل على تماثيل لأم المسيح،حيث يقف المسيحيون أمامها تعظيما و تعبدا.

و إلى هذا الأمر تشير الآيه(١١۶)من سوره المائده فتقول: وَ إِذْ قٰالَ اللّٰهُ يٰا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ... و هذا الخطاب حكايه عمّا يحصل من حوار فى يوم القيامه.

و فى الختام ترد الآيه الكريمه على أقوال أولئك الذين اعتبروا ولاده المسيح

من غير أب دليلا على ألوهيته فتقول: وَ لِلّهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ وَ اللّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

فـاللّه قادر على أن يخلق إنسانا من غير أب و من غير أم كما خلق آدم عليه السّـلام، و هو قادر أيضا على أن يخلق إنسانا من غير أب كما خلق عيسى المسيح عليه السّـلام، و قدره اللّه هذه كقدرته فى خلق البشر من آبائهم و أمّهاتهم،و هذا التنوع فى الخلق دليل على قدرته،و ليس دليلا على أى شىء آخر سوى هذه القدره.

ص :۶۵۲

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۱۸]

اشاره

وَ قٰالَتِ اَلْیَهُودُ وَ اَلنَّصٰاریٰ نَحْنُ أَبْنٰاءُ اَللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ قُلْ فَلِمَ یُعَذِّبُکُمْ بِذُنُوبِکُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ یَغْفِرُ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ یُعَذِّبُ مَنْ یَشٰاءُ وَ لِلّٰهِ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا وَ إِلَیْهِ اَلْمَصِیرُ (۱۸)

التّفسیر

استکمالا للبحوث السابقه التی تناولت بعض انحرافات الیهود و النصاری، تشیر الآیه الأخیره إلی أحد الدعاوی الباطله التی تمسک بها هؤلاء،فتقول:

وَ قٰالَتِ الْیَهُودُ وَ النَّصٰاریٰ نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ

.

و لم یکن هذا الامتیاز الوهمی الذی ادعاه الیهود و النصاری لأنفسهم هو الوحید من نوعه،إذ أن القرآن الکریم قد أشار فی آیات عدیده إلی أمثال هذه الادعاء.

ففی الآیه(۱۱۱)من سوره البقره،أشار القرآن إلی ادعائهم الذی زعموا فیه أن أحدا غیرهم لا یدخل الجنّه،و زعموا أن الجنّه هی حکر علی الیهود و النصاری،و قد فند القرآن هذه الادعاء.

کما جاء الآیه(۸۰)من سوره البقره ادعاء آخر للیهود،و هو زعمهم أن نار

جهنم لن تمسهم إلا فی أیّام معدوده،و قد وبخهم القرآن علی زعمهم هذا.

و فی الآیه الأخیره یشیر القرآن الکرم إلی ادعائهم البنوه للّه،و زعمهم أنّهم أحباء للّه،و لا شک أن هؤلاء لم یعرّفوا أنفسهم کأبناء حقیقیین للّه،بل إنّ المسیحیین وحدهم یدّعون أن المسیح هو الابن الحقیقی للّه،و قد صرحوا بهذا الأمر (۱) و أنّهم حین اختاروا لأنفسهم صفه البنوه للّه و أدعوا بأنّهم اللّه إنما لیظهروا بأن لهم علاقه خاصّه باللّه سبحانه،و کأنّهم أرادوا کل من ینتمی إلیهم انتماء قومیا أو عقائدیا یصبح من أبناء اللّه و أحبائه حتی لو لم یقم بأی عمل صالح. (۲)

و واضح لدینا أنّ القرآن الکریم حارب کل هذه الامتیازات و الدعاوی الوهمیه،فهو لا یری للإنسان امتیازا إلّا بالإیمان و العمل الصالح و التقوی،و لذلک تقول الآیه الأخیره فی تفنید و إبطال الادعاء الأخیر: قُلْ فَلِمَ یُعَذِّبُکُمْ بِذُنُوبِکُمْ فهؤلاء-بحسب اعترافهم أنفسهم-یشملهم العذاب الإلهی حیث قالوا بأن العذاب یمسّهم لأیّام معدوده،فکیف یتلاءم ذلک الادعاء و هذا الاعتراف؟و کیف یمکن أن یشمل عذاب اللّه أبناءه و أحباءه؟!و من هنا یثبت أن لا أساس و لا صحه لهذا الادعاء،و قد شهد تاریخ هؤلاء علی أنّهم حتی فی هذه الدنیا ابتلوا بسلسله من العقوبات الإلهیه،و یعتبر هذا دلیلا آخر علی زیف و بطلان دعواهم تلک.

و لکی تؤکد الآیه الکریمه زیف و بطلان الدعوی المذکوره استطردت تقول:

بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ...

و القانون الإلهی عام،فإن اللّه یَغْفِرُ لِمَنْ یَشاءُ وَ یُعَذِّبُ مَنْ یَشاءُ... .

و بالإضافه إلی ذلک فإنّ کل البشر هم من خلق اللّه،و هم عباده و أرقاؤه، و علی هذا الأساس لیس من المنطق إطلاق اسم«ابن اللّه»علی أی منهم،حیث

۱- ۱) -تقول المصادر المسیحیه بأنّ عباره«ابن اللّه»هی فقط من ألقاب منقذ المسیحیین وفادیهم،و إنّ هذا اللقب لا یطلق علی أحد غیره إلّا إذا دلت القرینه علی أنّ المراد لیس البنوه الحقیقه للّه(قاموس الکتاب المقدس،ص ۳۴۵).

۲- ۲) -ظهرت فی الآونه الأخیره لدینا مجموعه تبشر للمسیحیه و تسمّی نفسها جماعه«ابن اللّه».

تقول الآیه: وَ لِلّٰهِ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا... .

و فی النهایه تعود المخلوقات کلها إلی اللّه،حیث تؤکد الآیه هنا بقولها:

وَ إِلَیْهِ الْمَصِیرُ

.

و قد یسأل البعض:أین و متی ادعی الیهود و النصاری أنّهم أبناء اللّه حتی لو کان معنی البنوه فی هذه الآیه هو معنی مجازی و غیر حقیقی).

الجواب هو أنّ الأناجیل المتداوله قد ذکرت هذه العباره،و یلاحظ ذلک فیها بصوره متکرره،من ذلک ما جاء فی إنجیل یوحنا فی الإصحاح ۸-الآیه ۴۱ و ما بعدها،حیث نقرأ علی لسان عیسی فی خطابه للیهود قوله:«إنّکم تمارسون أعمال أبیکم،فقال له الیهود:نحن لم نولد من الزنا و إن أبانا واحد و هو اللّه!فقال لهم عیسی:لو کان أبوکم هو اللّه لکنتم احببتمونی...».

و قد ورد فی الروایات الإسلامیه-أیضا-فی حدیث عن ابن عباس مضمونه أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دعا جمعا من الیهود إلی دین الإسلام و حذّرهم من عذاب اللّه،فقال له الیهود:کیف تخوفنا من عذاب اللّه و نحن أبناؤه و أحباؤه (۱) ! و ورد فی تفسیر مجمع البیان،فی تفسیر الآیه موضوع البحث،حدیث علی غرار الحدیث المذکور أعلاه،مضمونه أنّ جمعا من الیهود حین هددهم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعذاب اللّه قالوا:لا تهددنا فنحن أبناء اللّه و أحباؤه،و هو إن غضب علینا یکون غضبه کغضب الإنسان علی ولده،و هو غضب سریع الزوال.

۱- ۱) -تفسیر الرازی،ج ۱۱،ص ۱۹۲.

الآیه [سوره المائده (۵): آیه ۱۹]

اشاره

یٰا أَهْلَ اَلْکِتٰابِ قَدْ جٰاءَکُمْ رَسُولُنٰا یُبَیِّنُ لَکُمْ عَلیٰ فَتْرَهٍ مِنَ اَلرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مٰا جٰاءَنٰا مِنْ بَشِیرٍ وَ لاٰ نَذِیرٍ فَقَدْ جٰاءَکُمْ بَشِیرٌ وَ نَذِیرٌ وَ اَللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۹)

التّفسیر

اشاره

تکرر هذه الآیه الخطاب إلی أهل الکتاب من الیهود و النصاری،فتبیّن لهم أنّ النّبی المرسل إلیهم مرسل من عند اللّه،أرسله فی عصر ظلت البشریه قبله فتره دون أن یکون لها نبیّ،فبیّن لهم هذا النّبی الحقائق،لکی لا یقولوا بعد هذا إنّ اللّه لم یرسل إلیهم من یهدیهم إلی الصراط السوی و یبشرهم بلطف اللّه و رحمته و یحذرهم من الانحراف و الاعوجاج،و ینذرهم بعذاب اللّه،حیث تقول الآیه: یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ قَدْ جٰاءَکُمْ رَسُولُنٰا یُبَیِّنُ لَکُمْ عَلیٰ فَتْرَهٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مٰا جٰاءَنٰا مِنْ بَشِیرٍ وَ لاٰ نَذِیرٍ... .

نعم،فالبشیر و النذیر هو نبیّ الإسلام محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الذی یبشر المؤمنین الذین یعملون الصالحات برحمه اللّه و ثوابه،و ینذر الذین کفروا و العاصین بعذاب اللّه و عقابه،و قد جاء لیبشر و لینذر أهل الکتاب و البشریه جمعاء،حیث تؤکّد الآیه هذا بقوله تعالی: فَقَدْ جٰاءَکُمْ بَشِیرٌ وَ نَذِیرٌ .

أمّا كلمه«فتره»الوارده فى الآيه فهى تعنى فى الأصل الهدوء و السكينه كما تطلق على الفاصله الزمنيه بين حركتين أو جهدين أو نهضتين أو ثورتين.

و قد شهدت الفاصله الزمنيه بين موسى عليه السّلام و عيسى عليه السّلام عددا من الأنبياء و الرسل،بينما لم يكن الأمر كذلك فى الفاصله الزمنيه بين عيسى عليه السّلام و النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و لذلك أطلق القرآن الكريم على هذه الفاصله الأخيره اصطلاح فَتْرَهٍ مِنَ الرُّسُلِ و المعروف أن هذه الفتره دامت ستمائه عام تقريبا (۱) .

أمّا ما جاء فى القرآن-فى سوره يس الآيه ۱۴-و ما ذكره المفسّرون، فيدلان على أنّ ثلاثه من الرسل-على الأقل-قد بعثوا فى الفاصله الزمنيه بين النّبى عيسى عليه السّلام و نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و قد ذكر البعض أنّ أربعه من الرسل بعثوا فى تلك المده،و على أى حال لا بدّ أن تكون هناك فتره خلت من الرسل بين وفاه أولئك الرسل و النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و لذلك عبّر القرآن عن تلك الفتره الخاليه من الرسل بقوله: عَلىٰ فَتْرَهٍ مِنَ الرُّسُلِ .

سؤال:

و قد يعترض البعض بأنّه كيف يمكن القول بوجود مثل تلك الفتره مع أنّ الإعتقاد السائد لدينا يقضى بأن المجتمع البشرى لا يمكن أن يخلو و لو للحظه من رسول أو إمام معين من قبل اللّه سبحانه و تعالى؟

الجواب:

إنّ القرآن الكريم حين يقول: عَلىٰ فَتْرَهٍ مِنَ الرُّسُلِ إنّما ينفى وجود الرسل فى تلك المدّه، و لا يتنافى هذا الأمر مع القول بوجود أوصياء للرسل فى ذلك الوقت.

۱- ۱) -و يرى البعض أنّ هذه الفتره تبلغ أكثر من ستمائه عام،و آخرون يرون أنّها أقل من هذه المدّه و استنادا على قول البعض فإنّ الفاصله الزمنيه بين ولاده المسيح عليه السّلام و هجره نبى الإسلام محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وفق التاريخ الميلادى تبلغ ۶۲۱ عاما و ۹۵ يوما(تفسير ابن الفتوح الرازى،ج ۴،هامش الصفحه ۱۵۴).

و بعباره أخری،فإنّ الرسل هم أشخاص کانوا یمارسون الدعوه علی نطاق واسع،و کانوا یبشرون و ینذرون الناس،و یثیرون الحرکه و النشاط فی المجتمعات،و یوقظونها من سباتها بهدف إیصال ندائهم الی الجمیع،بینما لم یکن جمیع أوصیاء الرسل لیحملوا مثل تلک المهمّه،بل یحتمل-أیضا-إنهم لظروف و عوامل اجتماعیه خاصّه،کانوا یعیشون بین الناس أحیانا متخفین متنکرین.

و

یقول أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام فی إحدی خطبه الوارده فی کتاب «نهج البلاغه»فی هذا المجال ما یلی:«اللّهم بلی،لا تخلو الأرض من قائم للّه بحجه إمّا ظاهرا مشهورا أو خائفا مغمورا لئلا تبطل حجج اللّه و بیناته،یحفظ اللّه بهم حججه و بیّناته حتی یودعوها نظراءهم و یزرعوها فی قلوب أشباههم» (۱) .

و واضح أن المجتمع البشری لو خلی من الرسل الثوریین و الدعاه العالمین، لعمت هذه المجتمع الخرافات و الوساوس الشیطانیه و الانحرافات و الجهل بالتعالیم الإلهیه،و تکون مثل هذه الحاله خیر حجه بأیدی أولئک الذین یریدون الفرار و التخلی عن المسؤولیات،لذلک فإن اللّه یبطل هذه الحجه عن طریق الرجال الرسالیین المرتبطین به و الموجودین دائما بین أبناء البشر.

و فی الختام تؤکد الآیه علی شمولیه قدره اللّه عزّ و جلّ فتقول: وَ اللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ و هذا بیان بأنّ إرسال الأنبیاء و الرسل و تعیین أوصیائهم أمر یسیر بالنسبه لقدره اللّه العزیز المطلقه.

۱- ۱) -نهج البلاغه،الکلمات القصار،الکلمه ۱۴۷.

الآیات [سوره المائده (۵): الآیات ۲۰ الی ۲۶]

اشاره

وَ إِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ يٰا قَوْمِ اُذْكُرُوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيٰاءَ وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَ آتٰاكُمْ مٰا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ
اَلْعٰالَمِينَ (۲۰) يٰا قَوْمِ اُدْخُلُوا اَلْأَرْضَ اَلْمُقَدَّسَةَ اَلَّتِي كَتَبَ اَللّٰهُ لَكُمْ وَ لاٰ تَرْتَدُّوا عَلىٰ أَدْبٰارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خٰاسِرِينَ (۲۱) قٰالُوا يٰا مُوسىٰ
إِنَّ فِيهٰا قَوْماً جَبّٰارِينَ وَ إِنّٰا لَنْ نَدْخُلَهٰا حَتّٰى يَخْرُجُوا مِنْهٰا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهٰا فَإِنّٰا دٰاخِلُونَ (۲۲) قٰالَ رَجُلاٰنِ مِنَ اَلَّذِينَ يَخٰافُونَ أَنْعَمَ
اَللّٰهُ عَلَيْهِمَا اُدْخُلُوا عَلَيْهِمُ اَلْبٰابَ فَإِذٰا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غٰالِبُونَ وَ عَلَى اَللّٰهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۲۳) قٰالُوا يٰا مُوسىٰ إِنّٰا لَنْ نَدْخُلَهٰا
أَبَداً مٰا دٰامُوا فِيهٰا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقٰاتِلاٰ إِنّٰا هٰاهُنٰا قٰاعِدُونَ (۲۴) قٰالَ رَبِّ إِنِّي لاٰ أَمْلِكُ إِلاّٰ نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَ
اَلْقَوْمِ اَلْفٰاسِقِينَ (۲۵) قٰالَ فَإِنَّهٰا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي اَلْأَرْضِ فَلاٰ تَأْسَ عَلَى اَلْقَوْمِ اَلْفٰاسِقِينَ (۲۶)

ص: ۶۵۹

التّفسير

اشاره

بنو إسرائيل و الأرض المقدسه:

جاءت هـذه الآيات لتثير لـدى اليهود دافع التوجه إلى الحق و السـعى لمعرفته أوّلا،و إيقاظ ضـمائرهم حيال الأخطاء و الآثام التى ارتكبوهـا ثانيـا،و لكى تحفزهم إلى السـعى لتلافـى اخطـائهم و التعويض عنهـا،و يـذكرهم القرآن فى الآـيه الأولى بما قاله النّبى موسى عليه السّلام لأصحابه حيث تقول: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ... .

و لاـ يخفى أنّ عباره(نعمه اللّه)تشـمل جميع الأنعم الإلهيه،لكن الآيه اسـتطردت فبيّنت ثلاثا من أهم هـذه النعم،أوّلها نعمه ظهور أنبيـاء و قـاده كثيرين بين اليهود،و التى تعتبر أكبر نعمه وهبهـا اللّه لهم،فتقول الآـيه: إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ... و قـد نقل أنّ فى زمن موسـى بـن عمران وحـده كـان يوجـد بيـن اليهـود سـبعون نبيّـا، و إنّ السـبعين رجلاـ الـذين ذهبـوا مع موسـى عليه السّـلام إلى جبل«الطور»كانوا كلهم بمنزله الأنبياء.

و فى ظـل هـذه النعمه(نعمه وجود الأنبيـاء)نجى اليهود من هـاويه الشـرك و الوثنيه و عبـاده العجـل و تخلصوا من مختلف أنواع الخرافات و الأوهام و القبائح و الخبائث،لذلك أصبحت هذه النعمه أكبر النعم المعنويه التى أنعم اللّه بها على بنى إسرائيل.

بعـد هـذا تشـير الآـيه إلى أكبر نعمه مـاديه وهبهـا اللّه لليهود فتقول: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً... و تعتبر هـذه النعمه-أيضـا-مقـدمه للنعم المعنويه،فقـد عـانى بنو إسـرائيل لسـنين طويله من ذل العبوديه فى ظـل الحكم الفرعونى،فلم يكونوا ليمتلكوا فى تلك الفتره أى نوع من حريه الإراده،بل كانوا يعاملون معامله البهائم المكبله فى القيود،و قد أنقذهم اللّه من كل تلك القيود ببركه النّبى موسـى بن عمران عليه السّلام و ملكهم مصائرهم و مقدراتهم.

و قد ظن البعض أنّ المراد من كلمه«الملوك»الوارده فى الآيه هم المملوك و السلاطين الذين ظهروا من سلاله بنى إسرائيل،فى حين أنّ المعروف هو أنّ بنى إسرائيل لم يحكموا إلاّ فتره قصيره،فلم يحظ منهم إلاّ القليل بمنزله الملوكيه، بينما الآيه-موضوع البحث-تقول: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً و هذه إشاره إلى تمتع جميع بنى إسرائيل بهذه المنزله،و يتبيّن من هذا أنّ المراد بكلمه«ملوك»الوارده فى الآيه أن بنى إسرائيل قد تملكوا مصائرهم و مقدارتهم بعد أن كانوا مكبلين بقيود العبوديه فى ظل الحكم الفرعونى.

إضافه إلى ذلك فإنّ كلمه«ملك»فى اللغه لها معان عديده منها«السلطان» و منها«المالك لزمان الأمور»و منها-أيضا-المالك لرقبه شيء معين (١) .

و

نقل فى تفسير«الدر المنثور»عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حديثا جاء فيه: «كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم و دابه و امرأه كتب ملكا...».

و تشير هذه الآيه فى اخرها إلى أنّ اللّه قد وهب بنى إسرائيل فى ذلك الزمان نعما لم ينعم بها على أحد من أفراد البشر فى ذلك الحين فتقول: وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ و كانت هذه النعم و الوافره كثيره الأنواع،فمنها نجاه بنى إسرائيل من مخالب الفراعنه الطغاه،و انفلاق البحر لهم،و نزول غذاء خاص عليهم مثل«المن و السلوى»،و قد أوردنا تفاصيل ذلك فى الجزء الأوّل من كتابنا هذا،لدى تفسير الآيه(٥٧)من سوره البقره.

و الآيه التاليه تبيّن واقعه دخول بنى إسرائيل إلى الأرض المقدسه نقلا عن لسان نبيّهم موسى عليه السّلام فتقول: يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِی كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَ لا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ .

و قد اختلف المفسّرون حول المراد بعباره(الأرض المقدسه)الوارده فى الآيه،

١- ١) -نقرأ فى كتب أن الملك هو«من كان له الملك،و الملك هو ما يملكه الإنسان و يتصرف به-أو-العظمه و السلطه».

و حول موقعها الجغرافى من العالم.

فيرى البعض أنّها أرض«بيت المقدس»حيث القدس الشريف،و آخرون يرون أنّها«أرض الشام»و فئه ثالثه ترى أنّها«الأردن و فلسطين»و جماعه أخرى تقول أنّها أرض«الطور».

و لكن لا يستبعد أن يكون المراد من العباره المذكوره كل أرض الشام التى تشمل جميع الاحتمالات الوارده،لأنّ هذه الأرض-كما يشهد التاريخ-تعتبر مهدا للأنبياء،و مهبطا للوحى، و محلا لظهور الأديان السماويه الكبرى،كما أنّها كانت لفترت طوال من التاريخ مركزا للتوحيد و عباده اللّه الواحد الأحد،و نشر تعاليم الأنبياء...لهذه الأسباب كلها سمّيت ب«الأرض المقدسه»مع أنّ هذا الاسم يطلق عن منطقه«بيت المقدس»بصوره خاصّه أحيانا(و قد بينا هذا الأمر فى الجزء الأوّل من كتابنا هذا).

و يستدل من جمله كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ... إنّ اللّه قد قرر أن يعيش بنو إسرائيل فى الأرض المقدسه بالرغد و الرخاء و الرفاه(شريطه أن يحموا هذا الأرض من دنس الشرك و الوثنيه)و أن لا ينحرفوا(عن تعاليم الأنبياء)إن لم يلتزموا بهذا الأمر سيحيط بهم من قبل اللّه عذاب أليم شديد.

و على هذا الأساس لا يوجد أىّ تناقض بين فشل جيل من بنى إسرائيل الذين خوطبوا بهذه الآيه فى دخول الأرض المقدسه،و ابتلائهم بالتيه و الضياع لمده أربعين عاما فى الصحارى و القفار،حتى نجح الجيل التالى من بعدهم بدخول تلك الأرض،لا يوجد أىّ تناقض بين ما ذكر و بين جمله كتب الله عليكم...لأنّ هذا التقدير الإلهى و القرار الربانى إنّما قيد بشروط لم ينفذها ذلك الجيل الأوّل من بنى إسرائيل،و توضح هذا الأمر الآيات التاليه.

و قد واجه بنو إسرائيل دعوه موسى عليه السّلام للدخول إلى الأرض المقدسه مواجهه الضعفاء الجبناء الجهلاء،الذين يتمنون أن تتحقق لهم الانتصارات فى

ظل الصدف و المعاجز دون أن يبادروا بأنفسهم إلى بذل جهد فى هذا المجال، و ردّ هؤلاء على طلب موسى عليه السّلام بقولهم كما تنقله الآيه: قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبّارِينَ (۱) وَ إِنّا لَنْ نَدْخُلَها حَتّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنّا داخِلُونَ .

و يـدل جواب بنى إسـرائيل هـذا على الأـثر المشؤوم الـذى خلفه الحكم الفرعونى على نفوس هؤلاء فإنّ فى كلمه«لن»التى تفيد التأييد دلاله على الخوف و الرعب العميقين اللذين اسـتوليا على هذه الطائفه ممّا أرغمهم على الامتناع عن الدخول فى أى صراع من أجل تحرير الأرض المقدسه و تطهيرها.

و كان على بنى إسـرائيل أن يحرروا تلك الأرض بكفاحهم و تضحياتهم،أمّا لو أنّ الأعداء تركوا الأرض المقدسه أو أبيدوا فيها بمعجزه على خلاـف السـنه الإـلهيه الطبيعيه،فـإن بنى إسـرائيل بـدخولهم إليها–فى مثل هـذه الحاله دون أى عناء أو مشـقه–كانوا سيواجهون العجز فى إداره تلك الأرض الواسـعه الغنيه،و لم يكونوا ليبدوا أىّ اهتمام بالحفاظ على شـىء حصلوا عليه دون جهد أو معاناه، فلا يظهر لديهم و الحاله هذه أى استعداد أو كفاءه لعمل ذلك.

أمّا المراد من عباره قَوْماً جَبّارِينَ فهم كما تـدل عليه التواريـخ قوم «العمالقه» (۲) الذين كانوا يمتلكون أجساما ضـخمه،و كانت لهم أطوال خارقه، بحيث ذهب الكثير إلى المبالغه فى طول أجسام هؤلاء و صنعوا الأساطير

۱- ۱) -يجب الانتباه إلى أنّ كلمه«جبار»مأخوذه أو مشـتقه من الأصل(جبر)أى إصـلاح الشـىء بالقسر و الإرغام، و لذلك سمّى إصـلاح العظم المكسور(تجبيرا)فهذه الكلمه تطلق من جهه على كل نوع من التجبير و الإصلاح،و من جهه أخرى تطلق على كل أنواع التسـلط القسـرى،و حين تطلق كلمه(جبار)على اللّه سـبحانه و تعالى فذلك إمّا لتسـلطه على كل شـىء،أو لأنّه هو المصـلح لكل موجود محتاج إلى الإصلاح.

۲- ۲) -العمالقه قوم من العنصـر السامى يعيشون فى شـمال شـبه جزيره العرب بالقرب من صـحراء سـيناء،و قد هاجموا معصـر و استولوا عليها لفترات طويله و دامت حكومتهم حوالى ۵۰۰ عام منذ عام ۲۲۱۳ قبل الميلاد حتى عام ۱۷۰۳ قبل الميلاد. عن دائره المعارف لفريد وجدى،ج ۶۰،ص ۲۳۲(الطبعه الثّالثه).

الخرافيه من ذلک،و کتبوا فیهم مواضیع تثیر السخریه لا یسندها أیّ دلیل علمی، و بالأخص فیما کتبوه عن المدعو ب«عوج»فی التواریخ المصطنعه المشوبه بالخرافات و الأساطیر.

و یبدو أن مثل هذه الخرافات التی تسربت حتی إلی بعض الکتب الإسلامیه، و إنّما هی من صنع بنی إسرائیل، و التی تسمّی عاده ب«الإسرائیلیات»و الدلیل علی هذا القول هو ما ورد نصا فی التوراه المتداوله من أساطیر خرافیه تشبه أساطیر العمالقه،نقرأ فی سفر الأعداد فی أواخر الفصل الثّالث عشر«إن الأرض التی ذهب بنو إسرائیل إلیها لاستقصاء أخبارها هی أرض تبید ساکنیها و إن جمیع من فها هم أناس طوال و فیهم العمالقه من أبناء«عناق»بشکل کان بنو إسرائیل الذین ذهبوا للتجسس هناک أشبه بالجراد قیاسا بأحجام العمالقه الموجودین فی تلک الأرض!».

بعد هذا الحدیث یشیر القرآن الکریم إلی رجلین أنعم اللّه علیهما بالإیمان و التقوی و الورع و شملهما بنعمه الکبیره،فجمعا صفات الشجاعه و الشهامه و المقاومه مع الدرک الاجتماعی و العسکری ممّا دفعهما إلی الدفاع عن اقتراح النّبی موسی علیه السّلام فواجها بنی إسرائیل بقولهما:ادخلوا علیهم من باب المدینه، و حین تدخلون علیهم سیواجهون الإمر الواقع فتکونون أنتم المنتصرون،تقول الآیه الکریمه فی هذا المجال: قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِینَ یَخافُونَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَیْهِمَا ادْخُلُوا عَلَیْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّکُمْ غالِبُونَ .

و تؤکد الآیه-بعد ذلک علی ضروره الاعتماد علی اللّه فی کل خطوه من الخطوات،و الاستمداد من روح الإیمان بقوله تعالی: وَ عَلَی اللّٰهِ فَتَوَکَّلُوا إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ .

و ما ذکره أغلب المفسّرین حول هویه هذین الرجلین هو أنّهما«یوشع بن نون»و«کالب بن یوحنا»و هما من النقباء الإثنی عشر فی بنی إسرائیل،کما ورد

سابقا (۱) .

مع كل الاحتمالات العديده الوارده فی تفسير جمله مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ إلاّ أنّ الواضح من ظاهر هذه الجمله،هو أنّ الرجلين المذكورين فی الآيه هما من جماعه تخاف اللّه و تخشاه وحده دون غيره،و يؤيد هذا التّفسير ما جاء فی جمله أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا... فأی نعمه أكبر و أرفع من أن يخاف الإنسان من اللّه وحده و لا يخشى أحدا سواه.

و قد يسأل سائل فی هذا المجال عن مصدر علم هذين الرجلين،و كيف أنّهما علما أن بنی إسرائيل ستكون لهم الغلبه إن هم دخلوا المدينه-أو الأرض المقدسه-فی هجوم مباغت؟ و جوابه:لعل علم هذين الرجلين بتلك الغلبه كان نابعا من ثقتهما بأقوال النّبی موسى عليه السّلام أو أنّهما اعتمدا على قاعده كليه فی الحروب،مفادها أن الجماعه المهاجمه إن استطاعت الوصول إلى مقر و مركز العدو-أی تمكنت من محاربه العدو فی داره-فإنها ستنتصر عليه (۲) عاده.

و المستهدفون فی تلك الحرب هم قوم المعالقه،و هم بسبب ما كانوا عليه من طول خارق،كان أسهل عليهم أن يحاربوا فی بر أو فضاء مفتوح بدل الحرب فی مدينه،فيها-بحسب العاده-الأزقه و الطرق الملتويه(بغضّ النظر عن الجوانب الأسطوريه التی تتحدث عن الطول الخارق لهؤلاء العمالقه)،أضف إلى ذلك كله أنّ العمالقه-كما نقل-كانوا على رغم قاماتهم الطويله أناسا جبناء رعاديد، يرهبهم كل هجوم مباغت،و كل هذه الأسباب أصبحت دليلا قويا لدى الرجلين المذكورين ليقولا بحتميه انتصار بنی إسرائيل.

۱- ۱) -الباب الأوّل من سفر التثنيه فی التوراه المتداوليه،فيه إشاره إلى أنّ اسمی هذين الرجلين هما«يوشع» و«كاليب».

۲- ۲) -و قد أشار الإمام علی بن أبی طالب فی إحدى خطبه الوارده فی كتاب نهج البلاغه التی هذه الحقيقه بقوله عليه السّلام: (فو اللّه ما غزی قوم فی عقر دارهم إلا ذلوا)(الخطبه ۲۷).

و الـذى حصل حقيقه هو أنّ بنى إسـرائيل لـم يقتنعوا بأى من الاقتراحات المـذكوره،فهم بسـبب الضـعف و الجبن المتأصـلين فى نفوسـهم خـاطبوا موسـى عليه السّـلام و أخبروه صـراحه بـأنّهم لن يـدخلوا تلـك الأرض ما دام العمالقه موجودين فيها، و طالبوا موسـى أن يـذهب هو و ربه لمحـاربه العمـالقه و سـألوه أن يخبرهم عن انتصاره حيث هم قاعـدون،و فى هـذا المجال تقول الآيه الكريمه: قالُوا يا مُوسى إِنّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنّا هاهُنا قاعِدُونَ .

و تبيّن هـذه الآيه مـدى الوقاحه التى وصل إليها بنو إسـرائيل فى مخاطبه نبيّهم موسـى عليه السّـلام،فهم بقولهم«لن»و«أبدا»أكدوا رفضـهم القاطع للدخول إلى الأرض المقدسه،كما أنّهم اسـتخفوا بموسـى عليه السّـلام و دعوته و استهزءوا بهما،بقولهم: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنّا هاهُنا قاعِدُونَ... كمـا أنّهم-أيضـا-لم يعيروا التفاتا لاقتراح الرجلين المؤمنين المـذكورين فى الآيه،و لم يبدوا حيال ذلك أى جواب.

و الطريف فى الأمر أن التوراه المتداوله قد أوردت أجزاء مهمّه من هذه القصه،فى الباب الرابع عشـر من سـفر الأعداد،حيث جاء فيهـا أن جميع بنى إسـرائيل لاموا موسـى و هارون أخاه و قالوا جميعا:ليتنا متنا جميعا فى أرض مصـر أو فى الفلاه،فلما ذا جاء بنا الرّب إلى هـذه الأرض لكى نقتـل بحدّ السـيف، و تسبى عيالنـا و أطفالنـا بعـدنا...فحار موسـى و أخـاه هـارون أمام القوم،ما ذا يفعلان؟أمّا يوشع بن نون و كاليب بن يفنه،اللـذان كانا من مجموعه الرجال الـذين ذهبوا للتجسـس على تلك الأرض فقـد شـقا جيبهما...

ثمّ نقرأ فى الآيه التاليه أنّ موسـى أصابه اليأس و القنوط من القوم،و رفع يديه للدعاء مناجيا ربّه قائلا:إنّه لا يملك حريه التصرف إلاّ على نفسه و أخيه،و طلب من اللّه أن يفصل بينهما و بين القوم الفاسـقين العصاه،لكى يلقى هؤلاء جزاء أعمالهم و يبادروا إلى إصلاح أنفسهم،حيث تقول الآيه الكريمه فى هذا المجال:

قالَ رَبِّ إِنِّى لا أَمْلِكُ إِلاّ نَفْسِى وَ أَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ

.

و بـديهى إنّ رفض بنى إسـرائيل القـاطع لأـمر نبيهم كـان بمثـابه الكفر،و مـا اسـتخدام القرآن لعبـاره«الفـاسق»بحق هؤلاء إلا لأن كلمه«الفسق»لها معان واسـعه،و تشمل كل خروج و انحراف عن سنه العبوديه للّه،و لذلك نقرأ فى القرآن الكريم-حين التحدث عن انحراف الشيطان-قول اللّه تعالى: فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ... (۱) .

و تجـدر هنـا الإشـاره إلى أنّ جمله: مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ... الوارده فى الآيات السابقه تـدل على وجود قله من اليهود كانت تخشـى اللّه،و منهم الرجلان المذكوران فى إحدى الآيات الأخيره و هما«يوشع»و«كاليب»بينما نلاحظ أن موسـى عليه السّلام لا يذكر هنا غير نفسه و أخيه،و لا يذكر و لو حتى بالتلميح أحدا من تلك القلّه،و قد يكون السـبب هو أن هارون لكونه الوصى لأخيه موسى عليه السّلام و لكونه أبرز شخصيه فى بنى إسرائيل من بعد موسى عليه السّلام...لذلك ذكر اسمه دون غيره.

و كـانت نتيجه صـلف و عنـاد بنى إسـرائيل أنّهم لاقوا عقابهم،إذ اسـتجاب اللّه دعاء نبيه موسـى عليه السّـلام،فحرم عليهم دخول الأرض المقـدسه،المليئه بالخيرات مدّه أربعين عاما،و فى هذا المجال تقول الآيه القرآنيه الكريمه: قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً... .

و زادهـم عـذابا إذ كتب عليهم الـتيه و الضـياع فى الـبرارى و القفـار طيله تلـك الفـتره،حيث تقـول الآـيه فى ذلـك: يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ... و قد سـميت الصـحراء التى تاه فيها بنو إسـرائيل باسم«التيه»أيضا،و كانت جزءا من صـحراء سـيناء،كما ذكرنا فى الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا.

بعد ذلك تذكر الآيه أنّ ما نال بنى إسـرائيل من عذاب فى تلك المده،كان مناسـبا لما فعلوه،و تطلب من موسـى عليه السّلام أن لا يحزن على المصير الذى لا قوه حيث تقول الآيه الكريمه: فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ .

ص :۶۶۷

۱- ۱) -الكهف،۵۰.

و ربما كان سبب ورود الجمله الأخيره،هو أنّ موسى عليه السّلام قد ثارت عاطفته بعد أن علم بالعذاب الذى كتبه اللّه على بنى إسرائيل،فطلب من اللّه العفو لقومه- كما ورد فى التوراه المتداوله-فأجابه برد سريع أوضح له أن بنى إسرائيل يستحقون ذلك العذاب،و هم لا يستحقون العفو الإلهى لأنّهم أناس فاسقون و عصاه،متكبرون،و من كان هذا شأنه سيلاقى-حتما-مثل هذا المصير.

و يجب الانتباه إلى أنّ حرمان بنى إسرائيل من الدخول إلى الأرض المقدسه، لم يكن له طابع للانتقام(كما أن جميع العقوبات الإلهيه ليس فيها طابع انتقامى، بل هى إما أن تكون لأجل تقويم شخصيه الفرد،أو تكون نتيجه لأخطائه و معاصيه.

و قد اشتمل هذا الحرمان على فلسفه خاصّه،حيث تحرر بنو إسرائيل بعد معاناه طويله قاسوها فى ظل الكبت و القمع الفرعونى اللذين خلفا فيهم عقد الإحساس باحتقار النفس و الذل و الضعه و النقص،لذلك فهم لم يبدوا استعدادا لتطهير أنفسهم و أرواحهم فى تلك الفتره بعد التحرر و فى ظل قياده و زعامه نبيّهم موسى عليه السّلام كما لم يكونوا مستعدين لتلك القفزه المعنويه التى كان من شأنها أن تهىء لهم حياه جديده مقرونه بالفخر و العز و السؤدد،و جوابهم لموسى عليه السّلام-الذى اشتمل على رفضهم الدخول إلى ميدان الجهاد التحررى فى الأرض المقدسه- خير دليل على هذه الحقيقه.

لذلك كان من الضرورى أن يعانى بنو إسرائيل من التيه و الضياع فى الصحراء،ليزول الجيل الضعيف العاجز منهم بشكل تدريجى و ليحل محله جيل جديد فى محيط الصحراء،محيط الحريه و فى أحضان التعاليم الإلهيه،و قد صقلت نفوسهم حياه الصحراء القاسيه الضاريه،و وهبت لأرواحهم و أنفسهم القوه و القدره،و أعدتهم لخوض غمار ذلك الجهاد ليقيموا حكومه الحق فى تلك الأرض المقدسه!

ص :۶۶۸

الآیات [سوره المائده (۵): الآیات ۲۷ الی ۲۹]

اشاره

وَ اُتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ اِبْنَیْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبٰا قُرْبٰاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمٰا وَ لَمْ یُتَقَبَّلْ مِنَ اَلْآخَرِ قٰالَ لَأَقْتُلَنَّکَ قٰالَ إِنَّمٰا یَتَقَبَّلُ اَللّٰهُ مِنَ اَلْمُتَّقِینَ (۲۷) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَیَّ یَدَکَ لِتَقْتُلَنِی مٰا أَنَا بِبٰاسِطٍ یَدِیَ إِلَیْکَ لِأَقْتُلَکَ إِنِّی أَخٰافُ اَللّٰهَ رَبَّ اَلْعٰالَمِینَ (۲۸) إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ فَتَکُونَ مِنْ أَصْحٰابِ اَلنّٰارِ وَ ذٰلِکَ جَزٰاءُ اَلظّٰالِمِینَ (۲۹)

التّفسیر

اشاره

أوّل حادثه قتل علی الأرض:

لقد تناولت هذه الآیات الثلاث الأخیره قصّه ولدی آدم علیه السّلام و کیف قتل أحدهما أخاه الآخر،و لعل وجه الصله بین هذه الآیات و الآیات التی سبقتها فی شأن بنی إسرائیل، هو غریزه«الحسد»التی کانت دائما أساسا للکثیر من مخالفات و انتهاکات بنی إسرائیل حیث یحذرهم اللّه فی هذه الآیات من مغبه و عاقبه الحسد الوخیمه القاتله،التی تؤدی أحیانا إلی أن یعمد أخ إلی قتل أخیه! و الآیه تقول فی هذا المجال لنبیّ اللّه أن یتلو علی قومه قصّه ولدی آدم: وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ ابْنَیْ آدَمَ بِالْحَقِّ... .

ص: ۶۶۹

و لعل استخدام کلمه«بالحق»فی هذه الآیه جاء للإشاره إلی أن القصّه المذکوره قد أضیفت لها خرافات مختلفه،و لبیان أنّ القرآن الکریم جاء بالقصه الحقیقیه التی حصلت بین ولدی آدم علیه السّلام.

و لا شک أنّ کلمه«آدم»الوارده فی الآیه،تشیر إلی أبی البشریه الحاضره، و إنّ ما ذهب إلیه البعض مع أنّها إشاره إلی شخص من بنی إسرائیل اسمه«آدم»لا أساس له من الواقع،لأنّ هذه الکلمه استخدمت مرارا فی القرآن للدلاله علی اسم أبی البشریه،فلو صحّ الافتراض الأخیر لوجب أن تشتمل الآیه-أو الآیات- التی بعدها علی قرینه تصرف الاسم عن مسماه الحقیقی الأوّل،و لا یمکن لآیه مِنْ أَجْلِ ذٰلِکَ... التی سیأتی تفسیرها قریبا،أن تکون قرینه علی الافتراض المذکور کما سیأتی تفصیله.

و تواصل الآیه سرد القصّه فتقول: إِذْ قَرَّبٰا قُرْبٰاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمٰا وَ لَمْ یُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ... .

و قد أدت هذه الواقعه إلی أن یهدد الأخ-الذی لم یتقبل اللّه القربان منه- أخاه بالقتل و یقسم أنّه قاتله لا محاله،کما جاء فی قوله تعالی فی الآیه: قٰالَ لَأَقْتُلَنَّکَ أما الأخ الآخر فقد نصح أخاه مشیرا إلی أن عدم قبول القربان منه إنّما نتج عن علّه فی عمله،و أنّه لیس لأخیه أی ذنب فی رفض القربان، مؤکدا أنّ اللّه یقبل أعمال المتقین فقط حیث تقول الآیه: قٰالَ إِنَّمٰا یَتَقَبَّلُ اللّٰهُ مِنَ الْمُتَّقِینَ .

و أکد له أنّه لو نفذ تهدیده و عمد إلی قتله،فإنه-أی الأخ الذی تقبل اللّه منه القربان-لن یمد یده لقتل أخیه،فهو یخاف اللّه و یخشاه،و لن یرتکب أو یلوث یده بمثل هذا الإثم حیث تقول الآیه: لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَیَّ یَدَکَ لِتَقْتُلَنِی مٰا أَنَا بِبٰاسِطٍ یَدِیَ إِلَیْکَ لِأَقْتُلَکَ إِنِّی أَخٰافُ اللّٰهَ رَبَّ الْعٰالَمِینَ .

و أضاف هذا الأخ الصالح-مخاطبا أخاه الذی أراد أن یقتله-أنّه لا یرید أن

یتحمل آثام الآخرین،قائلا له: إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ (۱) بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ (أی لأنّک إن نفذت تهدیدک فستتحمل ذنوبی السابقه أیضا،لأنّک سلبت منی حق الحیاه و علیک التعویض عن ذلک،و لما کنت لا تمتلک عملا صالحا لتعوض به،فما علیک إلاّ أن تتحمل إثمی أیضا،و بدیهی أنک لو قبلت هذه المسؤولیه الخطیره فستکون حتما من أهل النار،لأنّ النار هی جزاء الظالمین)کما تقول الآیه:

فَتَکُونَ مِنْ أَصْحٰابِ النّٰارِ وَ ذٰلِکَ جَزٰاءُ الظّٰالِمِینَ

.

نقاط مهمّه یجب الانتباه لها:

۱-إن القرآن الکریم لم یذکر فی هذه الآیه-و لا فی آیات أخری-أی اسم لأبناء آدم علیه السّلام: لکن الروایات الإسلامیه تدل علی أن ولدی آدم المذکورین فی هذه الآیه کان اسم أحدهما«هابیل»و الآخر«قابیل»و قد ورد فی سفر التکوین من التوراه فی الباب الرابع أنّ ولدی آدم المذکورین اسمهما«قائن»و«هابیل».

و قد ذکر المفسّر المعروف«أبو الفتوح الرازی»أن هذین الاسمین قد وردا بألفاظ مختلفه،فالاسم الأوّل جاء فیه«هابیل»و«هابل»و«هابن»،«أما الاسم الثّانی فجاء فیه«قابیل»و«قایین»و«قابل»و«قابن»أو«قبن»،و علی أی صوره کان الاسم فإنّ الاختلاف بین الروایات الإسلامیه و نص التوراه بخصوص اسم «قابیل»نابع عن الاختلاف اللغوی،و لا یشکل أمرا مهما فی هذا المجال.

و الغریب فی الأمر أنّ أحد الکتاب المسیحیین قد أورد الاختلاف المذکور دلیلا اعترض به علی القرآن،فقال:إنّ القرآن أورد لفظه«قابیل»بدل«قائن»! و الجواب هو أنّ مثل هذا الاختلاف اللغوی أمر شائع و بالأخص فی مجال الأسماء-فمثلا کلمه«إبراهیم»الوارده فی القرآن قد وردت فی التوراه علی شکل«أبراهام»،کما أنّ القرآن الکریم لم یأت مطلقا باسم«هابیل»و«قابیل»

۱- ۱) -إن کلمه«تبوء»مشتقه من المصدر«بواء»أی«العوده».

و قد ورد هذان الاسمان فی الروايات الإسلاميه فقط (۱) .

۲-إنّ المعروف عن«القربان»هو أنّه كل شیء يحصل به التقرب إلی اللّه،لكن القرآن الكريم لم يذكر شيئا عن ماهيه القربان الذی قدمه ولدا آدم،بينما نقلت الروايات الإسلاميه-و التوراه فی سفر التكوين،الباب الرابع-أن«هابيل»كان يمتلك ماشيه فاختار أفضل أغنامه و منتوجاتها للقربان المذكور،و أن«قابيل» الذی كان صاحب زرع،قد اختار لقربانه أردأ الأنواع من زرعه.

۳-لم يرد فی القرآن أی توضيح عن الأسلوب الذی عرف به ابنا آدم قبول قربان أحدهما و رفض قربان الآخر عند اللّه- و الذی ورد فی هذا المجال هو ما نقلته بعض الروايات الإسلاميه من أنّ هذين الشخصين كانا قد وضعا قربانهما علی قمه جبل،فنزلت صاعقه فأحرقت قربان هابيل دلاله علی قبوله،و بقی قربان قابيل علی حاله لم يمسه شیء،و كانت لهذه العلامه سابقه معروفه أيضا.

لكن بعض المفسّرين يعتقدون أنّ قبول و رفض القربانين إنّما أعلنا عن طريق الوحی لآدم عليه السّلام،و ما كان سبب ذلك غير أنّ هابيل كان إنسانا ذا سريره نقيه يحبّ التضحيه و العفو فی سبيل اللّه فتقبل اللّه لذلك قربانه،بينما كان قابيل رجلا ملوث القلب حسودا معاندا فرفض اللّه قربانه،و الآيات التاليه توضح حقيقه ما جبلت عليه نفسا هذين الأخوين من خير و شر.

۴-يستنتج من هذه الآيات-بصوره جليه-أنّ مصدر أولی النزاعات و الجرائم فی العالم الإنسانی هو«الحسد»و يدلنا هذا الموضوع علی خطوره هذه الرذيله الأخلاقيه و أثرها العجيب فی الأحداث الاجتماعيه.

---

۱ - ۱) -و قد كتب العلاّمه الفقيد الشّيخ«محمّد جواد البلاغی»رساله فی هذا المجال سماها ب«الأكاذيب الأعاجيب» جمع فيها أكاذيب من نمط الكذبه التی جاء ذكرها أعلاه.

الآيتان [سوره المائده (۵): الآيات ۳۰ الی ۳۱]

اشاره

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ اَلْخاسِرِينَ (۳۰) فَبَعَثَ اَللّهُ غُراباً يَبْحَثُ فِی اَلْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِی سَوْأَهَ أَخِيهِ قالَ يا وَيْلَتى أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا اَلْغُرابِ فَأُوارِیَ سَوْأَهَ أَخِی فَأَصْبَحَ مِنَ اَلنّادِمِينَ (۳۱)

التّفسير

اشاره

التّستر على الجريمه:

تواصـل هاتان الآيتان بقيه الواقعه التی حصـلت بين ابنی آدم عليه السّـلام،فتبيّن الآيه الأولى منهما أن نفسـی قابيل هی التی دفعته إلى قتل أخيه فقتله،حيث تقول:

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ

.

و نظرا لأنّ كلمه«طوع»تأتی فی الأصل من«الطاعه»لـذلک يسـتدل من هذه العباره على أن قلب«قابيل»بعد أن تقبل اللّه قربان أخيه هابيـل أخـذت تعصف به الأحاسـيس و المشـاعر المتنـاقضه،فمن جانب اسـتعرت فيه نار الحسـد و كانت تـدفعه إلى الانتقام من أخيه«هابيل»و من جانب آخر كانت عواطفه الإنسانيه و شـعوره الفطری يقبـح الـذنب و الظلم و الجور و قتل النفس،يحولان دون قيامه بارتكاب الجريمه،لكن نفسه الأماره بالسوء تغلبت رويدا رويدا على مشاعره

ص: ۶۷۳

الرادعه فطوعت ضـميره الحی و کبلته بقیودهـا و أعـدته لتقـل أخیه،و تـدل عبـاره «طوعت»مع قصـرها علی جمیع المعـانی الـتی ذکرناها لأنّ عملیه التطویع کما نعلم لا تتمّ فی لحظه واحده،بل تحصل بشکل تدریجی و عبر صراعات مختلفه.

و تشـیر الآیه-فی آخرها-إلی نتیجه عمل«قابیل»فتقول فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِینَ فأین ضـرر أکبر من أن یشتری الإنسان لنفسه عـذابا سیلازمه إلی یوم القیامه،و یشمل عذاب الضمیر و عقاب اللّه و العار و الأبدی.

و قـد حـاول البعض الاسـتدلال من کلمه«أصـبح»علی أن جریمه القتـل قـد وقعت لیلا،فی حین أنّ کلمه«أصـبح»من حیث معناها اللغوی لا تنحصر فی زمن معین لیلا مکان أم نهارا،بل تـدل علی حدوث شـیء ما،کما جاء فی الآیه (۱۰۳)من سوره آل عمران فی قوله تعالی: ...فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً... .

و تفیـد بعض الروایـات المنقوله عن الإمـام الصّـادق علیه السّـلام أن قابیل حین قتل أخاه ترک جثته فی العراء حائرا لا یـدری ما یفعل بها،فلم یمض وقت حتی حملت الوحوش المفترسه علی جثه«هابیل»فاضـطر«قابیل»(ربّما نتیجه لضـغط وجـدانی شدیـد)إلی حمـل جثه أخیه مـده من الزمن لإنقاذهـا من فتک الوحوش،لکن الطیور الجارحه أحاطت به و هی تنتظر أن یضـعها علی الأرض للهجوم علیها ثانیه و فی تلک الأثناء بعث اللّه غرابا(کما تصـرّح الآیه)فأخـذ یحفر الأرض و یزیح التراب لیدفن جسد غراب میت آخر،أو لیخفی جزءا من طعـامه- کما هی عاده الغربان-و لیـدل بـذلک«قابیل» کیف یـدفن جثه أخیه،حیث تقول الآیه الکریمه، فَبَعَثَ اللّهُ غُراباً یَبْحَثُ فِی الْأَرْضِ لِیُرِیَهُ کَیْفَ یُوارِی سَوْأَهَ أَخِیهِ (۱) .

ص: ۶۷۴

۱- ۱) -جـاء فی مجمع البیـان أنّ کلمه«یبحث»معناها فی الأصل هو البحث عن شـیء فی التراب ثمّ اسـتعملت فی مختلف أنواع البحوث،أمّـا کلمه«سـوأه»فهی تعنی کـل شـیء یسـتاء الإنسـان من رؤیته،و لـذلک تطلـق أحیانـا علی جسـد المیت،و علی عوره الإنسان،و یجب الانتباه هنا إلی أنّ الفاعل فی جمله«لیریه»قد یکون هو اللّه،أی أنّ اللّه

و لاـ غرابـه فی أن یتعلـم إنسـان شـیئا من طیر من الطیـور،فالتاریـخ و التجربه یـدلان علی أنّ للکـثیر من الحیوانـات مجمـوعه من المعلومـات الغریزیه تعلمها منها البشـر علی طول التاریـخ،مکملا بـذلک معلوماته و معارفه،و حتی بعض الکتب الطبیّه تـذکر أنّ الإنسـان مـدین فی جزء من معلومـاته الطیبه للحیوانات! ثمّ تشـیر الآیه الکریمه إلی أنّ قابیل اسـتاء من غفلته و جهله،فأخـذ یؤنب نفسه کیف أصبح أضعف من الغراب فلا یستطیع دفن أخیه مثله،فتقول الآیه:

قٰالَ یٰا وَیْلَتیٰ أَ عَجَزْتُ أَنْ أَکُونَ مِثْلَ هٰذَا الْغُرٰابِ فَأُوٰارِیَ سَوْأَهَ أَخِی...

.

و کانت العاقبه أن ندم قابیل علی فعلته الشنیعه کما تقول الآیه: فَأَصْبَحَ مِنَ النّٰادِمِینَ .

فهـل کـان نـدمه علی جریمته،خوفـا من افتضاح أمره أمام أبویه؟أو ربّما أخوته الآخرین الّذین کانوا سـیلومونه علی فعلته؟أم أنّ ندمه کان إشـفاقا علی نفسه،لأنه حمل جسد أخیه القتیل لفتره دون أن یعلم ما ذا یفعل به أو کیف یدفنه؟ أم کان سبب الندم هو ما یشـعر به الإنسان-عاده-من قلق و استیاء بعـد ارتکاب کل عمل قبیح؟ مهما کانت أسـباب الندم و دوافعه لدی«قابیل»فذلک لا یعنی أنّه تاب من فعلته و جریمته التی ارتکبها،فالتوبه معناها أن لا یعاود الإنسان المذنب تکرار الذنب،خوف من اللّه و اسـتقباحا للذنب،و لم یشر القرآن الکریم إلی صدور مثل هذه التوبه عن«قابیل»،و قد تکون الآیه التالیه إشاره إلی عدم صدور التوبه عنه.

ورد فی حـدیث عن النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم قوله: «لاـ تقتـل نفس ظلما إلاّ کان علی ابن آدم الأوّل کفل من دمها لأنّه کان أوّل من سن القتل» (۱) .

۱)

أراد أن یری«قابیل»کیف یدفن أخاه،و ذلک احتراما ل«هابیل»و یحتمل أن یکون الغراب هو الفاعل فی الجمله المذکوره.

۱- ۱) -مسند أحمد بن حنبل کما جاء فی تفسیر«فی ضلال القرآن»،ج ۲،ص ۷۰۳،فی تفسیر الآیه.

و يستدل من هذا الحديث أيضا على أنّ من سنّ سنّه سيئه،سيبقى يتحمل وزرها ما دامت باقيه فى الدنيا.

ممّا لا ريب فيه أنّ قصّه ولدى آدم عليه السّلام قصّه حقيقيه،يثبتها ظاهر الآيات القرآنيه الأخيره و الروايات الإسلاميه،كما أنّ عباره«بالحق»الوارده فى هذه القصّه القرآنيه تعتبر شاهدا على هذا الأمر،و على هذا الأساس فإنّ الأقوال التى افترضت لهذه القصّه طابعا رمزيا من قبيل التشبيه أو الكنايه أو القصّه المفترضه لا أساس لها مطلقا.

و لا مانع من أن تكون هذه القصّه الحقيقيه مثالا من الصراع الدائم الذى يطغى على المجتمعات البشريه،حيث يقف فى أحد جانبيه أناس جبلوا على الطهاره و الصفاء و الإيمان و العمل الصالح المقبول عند اللّه،و فى الجانب الآخر يقف أفراد تدنسوا بالانحراف و جبلوا على الحقد و الحسد و الضغينه و البغضاء و العمل الشرير.

و كم هو العدد الكبير من أولئك الإبرار الأخيار الذين ذاقوا حلاوه الشهاده على أيدى هؤلاء الأشرار الذين سيدركون-فى النهايه-فظاعه الأعمال الآثمه التى ارتكبوها،و سيسعون إلى إخفائها و التستر عليها،فتظهر لهم فى مثل هذه اللحظات آمالهم السوداء الشبيهه بالغراب-المذكور فى الآيه القرآنيه الأخيره-فتحثّهم و تدفعهم إلى إخفاء جرائمهم،لكنّهم سوف لا يجنون فى النهايه غير الخيبه و الخسران.

الآيه [سوره المائده (۵): آیه ۳۲]

اشاره

مِنْ أَجْلِ ذٰلِکَ کَتَبْنٰا عَلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَیْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِی اَلْأَرْضِ فَکَأَنَّمٰا قَتَلَ اَلنّٰاسَ جَمِیعاً وَ مَنْ أَحْیٰاهٰا فَکَأَنَّمٰا أَحْیَا اَلنّٰاسَ جَمِیعاً وَ لَقَدْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُنٰا بِالْبَیِّنٰاتِ ثُمَّ إِنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِکَ فِی اَلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (۳۲)

التّفسیر

اشاره

وحده الإنسانیه و کرامتها:

إنّ هذه الآیه تقوم باستخلاص نتیجه إنسانیه کلیه بعد الآیات التی تطرقت إلی قصّه ولدی آدم علیه السّلام.

ففی البدایه تشیر الآیه إلی حقیقه اجتماعیه تربویه مهمّه،و هی أن قتل أیّ إنسان،إن لم یکن قصاصا لقتل إنسان آخر،أو لم یکن بسبب جریمه الإفساد فی الأرض،فهو بمثابه قتل الجنس البشری بأجمعه،کما أنّ إنقاذ أیّ إنسان من الموت،یعد بمثابه إنقاذ الإنسانیه کلّها من الفناء،حیث تقول الآیه الکریمه: مِنْ أَجْلِ (۱) ذٰلِکَ کَتَبْنٰا عَلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَیْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِی الْأَرْضِ فَکَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِیعاً وَ مَنْ أَحْیٰاهٰا فَکَأَنَّمٰا أَحْیَا النّٰاسَ جَمِیعاً .

---

۱ – ۱) -إن کلمه«أجل»التی هی علی وزن«نخل»تعنی فی الأصل الجریمه،و قد شاع استعمالها فیما بعد فی کل عمل له عاقبه سیئه،ثم استعملت لکل عمل ذی عاقبه،و هی الآیه تستخدم للتعلیل أو بیان عله الشیء.

و یرد هنا سؤال و هو:کیف یکون قتل إنسان واحد مساویا لقتل الناس جمیعا،و کیف یکون إنقاذ إنسان من الموت بمثابه إنقاذ الإنسانیه جمعاء من الفناء؟ و لقد وردت أجوبه عدیده من قبل المفسّرین علی هذا السّؤال...جاء فی تفسیر«التبیان»سته أجوبه علیه،و فی«مجمع البیان»خمسه أجوبه،و فی«کنز العرفان»أربعه أجوبه،و لکن بعضا من هذه الأجوبه یبتعد کثیرا عن معنی هذه الآیه.

و کما قلنا فی بدایه تفسیر هذه الآیه،فإنّها تتحدث عن حقیقه اجتماعیه تربویه،لأنّه:أوّلا:إن من یقتل إنسانا بریئا و یلطخ یده بدم بریء یکون-فی الحقیقه-مستعدا لقتل أناس آخرین یساوونه فی الإنسانیه و البراءه،فهو-فی الحقیقه-إنسان قاتل،و ضحیته إنسان آخر بریء،و معلوم أنّه لا فرق بین الأبریاء من الناس من هذه الزاویه.

کما أنّ أی إنسان یقوم-بدافع حب النوع الإنسانی-بإنقاذ إنسان آخر من الموت،یکون مستعدا للقیام بعملیه الإنقاذ الإنسانیه هذه بشأن أیّ إنسان آخر، فهذا الإنسان المنقذ یحبّ إنقاذ الناس الأبریاء،لذلک لا فرق لدیه بین إنسان بریء و آخر مثله.

و نظرا لکلمه«فکأنّما»التی یستخدمها القرآن فی هذا المجال،فإننا نستدل بأن موت و حیاه إنسان واحد،مع أنّه لا یساوی موت و حیاه المجتمع،إلاّ أنّه یکون شبیها بذلک.

و ثانیا:إنّ المجتمع یشکل فی الحقیقه کیانا واحدا،و أعضاؤه أشبه بأعضاء الجسد الواحد،و أنّ أی ضرر یصیب أحد أعضائه یکون أثره واضحا-بصوره أو بأخری-فی سائر الأعضاء،و لأنّ المجتمع البشری یتشکل من الأفراد،لذلک

فإن فقدان أی فرد منهم یعتبر خساره للجمیع الإنسانی الکبیر،لأنّ هذا الفقدان یترک أثرا بمقدار ما کان لصاحبه من أثر فی المجتمع،لذلک یشمل الضرر جمیع أفراد المجتمع.

و من جانب آخر فإن إحیاء فرد من أفراد المجتمع،یکون-لنفس السبب الذی ذکرناه-بمثابه إحیاء و إنقاذ جمیع أفراد المجتمع،لأنّ لکل إنسان أثر بمقدار وجوده فی بناء المجتمع الإنسانی و فی مجال رفع احتیاجاته،فیکون هذا الأثر قلیلا بالنسبه للبعض و کثیرا بالنسبه للبعض الآخر.

و حین نقرأ فی الروایات أنّ جزاء و عقاب قاتل النفس المحرمه،یکون کجزاء قاتل جمیع أفراد البشر،إنّما ذلک إشاره لهذا المعنی الذی ذکرناه،و لا یعنی أنّ الناس متساوون مع بعضهم فی کل الجهات،و لذلک نقرأ فی تفسیر هذه الروایات-أیضا-أن عقاب القاتل یتناسب مع عدد الأفراد الذین قتلهم تناسبا طریدا قله و زیاده.

و تبیّن هذه الآیه بجلاء أهمیه حیاه و موت الإنسان فی نظر القرآن الکریم، و تتجلی عظمه هذه الآیه أکثر حین نعلم أنّها نزلت فی محیط لم یکن یعیر أی أهمیه لدماء أفراد الإنسانیه.

و تلفت الانتباه فی هذا المجال روایات عدیده ذکرت أنّ هذه الآیه مع أنّها تتحدث-أو یشیر ظاهرها-إلی الحیاه و الموت المادیین،إلاّ أنّ الأهمّ من ذلک هو الموت و الحیاه المعنویین،أی إضلال الفرد أو إنقاذ من الضلال،

و قد سأل شخص الإمام الصّادق علیه السّلام عن تفسیر هذه الآیه فأجابه علیه السّلام قائلا:«من حرق أو غرق-ثمّ سکت علیه السّلام-ثمّ قال:تأویلها الأعظم أنّ دعاها فاستجابت له».

و فحوی قول الإمام الصّادق علیه السّلام فی هذه الروایه هو الإنقاذ من الحریق أو الغرق ثمّ یستطرد الإمام علیه السّلام-بعد سکوت-فیبیّن أن التأویل الأعظم لهذه الآیه هو دعوه الغیر إلی طریق الحق و الخیر أو الباطل و الشر،و تحقق القبول من

الجانب الآخر المخاطب بهذه الدّعوه (۱) .

و السوال الآخر الذی یمکن أن یرد فی هذا المجال أیضا،هو عن سبب ورود اسم بنی إسرائیل بالذات فی هذه الآیه،مع أنّها تشمل حکما لا یخص هذه الطائفه؟ و یمکن القول فی الجواب بأن سبب الإتیان باسم بنی إسرائیل فی هذه الآیه هو أن هذه الطائفه قد شاعت بینها حوادث القتل و إراقه الدماء،و بالأخص ما کان منها ناشئا عن الحسد و حبّ الذات و الأنانیه و حبّ التسلط،و ما زال الذین یتعرضون للقتل علی أیدی هذه الطائفه-فی الوقت الحاضر-هم الأبریاء من الناس غالبا،و لهذا السبب ورد هذا الحکم الإلهی-لأوّل مرّه-فی سیره بنی إسرائیل! و تشیر الآیه فی آخرها-إلی انتهاکات بنی إسرائیل،فتؤکّد أن هذه الطائفه علی الرغم من ظهور الأنبیاء بینهم یحملون الدلائل الواضحه لإرشادهم،إلّا أنّ الکثیر منهم قد نقضوا و انتهکوا القوانین الإلهیه،و اتبعوا سبیل الإسراف فی حیاتهم،حیث تقول الآیه: وَ لَقَدْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُنٰا بِالْبَیِّنٰاتِ ثُمَّ إِنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذٰلِکَ فِی الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ .

و یجدر الانتباه إلی أنّ کلمه«إسراف»لها معان واسعه،تشمل کل تجاوز أو تعد عن الحدود،و لو أنّها تستخدم فی الغالب فی مجال الهبات و النفقات.

ص: ۶۸۰

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،ج ۱،ص ۶۲۰ و قد وردت فی هذا المجال روایات أخری بنفس المضمون.

الآیتان [سوره المائده (۵): الآیات ۳۳ الی ۳۴]

اشاره

إِنَّمٰا جَزٰاءُ اَلَّذِینَ یُحٰارِبُونَ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ یَسْعَوْنَ فِی اَلْأَرْضِ فَسٰاداً أَنْ یُقَتَّلُوا أَوْ یُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَیْدِیهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاٰفٍ أَوْ یُنْفَوْا مِنَ اَلْأَرْضِ ذٰلِکَ لَهُمْ خِزْیٌ فِی اَلدُّنْیٰا وَ لَهُمْ فِی اَلْآخِرَهِ عَذٰابٌ عَظِیمٌ (۳۳) إِلاَّ اَلَّذِینَ تٰابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَیْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۳۴)

سبب النّزول

ورد فی سبب نزول هاتین الآیتین الکریمتین،أنّ جماعه من المشرکین قدموا إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أعلنوا إسلامهم لکنّهم-لعدم تعودهم علی طقس و مناخ المدینه-أصیبوا ببعض الأمراض،فنصحهم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یذهبوا إلی منطقه ذات مناخ جید من الصحراء خارج المدینه،کانت مرتعا لإبل الزکاه،و أجاز لهم الانتفاع بلبن تلک الإبل بما یکفیهم،ففعلوا و تعافوا ممّا کانوا یعانون منه من الأمراض،لکنّهم بدل أن یقدموا الشکر علی صنیع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم معهم،و عمدوا إلی قتل الرعاه المسلمین و التمثیل بهم و سمل عیونهم، و نهبوا إبل الزکاه و ارتدوا عن الإسلام إلی الشرک،فأمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بإلقاء القبض علیهم و القصاص منهم بمثل ما ارتکبوه بحق أولئک الرعاه الأبریاء،و جزاء لهم علی جرائمهم فسملت عیونهم

ص:۶۸۱

و قطعت أوصالهم و قتلوا،لكى يصبحوا عبره لغيرهم فلا تسول لأحد نفسه أن يرتكب مثل هذه الجرائم الوحشيه البشعه،و قد نزلت الآيتان الأخيرتان و هما تبيّنان حكم الإسلام فى هذه الجماعه (۱) .

جزاء مرتكب العدوان:

تكمل الآيه الأولى-من الآيتين الأخيرتين-البحث الذى تناولته الآيات السابقه حول قتل النفس،و تبيّن جزاء و عقاب من يشهر السلاح بوجه المسلمين، و ينهب أموالهم عن طريق التهديد بالقتل أو بارتكاب القتل،فتقول: إِنَّمٰا جَزٰاءُ الَّذِينَ يُحٰارِبُونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسٰاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاٰفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ .

و معنى قطع الأيدى و الأرجل من خلاف هو أن تقطع اليد اليمنى و الرجل اليسرى.

و يجدر الانتباه هنا إلى عدّه أمور،و هى:

۱-إنّ المراد جمله اَلَّذِينَ يُحٰارِبُونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ الوارده فى الآيه-كما تشير إليه أحاديث أهل البيت و يدل عليه سبب نزول الآيه-هو ارتكاب العدوان ضد أرواح أو أموال الناس باستخدام السلاح و التهديد به،سواء كان هذا العدوان من قبل قطاع الطرق خارج المدن أو داخلها،و على هذا الأساس فإن الآيه تشمل أيضا الأشرار الذين يعتقدون على أرواح الناس و أموالهم و نواميسهم.

و الذى يلفت الانتباه فى هذه الآيه هو أنّها اعتبرت العدوان الممارس ضد البشر بمثابه إعلان الحرب و ممارسه العدوان ضد اللّه و رسوله،و هذه النقطه تبيّن بل تثبت مدى اهتمام الإسلام العظيم بحقوق البشر و رعايه أمنهم و سلامتهم.

۲-المراد بقطع اليد أو الرجل-المذكور فى الآيه،و كما أشارت إليه كتب

۱- ۱) -تفسير المنار،الجزء السادس،ص ۳۵۳،و تفسير القرطبى،ج ۳،ص ۲۱۴۵.

الفقه-هو القطع بنفس المقدار الذى ينفذ بحق السارق لدى قطع يده،أى مجرّد قطع أربعه من أصابع اليد أو الرجل (۱) .

۳-هل أنّ العقوبات الأربع المذكوره فى الآيه لها طابع تخييرى؟أى هل أن الحكومه الإسلاميه مخيره فى استخدام أى منهما بحق الفرد الذى تراه يستحق ذلك،أم أن العقوبه يجب أن تتناسب و نوع الجريمه التى ارتكبها الفرد؟أى إذ ارتكب الفرد المحارب جريمه قتل ضد أفراد أبرياء تطبق بحقّه عقوبه الإعدام، و إن ارتكب سرقه عن طريق التهديد بالسلاح تنفذ فيه عقوبه قطع أصابع اليد أو الرجل،و إذا ارتكب الجريمتين معا يكون عقابه الإعدام و الصلب على الأعواد لفتره معينه لكى يعتبر به الناس،و إذا شهر الفرد المحارب السلاح على الناس دون أن يراق أىّ دم أو تتم سرقه شيء يكون عقابه النفى إلى بلد آخر؟ لا شك أنّ الاحتمال الثّانى-و هو تطبيق العقوبه المتناسبه مع الجريمه أقرب إلى الحقيقه،و قد أيد هذا المعنى ما ورد فى أحاديث عن أئمّه أهل البيت عليهم السّلام أيضا (۲) .

و بالرغم من أنّ بعض الأحاديث أشارت إلى أنّ الحكومه الإسلاميه مخيره فى انتخاب أى من العقوبات الأربع الوارده،لكننا-نظرا للأحاديث التى أشرنا إليها قبل قليل-نرى أنّ المراد من التخيير لا يعنى أن تنتخب الحكومه الإسلاميه واحدا من العقوبات المذكوره انتخابا اعتباطيا دون أن تأخذ نوع الجريمه بنظر الإعتبار،حيث من المستبعد كثيرا أن تكون عقوبتا الإعدام و الصلب متساويتين مع عقوبه النفى،أو أن تكونا بمنزله واحده! و يلاحظ هذا الأمر أيضا فى الكثير من القوانين الوضعيه المعاصره بصوره واضحه،حيث تعين عقوبات مختلفه لنوع واحد من الجرائم،و على سبيل المثال

۱- ۱) -كنز العرفان فى فقه القرآن،ج ۲،ص ۳۵۲.

۲- ۲) -نور الثقلين،ج ۱،ص ۶۲۲.

نری أن بعض الجرائم تتراوح عقوبتها بین ۳ سنین إلی ۱۰ سنین من السجن، و القاضی یتعامل فی هذا المجال وفق ما یراه مناسبا لواقع الحال،و لیس وفق ما یشتهیه هو،فتاره یکون المناسب فی الجریمه أن تطبق العقوبه المشدده،و أخری یتناسب معها تخفیف العقوبه،نظرا للظروف المحیطه و الملابسات الوارده فی حاله ارتکاب الجریمه.

و هذا القانون الإسلامی الذی جاء بحق المحاربین،یتفاوت فیه أسلوب العقاب و نوعه مع اختلاف الجریمه التی یرتکبها الفرد المحارب أو الجماعه المحاربه.

و غنی عن القول أنّ العقوبات المشدده التی جاء بها الإسلام لقطاع الطریق تتوضح فلسفتها فی الأهمیه القصوی التی أعارها هذا الدین للدماء البریئه،لکی یحول دون اعتداء الأفراد الأشقیاء الأشرار القتله علی أرواح و أموال و أعراض الناس الأبریاء (۱) .

و فی الختام تشیر الآیه إلی أن هذه العقوبات هی لفضح المجرمین فی الدنیا، و سوف لا یتوقف الأمر علی هذه العقوبات،بل سینالون یوم القیامه عقابا أشد و أقسی حیث تقول الآیه: ذٰلِکَ لَهُمْ خِزْیٌ فِی الدُّنْیٰا وَ لَهُمْ فِی الْآخِرَهِ عَذٰابٌ عَظِیمٌ .

و یستدل من هذه الجمله القرآنیه علی أن العقوبات الإسلامیه الدنیویه التی تنفذ فی المجرمین لن تکون حائلا دون نیلهم لعقاب الآخره،و لکن طریق العوده و التوبه لا یغلق حتی بوجه مجرمین خطیرین کالذین ذکرتهم الآیه إن هم عادوا إلی رشدهم و بادروا إلی إصلاح أنفسهم،و لکی یبقی مجال التعویض عن الأخطاء مفتوحا تقول الآیه الثانیه:

۱- ۱) -إن الأحکام التی تطرقنا إلیها جاءت علی شکل بحث تفسیری ملخص،و تفاصیل هذه الأحکام و شروطها موجود فی کتب الفقه.

إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

.

و الذى يظهر من هذه الآيه هو أنّ العقاب و الحدّ الشرعى يرفعان عن أولئك المجرمين فى حاله انصرافهم طوعا عن ارتكاب الجريمه و ندمهم قبل أن يلقى القبض عليهم فقط.

و بديهى أنّ توبه هؤلاء لا تسقط العقاب عنهم إن كانوا قد ارتكبوا جريمه قتل أو سرقه،إلاّ فى حاله ارتكاب جريمه التهديد بالسلاح فإن العقوبه تسقط إن هم تابوا و ندموا قبل إلقاء القبض عليهم.

و بعباره أخرى فإنّ التوبه فى مثل هذه الجرائم لها تأثير فى ما يخص اللّه فقط،أمّا حق الناس فلا يسقط بالتوبه ما لم يرض صاحب الحق.

و هكذا فإنّ عقاب المحارب يكون أشدّ و أقسى من عقاب السارق أو القاتل العادى،فهو إن تاب نجا من العقوبه التى تشمله لكونه محاربا،لكنه لا يتخلص من عقوبه السرقه و القتل العاديين.

و قد يطرأ هنا سؤال و هو كيف يمكن إثبات التوبه ما دامت هى عمليه قلبيه باطنيه؟ و الجواب هو:أن طرق إثبات التوبه فى هذا المجال كثيره وافره،و أحدها:

أن يشهد عادلان على أنّهما سمعا توبه المجرم فى مكان ما،و أنّه تاب دون أن يرغمه أحد على التوبه،و الآخر:أنّ يغير المجرم أسلوب حياته بشكل تظهر عليه آثار التوبه بجلاء.

الآيه [سوره المائده (۵): آيه ۳۵]

اشاره

يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اِتَّقُوا اَللّهَ وَ اِبْتَغُوا إِلَيْهِ اَلْوَسِيلَهَ وَ جاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۳۵)

التّفسير

اشاره

حقيقه التوسل إلى اللّه:

توجه هذه الآيه الخطاب إلى الأفراد المؤمنين،تتضـمن تكاليف ثلاثه يؤدى الالتزام بها و تطبيقها إلى نيل الفلاح،و هذه التكاليف هى:

۱-إتّباع الحيطه و التقوى،كما تقول الآيه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ... .

۲-إختيار وسيله للتقرب إلى اللّه سبحانه و تعالى،حيث تقول الآيه:

وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَهَ...

.

۳-الجهاد فى سبيل اللّه،إذ تقول الآيه: وَ جاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ... .

و ستكون نتيجه الالتزام بهذه التكاليف الإلهيه و تطبيقها نيل الفلاح،بشـرط تحقق الإسلام و الإيمان فتقول الآيه الكريمه فى هذا المجال: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

إنّ أهم موضوع سـنتناوله بـالبحث فى هـذه الآـيه،هو الـدعوه الموجهه للإنسان المؤمن لاختيار طريقه تؤدى إلى التقرب إلى اللّه سبحانه و تعالى.

ص :۶۸۶

فكلمه«الوسيله»فی الأصل بمعنی نشدان التقرب أو طلب الشیء الذی یؤدی إلی التقرب للغیر عن میل و رغبه،و علی هذا الأساس فإن کلمه«الوسیله» الوارده فی هذه الآیه لها معان کثیره واسعه،فهی تشمل کل عمل أو شیء یؤدی إلی التقرب إلی اللّه سبحانه و تعالی،و أهم الوسائل فی هذا المجال هی الإیمان باللّه و بنبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الجهاد فی سبیل اللّه،و العبادات کالصّلاه و الزکاه و الصوم، و الحج إلی بیت اللّه الحرام و صله الرحم و الإنفاق فی سبیل اللّه سرّا و علانیه و کذلک الأعمال الصالحه-کما

یقول الإمام أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام فی خطبه له وردت فی«نهج البلاغه»منها: «إنّ أفضل ما توسل به المتوسلین إلی اللّه سبحانه و تعالی الإیمان به و برسوله و الجهاد فی سبیله فإنّه ذروه الإسلام و کلمه الإخلاص فإنّها الفطره،و إقامه الصّلاه فإنّها الملّه (۱) ،و إیتاء الزکاه فإنّها فریضه واجبه، و صوم شهر رمضان فإنه جنه من العقاب،و حج البیت و اعتماره فإنهما ینفیان الفقر، و یرحضان (۲) الذنب،و صله الرحم فإنها مثراه (۳) فی المال و منساه (۴) فی الأجل و صدقه السرّ فإنّها تکفر الخطیئه،و صدقه العلانیه فإنّها تدفع میته السوء،و صنائع المعروف فإنّها تقی مصارع الهوان...» (۵) .

کما أن شفاعه الأنبیاء و الأئمّه و الأولیاء الصالحین تقرّب-أیضا-إلی اللّه وفق ما نصر علیه القرآن الکریم،و هی داخله فی المفهوم الواسع لکلمه «الوسیله»-و کذلک إتّباع النّبی و الإمام و السیر علی نهجهما،کل ذلک یوجب التقرب إلی الساحه الإلهیه المقدسه.و حتی عند ما نقسم علی اللّه بمقام الأنبیاء و الأئمّه و الصالحین فأنّه یدلّ علی حبّنا لهم و الاهتمام بالدین الذی دعوا إلیه،هذا

۱- ۱) -الملّه شریعه الإسلام.

۲- ۲) -یرحضان یطهران أو یغسلان.

۳- ۳) -مثراه مکثره.

۴- ۴) -منساه مطیله.

۵- ۵) -نهج البلاغه،الخطبه ۱۱۰.

القسم يعتبر-أيضا-واحدا من المعانى الداخله فى المفهوم الواسع لكلمه «الوسيله».

و الـذين خصـصوا هـذه الآيه و قيـدوها ببعض هـذه المفاهيم لا يمتلكون فى الحقيقه أى دليل على هـذا التخصيص،لأنّ كلمه«الوسيله»تطلق فى اللغه على كل شىء يؤدى إلى التقرب.

و الجدير بالذكر هنا هو أنّ المراد من التوسل لا يعنى-أبدا-طلب شىء من شخص النّبى أو الإمام،بل معناه أن يبادر الإنسان المؤمن-عن طريق الأعمال الصالحه و السير على نهج النّبى و الإمام-بطلب الشفاعه منهم إلى اللّه،أو أن يقسم بجاههم و بدينهم(و هذا يعتبر نوعا من الاحترام لمنزلتهم و هو نوع من العباده) و يطلب من اللّه بذلك حاجته،و ليس فى هذا المعنى أىّ أثر للشرك،كما لا يخالف الآيات القرآنيه الأخرى،و لا يخرج عن عموم الآيه الأخيره موضوع البحث «فتدبّر».

التوسل فى القرآن:

هناك آيات قرآنيه أخرى تدل بوضوح على أنّ التوسل بمقام إنسان صالح عند اللّه،و طلب شىء من اللّه عن طريق التوسل بجاه هذا الإنسان عند اللّه،لا يعتبر أمرا محظورا و لا ينافى التوحيد.

فنحن نقرأ فى الآيه(۶۴)من سوره النساء قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوّاباً رَحِيماً .

كما نقرأ فى الآيه(۹۷)من سوره يوسف،إنّ أخوه يوسف طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم اللّه،فقبل يعقوب هذا الطلب و نفذه.

و الآيه(۱۱۴)من سوره التوبه تشير إلى موضوع استغفار إبراهيم لأبيه، و هذا دليل على تأثير دعاء الأنبياء فى حق الآخرين.

ص :۶۸۸

و قد ورد هذا الموضوع فی آیات قرآنیه أخری أیضا.

التّوسل فی الرّوایات الإسلامیه:

إنّ الروایات العدیده التی وردت عن طرق الشیعه و السنه تفید بوضوح أنّ التوسل بالمعنی الذی عرضناه لا ریب و لا شبهه فیه،بل أنّه یعد عملا جیدا أیضا، و هذه الرّوایات کثیره و قد نقلتها کتب عدیده،و نحن نورد بعضا منها مما ورد فی مصادر جمهور السنّه علی سبیل المثال لا الحصر.

۱-جاء فی کتاب«وفاء الوفا»لمؤلّفه العالم السنّی المشهور«السمهودی»إن طلب العون و الشفاعه من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو التوسل إلی اللّه بجاه النّبی و شخصه جائز قبل أن یولد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بعد ولادته و وفاته و فی عالم البرزخ و فی یوم القیامه،ثمّ ینقل «السمهودی»فی هذا المجال عن عمر بن الخطاب الروایه المعروفه التی تتحدث عن توسل آدم علیه السّلام إلی اللّه بنبی الإسلام محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ذلک لعلم آدم بأنّ هذا النّبی سیأتی إلی الوجود فی المستقبل،و لعلمه بالمنزله العظیمه التی یحظی بها عند اللّه، فیقول آدم:«ربّ إنّی أسألک بحق محمّد لما غفرت لی» (۱) .

ثمّ ینقل«السمهودی»حدیثا آخر عن جماعه من رواه الحدیث کالنسائی و الترمذی،و هما عالمان مشهوران من أهل السنّه،کدلیل علی جواز التوسل بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی حیاته و خلاصه هذا الحدیث إنّ رجلا بصیرا طلب من النّبی أن یدعو له بشفاء مریضه،فأمره النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بتلاوه هذا الدعاء:

«اللّهم إنّی أسألک و أتوجه إلیک بنبیّک محمّد نبیّ الرّحمه یا محمّد إنّی توجهت بک إلی ربّی فی حاجتی لتقضی لی،اللّهم شفعه فیّ» (۲) .

ص :۶۸۹

---

۱ - ۱) -وفاء الوفاء،ج ۳، ص ۱۳۷۱،فی کتاب«التوصل إلی حقیقه التوسل»نقل الحدیث المذکور أعلاه کواحد من دلائل النبوه،ص ۲۱۵.

۲- ۲) -کتاب(وفاء الوفاء)،ص ۱۳۷۲.

و بعد هذا الحديث ینقل«السمهودی»حدیثا ثالثا فی جواز التوسل بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد وفاته،فیذکر أن صاحب حاجه جاء فی زمن عثمان إلی قبر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فجلس بجوار القبر و دعا اللّه بهذا الدعاء:«اللّهم إنّی أسألک و أتوجه إلیک بنبیّنا محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نبی الرحمه،یا محمّد إنّی أتوجه بک إلی ربّک أن تقضی حاجتی».

ثمّ یضیف«السمهودی»إنّه لم تمض فتره حتی قضیت حاجه الرجل (۱) .

۲-أمّا صاحب کتاب«التوصل إلی حقیقه التوسل»الذی یعارض بشده موضوع التوسل فهو ینقل(۲۶)حدیثا من کتب و مصادر مختلفه ینعکس منها جواز التوسل،و مع أنّه سعی فی أن یطعن بإسناد تلک الأحادیث،إلاّ أنّ الواضح هو أنّه متی ما کانت الروایات کثیره-فی موضوع معین لدرجه التواتر-لا یبقی عند ذلک مجال للطعن،و التجریح فی سند الحدیث،و الروایات التی وردت فی المصادر الإسلامیه بشأن التوسل قد تجاوزت حدّ التواتر لکثرتها.

و من هذه الأحادیث التی رواها صاحب الکتاب المذکور،الحدیث التالی:

نقل«ابن حجر المکی»صاحب کتاب«الصواعق»عن الإمام«الشافعی»،و هو أحد أئمّه السنّه الأربعه المشهورین،أنّه کان یتوسل إلی أهل بیت النّبی و یقول:

آل النّبی ذریعتی

و هم إلیه وسیلتی

أرجو بهم أعطی غدا

بید الیمین صحیفتی (۲)

و ینقل صاحب کتاب«التوصل...»أیضا عن(البیهقی)أن الجفاف أصاب المسلمین فی أحد الأعوام من عهد الخلیفه الثّانی،فذهب بلال و معه عدد من الصحابه إلی قبر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قال:«یا رسول اللّه استسق لأمتک...فإنّهم

۱- ۱) -وفاء الوفاء،ص ۱۳۷۳.

۲- ۲) -کتاب«التوصل...»،ص ۳۲۹.

قد هلكوا...» (۱) .

و نقل أيضا عن«ابن حجر»من كتاب«الخيارات الحسان»أنّ الإمام الشافعى كان أثناء وجوده فى بغداد يزور أبا حنيفه و يتوسل إليه فى حوائجه (۲) .

و من صحيح«الدارمى»ينقل صاحب كتاب«التوصل...»أيضا،أن بعض الصحابه فى المدينه اشتكوا إلى عائشه ما يعانونه من الجفاف الشديد الذى أصاب البلده فى أحد الأعوام،فأشارت عليهم أن يفتحوا فجوه فى سقف المسجد على قبر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى ينزل اللّه المطر ببركه قبر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ففعلوا ذلك و نزل مطر غزير! و نقل«الآلوسى»فى تفسيره الكثير من الأحاديث و الروايات الشبيهه بالأحاديث الماره الذكر،و لكنّه بعد إجراء تحليل و نقاش طويل حولها حتى أنّه تشدد فى نقدها اضطر إلى الإذعان بها،فذكر أنّه بعد البحث الذى أجراه لا يرى مانعا من التوسل إلى اللّه بمقام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سواء فى حياته أو بعد وفاته،ثمّ أطال البحث فى هذا المجال،و قال بأنّ التوسل إلى اللّه بمقام غير النّبى لا مانع فيه- أيضا-شريطه أن يكون المتوسل به صاحب منزله عند اللّه (۳) .

أما مصادر الشيعه فقد تناولت هذا الموضوع بشكل واضح،لا نرى معه أى حاجه إلى نقل الأحاديث الوارده بهذا الصدد.

ملاحظات ضروريه:

نرى من الضرورى-هنا-الإشاره إلى عدّه أمور:

ص :۶۹۱

۱- ۱) -كتاب التوصل...،ص ۲۵۳.

۲- ۲) -كتاب التوصل...،ص ۳۳۱.

۳- ۳) -روح المعانى،(ج ۴-۶)،ص ۱۱۴-۱۱۵.

۱-لقد أسلفنا القول بأنّ التوسل ليس معناه طلب الحاجه من النّبى أو الإمام،بل المراد منه جعل النّبى أو الإمام شفيعا إلى اللّه فى قضاء الحاجه،و هذا الأمر-فى الحقيقه-توجه إلى اللّه،لأن احترام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّما هو من أجل أنّه رسول اللّه و السائر على هداه،و العجب هنا أن يدعى البعض أن هذا التوسل نوع من الشرک،فى حين أنّ المعروف عن الشرک هو القول بوجود من يشارک اللّه سبحانه فى صفاته و أعماله،و التوسل الذى تحدثنا عنه لا صله له مطلقا و لا تشابه مع الشرک.

۲-يصرّ البعض وجود الفرق بين حياه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّه المعصومين عليهم السّلام و بين وفاتهم،و كما رأيت فإنّ الكثير من الأحاديث السالفه كان يخص ما بعد وفاه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،بالإضافه إلى ذلک فإن الفرد المسلم يعتقد بأن للنّبى و الصالحين بعد وفاتهم حياه برزخيه أوسع من الحياه الدنيا،و قد صرّح القرآن فى هذا المجال بخصوص حياه الشهداء،حيث أكّد أنّهم ليسوا أمواتا بل أحياء عند ربّهم (۱) ....

۳-و أصرّ آخرون على أنّ هناک فرقا بين طلب الدعاء من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بين القسم على اللّه بجاه النّبى،فهؤلاء يجيزون طلب الدعاء و لا يجيزون ما سواه،فى حين لا يوجد بين هذين الأمرين أى فرق منطقى.

۴-يسعى البعض من كتاب و علماء السنه و بالأخص«الوهابيون»منهم، و بعناد خاص،إلى الادعاء بضعف جميع الأحاديث الوارده فى موضوع التوسل، أو تجاهلها بشتى الحجج الواهيه.

و هؤلاء يبحثون هذا الموضوع بأسلوب خاص يظهر من خلاله لكل ناظر محايد أنّهم اختاروا فى البدايه هذا الإعتقاد لأنفسهم،ثمّ يحاولون-بعد ذلک- فرضه على الرّوايات الإسلاميه و يعمدون بشكل من الأشكال إلى إزاحه كل من يخالف معتقدهم هذا عن طريقهم،و هذا الأسلوب المشوب بالعصبيه و مجافاه

۱- ۱) -آل عمران،۱۶۹.

المنطق لا يقبل به أى باحث منصف مطلقا.

۵-لقد بيّنا أنّ أحاديث التوسل قد وصلت بكثرتها إلى حد التواتر،أى أنّها لوفرتها تغنى الباحث عن التحقيق فى أسانيدها،إضافه إلى ذلك فإنّ من بين هذه الأحاديث الكثير من الروايات و الأحاديث الصحيحه،فلا يبقى بذلك لمن يريد الاعتراض على بعض الأسانيد أى مجال.

۶-و يتبيّن ممّا قلناه سابقا أن لا تناقض بين الروايات التى وردت فى تفسير الآيه الأخيره تلك التى تقول بأن النّبى دعا الناس إلى أن يطلبوا له الوسيله من اللّه،أو ما

جاء عن الإمام على عليه السّلام فى كتاب«الكافى»من أنّه قال: بأنّ(الوسيله) هى أرفع و أسمى منزله فى الجنّه فلا ينافى ما ذكرناه نحن فى تفسير الآيه،لأنّ الوسيله-كما أوضحنا-تشمل كل أنواع التقرب إلى اللّه،و إن تقرب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى اللّه،و كذلك ما قيل عن أرفع منزله فى الجنّه،هما من مصاديق الوسيله.

ص :۶۹۳

الآیتان [سوره المائده (۵): الآیات ۳۶ الی ۳۷]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مٰا فِی اَلْأَرْضِ جَمِیعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِیَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذٰابِ یَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ مٰا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۳۶) یُرِیدُونَ أَنْ یَخْرُجُوا مِنَ اَلنّٰارِ وَ مٰا هُمْ بِخٰارِجِینَ مِنْهٰا وَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُقِیمٌ (۳۷)

التّفسیر

تعقیبا علی الآیه السابقه التی کلّفت المؤمنین بالتقوی و الجهاد و إعداد الوسیله،جاءت الآیتان الأخیرتان و هما تشیران إلی مصیر الکافرین،و تؤکّدان أنّهم مهما بذلوا-حتی لو کان کل ما فی الأرض أو ضعفه-فی سبیل انتقاذ أنفسهم من عذاب یوم القیامه،فلن یقبل منهم ذلک-و أنّهم سینالون العذاب الشدید، فتقول الآیه الکریمه فی هذا المجال: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مٰا فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِیَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذٰابِ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ مٰا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ .

و قد وردت بنفس المضمون آیه أخری و هی الآیه(۴۷)من سوره الرعد.

و یبیّن هذا الأسلوب القرآنی أقصی درجات التأکید فیما یخص العقوبات الإلهیه التی لا یمکن-مطلقا-التخلص منها بأی ثروه أو قدره مهما بلغت،و حتی

لو شملت جميع ما فی الأرض أو ضعف ذلک،و إن طريق الخلاص الوحيد يمكن-فقط-فی اتّباع التقوی و الجهاد فی سبيل اللّه و القيام بالأعمال الصالحه.

بعد ذلک تشير الآيه التاليه إلی استمرار عذاب اللّه،و توضح أنّ الكافرين مهما سعوا للخروج من نار جهنم فلن يقدروا علی ذلک،و إنّ عذابهم ثابت و باق لا يتغير،كما تقول الآيه: يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النّارِ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ .

و سنوافيكم بتفاصيل أكثر عن العقوبه الدائمه الأبديه،و عن خلود الكفار فی نار جهنم،لدی تفسير الآيه(١٠٨)من سوره هود،بإذن اللّه.

ص: ٦٩٥

الآيات [سوره المائده (۵): الآيات ۳۸ الی ۴۰]

اشاره

وَ اَلسّٰارِقُ وَ اَلسّٰارِقَهُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمٰا جَزٰاءً بِمٰا كَسَبٰا نَكٰالاً مِنَ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۳۸) فَمَنْ تٰابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اَللّٰهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۹) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اَللّٰهَ لَهُ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۰)

التّفسير

اشاره

عقوبه السّرقه:

لقد بيّنت آيات سابقه عقاب و حكم«المحارب»الذى يتعرض لأرواح و أموال و نواميس الناس عن طريق التهديد بالسلاح،أمّا الآيات الثلاث الأخيره فهى تبيّن حكم السارق و السارقه أى الفرد الذى يسرق خلسه أموال و ممتلكات الناس،فتقول الآيه أوّلا: وَ السّٰارِقُ وَ السّٰارِقَهُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمٰا... .

و قد قدمت هذه الآيه الرجل السارق على المرأه السارقه،بينما الآيه التى ذكرت حد و عقوبه الزنا قد قدمت المرأه الزانيه على الرجل الزانى،و لعل هذا التفاوت ناشئ عن حقيقه أن السرقه غالبا ما تصدر عن الرجال،بينما النساء الخليعات المستهترات يشكلن فى الغالب العامل و العنصر المحفز للزنا!

بعد ذلک تبیّن الآیه أنّ العقوبه المذکوره هی جزاء من اللّه لجریمه السرقه المرتکبه من قبل الرجل أو المرأه،حیث تقول: جَزٰاءً بِمٰا کَسَبٰا نَکٰالاً مِنَ اللّٰهِ... .

و الحقیقه هی أنّ هذه الجمله القرآنیه تشیر.

أوّلا:إلی أنّ العقوبه المذکوره نتیجه لعمل الشخص السارق أو السارقه و أنّها شیء اکتسبه هو أو هی لنفسها.

و ثانیا:إلی أنّ الهدف من تنفیذ هذه العقوبه هو وقایه المجتمع و تحقیق الحق و العدل فیه لأنّ کلمه«نکال»تعنی العقوبه التی تنفذ لتحقیق الوقایه و ترک المعصیه،و هذه الکلمه تعنی فی الأصل«اللجام»و تطلق أیضا علی کل عمل یحول دون حصول الانحراف.

و لکی لا یتوهم الناس وجود الإجحاف فی هذه العقوبه، تؤکّد الآیه-فی آخرها-علی أن اللّه عزیز،أی قادر علی کل شیء،فلا حاجه له للانتقام من الأفراد،و هو حکیم-أیضا-و لا یمکن أن یعاقب الأفراد دون وجود مبرر أو حساب لذلک،حیث تقول الآیه: وَ اللّٰهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ .

أمّا الآیه الثانیه فهی تفتح لمن ارتکب هذه المعصیه باب العوده و التوبه، فتقول: فَمَنْ تٰابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللّٰهَ یَتُوبُ عَلَیْهِ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ .

و السؤال الوارد هنا هو:هل أنّ التوبه وحدها تکفی لغفران الذنب فقط،أم أنّها تسقط عنه حد أو عقوبه السرقه أیضا؟ إنّ المعروف لدی فقهاء الشیعه أنّ مرتکب السرقه إن تاب قبل أن تثبت سرقته فی محکمه إسلامیه یسقط عنه حدّ السرقه أیضا،أمّا إذا شهد عادلان علی سرقته فإن التوبه لا تسقط عنه الحدّ.

و الحقیقه هی أنّ التوبه-فی هذه الحاله التی تطرقت لها الآیه-هی تلک التی تتمّ قبل ثبوت الجرم فی المحکمه،و لو لا ذلک لتظاهر کل سارق بالتوبه لدی

ثبوت الجرم علیه،بغیه إنقاذ نفسه من الحدّ أو العقوبه،فلا یبقی-و الحاله هذه- مبرر لإجراء الحدّ علیه بعد التوبه! و بعباره أخری:إنّ التوبه الاختیاریه هی تلک التی تتمّ قبل أن یثبت الجرم فی المحکمه بینما التوبه الاضطراریه هی التوبه التی تصدر من الإنسان العاصی لدی مشاهدته العذاب الإلهی،أو لدی بلوغه حاله الاحتضار،و مثل هذه التوبه لا قیمه لها مطلقا.

ثمّ توجه الآیه الأخری الخطاب إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فتقول: أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ لَهُ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ یُعَذِّبُ مَنْ یَشٰاءُ وَ یَغْفِرُ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ اللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ .

و یجدر الانتباه هنا إلی عدّه نقاط،و هی:

أ-شروط معاقبه السارق:

لقد بیّن القرآن الکریم فی الآیات الأخیره التی تطرقت لحکم السرقه أساس للقضیه،علی عادته بالنسبه لسائر الأحکام،و قد ترک التفصیل فی ذلک إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و الذی یستدل من مجموع الروایات الإسلامیه هو أن تنفید هذا الحد الإسلامی(أی قطع الید)مقید بشروط کثیره،لا یجوز-بدون تحققها-المباشره بإجراء الحدّ،و من هذه الشروط.

۱-أن یکون الحدّ الأدنی لثمن الشیء المسروق مبلغ ربع دینار (۱) .

۲-أن تتمّ السرقه من مکان محفوظ،أی أن تکون من دار أو محل للکسب أو من جیوب و مخابئ داخلیه.

۳-أن لا تکون السرقه فی زمن الجفاف أو المجاعه التی یعانی الناس فیها

۱- ۱) -الدینار الوارد فی هذا الحکم یبلغ مثقالا شرعیا من الذهب المسکوک و یعادل ثمانیه عشر حبه أی ثلاثه أرباع المثقال المتعارف.

من الجوع لعدم حصولهم على المواد الغذائيه.

۴-أن يكون السارق-أثناء ارتكابه لجريمه السرقه-بالغا عاقلا حر الإراده.

۵-لا يطبق حدّ السرقه فى حاله سرقه الأب من مال ولده،أو الشريک من مال شريکه المخصوص بالشرکه.

۶-و قد استثنيت الفاکهه المسروقه من البساتين من حدّ السرقه.

٧-کما استثنيت من ذلک حاله اشتباه السارق بين ماله و مال غيره.

و هناک شروط أخرى تطرقت إليها کتب الفقه فى باب السرقه.

و يجب هنا التأکيد على أنّ السرقه حرام سواء تحققت الشروط المذکوره أعلاه فيها أو لم تتحقق،و أما هذه الشروط فهى مختصه بموضوع الحدّ و العقوبه الخاصّه بالسرقه.

و السّرقه بأى شکل حصلت،و مهما کان مبلغ و ثمن الشىء المسروق،حرام فى الإسلام.

ب-المقدار الذى يجب قطعه من يد السّارق:

لقد اشتهر لدى فقهاء الشيعه-استنادا على روايات أهل البيت عليهم السّلام- أنّ حدّ السرقه يتحقق بقطع أربع من أصابع يد السارق اليمنى فقط دون زياده،بينما قال فقهاء السنّه بأکثر من ذلک.

ج-حدّ السرقه و أقاويل اعداء الإسلام:

کثيرا ما کرر أعداء الإسلام أو حتى بعض المسلمين من الذين يجهلون أسرار التشريع الإسلامى،أنّ هذه العقوبه الإسلاميه تتسم بالعنف الشديد،و أنّها لو نفذت فى عصرنا الحاضر للزم أن تقطع أيدى الکثير من الناس،و إن هذا

سیؤدی بالإضافه إلی حرمان أفراد من أحد أعضاء جسمهم الحساسه سیؤدی إلی فضیحه الفرد طیله حیاته بسبب الأثر البارز الذی یخلفه حد السرقه مدی العمر.

و للردّ علی هذا الاعتراض یجب الانتباه إلی الحقیقه التالیه:

أوّلا:لقد بیّنا فیما سبق أن حکم السرقه-وفق الشروط التی ذکرناها-لا یشمل کل سارق،فهذا الحکم یشمل فقط تلک المجموعه من السراق الذین یشکلون خطرا علی المجتمع.

ثانیا:إنّ احتمال تنفیذ عقوبه السرقه یقل نظرا للشروط الخاصّه التی یجب توفرها حتی تثبت الجریمه علی المتهم بالسرقه.

ثانیا:إنّ أکثر الاعتراضات التی یوردها الأفراد الذین یجهلون أو الذین لا یعرفون الکثیر عن القوانین الإسلامیه،منشؤها النظره الآحادیه الجانب التی یرون و یبحثون بها الحکم الإسلامی بعیدا عن الأحکام الأخری،أی أنّهم یفترضون هذا الحکم فی مجتمع بعید کل البعد عن الإسلام.

فلو علمنا أنّ الإسلام لیس حکما واحدا فقط،بل یشتمل علی مجموعه کبیره من الأحکام لو طبقت فی مجتمع معین لأدت إلی تحقیق العداله الاجتماعیه و مکافحه الفقر و الجهل،و لأدت إلی تحقیق التعلیم و التربیه الصحیحین،و لنشرت الوعی و الورع و التقوی بین الناس،و بهذا یتّضح لنا ندره احتمال بروز حوادث تحتاج إلی تطبیق هذا الحکم أو العقوبه الإسلامیه.

و یجب أن لا یجرنا هذا القول إلی الوهم بأنّ هذا الحکم الإسلامی لا یجب تطبیقه فی المجتمعات المعاصره،بل المراد من قولنا هذا هو أن تؤخذ کل الشروط المذکوره بنظر الإعتبار أثناء إصدار الحکم فی هذا المجال.

و خلاصه القول:إنّ الحکومه الإسلامیه مکلّفه بأن توفر لکل أفراد الأمّه احتیاجاتها الأولیه و أن توفر لهم التعلیم اللازم،و تربی فیهم الملکات و الخصال

الفاضـله الخيره،و تحسن إعـدادهم من النـاحيه الأخلاـقيه،و طبيعى أنّه إذا حصـل هـذا الأـمر فلا يظهر فى محيط كهـذا إلاّ القليل النادر ممن يرتكبون مخالفه أو جريمه.

رابعا:إنّ ما نلاحظه اليوم من ارتفاع فى عدد السرقات ناجم عن عدم تطبيق هذا الحكم الإسلامى،بينما يندر فى البيئات التى تطبق هـذا الحكم بروز مثـل هـذه الحوادث،فهى تتمتع بوضع أمنى جيـد فيما يخص حمايه أموال الناس،فزوار بيت اللّه الحرام كثيرا ما تركوا حقائبهم فى الأزقه و الطرقات دون عين تحرسـها فلم يجرأ أحـد على مـد يده إليها الى أن يأتى موظفو اداره المفقودات و يحملوها الى الاداره حتى يأتى صاحبها و يستردها بعـد ذكر العلامات الخاصّه،و أغلب المحلات تفتقـد إلى الأبواب و الأوصـده الكافيه،و فى هذا الحال لا تمتد يد سارق نحوها.أو يكونوا فقدوا شيئا ثمّ راجعوا لذلك إداره المفقودات فوجده عندها.

و الأمر الملفت للنظر هو أن هـذا الحكم الإسـلامى و على الرغم من تطبيقه لعـدّه قرون،حيث كان المسـلمون و منـذ عصـر صدر الإسلام يعيشون آمنين مطمئنين فى ظله،فهو لم ينفذ طيله تلك الفتره إلاّ بحق عدد قليل من الأفراد.

فهل يعتبر قطع عدد من الأيدى الآثمه لكى ينعم المجتمع لقرون عديده بالأمن ثمنا غاليا لهذا الأمن؟!

د-اعتراضات أخرى:

يقول البعض:إنّ تنفيـذ حدّ أو عقوبه السـرقه فى سارق من أجل ربع دينار يعتبر منافيا للاحترام الفائق الذى يفرضه الإسـلام لحياه الإنسـان المسـلم و حمايتهـا من كـل خطر، بحيث أنّ الإسـلام فرض ديه بـاهظه مقابـل قطع أربعه أصـابع من يـد أى إنسان،و قد ذكرت بعض كتب التاريـخ بأن هذا السؤال وجهه البعض إلى العالم الإسـلامى الكبير الشـريف المرتضـى علم الهدى قبل حوالى ألف

سنه،و جاء السؤال فی البیت التالی:- ید بخمس مئین عسجد ودیت ما بالها قطعت فی ربع دینار؟ (۱) فأجاب السّید المرتضی رحمه اللّه ببیت آخر هو:

عزّ الأمانه أغلاها و أرخصها

ذل الخیانه فافهم حکمه الباری (۲)

ص: ۷۰۲

---

۱ – ۱) -یجب الانتباه إلی أن الخمسمائه دینار إنّما تدفع دیه قطع خمسه أصابع،و قد أسلفنا أن المذهب الشیعی یری عقوبه السارق فی قطع أربعه أصابع من الید.

۲ – ۲) -ذکر هذه الحادثه(الآلوسی»فی تفسیره،ج ۳،ص ۶،لکنّه ذکر اسم(علم الدین السخاوی)بدل اسم(علم الهدی).

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مركز القائمیة للدراسات الکمبیوترية فی أصفهان بإشراف آیة الله الحاج السید حسن فقیه الإمامی عام ۱۴۲۶ الهجری فی المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثرها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.

وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوی تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبیّ علیهم السلام

تحفيز الناس خصوصا الشباب على دراسة أدقّ في المسائل الدينية

تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثين والمحققين في الحوازت العلمية والجامعات

توسيع عام لفكرة المطالعة

تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة

العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فی مطالعة الکتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمية الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسة وتطبيقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

١.JAVA

٢.ANDROID

٣.EPUB

٤.CHM

٥.PDF

٦.HTML

٧.CHM

٨.GHB

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

١.ANDROID

٢.IOS

٣.WINDOWS PHONE

٤.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ ـ ٠٢١

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.